

فِئَاطِرُ الْحَيَاتِ

تأليف

الإمام الفقيه أبو طاهر إسماعيل بن موسى
الجعفي طاب الله ثراه
من علماء النصف الأول من القرن الثامن

تحقيق

سيد كسروي حسن خلاف محمود عبد السميع

المجلد الثالث

منشورات

مركز بحوث ودراسات

لشهر محرم سنة 1435 هـ

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

فِئَاطِرُ الْخَيْرَاتِ

تَأَلَّفَ

الإمام الفقيه أبي طاهر إسماعيل بن موسى

البحراني النيسابوري

من علماء النصف الأول من القرن الثامن

تَحْقِيقَ

سيد كسروي حسن خلاف محمود عبد السميع

الجزء الثالث

منشورات

مركز أبي براهيم

لشركت الشريعة وجمعياتها

دار الكتب العلمية

بهرودت - لبنان



جميع الحقوق محفوظة

Copyright ©
All rights reserved
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة
لدارالكتب العلمية بيروت - لبنان
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة
تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزئاً أو تسجيله على
أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو
برمجته على اسطوانات ضوئية إلا بموافقة
الناشر خطياً.

Exclusive Rights by

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

Droits Exclusifs à

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Beyrouth - Liban.

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée de l'éditeur.

الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

دارالكتب العلمية

بيروت - لبنان

رمل الطويه، شارع البحري، نهاية ملكات
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٨ - ٣٦١٣٥ - ٣٧٨٤٤ (٩١١ ١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ - بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beirut - Lebanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel & Fax: 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box: 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah

Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ère Étage
Tel & Fax: 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P.: 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2 - 7451 - 2289 - 4



<http://www.al-ilmiyah.com/>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[٢]

/ القنطرة الحادية عشر قنطرة النفس

وبالله التوفيق، قال الله سبحانه حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا أَبْرَىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾^(١) الآية. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «أعدى عدوك: نفسك التي بين جنبيك، ثم أهلك، ثم عيالك»^(٢).

وروي أن أعرابية دعت لرجل فقالت: كبت^(٣) الله كل عدو لك إلا نفسك، فأخذ بعض الشعراء فقال:

قلبي إلى ما ضرني داعي يكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي إذا كان عدوي بين أضلاعي

فإذا كانت النفس أضرم أعداء الإنسان، وبلاؤها عليه أشد بلاء يجري به الزمان، فحقيق على الإنسان أن يشتغل بمعالجتها وقمعها عن الانهماك في شهواتها، وأن يسيء الظن بها في جميع حالاتها؛ لأن جنس الظن / بها ذريعة إلى تحكيمها، وتحكيمها داع إلى سلاطتها، [٣] وفساد الأخلاق بها.

وقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: العاجز من عجز عن سياسة

نفسه.

(١) سورة يوسف الآية: ٥٣.

(٢) قال الحافظ العراقي في المعني: رواه البيهقي في كتاب الزهد من حديث ابن عباس وفيه محمد بن عبد الرحمن بن غزوان أحد الوضاعين.

(٣) في الأصل: كتب. وأحسبه تصحيف لسهو الناسخ.

وقال بعض الحكماء: من ساس نفسه، ساد ناسه. وقال النبي عليه السلام: «الشديد من غلب نفسه»^(١).

وعن عون بن عبد الله أنه قال: «إذا عصتكَ نفسك فيما كرهت، فلا تطعها فيما أحببت، ولا يغرنك ثناء من جهل أمرك، فيلزم الإنسان أن يشتغل بعلاج نفسه؛ لأن داءها أعضل الداء، ودواؤها أشكل الدواء، وإنما ذلك لأمرين:

أحدهما: أنه عدو من داخل، واللص إذا كان من داخل صعبت الحيلة فيه، وعظم الضرر منه. وقد قال النيسابوري:

ما حيلة الريح إذا من داخل هبت وفلك أوتيت من ساحل

والثاني: أنه عدو محبوب، والإنسان أعمى من عيب محبوبه لا يكاد يبصره، وقد قال النبي عليه السلام: «حبك الشيء يُعمي ويَصُم»^(٢). كما قال الشاعر:

فمين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

فإذا استحسّن الإنسان من نفسه كل قبيح، ولا يكاد يطلع لها على عيب يندسها، فإذا كان كذلك، فما أوشك أن توقعه في فضيحة وهلاك وهو لا يشعر إلا أن عصمه الله برحمته، وإنما كانت أشد الأعداء؛ لأنها لا يمكن التجرد عنها، ولا أن يقهرها بمرّة فيشتغل بغيرها لأنها مطيته التي يقطع بها مسافة العمر، ولا مطعم له في الموافقة على الطاعة والخير؛ لأنها مجبولة على اتباع الشهوة التي هي معدة كل شيء. فحياة الإنسان مقرونة بحياتها، وموته متعلقة بموتها، كما قال القائل:

ولقد هممت بقتلها من أجلها كيما تكون خصيمتي في المحشر

ثم ارتجعت فقلت روعي روحها فإذا هممت بقتلها لم أقدر

[٤] فلما كان حال النفس هكذا كان الإنسان محتاجاً إلى أن يلجئها بلجام التقوى، / لتبقى له فلا تنقطع، وتتقاد فلا تطنخ وتمرح، فيستعملها في المصالح والمراشد، ويجنبها طرق المهالك والمفاسد؛ لأن هذه النفس دابة جموح ومطية صعبة، إن أسرفت عليها في التأديب

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥/٨).

(٢) أطرافه عند: أبي داود في السنن (٥١٣٠)، أحمد في المسند (١٩٤/٥)، (٤٥٠/٦) التبريزي في مشكاة المصابيح (٤٩٠٨)، الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (١١٧/٣) وقال العراقي في المغني (٣١/٣) رواه أبو داود من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف.

أهلكتها وأهلكت نفسك وإن أهملتها أضرت بك وصرعتك، فحتاج إلى طريقة بين طريقتين: تربية وتغذية بقدر ما تحتمل من فعل خير وترك شر، فأنت من أمرها في علاج شديد ونظر لطيف.

فإن قيل: فما الحيلة في تذليل هذه الدابة حتى تنقاد بلجام التقوى؟ فاعلم أن العلماء قالوا: إنما تذلل النفس ويكسر هواها بثلاثة أشياء:

أحدها: منع الشهوات بالصوم وغيره فإن الدابة الحرون، تلين إذا نقص من علفها ولذلك قال عليه السلام: «معاشر الشباب من استطاع منكم الباء فليتزوج ومن لم يستطع فليصم؛ فإن الصوم له وجاء»^(١). يعني خصاء والمعنى في ذلك أن الصوم يضعف النفس ويكسر شهواتها.

والثاني: حمل أثقال العبادة فإن الحمار إذا زيد في حمله مع نقصان علفه تذلل وانقاد.

الثالث: الاستعانة بالله والتضرع إليه أن يعينك، وإلا فلا مخلص لك من شرها. أما تسمع قول الصديق عليه السلام: ﴿وَمَا أُبْرِيءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَكْمَارَةٌ، بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾^(٢) فإذا واضبت على هذه الأمور الثلاثة انقادت لك النفس الجموح، بإذن الله تعالى فحيتيذ تبادر أن تلجمها وتملك أمرها وتأمين من شرها.

فإن قيل: فبين الآن ما هي^(٣) التقوى، حتى نعلمها^(٤)؟ فاعلم أن العلماء قالوا: التقوى تربة القلب عن ذنب لم يسبق عندك مثله، حتى تجعل للعبد^(٥) من قوة العزم على تركها وقاية بينه وبين المعاصي؛ وذلك لأن أصل لفظة التقوى في اللغة هو الوقاء بالواو، وهو مصدر وقى يقى وقاية ووقوا فأبدلت الواو ياء كما في الوكلان والتكلمان ونحوها فقالوا: تقوى فإذا لما حصلت وقاية بين العبد وبين المعاصي / من قوة عزمه على تركها، وتوطين قلبه على ذلك [٥] فيوصف^(٦) بأنه متق، ويقال لذلك: التنزيه والعزم والتوطن تقوى.

- (١) قال الحافظ العراقي في معنى هذا الحديث: متفق عليه من حديث ابن مسعود «من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لا فليصم فإن الصوم له وجاء».
- (٢) سورة يوسف الآية: ٥٣.
- (٣) في الأصل: هو.
- (٤) في الأصل: تعلمه.
- (٥) في الأصل: العبد.
- (٦) جاء بعدها في الأصل حرف (ح) ووضع فوقه علامة (ص) أي هكذا بالأصل المنقول عنه فحذفها من السياق وأثبتها هنا بالهامش.

والتقوى: أصل جامع لخير الدنيا والآخرة وهي وصية الله الذي هو أرحم الراحمين وأنصح الناصحين لعبادة الأولين والآخرين قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾^(١).

ولو كانت في العلم خصلة هي أصلح للعبد وأجمع للخير وأعظم في الأجر وأعظم في القدر من هذه الخصلة التي هي التقوى لكان الله سبحانه أمر عباده بها وأوصى^(٢) خواصه بذلك لكمال حكيمته ورحمته وكان خيرات الدنيا والآخرة جمعت فجعلت تحت هذه الخصلة الواحدة التي هي التقوى.

وتأمل ما في القرآن من ذكرها، كم علق بها من خير، وكم وعد عليها من ثواب، وكم أضاف إليها من سعادة يطول ذكر ذلك، وكفي في قول الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَسْقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الدُّنْيَا وَفِي الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ﴾^(٣) الآية. ثم الذي يخص هذا الشأن من أمر العبادة ثلاثة أصول:

أحدها: التوفيق والتأييد.

أولاً: وهو التوفيق كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾^(٤) الآية.

الثاني: إصلاح العمل وتمام التصدير وهو للمتمقين كما قال الله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾^(٥) الآية.

والثالث: قبول العمل وهو للمتمقين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٦).

ومدار العبادة على هذه الأمور الثلاثة: التوفيق أولاً حتى يعمل، ثم الإصلاح للتقصير حتى يتم، ثم القبول إذا تم، وهذه الثلاثة من أجلها يتفرغ العابدون إلى الله تعالى. ويسألون ويقولون: ربنا، وفقنا لطاعتك، وأتمم تقصيرنا، وتقبل منا، وقد وعد الله ذلك للمتمقين سألوا [٦] أو لم يسألوا إلى سائر ما وعد لهم من أصناف الخيرات. / وأنا أذكر بعضها لتستدل بها على جملتها منها.

(١) سورة النساء الآية: ١٣١.

(٢) جاء بعدها لفظ: «بها» وهو زائد على السياق فحذفته.

(٣) سورة يونس الآيات: ٦٢، ٦٣، ٦٤.

(٤) سورة النحل الآية: ١٢٨.

(٥) سورة الأحزاب الآيات: ٧٠، ٧١.

(٦) سورة المائدة الآية: ٢٧.

الممدحة والثناء: قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(١) الآية.

ومنها: الحفظ والحراسة من الأعداء. قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾^(٢).

ومنها: النجاة من الشدائد، والرزق من الحلال: قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾^(٣).

ومنها: المغفرة: قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَعْتَفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾^(٤) الآية.

ومنها: محبة الله تعالى: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(٥).

ومنها: الإكرام والإعزاز: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٦) ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(٧) ومنها: البشارة عند الموت: قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(٨).

ومنها: النجاة من النار: قال الله تعالى: ﴿مَنْ نَجَّيَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾^(٩). ومنها: الخلود في الجنة: قال الله تعالى: ﴿أَكْلَهَا دَائِماً وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾^(١٠). وبالجملة إن كل خير وسعادة في الدارين تحت هذه التقوى رزقنا الله منها أوفر حظ ونصيب.

فصل: في ذم النفس وإلجامها بلجام التقوى

قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾^(١١). قال بعض السلف: النفس

(١) سورة آل عمران الآية: ١٨٦.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٢٠.

(٣) سورة الطلاق الآيات: ٢، ٣.

(٤) سورة الأحزاب الآيات: ٧٠، ٧١.

(٥) سورة التوبة الآية: ٤.

(٦) سورة الحجرات الآية: ١٣.

(٧) سورة الجاثية الآية: ١٩.

(٨) سورة يونس الآيات: ٦٣، ٦٤.

(٩) سورة مريم الآية: ٧٢.

(١٠) سورة الرعد الآية: ٣٥.

(١١) سورة القيامة الآية: ٢.

الأمانة بالسوء هي الداعية إلى الهلاك، المعينة للأعداء، المتبعة للهوى، المتمتعة بأنواع الأسواء.

وقيل لبعض العلماء: متى يصير داء النفس دواؤها؟ فقال: إذا خالفت هواها.

وقال بعض العلماء: النعمة العظمى الخروج من النفس؛ لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله.

وتأمل أصلحك الله نكته واحدة في النفس تمنعك، وهي أنك إذا نظرت وجدت أصل كل قبيحة، وخزي، وفضيحة، وهلاك وفتنة وقعت في الخلق من أول الدنيا إلى آخرها إنما جاء من قبل هذه النفس. إما بها وحدها أو بمعونتها ومشاركتها ومساعدتها، فأول المعصية لله، إنما كانت من إبليس اللعين، وكان سببه بعد القضاء السابق هو النفس بكبرها وحسدها [٧] ألقته بعد عبادة ستة آلاف سنة وقيل: ثمانين ألف / سنة فيما ذكر في الكتاب، فألقته في بحر الضلال أبد الآبدين إذ لم تكن هناك دنيا ولا شيطان؛ بل كانت النفس بكبرها وحسدها فعملت ما عملت، ثم ذنب آدم وحواء عليهما السلام طرحتهما شهوة النفس في ذلك، وحرصها على البقاء والحياة حتى اغتر بقول إبليس، فكان ذلك بعون النفس وشركتها حتى خرجت من جوار الله تعالى وقرار الفردوس إلى هذه الدنيا الحقيرة النكدة الفانية المهلكة، ولقي أولاده ما لقوا من ذلك اليوم إلى الآخرة

ثم حديث قابيل وهابيل كان سببه الحسد والشح، ثم هلم جرّه إلى يوم القيامة، فلا نجد في الخلق فتنة، ولا فضيحة ولا ضلالاً ولا معصية، إلا وأصلها النفس وهواها، وإلا كان الخلق في سلامة وخير.

فصل: في التقوى

وقد تقدم معناها والجمام النفس بلجام التقوى ولكن نشير إلى طرف من فضلها ومدحه المتصف بها وفي الحديث جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله أوصيني. قال: «عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله فإنه نور لك»^(١).

(١) أطراف الحديث عند: الطبراني في الصغير (٦٦/٢)، السيوطي في الدر المنثور (٩٩/٦)، المتقي في الكثر (٤٣٤٣٧)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٢١٥/٤)، (٣٠١/١٠).

وعن بعضهم قال: سمعت ابن عطاء يقول: للتقوى ظاهر وباطن، فظاهرها^(١) محافظة الحدود، وباطنها^(٢) النية والإخلاص.

وعن بتادة قال: مكتوب في التوراة يا ابن آدم اتق الله ونم حيث شئت. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما أعجب رسول الله ﷺ شيء من الدنيا، ولا يعجبه إلا ذو تقى.

وتأمل نكتة واحدة في فضل التقوى وهي: هب أنك جاهدت في العبادة طول عمرك، حتى حصل لك ما تمنيت، أليس الشأن كله في القبول؟ وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾^(٣). فرجع الأمر كله إلى التقوى فعليك يا أخي بهذه التقوى إن أردت عبادة الله، بل أردت سعادة الدنيا وكرامة الآخرة. ولقد صدق القائل:

من اتقى الله فذاك النذي سيق إلى المتجر الرابع

/ آخر:

[٨]

ما يصنع العبد بعز الغنى والعز كل العز للمتقى

من عرف الله فلم تغنه معرفة الله فذاك الشقي

وعن علي بن أبي طالب أنه قال: سادات الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء. وينشد:

ما بال من أوله نطفة وجيفة آخره يفخر

لا فخر إلا فخر أهل التقى غداً إذا ضمهم المحشر

فإن قيل: فقد عظمت التقوى غاية الإعظام حتى عظم موقعها، ومست الحاجة إلى علمها والعمل بها، فبين لنا تفصيلها؟

فاعلم أنها لعمر الله أمر عظيم وخبر جسيم، ولكنك تعلم أن كل خطير وكبير يحتاج في اجتلابه إلى طلب كثير، وتعب كثير، وجهد شديد، وهمة عالية، ونفس عن دناءة الأخلاق آية؛ لأن من طلب عظيماً خاطر بعظيمة، وإن المكارم على حسب احتمال المكاره، والله در القائل:

(١) في الأصل: فظاهره.

(٢) في الأصل: وباطنه.

(٣) سورة المائدة الآية: ٢٧.

لا تحسب المجد تمر أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبر
لا يدرك العلم بطّال ولا كسل ولا ملول ولا يلقاه من نظر
وليس يدركه إلا فسى يقظ قد كابد الجد والدؤب والسهر

اعلم أن التقوى في اللغة قد تقدم معناها، وأما في القرآن فإنها تنطلق على ثلاثة أشياء:

إحداها: معنى الخشية والهيبة، قال الله تعالى: ﴿وَلِيَأَيَّ فَاتَّقُونَ﴾^(١). ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾^(٢).

والثاني: بمعنى الطاعة والعبادة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾^(٣) الآية. عن ابن عباس: أطيعوا الله حق طاعته. قال مجاهد: هو أن يطاع ولا يعصى، وأن يذكر ولا ينسى، وأن يشكر ولا يكفر.

والثالث: بمعنى تنزيه القلب عن الذنوب، وهذه هي الحقيقة في التقوى؛ لأن محل التقوى القلب، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(٤). قال بعض العلماء: يستدل على [٩] تقوى / الرجل بثلاثة: بحسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضى فيما قد نال، وحسن الصبر على ما فات. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَتَخَشَّ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْقَائِمُونَ﴾^(٥).

ذكر الطاعة والخشية، ثم ذكر التقوى، فبين أن حقيقة التقوى معنى سوى الطاعة والخشية وهو تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق منك مثله. ثم قال^(٦) العلماء: منازل التقوى ثلاثة: تقوى عن الشرك، وتقوى عن البدعة، وتقوى عن المعاصي الفرعية.

قالوا: وقد أشار القرآن إلى هذه المنازل الثلاث. قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا﴾^(٧).

(١) سورة البقرة الآية: ٤١.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٨١.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٠٢.

(٤) سورة الحج الآية: ٣٢.

(٥) سورة النور الآية: ٥٢.

(٦) في الأصل: قالت.

(٧) سورة المائدة الآية: ٩٣.

التقوى الأولى: عن الشرك، فالإيمان في مقابلة التوحيد.
 والتقوى الثانية: عن البدعة، والإيمان الذي ذكر معها إقرار لمخالفتها.
 والتقوى الثالثة: عن المعاصي الفرعية، ولا إقرار في هذه المنزل، فقابلها بالإحسان وهو
 الطاعة فالآية جمعت المنازل الثلاثة.

وقد ورد في الحديث أيضاً: أن التقوى بمعنى اجتناب فضول الحلال، وذلك قوله عليه
 السلام: «إنما سمي المتقون متقين لتركهم ما لا بأس فيه مخافة ما فيه البأس». فالتقوى على
 هذا المعنى هو اجتناب كل ما تخاف منه ضرراً في دينك وذلك قسماً: ومحض الحرام
 والمعصية، وفضول الحلال؛ لأن الانهماك في الحلال يفضي بصاحبه إلى العصيان، وذلك
 لشَرِّه النفس وطغيان الهوى، فمن أراد أن يأمن في دينه الضرر اجتنب كل ما فيه الخطر، وامتنع
 من فضول الحلال حذراً إن يجره إلى محض الحرام على ما قاله عليه السلام: «لتركهم ما لا
 بأس به حذراً عما به البأس»، يعني لتركهم فضول الحلال حذراً من الوقوع في الحرام، فالتقوى
 الجامعة البالغة اجتناب / كل ما فيه ضرر لأمر الدين وهو المعصية والفضول. [١٠]

وأما حدُّ التقوى على موضع الشرع فهو: تبرئة القلب عن شر لم يسبق منك مثله بقوة
 العزم على تركه حتى يصير ذلك وقاية بين الإنسان وبين كل شر. ثم الشرور ضربان:
 شر أصلي: وهي المعاصي المحضة.
 وشر غير أصلي: وهو ما نهى عنه تأديباً، وذلك فضول الحلال كالمباحات المأخوذة
 بالشهوات.

فالأولى: تقوى فرض يلزم بتركها عذاب النار.
 والثانية: تقوى خير وأدب يلزم بتركها الحساب والتوبيخ فمن أتى بالأولى فهو في
 الدرجة الأولى من التقوى، وهي منزلة مستقيمي الطاعة.

ومن أتى بالأخرى فهو في الدرجة الأعلى من التقوى، وذلك منزلة مستقيمي المباح،
 وإذا جمع العبد بينهما على اجتناب كل معصية وفضول فقد استكمل معنى التقوى، وقام
 بحقها، وذلك هو الورع الكامل الذي هو ملاك أمر الدين، فهذا معنى التقوى وبيانها في الجملة
 وبالله التوفيق.

فصل: في كيفية إجماع هذه النفس التي عنينا بها

اعلم أن إجماع النفس بلجام التقوى هو أن تقوم عليها بقوة العزم، فتمنعها عن كل معصية

وتصونها عن كل فضول، فإذا فعلت ذلك كنت قد اتقيت الله تعالى في عينك، وأذنتك، ولسانك، وقلبك، وبطنك، وفرجك، وجميع أركانك وأجتمها بلجام التقوى، وشرح ذلك بطول، ولكننا نشير إلى ما لا بد منه. فنقول: من أراد أن يتقي الله عز وجل، فليراع جوارحه التي هي نعمة من الله تعالى بها عليه وأمانة ائتمنه عليها، ولا يعصيه بها؛ لأن الاستعانة بنعمة الله على معاصية غاية الكفران، وخيائته في أمانة أودعها عنده غاية الطغيان، [١١] فأعضاء العبد رعاياه فلينظر كيف يراها، وفي الحديث: «كلكم راع وكلكم مسؤول / عن رعيته»^(١).

وجوارح الإنسان تشهد عليه يوم القيامة على رؤوس الخلائق، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ﴾^(٢). وقال: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾^(٣).

جاء في التفسير أن الجلود هاهنا الفروج. فاحفظ يا أخي - أصلحك الله - جوارحك وخصوصاً أعضاؤك الثمانية فإنهن الأصول وهن: القلب واللسان، والعين، والأذن، والبطن، والفرج، واليدان والرجلان.

فتحترس عليها بالصيانة لها عن كل ما تخاف منه ضرراً في أمر الدين من معصية وحرام وفضول وإسراف في حلال، ولا سيما منهن خمس وهي: القلب، واللسان، والعين، والأذن، والبطن، فإنه إذا حصل الإنسان صيانة هذه الأعضاء، فمرجوا أن يكفي سائر جوارحه فينحصر ذلك حيثل في مقدمة، وخمسة أبواب.

فصل: في بيان المقدمة في ذكر الهوى

قال الله سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾^(٤) الآية. وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: الهوى إله يعبد من دون الله، ثم قرأ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾. وعن علي بن أبي طالب أنه قال: أخاف عليكم اثنتين: اتباع الهوى، وطول الأمل، أما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فينسي الآخرة.

(١) قال المحافظ العراقي في المعنى: متفق عليه من حديث ابن عمر.

(٢) سورة النور الآية: ٢٤.

(٣) سورة فصلت الآية: ٢٢.

(٤) سورة الجاثية الآية: ٢٣.

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: أقرعوا هذه النفس عن شهواتها؛ فإنها طالعة تنزع إلى شر، غاية أن هذا الحق ثقيل مريء وأن الباطل خفيف وييء.

وترك الخطيئة خير من معاندة التوبة، وربما نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً.

وعن النبي عليه السلام أنه قال: «طاعة الشهوة داء وعصيانها دواء».

وعن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فِتْنَتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ / بالشهوات ﴿وَتَرَبَّصْتُكُمْ﴾ يعني [١٢] بالتوبة. ﴿وَأَزَبْتُمْ﴾ يعني في أمر الله تعالى. ﴿وَعَزَّزْتُكُمْ الْأَمَانِيَّ﴾. بالتسويق. ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾. يعني الموت. ﴿وَعَزَّزْتُكُمْ بِاللَّهِ الْقُرُورُ﴾^(١). يعني الشيطان.

وعن الشعبي أنه قال: إنما سمي الهوى هواً؛ لأنه يهوي بصاحبه. ويُشدد لهشام بن عبد الملك:

إذا أنت لم تعص الهوى قاذك الهوى إلى كل ما فيه عليك مقال
وقال بعض الأعراب: الهوى هوان ولكن قلب اسمه، فنظمه بعض الشعراء فقال:
إن الهوى هو الهوان قلب اسمه فإذا هويت فقد لقيت هوانا
وفي مثور الحكم من أطاع هواه فقد أعطى عدوه مناه. وقال بعض الحكماء: العقل صديق مقطوع، والهوى عدو متبوع.

وقال بعض البلغاء: أفضل الناس من عصى هواه، وأفضل منه من رفض دنياه. وقال بعض الشعراء:

إذا ما رأيت المرء يقتاده الهوى فقد نكلته عند ذاك ثواكله
وقد أشمت الأعداء جهلاً بنفسه وقد وجدت فيه مقالاً عواذله
وما يردغ النفس للجوچ عن الهوى من الناس إلأ حازمُ الرأي كامله

فلما كان الهوى على الإنسان غالباً وإلى سبيل المهالك مورداً، جعل العقل عليه رقيباً مجاهداً، يلاحظ غرة غفلته، ويدفع سطوته، بادرتة ويوضح خداع حيلته؛ لأن سلطان الهوى قوي، ومدخل مكرهه خفي. ولذلك قال بعض الحكماء: الهوى ملك غشوم، ومتسلط ظلوم.

فأما الوجه الأول: فهو أن يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه، فيكل العقل من دفعها مع وضوح قبحها في العقل المقهور بها، وحسم ذلك أن يستعين العقل بالنفس النفورة، فيشعرها [١٣] ما في عواقب الهوى من شدة / الضرر وكثرة الأوزار.

وقد قال عليه السلام: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»^(١).

فأخبر عليه السلام أن الطريق إلى الجنة احتمال المكاره، والطريق إلى النار اتباع الشهوات. وقال عليٌّ: إياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم، فإن عاجلها ذميم، وأجلها وخيم، فإن لم تنفع فيها الرهبة فشوبها بالرغبة؛ فإنهما إذا اجتمعتا على النفس ذلت وانقادت، وقد قال الشاعر:

صبرت على الأيام حتى تولت فألزمت نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى فإن أطمعت تاقته وإلا تسلت

فإذا انقادت النفس للعقل، تم له الحظ الأوفى من ثواب الخالق وثناء المخلوقين، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَيَنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(٢). وعن الحسن أنه قال: أفضل الجهاد جهاد النفس، ويُشدد:

قد يدرك الحازم ذو الرأي الحسن بطاعة الحزم وعصيان الهوى

وقال بعض العلماء: ركب الله الملائكة من عقل بلا شهوة، وركب البهائم من شهوة بلا عقل، وركب ابن آدم من كليهما عقل وشهوة فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم، ويُشدد:

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتتهت ولم ينهها تاقته إلى كل باطل
وساقت إليه الإثم والعار بالذي دعته إليه من حلاوة عاجل

وأما الوجه الثاني: فهو أن يخفي الهوى مكروهه حتى تنمو أفعاله على العقل فيتصور القبيح حسناً، وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ، فَرَآهُ حَسَنًا﴾^(٣). وذلك إنما يكون بسببين:

(١) قال العراقي في المعنى (٤/٥٧) متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) سورة النازعات الآية: ٤٠.

(٣) سورة فاطر الآية: ٨.

أحدهما: حب/ النفس ذلك الشيء فتعمى عن عيبه، وقد قال عليه السلام: «حبك [١٤] الشيء يعمي ويصم»^(١). ويشند لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب:

ولست براء عيب ذي الود كله ولا بعض ما فيه إذا كنت راضيا
فعين الرضى عن كل عيب كليله ولكن عين السخط تبدي المساويا

والسبب الثاني: هو اشتغال الفكر في تمييز ما اشتبهه، وطلب الراحة في اتباع ما تسهل حتى يظن أن ذلك أحمد الأمرين فيتورط بخدع الهوى، وزينة المكر في أقبح الحالتين، ولذلك قيل عن عامر بن المطرب أنه قال: الهوى يقظان، والعقل راقد. وقيل في المثل: العقل وزير ناصح والهوى وكيل فاضح، ويُشند:

إذا أنت قد أعطيت بطنك سؤلها وفرجك نالا منتهى الذم أجمعاً
فحسم السبب الأول أن يجعل فكر قلبه حكماً على نظر عينيه، فالعين رائد^(٢) الشهوة، والشهوة من دواعي الهوى، والقلب رائد^(٣) الحق، والحق من دواعي العقل، ثم يتهم نفسه في صواب ما أحبه ليستبين له الحق؛ فإن الحق أثقل محملاً فإن اشتبه عليه أمران اجتنب أحبهما إليه، لأن النفس تنفر عن الحق وتؤثر الهوى.

وقد قال العباس بن عبد المطلب: إذا اشتبه عليك أمران، فدع أحبهما إليك، وخذ أثقلهما عليك. وعلّة هذا القول: أن الثقل تبطئ النفس عن التسرع إليه، فيتضح مع الإبطاء، وطول الزمان صواب ما أستبهم، والمحبوب السهل تسرع النفس إليه، فيقصر الزمان عن تصفحه لفكره، ويفوت استدراكه لتقصير فعله، فلا ينفع التصفح بعد العمل، والاستبانة/ بعد [١٥] الفوت، ويُشند:

أليس طلاب ما قد فات جهلاً ودرك المرء ما لا يستطيع
ولقد وصف بعض البلغاء الهوى وما يقارنه من محن الدنيا فقال: الهوى مطية الفتنة، والدنيا دار المحنة، فانزل عن الهوى تسلم، واعرض عن الدنيا تنعم فلا يغرنك هواك بطيب الملاهي، ولا تفتنك دنياك بحسن العواري، فمدة الهوى تنقطع، وعارية الدهر ترتجع. فيبقى عليك ما ترتكبه من المحارم، وتكسبه من المخازي والمآثم. وقال بعض علماء السلف: سمعتني امرأة في الطواف وأنا أنشد:

(١) قال العراقي في المعني عن حمل الأسفار (٣/٣١) رواه أبو داود من حديث أبي داود بإسناد ضعيف.
(٢) في الأصل زائد، بالزاي المعجمة.
(٣) في الأصل زائد، بالزاي المعجمة.

أهوى هوى الدين واللذات تعجيني فكيف لي بهوى اللذات والدين

فقالت: هما ضرطان^(١) فدع أيهما شئت وخذ الأخرى. وأما الفرق بين الهوى والشهوة مع اجتماعهما في العلة والمعلول فهو أن: الهوى مختص بالآراء والاعتقادات، والشهوة تختص بنيل المستلذات فصارت الشهوة من نتائج الهوى فهي أخص والهوى أضل وهو أعم، ونحن نسأل الله أن يكفيننا دواعي الهوى، ويصرف عنا سبل الردى، ويجعل التوفيق لنا قائداً والعقل لنا مرشداً.

وقد حكى أن الله تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام: عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس ولأفاستحي مني.

ونحن كما قال بعض السلف: قلوب تعرف وألسنة تصف، وأعمال تخالف. فالله تعالى نسأله العفو والعافية والمعافة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة. فلما كان العقل رقيب الهوى وسراجاً في القلب، الذي هو أشرف الأعضاء، كان لنا أن نبتدىء بذكر القلب وعلاجه ونرتب [١٦٦] عليه ذكر الجوارح / وبالله التوفيق.

الباب الأول في ذكر القلب

قال الله سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٢).

فأخبر أن سلامة القلب وطهارته من الغوائل هي سبب لنجاة الإنسان من عذاب القبر. فعليك يا أخي وفقك الله وإيانا بإصلاح القلب وبذل المجهود في ذلك؛ فإنه أعظم الأعضاء خطراً، وأدقها أمراً، وأشقها إصلاحاً، وأذكر لك فيه خمسة أصول، مقنعة لك عن كثرة الفصول.

أحدها: قول الله تعالى: ﴿يَنْتَلِمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(٣). وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَنْتَلِمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾^(٤). وقوله: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ

(١) في الأصل: ضارتان، وهو تحريف واضح.

(٢) سورة الشعراء الآيتان: ٨٨، ٨٩.

(٣) سورة غافر الآية: ١٩.

(٤) سورة البقرة الآية: ٢٣٥.

الصُّدُورِ^(١). وكـم كرر ذكره في القرآن فكفى باطلاع العليم الخبير تحذيراً وتهديداً للخواص من العباد؛ لأن المعاملة مع علّام الغيوب خطرة عسرة، فانظر ماذا يعلم من قلبك.

والأصل الثاني: قول رسول الله ﷺ حيث قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأبشاركم»^(٢). أو قال: «أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» فالقلب إذاً موضع نظر رب العالمين فيا عجباً ممن يهتم بوجهه الذي هو موضع نظر الخلق فينظفه من الأدناس ويزينه لتلا يطلع عليه مخلوق فيه على عيب ولا يهتم بقلبه الذي هو موضع نظر رب العالمين فيطهره ويزينه ويطيبه كيلا يطلع الرب تعالى على دنس فيه وشين وعيب وآفة بل يهمله ويملاه بقبائح وأفذار وقضائح، لو اطلع الخلق على واحدة منها لهجروه وتبرأوا منه وطردهوه، والله المستعان.

الأصل الثالث: إن القلب ملك مطاع، ورئيس متبع، والأعضاء كلها له تبع، فإذا صلح / التابع، وإذا استقام الملك استقامت الرعية، يبين ذلك ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن في [١٧] الجسد مضغة^(٣) إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله وهي القلب»^(٤). خزانة كل جوهر صرف العناية إليه.

الأصل الرابع: أن القلب خزانة كل جوهر نفيس للإنسان وكل معنى خطير، أولها العقل، وأجلها معرفة الله عز وجل التي هي سبب سعادة الدارين، ثم البصائر التي بها التقدم والوجهة عند الله عز وجل، ثم النية الخالصة في الطاعات التي بها يتعلق ثواب الأبد، ثم أنواع العلوم والحكم التي هي شرف العبد، ثم سائر الأخلاق الشريفة: من الجود، والكرم، والصبر، والشكر اليقين، والزهد، والرضى والتوكل، والرحمة، والرفقة والحلم، والرفق، وغير ذلك مما يطول الكتاب بتعداده.

وحقيق لمثل هذه الخزانة أن تحفظ من الأدناس، وتطهر من الأنجاس، وتحرس من السراق والقطاع، وتكرم بضروب الكرامات بل تعمر بأصناف الخيرات وأنواع القربات لتلا يلحق تلك الجواهر العزيزة دنس أو يظفر بها عدو مهلك.

(١) سورة الملك الآية: ١٣.

(٢) قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار (٣٥١/٤) عن نحوه: رواه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٣) في الأصل: «بضعة» والتصويب من إحياء علوم الدين (٣٥٦/٤).

(٤) قال العراقي في المغني بهامش المصدر السابق تعليقا على هذا الحديث والذي جاء فيه نحوه: متفق عليه

من حديث النعمان بن بشير.

الأصل الخامس: وهو أن العلماء تأملت أحوال القلب، فوجدتها خمسة ليست لغيره من الأعضاء.

أحدها: أن العدو قاصد إليه مقبل عليه ملازم له كما ورد في الحديث: «إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم»^(١) فهو منزل الإلهام والوسوسة يقرعه الملك والشيطان بالدعوتين أبداً.

والثاني: أن الشغل له أكثر فإن الهوى والعقل كلاهما فيه، فهو معترك العسكرين الهوى [١٨] وجنوده، والمقل وجنوده، فهو أبداً بين تحاربهما. وتناقضهما / فيحق بالثغر أن يحرس ويخض ولا يغفل عنه.

والثالث: أن العوارض له أكثر فإن الخواطر كالسهم لا تزال تقع فيه كالمطر، لا تزال تمطر عليه ليلاً ونهاراً لا تنقطع عنه ولا أنت تقدر على منعها فتمتنع، فليس بمنزلة العين التي هي بين جفنتين تغمض فتستريح^(٢)، أو تكون في موضع خال، أو ليل مظلم فتكفي رؤيتها.

واللسان الذي هو وراء الحجابين: الأسنان والشفيتين، وأنت القادر على منعه، بل القلب عرض للخواطر لا تقدر على منعها والتحفظ عنها بحال، ولا هي تنقطع عنك بوقت. ثم النفس مسارعة إلى اتباعها، فالامتناع عن ذلك في مجهود الطاقة أمر شديد ومحنة عظيمة.

والرابع: أن علاجه عليك عسير إذ هو عُجِبَ عنك فلا تكاد تشعر حتى تدب فيه آفة، وتحدث له حالة فحتاج أن تبحث عن ذلك أتم البحث بطول الجهد ودقيق النظر وكثرة الرياضة.

الخامس: أن الآفات إليه أسرع، وهو إلى الانقلاب أقرب فلقد قيل: إن القلب أسرع، وهو إلى الانقلاب أقرب. فلقد قيل: إن القلب أسرع انقلاباً من القدر في غليانها^(٣) ولذلك قيل فيه:

ما سمي القلب إلا من قلبه والرأي يضرب بالإنسان أطوارا

(١) أورده القرطبي في تفسيره (٢٠/٢٦٢).

(٢) في الأصل: تسريح. وهو تحريف.

(٣) ذكر الحافظ العراقي حديثاً في معنى هذا القول وقال فيه رواه أحمد والحاكم وصححه من حديث المقداد بن الأسود: «قلب المؤمن أشد تقيلاً من القدر في غليانها».

ثم إن زل القلب والعياذ بالله فزله عظيم، ووقوعه أصعب، وأظلم، أذناه قسوة وميل إلى غير الله سبحانه، وامتهاه ختم وإنكار الله جل ذكره، أما تسمع قول الله تعالى: ﴿أَتَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾^(١). وكان الكبير من قلبه فحمله على الإيذاء والكفر بظاهره.

أما تسمع قوله: ﴿وَلِكَيْتُمْ أَتَّخَذَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾^(٢). فكان الميل واتباع الهوى بقلبه حمله على ذلك الذنب المشؤوم بنفسه.

أما تسمع قوله: ﴿وَتَقَلَّبَ أُنْفُسَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ / أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(٣).

ولهذا المعنى - أيها الرجل - خاف الخواص من عباد الله على قلوبهم فبكوا عليها وصرخوا عنيتهم إليها قال الله سبحانه في وصفهم. ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾^(٤). جعلنا الله من المعتبرين بالعبير المهمين لمواضع الخطر الموقنين لإصلاحها بحسن النظر إليه إنه أرحم الراحمين. فإن قيل: إن أمر هذا القلب لهمم جداً، فأخبرنا عن المعاني التي تصلحها، وعن الآفات التي تعترضه فتفسده؟ عسى أن نوفق للاجتهاد في العمل بذلك. يقال له: اعلم أن تفصيل هذه المعاني يطول، وإنما علماء الآخرة عنوا باستخراج ذلك، وقد حكى بعضهم أنهم ذكروا فيما يحتاج إليه من ذلك نحو تسعين خصلة محمودة، وكذا في أصدادها المذمومة. ثم من الأفعال والمساعي الواجبة والمحظورة نحو ذلك في سائر تفصيلها، ولعمري إن من أهمه أمر دينه ووفق للنظر لنفسه فلا يكون ذلك في العمل به عليه كثيراً.

وذكر عن بعض العلماء في الكتاب أنه قال: إذا سلم الإنسان من عشر خصال مهلكات فمرجو أن يسلم من غيرها ولهي: الكبر، والعجب والحسد، والرياء، وشدة الغضب، وشرة الطعام، وشرة الوقاع، وحب المال، وحب الجاه.

قال: وإذا حصل من الخصال المنجيات عشرًا فمرجوة له النجاة إن شاء الله وهي: الندم على الذنب، والصبر على البلاء، والرضى بالقضاء، والشكر على النعماء، واعتدال الخوف

(١) سورة البقرة الآية: ٣٤.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٧٦.

(٣) سورة الأنعام الآية: ١١٠.

(٤) سورة النور الآية: ٣٧.

والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص في الأعمال، وحسن الخُلُق مع الخَلْق، وحب الله تعالى والخشوع له والله أعلم.

[٢٠] اعلم أن شرح الصفات المذمومة في القلب طويل، وتطهير القلب / من رذائلها شاق على النفس عسير، وسبيل العلاج فيه غامض، وقد اندرس بالكلية علمه وعمله لغفلة الناس عن أنفسهم واشتغالهم بقضاء شهواتهم.

ونحن نشير إن شاء الله هاهنا إلى ست صفات من خباثات القلب، وهن مهلكات، ولسواهن من الخباثات أصول وأمهات وهي: الأمل، والحرص، والغضب، والحقد، والبخل، والعجلة، فنشرح ذلك في ستة فصول.

الفصل الأول: في الأمل

قال الله سبحانه لنبيه عليه السلام وعيداً وتهديداً للكفار: ﴿ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَسْتَمْتَمُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمْلُ فَسَوْفَ يَلْمُونَ﴾^(١).

وعن النبي عليه السلام أنه قال: «أشد ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل فإنه يوجب الدنيا».

ثم قال: «ألا إن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن يبغيض، فإذا أحب الله عبداً أعطاه الإيمان ألا إنَّ للدين أبناء، وللدنيا أبناء فكونوا من أبناء الدين، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مقبلة، ألا وإنكم في يوم عمل»^(٢).

ويروى أنَّ رسول الله ﷺ أطلع ذات عشية على الناس فقال: «أيها الناس ألا تستحيون من الله؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «تجمعون ما لا تأكلون، وتؤملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون»^(٣).

وعن أبي سعيد الخدري أنه قال: اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار [٢١] إلى شهر، فسمعتنا رسول الله يقول: «لا تتعجبوا من أسامة / المشتري إلى شهر إن أسامة لطويل

(١) سورة الحجر الآية: ٣.

(٢) ذكره الغزالي بنحوه وأتم ما هنا في الإحياء (٤/٤٣٧) وعلق عليه العراقي في المغني بهامش فقال: حديث علي... رواه ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل، ورواه أيضاً من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف.

(٣) وقال عن هذا أيضاً: حديث أم المنذر. ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب بإسناد ضعيف.

الأمل، والذي نفسي بيده ما طرفت عيناى إلا ظننت أن شفري لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي، ولا رفعت طرفي فظننت أنني واضعه حتى أقبض، ولا لقمتم لقمة حتى ظننت أنني لا أسيغها حتى أغص بها من الموت».

ثم قال: «يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده إن ما توعدون لآت، وما أنتم بمعجزين»^(١).

وعن ابن عباس: أن النبي ﷺ كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالتراب، فأقول له: يا رسول الله الماء منك قريب. فيقول: «ما يدريني لعلي لا أبلغه»^(٢).

وروي أنه ﷺ أخذ ثلاثة أعواد فغرز عموداً بين يديه والآخر إلى جنبه، وأما الثالث فأبعده، فقال: «أتدرون ما هذا؟». فقالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: «هذا الإنسان، وهذا الأجل، وذلك الأمل يتعاطاه ابن آدم فيختلجه الأجل دون الأمل»^(٣) وعنه ﷺ من طريق ابن عبد الله أنه عليه السلام خطّ خطأً مربعاً وخط في وسطه خطأً وخطّ خطأً إلى جنب الخط، وخطّ خطأً خارجاً فقال: «أتدرون ما هذا؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: «هذا الإنسان» للخط الأوسط «وهذا الأجل محيط به، وهذه الأغراض تنهشه». يعني الخطوط المخطوطة. قوله: «إن أخطأه هذا نهشه هذا، وذلك الأمل للخط الخارج»^(٤).

وقال ابن مسعود رحمه الله: هذا المرء وهذه الحتوف حوله سوارع إليه فإن أخطته الحتوف قتله الهرم وهو ينظر إلى الأمل.

[٢٢٢] وعن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «يهرم ابن آدم ويبقى فيه اثنان/الحرص والأمل». وفي رواية أخرى: «ويشبه منه اثنان: الحرص على المال والحرص على العمر»^(٥).

(١) قال العراقي في المغني (٤/٤٣٧): رواه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل، والطبراني في مسند الشاميين، وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب بسند ضعيف.

(٢) وقال في الموضوع نفسه: رواه ابن المبارك في الزهد، وابن أبي الدنيا في قصر الأمل، والبيزار بسند ضعيف.

(٣) قال العراقي في المغني (٤/٤٣٨): رواه أحمد، وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له، والرامهرمزي في الأمثال من رواية أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري، وإسناده حسن، ورواه ابن المبارك في الزهد، وابن أبي الدنيا أيضاً من رواية أبي المتوكل رسلاً.

(٤) قال العراقي في الموضوع السابق: رواه البخاري.

(٥) وقال أيضاً في نفس الموضوع: رواه مسلم بلفظ الثاني، وابن أبي الدنيا في قصر الأمل باللفظ الأول بإسناده صحيح.

وعنه عليه السلام أنه قال: «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد، ويهلك آخرها بالبخل والأمل»^(١). وفي الخبر: أن عيسى عليه السلام بينما هو جالس وشيخ يعمل بمسحاة يلين بها الأرض. فقال عيسى عليه السلام: اللهم انزع عنه الأمل، فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة، فقال عيسى: اللهم اردد إليه الأمل، فقام فجعل يعمل فساءله عيسى، فقال: بينما أنا أعمل إذ قالت لي نفسي: إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير؟ فألقيت المسحاة فاضطجعت، ثم قالت لي نفسي: والله لا بد لك من عيش ما بقيت، فقممت إلى مسحاتي^(٢).

وعن الحسن عنه عليه السلام أنه قال: «أكلكم يحب أن يدخل الجنة؟». قالوا: نعم يا رسول الله. قال: «قَصِّروا من الأمل واجعلوا»^(٣) آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء»^(٤).

وعنه عليه السلام أنه كان يقول في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات»^(٥).

وعن عبد الله بن عمر أنه قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ببعض جسدي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعد نفسك في أهل القبور، فإذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك، فإنك لا تدري يا عبد الله ما اسمك غداً».

[٢٣] وفي الخبر: أن الله تعالى لما أخرج النرية من صلب آدم / عليه السلام قالت الملائكة: يا رب إن الأرض لا تسعهم. قال: إني جاعل فيهم موتاً. قالت: لا يهتثم العيش. قال: إني جاعل فيهم أملاً.

(١) وقال في الموضوع السابق أيضاً: رواه ابن أبي الدنيا فيه من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

(٢) أورده الغزالي في الإحياء (٤/٤٣٨).

(٣) في الإحياء: «وثبتوا».

(٤) قال العراقي في المعني عن حمل الأسفار (٤/٤٣٨): رواه ابن أبي الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مرسلًا.

(٥) أورده الغزالي في الإحياء (٤/٤٣٨) مع تقديم وتأخير وعلق عليه العراقي في المعني بالهامش فقال: رواه ابن أبي الدنيا فيه (أي في قصر الأمل) من رواية حوشب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفي إسناده ضعف وجهالة، ولا أدري من حوشب؟

وقال بعض العلماء: بلغني أن الإنسان خلق أحمق، ولولا ذلك لما تهنا عيشاً. وقال سلمان الفارسي رحمه الله: ثلاثة أبكتني حتى أضحكنتي: مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك ملء فاه لا يدري أساخط عنه رب العالمين أم راضٍ. قال: وثلاثة أحرزنتني حتى أبكتني فراق محمد ﷺ وحزبه الأحبة وهول المطلع، والوقوف بين يدي لا أدري إلى الجنة يؤمر بي أم إلى النار.

وقال بعض العلماء: الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولبس العباء. وقيل للحسن: يا أبا سعيد ألا تغسل قميصك؟ فقال: الأمر أعجل من ذلك. وكان يقول: الموت معقود بنواصيكم، والدنيا تطوى من ورائكم.

ويروى عن علي بن أبي طالب أنه قال: أيها الناس اتقوا الله الذي إن قلمت سمع، وإن أضمرت علم، وبادروا الموت الذي إن هربتم أدرككم، وإن أقمتم أخذكم^(١).

ويروى أن النبي ﷺ قال في بعض خطبه: «أيها الناس إن الأيام تطوى والأعمال تحصى، والأبدان في الثرى تلبى، وأن الليل والنهار يتراكمان تراكم البريد، يقربان كل بعيد، ويخلقان كل جديد، ويأتیان بكل موعود».

وفي ذلك عباد الله: ما ألهى عن الشهوات ورجب في الباقيات الصالحات. وقال معسر: كم من مستقبل يوماً لا يكمله، ومنتظر غداً لا يبلغه، ولو رأيتم الأجل ومسيرة أبغضتم الأمل وغروره. وعن علي بن أبي طالب: / قال بعد موت النبي ﷺ:

[٢٤]

عَرَّ جَهُولًا أَمَلَهُ يُمُوتُ مَن جَاءَ أَجَلَهُ
وَمَن دَنَا مِنْ حَتْفِهِ لَم تُننِ عَنْهُ حَيْلَهُ
وَمَا بَقِيَ آخِرُهُ قَدْ غَابَ عَنْهُ أَوْلَهُ
وَأَلْمَرُهُ لَا يَضْحَبُهُ فِي الْقَبْرِ أَلَّ عَمَلُهُ

وروي عن الجاحظ أنه قال في كتاب البيان: وجد مكتوباً على حجر يا ابن آدم إنك لو رأيت يسير ما بقي من أجلك لزهدت في طول ما ترجو من أملك، ولرغبت في الزيادة من عملك، ولقصرت من حصرك وحيلك، وإنما يلقاك غداً ندمك، وقد زلت بك قدمك، وأسلمك أهلك وحشمك، وتبرأ منك القريب، وانصرف عنك الحبيب.

(١) الأثر وما قبله من آثار أوردها الغزالي في الإحياء (٤/٤٣٨: ٤٣٩).

وفيما يروى: أنه ليس من يوم يأتي إلا قال: يا ابن آدم تزود مني فإني يوم جديد، وإني على ما صنعت في شهيد، وإني ذاهب فلا أعود. ثم ختم عليه بخاتم فلا يكسر إلى يوم القيامة ويُشدد:

مَضَى أَمْسُكَ الْمَاضِي شَهِيداً مَعْدَلاً
فَإِنْ كُنْتَ بِالْأَمْسِ اقْتَرَفْتَ إِسَاءَةً
وَلَا تُبْقِي فِعْلَ الصَّالِحَاتِ إِلَى عَدِ
إِذَا مَا الْمَنَابِيا أَخْطَأَتْكَ وَصَادَفَتْ
وَأَعْقَبَهُ يَوْمَ عَلَيْنِكَ شَهِيدُ
فَبَايِزُ بِإِخْسَانٍ وَأَنْتَ حَمِيدُ
لَعَلَّ عَدَا يَأْتِي وَأَنْتَ فَقِيدُ
حَيْنِكَ فَاعْلَمْ أَنَّهَا سَتَعُودُ

فصل

اعلم أن الأمل أحدقوا عد الدنيا التي لا تعمر إلا بها، وذلك أن العلماء حصروا ما يصلح به الدنيا إلى ستة أشياء وهي: دين متبع، وسلطان قاهر، وعدل كامل، وأمن عام، وخصب دار، وأمل فسيح.

أما الدين المتبع: فإنه يصرف النفوس عن شهواتها فيصير رقيباً عليها في خلواتها.

[٢٥] وأما السلطان القاهر: فإنه تتألف برهته الأهواء / وتنكف بسطوته الأيدي المتعادية، ولذلك قال بعض الحكماء: الأدب أدبان أدب شريعة وهو ما أدى الفرض، وأدب سياسة وهو ما عمّر الأرض.

وأما العدل الشامل: فإنه يدعو إلى الألفة ويبعث على الطاعة، وتتعمر معه الأرض وتثمر به الأموال والنسل، ويأمن به السلطان؛ لأنه لا شيء أسرع في خراب الدنيا ولا أفسد لضمائرها الخلق من الجور؛ لأنه ليس يقف على حد ونهاية.

وأما الأمن العام: فإنه تطمئن إليه النفوس وتنتشر، ويأس به الضعيف فينبعث فليس لخائف راحة، والا لحاذر طمأنينة ولذلك قيل: الأمن هنا عيش، والعدل أقوى جيش.

وأما الخصب الدار: فلأنه يؤل إلى الغنى، والغنى يحدث الأمانة، والسخاء فتمتع النفوس في التوسع وتكثر المواساة والتواصل.

وأما الأمل الفسيح: فلأنه يبعث على إقتناء ما يقصر العمر عن استيعابه، ولولا أن الثاني يرتفق بما أنشأه الأول حتى يصير به مستغنياً لانتقر أهل كل عصر إلى إنشاء ما يحتاجون إليه من منازل السكنى وأرض الحرث. وفي ذلك من الأعواز وتعذر الإمكان ما لا يخفاء به، فأرقت الله

سبحانه الخلق باتساع الأمل حتى عمّر به الأرض فتمّ صلاحها فصارت تتقلّ بعمرانها إلى قرن بعد قرن، فيمّر الثاني ما أبقاه الأول من عمارتها، ويرم الثالث ما أحدثه الثاني من شعثها، لتكون أحوالها على ممر الإعصار ملتئمة وأمورها منتظمة ولو قصرت الآمال لما تجاوز الواحد حاجة يومه ولا تعدى ضرورة وقته، ولكانت تتقلّ إلى من يأتي بعد خراباً لا يجد فيها بلغة، ولا يدرك / منها حاجة، ثم تنقل إلى من يجيء بعد بأسوء من ذلك حالاً، حتى لا يتسّمى لها نبت، ولا يمكن فيها لبث.

ولذلك روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الأمل رحمة من الله عز وجل لامتي ولولاه ما غرس غارس شجراً ولا أرضعت أم ولدًا». وعن مطرف بن عبد الله أنه قال: لو علمت متى أجلي لخشيت ذهاب عقلي، ولكن الله تعالى منّ على عبادة بالغفلة عن الموت، ولولا الغفلة ما تهنؤا عيشاً ولا قامت بينهم الأسواق وقد قال الشاعر:

وللنفوسِ وإن كَانَتْ عَلَى وَجَلٍ مِنَ الْمَيِّتَةِ آمَالٌ تُقْوِيهَا
فَالْمَرْءُ يَسْطُهَا وَالذَّهْرُ يَقْبِضُهَا وَالنَّفْسُ تَشْرَهَا وَالْمَوْتُ يَطْوِيهَا

فلما كان الأمل من أقوى الأسباب في عمارة الدنيا، كان في الآخرة من أعظم أسباب غفلتها وخرابها وقلة الاستعداد لها؛ لأن طول الأمل هو العائق عن كل خير، والجالب لكل شر، وأنه الداء العضال الذي يوقع الخلق في أنواع الفتن والبلايا، ولقد أفصح لبيد بن ربيعة مع أعرابية بما بيّن به حال الأمرين فقال:

أَكْذِبِ النَّفْسَ إِنْ حَدَّثَتْهَا إِنَّ صِدْقَ النَّفْسِ يَزْرِي بِالْأَمَلِ
غَيْرَ أَنْ لَا تُكْذِبْنَهَا فِي التُّقَى وَأَخْرَهَا بِالْبِرِّ لَهِ الْأَجَلِ

اعلم أن طول الأمل يهيج للإنسان أربعة أشياء:

أحدها: ترك الطاعة والكسل فيها؛ لأنه يقول سوف أفلح والأيام بين يدي ولا يفوتني ذلك. ولقد صدق داود الطائي فيما يروى عنه حيث قال: من خاف الوعيد قرب إليه البعيد، ومن طال أمله ساء عمله.

وعن يحيى بن معاذ أنه قال: الأمل قاطع من كل خير والطمع مانع من كل حق / والصبر صائر إلى كل ظفر والنفس داعية إلى كل شر.

[٢٧٧]

والثاني: ترك التوبة وتسويهم يقول: سوف أتوب، وفي الأيام سعة، وأنا شاب وسنيّ قليل، هذا ونحوه يحرك إلى الرغبة في الدنيا والحرص عليها ليتيسر له بذلك العيشة فيها وأقل

ما في الباب أن يشتغل ويضيع وقته باهتمام أشياء لعله لا يدركها .

وقد روي فيه عن أبي ذر رحمه الله أنه قال: قتلني همّ يوم لم أدركه . قيل: وكيف ذلك يا أباذر؟ قال: إن أمني جاوز أجلي .

والثالث: القسوة في القلب، قال الله سبحانه: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾^(١) . لأن القلب إنما يصفو ويرق بذلك الموت، والقبر والجنة والنار، فإذا طال أمله كان فكره وذكره الدنيا وأسبابها .

والرابع: نسيان الآخرة كما ورد في الحديث: «إنَّ طول الأمل ينسي الآخرة، فإذا طال أمل الإنسان قلت طاعته وتأخرت توبته وكثرت معصيته، واشتد حرصه، وقسى قلبه، وعظمت غفلته عن الآخرة» .

فأجئ حالة أسوأ من هذه، وأجئ آفة أعظم من هذه وكل هذا سبيله طول الأمل . وحد الأمل إرادة الحياة للوقت المتراخي بالحكم وقصر الأمل هو ترك الحكم فيه، بأن يقيد بالاستثناء بمشيئة الله تعالى وعلمه بالذكر أو بشرط الصلاح والإرادة .

وأما علاجه فبأن يخطر الإنسان في قلبه ذكر الموت، والقبر، وخساسة الدنيا، في جنب شرف الآخرة وجلالتها، ويتفكر أيضاً في إخوانه وأقرانه الذين غافلهم الموت في وقت لم يحتسبوه .

ويقول: لعل حالي مثل حالهم، ويتذكر قول عيسى عليه السلام: الدنيا ثلاثة أيام: أمس [٢٨] مضى ما بينك منه شيء، وغد لا تدري أنت تدركه / أم لا، ويوم أنت فيه فاغتمت منه . ثم قول أبي الدرداء: الدنيا ثلاث ساعات، ساعة مضت، وساعة أنت فيها، وساعة لا تدري أتدركها أم لا، فلست تملك بالحقيقة إلا ساعة واحدة، إذ الموت من ساعة إلى ساعة .

ثم يقول بعض العلماء: الدنيا ثلاثة أنفاس، نفس مضى عملت فيه ما عملت، ونفس أنت فيه، ونفس لا تدري أتملكه أم لا، إذ كم من يتنفس نفساً ففاجأه الموت قبل النفس الآخر فلست تملك في الحقيقة إلا نفساً واحداً، لا يوماً ولا ساعة، فيتبادر في هذا النفس الواحد إلى الطاعة قبل أن يفوت، وإلى التوبة، ولعله في النفس الثاني يموت .

وليؤنخ نفسه يقول: احذري يا نفسي الغرور ولا تهتمي بالرزق المقدور فلعلك لا تبقين

لنحتاجي إليه . فيكون وقتك ضائعاً والمهم فضلاً، وما عسى أن يهتم الإنسان ليوم أو ساعة أو نفس واحد، فإذا تذكر الإنسان هذه الأذكار وواظب عليها بالإعادة والتكرار قصر أمله بإذن الله تعالى .

فحيثئذ يرى نفسه تبادر إلى الطاعة وتعجل التوبة، وتجنب المعصية، وتزهّد في الدنيا وطلبها وتذكر الآخرة وأهوالها، فتزول عن قلبه القسوة وتبدو فيه الرقة والصفوة، وتستشعر عند ذلك الخوف من الله تعالى والخشية، فيستقيم له أمر العبادة ويقوى له الرجاء في أن يسعد في الآخرة، وكل ذلك بعد فضل الله تعالى بقصر الأمل، وبالله التوفيق .

وأما الفرق بين الأمل والأمني:

فالأمل: ما تقيدت بأسباب وذلك أن الرجاء والأمل إنما يكونان بعد تمهيد العمل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا/ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَحْجِرُوا﴾ [٢٩] الله ﴿^(١) . وهذا مثل من زرع زرعاً فيأمل في منفعة .

وأما الأمني: فهي ما تجردت عن أسباب، قال الله تعالى: ﴿وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِي﴾ ^(٢) . وقال عليه السلام: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت - العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» ^(٣) .

وعن جابر بن زيد رحمه الله أنه قال: إياكم، والأمني؛ فوالله ما نال بها عبد خيراً فيما مضى ولا يناله فيما بقي، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ ^(٤) . غير أن الأمني تروح القلب إذا اغتم قال الشاعر:

حَرَّكَ مِنْكَ إِذَا اغْتَمَّ مَتَ فإِنهَا مَرَاوِحَ

آخر:

إذا تمنيت بتُّ الليل مغتبطاً إن المنى رأس أموال المغاليس

والله سبحانه نسأله التوفيق لما يحبه ويرضاه .

(١) سورة البقرة الآية: ٢١٨ .

(٢) سورة الحديد الآية: ١٤ .

(٣) قال العراقي في المغني عن حمل الأمصار (٣/٣٦٨): رواه الترمذي، وابن ماجه من حديث شداد بن أوس .

(٤) سورة النساء الآية: ١٢٣ .

الفصل الثاني: في الحرص

قال الله سبحانه: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾^(١). وفي الحديث عن رسول الله ﷺ وسلم أنه قال: «إياكم وأمهات الخطايا؛ فإنهن ثلاثة: الحسد، والحرص، والكبر».

ومن كتاب الضياء قال: وأصل البلاء والشَّرَّ في ست خصال منها تتوالد الذنوب. وقيل: إن عدو الله إبليس قال: إذا كانت خصلة منها في شيطان كان مارداً فإذا اجتمعن في شيطان واحد فلا تسأل عنه.

أولهن: الكبر: وهو ذنب إبليس اللعين.

والثاني: العجب: وهو يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

والثالثة: البخل: وصاحبه محروم من خير الدنيا والآخرة.

والرابعة: البغي: وهو راجع على صاحبه، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَبْغِيكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾^(٢).

والخامسة: الحسد: وصاحبه أبداً مغمووم.

والسادسة: / أظنها الحرص؛ والله أعلم.

ويُشَد:

قَدْ شَابَ رَأْسِي وَرَأْسُ الدَّهْرِ لَمْ يَشِبْ إِنَّ الحَرِيصَ عَلَى الدُّنْيَا لَفِي تَعَبٍ

وذلك أن الإنسان إذا غلب عليه حب المال، وبعد الأمل، بعثه الحب على طلبه، ودعاه الأمل إلى الشُّح والحرص والشح والحرص أصل كل ذنب وسبب لكل لؤم، ولذلك قيل: الحرص مفسدة للدين، وللمرؤة.

ويروى أن أعرابياً عاتب أخاه على الحرص فقال: يا أخي أنت طالب ومطلوب بطلبك من لا تقوته، وأنت تطلب كل ما قد كفيته فكان ما غاب عنك قد كشف لك وما أنت فيه قد نقلت عنه كأنك يا أخي لم تر حريصاً محروماً وزاهداً مرزوقاً وقد قال الشاعر:

أَرَأَيْكَ يَزِيدُكَ الإِكْتِسَارُ حِرْصاً عَلَى الدُّنْيَا كَأَنَّكَ لَا تَمُوتُ
فَهَلْ لَكَ غَايَةٌ إِنْ صِرْتَ يَوْمًا إِلَيْهَا قُلْتَ: حَسْبِي قَدْ رَضِيتُ

(١) سورة الفجر الآية: ٢٠.

(٢) سورة يونس الآية: ٢٣.

وحكي عن الشعبي أنه قال: أن رجلاً صاد قنبراً فقال: ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحك وأكلك. فقالت: والله ما أشفى من ضر ولا أشبع من جوع، ولكن اعلمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلي، أما واحدة: فأعلمكها وأنا في يدك، وأما الثانية: فإذا صرت على الشجرة وأما الثالثة: فإذا صرت على الجبل. فقال: هاتي الأولى. فقالت: لا تلهفن على فانت. فخلأها فلما صارت على الشجرة قال: هاتي الثانية. قالت: لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون، ثم طارت فوقفت على الجبل، فقالت: يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي درتين في كل واحدة عشرون مثقالاً. قال: فعض على شفتيه وتلهف وقال: هاتي الثالثة: فقال: أنت قد نسيت اثنتين فكيف أخيرك بالثالثة؟ أمل أتل لك / لا تلهفن على ما فاتك ولا [٣١] تصدقن بما لا يكون أنه يكون وأنا لحمي وريشي ودمي لا يكون عشرين مثقالاً فكيف يكون في حوصلتي درتان في كل واحدة عشرون مثقالاً ثم طارت، وذهبت.

قال بعض العلماء: وهذا مثال لفرط طمع الآدميين فإنه يعميه عن درك الحق حتى يقدر ما لا يكون.

وروي عن أبي محمد الزيدي أنه قال: دخلت على الرشيد فوجدته ينظر في ورقة مكتوب فيها بالذهب فلما رأيته تبسم. فقلت: فائدة أصلح الله أمير المؤمنين. قال: نعم وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أمية فاستحسنتها وقد أضفت إليهما ثالثة وأنشدني:

إِذَا سُدَّ بَابُ عَنكَ مِنْ دُونِ حَاجَةٍ
فَدَعَهَا لِأَخْرَى يَنْفَتِحُ لَكَ بَابَهَا
فَإِنَّ خَرَابَ الْبُطْنِ يَكْفِيكَ مِلْءَهُ
وَيَكْفِيكَ سُوءَاتِ الْأُمُورِ اجْتِنَابَهَا
وَلَا تَكُنْ مُبْذَلًا لِعَرَضِكَ وَاجْتَنِبْ
رُكُوبَ الْمَعَاصِي يَجْتَنِبُكَ عِقَابَهَا

ويقال: الحريص أسير مهانة لا ينفك أسره. وقال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس غمّاً الحسود، وأهانهم عيشاً القنوع، واصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع، وأخفصهم عيشاً أرفضهم الدنيا، وأعظمهم ندامة العالم المفرط.

وقيل لبعض الحكماء: أيُّ أسير للعاقل وأيها أعون على دفع الحزن. قال: أسيرها إليه ما قدم من صالح العمل، وأعونها على دفع الحزن الرضى بمحتوم القضاء.

وروي عن أبي موسى الأشعري أنه قال: نزلت سورة نحو براءة ثم رفعت فحفظ منها أن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لاخلاق لهم ولو أن لابن آدم وادياً من ذهب لتمنى ثانياً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا / التراب ويتوب الله على من يشاء. [٣٢]

وعن النبي ﷺ أنه قال: «متهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال»^(١). وقد ذكرنا في قنطرة الدنيا من هذا المعنى ما يكفي والله المستعان. ولما كان الحرص وحب المال في الآدمي جبلة ضرورية وطبيعة مضلة مهلكة رأينا أن نضيف إلى هذا الفصل باباً في ذكر القناعة التي هي ضد الحرص وقد أتى الله ورسوله على القناعة كما سيأتي إن شاء الله.

باب في ذكر القناعة

اعلم أن القناعة برزق الله تعالى أول منازل الرضى عن سبحانه، وإذا أراد الله بعبد خيراً أغناه بالقنوع، وأرضاه بما قسم له، قال الله سبحانه: «مَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً»^(٢). قال مجاهد؛ هي القناعة.

وعن النبي ﷺ وسلم أنه قال: «طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشة كفافاً وقنع به»^(٣). وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الحرص الجاهد والقانع الزاهد يستوفيان أكلهما غير متقص منه شيء»^(٤).

وروي أنه قال للمسيح عليه السلام: ما بال المشايخ أحرص على الدنيا من الشباب؟ قال: لأنهم ذاقوا من طعم الدنيا ما لم يذقه الشباب وقال بعض الحكماء: من قنع كان غنياً، وإن كان فقيراً، وإن كان مكثراً.

وقال بعض البلغاء: إذا طلبت العز فاطلبه بالطاعة وإذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة فمن أطاع الله عز نصره ومن لزم القناعة زال فقره.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض؛ إنما الغنى غنى النفس»^(٤).

وعن أبي حازم أنه قال: ثلاثة من كن فيه كمل / عقله، ومن كان فيه واحدة منهن كمل [٣٣]

(١) قال الحافظ العراقي في المعنى: رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

(٢) سورة النساء الآية: ١٢٤.

(٣) قال الحافظ العراقي في المعنى: رواه الترمذي وصححه، والنسائي في الكبرى من حديث فضالة بن عبيد، ولمسلم من حديث عبد الله بن عمر «وقد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنع الله بما آتاه».

(٤) قال الحافظ العراقي في المعنى: متفق عليه من حديث أبي هريرة.

ثلث عقله : من عرف نفسه وحفظ لسانه وقنع بما رزقه الله، وأنشد لأبي العتاهية :

نصف القنوع وأئنا يقنع وأئنا يرضى بما يجمع
 لله در ذوي القناعة ما أصفى معاشهم وما أوسع
 من كان يبغى أن يغر وأن تهدى خلاته فلا يطمع
 ففر النفوس بقدر رغبتها وغنى النفوس بقدر ما تقنع

وعن النبي ﷺ أنه قال: «إذا شئت أن تحيي غنياً فلا تكن في حالة إلا رضيت بدونها». وعنه ﷺ أنه قال: «ما من عبد إلا بينه وبين رزقه حجاب فإن قنع واقتصد أتاه رزقه، وإن هتك الحجاب لم يزد في رزقه».

وقال أكثم بن ضيفي: من باع الحرص بالقناعة ظفر بالغنى، والثروة والقناعة على ثلاثة أوجه:

فالأول: أن يقنع الإنسان بالبلغة من دنياه، ويصرف نفسه عن التعرض لما سواه، وهذا أعلى منازل أهل القناعة:

وقد روي عن مالك بن دينار أنه قال: أزهّد الناس من لم تجاوز رغبته من الدنيا بلغته. وقال بعض العلماء: الرضا بالكفاف يؤدي إلى العفاف. وأنشد بعض أهل الأدب، وذكر أنها لعلي بن أبي طالب:

أفادتني القناعة كل عز وهل عز أجل من القناعة
 فضيّر لها لنفسك رأس المال وصير بعدها التقوى بضاعة
 تحرز حين تغنى عن ليثم تنعم في الجنان بصبر ساعة

الثاني: أن تنتهي به القناعة إلى الكفاية ويحذف الفضول والزيادة وهذا أوسط أحوال المقتنع.

وقال بعض الحكماء: طلب ما فوق الكفاية إسراف وينشد:

[٣٤] / إن القناعة والعفاف ليغنيان عن الغنى
 فإذا صبرت عن المنى فاشكر فقد نلت المنى

والوجه الثالث: أن تنتهي به القناعة إلى الوقوف إلى ما سنع فلا يكره ما أتاه وإن كان كثيراً، ولا يطلب ما تعذر وإن كان يسيراً وهذا الحال أدنى أهل المنازل القناعة.

وفي مثلها قد حكى عن ذي النون المصري^(١) أنه قال: من كانت قناعته سميحة طابت له كل مرة.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «الدنيا دول فما كان لك منها أتاك على ضعفك، وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك ومن انقطع رجاءه مما فاته استراح بدنه، ومن رضي بما رزقه الله قررت عينه».

وعن أبي حازم الأعرج أنه قال: وجدت الدنيا شيئين: شيء هو لي لن أعجله قبل أجله ولو طلبته بقوة أهل السماوات والأرض، وشيء هو لغيري وذلك مما لم أنه فيما مضى ولا أتاله فيما بقي، يمنع الذي لي من غيري كما يمنع الذي لغيري مني، ففي أي هذين أفني عمري وأهلك نفسي.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «خير أمتي الذين لم يعطوا حتى يبطروا، ولم يقتر عليهم حتى يستلوا». والله سبحانه نسأله أن يحسن لنا التوفيق فيما منح ويصرف عنا الرغبة فيما منع.

وأما الدواء الذي يكسب القناعة ويزول الحرص به:

فهو مركب من ثلاثة أركان: الصبر، والعلم، والعمل، ومن مجموع ذلك خمسة أمور:

الأول: وهو العمل: الاقتصاد في المعيشة والرفق بالإنفاق، فمن أراد عز القناعة فليقتصر في جميع أحواله على ما لا بد منه، بل إن كان وحده ينبغي أن يقتنع بثوب واحد خشن، ويقتنع [٣٥] بأي طعام وجد/ ويقتل من الإدام ما أمكنه ويوطن نفسه عليه. وإن كان له عيال فليرد كل واحد منهم إلى هذا القدر، فإن هذا القدر يتيسر بأدنى جهد، ويمكن معه الإجمال في الطلب، والاقتصاد في المعيشة هو الأصل في القناعة ونعني به الرفق في الإنفاق وترك الخرق إذ قال ﷺ: «إن الله يحب الرفق في الأمر كله»^(٢). وقال أيضاً: «ما عال - أي افتقر - من اقتصد»^(٣).

(١) هو: ثوبان بن إبراهيم، وقيل: فيض بن أحمد، وقيل: فيض بن إبراهيم النوبي الإخميمي، يُكنى أبا الفيض، ويقال: أبا الفياض، شيخ الديار المصرية الزاهد، ولد في أواخر أيام المنصور. قال السلمى: حملوه على البريد من مصر إلى المتوكل ليعظه في سنة (٢٤٤)، وكان إذا ذكر بين يدي المتوكل أهل الورع بكى، واختلف في تاريخ وفاته فقيل سنة (٢٤٥) وقيل: سنة (٢٤٨). (سير أعلام النبلاء ١١/٥٣٢ بتصرف).

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني: متفق عليه من حديث عائشة.

(٣) قال الحافظ العراقي: رواه أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود ورواه من حديث ابن عباس بلفظ مقتصد.

وقال: «ثلاثة منجيات: خشية الله في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضى والغضب»^(١).

وروي أن رجلاً أبصر أبا الدرداء وهو يلتقط حباً من الأرض وهو يقول: إن من فقهاك تصدك في معيشتك.

وعن ابن عباس: أن النبي ﷺ وسلم قال: «الاعتقاد، وحسن السمات، والهدى الصالح، جزء من بضع وعشرين جزءاً من النبوة»^(٢).

وفي الخبر: «التدبير نصف المعيشة»^(٣).

وقال عليه السلام: «من اقتصد أغناه الله ومن بذر أفقره الله»^(٤).

وقال: «إذا أردت امرأةً فعليك بالتؤدة حتى يجعل الله لك فرجاً ومخرجاً»^(٥). والتؤدة في الإنفاق من أهم الأمور.

الثاني: أنه إذا تيسر له في الحال ما يكفيه فلا ينبغي أن يكون شديد الإضطراب لأجل الاستقبال ويعينه على ذلك قصر الأمل، والتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بد أن يأتيه وإن لم يشتد حرصه عليه. وينبغي أن يكون واثقاً بوعده الله تعالى.

إذ قال: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا»^(٦). ويقال: الاهتمام بما لم يكن بلاء كائن وفي مثل ذلك قيل:

- (١) قال العراقي في المغني (٣/٢٣٥): رواه البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب من حديث أنس بسند ضعيف.
- (٢) وقال في المصدر نفسه: رواه أبو داود من حديث ابن عباس مع تقديم وتأخير، وقال: «السمت الصالح» وقال: «من خمسة وعشرين» وقال روه الترمذي وحسنه من حديث عبد الله بن سرجس وقال: «التؤدة بدل: الهدى الصالح»، وقال: «من أربعة».
- (٣) وقال في المصدر السابق أيضاً: رواه أبو منصور الدلمي في مسند الفردوس من حديث أنس وفيه خلاد بن عيسى جهله العقيلي ووثقه ابن معين.
- (٤) وقال في المغني أيضاً (٣/٢٣٦): رواه البزار من حديث طلحة بن عبيد الله قوله: «ومن ذكر أحبه الله» وشيخه فيه عمران بن هارون البصري قال الذهبي شيخ شلا يعرف حاله أتى بخبر منكر - أي هذا الحديث - ولأحمد وأبي يعلى في حديث لأبي سعيد: «ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله».
- (٥) وقال العراقي في المصدر السابق أيضاً: رواه ابن المبارك في البر والصلة.
- (٦) سورة هود الآية: ٦.

وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي صَنَعَ^(١) الْفَقْرُ

وقد قال عليه السلام لابني خالد: «لا تياسا من الرزق ما تهزهزت رؤسكما فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قمش، ثم يرزقه الله»^(٢).

[٣٦] / ويروى أنه عليه السلام مرَّ بابن مسعود وهو حزين فقال له: «لا تكثر همتك ما قدر لك يكن وما ترزق يأتيك»^(٣).

وقال: «أيها الناس اجملوا في الطلب؛ فإنه ليس للعبد إلا ما كتب له منها وهي راغمة، ولا ينفك الإنسان عن الحرص إلا بحسن ثقته، بتدبير الله في تقدير أرزاق العباد»^(٤) وإن ذلك يحصل لا محالة مع الإجمال في الطلب بل ينبغي أن يعلم أن رزق الله العبد من حيث لا يحتسب أكثر، فإن انسده عنه باب كان ينتظر الرزق منه فلا ينبغي أن يضطرب قلبه من أجله.

وقد قال عليه السلام: «أبى الله أن يزرق عبده المؤمن إلا من حيث لا يحتسب»^(٥).
وقال المفضل الضبي: قلت لأعرابي من أين معاشك؟ قال: بزاد الحاج. قلت: فإذا صدروا. فبكى فقال: لو لم نعش إلا من حيث ندرى لم نعش.

وقيل لحكيم: من أين تنفق؟ فقال: لو علمت ذلك لنفد. وقال رجل لأبي حازم: إنك فقير. فقال: كيف أكون فقيراً ومولاي له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى. فقال: أترأه يلقى عليك الخبز من السماء. فقال: لو لم تكن الأرض له لكان يلقى عليّ الخبز من السماء. فقال رجل: لا أقوى على مجادلتك. فقال أبو حازم: كذلك الباطل لا يقوى على الحق فهذا دواء القناعة من جهة المعرفة لا بد منه لدفع تخويف الشيطان (وإنذاره)^(٦) بالفقر، قال الله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾^(٧) الآية.

- (١) في إحياء علوم الدين (٣/٢٣٨): فعل.
- (٢) قال العراقي في هامش المصدر السابق: رواه ابن ماجه من حديث حبة، وسواء ابني خالد.
- (٣) قال العراقي في المصدر السابق: رواه أبو نعيم من حديث خالد بن رافع وقد اختلف في صحبته ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من رواية مالك بن عمرو المغافري مرسلًا.
- (٤) قال العراقي في الممنني (٣/٢٣٢): رواه الحاكم من حديث جابر بنحوه وصححه إسناده.
- (٥) قال العراقي في الممنني (٣/٢٣٦): رواه ابن حبان في الضمفاء من حديث علي بن إسناداه، ورواه ابن الجوري في الموضوعات.
- (٦) ما بين القوسين من إحياء علوم الدين (٣/٢٣٦) والفقرة بأكملها فيه.
- (٧) سورة البقرة الآية: ٢٦٨.

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء وما في الطمع والحرص من الذل، فإن تحقق عنده ذلك انبعثت رغبته في القناعة؛ لأنه في الحرص لا يخلو من تعب، وفي الطمع لا يخلو من ذل وليس في / القناعة إلا ألم الصبر عن الشهوات والفضول وهذا ألم لا يطلع عليه [٣٧] أحد وفيه ثواب الآخرة.

وأما ذل الطمع وتعب الحرص: فهو مما يظهر للناس وفيه الوبال والإثم، وفوت عز النفس، والعجز عن إقامة الحق، فإن من كثر حرصه وطمعه كثرت حاجته إلى الناس فلا تمكنه دعوتهم إلى الحق وفي ذلك المداهنة وهلاك الدين. ومن لا يؤثر عز النفس عن شهوات البطن فهو ريك العقل ضعيف الإيمان إذ قال ﷺ: «عز المؤمن استغناء عن الناس»^(١).

وفي الخبر: «ما استغنى أحد بالله إلا افتقر إليه الناس». فقيل: استغن بالله فكل امرء أصبح ترجوه فقير إليك.

الرابع: أن يكثر تأمله في تنعم اليهود والنصارى، وأردال الناس، والحمقاء، والسفهاء، ومن لا دين له ولا عقل. ثم ينظر إلى أحوال الأنبياء والأولياء وإلى سمت، الخلفاء الراشدين وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ويستمتع أحاديثهم ويتطلع أحوالهم ويخير عقله بأن يكون على شبه أردال الخلق أو على الاقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله تعالى. حتى يهون عليه بذلك الصبر على القليل والقناعة باليسير فإنه إن تنعم في البطن فالحمار أكثر أكلاً منه، وإن تنعم في الجماع فالخنزير أعلى رتبة منه - فيما قيل -، وإن تزين باللباس ففي اليهود والروم والسفهاء من هو أعلى رتبة منه وإن قنع بالقليل ورضي به لم يساهمه في رتبته إلا الأنبياء والأولياء وبالله التوفيق^(٢).

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر كما تقدم في آفات المال، وما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع وما في خلو اليد منه من الأمن والفراغ مع الحبس يوم القيامة في الموقف عن باب الجنة خمس مائة / عام. فإنه إذا لم يقنع بما يكفيه التحق بزمرة الأغنياء ويتم [٣٨] ذلك بأن ينظر أبداً إلى من هو دونه في الدنيا.

(١) قال العراقي في المغني (٢٣٧/٣): رواه الطبراني في الأوسط والحاكم وصحح إسناده أبو الشيخ في كتاب الثواب، وأبو نعجم في الحلية من حديث سهل بن سعد أن جبريل قاله للهي ﷺ في أثناء حديث وفيه زفر بن سليمان عن محمد بن عيينة وكلاهما مختلف فيه وجعله القضاعي في مستند الشهاب من قول النبي ﷺ.

(٢) الفقرة بالنص في الإحياء (٢٣٧/٣).

وقد روي عن أبي ذر رحمه الله أنه قال: أوصاني خليلي: أن انظر إلى من هو دوني لا إلى من هو فوقي^(١). - يعني في أمر الدنيا - فهذه الأمور تكسب القناعة وعماد الصبر وقصر الأمل، وأن يعلم أن غاية صبره في الدنيا أياماً قليلة هو سبب التمتع دهوراً لا غاية لها فيكون كالمرضى الذي يصبر على مرارة الدواء لشدة طعمه في انتظار الشفاء^(٢)، وذلك لا يتم إلا بعون الله وتوفيقه، نسأل الله تعالى أن يرزقنا ذلك بمنة وكرمه وفضله إنه أرحم الراحمين.

الفصل الثالث: في ذم الغضب

قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾^(٣). ذم الله الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل ومدح المؤمنين بما أنعم من السكينة.

وفي الحديث أن رجلاً قال: يا رسول الله مرني بعمل يدخلني الجنة وأقلل، قال: «لا تغضب»^(٤).

وعن ابن عمرو أنه سأله عليه السلام فقال: ماذا يتقذني من غضب الله؟ قال: «لا تغضب»^(٥).

وعن ابن مسعود عنه عليه السلام أنه قال: «ما تعدون الصرعة فيكم؟». قلنا: الذي لا يصرعه الرجال. قال: «ليس ذلك ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب»^(٦).

وفي حديث آخر: «ليس الشديد بالصرعة إنما من كفا غضبه ستر الله عورته». وقال بعض البلغاء: من رد غضبه هدّ من غضبه.

وعن داود أو سليمان عليهما السلام: - الشك مني - أنه قال: يا بني إياك وكثرة الغضب؛ [٣٩] فإن كثرة الغضب / تستخف فؤاد الرجل الحليم.

(١) قال العراقي في المغني (٣/٢٣٧): رواه أحمد، وابن حبان في أثناء حديث.

(٢) الفقرة بنصها في إحياء علوم الدين (٣/٢٣٧).

(٣) سورة الفتح الآية: ٢٦.

(٤) أطراف الحديث عند: البخاري (٨/٣٥)، والترمذي (٢٠٢٠)، أحمد (٢/١٧٥)، البيهقي في السنن الكبرى (١٠/١٠٥)، الحاكم (٣/٦١٥)، وقال العراقي في المغني (٣/١٦١) رواه البخاري.

(٥) قال العراقي في المغني (٣/١٦١): رواه الطبراني في معارج الأخلاق، وابن عبد البر في التمهيد بإسناد حسن، وهو عند أحمد، وأن عبد الله بن عمرو هو السائل.

(٦) قال العراقي في المصدر السابق: رواه مسلم.

وعن عكرمة في قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾^(١). قال: السيد الذي لا يغلبه الغضب.

وعن أبي الدرداء قال: قلت يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة. قال: «لا تغضب»^(٢).

وعن يحيى بن زكريا أنه قال لعيسى عليهما السلام: لا تغضب. قال: لا أستطيع أن لا أغضب إنما أنا بشر. قال: لا تقتن مالا. قال: هذا عسى.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل»^(٣). وعنه أيضاً أنه قال: «ما غضب أحد إلا أشفى على جهنم»^(٤). وقال رجل: أي شيء أشد من جهنم؟ قال: «غضب الله». قال: فما يبعثني من غضب الله؟ قال: «أن لا تغضب»^(٥).

وعن الحسن أنه قال: «يا ابن آدم كلما غضبت وثبت يوشك أن تثب وثبة فتقع في النار. وعن ذي القرنين رحمه الله: أنه لقي ملكاً من الملائكة فقال: علمني علماً ازداد به إيماناً وبقيناً. قال: لا تغضب فإن الشيطان أقدر ما يكون على ابن آدم حين يغضب فردّ الغضب بالکظم واسكنه بالثؤدة وإياك والبعيد ولا تكن جباراً عنيداً.

وعن وهب بن منبه أن راهباً كان في صومعة فأراد الشيطان أن يضلّه فلم يستطع، فجاءه حتى ناداه فقال: افتح، فلم يجبه. فقال: افتح فأني إن ذهبت ندمت، فلم يلتفت إليه. فقال: أنا المسيح. فقال الراهب: وإن كانت المسيح فما أصنع بك، ألسنت أمرتنا بالعبادة والاجتهاد ووعدتنا القيامة، فلو جئتنا اليوم بغير ذلك لم نقبله منك. قال: فقال: إني^(٦) الشيطان وقد أردت أن أضلكم فلم استطع فجتتک لتسألني عما شئت فأخبرك. قال: ما أريد أن أسألك عن

(١) سورة آل عمران الآية: ٣٩.

(٢) قال العراقي في المغني (١٦١/٣) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير، والأوسط بإسناد حسن.

(٣) قال العراقي في المصدر السابق: رواه الطبراني في الكبير، والبيهقي في الشعب من رواية بهز بن حكيم عن أبيه عن جده بسند ضعيف.

(٤) وقال العراقي في المصدر السابق: رواه البزار، وابن عدي من حديث ابن عباس: للنار باب لا يدخله إلا من شفي غيظه بمصيبة الله وإسناده ضعيف.

(٥) قال العراقي في المغني (١٦٢/٣): رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمر وبالشرط الأخير منه، قال أيضاً: رواه الطبراني في معارج الأخلاق، وابن عبد البر في التمهيد بإسناد حسن، وهو عند أحمد، وأن عبد الله بن عمرو هو السائل.

(٦) في الأصل: «إنه هو» والتصويب من إحياء علوم الدين (١٦٢/٣).

[٤٠] شيء. قال: فولى مدبراً. فقال له الراهب: ألا تسمع؟ قال: بلى. قال: أخبرني أي أخلاق بني آدم أعون لك عليهم؟ قال: الحدة، إن الرجل إذا كان حديداً قلبناه كما تقلب الصبيان الكرة.

وقال بعض العلماء: إن الشيطان يقول: وكيف يغلبني ابن آدم؟ فإذا رضي جثت حتى أكون في قلبه وإذا غضب طرت حتى أكون في رأسه.

وعن جعفر بن محمد أنه قال: الغضب مفتاح كل شيء. وقال بعض الأنصار: رأس الحمق الحدة، وقائده الغضب، ومن رضي بالجهل استغنى عن الحلم [و]^(١) الحلم، زين ومنفعة، والجهل شين ومضرة والسكوت عن الأحق جوابه.

وعن مجاهد أنه قال: قال إبليس: ما أعجزني بنوا آدم ولم يعجزوني في ثلاث: إذا سكر أحدهم أخذنا بخزائمه، وقدمناه حيث شئنا وعمل لنا بما أجبنا، وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم ونبخله بما في يديه، ونمنيه بما لا يقدر عليه.

وقيل لحكيم: ما أملك فلاناً لنفسه؟! فقال: إذا لا تذله الشهوة، ولا يصرعه الهوى، ولا يغلبه الغضب. وقال بعضهم: إياك وغرة الغضب فإنه يصيرك إلى ذل الاعتذار. وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال: انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه، وأمانته عند طمعه، وما علمك بحلمه إذا لم يغضب، وما علمك بأمانته إذا لم يطعم.

ويروى أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله: أن لا تعاقب عند غضبك فإذا غضبت على رجل فاحبسه، وإذا سكن غضبك فأخرجه فعاقبه على قدر ذنبه ولا تتجاوز به خمسة عشر سوطاً.

وقال بعض السلف لابنه: يا بني لا يثبت العقل عند الغضب كما لا يثبت روح الحي في [٤١] التور المسجود، فأقل الناس غضباً أعقلهم، فإن كان للدنيا كان داهياً / مكراً وإن كان للأخرة كان علماً وحلماً.

ويقال: الغضب عدو العقل، والغضب غول العقل. وكان عمر رضي الله عنه إذا خطب يقول في خطبته: أفلح منكم من حفظ عن الهوى والطمع والغضب. وقال بعض العلماء: من أطاع غضبه وشهوته، أدياه إلى النار.

(١) ما بين المعرفين زيادة من إحياء علوم الدين الموضع السابق.

وقيل: إنه قيل لابن المبارك: أجمل لنا حسن الخلق في كلمة. فقال: ترك الغضب. ويروى أن بعض الأنبياء عليهم السلام قال لمن معه: من تكفل لي أن لا يغضب فيكون معي في درجتي ويكون بعدي خليفتي فقال شاب من القوم: أنا، ثم أعاد عليه فقال الشاب: أنا. ووفى له فلما مات كان في منزلته بعده وهو ذو الكفل في قول بعضهم: سمي به لأنه؛ تكفل بترك الغضب فوفى به. وعن وهب بن منبه أنه قال: للكفر أربعة أركان: الغضب والشهوة والخرق والطمع^(١).

بيان حقيقة الغضب

اعلم أن الله سبحانه لما خلق الحيوان معرضاً للفساد والموتان بأسباب في داخل بدنه، وأسباب خارجة عنه أنعم عليه بما يحيمه من الهلاك والفساد إلى وقت الأجل المعلوم.

أما السبب الداخل: فهو أنه^(٢) ركب من الرطوبة، والحرارة، فهما متعاديتان متضادتان، والحرارة تجفف الرطوبة حتى تتغشى أجزاءها، وتصير بخاراً يتصاعد منها، ولو لم يتصل بالرطوبة مدد من الغذاء يجبر ما أنحل من أجوائها لفسد الحيوان. فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان وخلق في الحيوان شهوة تبعث على تناول الغذاء كالموكل به في جبر ما انكسر وتحلل ليكون ذلك حافظاً له من الهلاك بهذا السبب^(٣).

وأما الأسباب الخارجة: فكالسيف والسنان وسائر المهلكات التي يقصد بها / فافتقر إلى [٤٢] قوة وحمية تثور من باطنه، فيدفع بها المهلكات عنه، فخلق الله الغضب فعجنه بطينة الإنسان فمتى قصد بمكروه اشتعلت نار الغضب، واثارت ثوراناً يغلي بها دم القلب ويتشر من العروق ويرتفع إلى أعالي البدن كما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر.

لذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين والبشرة بصفائها تحكي لون ما ورائها من حمرة الدم كما تحكي الزجاجاة لون ما فيها وإنما ينصب الدم إذا غضب على من دونه، واستشعر القدر عليه. فإن صدر الغضب عمّن فوقه وكان معه إياس من الانتقام تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجسد إلى جوف القلب وصار جزعاً، ولذلك يصفّر اللون وإن كان على نظير شك فيه تولد منه تردد من انقباض، وانبساط فيحمر ويصفّر ويضطرب وبالجملة قوة الغضب

(١) الفقرة بتمامها في إحياء علوم الدين (٣/١٦٢: ١٦٣).

(٢) في الأصل: «أن». والتصويب من المصدر السابق.

(٣) راجع السبب الداخل بنصه في المصدر السابق.

ملحها القلب، وإنما توجهه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها. فالانتقام قوة هذه القوة وهي على درجات ثلاث: في أول الفطرة من التفریط، والإفراط والاعتدال.

أما التفریط: ففقدته هذه القوة أو ضعفها وذلك مذموم وهو الذي يقال فيه لا حمية له. ولذلك قال الشافعي: من استغضب ولم يغضب فهو حمار ومن استرضى ولم يرض فهو شيطان؛ لأن من فقد قوة الغضب والحمية، فهو ناقص جداً وقد وصف الله تعالى الصحابة بالشدة والحمية فقال: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾^(١). وقال لنبه عليه السلام: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾^(٢) الآية. وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية وهو الغضب.

[٤٣] وأما الإفراط: فهو أن تغلب عليه هذه الصفة / حتى يخرج من سياسة العقل والدين فمهما اشتدت نار الغضب اعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة ولا تبقي للمرء معها بصيرة فإذا وعظ لم يسمع بل زاده الغضب عمأ وصمماً، وإن استضاء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر إذ ينطفئ نور العقل بدخان الغضب.

فإن معدن الفكر الدماغ ويتصاعد عند شدة الغضب من غليان دم القلب دخان إلى الدماغ مظلم يستولي على معادن الفكر وربما يتعدى إلى معادن الحس فتظلم عينه وتسود الدنيا بأسرها ويكون دماغه مثل كهف أضمرت فيه نار فاسود وجهه وحمي مستقره وامتألت بالدخان جوانبه وكان فيه سراج ضعيف، وبالْحَقِيقَةُ فالسفينية في ملتطم الأمواج عند اضطراب الرياح أحسن حالاً وأرجى سلامة من النفس المضطربة غيضاً؛ إذ في السفينة من يحتال لتسكينها.

وأما القلب فهو صاحب السفينة وقد سقطت حيلته إذ أعماه الغضب وأصمه وربما تقوى نار الغضب فتضى الرطوبة التي بها حياة القلب، فيموت صاحبه غيضاً كما تقوى النار في الكهف فيشتق، وتَهْدَأُ أعاليه على أسافله، فهكذا حال القلب مع الغضب.

وأما آثار الغضب في الظاهر: فانقلاب صورته، وتغير وجهه، وارتعاد أطرافه، وانطلاق لسانه بما يستحى من ذكره، وخفة عقله ووثوبه من مجلس كأنه نمر، وسرعة التفاته يميناً وشمالاً كأنه قرد، وعدم فهمه ما يسمع كأنه بهيمة، وقلة التفاته إلى من يعظه كأنه أحمق، ولو رأى الغضبان قبح صورته في حال غضبه لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته.

[٤٤] وفي كتاب سراج الملوك قال: / وكان سبب موت مروان بن عبد الملك وقع بينه وبين

(١) سورة الفتح الآية: ٢٩.

(٢) سورة التحريم الآية: ٩.

أخيه سليمان بن عبد الملك كلام فعجل عليه سليمان فقال: يا من يلحق أمه. ففتح فاه ليحييه فأمسك عمر بن عبد العزيز على فيه وردّ كلامه وقال: يا ابن عبد الملك أخوك وإمامك. قال: قتلتني يا أبا حفص. قال: وما صنعت بك؟ فقال: رددت في جوفي أحرّ من الجمر، ثم مال بجنبه فمات من وقته.

وأما أثر الغضب في القلب مع المغضوب عليه: فالحقد، والحسد، وإضمار السوء والشماتة بالمساءات، والحزن بالمسرات، والعزم على إفشاء السر، وهتك الستر والاستهزاء وغير ذلك من القبائح فهذه ثمرة الغضب المفرط^(١).

وأما ثمرة الضعيف الغضب^(٢) فقلة الأنفة من التعرض للحرم والزوجة والأم واحتمال الذل من الأخساء، وهو أيضاً مذموم إذ من ثمرته عدم الغيرة على الحرم.

وقد روي عنه عليه السلام أنه قال: «إن سعداً لغيور وأنا أغير من سعد والله أغير منا»^(٣). وقيل: لأجل ذلك حرم الفواحش، وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب إذ لو تسامح الناس فيها لاختلطت الأنساب.

ولذلك قيل: كل أمة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نساها، ومن ضعف الغضب أيضاً الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات. وقد قال عليه السلام: «خير أمتي أحداؤها»^(٤) يعني في الدين.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾^(٥). بل من فقد الغضب عجز من رياضة نفسه؛ لأن الرياضة إنما تثمر بتسليط الغضب على الشهوة حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة، ففقد الغضب مذموم والله أعلم. وقال بعض العلماء: أول الغضب جنون / وآخره ندم. وفي الحكمة: من أطاع الغضب حرم السلامة ومن عصى الحمق [٤٥] غمره الذل.

(١) راجع هذه الفقرة في المصدر السابق.

(٢) في الإحياء الحمية الضعيفة، (٣/١٦٤).

(٣) قال العراقي في المعني (٣/١٦٤): رواه مسلم من حديث أبي هريرة، وهو متفق عليه من حديث المغيرة بنحوه.

(٤) قال العراقي في المعني (١٣/١٦٥): الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث علي بن بسند ضعيف، وزاد: الذين إذا غضبوا رجعوا.

(٥) سورة النور الآية: ٢.

وأما الاعتدال في الغضب: فهو الذي يتنظر إشارة العقل والدين فينبعث حيث تجب الحمية، وينطفئ حيث يحسن الحلم، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عبادة وهو الوسط الذي وصفه عليه السلام حيث قال: «خير الأمور أوسطها»^(١).

وقد قال الله لنبيه عليه السلام: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاَعْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾^(٢). وقال أيضاً: ﴿وَإِخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣).

ويروى عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: يا بني لا تكن حلواً عند السفهاء فيبتلعونك ولا مرّاً عند الفقهاء فيرفضوك.

وفي المثل: لا تكن رطباً فتعصر ولا يابساً فتكسر إشارة إلى وسط الأمور، فمن مال غضبه إلى الفتور والضعف حتى أحس من نفسه ضعف الغيرة، واحتمال الذل في غير محله، فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوي غضبه ومن مال غضبه إلى الإفراط جره إلى التهور، واقتحام الفواحش، فينبغي أن يعالج نفسه ليكسر من فوره الغضب ويقف على الأوسط بين الطرفين وهو الصراط المستقيم وهو أدق من الشعر، وأحد من السيف فهذه حقيقة الغضب ودرجاته.

فصل

وأما هل يمكن إزالة الغضب بالرياضة فقد اختلف في ذلك، ولكن الحق فيه، ما نذكره وذلك أن الذي يغضب الإنسان من أجله ثلاثة أقسام:

أحدهما: ما هو ضرورة في حق الكفاة وهو القوت، المسكن والملبس وصحة البدن، فمن قصد بدنه بالضرب أو الجرح فلا بد أن يغضب، وكذلك ما يوارى عورته أو يسد جوعته، [٤٦] أو إخراج من داره لا يخلو الإنسان من غيظ على / من أخذ منه هذه الأشياء.

الثاني: ما ليس بضروري كالجاه وفضول المال، فإن الزاهد في الدنيا ربما لا يغضب إذا أخذ منه لعدم حبه له، وأما الراغب فيها فإنه يغضب لأنه محبوب عنده.

الثالث: ما يكون ضرورياً في حق بعض الناس كأدوات الصناعات، وكتب العالم، فإن هؤلاء يغضبون إذا أخذت منهم لأنهم بها يتوصلون إلى المكاسب فصارت محبوبة عندهم وهذا

(١) قال العراقي في المعني: (١٦٥/٣): رواه البيهقي في الشعب مرسلأ.

(٢) سورة التحريم الآية: ٩.

(٣) سورة الشعراء الآية: ٢١٥.

أيضاً يختلف بالأشخاص وإنما الحب الضروري ما أشار إليه النبي ﷺ بقوله: «من أصبح أمناً في سربه معافاً في بدنه وعنده قوت يومه فكانما حيزت له الدنيا بحذافيرها»^(١). ومن كان بصيراً بحقائق الأمور وسلمت له هذه الثلاثة يتصور أن لا يغضب في غيرها.

وأما إزالة الغضب من القلب: فهو مقتضى الطبع فذلك غير ممكن، وقد كان النبي ﷺ يغضب حتى تحمر وجتاه حتى قال: «اللهم إني بشر أغضب كما يغضب البشر»^(٢) وعن علي بن أبي طالب أنه قال: كان عليه السلام لا يغضب للدنيا، فإذا أغضبه الحق لم يقربه أحد ولم يقم لغضبه شيء حتى يتصر له فكان لا يغضب إلا على الحق^(٣).

ونعم قد يفقد أصل الغضب فيما هو ضروري إذا كان القلب مشغولاً بضروري أهم منه فلا يكون في القلب متسع للغضب لاشتغاله بغيره، فإن استغراق القلب ببعض المهمات يمنع الإحساس بما عده، وهذا كما حكى أن سلمان رحمه الله لما سُئِم قال: إن حَفَّت موازيني فأنا شر مما تقول، وإن ثقلت موازيني لم يضرني ما تقول فكان همه مصروفاً إلى الآخرة فلم يتألم قلبه بالشتم.

ولذلك سُئِم الربيع بن خيثم، فقال: يا هذا قد سمع الله كلامك، وإن دون الجنة عقبة، إن قطعها لم يضرني/ ما تقول، وإن لم أقطعها فأنا شر مما تقول. وروي أن رجلاً [٤٧] سب أبا بكر رضي الله عنه فقال: ما ستر الله عنك أكثر. فكأنه كان مشغولاً بالنظر في تقصير نفسه فلم، يغضبه نسبة غيره إياه إلى نقصان إذ كان ينظر إلى نفسه بعين التقصان وذلك لجلالة قدره.

وروي أن امرأة قالت لمالك بن دينار: يا مراثي. فقال: ما عرفني غيرك فكأنه كان مشغولاً بأن ينفي عن نفسه آفة الرياء فلم يغضب لما نسب إليه. فهذه الأقاويل دالة في الظاهر على أنهم لم يغضبوا؛ لاشتغال قلوبهم بمهمات دينهم، ويحتمل أن يكون قد أثر في قلوبهم ولكنهم لم يشتغلوا به والله أعلم^(٤).

(١) قال العراقي في المغني (١٦٦/٣): رواه الترمذي، وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن دون قوله «بحذافيرها» قال الترمذي حسن غريب.

(٢) قال العراقي في المغني (١٦٧/٣): رواه مسلم من حديث من جابر: كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه، وللحاكم: كان إذا ذكر الساعة احمرت وجتاه واشتد غضبه.

(٣) قال العراقي في المصدر السابق: رواه الترمذي في الشمائل.

(٤) راجع هذه الآثار في إحياء علوم الدين للقرظي (١٦٧/٣).

فصل: فيما يهيج الغضب

وروي أن يحيى قال لعيسى عليهما السلام: أي شيء أشد؟ قال: غضب الله. قال: فما يقرب من غضب الله؟ قال: أن تغضب. قال: فما ييدي الغضب؟ قال عيسى: الكبير، والفخر، والتعزز، والحمية.

وأما الأسباب التي تهيج الغضب فهي الزهو، والعجب، والمزح، والهزل، والهزاء، والتعير، والممارسة، والمضارة، والغدر، وشدة الحرص على فضول المال والجاه، وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعاً، فلا خلاص عن الغضب مع بقاء هذه الأسباب فلا بد من إزالتها بأضدادها. فينبغي أن يميت الزهو: بالتواضع، ويميت العجب بالمعرفة بنفسه، ويزيل الفخر بأنه من جنسه عبده، إذا الناس يجمعهم في النسب آدم عليه السلام وإنما اختلفوا في الفضل.

وأما المزح: فيزيله بالاشتغال بالمهمات الدينية التي يستوعب العمر دونها.

وأما الهزل فيزيله: بالجد في طلب الفضائل والعلوم الدينية.

وأما الهزاء: فيزيله بالتكرم عن إيذاء الناس وبصيانة النفس عن أن يستهزأ به.

[٤٨]

وأما التعير: فبالحذر عن القول القبيح.

وأما شدة الحرص على فضول العيش: فيزال بالقناعة بقدر الضرورة طلباً لعر الاستغناء

وهكذا كل خلق رديء يزال بضده ويفتقر في ذلك إلى رياضة وتحمل مشقة، حتى يصير بالعادة مالوفاً هيناً على النفس^(١) والله أعلم.

فصل: في علاج الغضب

اعلم أن الغضب إنما يعالج عند هيجانه، بمعجون العلم والعمل، أما العلم فهو خمسة أمور:

أولها: أن يتفكر من الأخبار التي تأتي من فضل كظم الغيظ والحلم ويرغب في ثوابها فيمنعه عن التشفي والانتقام ويتفي غضبه.

وعن مالك بن أوس قال: غضب عمر على رجل وأمر بضربه، فقلت: يا أمير المؤمنين

﴿حُذِرَ الْعَفْوُ وَأُمِرَ بِالْعُرْفِ﴾^(٢) وكان وقافاً^(٣) على كتاب الله مهما تلي عليه، كثير التدبير فيه،

(١) راجع هذه الأسباب بشيء من التفصيل في كتاب إحياء علوم الدين (٣/١٦٨).

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٩٩.

(٣) في الأصل: «واقفاً» وهو تحريف.

تدبرها وخليّ الرجل . قال : وأمر عمر بن عبد العزيز بضرب رجل ثم تلى قوله : ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾^(١) . قال لغلامه : خلّ عنه .

الثانية : أن يخوف نفسه بعداب الله تعالى ، وقد روي أن الله سبحانه يقول : في بعض الكتب : يا ابن آدم اذكرني حيث تغضب أذكرك حيث أغضب فلما أمحكك فيمن أمحك .

ويروي أن النبي ﷺ بعث وصيفاً إلى حاجة فأبطأ عليه فلما جاء قال : «لولا القصاص لأوجعتك»^(٢) أي القصاص في القيامة .

قيل : لم يكن في بني إسرائيل ملك إلا ومعه حكيم إذا غضب أعطاه صحيفة وفيها : أرحم المساكين واخش الموت وأذكر الآخرة فكان يقرأها حتى يسكن غضبه .

الثالث : أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام ، وتشمر العدو بمقابلته ، والسعي في هدم / أغراضه والشماتة بمصائبه ، فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من [٤٩] الآخرة ، وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب ، وليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه إلا أن يكون محذوره أن يشوش فراغه للعلم أو للعمل للآخرة فيكون مثاباً عليه .

الرابع : أن يتفكر في قبح صورته عند غضبه ، بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب ، ويتفكر في قبح الغضب في نفسه ، ومشابهة صاحبه للكلب الضاري والسبع العادي ، ومشابهة التارك للغضب للأنبياء ، والحكماء ، ويخبر نفسه بأن يشبه الكلاب والسباع وأراذل^(٣) الناس ، وبين أن يشبه الأنبياء والعلماء ليميل بالافتداء إليهم إن كان قد بقي معه مسكة من عقل .

الخامس : أن يتفكر من السبب الذي يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ ولا بد أن يكون له سبب مثل قول الشيطان له : إن هذا عمل منك بالعجز والمهانة تصير به حقيراً في أعين الناس ، فليقل لنفسه : ما أعجبك تأنفين من الاحتمال الآن ، ولا تأنفين ، من خزي يوم القيامة أفلا تحب أن تكون هو القائم إذا نودي يوم القيامة : ليقم من أجره على الله فلا يقوم إلا من عفي فهذا وأمثاله من معارف الإيمان ينبغي أن يقرره على نفسه .

(١) سورة آل عمران الآية : ١٣٤ .

(٢) قال العراقي في المعني عن حمل الأسفار (١٦٩/٣) : رواه أبو يعلى من حديث أم سلمة بسند ضعيف .

(٣) في الأصل : «أراذل» . والتصويب من إحياء علوم الدين (١٦٩/٣) .

وأما العمل فبأن يقول بلسانه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وهكذا أمر النبي ﷺ أن يقول عند الغضب^(١).

ويروى أنه عليه السلام كان إذا غضبت عاتشة أخذ بأنفها وقال: «يا عويش قولي اللهم رب محمد اغفر لي ذنبي، واذهب غيظ قلبي، وأجرني من مضلات الفتن»^(٢).

ويستحب أن يقول ذلك، فإن لم يزل بذلك فليجلس إن كان قائماً وليضطجع إن كان جالساً [٥٠] وليتقرب من الأرض التي منها خلق؛ / ليعرف بذلك ذل نفسه وليطلب بالجلوس والاضطجاع السكوت فإن سبب الغضب الحرارة وسبب الحرارة الحركة.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الغضب جمرة تتوقد في القلب ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس وإن كان جالساً فليتم، فإن لم يزل ذلك فليتوضأ أحدكم بالماء البارد وليغتسل فإن النار لا يطفئها إلا الماء»^(٣).

وعنه أيضاً قال: «إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فإن الغضب من النار»^(٤). وفي رواية أخرى: «إن الغضب من الشيطان وأن الشيطان خلق من نار وإنما تطفئ النار بالماء».

وروي أن عمر رضي الله عنه غضب يوماً فدعا بماء فاستشق وقال: إن الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب. وقال بعض الحكماء: داووا الغضب بالكسوت وروي عن عوف بن محمد قال: لما استعملت على اليمن قال لي أبي: أوليت؟ قلت: نعم. قال: إذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك وإلى الأرض تحتك ثم انظر إلى خالقهما. وروي أن أبان قال لرجل: يا ابن الحمراء من خصومة بينهما فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «يا أبا ذر بلغني أنك اليوم عيرت رجلاً بأمه». قال: بلى، فانطلق أبو ذر ليرضي صاحبه فسببه الرجل فسلم عليه. فذكر

(١) كذا في الأصل وفي إحياء علوم الدين: الغيظ، وقال العراقي تعليقاً على الحديث: متفق عليه من حديث سليمان بن سرد قال كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يستان فأحدهما احمر وجهه وانتفخت أوداجه. الحديث.. وفيه: لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما يجد، فقالوا له: إن النبي ﷺ قال: تعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. الحديث.

(٢) قال العراقي في المغني (٣/ ١٧٠): رواه ابن السني في اليوم والليلة من حديثها.

(٣) قال العراقي في المصدر السابق: رواه الترمذي من حديث أبي سعيد دون قوله: «توقد» وقد تقدم ورواه بهذه اللفظة البيهقي في الشعب.

(٤) وقال في المصدر نفسه: رواه أبو داود من حديث عطية السعدي.

ذلك للنبي ﷺ فقال: «يا أبا ذر ارفع رأسك وانظر، ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل» ثم قال: «إذا غضبت فإن كنت قائماً فاضطجع»^(١).

وعن المعتمر بن سليمان أنه قال: كان رجل ممن كان قبلكم يغضب فيشتد عليه غضبه فكتب ثلاث صحائف، فأعطى كل صحيفة منها رجلاً وقال الأول: إذا غضبت فاعطني / هذه. [٥١] وقال الثاني: إذا سكن بعض غضبي فاعطني هذه. وقال الثالث: إذا ذهب غضبي فاعطني هذه فاشتد غضبه يوماً، فأعطى الصحيفة الأولى فإذا فيها: ما أنت وهذا الغضب؟ إنك لست بإله إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً، فسكن بعض غضبه. فأعطى الثانية: فإذا فيها: ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء. فأعطى الثالثة فإذا فيها: خذ الناس بحق الله؛ فإنه لا يصلحهم إلا ذلك أي لا تعطل الحدود. قال: وغضب المهدي يوماً على رجل، فقال: شيب لا تغضبن؛ الله بأشد من غضبه لنفسه. فقال: خلوا سبيله^(٢).

فصل: في فضيلة كظم الغيظ

قال الله تعالى: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ﴾^(٣). فذكر ذلك في معرض المدح وعن النبي ﷺ أنه قال: «من كف غضبه كف الله عنه عذابه، ومن اعتذر إلى ربه قبل الله عذره، ومن خزن لسانه ستر الله عورته»^(٤).

وعنه ﷺ أنه قال: «أشدكم من غلب نفسه عند الغضب، وأحلمكم من عفا بعد القدرة»^(٥).

(١) قال العراقي في المغني (١٧١/٣): رواه ابن أبي الدنيا في المعفو وذم الغضب بإسناد صحيح، وفي الصحيحين من حديثه قال: كان بيني وبين رجل من إخواني كلام وكانت أمه أعجمية فغيرته بأمة فشكلاني إلى النبي ﷺ فقال: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية» ولأحمد أنه ﷺ قال له: «انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى» ورجاله ثقات.

(٢) راجع الباب بأكمله في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي (١٧١: ١٦٩/٣).

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٣٤.

(٤) قال العراقي في المغني (١٧١/٣): رواه الطبراني في الأوسط والبيهقي وفي شعب الإيمان واللفظ من حديث أنس بإسناد ضعيف ولابن أبي الدنيا من حديث ابن عمر: من ملك غضبه وقاه الله عذابه الحديث.

(٥) قال العراقي في المصدر السابق: رواه ابن أبي الدنيا من حديث علي بسند ضعيف، والبيهقي في الشعب بالشرط الأول من رواية عبد الرحمن بن عجلان مرسلًا بإسناد جيد، وللزار، والطبراني في معارج الأخلاق واللفظ له من حديث أشدكم أمملككم لنفسه عن الغضب وفيه عمران القطان مختلف فيه.

وعنه عليه السلام: «من كظم غيظاً لو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضاً»^(١). وفي رواية أخرى: «ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً».

وعن ابن عمر عنه عليه السلام قال: «ما جرع عبد جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله»^(٢). وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لجهنم باباً لا يدخله إلا من شفى غيظه بمعصية الله».

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من كظم غيظه وهو يقدر»^(٣) على أن ينفذ دعاه الله [٥٢] على / رؤوس الخلائق يختار أي الحور شاء».

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: من اتقى الله لم يشف غيظه، ومن خاف الله لم يفعل ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون. وعن لقمان أنه قال لابنه: يا بني لا تذهب ماء وجهك بالمسألة، ولا تشف غيظك بفضيحتك، واعرف قدرك تنفك معيشتك.

وقال بعض العلماء: حلم ساعة يدفع شراً كثيراً ويقال: أفضل الأعمال الحلم عند الغضب، والصبر عند الطمع قال: وشمتم رجل بعض العلماء فقال: لست أدخل في حرب الغالب فيها شر من المغلوب.

ويروى أن رجلاً قال لأبي ذر رحمه الله: أنت الذي نفاك معاوية من الشام لو كان فيك خير ما نفاك. فقال: يا ابن أخي إن من ورائي عقبه كؤود إن نجوت منها ما ضرني ما قلت، وإن لم أنج منها فأنا شر مما قلت. وقال رجل لأحنف بن قيس: لئن قلت واحدة لتسمعن عشراً.

فقال الأحنف: لكنك إن قلت عشراً لم تسمع مِنِّي واحدة. قال: وسبَّ رجل بعض الحكماء فاعرض عنه. فقال: إياك عني. فقال له الحكيم: وعنك أعرض. وفي هذا المعنى قال الشاعر:

قل ما بكأ لك من زور ومن كذبٍ جَلَمِي أعمم وأذني غيرُ صَمَاءِ

(١) وقال أيضاً عن هذه الحديث: رواه ابن أبي الدنيا بالرواية الأولى من حديث ابن عمر، وفيه سكنين بن أبي سراج تكلم فيه ابن حبان، وأبو دواد بالرواية الثانية من حديث رجل من أبناء أصحاب النبي ﷺ عن أبيه، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة وفيه من لم يسم.

(٢) وقال العراقي أيضاً عنه في نفس المصدر: حديث ابن عمر... رواه ابن ماجه.

(٣) في الإحياء (١٤٦/٣، ١٧٢): «قادر». وقال العراقي في المعني بهامش الرقم الأول: رواه أبو دواد، والتزمذي وحسنه، وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس.

وقيل لعمر بن عبيد: إن فلاناً نال منك. فقال: الموت يعمننا، والحشر يضمنا، والقيامه تجمعننا، والرب يقضي بيننا.

ويروى أن امرأة كانت تغزل، فجاءت صببية فقطعت لها غزلها سبعين مرة، فلم تغضب. فقيل لها في ذلك فقالت: يجزيني الله فأجتهد حتى أكون من الصالحات.

ويروى أن عيينة بن حصن كان له ابن أخ، وكان عمر رضي الله عنه يديه، فدخل عيينة يوماً مع ابن أخيه على عمر. فقال عيينة: والله ما تقضي بالعدل ولا تعطي الجزل.

/ فغضب عمر حتى عرف الغضب في وجهه، فقال ابن أخي عيينة: يا أمير المؤمنين ألم [٥٣] تسمع قول الله تعالى: ﴿حُذِّدُوا الْعُقُورَ وَأُمُرُوا بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(١). فقال عمر: صدقت، فكأنما كنت^(٢) ناراً فاطفت. وقال محمد بن كعب: ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان بالله، إذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرج غضبه من الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له.

ويروى أن رجلاً قال لسلمان رحمه الله: يا أبا عبد الرحمن أوصني. فقال: لا تغضب. قال: لا أقدر. قال: فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك^(٣) والله أعلم.

فصل: في فضيلة الحلم

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ؛ لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم: وهو تكلف الحلم بالمجاهدة حتى يكون له ذلك عادة، فإذا هاج غيظه لم يكن عليه في كظمه تعب وهو الحلم الطبيعي وهو دلالة كمال العقل، وإنكسار قوة الغضب، وخضوعها له، ولكن ابتداء التحلم وكظم الغيظ تكلف.

وقد قال عليه السلام: «إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه»^(٤). أشار بهذا أن اكتساب الحلم طريقة التحلم. أولاً وتكلفه، كما أن اكتساب العلم طريقة التعلم. وقيل للأحنف بن قيس: ما أحلمك؟! فقال: لست بحليم ولكني أتحلم،

(١) سورة الأعراف الآية: ١٩٩.

(٢) في الإحياء: كانت (١٧٢/٣).

(٣) راجع الباب مختصراً في إحياء علوم الدين الموضع السابق.

(٤) قال العراقي في المعنى (١٧٢/٣): رواه الطبراني، والدارقطني في العلل من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف.

والله إني لأسمع الكلمة وأحمى لها ثلاثاً وما يمنعني من جوابها إلا خوف من أن أسمع شراً منها. وقد قال الشاعر:

وليس يَمِّمَ الحلمَ للمرء راضياً إذا كان عند الشُّخْط لا يتحلَّمُ
كما لا يَمِّمُ الجود للمرء موسراً إذا كان عند العسر لا يتحسَّم

[٥٤] وعن أكرم بن صيفي أنه قال: لا يكون الرجال حليماً حتى يقول السفیه / إنه لضعيف مستذل، ولا يكون مخلصاً حتى يقول الأحمق إنه لمفسد. ويقال إن^(١) أشعر بيت قيل في الحلم قول كعب بن زهير:

إذا أنت لم تُعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِ وَالْخَنَا
فَتُضَيِّحُ أَمَا نَالَ عِرْضَكَ جَاهِلٌ
أَصَبْتَ حَلِيمًا أَوْ أَصَابَكَ جَاهِلٌ
سَفِيهَةٌ وَإِمَّا نِلْتَ مَا لَا تُحَاوِرُ

فالحلم من أشرف الأخلاق وأحقها بذوي الألباب لما فيه من سلامة العرض، وراحة الجسد، واجتلاب الحمد. وعن سفیان ابن عینة أن النبي ﷺ قال: «لما نزلت عليّ هذه الآية: ﴿خُذِ الْعَوْفَ﴾. قال: «يا جبريل: ما هذا؟». قال: لا أدري حتى أسأل العليم، ثم عاد جبريل فقال: يا محمد إن ريك يأمرك أن تصل من قطعك وتُعطي من حرَمك وتغفو عن ظلمك.

وروي أنه قال: «لما تركت الآية قال جبريل: يا محمد إني أتيتك بمكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة: ﴿خُذِ الْعَوْفَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢). وعن النبي ﷺ أنه قال: «خمس من سنن المرسلين: الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر»^(٣).

وعنه أيضاً أنه قال: «إن الرجل المسلم ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم، وإنه ليكتب جباراً وما يملك إلا أهل بيته»^(٤).

وعنه أيضاً أنه قال: «إن الله يحب الحليم الخيئ ويغض الفاحش البذيء»^(٥) وعن

(١) في الأصل: من وأحسبه تحريف من الناسخ.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٩٩.

(٣) قال العراقي في المغني (١٧٣/٣): رواه أبو بكر بن أبي عاصم في المثاني والآحاد، والترمذي الحكيم في نوادر الأصول من رواية مليح بن عبد الله الخطمي عن أبيه عن جده، والترمذي وحسنه من حديث أبي أيوب أربع فأسقط الحلم والحجامة وزاد: النكاح.

(٤) وقال العراقي المغني في الموضوع السابق: رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف.

(٥) أورد الغزالي في الإحياء أتم منه (١٧٤/٣) وعلق عليه العراقي بهامشه فقال: رواه الطبراني من حديث سعد: إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي.

علي بن أبي طالب أنه قال: من حلم ساد، ومن تفهم ازداد. وقال بعض العلماء: من غرس شجرة الحلم اجتنى ثمرة السلم، وينشد:

أحب مكارم الأخلاق جُهدي وأكره أن أعيبَ وأن أعابَا
وأضفحَ عن سبَابِ النَّاسِ حِلْمًا وَشَرُّ النَّاسِ مَنْ يَهْوَى السَّبَابَا
وَمَنْ هَابَ الرَّجَالُ تَهَيُّوهُ وَمَنْ حَفَرَ الرَّجَالُ فَلَنْ يُهَابَا

ويروى أن بعض السلف من المسلمين قال: اللهم ليس عندي / صدقة أتصدق بها فأبما [٥٥] رجل أصاب من عرضي شيئاً فهو عليّ صدقة. فأوحى الله إلى النبي ﷺ: أنه غفر له^(١).

وعن النبي ﷺ أنه قال: «أعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم». قالوا: وما أبو ضمضم؟ قال: «رجل ممن كان قبلكم إذا أصبح يقول: اللهم إني أتصدق اليوم بعرضي على عبادك»^(٢). وقيل في قوله تعالى: ﴿رَبَائِنَ﴾^(٣). أي علماء حكماء. وحدث الحلم ضبط النفس عند هيجان الغضب وهذا يكون لباعث وسبب. وأسباب الحلم الباعثة عن ضبط النفس عشرة:

أحدها الرحمة للجاهل: وذلك من خير يوافق رقة. وعن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾^(٤). قال: حلماء إن جهل عليهم لم يجهلوا. وعن عطاء بن أبي رباح في قوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾. أي حلماء.

وعن مجاهد في يقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾^(٥). أي إذا أودوا صفحوا.

ويروى أن ابن مسعود رحمه الله مرّ ببلغو معرضاً، فقال عليه السلام: «أصبح ابن مسعود

(١) قال العراقي في المعني (١٧٣/٣): رواه أبو نعيم في الصحابة، والبيهقي في الشعب من رواية عبد المجيد بن أبي عيسى بن جبر عن أبيه عن جده بإسناد لين، زاد البيهقي عن علي بن زيد، وعليه هو الذي قال ذلك كما في أثناء الحديث وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أنه رواه ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رجلاً من المسلمين ولم يسمه - وقال أظنه أبا ضمضم - قلت: وليس بأبي ضمضم وإنما هو علي بن زيد، أبو ضمضم ليس له صفة وإنما هو مقدم.

(٢) طرفه في: موضع أوهام الجمع والتفريق للبغدادي (٢٧/١).

(٣) سورة آل عمران الآية: ٧٩.

(٤) سورة الفرقان الآية: ٦٣.

(٥) سورة الفرقان الآية: ٧٢.

وأمسى كريماً^(١) ثم تلى إبراهيم بن ميسرة وهو الراوي فيما قيل: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾. وقيل في مشور الحكم: من أوكد الحلم رحمة الجهال.

ويروى أن رجلاً سبَّ الأحضف وهو يماشيه في الطريق، فلما قرب من المنزل، وقف الأحضف وقال: يا هذا إن كان بقي معك شيء فقله هاهنا؛ فإني أخاف أن يسمعه فتیان الحي فيؤذوك.

وعن أبي الدرداء أنه قال للرجل وقد اسمعه كلاماً: يا هذا لا تفرقن في سبنا ودع للصلح موضعاً؛ فإننا لا نكافئ من عصى فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه. قالوا: واغتاطت عائشة رضي الله عنها على خادم لها / ، ثم رجعت إلى إلى نفسها فقالت: لله در التقوى ما تركت لذي غيظ شفاه.

والثاني من أسباب الحلم القدرة على الانتصار: وذلك من سعة الصدر وحسن الثقة. وقد روي أن النبي ﷺ قال: «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه».

وقد روي أن معاوية قسّم قطفاً، فأعطى شيخاً من أهل ذي مشق قטיפه فلم تعجبه، وحلف أن يضرب بها رأس معاوية، فأتاه فأخبره، فقال معاوية: أوف بندرك وليرفق الشيخ بالشيخ.

والثالث من أسبابه الترفع عن السباب: وذلك من شرف النفس وعلو الهمة كما قالت الحكماء: شرف النفس أن تتحمل المكاره كما تتحمل المكارم. وقد قيل: إن الله عز وجل سعى يحيى سيدّ الحلمة. قال الشاعر.

لَنْ يَبْلُغَ الْجِلْمَ أَتْوَامٌ وَإِنْ كَرُمُوا حَتَّى يَذَلُّوا وَإِنْ عَزَّوْا الْأَقْوَامَ
وَتُسْتَمَوْا وَتَرَى الْأَلْوَانَ مُسْفِرَةً لَا صَفْحَ ذَلِكَ وَلَكِنْ صَفْحَ إِكْرَامِ

والرابع من أسبابه الاستهانة بالسباب: وذلك عن ضرب من الكبر والاعجاب، كما حكى عن مصعب بن الزبير أنه لما ولي العراق وجلس يوماً لعطاء الجند فأمر مناديه فنادى ابن عمر بن جرموز وهو الذي قتل أباه الزبير فقال: أيها الأمير إنه قد باعد في الأرض، فقال: أوظن الجاهل أنني أقيده بأبي عبد الله فليظهر أمنأ وليأخذ عطاه موفراً. فعد الناس ذلك من مستحسن الكبر. وفي مثل ذلك قال بعض الشعراء:

(١) قال العراقي في المعنى (٣/١٧٣): رواه ابن المبارك في البر والصلوة.

أَوْكُلَّمَا طَرَنَ الدُّبَابُ طَرَدْتُهُ إِنَّ الدُّبَابَ إِذَا عَلَيَّ كَرِيمٌ

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا يُعَدَّنْ / بشيء من عمله، تقوى تحجزه عن معاصي الله، وحلم يكف السفية به، [٥٧] وخلق يعيش به في الناس»^(١).

الخامس من أسبابه الاستحياء من جزاء الجواب: وهذا يكون من صيانة النفس وكمال المروءة، قال بعض الحكماء: احتمال السفية أيسر من التحلي بصورته والأغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته. وقال بعض الأدباء: ما أفحش حلیم ولا أوحش كريم. وينشد للقيظ بن زرارة:

وَقُلْ لِيَنِي سَعْدٍ فَمَالِي وَمَالِكُمْ تَزَقُونَ مِنِّي مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَعْتَقُ
أَعْرَكُمُ أَنِي بِأَحْسَنِ شِيمَةٍ بِصَيْرٍ وَأَنِي بِالْفَوَاحِشِ أَخْرَقُ
وَأَنَّكَ قَدْ فَاحَشْتَنِي فَهَرْتَنِي هَيْبَتًا مُرْتَبًا أَنْتَ بِالْفَخْشِ أَحْدَقُ

والسادس من أسبابه التفضل على السباب: وهذا قد يكون من الكرم وحب التألف كما روي أنه قيل للإسكندر: إن فلاناً وفلاناً ينقصانك ويثلبانك فلو عاقبتهما، فقال: هما بعد العقوبة اعذر في تقيصي وثلبي. فكان هذا تفضلاً منه وتألفاً.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «اللهم لا يدركني ولا أدركه زمان: لا يتبعون فيه العليم»^(٢)، ولا يستحيون فيه من الحلیم، قلوبهم قلوب الأعاجم، وألستهم السنة العرب.

وروي أنه عليه السلام قال للأشج وقد وفد عليه وكان ذميمة الصورة، فأناخ راحلته، ثم طرح عنه ثوبين كانا عليه، وأخرج من العيبة ثوبين حسنين فلبسهما، وذلك بعين رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن جلود الرجال لا يستقى فيها الماء وإنما يحتاج من المرء إلى أصغريه - يعني القلب، واللسان - فقال عليه السلام: «بلى فيك خصلتان يحبهما الله ورسوله». قال: وما هيتا؟ قال: «الحلم والأناة». فقال: هذا شيء حدث أم شيء / جُبلت عليه؟ فقال: «شيء» [٥٨] جُبلت عليه»^(٣). فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله.

(١) قال العراقي في المغني (١٧٤/٣): رواه أبو نعيم في كتاب الإيجاز بإسناد ضعيف، والطبراني من حديث أم سلمة بإسناد لين.

(٢) في الأصل: العلم. والتصويب من الإحياء والمغني (١٧٣/٣) وقال العراقي رواه أحمد من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف.

(٣) قال العراقي عن نحوه في المغني (١٧٤/٣) متفق عليه.

وقد حكى عن الأحنف بن قيس أنه قال: ما عداني أحد إلا أخذت في أمره بأحد ثلاث خصال: إن كان أعلى مني رفعت له قدره، وإن كان دوني رفعت قدرتي عنه، وإن كان عدلي تفضلت عليه. فأخذه محمود الوراق، وقيل: الخليل بن أحمد ونظمه شعراً فقال:

سَأَلْتُمُ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ وَإِنْ عَظَمْتُ مِنْهُ إِلَيَّ الْجَرَائِمُ
وَمَا النَّاسُ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ ثَلَاثَةِ شَرِيفٌ وَمَشْرُوفٌ وَمِثْلِي^(١) مُقَاوِمُ
فَأَمَّا الَّذِي فَزَعْتَنِي فَأَعْرَفْتُ قُدْرَهُ وَأَتَّبِعُ فِيهِ الْحَقَّ وَالْحَقُّ لَازِمُ
فَأَمَّا الَّذِي دُونِي فَإِنْ قَالَ صَنْتُ عَنْ إِجَابِيهِ عَرَضِي وَإِنْ لَمْ لَأَيْمُ
وَأَمَّا الَّذِي يُمِثُّنِي فَإِنْ زَلَّ أَوْهَمَا تَفَضَّلْتُ إِنْ الْفَضْلُ بِالْحُرِّ^(٢) حَاكِمُ

والسابع من أسبابه استكفاف الساب وقطع السباب: فهذا يكون من الحزم كما حكى أن رجلاً قال لضرار بن القعقاع: والله لو قلت واحدة لسمعت عشراً. فقال ضرار: والله لو قلت عشراً لم تسمع واحدة. وعن علي بن أبي طالب أنه قال لعامر بن مرة الزهري: من أحمق الناس؟ قال: من ظن أنه أعقل الناس: قال: صدقت فمن أعقل الناس؟ قال: من من لم يتجاوز الصمت في عقوبة الجهال. ويُشدد في الحلم:

وَفِي الْحَلْمِ رِذْعٌ لِلْسَفِيهِ عَنِ الْأَذَى وَفِي الْحَرْقِ إِغْرَاءٌ فَلَا تَكْ أَخْرَقَا
فَتَنَدَّمُ إِذْ لَا تَتَفَعَّتْكَ نَدَامَةٌ كَمَا نَدِمَ الْمُعْبُونُ لَمَّا تَفَرَّقَا

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم. وعن علي قال: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكن الخير أن يكثر عملك^(٣) ويعظم حلمك، [٥٩] وأن [لا]^(٤) تباهي الناس / بعبادة ربك، فإذا أحسنت حمدت الله، وإذا أسأت استغفرت الله. وقال أكنم: دعامة العقل الحلم، وجماع الخير الصبر.

والثامن من أسبابه الخوف من العقوبة على الجواب: وهذا يكون من ضعف النفس وربما أوجبه الرأي واقتضاه الحزم. وينشد:

أُزِفُّ إِذَا خِفْتُ مِنْ ذِي هَفْوَةٍ خَرَقًا لَيْسَ الْحَلِيمُ كَمَنْ فِي أَمْرِهِ خَرَقُ

(١) في الأصل: «مثل». والتصويب من الإحياء (٣/ ١٧٥).

(٢) في الإحياء الموضع السابق: «الحلم».

(٣) في الإحياء: علمك. وأحسبه الأصوب والأنسب.

(٤) ما بين المعقوفين من الإحياء (٣/ ١٧٤).

وفي مثور الحكم: الحلم حجاب الآفات.

والناسع من أسبابه الرعاية ليد سألقة وحرمة لازمة: وهذا يكون من الوفاء وحسن العهد. وقيل في مثور الحكم: من ظهر غضبه قلّ كيده، وقال بعض الأدباء: غضب الجاهل في قوله وغضب العاقل في فعله. وينشد:

تُعَاقِبُ أَيْدِينَا وَيَخْلُمُ رَأْيَنَا
وَنَشْتِمُ بِالْأَفْعَالِ لَا بِالتَّكَلُّمِ

والعاشر من أسبابه المكر وتوقع الفرص الخفية: وهذا يكون من الدهاء والخفية. فهذه عشرة أسباب تدعو إلى الحلم وبعضها أفضل من بعض، وإنما الأولى بالإنسان أن يدعوه إلى الحلم أفضل أسبابه، وأفضلها ما اجتمع فيه سلامة الدنيا مع ثواب العقبى فإن عرى الحلم من أحد هذه الأسباب كان ذلاً ولم يكن حليماً لأنه قد تقدم في حدّ الحلم أنه ضبط النفس عند هيجان الغضب فإذا قعد الغضب عند سماع ما يغضب به كان ذلك من ذلك النفس، وقلة الحمية، ولذلك قال لقمان لابنه: يا بُنَيَّ ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة: لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا الأخ إلا عند الحاجة. قال الشاعر:

/ لَيْسَتْ الْأَخْلَامُ فِي حَالِ الرُّضَى
أَنَّمَا الْأَخْلَامُ فِي حَالِ الْعُصْبِ [٦٠]
آخر:

مَنْ يَدْعِي الحِلْمَ فَأَغْضِبُهُ لِيَعْرِفَهُ
لَا يُعْرِفُ الحِلْمَ إِلَّا سَاعَةَ الْعُصْبِ

ومن فقد الغضب في الأشياء المغضبة حتى استوت حالته قبل الإغضاب وبعده فقد عدم من فضائل: النفس الشجاعة، والأنفة، والحمية، والغيرة، والدفاع، والأخذ بالثأر لأنها خصال مركبة من الغضب. ويُشد للنابعة وأنشدها بحضرة النبي ﷺ:

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ
وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ
بَسَاوِدِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يَكْدِرَا
حَلِيمٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ الْأَمْرَ أَضْدَرَا

ويقال: لما أنشدها النابعة قال النبي ﷺ: «لا يفضض الله فاك»^(١).

(١) قال العراقي في المغني تعليقا على الحديث (٢/٢٧٢): رواه البيهقي في معجم الصحابة وابن عبد البر في

الاستيعاب بإسناد ضعيف من حديث النابعة واسمه قيس بن عبد الله قال: أنشدت النبي ﷺ:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا
وإننا نرجو فيه فوق ذلك مظهرا

الآيات. ورواه الزار بلطف: علونا العباد عفة وتكرما. الآيات. وفيه: فقال: أحسنت يا أبا ليلى لا

يفضض الله فاك، وللحاكم من حديث خزيم بن أوس سمعت العباس يقول: يا رسول الله إني أريد أن =

وشكر قوله، فإذا فقد الإنسان ما ذكرنا من الخصال التي هي نتائج الغضب فقد فقدَ المهابة، ومن فقدَ المهابة كان سفساف الأخلاق رذل الطباع فلا يبقى لسائر فضائله موضعاً.

وقد حكى عن المنصور أنه قال: إذا كان الحلم مفسدة كان العفو معجزة. وقال بعض الحكماء: العفو يفسد من اللثيم بقدر إصلاحه من الكريم. وعن عمرو بن العاص أنه قال: أكرموا سفهاءكم فإنهم يكفونكم الثأر والعار. وقال مصعب بن الزبير: ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا، وأنشد لأبي تمام الطائي:

وَالْحَرْبُ تَرْكِبُ رَأْسِهَا فِي مَشْهَدِ
عَدِلِ السَّيْفِ بِهِ بَأْلَفِ حَلِيمِ
وقال آخر:

لَنْ تَكُنْتَ مُخْتَاجاً إِلَى الْحَلِيمِ إِنِّي
إِلَى الْجَهْلِ فِي بَغْضِ الْأَحْيَانِ أَخَوْجُ

/فصل: في آثار واردة في الحلم/

[٦١]

وعن ابن المبارك في قوله تعالى: ﴿أَذْفَعُ بِأَلْيِّ هِي أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(١). قال: هو الرجل يشتمه أخوه فيقول: إن كنت كاذباً يغفر الله لك وإن كنت صادقاً يغفر الله لي. وعن بعضهم قال شتمت فلاناً من أهل البصرة فحلم عني فاستعبدني بها زماناً من الدهر، قال: وسب رجل ابن عباس رضي الله عنه فلما فرغ قال: يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضيتها، فنكس الرجل رأسه واستحيى.

ويروى أن رجلاً قال لعمر بن عبد العزيز: أشهد أنك لمن الفاسقين، قال: ليس تقبل شهادتك.

وعن علي بن الحسين بن علي أنه سبه رجل فرمى عليه خميصة كانت عليه وأمر له بألف درهم، فقال بعضهم: جمع في ذلك خمس خصال: الحلم، وإسقاط الأذى، وتخليص الرجل مما يبعده عن الله، وحمله على الندم والتوبة، ورجوعه إلى المدح بعد الذم، جمع ذلك بشيء من الدنيا يسير.

= امتدحك، فقال: «قل لا يفضض الله فاك» فقال العباس:

من قبلها طبت نفسي الظلال ونسي مستودع حيث يخصف الورق
الآيات.

(١) سورة فصلت الآية: ٣٤.

وعن معاوية بن أبي سفيان أنه قال: لعرابة بن أوس: بماذا سدت في قومك يا عرابة؟ قال: يا أمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم وأعطي سائلهم وأسعى في حوائجهم فمن فعل فعلى فهو مثلي، ومن جاوزني فهو أفضل مني، ومن قصر عني فأنا خير منه.

وقال وهب بن منبه: من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم، ومن يجهل يغلب، ومن يعجل يخطيء، ومن يحرص على الشر لا يسلم، ومن لا يدع المراء يئثم، ومن لا يكره الشتم^(١) يائثم، ومن يكره الشر يعصم، ومن يتبع وصية الله يحفظ، ومن يحذر الله يأمن، ومن يتولى الله يمنع، ومن لا يسأل الله يفترق، ومن لا يكن مع الله^(٢) / يخذل، ومن يستعن بالله يظفر. [٦٢]

وعن أبي الدرداء أنه قال: أدركت الناس ورقاً لا شوك فيه فأصبحوا شوكاً لا ورق فيه، إن تقريبهم أبعدهم، وإن تركتهم لم يتركوك. قالوا: كيف نصنع؟ قال: تعرضهم من عرضك ليوم ففرك. وقال علي: إن أول عوض الحليم أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل. وعن معاوية أنه قال: لا يبلغ الرجل مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله، وصبره شهوته، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة الحلم.

وقال معاوية لعمر بن الأهمم: أي الرجال أشجع؟ قال: من رد جهله بحلمه. قال: أي الرجال أسخى؟ قال: من بذل دنياه لإصلاح دينه. وعن الأحنف بن قيس أنه قال لابنه: يا بني إذا أردت أن تواخي رجلاً فأغضبه فإن أنصفك وإلا فأحذره.

وحكي أن أسلم بن نوفل سيد بني كنانة ضربه رجل من قومه بسيفه فأخذ فأوتي به إليه فقال: أما خشيت انتقامي؟ قال: فلم سودناك إذاً إلا أن تكظم الغيظ، وتعفو عن الجاني، وتحلم عن الجاهل، وتحمل المكروه في النفس والمال، فخلى سبيله فقال قائلهم:

يَسُودُ أَقْوَامٌ وَلَيْسُوا بِسَادَةٍ بَلْ السَّيِّدُ الْمَعْرُوفُ سَلَّمَ بِنُوفَلٍ

وعن الأحنف أنه قال: إياكم ورأي الأوغاد. قال: وما رأي الأوغاد؟ قال: الذين يرون العفو والصفح عاراً. وسئل الأحنف عن الحلم، فقال: هو الذل تصبر عليه ولست بحليم ولكنني صبور.

قال: ومّر المسيح عليه السلام على قوم من اليهود فقالوا شراً، وقال خيراً، فقيل له في ذلك، فقال: كل ينفق مما عنده.

(١) في إحياء علوم الدين (٣/١٧٥): الشر، وأحسبه الأصوب.

(٢) في الموضوع السابق: ومن يأمن مكر الله.

وقال بعض العلماء: الحلم أرفع من العقل لأن الله تعالى تسمّى به. وقال رجل لأبي بكر [٦٣] رضي الله عنه: والله لأسبّك سبّاً يدخل / معك قبرك، قال معك لا معي.

وقيل لبعض الصالحين: إن فلاناً يقع فيك فقال: لأغضبن من أمره. قال: ومن أمره؟ قال: الشيطان. وقال رجل لأخيه: مررت بفلان وهو يقع فيك ويذكر أشياء رحمتك منها. قال: سمعتني أذكره بشيء؟ قال: لا. قال: فإياه أرحم.

وسئل بعض أصحاب الأحنف: أكان الأحنف يغضب؟ قال: لو لم يغضب ما بان حلمه كان يغضبه الشيء فيتبين في وجهه اليوم واليومين والثلاثة وهو يصبر ويحلم.

ويروى أن بعض الحكماء دخل عليه صديق له فقدم له الطعام، فخرجت امرأة الحكيم وكانت سيئة الخلق فرفعت المائدة، وأقبلت على شتم الحكيم، فخرج الصديق مغضباً فاتبعه الحكيم، وقال: تذكر يوماً كنا في منزلك نطعم فسقطت على المائدة دجاجة فأفسدت ما عليها فلم يغضب منها أحد منا؟ قال: نعم.

قال: فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة، فسرى عن الرجل فأبصر، وقال: صدق الحكيم: [الحلم]^(١) شفاء من كل ألم. وروي أن رجلاً ضرب قدم حكيماً فأوجعه، فلم يغضب فليل له في ذلك فقال: أقمته مقام حجر عثرت بها وربحت الغضب. ومن أحكم ما قيل في تدبير الحلم والغضب هذه الآيات:

إِذَا أَمِنَ الْجُهَالُ جَهْلَكَ مَرَّةً
فَعَرَضُكَ لِلْجُهَالِ غَنَمٌ مِنَ الْغَنَمِ
يَمْنَزِلَةٌ بَيْنَ الْعَدَاوَةِ وَالسَّلَامِ
فَأَنْتَ سَفِينَةٌ مِثْلُهُ غَيْرَ ذِي جِلْمِ
بِحِلْمٍ فَإِنْ أَعْيَا عَلَيْكَ فِإِلْصَرْمِ
فَتَأْخُذُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ بِالْحَزْمِ
عَلَيْهِ بِجَهَالٍ فَذَاكَ مِنَ الْعَزْمِ
وَإِذَا تَغَبَسَ عَرَضَ السَّفِينَةَ وَدَارِهِ
فَيَرْجُوكَ تَارَةً وَيَخْشَاكَ تَارَةً
فَإِنْ لَمْ تَجِدْ بَدْءًا مِنَ الْجُهْلِ فَاسْتَعِينِ

[٦٤] / فهذا التدبير إنما يستعمل فيمن لم يجد الإنسان من مقاربتة ولا سبيل إلى إطراره إما لخوف شره أو للزوم أمره، فأما من أمكن إطراره فلم يضر إيعاده، فالاعراض عنه أصون، وعلى النفس أهون، والله أعلم.

(١) ما بين المعقوفين من إحياء علوم الدين للغزالي (١٧٥/٣) ومعظم الآثار الواردة هنا منه.

فصل: في بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾^(١). وهذا في القصاص والغرم على ما ورد به الشرع. وقال عليه السلام: «إذا قال الرجل لصاحبه يا كافر، وقال له الآخر كذلك، فقد باء بالكفر أحدهما، والبادي أظلم»^(٢). ولكن ورد الشرع بأشياء من الظلم لا تجوز مقابلة الظلم بمثله فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة، ولا التجسس بالتجسس، ولا القذف بالقذف، ولا الشرك بالشرك، ولا السب بالسب، وقد قال عليه السلام: «المسبان شيطانان يتهاوران».

قال: «إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعير بما فيه» ويروى أن رجلاً شتم أبا بكر رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتدا يتنصر منه قام النبي ﷺ فقال أبو بكر: كنت ساكناً لما شتمني فلما تكلمت قمت؟ قال: «لأن الملك كان يجب عنك فلما تكلمت ذهب الملك وجاء الشيطان فلم أكن أجلس في مجلس فيه الشيطان»^(٣).

وقال قوم: تجوز المقابلة بما لا كذب فيه، ونهيه عليه السلام عن التعبير بمثله نهى تنزيه، والأفضل تركه ولكنه لا يعصي والذي رخص فيه أن يقول: من أنت؟ وهل أنت إلا من بني فلان، كما روي عن سعيد أنه قال لابن مسعود: وهل أنت إلا من بني هذيل؟ فقال ابن مسعود: وهل أنت إلا من بني أمية؟ ومثل قوله: يا أحمق.

/ وقال بعضهم: كل الناس أحمق فيما بينه وبين ربه إلا أن بعض الناس أقل حماقة من [٦٥] بعض، وكذلك قوله يا جاهل إذ ما من أحد إلا وفيه جهل، وكذلك يا سئء الخلق يا صفيق الوجه، ويا ثلاب الأعراض، وما أحقرك في عيني بما فعلت، ولو كان فيك حياء ما تكلمت بهذا في أمثال ذلك.

وأما النعمة والغبية والكذب وسب الوالدين والنسبة إلى الزنا والفحش فحرام بالاتفاق، وإنما الرخصة في مقابلة الإيذاء بالصدق جزاء على إيذائه السابق. وعنه عليه السلام أنه قال:

(١) سورة الشورى الآية: ٤١.

(٢) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (٣٢/٨)، أحمد في المسند (٤٧/٢)، البيهقي في شرح السنة (١٣١/٣)، الطحاوي في مشكل الآثار (٣٦٨/١)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٦٣/٨)، الطبراني في الكبير (١٩٤/١٨) المنذري في الترغيب والترهيب (٤٦٥/٣).

(٣) قال العراقي في المغني (١٧٥/٣): رواه أبو داود من حديث أبي هريرة متصلاً ومرسلاً، وقال البخاري: المرسل أصح.

«المتسابقان على ما قالا حتى يعتدي المظلوم»^(١). فأثبت للمظلوم انتصار إلا أن يعتدي وهذا رخصة، ولكن الأفضل تركه فإنه يجر إلى ما وراءه، ولا يمكن الاقتصار على مقدار الحق فيه، والسكوت عن أصل الجواب أيسر من الشروع من الجواب، والوقوف على مقدار الشرع فيه، ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه عند فورة الغضب ولكن يعود سريعاً، ومنهم من يكف في الابتداء ولكن يحقد في الدوام والناس في الغضب أربعة: فبعضهم كالحلفاء سريع الوقود سريع الخمود، وبعضهم كالغضا بطيء الوقود بطيء الخمود، وبعضهم كالحلفاء سريع الوقود سريع الخمود وهو الأجل ما لم يته إلى فتور الحمية والغيرة، وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود وهذا أشر منهم.

وفي الحديث: «المؤمن سريع الغضب سريع الرضى فهذه بتلك»^(٢)، وعن أبي سعيد قال: قال النبي ﷺ: «ألا إن بني آدم خلقوا على طبايق شتى منهم بطيء الغضب سريع الفيء، ومنهم سريع الغضب سريع الفيء فتلك بتلك، فمنهم سريع الغضب بطيء الفيء / ألا وإن خيرهم البطيء الغضب السريع الفيء، وشرهم السريع الغضب البطيء الفيء».

ولما كان الغضب يهيج في الحال ويؤثر في كل إنسان وجب على السلطان أن لا يعاقب أحداً في حال غضبه عليه لأنه ربما يتعدى الواجب أو يكون شافياً غيظه ومريحاً نفسه، وإنما الواجب انتقامه وانتصار الله تعالى لا لنفسه، وقد روي أن عمر رضي الله عنه رأى سكراناً فأراد أن يأخذه فيعزره، فشمته السكران، فرجع عمر فقيل له في ذلك؟ قال: لأنه أغضبني ولو عززته لكان ذلك لغضبي لنفسي، ولم أحب أن أضرب مسلماً حميَّةً لنفسي.

وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال لرجل أغضبه: لولا أنك أغضبتني لعاقبتك^(٣)، والله أعلم.

الفصل الرابع: في الحقد ونتائجه من الحسد وغيره

اعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً ومعنى الحقد أن يلزم قلبه اشتغاله والغضبة له والنفار منه وأن يدوم ذلك ويبقى، وقد قال ﷺ: «المؤمن ليس بحقود»^(٤). والحقد يثمر ثمانية أشياء:

- (١) قال العراقي في المعنى (١٧٦/٣): رواه مسلم.
- (٢) قال العراقي في المعنى (١٨٣/٢): لم أجده هكذا وللترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد الخدري، ثم ذكر النص الثاني.
- (٣) راجع الآثار والتعليقات والشروح في إحياء علوم الدين وأغلبها نقل منه نصاً (١٧٥/٣: ١٧٧).
- (٤) قال العراقي في المعنى (٤٦/١): لم أقف له على أصل.

الأول: الحسد: وهو أن يحمله الحقد على أن يتمنى زوال النعمة، فيغتم بنعمة إن أصابها، ويُسر بمصيبة إن نزلت عليه.

الثاني: أن يزيد على اضممار الحسد في الباطن فيشمت بما يُصيبه من البلاء.

الثالث: أن يهجره ويصارمه وينقطع عنه وإن طلبه وأقبل عليه فلا يلتفت إليه.

الرابع: وهو دونه أن يعرض عنه استصغاراً له.

والخامس: أن يتكلم فيه بما لا يحل من كذب / أو غيبة وافشاء سر وهتك ستر وغيره. [٦٧]

السادس: أن يحاكيه استهزاءً به وسخرية منه.

السابع: إيذاءه بالضرب وما يؤلم بدنه.

والثامن: أن يمنعه حقه من صلة رحم أو قضاء دين أو رد مظلمة.

وكل ذلك حرام وأقل درجات الحقد أن يحترز من الآفات الثمانية المذكورة فلا يخرج بسبب إلى ما يعصي الله تعالى به ولكن يستقله بالباطن ولا ينهى قلبه عن بعضه حتى يمتنع عما كان يتطوع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجة، والمجالسة معه على ذكر الله، والمعاونة على المنفعة له، أو يترك الدعاء له والثناء عليه، والتحريض على يده ومواساته، فهذا كله مما ينقص درجته عند الله تعالى ويحول بينه وبين الفضل العظيم والثواب الجزيل وإن كان لا يستحق به العقاب، ألا ترى إلى أبي بكر رضي الله عنه لما حلف أن لا ينفق على مسطح وكان قريبه، ولكن تكلم في واقعة أهل الإفك الذين خاضوا في أمر عائشة رضي الله عنها بنت أبي بكر زوج النبي ﷺ فحلف أبو بكر أن لا ينفق على مسطح لأجل ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ﴾. إلى قوله: ﴿أَلَا يَحْسَبُونَ أَنْ يُقْفَرُوا﴾^(١). فقال أبو بكر: يا رب نحب ذلك، وعاد إلى الإنفاق عليه فالأولى للمسلم أن يبقى على ما كان عليه وإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهدة للنفس وارغاماً للشيطان فذلك هو مقام الصديقين فهي من فضائل أعمال المقربين. واعلم أن للمحقوق ثلاثة أحوال عند القدرة:

أحدها: أن يستوفي حقه من المحقوق عليه من غير زيادة ولا نقصان وهو العدل.

والثاني: أن يحسن إليه بالعفو والصلة وذلك هو الفضل. [٦٨]

الثالث: أن يطالبه بما لا يستحق فذلك هو الجور وهو اختيار الأراذل^(٢).

(١) سورة النور الآية: ٢٢.

(٢) في الأصل: الأراذل. والتصويب من إحياء علوم الدين (١٧٧/٣).

والثاني اختيار الصديقين، والأول هو منتهى درجة الصالحين، ولذا ذكر هاهنا فضيلة العفو والإحسان^(١) وبالله التوفيق.

باب في فضل العفو

اعلم إن العفو هو أن تستحق حقاً فتسقطه وتبريء غريمك منه من قصاص أو غرامة، وهو غير الحلم وكظم الغيظ فلذلك أفرد له باب، وقد قال الله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ...﴾^(٢) والآية. وقال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾^(٣).

وقال النبي ﷺ: «ثلاث والذي نفسي بيده إن كنت حالفاً حلفت عليهن: ما نقصت صدقة من مال فتصدقوا، ولا عفا عبد عن مظلمة يتغي بها وجه الله إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر»^(٤).

وعنه ﷺ أنه قال: «التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله، والعفو لا يزيد العبد إلا عزاً فاعفوا يبرزكم الله، والصدقة لا تزيد المال إلا كثرة فتصدقوا يرحمكم الله»^(٥).

وعنه ﷺ أنه قال: «الخير ثلاث خصال من كن فيه استكمل الإيمان: من إذا رضي لم يدخله رضاه في باطل، وإذا غضب لم يخرج غضبه عن حق، وإذا قدر عفا».

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ منتصراً من مظلمة ظلمها قط ما لم يتتهك من محارم الله شيء فإذا انتهك من محارم الله شيء كان أشدهم في ذلك [٦٩] غضباً، / وما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن مأثماً^(٦).

وعن عقبة بن عامر قال: لقيت النبي ﷺ يوماً، فبادرته فأخذت بيده أو بادرني فأخذني

(١) راجع الباب كله في المصدر السابق.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٩٩.

(٣) سورة البقرة الآية: ٢٣٧.

(٤) قال العراقي في المعنى: (١٧٨/٣): رواه الترمذي من حديث أبي كبشة الأنماري، ولمسلم وأبي داود نحوه من حديث أبي هريرة.

(٥) قال أيضاً في الموضوع السابق تعليقاً على هذا الحديث: رواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب، وأبو منصور الديلمي مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف.

(٦) قال العراقي في المعنى: (١٧٨/٣): رواه الترمذي في الشمائل، وهو عند مسلم بلفظ آخر.

بيدي فقال: «يا عقبه ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ تصل من قطعتك، وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك»^(١).

وعنه عليه السلام أنه قال: «قال موسى عليه السلام: يا رب أي عبادك أعز عليك؟ قال: الذي إذا قدر عفا»^(٢) لذلك سئل أبو الدرداء من أعز الناس؟ قال: الذي يعفو إذا قدر، فاعفوا يعزكم الله.

وروي أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يشكو مظلمة فأمره النبي أن يجلس وأراد أن يأخذ له بمظلمة، فقال عليه السلام: «إن المظلومين هم المفلحون يوم القيامة»^(٣) فأبى أن يأخذها حين سمع الحديث.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر» وعن أنس بن مالك عنه عليه السلام أنه قال: «إذا بعث الله الخلاق، نادى منادٍ من تحت العرش: يا معشر الموحدين إن الله قد عفا عنكم وليعف بعضكم عن بعض»^(٤).

وعن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما فتح مكة طاف بالبيت وصلى ركعتين ثم أتى البيت فأخذ بعضادتي الباب فقال: «ما تقولون وما تظنون؟». قالوا: نقول خيراً ونظن خيراً وأبن عم حليم رحيم قالوا ذلك ثلاثاً، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وأنا أقول مثل ما قال أخي يوسف: لا تثرِب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»^(٥). فخرجوا كأنما نشروا من القبور، فدخلوا في الإسلام وفي حديث / آخر عن سهيل بن عمير قال لما قدم صلى الله عليه وآله وسلم مكة وضع يديه على بابي الكعبة [٧٠] والناس حوله فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده». ثم قال: «يا معشر قريش ما تقولون وما تظنون؟». قال: قلت: يا رسول الله نقول خيراً

(١) رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني في مكارم الأخلاق، والبيهقي في الشعب بإسناد ضعيف. راجع المصدر السابق.

(٢) رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة وفيه ابن لهيعة.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب العفو من رواية أبي صالح الحنفي مرسلًا. المصدر السابق.

(٤) رواه أبو سعيد أحمد بن إبراهيم المقرئ في كتاب التبصرة والتذكرة بلفظ ينادي منادٍ من بطان العرش يوم القيامة... وإسناده ضعيف، ورواه الطبراني في الأوسط بلفظ. نادى مناد: يا أهل الجمع تثاركو المظالم بينكم... وله من حديث أم هانئ: ينادي مناد: يا أهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعلي الثواب. المصدر السابق.

(٥) رواه ابن الجوزي في الوفاء من طريق ابن أبي الدنيا وفيه ضعف، العراقي في المغني (١٧٩/٣).

نقول أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت فقال ﷺ: «فإني أقول كما قال أخي يوسف عليه السلام لا تريب عليكم اليوم»^(١).

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وقف العباد يوم القيامة نادى مناد: ليقم من أجره على الله فليدخل الجنة». قيل: من ذا الذي أجره على الله؟ قال: العافون عن الناس، فقام كذا وكذا ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب»^(٢).

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «لا ينبغي لوالي أمر أن يؤتې بحد إلا أقامه والله عفو يجب العفو - ثم قرأ - ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾»^(٣). الآية. وعن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من جاء بهن مع إيمان دخل من أي أبواب الجنة شاء، وزوج من الحور العين حيث شاء: من أدى ديناً خفياً، وقرأ دبر كل صلاة قل هو الله أحد عشر مرات، وعفا عن قاتله»^(٤) وقال بعض العلماء: إذا أراد الله أن يتحف عبداً قبض له من يظلمه.

ويروي أن رجلاً دخل على عمر بن عبد العزيز، فجعل يشكو إليه رجلاً ظلمه ويقع فيه، فقال عمر: إنك تلقي الله ومظلمتك كما هي خير لك من أن تلقاه وقد انقضتھا.

وعن زيد بن مسيرة أنه قال: إن ظلمت تدعو على من ظلمك فإن الله يقول إن آخر يدعو [٧١] عليك أنك ظلمته / فإن شئت استجبتا لك وأجبتنا عليك وإن شئتما آخرتكما إلى يوم القيامة فيسعكما عفوي.

وعن مسلم بن يسار أنه قال لرجل يدعو على ظالمه: كل الظالم إلى ظلمه فإنه أسرع من دُعائك عليه إلا أن يتداركه بعمل وقمن أن لا يفعل.

وعن ابن عمر عن أبي بكر أنه قال بلغنا أن الله عز وجل يأمر منادياً يوم القيامة فينادي: من كان له شيء عند الله فليقم، فيقوم أهل العفو فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس.

وعن هاشم بن محمد أنه قال: أوتي النعمان بن المنذر برجلين أحدهما قد أذنب ذنباً عظيماً فعفا عنه، والآخر أذنب ذنباً صغيراً فعاقبه وقال:

تَعَفُّوْا الْمُؤَلُّوْكَ عَنِ الْعَظِيْمِ
مَنْ الذُّنُوبِ لِقَضَائِهَا

(١) لم أجده قاله العراقي في المعني عن حمل الأسفار في الأسفار (٣/١٧٩).

(٢) رواه الطبراني في معارج الأخلاق وفيه الفضل بن يسار ولا يتابع على حديثه. المصدر السابق.

(٣) سورة النور الآية: ٢٢. والحديث قال عنه العراقي في المصدر السابق: رواه أحمد، والحاكم وصححه.

(٤) رواه الطبراني في الأوسط وفي الدعاء بسند ضعيف.

وَقَدْ تُعَاقِبُ فِي النَّيْرِ رَ وَلَيْسَ ذَاكَ لِجَهْلِهَا
إِلَّا لِيُغْرِفَ جِلْمَهَا وَيُخَافُ شِدَّةَ بَطْشِهَا

وعن عمر بن عبد العزيز قال: ما قرّن شيء إلى شيء أفضل من حلم إلى علم ومن عفو إلى قدرة.

ويروي أن الأحنف شفع في محبوس إلى سلطان فقال: إن كان مذنباً وسعه العفو، وإن كان برئاً وسعه العدل. وقيل لبعض الحكماء: بلغ عند أمير المؤمنين أمر سوء فقال: إن كان حقاً وسعني عفو، وإن كان كذباً وسعني عدله.

وروي أن الفيل دخل دمشق فحشر الناس لرؤيته وصعد معاوية في عليه له متطلعاً فينما هو كذلك إذ أبصر في حجرة قصره رجلاً مع امرأة من حرمة، فأتى الحجرة فدق الباب، فلم يكن بدّ من فتحه، فوقعت عينه على الرجل، فقال له: يا هذا في قصري وتحت حجابي تهتك حرمتي وأنت في قبضتي؟! ما حملك على هذا؟ فهت الرجل / ثم قال حلمك أوقعني فقال [٧٢] معاوية: إن عفوت عنك سترتها علي؟

قال: نعم، فخلّى سبيله وهذا من الدهاء العظيم والعقل الواسع أن يطلب الستر من الجاني وهو موافق لمعنى قول الشاعر:

إِذَا مَرِضْنَا أَتَيْنَاكُمْ نَعُودُكُمْ وَتَذُنُّونَ فَنَاتِيكُمْ فَنَعْتَزِرُ

وعن معاوية أنه قال: عليكم بالحلم والاحتمال حتى تمكنكم الفرصة، فإذا أمكنكم فعليكم بالصفح والإفضال.

وروي أن راهباً دخل على هشام بن عبد الملك فقال للراهب: أرايت ذا القرنين أكان نبياً؟ فقال: لا ولكن إنما ما أعطى بأربع خصال كنّ فيه: كان إذا قدر عفا، وإذا وعد ووفى، وإذا حدث صدق، ولا يجمع اليوم لغد.

وقال بعض السلف: ليس الحليم من ظلم فحلم ولكن الحليم من ظلم فحلم، ثم قدر فعفا. قال الشاعر:

صَفُوحٌ عَنِ الْأَجْرَامِ حَتَّى كَانَهُ مِنَ الْعَفْوِ لَمْ يَعْرِفَ مِنَ النَّاسِ مُجْرِمًا
فَلَيْسَ يِيَالِي أَنْ يَكُونَ بِهِ الْأَدَى إِذَا مَا الْأَدَى بِالْكَرْهِ لَمْ يَغْشَ مُسْلِمًا

وعن زياد أنه قال: العذر يذهب الحفيظة - يعني الحقد والغضب - وروي أن هشاماً أوتي

برجل بلغه عنه أمر فلما أقيم بين يديه جعل يتكلم بحجته فقال له هشام: وتتكلم أيضاً؟! فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾^(١). أفيجادل الله ولا تكلم أنت كلاماً؟ فقال هشام: بلى ويحك تكلم.

ويروى أن سارقاً دخل خبَاءَ عمار بن ياسر رحمه الله بصفين فقيل له: اقطعه إنه من أعدائنا فقال: بل استر عليه لعل الله يستر عليّ يوم القيامة.

[٧٣] وجلس ابن مسعود في السوق يتتبع متاعاً، فابتاع ثم طلب الدراهم وكانت / في عمامته، فوجدها قد حُلَّت فقال: لقد جلست وإنها لمعي، فجعلوا يدعون عليه اللهم اقطع يد السارق الذي أخذها فقال ابن مسعود: اللهم إن كان أخذها لحاجة فبارك له فيها، وإن كان حملة جراءة على الذنب فاجعله آخر ذنبه.

وعن الفضل أنه قال: ما رأيت أزهده من رجل من أهل خرسان جلس إليّ في المسجد الحرام، ثم قام ليطوف فسرت دنائير كانت معه فجعل يبكي. فقلت: أعلى الدنانير تبكي؟ قال: لا ولكن مثلتي وإياه بين يدي الله فأشرف عقلي على ادحاض حجته، فبكاتي رحمة له. وقال مالك بن دينار: أتينا منزل الحكم بن أيوب وهو على البصرة ليلاً، وجاء الحسن وهو خائف، فدخلنا عليه مع الحسن، فما كان معه إلا بمنزلة الفرائج، فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به إخوته من بيعهم إياه وطرحهم له في الجب؛ فقال: باعوا أخاهم، وأحزنوا أباهم، وذكر ما لقي من كيد النساء ومن الحبس، ثم قال: أيها الأمير ما صنع الله به؟

قال: أداله عليهم، ورفع ذكره، وأعلى كلمته على خزائن الأرض. قال: فماذا صنع حين كمل الله له أمره، وجمع له أهله؟ قال: ﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَقْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾^(٢). يعرض الحكم بالعفو على أصحابه. قال الحكم: وأنا أقول: لا تثريب عليكم اليوم ولو لم أجد إلا ثوبي [هذا]^(٣) لواريتكم تحته.

قال: وكتب ابن المقفع إلى صديق له يسأله العفو عن بعض إخوانه: فلان هارب من زلتة إلى عفوك لاند بك منك، واعلم أنه لن يزداد الذنب عظماً إلا إزداد العفو فضلاً. قال وأتي عبد الملك بن مروان بأسارى ابن الأشعث. فقال: لرجاء ابن حيوة: ما ترى؟ فقال: إن الله قد

(١) سورة النحل الآية: ١١١.

(٢) سورة يوسف الآية: ٩٢.

(٣) ما بين المعقوفين من إحياء علوم الدين (٣/١٨٠).

أعطاك ما تحب من الظفر / فأعط الله ما يحب من العفو فعفا عنهم. ويحكى عن المأمون أنه [٧٤] قال لعمة إبراهيم بن المهدي وكان مع أخيه عليه مظلمة: إني شاورت في أمرك، فأشاروا عليّ بقتلك إلاّ أني وجدت قدرك فوق ذنبك، فكرهت القتل للآزم حرمتك. فقال: يا أمير المؤمنين إن المشير أشار بما جرت به العادة في السياسة، إلاّ أنك آبيت أن تطلب النصر إلاّ من حيث عُودته من العفو فإن عاقبت فلك نظير وإن عفوت فلا تطير لك وأنشأ يقول:

البرّ منك وطاء العذر عنك لي	فيما فعلت فلم تعذر ولم تلم
وقام علمك بي فاحتج عندك لي	مقام شاهد عدل غير متهم
لئن حجدتك معروفاً منتت به	إني لفي اللؤم أحظى منك في الكرم
تعفو بعدل وتسطو إن سطوت به	فلا عد مناك من عاف ومتقم

وروي أن زياداً أخذ رجلاً من الخوارج أو من المحكمة، فأقلت منه فأخذ أخاه له، فقال: إن جئت بأخيك وإلاّ ضربت عنقك. فقال: أرايت إن جئت بكتاب من أمير المؤمنين أتخلي سبيلي؟ قال: نعم. قال: فأنأ أتيك بكتاب من الله العزيز الحكيم وأقيم عليه شاهدين عدلين إبراهيم وموسى أنه ﴿أَمْ لَمْ يَبَيِّنْ بَمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^(١). فقال: زياد خلوا سبيله، هذا رجل لقن حجته. وقيل: مكتوب في الإنجيل: من استغفر لمن ظلمه فقد هزم الشيطان^(٢). والله أعلم.

فصل: في الحسد

قد تقدم أن الحسد من ثمرات الحقد ونتائجه، والحقد من نتائج الغضب، فهو فرع فرع الغضب، والغضب أصل أصله، ثم للحسد من الفروع المذمومة ما لا يكاد يحصى.

/ وقد روي في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة قال ﷺ «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل [٧٥] النار الحطب»^(٣). وعنه ﷺ أنه قال: «لا تقاطعوا، ولا تدابروا، ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً»^(٤). وعن أنس أنه قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال: «يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة». قال: فطلع رجل من الأنصار: تنصف لحيته من وضوء، قد علق نعليه بيده، فسلم فلما كان من الغد، قال عليه السلام مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل، وقاله

(١) سورة النجم الآيات: ٣٦، ٣٧، ٣٨.

(٢) راجع الفصل بأكمله مع زيادات ونقص وتقديم وتأخير في إحياء علوم الدين (٣/ ١٧٧ : ١٨٠).

(٣) قال العراقي في المعنى: (٣/ ١٨٣): رواه أبو داود من حديث أبي هريرة، وابن ماجه من حديث أنس.

(٤) متفق عليه قاله العراقي في المصدر السابق.

في اليوم الثالث، فلما قام عليه السلام تبع الرجل عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: لا حيث أبي - أي نازعت - فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي المدة فعلت، فقال: نعم، فبات عنده ثلاث ليال، فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا انقلب على فراشه ذكر الله تعالى، ولم يقم حتى يقوم لصلاة الفجر قال: غير أبي لم أسمعهم يقول إلا خيراً، فلما مرت الثلاث وكدت أن احقر عمله، فقلت: يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: كذا وكذا فأردت أن نعرف عملك؟ فلم أرك تعمل عملاً كثيراً، فما الذي بلغ بك ذلك؟ قال: ما هو إلا ما رأيت فلما وليت دعائي. فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أبي لا أجد على أحد من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه. قال عبد الله: هي التي بلغت بك وهي التي لا نطق^(١).

وعنه ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا ينجو منهم أحد: الظن، والطيرة، والحسد، وسأحدثكم [٧٦] بالمرحج من ذلك: إذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض، وإذا حسدت/ فلا تبغ»^(٢).

وفي رواية أخرى: «ثلاثة لا ينجو منهم أحد وقلّ من ينجو منهم»^(٣). فأثبت في هذه الرواية إمكان النجاة. وعنه ﷺ أنه قال: «دب إليكم داء الأمم من قبلكم: الحسد، والبغضاء، والبغضة هي الحالقة للدين لا حالقة الشعر، والذي نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أثبتكم بما يثبت ذلك لكم؟ افشوا السلام بينكم»^(٤) وعنه ﷺ أنه قال: «كاد الفقر أن يكون كفرةً، وكاد الحسد أن يغلب القدر»^(٥).

- (١) رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين، ورواه البزار وسمى الرجل في رواية له: سعداً، وفيها ابن لهيعة.
- (٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي هريرة وفيه: يعقوب بن محمد الزهري، وموسى بن يعقوب الزمعي ضعفهما الجمهور، والرواية الثانية رواها ابن أبي الدنيا أيضاً من رواية عبد الرحمن بن معاوية وهو مرسل ضعيف، وللطبراني من حديث حارثة بن العنمان نحوه، قاله العراقي في المصدر السابق.
- (٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي هريرة وفيه: يعقوب بن محمد الزهري، وموسى بن يعقوب الزمعي ضعفهما الجمهور، والرواية الثانية رواها ابن أبي الدنيا أيضاً من رواية عبد الرحمن بن معاوية وهو مرسل ضعيف، وللطبراني من حديث حارثة بن العنمان نحوه، قاله العراقي في المصدر السابق.
- (٤) بنحو الإحياء وعلق عليه العراقي في الموضع السابق بقوله: رواه الترمذي من حديث مولى الزبير عن الزبير.
- (٥) رواه أبو مسلم الكشي والبيهقي في الشعب من رواية يزيد الرقاشي عن أنس، ويزيد ضعيف، ورواه =

وعنه عليه السلام أنه قال: «سيصيب أمتي داء الأمم». قالوا: وما داء الأمم؟ قال: «الأشر، والبطر، والتكاثر، والتنافس في الدنيا، والتباعد، والتحاسد حتى يكون البغي، ثم يكون الهرج»^(١). وقال عليه السلام: «لا تظهر الشماتة لأخيك فيعافيه الله وبتليك»^(٢).

وروي أن موسى عليه السلام لما تعجل إلى ربه رأى رجلاً في ظل العرش فغبطه بمكانه فقال: إن هذا لكريم على ربه فسأل ربه أن يخبره باسمه، فلم يخبره باسمه، وقال: أحدثك عن عمله بثلاث، كان لا يحسد الناس على ما أتاهم الله من فضله، وكان لا يعق والديه، ولا يمشي بالنميمة.

وعن زكريا صلوات الله عليه قال: قال: الله تعالى: الحاسد عدو لنعمتي مسخط لقضائي غير راضٍ بقسمتي التي قسمت بين عبادي.

وعنه عليه السلام أنه قال: «أخوف ما أخاف على أمتي: أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا ويمقتلون»^(٣). وعنه عليه السلام أنه قال: «استعينوا على أموركم بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود»^(٤).

وعنه أيضاً أنه قال: «إن لنعم الله أعداء» ف قيل ومن ذلك؟ قال: «الذين يحسدون الناس على ما أتاهم الله / من فضله»^(٥).

[٧٧]

= الطبراني في الأوسط من وجه آخر بلفظ: كادت الحاجة أن تكون كفرة وفيه: ضعف أيضاً: قاله العراقي في المغني (٣/١٨٤).

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد، الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد جيد. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٢) رواه الترمذي من حديث وائلة بن الأسقع، وقال: حسن غريب، وفي رواية ابن أبي الدنيا. فيرحمه الله. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الحسد من حديث أبي عامر الأشعري وفيه ثابت بن أبي ثابت جهله أبو حاتم الصحيحين من حديث أبي سعيد: إن مما أخاف عليكم من بعدي: ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها، ولهما من حديث عمرو بن عوف البديري: والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا. الحديث، ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو: إذا فتحت عليكم فارس والروم. الحديث وفيه: يتنافسون ثم يتحاسدون، ثم يتدابرون. الحديث، ولأحمد والبخاري من حديث عمر لا تفتح الدنيا على أحد. إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف، قاله العراقي في المصدر السابق.

(٥) رواه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس: إن لأهل النعم حساداً فاحذروهم. قاله العراقي في المصدر السابق.

وعنه عليه السلام أنه قال: «هلك ست بست: الأمراء بالجور، والعرب بالعصية، والدهاقين بالتكبر، والتجار بالخيانة، وأهل الرساتيق بالجهالة، والعلماء بالتحاسد»^(١).

الآثار: قال بعض السلف: الحسد أول ذنب عُصي الله به في السماء - يعني حسد إبليس لآدم عليه السلام، وأول ذنب عصي الله به في الأرض يعني حسد ابن لأخيه حتى قتله.

وقال بعض الحكماء من رضي بقضاء الله لم يسخطه أحد ومن قنع بعبادته لم يدخله حسد. وعن مجاهد في قوله تعالى: ﴿أُدْفَعْ بِلَيْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾. إلى قوله: ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(٢)، قال: معناه ادفع بالسلام إساءة المسيء.

وحكي أن [أحد]^(٣) علماء السلف دخل على المفضل بن المهلب وكان يومئذ على واسط، فقال: إني أريد أن أعظك بشيء. فقال ما ذاك؟ فقال: إياك والكبر فإنه أول ذنب عصي الله به في السماء، ثم قرأ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾. إلى قوله: ﴿أَبَىٰ وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(٤) وإياك والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة، أمكنه الله من جنة عرضها السموات والأرض يأكل منها إلا شجرة واحد نهاه الله عنها فأكل منها فأخرجه الله ثم قرأ: ﴿أَهْبِطُوا مِنْهَا...﴾^(٥) الآية. قال: وإياك والحسد فإن به قتل ابن آدم أخاه حين حسده ثم قرأ: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ...﴾^(٦) الآية قال: وإذا ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاسكت، وإذا ذكر القدر فاسكت، وإذا ذكرت النجوم فاسكت.

وقال بعض الأدباء: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحسود: نفس دائم، وهم لازم، وقلب هائم. فنظمه بعض الشعراء فقال:

[٧٨] / إِنَّ الْحُسُودَ الظُّلُومَ فِي كَرْبٍ يَخَالُهُ مَنْ يَرَاهُ مَظْلُومًا

(١) عن نحوه قال العراقي في المصدر السابق: رواه أبو منصور الديلمي من حديث ابن عمر، وأنس بسنتين ضعيفين.

(٢) سورة المؤمنون الآية: ٩٦.

(٣) ما بين المعقوفين يقتضيه السياق، وقد صرح الغزالي باسمه في إحياء علوم الدين، فقال: وحكي أن عون بن عبد الله دخل على المفضل بن المهلب (١٨٤/٣) قلت وقد ورد بالإحياء الفضل المهلب فضبط الاسم على الصواب وهو من مشاهير الأمراء وله رواية عند أبي داود والنسائي.

(٤) سورة البقرة الآية: ٣٤.

(٥) سورة البقرة الآية: ٣٨.

(٦) سورة المائدة الآية: ٢٧.

دَا نَفْسٍ دَائِمٍ عَلَيَّ نَقَسٍ يُظْهِرُ مِنْهُ مَا كَانَ مَكْتُومًا

وعن معاوية أنه قال: ليس في خصال الشر أعدل من الحسد، يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود. وقال بعض الحكماء: يكفيك من الحسود أن يغتم في وقت سرورك.

وفي مشور الحكم: عقوبة الحاسد من نفسه. وعن الأصمعي قال: قلت لأعرابي: ما أطول عمرك؟ قال: تركت الحسد فبقيت. وقال رجل لشريح القاضي: أني لأحسدك على ما أرى من صبرك على الخصوم، ووقوفك على غامض الحكم. فقال: ما نفعك الله بذلك ولا ضرني. وأنشد لعبد الله بن المعتز:

أَضْبِرْ عَلَيَّ شَرَّ الْحُسُودِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ
وَالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

حكاية في الحسد: وحكي عن بكر بن عبد الله أنه قال: كان رجل يغشى بعض الملوك، فيقوم بحذاء الملك ويقول: أحسن إلى المحسن بإحسانه، والمسيء سيكفيك مساوئه، فحسده رجل على ذلك المقام والكلام فسعى به إلى الملك. وقال: إن هذا الذي يقوم بحذائك ويقول ما يقول زعم أن الملك أبحر متنن الفم. فقال له الملك: وكيف يصح ذلك عندي؟ قال: تدعوه إليك فإذا دنا منك وضع يده على أنفه أن لا يشم رائحة البحر. فقال: انصرف حتى أنظر. فخرج من عند الملك فدعى الرجل إلى منزله فأطعمه طعاماً فيه ثوم فخرج الرجل من عنده وقام بحذاء الملك. فقال: أحسن إلى المحسن بإحسانه والمسيء سيكفيك مساوئه.

فقال له الملك: أدن مني / فدنا فوضع يده على فيه مخافة أن يشم منه الملك ريح الثوم. [٧٩] فقال الملك في نفسه: ما أرى فلاناً إلا وقد صدق قال وكان الملك لا يكتب بيده إلا جائزة أو صلة فكتب كتاباً بخطه إلى عامل من عماله إذا أتاك صاحب كتابي فاذبحه واسلخه واحشي جلده تبناً وابعث به إليّ، فأخذ الكتاب فخرج فليقه الرجل الذي سعى به. فقال: ما هذا الكتاب؟ فقال: خط الملك لي بصلة. فقال: هبه لي^(١). فقال: هو لك. فأخذه ومضى إلى العامل. فقال العامل: في كتابك أن أذبحك وأسلخك. فقال: إن الكتاب ليس هو لي، الله الله في أمري حتى أراجع الملك. فقال: ليس لكتاب الملك مراجعة، فذبحه وسلخه وحشى جلده تبناً وبعث به إلى الملك، ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته، وقال مثل قوله فتعجب الملك!!

(١) في الأصل: مني. والتصويب من إحياء علوم الدين (٣/١٨٥).

فقال: ما فعل الكتاب؟ فقال: لقيني فلان فاستوبه مني فوهبته له. قال الملك: إنه ذكر لي أنك تزعم أنني أبخر الفم قال: ما فعلت. قال: ولم وضعت يدك على أنفك؟ قال: كان أطعمني طعاماً فيه الثوم فكرهت أن تشمه. قال: صدقت أرجع إلى مكانك فقد كفك المسميء مساوته. وعن فرقد السنجي: أنه قال: الحسد داء. زوي لا يميته إلا الزهد في الدنيا، ومن زهد في الدنيا لم يصبه الحسد إلا قليلاً، ومن رغب في الدنيا لم يفارقه الحسد إلا قليلاً.

وعن ابن سيرين قال: ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار.

وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال: لا تعادوا نعم الله؛ قالوا ومن يعاد نعم الله؟! قال: [٨٠] الذين يحسدون الناس. ويروى أن عبد الملك / بن مروان قال يوماً للحجاج: أنه ليس من أحد إلا وهو يعرف عيب نفسه فاذا ذكر عيبك. قال: اعفني يا أمير المؤمنين. قال: والله لتفعلن. قال الحجاج: إني لجوج في الخصومة، حقود، حسود. قال له عبد الملك: ما في الشيطان شر من هذا وعن الحسن أنه قال: يا ابن آدم لم تحسد أخاك فإن كان الذي أعطاه الله لكرامته عليه فلم تحسد من أكرمه الله، فإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النار.

وقال بعض الحكماء: الحسد خلق دنيء ومن دناءته أنه يبدأ بالأقرب فالأقرب. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال ما كان لله على أحد نعمة إلا وجد له حاسد، ولو كان الرجل أقوم من القدح لم يعد غامزاً. وعن أبي الدرداء أنه قال: ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قل فرحه وقل حسده.

وعن معاوية: أنه قال: كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة، فإنه لا يرضيه إلا زوالها. وأنشده لمحمود الوراق:

أَعْطَيْتَ كُلَّ النَّاسِ مِنْ نَفْسِي الرَّضَى إِلَّا الْحَسُودَ فَإِنَّهُ أَعْيَانِي
مَا إِنَّ لِي ذَنْباً إِلَيْهِ عَمِلْتُهُ إِلَّا تَطَاهَرَ نِعْمَةَ الرَّخْمَنِ
وَأَبَى فَمَا يُرْضِينِي إِلَّا ذُلَّتِي وَذَهَابَ أَمْوَالِي وَقَطَعَ لِسَانِي

وقال بعض الحكماء: الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحسود ما يلقي. وقال أعرابي: ما رأيت ظالماً أشبهه بمظلوم من حاسد أنه يرى النعمة عليك عليه. وينشد:

قُلْ لِلْحَسُودِ إِذَا تَنَفَّسَ ضِغْنَةً بَا ظَالِمًا وَكَأَنَّهُ مَظْلُومٌ

ويُشَد:

إِنَّ يَحْسِدُونِي فَأَنَايَ غَيْرَ لَأَيْمِهِمْ قَبْلِي رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ قَدْ حَسَدُوا
فَدَامَ لِي وَلَهُمْ وَمَا بِهِمْ وَمَاتَ أَكْثَرُنَا أَعْمًا بِمَا يَجِدُوا

وقال بعض العلماء: الحاسد لا ينال من المجالس إلا مذمةً وذلاً / ولا ينال من الملائكة [٨١] إلا لعنةً وبغضاً، ولا ينال من الخلق إلا جزءاً وغمماً، ولا ينال عند التزعم إلا شدةً وهولاً، ولا ينال عند الموقف إلا فضيحةً ونكالا^(١).

يَا حَاسِدًا دُونَكَ مَاءَ الْعَلَقَمِ فَاشْرَبْ بِهِ تَبْرُدُ الْحَسَرَاتِ
أَوْ صَخْرَةً أَوْ جَنْدَلًا أَوْ جِبَلًا فَانظِّحْ بِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ آتٍ

فصل: في حقيقة الحسد

اعلم أن حقيقة الحسد هي شدة الأسي على الخيرات تكون للأفاضل من الناس، فاذا كره الإنسان نعمة الله على أحد من عباده وأحبّ زوالها عنه فهو حاسد، والحسد حده كراهة النعمة وحب زوالها من المنعم عليه، وهو غير المنافسة، لأن المنافسة: طلب التشبه بالأفاضل من غير إدخال ضرر على الفاضل، والحسد مصروف إلى الضرر، فإذا أنعم الله على الإنسان نعمة فأحبّ عبد زوالها عنه لتكون له أو زوالها عنه فقط فهو حاسد وحالته تسمى حسداً، فإذا لم يحب زوالها ولكنه تمنى لنفسه مثلها فهو غابط، وحالته تسمى غبطة. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن يغبط، والمنافق يحسد»^(٢). فهذا هو الفرق بين المنافسة والحسد، فالمنافسة: فضلية محمودة لأنها داعية إلى اكتساب الفضائل والاقتران بالأفاضل قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾^(٣).

نعم إن كانت تلك النعمة دينية كالإيمان والصلاة والزكاة ونحوها فالمنافسة فيها واجبة، وهي محبة الإنسان أن يكون مثل المؤمن، لأنه إن لم يحب ذلك كان راضياً بمعضية وذلك محرم، وإن كانت النعمة من الفضائل كإتفاق الأموال في المكارم والصدقات، فالمنافسة فيها مندوب إليها، وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه الصلاح فالمنافسة فيها مباحة، وكل ذلك

(١) أغلب الآثار الواردة هنا من إحياء علوم الدين للزفاري (٣/١٨٣: ١٨٥)

(٢) قال العراقي في المغني (٣/١٨٦): لم أجد له أصلاً مرفوعاً، وإنما هو من قول الفضيل بن عياض، كذلك رواه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد.

(٣) سورة المطففين الآية: ٢٦.

[٨٢] يرجع إلى إرادته أن يساويه ويلحق به في النعمة، وليس فيها كراهة / النعمة، وكان تحت هذه النعمة أمران.

أحدهما: راحة المنعم عليه.

والآخر: ظهور نقصان غيره وتخلف عنه وهو يكره أحد الوجهين وهو تخلف نفسه ويجب مساواته له، ولا حرج على من يكره تخلف نفسه ونقصانها في المباحات. نعم ذلك ينقص الفضل ويناقض الزهد والتوكل ولكنه لا يوجب العصيان. ويشهد.

نَافِسٌ عَلَى الْخَيْرَاتِ أَهْلُ الْعُلَاءِ فَإِنَّمَا الدُّنْيَا أَحَادِيثُ
كُلُّ امْرِئٍ فِي شَأْنِهِ كَادِحٌ مَوَارِثٌ مِنْهُ وَمَوْرُوثٌ

وقد يستعمل لبعض المنافسة ويوضع موضع الحسد ويوضع الحسد موضع المنافسة، فلا حرج في الأسامي بعد فهم المعاني. وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس»^(١).

فسمى المنافسة باسم الحسد، ثم فسر ذلك بحديث آخر مروى عن أبي كبشة الأنصاري فقال: «مثل هذه الأمة مثل أربعة رجال: رجل آتاه الله مالا وعلماً فهو يعمل بعلمه في ماله، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا ويقول: لو أن لي مالا مثل مال فلان كنت أعمل فيه بمثل عمله فهما في الأجر سواء»، فهذا منه محبة لأن يكون له من المال مثل ما كان له من غير حب زوال النعمة عنه قال: «ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه في معاصي الله، ورجل لم يؤته مالا ويقول: لولا أن لي مالا كنت أعمل فيه بمثل عمله فهما في الوزر سواء»^(٢). فذمه عليه السلام من جهة تمنيه المعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة ما كان له فإذا لا حرج على من [٨٣] يغبط غيره في نعمة ويتمنى لنفسه مثلها ما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها، / وأما تسمية الحسد. منافسة فهو ما روي عن قثم بن العباس بن عبد المطلب أنه قال لعلي بن أبي طالب حين أراد قثم هو والفضل بن عباس أن يأتيا النبي ﷺ فيسألانه أن يؤمرهما على الصدقة فقال لهما علي: لا تذهبا إليه فإنه لا يؤمركما عليهما. فقال له قثم: ماذا منك إلا منافسة والله لقد

(١) قال العراقي في المعنى (١٨٧/٣): متفق عليه من حديث ابن عمر.

(٢) قال العراقي عن مثله في الإحياء أتم منه (١٨٧/٣) رواه ابن ماجه والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

زوجك رسول الله ابنته فما نافسنا ذلك عنك - أي هذا منك حسد - وما حسدناك على تزويج فاطمة والله أعلم .

فالحسد حرام بكل حال إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر فهو يستعين بهما على تهيج الفتنة وإفساد ذات البين، وإيذا الخلق فلا يضرك كراحتك لها ومحبتك لزوالها، فإنك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة بل من حيث هي آلة الفساد ولو أمنت فسادها لم يغمك تنعمه بها، ويدل على تحريم الحسد الأخبار المتقدمة، وأن هذه الكراهة تسخط لِقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة، وأتى معصية تزيد على كراحتك نعمة مسلم من غير أن تكون لك فيه مضرة، وإلى هذا أشار القرآن بقوله تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَسْتُمْ حَسَنَةً تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾^(١).

وهذا الفرح شماتة، والحسد والشماتة متلازمان وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُّوْكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا﴾^(٢). فأخبر أن جهيم لزوال نعمة الإيمان حسد، وقال: ﴿وَدَّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾^(٣). الآية، وذكر تعالى حسد إخوة يوسف له وعبر عما في قلوبهم ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا﴾^(٤). الآية فلما أحبه أبوه دونهم ساءهم ذلك فأحبوا زوالها عنه فغيبه عنه، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾^(٥).

قيل: معناه تضيق صدورهم / ولا يغمون فأثنى عليهم بعدم الحسد. وقال تعالى في [٨٤] معرض الإنكار: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٦). وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً﴾. إلى قوله: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾^(٧). قيل في التفسير حسداً. وقال: ﴿وَمَا تَقْرَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾^(٨). قيل: معناه أنزل الله العلم ليتألفوا به على طاعته فتحاسدوا إذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة وقبول القول، فرد بعضهم على بعض .

(١) سورة آل عمران الآية: ١٢٠.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٠٩.

(٣) سورة النساء الآية: ٨٩.

(٤) سورة يوسف الآية: ٨.

(٥) سورة الحشر الآية: ٩.

(٦) سورة النساء الآية: ٥٤.

(٧) سورة البقرة الآية: ٢١٣.

(٨) سورة الشورى الآية: ١٤.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانت اليهود قبل أن يبعث النبي عليه السلام إذا قاتلوا قوماً قالوا: نسألك بالنبي الذي وعدتنا أن ترسله، وبالكتاب الذي تنزله إلأى ما نصرتنا. فكانوا يُصرون، فلما جاء النبي من ولد إسماعيل عرفوه وكفروه به فقال تعالى: ﴿وَكَاثِرُونَ مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ﴾ إلى قوله: ﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا﴾^(١). أي حسداً.

ويروى أن صفية بنت حيي بن أخطب زوجة النبي ﷺ قالت له: جاء أبي وعمي عندك يوماً، فقال أبي لعمي: ما تقول فيه؟ قال: أقول أنه النبي الذي يبشر به موسى عليه السلام قال: فما ترى؟ قال: أرى معاداته أيام الحياة. فهذه حقيقة الحسد. وأما مراتب الحسد فهي ثلاثة:

أولها: أن يحب زوال النعمة إليه لرغبته فيها مثل رغبته في دارٍ حسنة، أو امرأة جميلة، أو ولاية نافذة نالها غيره، فهو يحب أن تكون له، ومطلوبه تلك النعمة لا زوالها ومكروهه فقد النعمة لا تنعم غيره بها فهذا هو الحسد المذموم.

والثانية: أن لا يشتهي عين النعمة بل يشتهي لنفسه مثلها، فإن عجز من مثلها أحب زوالها كي لا يظهر التفاوت بينهما، فهذه فيها مذموم وغير مذموم، وتسميتها حسداً توسعاً [٨٥] ومجازاً قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْتَوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ، بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾^(٢). فتمنيه مثل ذلك غير مذموم، وإنما المذموم تمنيه عينه.

والثالثة: أن يشتهي لنفسه مثلها فإن لم تصل إليه فلا يحب زوالها. وهذا الأخير هو المغفور عنه إن كان في الدنيا، والمندوب إليه إن كان في الدين^(٣)، والله أعلم.

فصل: في بيان المنافسة وأسباب الحسد

أما المنافسة فسيبها حب ما فيه المنافسة فإن كان أمراً دينياً فسيبه حب الله وطاعته، وإن كان أمراً دنيوياً فسيبه حب مباحات الدنيا والتنعم فيها، وإنما الكلام هاهنا في الحسد المذموم. وتختصر جملة أسبابه في سبعة أشياء وهي: العداوة، والتعزاز، والكبر، والعجب، والخوف من فوات المقاصد المحبوبة، وحب الرياسة، وخبث النفس، وذلك إنما يكره

(١) سورة البقرة الآيتان: ٨٩، ٩٠.

(٢) سورة النساء الآية: ٣٢.

(٣) راجع هذا الفصل في كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي (١٨٥/٣: ١٨٨) ففيه أغلب ما هنا من أحاديث وآثار، وما في الإحياء أوسع مما هنا.

النعمة عليه، إما لأنه عدو له فلا يريد الخير له بسبب إساءته إليه، وإما أن يستكبر عليه بتلك النعمة وهو المراد بالتكبر، وإما أن يفاخره بها لعزة نفسه وهو المراد بالتعزز، وإما أن تكون النعمة عظيمة فيتعجب من فوز مثله بتلك النعمة وهو التعجب، وإما أن يخاف من فوت مقاصده بسبب مزاحمته إياه بتلك النعمة، وإما أن يكون بحب الرياسة التي يحب أن لا يساوى فيها فيكره تلك النعمة له لئلا يلحقه بها، وإما أن يكون لا بسبب بل ببحث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى ولا بدّ من شرح هذه الأبواب بالاختصار إن شاء الله الملك القهار.

السبب الأول: العداوة والبغضاء وهو أشد أسباب الحسد فإن من آذاه إنسان بسبب أبغضه قبله ورسخ في نفسه الحقد، والحقد يقتضي التشفي والانتقام فإن عجز أن يتشفى منه بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان / وربما يحمل ذلك على كرامة نفسه عند الله فمهما أصابت [٨٦] عدوّه بلية فرح وظن ذلك مكافأة من جهة الله تعالى له على بغضه وأنه لأجله، ومهما أصابته نعمة ساء ذلك لأنه ضد مراده، وربما يظن أنه لا منزلة له عند الله تعالى حيث لم يتقم له من عدوه الذي آذاه بل أنعم عليه.

وبالجملة فالحسد يلزم البغضة والعداوة ولا يفارقهما، وإنما غاية التقوى أن لا يبغى وأن يكره ذلك من نفسه، وإما أن يبغض إنساناً ويستوي عنده مسرته وإساءته فهذا غير ممكن فهذا ما وصف الله تعالى به الكفار - أعني الحسد بالعداوة - إذ قال: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدَ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾^(١). الآية. والحسد سببه البغض، وربما يفضي إلى التقاتل واستغراق العمر في إزالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك السر ونحوه.

والسبب الثاني: التعزز وهو أن يتقل عليه أن يرتفع عليه غيره فإذا أصاب بعض أمثاله ولاية، أو علماً، أو مالاً خاف أن يتكبر عليه بذلك وهو لا يطيق تفاخره عليه، فليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع تكبر غيره عليه، فإنه قد رضي بمساواته دون ترفعه عليه.

السبب الثالث: أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستخدمه فإذا نال نعمة خاف أن لا يتحمل تكبره ولا يتقاد لخدمته، وربما أن يتشوق إلى مساواته أو إلى أن يرتفع عليه فيعود متكبراً بعد إن كان متكبراً عليه.

ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر الكفار للنبي عليه السلام إذ قالوا: كيف يتقدم علينا

(١) سورة آل عمران الآية: ١١٨.

غلام يتيم؟ وكيف تطأىء له رؤوسنا؟ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (١). أي كان لا يثقل علينا أن نتواضع له وتبته إذا كان / عظيماً.

وقال تعالى: يصف قريشاً إذا قالوا: ﴿أَهْؤُلَاءِ مَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا﴾ (٢). كالاستحقار لهم والأنفة منهم.

السبب الرابع: التعجب: كما أخبر تعالى عن الأمم الماضية إذ قالوا: ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ (٣)، ﴿أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ (٤). في أمثال هذه الآيات فتعجبوا أن يفوزوا برتبة الرياسة والقرب والوحي من الله تعالى وهم بشر أمثالهم، وأحبوا زوال نعمة النبوة عنهم جزعاً أن يتفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة لا عن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدم عداوة أو غيرها وقالوا متعجبين: ﴿أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٥). وقالوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ . . . الْآيَةَ﴾ (٦). فقال تعالى: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ . . . الْآيَةَ﴾ (٧).

السبب الخامس: الخوف من فوات المقاصد وذلك يختص بمتراحمين على مقصود واحد كتحاسد الضرائر في التراحم على مقصود الزوجية، وتراحم الإخوة على نيل المنزلة في قلوب الأيوين، وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد، وتحاسد الواعظين على أهل بلدة واحدة، وكذلك العالمان المتراحمان على طائفة من المتفهمة، إذ يطلب كل مَن ذكرنا نيل منزلة دون صاحبه.

السبب السادس: حب الرياسة وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظر في بعض الفنون إذا غلب عليه حب الشاء أنه فريد العصر في فنه وأنه لا نظير له، فإذا سمع بنظير له في أقصى الأرض ساءه ذلك واحب موته، أو زوال النعمة التي شاركه فيها من شجاعة، أو علم، أو عبادة، أو صناعة أو جمال، أو ثروة، وليس السبب في هذا سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد، وهذا وراء ما بين آحاد العلماء من طلب الجاه والمنزلة في قلوب الناس / للتوصل إلى

(١) سورة الزخرف الآية: ٣١.

(٢) سورة الأنعام الآية: ٥٣. في الأصل: أهؤلاء الذين فحذفت الكلمة الزائدة.

(٣) سورة يس الآية: ١٥.

(٤) سورة المؤمنون الآية: ٤٧.

(٥) سورة الإسراء الآية: ٩٤.

(٦) سورة الفرقان الآية: ٢١.

(٧) سورة الأعراف الآية: ٦٩.

الرياسة. وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة محمد ﷺ ولا يؤمنون به خيفة من أن تبطل رياستهم مهما نسخ علمهم.

السبب السابع: خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله، فإنك تجد من لا يشتغل برياسة ولا مال إذا وصف له حسن حال عبد من عباد الله فيما أنعم به عليه شق ذلك عليه، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وتنقص عيشهم فرح به، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ويخجل بنعم الله على عبادة كأنه إنما يأخذون ذلك من خزائنه، ويقال: البخيل يبخل بمال نفسه والشحيح هو الذي يبخل بمال غيره.

فهذا يبخل بنعمة الله على عباده لا بسبب عداوة ولا رابطة بينهم وبينه وليس له سبب ظاهر إلاً خبث في النفس ورذالة الطبع. ومعالجته شديدة لأن الحسد الذي ثبت بسبب يتصور إزالته إذا زال ذلك السبب وهذا هو خبث في الجبلة لا عن سبب عارض فتعسر إزالته إذ هو مستحيل في العادة أعني زواله.

فهذه أسباب الحسد وقد يجتمع كلها أو بعضها في شخص واحد فيعظم الحسد لذلك حتى لا يقدر صاحبه على الإخفاء والمجاملة معه بل يهتك حجاب المجاملة وتظهر العداوة بالمكاشفة والله أعلم.

والحسد إنما يكثر بين قوم تكثر بينهم هذه الأسباب المذكورة ولا سيما إذا تجاوزوا في مسكن، أو سوق، أو مدرسة، أو بدلة اجتمعوا فيها على مقاصد كل واحد يرغب فيها فتتناقض أغراضهم، فيثور من التناقض التنافر والتباغض، فذلك ترى العالم يحسد العالم دون العابد، والعابد يحسد العابد دون العالم، والتاجر يحسد التاجر، بل الإسكاف يحسد الإسكاف ولا يحسد البراز إلاً بسبب /آخر سوى الاجتماع في الحرفة، ويحسد الرجل أخاه وابن عمه [٨٩] أكثر ما يحسد الأجانب، والمرأة تحسد ضررتها أكثر مما تحسد أم الزوج وابنته، لأن مقصد البراز غير مقصد الإسكاف فلا يتزاحمون على المقاصد، إذا مقصد البراز ثروة المال ولا يحصله إلاً بكثرة الزبون وإنما ينازعه فيه بزاز آخر، وهكذا الشجاع يحسد الشجاع، والطبيب يحسد الطبيب، وأصل ذلك التزاحم على مقصد واحد، وذلك لا يجمع متباعدين بل متناسين، فلذلك يكثر الحسد بينهم.

نعم من اشتد حرصه على الجاه فإنه يحسد كل من في الدنيا في الخصلة التي يشاركه فيها، ومنشأ جميع ذلك الدنيا لأنها هي التي تضيق على المتزاحمين، وأما الآخرة فلا ضيق

فيها، ومثال الآخرة مثال نعمة العلم فلا جرم من يحب معرفة الله تعالى وصفاته لم يحسد غيره إذا عرفه أيضاً لأن المعرفة لا تضيق على العارفين بل المعلوم واحد يعرف بألف ألف عام ويلتذ بمعرفته ولا تنقص لذة واحد بسبب غيره بل يحصل بكثرة العارفين زيادة الأُنس وثمره الإفادة والاستفادة. فلذلك لا يكون بين علماء الآخرة محاسدة لأن مقاصدهم معرفة الله تعالى والمنزلة عنده، وذلك بحر واسع لا ضيق فيه - أعني المعرفة والمنزلة.

نعم إذا قصد العلماء بالعلم المال والجاه تحاسدوا لأن المال هو أعيان وأجسام إذا وقعت في يد واحد خلت عنها يد الآخر. ومعنى الجاه: هو ملك القلوب ومهما امتلأ قلب شخص بتعظيم عالم انصرف عن تعظيم الآخر أو نقص منه لا محالة، فيكون ذلك سبباً للمحاسدة بينهم، وليست المعرفة كذلك لأن القلب إذا امتلأ بالفرح بمعرفة الله لم يمنع ذلك أن [٩٠] يمتلئ به قلب غيره وأن يفرح به، / فالفرق بين العلم والمال أن المال: لا يحل في يد ما لم يرتحل عن أخرى، والعلم في قلب العالم مستقر ويحل في قلب غيره بتعليم من غير أن يرتحل عن قلبه، لأن الدنيا وأمورها لها نهاية، والآخرة والعلم بها لا نهاية لهما، فإن فرض كثرة العارفين لم يكونوا متحاسدين بل يكونوا كما قال الله فيهم رب العالمين. ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾، وقال: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾^(١). فإذا لا يتصور أن تكون في الجنة محاسدة ولا تقع بين أهل المعرفة في الدنيا أيضاً محاسدة، لأن الجنة لا مضايقة فيها ولا محاسدة، ولا تنال إلا بمعرفة الله التي لا مزاحمة فيها في الدنيا ولا مضايقة، فأهل الجنة بالضرورة براءً عن الحسد في الدنيا والآخرة، بل الحسد من صفات المبعدين عن سعة عليين إلى مضيق سجين، ولذلك وسم به إبليس اللعين حين حسد آدم النبي الأمين.

فعليك أرشدك الله إن كنت بصيراً وعلى نفسك مشفقاً أن تطلب نعيماً لا زحمة فيها، ولذة لا مكلر لها، فلا يوجد ذلك في الدنيا إلا في معرفة الله وصفاته وعجائب ملكوته من أرضه وسمواته، ولا تنال ذلك في الآخرة إلا بهذه المعرفة والعمل بها فإن كنت لا تشتاقي إلى معرفة الله تعالى تجد لها لذة، فلا غرور أن العنين لا يشتاقي إلى لذة الجماع، والصبي لا يشتاقي إلى لذة الملك؛ فإن هذه اللذات يختص بإدراكها الرجال دون المخشئين والصبيان، فكذلك لذة المعرفة يختص بإدراكها الرجال الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. فلا يشتاقي إلى هذه اللذة غيرهم؛ لأن الشوق بعد الذوق، ومن لم يذوق لم يعرف، ومن لم يعرف لم يشفق، ومن

لم يشق لم يطلب، ومن لم يطلب لم يدرك، ومن لم يدرك بقي مع المحرومين في أسفل سافلين، ﴿وَمَنْ / يَغْتُنْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(١) أعادنا الله من [٩١] الخذلان؛ فإنه سبب الحرمان^(٢).

فصل: فيما ينفي به مرض الحسد عن القلب

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل، أما العلم النافع لمرض الحسد فهو أن تعلم حقيقة أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين، وأنه لا ضرر به على المحسود في الدنيا والدين بل يتفجع به في الدنيا والدين، فمهما عرفت هذا يقيناً ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك فارقت الحسد لا محالة.

إما كونه ضرراً عليك في الدين فهو إنك بالحسد ساخط لقضاء الله تعالى غير راضي بقسمته وهذه جناية على حدة التوحيد، وقذى في عين الإيمان، وناهيك بها جناية في الدين، وكان يقال: الحسود ساخط على ربه في إنقاذ أقداره؛ إذ ليس يرى قضاء الله عدلاً ولا نعمة من الناس أهلاً، وقد انضاف إلى هذا أنك غاش لرجل من المسلمين، تارك لنصيحته، مفارق لأولياء الله في حبهم الخير لعباده، مشارك لإبليس والكفار في محبتهم البلاء للمسلمين، وزوال النعم عنهم وهذه خباثت في القلب تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

وإما كونه ضرراً في الدنيا، فهو يتألم بحسرات الحسد، وينحل من أجلها الجسد، ثم لا يجد لحسراته إتهاء، ولا يرجو لسقام جسده شفاء، وقد قال ابن المعتز: الحسد سقام الجسد. ثم تنحط رتبته وتنخفض منزلته لنفور الناس عنه، ولذلك قيل: الحسود لا يسود. مع ما يظهر منه من الأخلاق الذميمة. وقد قال بعض العلماء: للحاسد ثلاثة علامات: يُتملق إذا حضر ويُغتاب إذا غاب، ويشمت بالمصيبة.

وقال ابن المعتز: / الحاسد مفتاظ على من لا ذنب له، بخيل بما لا يملكه، طالباً لما لا [٩٢] يجده، فما أعجب من العاقل أن يتعرض لسخط الله تعالى وعذابه من غير نفع يناله مع ضرر يتحملة وغم يلازمه، فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة.

وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه، فواضح لأن النعمة لا تزول عنه بحسبك، فلا بد من دوامها إلى أجل محدود. ويقال شكاً نبي من الأنبياء من امرأة ظالمة

(١) سورة الزخرف الآية: ٣٦.

(٢) راجع الفصل في إحياء علوم الدين بتفصيل (٣/١٨٨: ١٩٠).

مستولية على الناس، فأوحى الله إليه فِرٌّ من قدامها حتى تنقضي أيامها. فمهما لم تزل النعمة بالحسد لم يكن على المحسود ضرر في الدنيا ولا إثم في الآخرة، فلو كانت النعمة تزول بالحسد لكان لم يبق لله عليك من نعمة أيضاً، لأنك لا تخلو من عدو يحسدك، ولزالت على المؤمنين نعمة الإيمان لأن الكفار يحسدون لهم الإيمان قال الله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾^(١). . . الآية.

نعم فالحسود ضال بإرادته الضلال لغيره، فإن إرادة الكفر كفر فهو ضال بإرادته، ولا تزول النعمة بحسده، فكما لا تزول النعمة عنك بحسد غيرك فكذلك غيرك لا تزول عنه النعمة بحسدك.

وأما نفع المحسود بحسدك في الدنيا والدين فهو واضح، أما منفعة في الدنيا فإنه مظلوم من جهتك لا سيما إذا أخرجت الحسد إلى القول والفعل باللعنة والشتم وذكر مساوته، وذلك أيضاً هدياً منك تهدي إليه حسناتك فإنك أردت زوال النعمة عنه فلم تزل فأضفت إليه نعمة حسناتك فأضفت إلى نفسك شقاوة غم الحسد إلى شقاوة الخيبة في الحسنات.

وأما منفعة في الدنيا، فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء، وأن يكونوا معذبين [٩٣] مغموين ولا / عذاب ولا غم أعظم مما أنت فيه من ألم الحسد فقد فعلت بنفسك ما هو مراد أعدائك ولذلك قيل:

لَا مَاتَ أَعْدَاؤُكَ بَلْ خَلِدُوا حَتَّى يَرَوْا مِنْكَ الَّذِي يُكْمَدُ
لَا زَلْتِ مَحْسُودًا عَلَى نِعْمَةٍ فَإِنَّمَا الْكَاِمِلُ مَنْ يُخْسَدُ

وقد روي عن بعض العلماء بعض العلماء أنه قال: المحسود من ألهم كسافي السم فإذا سرى سمه سرى عنه همه. وقد قيل: العجب لغفلة الحساد عن سلامة الأجساد. وربما كان الحسد أيضاً منبهاً على فضل المحسد ونقصان الحسود كما قال أبو تمام:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طَوِيَتْ آتَاخَ لَهَا لِسَانَ حَسُودٍ
لَوْلَا اشْتِغَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَزَتْ مَا كَانَ يُعْرِفُ طِيبُ عَرَفِ الْعُودِ
لَوْلَا التَّخَوُّفُ لِلْعَوَاقِبِ لَمْ تَزَلْ لِلْحَاسِدِ النَّعْمَا عَلَى الْمُخْسُودِ

فإذا تفكر الحاسد فيما ذكرنا، واتبع الدين والعقل في اجتناب الحسد، وأكله الحسنات،

وما يستقبه العقل من نتائج الحسد التي هي أذم المذمومات فساعد ورضي به كل الرضا دعاه ذلك إلى ترك الحسد، وشارك الأولياء في المحبة للمسلمين، فقهر حيثئذ نفسه على مذموم خلقها بالرياضة والتهديب فيتظاهر بالتخلق حتى يصير بالمواظبة والعادة كالحلق، قال أبو تمام:

فَلَمْ أَجِدِ الْأَخْلَاقَ إِلَّا تَخَلَّقًا وَلَمْ أَجِدِ الْأَفْصَالَ إِلَّا تَفْصُلًا

ويروى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال لرجل: كن عالماً، فإن لم تستطع فكن متعلماً، فإن لم تستطع فأحبهم، وإن لم تستطع فلا تبغضهم. فقال: سبحان الله لقد جعل الله مخرجاً. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المرء مع من أحب»^(١).

وفي الحديث / عن رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ثلاثة: المحسن، والمحب [له]»^(٢)، [٩٤] والكاف عنه»^(٣). أي يكف عنه الأذى والبغض والكراهة فهذه هي أدوية الحسد فهي نافعة جداً إلا أنها مرة جداً، ولكن النفع في الدواء المر، فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء.

ولكن ما دام الإنسان محباً للعالم وللجهاد فلا بد أن يحسد من استأثر بهما وحظي بالرياسة دونه، وأن يغمه ذلك لا محالة، وإنما غاية المجاهدة فيه أن يكره ذلك من نفسه ولا يغمه ولا يظهره بقول ولا فعل، فإذا كف ظاهره ومنع جوارحه عن إيذاء المحسود والأزم قلبه مع ذلك كراهة ما يترشح عنه من حب زوال النعمة عنه حتى كأنه يمقت نفسه على ما في طبعه فتكون تلك الكراهة من جهة الفعل في مقابلة الميل من جهة الطبع فقد أدى الواجب عليه ولا يقدر الإنسان إلا على هذا ولا يدخل تحت اختياره في أغلب الأحوال أكثر من هذا ما دام ملتفتاً إلى حظوظ الدنيا إلا أن يصير قلبه مستغرقاً بحب الله تعالى مثل السكران الواله فقد ينتهي أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاضل أحوال العباد بل ينظر إلى الكل بعين الرحمة، ويرى العباد وجميع أفعالهم أفعالاً لله تعالى وهم له مسخرون، وذلك إن كان فهو كالبرق الخاطف لا يدوم ويرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه والشيطان إلى منازعته إياه بالسوسة.

وذهب آخرون إلى أن الحاسد لا يأنم إذا لم يظهر أثر الحسد على الجوارح لما روي عن

(١) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (٤٨/٨) مسلم في الصحيح (البر والصلة ١٦٥)، الترمذي

في الجامع الصحيح (٢٣٨٥) أبي داود في السنن (٥١٢٧)، الدارقطني في السنن (١٣٢/١).

(٢) ما بين المعقوفين من إحياء علوم الدين (٣/١٩٤).

(٣) قال العراقي في المغني (٣/١٩٤): لم أجد له أصلاً.

الحسن أن رجلاً سأله: هل يحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك بني يعقوب؟ قال: نعم ولكن غمه في صدرك فلا يضرك ما لم تعديه يد أو لساناً.

٢٩٥: وروي عنه موقوفاً / ومرفوعاً إلى النبي ﷺ فيما وجدت والأولى أن يحمل هذا على ما ذكرنا من أن تكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل في مقابلة حب الطمع لزوال تلك النعمة فإن جميع ما ورد من الأخبار في ذم الحسد يدل في^(١) ظاهره على أن كل حاسد آثم، والحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال، ومحل القلب دون الجوارح، وكل محب مساءة المسلمين فهو حاسد لأن له فيهم ثلاثة أحوال:

أولها: أن تحب مساءتهم بطبعك، وتكره حبك لذلك، وميل قلبك إليه بعقلك، وتمتت نفسك عليه، وتود أن لو كان لك حيلة في إزالة الميل منك، وهذا معفو عنه قطعاً.

الثانية: أن تحب ذلك بقلبك، وتظهر الفرح بمساءته إما بلسانك أو بجوارحك فهو الحسد المحظور قطعاً.

الثالثة: وهي بين الطرفين أن تحسد بقلبك من غير مقتك نفسك على حسدك ولا إنكار منك ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاها، وهذا محل الخلاف والأظهر أن لا يخلو عن إثم بقدر قوة ذلك وضعفه، والله أعلم وأحكم وبه العون والتوفيق^(٢).

الفصل الخامس: في ذمّ البخل

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَاءَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾^(٣). وقال: ﴿وَمَنْ يُوقْ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٤)، وقال: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾^(٥)... الآية.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء». وروي أنه سمع رجلاً يقول: الشحيح أغدر من الظالم فقال: «لعن الله الشحيح، ولعن الظالم» وعنه أيضاً [٩٦] قال: «ياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسفكوا / دماءهم واستحلوا

(١) في الأصل: على. وأحسبه تحريف من الناسخ والله أعلم.

(٢) راجع هذا الفصل في إحياء علوم الدين للإمام الغزالي (٣/١٩٢: ١٩٥) مع زيادات ونقص.

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٨٠.

(٤) سورة الحشر الآية: ٩.

(٥) سورة النساء الآية: ٣٧.

محارمهم» ودماءهم فقطعوا أرحامهم^(١) وقال عليه السلام: «لا يدخل الجنة: بخيل، ولا خب، ولا خائن، ولا سيء الملكة»^(٢).

وفي رواية: «ولا جبار». وفي رواية «ولا منان» وعنه عليه السلام أنه قال: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»^(٣). وعنه عليه السلام أنه قال: «إن الله يبغض ثلاثة: الشيخ^(٤) الزاني والبخيل المنان والمعيل المختال»^(٥).

وقال: «مثل المنفق»^(٦) والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن ثديهما إلى تراقيهما فأما المنفق^(٧) لا ينفق شيئاً إلاّ اتسعت على جلده حتى تخفى بنانه وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلاّ قلقت ولزمت كل حلقة مكانها حتى أخذت بتراقبه فهو يوسعها فلا تتسع»^(٨).

وقال عليه السلام: «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق»^(٩) وقال في دعائه: «اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر»^(١٠).

وقال: «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات»^(١١) يوم القيامة وإياكم والفحش فإن الله لا

(١) رواه مسلم من حديث جابر بلفظ، واتفقوا الشح فإن الشح... الحديث ولأبي داود، والنسائي في الكبرى وابن حبان، والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمر لإياكم والشح وإنما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا - قاله العراقي في المغني (٢٤٧/٣).

(٢) رواه أحمد، والترمذي وحسنه من حديث أبي بكر واللفظ لأحمد دون قوله ولا منان فهي عند الترمذي، وله ولابن ماجه: لا يدخل الجنة سيء الملكة - قاله العراقي في المغني (٢٤٧/٣).

(٣) رواه البزار، والطبراني، وأبو نعيم، والبيهقي في الشعب من حديث أنس بإسناد ضعيف. قاله العراقي في المغني (١٦/١).

(٤) في الأصل: الشحيح. وهو تحريف والتصويب من الإحياء (٢٤٧/٣).

(٥) رواه الترمذي والنسائي من حديث أبي ذر دون قوله البخيل والمنان وقال فيه: الغني الظلوم، والطبراني في الأوسط من حديث علي: إن الله يبغض الغني الظلوم والشيخ الجهول والمائل المختال وسنده ضعيف. قاله العراقي في المغني: (٢٤٧/٣).

(٦) في الأصل: المتناق وهو تحريف.

(٧) في الأصل: المتناق وهو تحريف.

(٨) متفق عليه من حديث أبي هريرة - قاله العراقي في المغني (٢٤٧/٣).

(٩) رواه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال غريب، قاله العراقي في المغني (٢٤٧/٣).

(١٠) رواه البخاري من حديث سعد. قاله العراقي في المغني (٢٤٧/٣).

(١١) في الأصل: ظلمة. والتصويب من الإحياء (٢٤٧/٣).

يحب الفحش ولا التفتش يوم القيامة، وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم الشح أمرهم بالكذب فكذبوا، وأمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا^(١).

وروي أنه قال للأنصار: «من سيدكم؟ قالوا: الجد بن قيس على بخل به. فقال عليه السلام: «وأي داوء أدوى من البخل؟. قالوا: وكيف ذلك يا رسول؟ قال: «إن قوماً نزلوا بساحل البحر فكروهوا لبخلهم نزول الأضياف بهم وقالوا: ليبعد الرجال منا عن النساء حتى يعتذر الرجال إلى الأضياف ببعد النساء وتعتذر النساء ببعد الرجال ففعلوا وطال ذلك بينهم فاشتغل الرجال بالرجال والنساء بالنساء».

[٩٧] وفي رواية / أخرى أنه قال: «يا بني سلمة من سيدكم؟» قالوا: سيدنا الجد بن قيس إلاً أنه رجل فيه بخل. فقال: «أي داء أدوى من البخل ولكن سيدكم عمرو بن الجموح»^(٢). وفي رواية أخرى: قالوا: سيدنا الجد بن قيس قال: «بم سودتموه؟» قالوا: إنه أكثرنا مالاً وأنا على ذلك لتزده بالبخل. قال: «وأي داوء أدوى من البخل ليس ذلك سيدكم». قالوا: ومن سيدنا يا رسول الله؟ قال: «سيدكم بشر بن البراء»^(٣). وعنه عليه السلام أنه قال: «شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع»^(٤). قال: وقتل شهيد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكته باكية فقالت: واشهيداه. فقال النبي عليه السلام: «وما يدريك أنه شهيد فلعله قد يتكلم بما لا يعنيه أو يبخل فيما لا ينقصه»^(٥).

وعن جبير بن مطعم قال بينما نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع الناس مقبلة من حنين إذ

(١) رواه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا، قال عوضاً عنها وبالخيل فبخلوا بالفجور ففجروا، وكذا رواه أبو داود مقتضراً على ذكر الشح... ولمسلم من حديث جابر: اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح. فذكره بلفظ آخر ولم يذكر الفحش. قاله العراقي في المغني (٣/٢٤٧: ٢٤٨).

(٢) أطراف الحديث عند: الحاكم في المستدرک (٣/٢١٩) الطبراني في الكبير (١٩/٨١)، ابن سعد في الطبقات (٣/١١٢/٢)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٣١٥)، والمتقي في الكتر (٥٨/٣٦).

(٣) وعن نحوه قال العراقي في المغني (٣/٢٤٩): رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم بلفظ: يا بني سلمة وقال سيدكم بشر بن البراء، وأما الرواية التي قال فيها: سيدكم عمرو بن الجموح فرواها الطبراني في الصغير من حديث كعب بن مالك بإسناد حسن.

(٤) قال العراقي في المغني (٣/٢٤٨): رواه أبو داود من حديث جابر: بسند جيد.

(٥) رواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف، ولليهيقي في الشعب من حديث أنس أن أمه قالت: ليهنك الشهادة. وهو عند الترمذي، إلا أن رجلاً قال له: أبشر بالجنة. قاله العراقي في المغني الموضوع السابق.

علقت رسول الله ﷺ الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة^(١) فخطفت رداءه فوقف عليه السلام فقال: «اعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضة نَعَمًا لقسمته بينكم ثم لا تجدونني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً»^(٢).

وعن عمر قال قسم النبي ﷺ قسماً، فقلت غير هؤلاء كانوا أحق به منهم به منهم، فقال عليه السلام: «إنهم يخبروني بين أن يسألوني بالفحش أو يبخلوني ولست ببخيل»^(٣).

وعن أبي سعيد الخدري قال: دخل على رسول الله ﷺ رجلان، فسألاه ثمن بعيرة، فأعطاهما دينارين، فخرجا من عنده فلقياهما عمر فأثبنا وقالا معروفاً وشكراً ما صنع بهما، فدخل عمر على رسول الله ﷺ فأخبره بما قالا، فقال: رسول الله ﷺ: «لكن فلاناً أعطيته ما بين عشرة / إلى مائة ولم يقل ذلك، إن أحدمك يسألني فينطلق بمسألته متأبطها وهي نار». فقال [٩٨] عمر: فلم تعطيه ما هو نار؟ فقال: «ما يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل»^(٤). وعن ابن عباس رضي الله عنه ﷺ أنه قال: «الجود من جود الله، فجدودوا يَجِدُ الله عليكم، ألا إن الله خلق الجود فجعله في صورة رجل، فجعل له رأساً راسخاً في أصل شجرة طوبى، وشبك أغصانها بأغصان سدرة المنتهى، ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا، فمن تعلق بغصن منها أدخله الجنة، ألا إن السخاء من الإيمان، والإيمان في الجنة، وخلق البخل ومقته، وجعل له رأساً راسخاً في أصل شجرة الزقوم، ودلى بعض أغصانها إلى الدنيا، فمن تعلق بعض منها أدخله النار، ألا إن البخل من الكفر والكفر في النار»^(٥).

وعنه عليه السلام أنه قال: «السخاء شجرة تنبت في الجنة فلا يلج الجنة إلا سخي والبخل شجرة تنبت في النار ولا يلج النار إلا ببخل»^(٦). وعنه عليه السلام أنه قال: «إن الله يبغض البخيل في حياته السخي عند موته»^(٧).

(١) في الأصل، والإحياء سمرة. وأحسبه تحريف.

(٢) رواه البخاري، قاله العراقي في المعنى (٢٤٨/٣).

(٣) في الإحياء ببخل. والحديث رواه مسلم قاله العراقي في المعنى الموضع السابق.

(٤) رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار نحوه، ولم يقل أحمد أنهما سألاه ثمن بعير، ورواه البزار من رواية أبي سعيد عن عمر ورجال أساتيدهم ثقات. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٥) ذكره صاحب الفردوس (أي الديلمي) ولم يخرج له ولده في مسنده، ولم أقف له على إسناد. قاله العراقي في المعنى (٢٤٨/٣).

(٦) قال عنه العراقي كما قال على الذي قبله غير أنه قال: من حديث علي.

(٧) ذكره صاحب الفردوس، ولم يخرج له ولده في مسنده ولم أجد له إسناداً. العراقي في المعنى (٢٤٩/٣).

وعن أبي هريرة عنه أنه قال: «السخي الجهول أحب إلى الله من العابد البخيل»^(١). وعن أبي هريرة عنه أنه قال: «لا يجتمع الشح مع الإيمان في قلب عبد»^(٢) وقال أيضاً: «لا ينبغي للمؤمن أن يكون بخيلاً ولا جباناً»^(٣) وعنه عليه السلام أنه قال: «يقول قائلكم الشحيح، أغدر من الظالم وأي ظلم أعظم عند الله من الشح حلف الله بعزته وعظمته وجلاله لا يدخل الجنة شحيح ولا بخيل»^(٤).

وروي أن رسول الله ﷺ كان يطوف بالبيت فإذا رجل متعلق بأستار الكعبة وهو يقول:
بحرمة البيت إلا غفرت لي ذنبي قال رسول الله ﷺ وما ذنبك صفة لي؟.

[٩٩] / قال هو أعظم من أن أصفه لك قال: «ويحك ذنبك أعظم أم الأرض؟» قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله. قال: «فذنبتك أعظم أم البحار؟» قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله. قال: «فذنبتك أعظم أم السموات؟». قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله. قال: «فذنبتك أعظم أم العرش؟» قال: بل ذنبي أعظم يا رسول الله. قال: «ذنبتك أعظم أم الله؟» قال: بل الله أعظم وأعلى قال: ويحك فصف لي ذنبك.

فقال: يا رسول الله أنا رجل ذو ثروة من المال وإن السائل ليأنيبي يسألني، فكأنما يستقبلني بشعلة من نار، فقال رسول الله ﷺ: «إليك عني لا تحرقني ببارك فوالذي بعثني بالهداية والكرامة لو قتمت بين الركن والمقام، ثم صليت ألف ألف عام، وبكيت حتى تجري من دموعك الأنهار، وتسقي بها الأشجار، ثم مت وأنت لئيم لكبك الله في النار، ويحك أما علمت أن البخل كفر، والكفر في النار، ويحك أما علمت أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾»^(٥).

الآثار: وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما خلق الله تعالى الجنة عدن قال لها: تزييني فتزينت، ثم قال لها: أظهري أنهارك، فأظهرت عين السلسيل، وعين الكافور، وعين التنسيم، ففجر منها في الجنان، وأظهرت أنهار الخمر، وأنهار العسل واللبن، فقال لها: أظهري سرورك وجمالك وكراسيك وحليك وحللك وحوار عينك فأظهرت، فنظر إليها فقال:

- (١) رواه الترمذي بلفظ: ولجاهل سخي... العراقي في المصدر السابق.
- (٢) رواه النسائي وفي إسناده اختلاف. العراقي في المصدر السابق.
- (٣) لم أره بهذا اللفظ. المصدر السابق.
- (٤) لم أجده بتمامه، وللترمذي من حديث أبي بكر لا يدخل الجنة بخيل. المصدر السابق.
- (٥) سورة الحشر الآية: ٩، والحديث بطوله باطل لا أصل له قاله العراقي في المغني (٣/٢٤٩).

تكلمي، فقالت: طوبى لمن دخلني، فقال تعالى: وعزتي لا أسكنك بخيلاً.

وعن أخت عمر بن عبد العزيز أنها قالت: أفٍ للبخيل لو كان البخيل قيمصاً ما لبسته، ولو كان طريقاً ما سلكته. وعن طلحة بن عبد الله أنه قال: إنا نَجِدُ بأموالنا ما يجد البخيل، ولكننا نتصبر. وقال بعض الحكماء: / البخيل جلباب المسكنة. وقال بعض البلغاء: البخيل [١٠٠] حارس نعمة، وحازن ورثته. وأنشد لبعض الشعراء:

إِذَا كُنْتَ جَمَاعاً لِمَالِكَ مُنْسِكاً فَأَنْتَ عَلَيْهِ خَازِنٌ وَأَمِينٌ
تُوَدِّيهِ مَذْمُوماً إِلَى غَيْرِ حَامِدٍ فَيَأْكُلُهُ عَفْواً وَأَنْتَ دَفِينٌ

وقال بعض الأدباء: البخيل ليس له خليل وعن محمد بن المنكدر أنه قال: كان يقول: إذا أراد الله بقوم شراً أمرَ عليه أشرارهم وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم. وقال الشعبي: لا أدري أيهم أبعد غوراً في جهنم، البخيل أو الكذاب؟

وعن عليّ أنه قال في بعض خطبه: أنه سيأتي على الناس زمان عضوض بعض المؤمن على ما في يده ولم يؤمر بذلك. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْوَأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾^(١). وقيل ورد على أنو شران حكيم الهند، وفيلسوف الروم فقال للهندي، تكلم. فقال: خير الناس من ألقى عند السؤال سخياً، وعند الغضب وقوراً في القول متائباً، وفي الرفعة متواضعاً، وعلى كل ذي رحم مشفقاً. وقام الرومي فقال: من كان بخيلاً ورث عدوه ماله، ومن قل شكره لم ينل النجح، وأهل الكذب مذمومون، وأهل النميمة يموتون فقراء، ومن لم يرحم سلط عليه من لا يرحمه. وحكي أن بعض ذوي النباهة تظاهر بحب الثناء مع إمساك فيه فقال بعض الشعراء:

أَرَاكَ تُؤَمِّلُ حُسْنَ الثَّنَاءِ وَلَمْ يَزُرُقْ اللهُ ذَاكَ الْبَخِيلَا
وَكَيْفَ يَسُودُ أَخُو بَطْنَةٍ يَمُنُّ كَثِيرًا وَيُعْطِي قَلِيلَا

وعن الضحاك في قوله: ﴿جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا﴾^(٢). قال: البخيل يعني أمسك الله أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله فهم لا يبصرون الهدى.

وعن كعب أنه قال: ما من صباح إلا وقد وكل به ملكان / يناديان اللهم عجل للمسك [١٠١] ماله تلفاً، وعجل للمتفق خلفاً. وفي رواية عن أبي الدرداء ما من يوم غربت شمسهُ إلا وملكان يناديان. الحديث.

(١) سورة البقرة الآية: ٢٣٧.

(٢) سورة يس الآية: ٨.

وعن عروة بن الزبير قال قال رسول الله ﷺ السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار^(١). وعنه ﷺ أنه بلغه عن الزبير إمساك فجبذ عمامته إليه فقال: «يا زبير أنا رسول الله إليك وإلى غيرك يقول أنفق أنفق عليك ولا توك فأوك عليك».

وعن الأصمعي قال: سمعت أعرابياً وقد وصف رجلاً فقال: لقد صغر فلان في عيني لعظم الدنيا في عينيه فكأنما يرى السائل إذا راه ملك الموت إذا أتاه. وذكر في كتاب العقد: أن عبد الله بن الزبير كان من البخلاء وكان تكفيه أكلة في أيام ويقول: إنما بطني شبر في شبر فما عسى أن يكفيه قال: فقال فيه أبو وجره مولى الزبير:

لو كان بطنك شبراً قد شبتك وقد ابقيت خيراً كثيراً للمساكين
فإن تصبك من الأيام جائحة لم تبك على دنيا ولا دين
ما زلت في سورة الأعراف تدرسها حتى فؤادي كمثل الخزفي المين
إن امرأ كنت مولاً فصيّعني يرجو الفلاح لعندي حق مغبون

قال: وأقبل إليه أعرابي فقال له: أعطني وأقاتل عنك أهل الشام. فقال: إذهب فقاتل فإن أعيتك أعطيتك. فقال: أراك جعلت روعي نقداً ودراهمك نسيئة. قال وأتاه أعرابي يسأله حملانا ويذكر أن ناقته نقتب عليه. فقال: أنعلها بسبت. فقال الأعرابي: إنما أتيتك مستوصلاً [١٠٢] ولم أتك مستوصفاً. / وقال: فلا حملت ناقه حملتني إليك. فقال: إن وصاحبها. قال وابن الزبير القائل: أكلتم تمري وعصيتم أمري، فقال فيه الشاعر:

رَأَيْتَ أَبَا بَكْرٍ وَرَزَّكَ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِ يَرْجُو الْخِلَافَةَ بِالْأَمْرِ

وعن أبي حنيفة قال: لا أعزل بخيلاً لأنه يحمل البخل على الاستقصاء فيأخذ أكثر من حقه خيفة أن يغبن فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة. وقال علي: والله ما استقصى كريم قط قال الله تعالى: ﴿عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾^(٢). يعني عرف النبي عائشة - أي أعلمها - إفشاء بعض حديثه إياها وهو تحريمه مارية القبطية، ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ قيل: حديثه لها أن الخلافة تكون لأبيها بعده أعرض عنه لثلاث تنشر، والله أعلم.

وعن الجاحظ أنه قال: ما بقي عن اللذات إلا ثلاث؛ ذم البخلاء، وأكل القديد، وحك

(١) قال العراقي في المعنى (٣/ ٢٤٠): رواه الترمذي وقال: غريب ولم يذكر فيه: وأدوا الداء البخل. ورواه بهذه الزيادة الدارقطني فيه. قلت: وكان ذكر في الإحياء بأنم مما هنا.

(٢) سورة التحريم الآية: ٣.

الجرب. وعن بشر بن الحارث أنه قال: البخيل لا غيبه له، قال ومدحت امرأة عند النبي ﷺ فقالوا: صوامه قوامه إلا أن فيها بخلاً قال: «فما خيرها إذًا»^(١).

وعن بشر أنه قال: النظر إلى البخيل يقسي القلب، ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين. وفي كتاب العقد ومن أمثال العرب في البخيل قولهم: ما هو إلا ابنة عطا وعقد رشا. لأن عقد الرشا المبلول لا تكاد تنحل. وعن يحيى بن معاذ أنه قال: يأبى القلب للاسخياء إلا حياً ولو كانوا فجاراً، وللبخلاء إلا بغضاً ولو كانوا أبراراً. وقال ابن المعتز: أبخل الناس بماله أجدوهم بعرضه.

وحكي أن يحيى بن زكريا عليهما السلام لقي إبليس اللعين في صورته فقال: يا إبليس أخبرني بأحب الناس إليك وأبغضهم عنك. فقال: أحب الناس إليّ المؤمن البخيل، وأبغضهم إليّ الفاسق السخي. قال: لم؟ قال: لأن البخيل قد كفاني / بخله، والفاسق السخي أخاف أن [١٠٣] يطلع الله عليه في سخائه فيقبل، ثم ولى وهو يقول: لولا أنك يحيى ما أخبرتك.

ويقال: ضيف البخيل آمن من التخمة. ومن كتاب العقد قال: قيل لمدينة: ما الجرح الذي لا يندمل؟ قالت: حاجة الكريم إلى اللئيم ثم يرده. قيل: فما الذل؟ قالت: وقوف الشريف إلى باب الدنيء ثم لا يؤذن له. قيل فما الشرف؟ قالت: اتخاذ المنز في رقاب الرجال. قال: وتقول العرب لمن لم يظفر بحاجته وجاء خائباً: جاء فلان على حاجبيه صوفة. وأنشد لأبي عطاء السندي في يزيد بن عمرو بن هبيرة.

ثلاث حكتهن لقوم قيس طلبت بها الأخوة والثناء
رجعن على حواجهن صوف وعند الله يحاسب الجزاء^(٢)

فصل

ومن كتاب سراج الملوك قال: الشح في كلام العرب: البخل ومنع الفضل.

كان عليه السلام يدعو: «اللهم إني أعوذ بك من شح نفسي وإسرافها، وسواسها»^(٣) قال: وفرق مفرقون بينهما فقالوا: الشح أشد من البخل؛ فالبخل أكثر ما يقال في النفقة

(١) أطرافه عند: ابن المبارك في الزهد (٢٥٧) الخرائطي في مكارم الأخلاق (٥٩)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥٣٩/٧).

(٢) راجع أغلب الآثار في إحياء علوم الدين (٢٤٩/٣: ٢٥٠).

(٣) أورد القرطبي في تفسير (٣٠/١٨).

وأسابها، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ﴾^(١).

والشيخ مبنّي على الكراهة والامتناع، فهو يكون في المال وفي سائر البدن قال الله تعالى: ﴿أَشْحَىٰ عَلَىٰ الْخَيْرِ﴾^(٢). الآية. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ﴾^(٣). الآية. وعن طاوس قال: الشح أن يبخل الرجل بما في أيدي الناس، والبخل أن يبخل بما في يده. وعن ابن عمر قال: الشح أشد من البخل، لأن الشحيح هو الذي يشح بما في يده غيره حتى يأخذه ويشح بما في يده فيمسكه، والبخل هو الذي يبخل بما في يده، ولذلك قال ابن المبارك: سخاء النفس بما في أيد الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل.

[١٠٤] وقال رجل لابن مسعود: /إني أخاف أن أكون هلكت، سمعت الله يقول: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الآية. وأنا رجل شحيح لا يكاد يخرج من يدي شيء. قال: ليس ذلك بالشح الذي ذكره الله، ولكن الشح أن تأكل لحم أخيك ظلماً، ولكن ذلك البخل وليس بالشح. قال ابن عباس: يتبع هواه. وعن النبي ﷺ أنه قال: «برئىء من الشح من أدى الزكاة، وأقرى الضيف، وأعطى في النابتة»^(٤). وقال ابن زيد: من لم يأخذ شيئاً نهاه الله عنه، ولم يدعه الشح إلى منع شيء أمره الله به فقد وقى شح نفسه.

واعلم أن البخل يكون سوء الظن بالله تعالى أن يخلف ولا يثيب، وهذا يوهن التصديق بما تكفل الله به، ويؤدي ذلك إلى الامتناع من جميع أوامر الله التي بين العبد وبين الخالق، وبين الخلق من ترك معاونتهم والنصح لهم.

وروي أن كسرى قال لأصحابه: أي شيء أضر بآدم؟ قالوا: الفقر. قال: الشح أضر من الفقر؛ لأن الفقير إذا وجد شبع، والشحيح لا يشبع، والله أعلم.

فصل: في أخبار البخلاء

ومن كتاب العقد قال: أجمع الناس على بخل أهل مرو ثم أهل خراسان. قال: وقال ثمامة بن أشرس ما رأيت الديك في بلد قط إلا وهو يدعو الدجاج لتلتقط الحب معه إلا بمرؤ؛ فإنني رأيته يأكل وحده فعلمت أن لؤمهم في الماء. قال: ورأيت بمرؤ طفلاً صغيراً ويديه بيضة

(١) سورة محمد الآية: ٣٨.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ١٩.

(٣) سورة التغابن الآية: ١٦.

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٤/٢٤١).

فقال: أعطني هذه البيضة. فقال: ليس تسع يدك. فعلمت أن اللؤم والمنع فيهم طبع مركب.

قال: واشتكى رجل مروزي صدره من سعال فدلوه على سويق اللوز، فاستثقل النفقة، فرأى الصبر على الوجع/ أخف عليه، فبينما هو يماطل الأيام إذ أتبح له بعض الموفقين فدلّه [١٠٥] على ماء النخالة فقال: إنه يجلو الصدر.

فأمر بالنخالة فطبخت له، فشرب من مائها فجلى صدره، فوجده يعصم، فلما حضر غداء أمر به فرفع إلى العشاء. فقال لأم عياله: أطبخي لأهل بيتنا النخالة، فإني وجدت ماءها يعصم ويجلو الصدر. فقالت: قد جمع الله لك بهذه النخالة دواء، وغذاء فالحمد لله على هذه النعمة.

وقال رجل مروزي دخلت على رجل من أهل خراسان بليل، فإذا هو بمسرجة فيها فتيل في غاية الرقة، وقد ألقى في دهن المسرجة شيء من ملح وقد علق عليها عود بخيط معقود إلى المسرجة فإذا عشى المصباح أشخص رأس الفتيلة بالعود. فقلت له: ما بال هذا العود مربوطاً.

قال: قد شرب الدهن، فإذا لم نحفظه وضاع احتجنا إلى غيره فلم نجده إلا عطشاناً، فإذا كان هذا دائماً ضاع من دهنتنا في الشهر بقدر ضياء ليلة. قال: فبينما أنا أتعجب وأسأل الله العافية إذ دخل عليه شيخ من أهل مرو فنظر إلى العود فقال: أيا فلان فررت من شيء فوقعت فيما هو شر منه، أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء؟ أوليس بهذا العود البارحة عند انطفاء السراج إرواء؟ وهو عند إسراجك الليلة أعطش؟ قال: قد كنت جاهلاً مثلك حتى وفقنا الله لما هو أرشد، اربط عافاك الله مكان العود إبرة كبيرة أو مسلة صغيرة؛ فإن الحديد أبقى ومع ذلك غير نشاف، والعود والقصبه ربما تتعلق به الشعرة من قطن الفتيلة فتنقص منها، وربما كان ذلك سبباً لانطفائها. فقال الخراساني: ألا وإنك لا تعلم أنك من المسرفين حتى تسمع بأعمال الصالحين. قال: وكان ثمامة بن أشرس يقول: /إياكم وأعداء الخبز إن تأدموا بها، واعلموا أن أعدى عدو له المملوك، فلولا أن الله أعان عليه بالماء لأهلك الحرث والنسل. وكان يقول: كلوا الباقلاء بقشره؛ فإن الباقلاء يقول: من أكلني بقشري فقد أكلني، ومن أكلني بغير قشري فأنا أكلته. قال: ومن البخلاء هشام بن عبد الملك، قال خالد بن صفوان: دخلت في هشام فحدثه وأطرفته فقال: سل حاجتك. فقلت: تزيد في عطائي عشرة دنائير. فاطرق ملياً ثم قال: لِمَ؟ وِمَ؟ وِمَ؟ العبادة أحدثتها أم لبلاء حسن ابتليته

أمير المؤمنين؟ ألا يا ابن صفوان ولو كان أكره السؤال لم يحتمله بيت المال. فقلت: وفقك الله يا أمير المؤمنين وسددك وأنت كما قال الأول:

إِذَا الْمَالُ لَمْ يُوجِبْ عَلَيْكَ عَطَاؤَهُ صَنِيعَةً قُرْبَى أَوْ صَدِيقَ تُوَامِقَهُ
مَنْعَتْ وَيَبْغِضُ الْمُنْعَ حَزْمٌ وَقُوَّةٌ وَلَمْ يَسْتَلْبِكِ الْمَالَ إِلَّا حَقَائِقَهُ

فقبل لخالد: ما حملك على تزيين البخل؟ فقال: أحببت أن يمنع غيري فيكثر من يلومه. قال: وخرج هشام بن عبد الملك متنزهاً ومعه الأبرش الكلبي، فمرّ براهب في دير فعدل إليه فأدخله الراهب بستاناً له ففعل يجتني له أطيّب الفاكهة. فقال له هشام: يا راهب بعني بستانك هذا فسكت عنه ثم أعاد عليه الكلام فسكت فقال: ما لك لا تجيبني؟ فقال الراهب: وددت أن الناس ماتوا كلهم غيرك. قال: لماذا ويحك؟ قال: لعلك تشبع. فالتفت هشام إلى الأبرش الكلبي فقال: أسمعت ما يقول هذا؟ فقال: والله ما إن لفيك حُرٌّ مثله. قال: وحضر أعرابي صفره هشام بن عبد الملك، فبينما هو يأكل معه إذ تعلقت شعرة في لقمة [١٠٧] الأعرابي فقال له هشام: عندك شعرة في لقمته يا أعرابي. قال: وإنك تلاحظني / ملاحظة من يرى الشعرة في لقمته، والله لا أكلت عندك أبداً فخرج وهو يقول:

وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ يُلَاحِظُ أَطْرَافَ الْأَكِيلِ عَلَى عَمْدٍ
وقال آخر:

وَلَوْ عَلَيكَ انْكَالِي فِي الْغَدَاءِ إِذَا لَكُنْتُ أَوَّلَ مَدْفُونٍ مِنَ الْجُوعِ
يَسْأَلُ عِنْدَ دَعَاءِ الضَّيْفِ مُبْتَدِئاً صَوْتٌ دَلِيلٌ وَدَاعٍ غَيْرِ مَسْمُوعِ

ومن كتاب الغزالي^(١) قال: وكان بالبصرة رجل موسر بخيل فدعاه بعض جيرانه فقرب إليه طياهجة بيض، فأكل منه وأكثر وجعل يشرب الماء، وانتفخ بطنه فنزل به الكرب والموت، وجعل يتلوى فلما أجهده الأمر وصف حاله لطيب فقال: فقال: لا بأس عليك تقياً ما أكلت. فقال: هاه أنتقياً طياهجة بيض، أموت ولا أنتقياً طياهجة بيض.

وقيل: أقبل أعرابي يطلب رجلاً وبين يديه تين فغطى بكسائه التين. فجلس الأعرابي فقال له الرجل: هل تحسن شيئاً من القرآن. قال: نعم وقرأ: ﴿وَالرَّيْثُونَ﴾^(٢) وَطَوْرٍ

(١) راجع إحياء علوم الدين (٣/٣٥٠).

(٢) جاء قبلها: (والتين). فحذفتها اعتماداً على السياق بعدما ثم أنه موافق لما في إحياء علوم الدين للغزالي (٣/٢٥١).

سَيِّئِينَ ﴿١﴾. فقال: وأين التين؟ قال: تحت كسائك. قال: ويحكى أن محمد بن يحيى بن خالد بن برمك كان بخيلاً قبيح البخل فسئل نسيب له كان يألفه عنه وقال له قائل: صف لي مائدته فقال: هي فتر في فتر، وصحافة منقورة من حب الخشخاش. قال: فمن يحضرها؟ قال: الكرام الكاتبون. قال: أفما يأكل معه أحد؟ قال: بلى الذباب. وقال: سوائك بدت وأنت^(٢) خاصص به وثوبك مخرق فقال: أي والله ما أقدر على إبرة أخيط بها، ولو ملك محمد بيتاً^(٣) من بغداد إلى الكوفة مملوءاً إبراً، ثم جاء جبريل وميكائيل ومعهما يعقوب النبي عليه السلام يضمنون منه^(٤) إبرة وسألوه: أعرناها لنخيط^(٥) بها قميص يوسف ابنه الذي قُدَّ / من دبر [١٠٨] ما فعل.

وفي كتاب العقد قال: أخذ المعنى، محمد بن مسلمة يهجو به ابن الأغلب فقال:

لَوْ أَنَّ قَضْرَكَ يَا ابْنَ أَغْلَبٍ مُّمْتَلٍ إِسْرَأَ عَلَيَّ سَعَةَ الْقَصَا وَالْمُنْزِلِ
وَأَتَاكَ يُوسُفُ يَسْتَعِيرُكَ إِبْرَةَ مِنْهَا لَقَدْ قَمِيصِهِ لَمْ تَفْعَلِ

وقال آخر:

لِسَانَكَ أَحْلَى مِنْ جَنَّا عَسَلٍ وَعَدَا وَكَفُّكَ بِالْمَعْرُوفِ أَضْيَقُ مِنْ قُفْلِ
تَمَعْنَى الَّذِي يَأْتِيكَ حَتَّى إِذَا انْتَهَى إِلَى أَمْدٍ نَاوَلْتُهُ طَرْفَ الْحَبْلِ

ومن كتاب العقد قال بعضهم: دخلت على يحيى بن خالد بن عبد الله بن أمية وقوم يأكلون معه، فمدَّ يده إلى رغيف من الخوان، فرفعه وجعل يرطله بيده، ويقول: يزعمون أن خبزي صغير فمن هذا الزاني ابن الزانية الذي يأكل من هذا نصف رغيف. قال: ودخلت عليه مرة أخرى والمائدة موضوعة والناس قد أكلوا، فمددت يدي لأكل. فقال: اجهز على الجرحى ولا تتعرض للأصحاء. يقول: عَرَّضَ لِلدَّجَاجَةِ الَّتِي نِيلَ مِنْهَا، وَالْفَرَّخَ الْمَنْزُوعَ الْفَخْذَ وَأَمَا الصَّحِيحَ فَلَا تَعْرُضُ لَهُ. قال: وشوي لأبي جعفر الهاشمي دجاج، ففقد فخذاً من دجاجة، فأمر فنودي في عقر داره: من هذا الذي فعقر، والله لا يخبز في هذا التنور شهراً أو يرد. فقال ابنه الأكبر: لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا. قال دعبل: كنا يوماً عند سهل بن هارون فأطلنا

(١) أول سورة التين.

(٢) في الأصل: «سوءه له أنت». والتصويب من إحياء علوم الدين (٣/٢٥١).

(٣) في الأصل: «بيقا». والتصويب من المصدر السابق.

(٤) في الأصل: «عنه». والتصويب من المصدر السابق.

(٥) في الإحياء الموضع السابق: إعارتهم إياها ليخيط.

الحديث حتى صرّبه الجوع، فأثي بغدائه، فإذا بصحفة قديمة فيها مرق ديك قد هرم لا يجز فيه سكنين ولا يؤثر فيه ضرر، فأخذ قطعة خبز فقلّب بها ما في الصحفة ففقد الرأس. فبقي مطرقاً ساعة ثم رفع رأسه إلى الغلام فقال: أين الرأس؟ قال: رميت به. قال: ولم؟ قال: ظننت أنك [١٠٩] لا تأكله. قال: / ولأبي شيء ظننت ذلك، والله إنّي لأمقت من يرمي برجله فضلاً عن رأسه، والرأس زين وفيه الحواس ومنه يصيح الديك ودماغه عجب، وفيه عينه التي يضرب بها المثل فيقال: شراب مثل عين الديك، ودماغه ينفع لوجع الكلية، ولم ير عظم قط أشس من عظم رأسه، فإن كان بلغ من جهلك ألا تأكله فإن عندنا من يأكله انظر أين هو؟ قال: والله لا أدري أين رميت به. قال: والله أدري رميت به في بطنك.

وفي كتاب الغزالي قال: ويقال كان مروان ابن أبي حفصة لا يأكل اللحم بخلاً حتى يقرم فيرسل غلامه، فيشتري له رأساً فيأكله. فقيل له: نراك لا تأكل إلا الرأس في الصيف والشتاء؟ قال: نعم الرأس أعرف بسعره فأمن من خيانة الغلام، ولا يستطيع أن يغشني فيه، وليس بلحم يطبخه الغلام فيقدر أن يأكل منه، وأما الرأس إن مس أذنأ أو عيناً أو خدأ وقتت على ذلك، وآكل منه ألواناً أكل عينه لوناً وأذنه لوناً وغلصمته لوناً ودماغه لوناً، وأكفى مؤنة طبخه فقد اجتمعت لي فيه موافق. قال: وخرج يوماً يريد المهدي الخليفة فقالت له امرأة من أهله: مالي عليك إن رجعت بالجائزة قال: إن أعطيت مائة ألف أعطيتك درهماً، فأعطى ستين ألفاً فأعطاها أربعة دوايق. قال: واشترى لحمأ بدرهم فدعاه صديق له فردّ اللحم إلى القصاب بتقصان دانق. وقال: أكره الإسراف. وفي كتاب العقد قال: وقد وقع درهم بيد سليمان بن مزاحم فجعل يقلبه ويقول في شق: لا إله إلا الله وفي شق آخر: قل هو الله أحد، ما ينبغي لهذا أن يكون إلا أن يكون إلا تعويداً أو رقية ورمى به في الصندوق.

[١١٠] ومن البخلاء: / أبو الأسود الدؤلي قال: ودخل أعرابي وهو في فسطاط له وبين يديه طبق رطب فقال: السلام عليكم. فقال أبو الأسود: كلمة مقولة. قال الأعرابي: أدخل. قال: وراءك أوسع لك. قال: إن الرمضاء أحرقت قدمي. قال: بلّ عليهما تبردان. قال: أتأذن لي فأكل معك. قال: سيأتيك ما قدر لك. قال: بالله ما رأيت رجلاً أأم منك. قال: قد رأيت إلا أنك نسيت. ثم أقبل أبو الأسود يأكل حتى لم يبق في الطبق إلا تمريرات نبذها إلى الأعرابي فجعل يمسحها بكسائه. فقال له أبو الأسود: يا هذا إن الذي تمسحها به أقدر من الذي تمسحها منه. قال: أكره أن أدعها للشيطان. قال: والله ولا لجبريل وميكائيل ما كنت لتدعها. الهيثم بن عدي قال: نزل على أبي حفصة والد مروان بن أبي حفصة الشاعر رجل باليمامة فأخلى له

المزول ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه تلك الليلة، فخرج الضيف فاشترى ما يحتاج إليه ثم رجع وكتب إليه:

يَا أَيُّهَا الْخَارِجُ مِنْ بَيْتِهِ وَهَارِباً مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ
ضَيْفُكَ قَدْ جَاءَ بِزَادٍ لَهُ فَأَرْجِعْ تَكُنْ ضَيْفًا عَلَى الضَّيْفِ

قال آخر في هذا المعنى:

تَرَاهُمْ خَشِيَةَ الْأَضْيَافِ خُزْساً يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ بِإِلَّا أَذَانِ

وقال آخر هذا المعنى:

قَوْمٌ إِذَا أَكَلُوا أَخَفُوا كَلَامَهُمْ وَأَسْتَوْتُمْوَا مِنْ رَتَاجِ الثَّابِ وَالِدَارِ
قَوْمٌ إِذَا نَبَحَ الْأَضْيَافَ كَلَبَهُمْ قَالُوا لَأُنْهَمُ بُؤْلِي عَلَى النَّارِ

وأشدد لبعض الأعراب:

إِنَّ هَذَا الْفَتَى يَصُونُ رَغِيْفًا مَا إِلَيْهِ لِنَاطِرٍ مِنْ سَيْبِلِ
هُوَ فِي صُفْرَتَيْنِ مِنْ أَدَمِ الطَّا نِفِ فِي سُلْتَيْنِ فِي مَنْدِيلِ
/ فِي جِرَابٍ فِي جَوْفٍ تَابُوتِ مُوسَى وَالْمَقَاتِيحُ عِنْدَ مَيْكَائِيلِ

[١١١]

وأخبار البخلاء والأشعار المقولة فيهم كثيرة تركتها مخافة التطويل بلا فائدة التحصيل.

احتجاج البخلاء في بخلهم: ومن كتاب العقد الأصمعي، قال أبو الأسود الدؤلي: لو أطعنا المساكين في أموالنا لكانا أسوأ حالاً منهم. وقال لبيد: لا تطيعوا المساكين في أموالكم؛ فإنهم لا يقنعون منكم حتى يروكم في مثل حالهم. وقال: لا تحادوا الله عز وجل ولو شاء أن يغني الناس كلهم لفعل، ولكنه علم أن قوماً لا يصلح لهم إلا الفقر، وقوم لا يصلح لهم إلا الغنى.

وقال رجل من تغلب: أتيت رجلاً من كندة أسأله. فقال: يا أخا بني تغلب إني لم أسألك حتى أحرم من أقرب منك إليّ، إني والله لو مكنت الناس من داري لنقضوها طوبة طوبة، والله يا أخا بني تغلب ما بقي من يدي من مالي وأهلي وعرضي إلا ما منعت من الناس، وهذا نظير معنى قول الآخر: من أعطى في الفضول قصر في الحقوق.

وقال لقمان لابنه: يا بني أوصيك باثنين لن تزال بخير ما تمسكت بهما: درهمك

لمعاشك ودينك لمعادي^(١). وقال أبو الأسود الدؤلي إمساكك ما في يدك خير من طلبك ما في يد غيرك وأنشد في هذا المعنى:

يَلُومُونَنِي فِي الْبُخْلِ جَهْلًا وَضِلَّةً وَلِلْبُخْلِ خَيْرٌ مِنْ سُؤَالِ بَخِيلٍ
ونظيره قول الملتمس:

وَجَفِظُ الْمَالِ أَيَسَّرُ مِنْ لَقَاهِ وَصَرَبْتُ فِي الْبِلَادِ بِغَيْرِ زَادٍ
وَإِضْلَاحُ الْقَلِيلِ يَزِيدُ فِيهِ وَلَا يَيْقَسِي الْكَثِيرُ مَعَ الْفَسَادِ

وقيل لخالد بن صفوان: مالك لا تنفق فإن مالك عريض؟ فقال: الدرهر أعرض منه. [١١٢] قيل: كأنك تأمل أن تعيش الدرهر كله. قال: لا / ولكني أخاف أن لا أموت في أوله. وقال الجاحظ: قلت للحيراني: أترضى أن يقال لك بخيل؟ قال: لا أعدمني الله هذا الاسم؛ لأنه لا يقال لي بخيل إلا وأنا ذو مال، فسلم لي المال وسمّي بأي اسم شئت.

قلت: ولا يقال لك سخي إلا وأنت ذو مال، فقد جمع الله لهذا الاسم المال والحمد، وجمع لذلك الاسم المال والدم. قال: بينهما فرق عجيب إن في قولهم بخيل سبباً لمكث المال في ملكي وفي قولهم سخي سبب لخروجه من ملكي، واسم البخيل فيه حزم واسم السخاء فيه تضييع والمال نافع ومكرم لأهله، والحمد ربح سخريه لأهله، وما أقل غني الحمد عنه إذا جاع بطنه وعرى جسده وجاع عياله وشمته عدوه.

وقال محمد بن الجهم: من شأن من استغنى عنك ألا يقيم معك، ومن احتاج إليك أن لا يزول ومن حبك لصديقك وظنك بمودته ألا تبدل له ما يغنيه عنك، وأن تتلطف له فيما يحوجه إليك.

وقد قيل في مثل هذا: اجع كلبك يتبعك، وسمنه يأكلك. فمن أغنى صديقه فقد أعانته على الغدر، وقطع أسبابه من الشكر، والمعين على الغدر شريك الغادر، كما أن مزين الفجور شريك الفاجر.

(١) أرى أن هذا القول وإن كان ظاهر مقبول إلا أنه يجب أن لا يوضع في موضع البخل والشح هذا إن لم يكن غير صحيح وأريد به الطعن من طرف خفي في لقمان عليه السلام فإن لقمان وصفه الله تعالى بالحكمة فلو صح هذا القول إليه وليس مقصوده ما ذهب إليه من وضعه في هذا الباب بل هو التوسط في الاتفاق بين الإسراف والتقتير وليست الصدقة من الإسراف بل هي مما ينمي المال ومن أعلم الناس بذلك من أتاه الله الحكمة وأظن أن المؤلف رحمه الله تعالى لم يتبته إلى ذلك وكان عليه أن يذكره في باب الاقتصاد مثلاً، هذا والله أعلم.

وقال يزيد بن عمرو الأسدي لبنيه: يا بَنِيّ تعلموا الرَّد فإنه أشد من العطاء، فلان تعلم بنو تميم أن عند أحدكم مائة ألف أعظم في أعينهم ممن لو قسمها عليهم، ولأن يقال لأحدكم بخيل وهو غني خير من أن يقال له سخيّ وهو فقير. وقال رجل لثمامة بن أشرس: إن لي إليك حاجة قال: وأنا لي إليك حاجة.

قال: وما حاجتك إليّ؟ قال: لا أذكرها حتى تضمن قضاءها. قال: قد فعلت. قال: حاجتي إليك أن لا تسألني حاجة. قال: فانصرف الرجل. وقال حصين / بن المنذر: وددت [١١٣] لو أن لي مثل أحد ذهباً لا أنتفع منه بشيء. قيل: فما كنت تصنع به؟

قال: لكثرة من يخدمني عليه؛ لأن المال مخدوم. وقال بعض الحكماء: عليك بطلب الغنى فلو لم يكن فيه إلا أنه عز في قلبك وذل في قلب عدوك لكان الحظ فيه جسيماً والنفع فيه عظيماً. ومن الأشعار التي يتمثل بها البخلاء:

وَرَهْدَنِي فِي كُلِّ خَيْرٍ صَنَعَتْهُ إِلَى النَّاسِ مَا جَزَيْتَ مِنْ قِلَّةِ الشُّكْرِ
وقال آخر:

اِزْفَعُ قَمِيصَكَ مَا اهْتَدَيْتَ لِجَنِّيهِ فَإِذَا أَضَلَّكَ جِنِّيهِ فَاسْتَبْدِلْ
وقول ابن هرمة:

قَدْ يُدْرِكُ الشَّرْفَ الْفَتَى وَرِدَاءَهُ خَلِقَ وَجَبَّ قَمِيصِهِ مَرْقُوعٌ

وقال سهل بن هارون: لو قسمت بين الناس مائة ألف لكان أكثر للائمي، وقوله قول ابن الجهم: منع الجميع إرضاء الجميع. ولسهل في كتاب العقد رسالة مشهورة يحتج فيها للبخل تركتها مخافة التطويل، والذي يقطع به جميع احتجاج البخلاء هو أن الله أمر بالانفاق ووعده عليه الفضل والخلف والثواب والمغفرة، ونهى عن البخل وذمه، ووعده عليه العقاب وأمر بمجاهدة الهوى في إنفاق المال الذي هو محبوب النفس أعظم المجاهدة لها، ونهى تعالى عن موافقة الهوى، وفي إمساك المال أعظم شهوات النفس.

وأيضاً أن السخيّ محبب إلى القلوب وقد اتفقت الألسن على مدحه، والبخيل مبغض إلى القلوب وقد اتفقت الألسنة على ذمه والله تعالى يوصف بالجنود والكرم ولا يوصف بالشح والبخل، والبخيل يسمى بالله والسخي بخلافه، والله المستعان^(١).

(١) راجع بعض حكايات وأخبار البخلاء في إحياء علوم الدين منها ما هو هنا ومنها ما ليس مذكور في هذا =

فصل

[١١٤] اعلم أن البخل ذريعة إلى كل مذمة وقد يحدث في الإنسان بسببه / أربعة أخلاق وناهيك بها ذمّاً وهي؛ الحرص، والشره، وسوء الظن، ومنع الحقوق.

فأما الحرص: فهو شدة الكدح والإسراف في الطلب.

وأما الشره: فهو استغلال الكفاية والاستكثار لغير حاجة، فهذا فرق بين الحرص والشره من لا يجديه من العيش ما يكفيه لم يجد ما عاش ما يفتنيه. وقال بعض الحكماء: الشره من عزائم اللوم.

وأما سوء الظن: فهو عدم الثقة بمن هو لها أهل، فإن كانت بالخالق كانت شكاً يؤل إلى الضلال، وإن كانت بالمخلوق كانت استخانة يصير بها مختاناً وخواناً، لأن ظن الإنسان بغيره بحسب ما يراه من نفسه، فإن وجد فيها خيراً ظنه بغيره، وإن رأى منها سوءاً اعتقده في الناس.

وقد قيل في المثل: كل إناء يفضح بما فيه. فإن قيل: قد تقدم من قول الحكماء: أن من الحزم سوء الظن. قيل: تأويله قلة الاسترسال إليهم لا اعتقاد السوء فيهم.

وأما منع الحقوق: فإن نفس البخل لا تسمح بفراق محبوبها، فإذا مال البخل إلى هذه الأخلاق المذمومة لم يبق معه خير موجود لإصلاح مأمول، والله أعلم.

فصل: في علاج البخل

اعلم أن البخل سببه حب المال، ولحب المال سببان:

أحدهما: حب الشهوة التي لا وصول إليها إلاً بالمال مع طول الأمل، وإن كان قصير الأمل ولكن له أولاد قاموا في قلبه مقام طول الأمل، وقد جاء في الحديث: «الولد مبخلة مجبنة مجهلة»^(١). فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بضممان الرب تعالى قوي البخل لا محالة.

السبب الثاني: أن يحب عين المال، فمن الناس من معه ما يكفيه طول عمره إذا اقتصر على ما جرت به العادة في النفقة ويفضل ألفاً وهو شحيح، وربما يكون شيخاً كبيراً ولا ولد

= الكتاب (٣/ ٢٥٠ : ٢٥١).

(١) قال العراقي في المعنى (٣/ ٢٥٥): زاد في رواية: «محنة»، رواه ابن ماجة من حديث يعلى بن مرة دون قوله: «محنة»، رواه بهذه الزيادة أبو يعلى والبراز من حديث أبي سعيد، والحاكم من حديث الأسود بن خلف وإسناده صحيح.

له ومعها أموال كثيرة ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة، ولا بمداواة نفسه عند المرض بل صار [١١٥] محباً للدنانير عاشقاً لها يتلذذ بوجودها فيكثرها تحت الأرض، وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه، ومع هذا لا تسمح نفسه أن يأكل أو يتصدق، وهذا مرض في القلب عظيم عسير العلاج ولا سيمًا في كبر النفس فهو مرض مزمن لا يرجى علاجه؛ لأن المقصود بالمال قضاء الحاجة. والفاضل عن قضاء حاجة الإنسان بمثابة الحجر فمحب الدنانير بلا قضاء حاجة كمحب الحجر وذلك غاية الضلال، فهذه أسباب حب المال.

وإنما علاج كل علة بما يضادها، فعلاج حب الشهوة بالقناعة باليسير والصبر، ويعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت، ويموت الأقران، ويعالج إلتفات القلب إلى الولد بأن الذي خلقه تكفل برزقه، وكم من ولد لم يرث من أبيه شيئاً وحاله أحسن ممن ورث، ويأن يعلم أنه يجمع المال لولده ليرثه بخير وينقلب هو إلى شر، فإن كان ولده تقياً صارت له المنفعة، وإن كان فاسقاً استعان بماله على المعصية ويكثر التأمل أيضاً في أحول البخلاء ونفرة الطبع عنهم.

ويعالج أيضاً قلبه بأن يتفكر في مقصود المال، ولماذا خلق من أجله فلا يحفظ منه إلا بقدر حاجته والباقي يدخره لنفسه ثواباً ليوم فقره، ويتفكر في شؤم البخل به وفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ﴾. إلى قوله: ﴿يَتَخَلَّوْا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِقَافًا﴾^(١). الآية. وبلغنا أن هذه الآية نزلت في ثعلبة بن خاطب^(٢).

قصة ثعلبة بن خاطب: وذلك أنه روي عن أبي أمامة الباهلي أن ثعلبة قال: يا رسول الله أَدع الله أن يرزقني / مالا. قال: «يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه». فآلخ عليه [١١٦] مرتين. فقال: «يا ثعلبة، أمالك في أسوة؟ أما ترضى أن تكون مثل نبي الله؟ أما والذي نفسي بيده لو شئت أن تسير معي الجبال ذهباً وفضة لسارت». قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه ولأفعلن ولأفعلن. فقال عليه السلام: «اللهم ارزق ثعلبة مالا». فاتخذ غنماً فتمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتحنى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر مع الجماعة ويدع ما سواهما فتمت وكثرت حتى ترك الصلاة في الجماعة إلا الجمعة، فطفقت تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة، وطفق يلقي الركبان في يوم الجمعة فيسألهم عن الأخبار، فقال ﷺ: «ما فعل ثعلبة بن

(١) سورة التوبة الآيات: ٧٥، ٧٦، ٧٧.

(٢) في الأصل: ثعلبة بن خاطب. وهو تحريف، وهو أنصاري بدري قتل بأحد وما يدور حول قصته هذه محض كذب وافتراء.

حاطب؟» فقيل: يا رسول الله ﷺ اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة، وأخبر بأمره كله. فقال: «يا ويح ثعلبة» ثلاثاً. قال: وأنزل الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾^(١) الآية. فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من جهينة ورجلاً من بني سليم وكتب لهما كتاباً بأخذ الصدقة، وأمرهما أن يخرجوا ويأخذا الصدقة من المسلمين، وقال: «مَرَّا بَثْعَلْبَةَ بِنِ حَاطِبِ بْنِ عَلِيٍّ وَبِغْلَانَ بْنِ بَنِي سَلِيمٍ وَخَذَا صَدَقَتَهُمَا». فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب النبي عليه السلام، فقال: ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى نفرغا ثم تعودان إليّ، فانطلقا نحو السلمي، فسمع بهما فقام إلى خير أسنان إيله فعزلهما للصدقة، ثم استقبلهما بها فلما رأياها قالاً: لا يجب عليك هذا، أو ما نريد نأخذ هذا منك. قال: بل خذاها ونفسي بها طيبة فإنما هيأتها لتأخذها فلما فرغا من صدقاتهما حتى مرّا بثعلبة فسألاه الصدقة. فقال: أروني / كتابكما فنظر فيه فقال: ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى أرى رأيي. فانطلقا حتى لقا النبي ﷺ فلما رأهما قال: «يا ويح ثعلبة». قبل أن يعلمها، ودعا للسلمي فأخبراه بالذي صنع ثعلبة وبالذي صنع السلمي فأنزل الله تعالى في ثعلبة: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوفُنَّ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾^(٢) الآية. وعند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة فسمع ما نزل فيه، فخرج حتى أتى ثعلبة فقال: لا أم لك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك. فخرج حتى أتى النبي عليه السلام فسأله أن يقبل منه صدقته فقال: «إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك» فجعل يحثي التراب على رأسه فقال عليه السلام: «هذا عملك أمرتك فلم تطعني». فلما أرى، أن يقبل منه رجع إلى منزله، فلما قبض رسول الله ﷺ جاء بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فأبى أن يقبلها منه، وجاء بها إلى عمر رضي الله عنه فأبى أن يقبلها منه، فتوفي ثعلبة بعد خلافة عثمان^(٣)، فهذا طغيان المال وشومه.

فصل

وحكي أن ذا القرنين أتى على أمة من الأمم ليس في أيديهم شيء مما ينتفع به من دنياهم، قد احتفروا قبوراً، فإذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور وكسوها وصلوا عندها، ورعوا البقل كما ترعى البهائم، وقد قبض الله لهم في ذلك معاش من نبات الأرض فأرسل ذو القرنين إلى ملكهم فقيل له: أجب الملك ذا القرنين. فقال: ما لي إليه حاجة. فأقبل إليه ذو القرنين،

(١) سورة التوبة الآية: ١٠٣.

(٢) سورة التوبة الآية: ٧٥.

(٣) قال العراقي في المغني (٢/٢٦٦): رواه الطبراني بسند ضعيف.

فقال له: أرسلت إليك لتأتيني فأبيت حتى جئت أنا. فقال: لو كانت [لي] ^(١) إليك حاجة لأتيتك. فقال ذو القرنين: ما لي أراكم على الحال التي لم أر أحداً من الأمم عليها؟ قالوا: وما ذلك؟ قال: ليس لكم دنيا ولا شيء، أفلا اتخذتم من الذهب والفضة / فاستمتعتم بهما؟ [١١٨] قالوا: إنما كرهناها لأن أحداً لم يعط منها شيئاً إلا تأقت نفسه ودعته إلى ما هو أفضل منه. فقال: ما لكم احتفرتهم قبوراً فإذا أصبحتم تعهدتموها وكنستموها وصليتم عندها؟ قالوا: أردنا إذا نظرنا إليها وأملنا منعتنا قبورنا من الأمل. قال: وأراكم لا طعام لكم إلا البقل من الأرض أفلا اتخذتم البهائم من الأنعام، فاحتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها. قالوا: كرهنا أن نجعل بطوننا قبوراً لها، ورأينا في نبات الأرض بلاغاً، وإنما يكفي ابن آدم أدنى العيش من الطعام؛ فإن ما جاوز الحنك لم يجد له طعاماً كائناً ما كان من الطعام، ثم بسط يده ملك تلك الأرض خلف ذي القرنين فتناول جمجمة. فقال: يا ذا القرنين أتدري من هذا؟ قال: لا أدري. قال: هو ملك من ملوك الأرض، أعطاه الله سلطاناً على أهل الأرض، فغشم وظلم، فلما رأى الله ذلك منه حسمه بالموت، فصار كالحجر الملقى، قد أحصى الله عليه عمله حتى يجازيه به في آخرته. ثم تناول جمجمة ثانية وقال: يا ذا القرنين أتدري من هذا؟ قال: لا، ومن هو؟ قال: هذا ملك ملكه الله بعده، قد كان يرى ما يصنع الذي قبله بالناس من الظلم، والغشم فتواضع، وخشع لله، وأمر بالعدل في أهل مملكته فصار كما ترى قد أحصى الله عليه عمله حتى يجازيه في آخرته. ثم أهوى إلى جمجمة ذي القرنين، فقال: وهذه الجمجمة كأن قد كانت كهذه فانظر يا ذا القرنين هلاً كنت في صحبتي فأخذك أخواً ووزيراً شريكاً فيما أتاني الله من هذا المال. قال: ما أصلح أنا وأنت في مكان ولا أن نكون جميعاً. قال: ذو القرنين: ولم؟ قال: من أجل أن الناس كلهم لك عدو ولي صديق. / قال: ولم؟ قال: يعادونك لما في يدك من الملك والمال والدنيا، ولا أجد أحداً يعاديني [١١٩] لرفضي لذلك ولما عندي من الحاجة وقلة الشيء. قال: فانصرف عنه ذو القرنين متعجباً منه ومتعظاً به والله أعلم ^(٢).

فهذه المعاني والحكايات أدوية لعلاج البخل من جهة العلم والمعرفة مع ما سنورده إن شاء الله من الأخبار والحكايات في مدح السخاء وفضله، فإذا تأمل الإنسان ذلك بنور البصيرة عرف أن إعطاء المال خير له من إمساكه في الدنيا والآخرة، فإذا تحقق ما ذكرنا هاجت رغبته

(١) ما بين المعقوفين من إحياء علوم الدين (٣/٢٦٧).

(٢) راجع قصة ذي القرنين مع الملك في الإحياء وكثير مما في الباب (٣/٢٦٧: ٢٦٨).

في البذل إن كان عاقلاً فإذا تحركت الداعية فينبغي أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف لأن الشيطان يعده الفقر ويخوفه ليصده عن الصدقة.

ويقال: كان بعض مشايخ السلف في موضع الخلاء، فدعا تلميذاً له فقال: انزع القميص عني وادفعه إلى فلان. فقال: هلاً صبرت حتى تخرج. قال: لم آمن على نفسي أن تتغير وكان قد خطر لي بذله. ولا تزول صفة البخل إلا بالبذل تكلفاً كما لا يزول العشق إلا بالسفر عن مستقر المعشوق ثم يتكلف أمر الصبر فيسلو عنه قلبه.

فكذلك الذي يريد أن يعالج البخل ينبغي أن يفارق المال تكلفاً مع الجهد مرة بعد أخرى حتى يبيت من نفسه صفة البخل فيصير السخاء له طبعاً ويسقط عنه التعب فيه.

وعن وهب قال: ما تخلق عبد بخلق أربعين صباحاً إلا جعل الله ذلك طبيعة فيه، ومن عرف آفة المال لم يأخذ منه إلا قدر الحاجة، ومن قنع بقدر الحاجة فلا يبخل؛ لأن ما أمسكه لحاجته فليس إمساكه ذلك بخلًا منه، وما لا يحتاج إليه فلا يتعب نفسه بحفظه بل يبذله وإنما [١٢٠] هو الكالماء على شاطئ النهر لا يبخل به أحد لقناعة / الناس منه بقدر الحاجة.

فهذه أدوية من جهة العمل في علاج البخل أيضاً؛ لأن من لم يسلك هذا السبيل حتى يتجافى قلبه عن متاع الدنيا أنس بها وأحبها، فإن كان له مثلاً ألف متاع كان له ألف محبوب، ولذلك إذا سرق له واحد منها أمت به مصيبته بقدر حبه له، فإذا مات نزلت به ألف مصيبة دفعة واحدة؛ لأنه كان يحب الكل وقد سلب عنه، بل هو في حياته على خطر المصيبة بالفقد والهلاك.

وقد روي أنه حمل إلى بعض الملوك قرح من فيروزج مرصع بالجواهر لم ير له نظير ففرح الملك به فرحاً شديداً. فقال لبعض الحكماء عنده: كيف ترى هذا؟ قال: أراه فقراً أو مصيبة. قال: وكيف؟ قال: إن انكسر كان مصيبة لا جبر لها وإن سرق صرت فقيراً إليه ولم تجد مثله، وقد كنت قبل أن يحمل إليك في أمن من المصيبة والفقر.

ثم اتفق أن كسر يوماً فعمظمت مصيبة الملك فيه فقال: صدق الحكيم ليته لم يحمل إلينا. وهكذا شأن جميع أسباب الدنيا، فإن الدنيا عدوة لأعداء الله إذ تسوقهم إلى النار، وعدوة لأولياء الله إذ تغمهم بالصبر عنها، وعدوة لله؛ إذ تقطع طريقه على عباده، وعدوة نفسها؛ فإنها تأكل نفسها، فإن المال لا يحفظ إلا بالخزائن والحراس ولا يمكن تحصيلهما إلاً بالمال وهو بذل الدنانير والدرهم، فالمال يأكل غيره ثم نفسه حتى يفنى كالنار تأكل غيرها فإذا أعدمته أكلت نفسها فماتت وما نحن نذكر بفضل السخاء.

فصل: في فضل السخاء

اعلم أن المال إن كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال: العبد القناعة وقلة الحرص، وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء / وإصطناع المعروف والتباعد من الشح [١٢١] والبخل فإن السخاء من أخلاق الأنبياء، وهو أصل من أصول النجاة، وعنه عبّر عليه السلام حيث قال: «السخاء شجرة في الجنة أغصانها متدلّية إلى الأرض فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلى الجنة»^(١).

وعن جابر عنه أنه قال عن جبريل عن ربه عز وجل: «إن هذا دين ارتضيته لنفسي، ولن يصلحه إلاّ السخاء، وحسن الخلق، فأكرموه بهما ما استطعتم». وفي رواية: «ما صحبتموه»^(٢) وعن عائشة عنه عليه السلام أنه قال: «ما جَبَلَّ الله ولياً له إلاّ على السخاء وحسن الخلق»^(٣).

وعنه أيضاً أنه قال: «خلقان يحبهما الله، وخلقان يبغضهما الله فأما اللذان يحبهما الله: فالسخاء، وحسن الخلق، وأما اللذان يبغضهما: فالبخل، وسوء الخلق، فإذا أراد الله بعبده خيراً استعمله على حوائج الناس»^(٤). وعنه عليه السلام أنه قال: «تجافوا عن ذنب السخي فإن الله أخذ بيده كلما عثر»^(٥).

وعن ابن مسعود رحمه الله عنه ﷺ أنه قال: «الرزق إلى مطعم الطعام أسرع من السكين

(١) رواه ابن حبان في الضعفاء من حديث عائشة، وابن عدي، والدارقطني في المستجاد من حديث أبي هريرة، وأبو نعيم من حديث جابر وكلاهما ضعيف، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من حديثهم، ومن حديث الحسين، وأبي سعيد، قاله العراقي في المغني (٢٣٨/٣).

(٢) رواه الدارقطني في المستجاد. قاله العراقي في المصدر السابق.

(٣) رواه الدارقطني في المستجاد دون قوله وحسن الخلق بسند ضعيف، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات، وذكره بهذه الزيادة ابن عدي من رواية بقية عن يوسف بن أبي السفر عن الأوزاعي عن الزهري عن عروة عن عائشة ويوسف ضعيف جداً. المصدر السابق.

(٤) رواه أبو منصور الديلمي دون قوله في آخره: وإذا أراد الله بعبده خيراً، وقال فيه: الشجاعة بدل حسن الخلق، وفيه: محمد بن يونس الكندي كنبه أبو داود، وموسى بن هارون وغيرهما وثقته الخطيب، وروى الأصفهاني جميع الحديث موقوفاً على عبد الله بن عمرو، وروى الديلمي أيضاً من حديث أنس: إذا أراد الله بعبده خيراً صير حوائج الناس إليه، وفيه يحيى بن شبيب ضعيف ابن حبان. قاله العراقي في المغني (٢٣٨/٣).

(٥) رواه الطبراني في الأوسط، والخراطي في مكارم الأخلاق، وقال الخراطي أقبلوا السخي زلتة، وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه، ورواه الطبراني فيه، وأبو نعيم من حديث ابن مسعود نحوه بإسناد ضعيف، ورواه ابن الجوزي في الموضوعات من طريق الدارقطني. قاله العراقي في المغني (٢٣٩/٣).

إلى ذروة البعير، وإن الله لياهي بمطعم الطعام الملائكة^(١) وعن أنس أن رسول الله ﷺ لم يسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه فاتاه رجل فسأله، فأمر له بشاء كثيرة من شاء الصدقة فرجع إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا؛ فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة^(٢). وعن ابن عمر عنه أيضاً قال: «إن لله عبداً يخصهم بالنعم لمنافع العباد فمن بخل وأمسك عن العباد نقلها الله إلى غيره»^(٣).

وعن الهالبي أنه قال: أوتي رسول الله ﷺ بأسارى من بني العنيس^(٤) فأمر يقتلهم وأفرد منهم رجلاً. فقال عليّ: يا رسول الله الرب واحد والدين واحد والذنب واحد فما بال هذا من بينهم. فقال عليه السلام: «نزل جبريل عليه السلام فقال: اقتل هؤلاء وارك هذا فإن الله شكر [١٢٢] له / سخاءً فيه»^(٥).

وعن أبي سعيد الخدري عنه عليه السلام أنه قال: «يقول الله عز وجل اطلبوا الفضل من الرحماء من عبادي تعيشوا في أكتافهم فإني جعلت فيهم رحمتي، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم فإني جعلت فيهم سخطي»^(٦). وعنه أيضاً أنه قال: «من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤنة الناس عليه، فمن لم يحتمل تلك المؤنة عرض تلك النعمة للزوال»^(٧).

(١) لم أجده من حديث ابن مسعود، ورواه ابن ماجة من حديث أنس، ومن حديث ابن عباس بلفظ: الخير أسرع إلى البيت الذي يفتى، وفي حديث ابن عباس الذي يؤكل فيه من الشفرة إلى سنام البعير، ولأبي الشيخ في كتاب الثواب من حديث جابر: الرزق إلى أهل البيت الذي فيه السخاء.. الحديث، وكلها ضعيفة - المصدر السابق.

(٢) رواه مسلم، قاله العراقي في المصدر السابق.

(٣) رواه الطبراني في الكبير، والأوسط، وأبو نعيم وفيه محمد بن حسان السمتي وفيه لين ووثقه ابن معين، يرويه عن أبي عثمان عبد الله بن زيد الحمصي ضعفه الأزدي - المصدر السابق.

(٤) في الإحياء: «من بني العنبر».

(٥) لم أجده له أصلاً. العراقي في المغني (٢٣٩/٣).

(٦) رواه ابن حبان في الضعفاء والمتروكين والخرائطي في مكارم الأخلاق، والطبراني في الأوسط وفيه محمد بن مروان السدي الصغير ضعيف ورواه العقيلي في الضعفاء فجعله عبد الرحمن السدي، وقال إنه مجهول، وتابع محمد بن مروان السدي عليه عبد الملك بن الخطاب وقد غمزه ابن القطان وتابعه عليه عبد الغفار بن الحسن بن دينار قال فيه أبو حاتم لا بأس بحديثه وتكلم فيه الجوزجاني، والأزدي، ورواه الحاكم من حديث علي وقال: إنه صحيح الإسناد، وليس كما قال: قاله العراقي في المغني (٢٣٨/٣: ٢٣٩).

(٧) رواه ابن عدي، وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بلفظ: ما عظمت نعمة الله على عبد إلا ذكره، وفيه: أحمد بن مهران، قال أبو حاتم مجهول والحديث باطل، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من =

ويروى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام لا تقتل السامري فإنه سخي. وعن جابر قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً وجعل عليهم قيس بن سعد ابن عباد، فجهد وأفخر لهم قيس تسع ركائب فحدثوا رسول الله ﷺ بذلك فقال: «إن الجود من شيم أهل هذا البيت»^(١) الآثار: وعن علي بن أبي طالب قال: إذا أقبلت الدنيا فأنفق منها فإنها لا تبقى، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لا تبقى وأنشد:

لَا تَبْخَلَنَّ بِدُنْيَا وَهِيَ مُقْبِلَةٌ فَلَيْسَ يُنْقِضُهَا التَّبْذِيرُ وَالسَّرْفُ
فَإِنْ تَوَلَّيْتُ فَأَخْرَيْتُ أَنْ تَجُودَ بِهَا فَالْحَمْدُ مِنْهَا إِذَا مَا أَدْبَرَتْ خَلْفُ

وقال بعض البلغاء جود الرجل يبيحه إلى أضداده ويخله ييغضه إلى أولاده. وقال بعض الفصحاء: خير المال ما استرق حراً، وخير الأعمال ما استحق شكراً. وقيل في مثور الحكم: الجود أعز موجود. ويروى أن معاوية سأل الحسن بن علي عن المروءة، والنجدة، والكرم. فقال: أما المروءة: فحفظ الرجل دينه وحرزه نفسه، وحسن قيامه بضيعته، وحسن المنازعة، والإقدام في الكراهة.

وأما النجدة: فالذَّبُّ عن الجار والصبر في المواطن.

وأما الكرم: فالتبرع بالمعروف قبل السؤال والإطعام في المحل والرفقة بالسائل مع بذل النائل. وأنشد صالح بن عبدوس:

[١٢٣٦] / وَيُظْهِرُ عَيْبَ الْمَرْءِ فِي النَّاسِ بُوْخْلُهُ وَيَسْتُرُهُ عَنْهُمْ جَمِيعاً سَخَاؤُهُ
تَقَطُّ بِأَثْوَابِ السَّخَاءِ فَإِنِّي أَرَى كُلَّ عَيْبٍ فَالسَّخَاءُ غَطَاؤُهُ

قال: ورفع رجل إلى الحسن بن علي رقعة فقال: حاجتك مقضية فقيل له: يا ابن رسول الله لو نظرت في رقعته ثم رددت الجواب على قدر ذلك. فقال: يسألني الله عن ذل مقامه بين يدي حتى أقرأ رقعته. وعن ابن السماك قال: عجباً لمن يشتري الممالك بماله ولا يشتري الأحرار بفعاله. ويروى أن النعمان بن المنذر قال لجلسائه: من أفضل الناس عيشاً وأنعمهم بالأوأكرهم طبعاً وأجلهم في النفوس قدراً؟

= حديث عمر بإسناد متقطع وفيه حليس ابن محمد أحد المتروكين، ورواه العقبلي من حديث ابن عباس، قال ابن عبيد يروى من وجوه كلها غير محفوظ. قاله العراقي في المعنى (٢٤٠/٣).
(١) رواه الدارقطني فيه من رواية أبي حمزة الحميري عن جابر ولا يعرف اسمه ولا حاله. قاله العراقي في المعنى (٢٤١/١٣).

فسكت القوم فقام فتى فقال: آبيت اللعن أفضل الناس عيشاً من عاش الناس في فضله. قال: صدقت. وقيل لبعض الأعراب: من سيدكم؟ قال: من احتمل شتمنا، وأعطى سائلنا، وأغضى عن جاهلنا. وعن عليّ بن الحسين قال: ليس السخي من وصف يبذل ماله لطلابيه، وإنما السخي من يتدى بحقوق الله في أهل طاعته ولا تنازعه نفسه إلى حب الشكر له إذا كان يغنيه بثواب الله تاماً.

وعن جعفر الصادق أنه قال: لا مال أعود - أي أنفع - من العقل^(١)، ولا مصيبة أهم من الجهل، ولا مظاهرة كالمشورة، ألا وإن الله يقول: إني جواد كريم لا يجاورني لثيم، واللؤم من الكفر وأهل الكفر في النار، والجود والكرم من الإيمان وأهل الإيمان في الجنة.

قال: ورأى الأحنف رجلاً وفي يده درهم، وقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال لي. فقال: أما إنه ليس لك حتى يخرج من يدك. وفي معناه قول العرب: مالك إن أنفقته كان لك وإن أمسكته كان عليك. قال قائلهم:

فزيني أكن للما رباً ولا يكن لي المال ربا تحمدي عقبه غدا
أرني كريماً مات هزلاً لعلني أرى ما ترين أو بخيلاً تخلدا

/ وقال آخر:

[١٢٤]

أنت للمال الذي أمسكته فإذا أنفقته فالمال لك

قال: وورث بعض السلف خمسين ألف درهم، فبعث بها إلى اخواته صرراً، وقال: قد كنت أسأل الله الجنة في صلاتي لأخواتي فأبخل عليهم بالدنيا. وعن أسماء بن^(٢) خارجه أنه كان يقول: ما أحب أن أرد أحداً عن حاجته؛ فإنه إن كان كريماً أصون عرضه، وإن كان لثيماً أصون عنه عرضي. ويقال: كان مورق^(٣) العجلي يتلطف في إدخال الرزق على إخوانه فيضع عند أحدهم ألف درهم ويقول: أمسكها حتى أعود إليك، ثم يرسل إليهم أنتم في حل منها. قال العتيبي عن الحكم بن عبد المطلب أنه أعطى جميع ما يملكه، فلما نفذ ما عنده ركب فرسه وأخذ رمحة يريد الغزو فمات بمسح. فأخبرني رجل من أهل مسح قال: قدم علينا الحكم، وهو مملق لا شيء معه فأغنانا. قال: وكيف أغناكم وهو مملق؟ فقال: ما أغنانا بمال ولكن

(١) في إحياء علوم الدين (٢٤١/٣): لا مال أعون من العقل.

(٢) في الأصل: بنت. وهو تحريف.

(٣) في الأصل: مورقي - وهو تحريف.

علمنا الكرم فعاد بعضنا على بعض فاستغنيا. وقال الحسن: بذل المجهود في بذل الموجود غاية الجود. وقيل لبعض الحكماء: من أحب الناس إليك. قال: من كثرت أيادي عني. قيل: فإن لم يكن؟ قال: من كثرت أيادي عنده. قال: وقال المهدي لشيب بن شيبه: كيف رأيت الناس في داري؟ قال: يا أمير المؤمنين إن الرجل منهم ليدخل راجياً ويخرج راضياً. قال: وتمثل متمثل عند عبد الله بن جعفر.

إن الصنعة لا تكون صنعة حتى يصاب بها طريق المصنع
فإذا اصطنعت صنعة فاعمد بها الله أو لذي القرابة أو دَع

وقال عبد الله بن جعفر: إن هذين البيتين ليبخلان الناس ولكن / أمطر المعروف مطراً [١٢٥]
فإن أصاب الكرام كانوا أهلاً له، وإن أصاب اللثام كنت له أهلاً. ودخل المنكر على عائشة رضي الله عنها، فقال: يا أم المؤمنين أصابتي فاقة. فقالت: ما عندي شيء فلو كانت عندي عشرة آلاف لبعثتها إليك. فلما خرج من عندها جاءت عشرين ألف من خالد بن أسيد، فقالت: ما أسرع ما ابتليت، فأرسلت بها في أثره، فاشتري جارية بألف درهم فولدت له ثلاثة أولاد: محمد، وأبو بكر، وعمر بنو المنكر، فكانوا عبّاد المدينة. وقال أكرم بن صيفي: صاحب المعروف لا يقع، وإن وقع وجد متكأ والله أعلم. قال الشاعر:

إذا تكرمت عن بذل القليل ولم تقدر على سعة لم يظهر الجود
بث النوال ولا يمنعك قلته وكل ما سد فقراً فهو محمود

حكايات الأسخياء

ومن كتاب سراج الملوك عن الأصمعي قال: كانت حروب البادية ثم اتصلت بالبصرة، ففارق الأمر حتى مشى بين الناس في الصلح فاجتمعوا في المسجد الجامع. قال: فُبُثت أنا وغلانم إلى ضرار بن الققعاق بن دارم، فاستأذنت عليه فأذن لي، فإذا هو في شملة يخطب نوى لعنزة حلوب، فأخبرته بمجمع القول، فأمهل حتى أكل العنزة، ثم غسل القصة. وقال: يا جارية غدني فأتت بزيت وتمر. قال: فدعاني فقدرته أن أكل معه، فلما فرغ وثب إلى طين في الدار ملقى، فغسل يده ثم صاح: يا جارية استقيني بماء فلما شرب مسح فضله على وجهه. ثم قال: الحمد لله ماء الفرات وتمر البصرة بزيت الشام متى يؤدي شكر هذه النعمة. ثم قال: عليّ بردائي فأوتي برداء عني فارتدى به على تلك الشملة. قال الأصمعي: فتجافيت عنه استقباحاً لزيته فدخل المسجد فضلى ركعتين، فمشى إلى القوم فلم تبق حبة إلا حلت إعظاماً له ثم جلس فتحمل جميع ما كان بين الأحباء من / ديات الأموات في ماله وانصرف. [١٢٦]

وفي كتاب الغزالي: وعن محمد ابن المنكلر عن أم درة وكانت تخدم عائشة رضي الله عنها قالت: أن ابن الزبير بعث إليها بمال في غرارتين ثمانين ومائة ألف، فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس، فلما أمست قالت: يا جارية هات فطوري فجاءتها بخبز وزيت. فقالت: لها أم درة: ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لحماً تططرين عليه. فقالت: كنت لو ذكرتي لنفعلت. وعن أبان ابن عثمان قال: أراد رجل أن يضار عبد الله بن عباس فأتى وجوه قريش، فقال: يقول لكم عبد الله تغدون اليوم عندي، فأتوه حتى ملأوا عليه الدار. فقال: ما هذا؟ فأخبر الخبر فأمر عبد الله بشراء فاكهة، فأمر قوماً فطبخوا وخبزوا، وقدم إليهم الفاكهة، فلم يفرغوا حتى وضعت الموائد فأكلوا حتى صدروا.

فقال عبد الله لوكلائه: أوجود هذا كلما أردت؟ قالوا: نعم. قال: فليتغد هؤلاء عندنا كل يوم إلى انقضاء شهر. وعن مصعب بن الزبير قال: حج معاوية فلما انصرف من المدينة قال الحسين بن علي لأخيه الحسن: لا تلقه ولا تسلم عليه. فلما خرج معاوية قال الحسن بن علي: إن عليّ ديناً ولا بد من إتيانه، فركب في أثره حتى لحقه، فسلم عليه فأخبره بدينه فمروا عليه ببختي عليه^(١). ثمانون ألف دينار، وقد أعشى وتخلف عن الإبل وقوم يسوقونه. فقال معاوية: ما هذا؟ فذكر له فقال: اصرفوه بما عليه لأبي محمد. وعن واقد بن محمد الواقدي قال: حدثني أبي أنه رفع رقعة إلى المأمون يذكر له فيها كثرة الدين، وقلة صبره عليه. فوقع المأمون على ظهر رقعته: إنك رجل اجتمعت فيك خصلتان سخاء وحياء، فأما السخاء فهو الذي أطلق ما في يدك، وأما الحياء فهو الذي يمنعك من تبليغنا ما أنت عليه وقد أمرت لك [١٢٧١] بمائة ألف درهم، فإن كنت قد أصبت فازدد / في بسط يدك، وإن لم أكن أصبت فجنائتك على نفسك، وأنت حدثني إذ كنت على قضاء الرشيد.

عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن أنس أن النبي ﷺ قال للزبير بن العوام: «يا زبير اعلم أن مفاتيح أرزاق العباد يزاء العرش يبعث إلى كل عبد بقدر نفقته فمن كثر كثر له ومن قل قل عليه»^(٢).

قال الواقدي: فوالله لمذاكرة المأمون إياي بالحديث أحب إليّ من الجائزة ومن مائة ألف. قال: وسأل رجل الحسن بن علي حاجة له فقال له: يا هذا حق سؤالك إياي يعظم

(١) في الأصل: فأمر له ببختي عليه. والتصويب من إحياء علوم الدين (٣/٢٤٢).

(٢) رواه الدارقطني فيه وفي إسناده الواقدي عن محمد بن إسحاق عن الزهري بالمنعنة ولا يصح. قاله العراقي

في المعني (٣/٢٤٢).

عليّ، ومعرفتي بما يجب لك يكثر عليّ، ويدي تعجز عن نيلك بما أنت أهله، والكثير في ذات الله قليل، وما في ملكي وفاء لشركك، فإن قبلت الميسور ورفعت عني مؤنة الاحتمال والاهتمام لما أتكلف من واجبك فعلت. فقال: يا ابن رسول الله، أقبل وأشكر العطية، واعذر على المنع، فدعا الحسن بوكيله فجعل يحاسبه على نفقاته حتى استقصاها فقال: هات الفاضل من الثلاث مائة ألف، فأحضر خمسين ألفاً. قال: فما فعلت الخمسمائة دينار؟ قال: هي عندي. فقال: أحضرها. فأحضرها فرفع الدينانير والدراهم إلى الرجل، فقال: هات من يحملها لك، فأتاه بحمالين فدفع له الحسن رداءه لكراء الحمالين فقال له مواله: والله ما عندنا درهم. فقال: ولكني أرجو أن يكون لي عند الله أجر عظيم. قال: واجتمع قراء البصرة إلى عبد الله بن عباس وهو عامل البصرة. فقالوا: أجاؤ لنا صوام قوام يمتنى كل واحد منا أن يكون مثله، وقد زوج بنته له من ابن أخيه وهو فقير، وليس عنده ما يجهزها به. فقام ابن عباس فأخذ بأيديهم وأدخلهم داره وفتح صندوقاً فأخرج منه ست بدر. فقال: احملوها، فحملوها. فقال ابن عباس: ما أنصفناه حيث / أعطيناها ما يشغله عن صيامه وقيامه، ارجعوا بنا تكون أعواناً [١٢٨] على تجهيزها فليس للدينا من القدر ما يشغل مؤمناً عن عبادة ربه، وما بنا من التكبر ما لا نخدم أولياء الله، ففعل ففعلوا.

قال: وحكي أنه لما أجذب الناس بمصر وعبد الحميد بن أسعد أميرهم فقال: والله لأعلمن الشيطان إنني عدوه فعَالَ محاوِيجهم إلى أن رخصت الأسعار، ثم عزل عنهم فرحل وللتجار عليه ألف ألف درهم، ورهنهم بها حلّي نسائه وقيمته خمس مائة ألف ألف، فلما تعذر عليه ارتجاع الحلّي كتب إليهم ببيعة، ودفع الفاضل منه عن حقوقهم إلى من لم تنله صلته.

وكان أبو مرثد أحد الكرماء فمدحه بعض الشعراء، فقال للشاعر: والله ما عندي ما أعطيك ولكن قدّمني إلى القاضي وأدع علي بعشرة آلاف درهم حتى أقر لك بها فإن أهلي لا يتكونني محبوساً ففعل، فلم يمس حتى دفعت إليه عشرة آلاف درهم وأخرج أبو مرثد من الحبس.

قال: وكان معن بن زائدة عاملاً على العراقيين بالبصرة، فحضر ببابه شاعر، فأقام مدة وأراد الدخول إلى معن فلم يتهياً له. فقال يوماً لبعض خدم معن: إذا دخل الأمير البستان فرغني، فلما دخل أعلمه فكتب الشاعر بيتاً على قصبة وألقاها في الماء الذي يدخل ببستان معن، وكان معن على رأس الماء فلما أبصر بالقصبة أخذها وقرأها فإذا فيها مكتوب:

أيا جود معن ناج معن بحاجتي فما لي معن سواك شفيح

قال: فدعا بالرجل فأشدد البيت فأمر له بعشر بدر، ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه ثم قرأ معن البيت في اليوم الثاني فأمر له بمائة ألف درهم فهرب لئلا تؤخذ منه. ثم قرأه بعد ذلك [١٢٩] فدعا به / فلم يوجد. فقال: حق علي أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي دينار ولا درهم.

ومن كتاب سراج الملوك قال: وأما طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي المعروف بطلحة الطلحات قال: وإنما سمي بهذا الاسم لأنه كان عظيم البذل في كل وجه، وكان يتابع الرقاب فيعتقها وكان كل معتق يولد له ولد ذكر اسمه طلحة فبلغ عددهم ألف رجل، كل يسمى طلحة فسمي لذلك طلحة الطلحات وفيه يقول القائل:

رحم الله أعظماً دفنوها بسجستان طلحة الطلحات

قال أبو الحسن المدني خرج الحسن، والحسين، وعبد الله بن جعفر حجاجاً فعاتبهم أقالهم، فجاءوا وعطشوا فمروا بعجوز في خباء لها فقالوا: هل من شراب؟. قالت: نعم فأنخوا إليها، وليس لها إلا شوية في كسر الخيمة فقالت: احلبوها وامتدقوا لبنها ففعلوا ذلك فقالوا: هل من طعام؟ قالت: لا إلا هذه فليذبحها أحدكم حتى أهىء لكم ما تأكلون. فقام إليها أحدهم فذبحها وكشطها ثم هيأت لهم طعاماً فأكلوا، فلما أبردوا وارتحلوا، فقالوا لها: نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه، فإذا رجعتنا سالمين فألمي بنا فإننا صانعون بك خيراً ثم ارتحلوا.

وأقبل زوجها وأخبرته خير القوم والشاة، فغضب فقال: ويحك تدبحين شاة لقوم لا تعرفينهم، ثم تقولين نفر من قريش. قال: ثم بعد ذلك ألبأتها الحاجة إلى المدينة، فدخلها فجعلتا يتقلان البعر إليها ويبيعانه، فمرت العجوز في بعض سكك المدينة، فإذا الحسن بن علي جالس على باب داره فعرف العجوز وهي له منكرة فبعث الحسن غلامه فدعا العجوز. فقال لها: يا أمة الله تعرفيني؟ قالت: لا. قال: أنا ضيفك يوم كذا وكذا. وقالت العجوز: بأبي أنت [١٣٠] وأمي هو! قال: نعم، ثم أمر الحسن فاشترتوا لها من شاء الصدقة ألف شاة / ثم أمر لها معها بألف دينار وبعث بها مع غلامه إلى الحسين. فقال لها الحسين: بكم وصلك أخي؟ قالت: بألف شاة وألف دينار. فأمر لها الحسين بمثل ذلك، ثم بعث بها مع غلامه إلى عبد الله بن جعفر. فقال لها: بكم وصلك الحسن والحسين؟ فقالت: بألفي دينار وألفي شاة. فأمر لها عبد الله بألفي شاة وألفي دينار فقال لها: لو بدأت بي لأتعبتهم، فرجعت العجوز إلى زوجها بأربعة آلاف شاة وأربعة آلاف دينار.

قال: وقدم رجل من قريش من السفر، فمرّ برجل من الأعراب على قارة الطريق وقد

أقعده الدهر وأضرّ به المرض . فقال : يا هذا أعتنا على الدهر . فقال الرجل لغلامه : ما بقي من النفقة فادفعه إليه فصب الغلام في حجر الأعرابي أربعة آلاف درهم ، فذهب لينهض فلم يقدر من الضعف فبكى ، فقال له الرجل : ما يبكيك ؟ لعلك استقلت ما أعطيناك . قال : لا ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني .

قال : واشترى عبد الله بن عامر من خالد ابن عقبة بن أبي معيط داره التي في السوق بتسعين ألف درهم ، فلما كان في الليل سمع بكاء أهل خالد ، فقال لأهله : ما لهؤلاء ؟ قال : يكون لدارهم . فقال : يا غلام أنتهم واعلمهم أن الدار والمال لهم جميعاً . قال : وقيل أنفذها هارون الرشيد إلى مالك بن أنس بخمس مائة دينار . فبلغ ذلك الليث بن سعيد وأنفذ إليه ألف دينار . فغضب هارون فقال : أعطيته خمس مائة دينار وأعطيته أنت ألف دينار وأنت من رعيتي فقال : يا أمير المؤمنين إن في غلتي كل يوم ألف دينار ، فاستحييت أن أعطي مثله أقل من دخل يوم . وحكي أنه لم تجب عليه زكاة مع أن دخله كل يوم ألف دينار ، وفي مثله يقول القائل :

مُلاذً: يَدِي مِنَ السُّدْيَا مِراراً فَمَا طَمِعَ الْعَوَاذِلُ فِيهِ اقْتِصَادِ

/ وَلَا وَجِبَتْ عَلَيَّ زَكَاةَ مَالٍ وَهَلْ تَجِبُ الزَّكَاةُ عَلَيَّ جَوَادِ [١٣١]

وروي أن امرأة سألت الليث بن سعد^(١) شيء من غسل فأمر لها بزق وقال : إنها سألتنا على قدرها ونعطوها على قدر النعمة علينا . وقال : كان الليث بن سعد لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلاث مائة وستين مسكيناً^(٢) .

وعن الأعمش قال : اشتكت شاة عندي فكان خيشمة بن عبد الرحمن يعودها بالغدو والعشي ويقول : هل استوتف علفها ، وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها ؟ وكان تحتي لبد اجلس عليه فإذا خرج قال : خذ ما تحت اللبد . حتى وصل إليّ في علة الشاة أكثر من ثلاث مائة دينار من بره ، حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ .

- (١) في الأصل : الليث بن سعيد ، وهو تحريف ، وهو الفقيه المصري الشهير .
 (٢) قلت : اشتهر الإمام الليث بن سعد بالزهد والكرم والثناء ، وما زال نسله إلى اليوم بالقاهرة يقدمون مشروب الشاي كل يوم بعد صلاة الفجر لكل المصلين الذين يصلون بالمسجد الذي دفن فيه بمصر ، وكانوا قبل فترة قصيرة يقدمون وجبة إنظار كاملة لكل المصلين ، ثم اقتصروا الآن على مشروب الشاي ولما سألت عن ذلك أخبرت أنهم على ذلك العهد منذ وفاته رحمه الله ، فأرجو منه الله أن يوسع عليهم وأن يعودوا لما كانوا عليه من الإطعام ، وأن يجعل ذلك في ميزان حسناتهم وأن يجعل أجر تلك السنة لجددهم الليث بن سعد وأن يرحمنا جميعاً بكرمه . (أمين سيد) .

ويروى أن عبد الملك بن مروان قال لأسماء ابن خارجة: بلغتني عنك خصال فحدثني بها قال: هي من غيري أحسن منها مَنِّي. قال: عزمت عليك إلاّ تحدثني بها. قال: يا أمير المؤمنين ما مددت رجلي بين يدي جليس قط، ولا صنعت طعاماً فدعوت عليه قوماً إلاّ كانوا أمرنّ عليّ مني عليهم، ولا نصب لي رجل وجهه قط ليسألني شيئاً فاستكثرت شيئاً أعطيه إياه.

قال: ودخل سعيد بن خالد على سليمان ابن عبد الملك، وكان سعيد رجلاً جواداً فإذا لم يجد شيئاً كتب لمن سأله الضكّاك على نفسه حتى يخرج عطاءه، فلما نظر إليه سليمان تمثّل بهذا البيت:

إنني سمعت مع الصباح منادياً يا من يعين على الفتى المعوان

قال: ما حاجتك؟ قال: ديني. قال: وكم هو؟ قال: ثلاثون ألف دينار. قال الملك: لك دينك ومثله. وقيل: مرض قيس بن سعد بن عبادة فاستبطأ إخوانه فقبل: إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدّين. فقال: أخذ الله مالاّ يمنع الإخوان من الزيارة ثم أمر منادي فنادى: من كان عليه لقيس حق فهو منه في حل. قال: ففسرت درجته بالعشي لكثرة من عاده وروي [١٣٢] / أن الشافعي لما مرَّضَ مَرَضُ موته قال: مروا فلاناً يغسلني. فلما توفي بلغه خبر موته فحضر فقال: انتوني بتذكرته، فأتني بها فنظر فإذا على الشافعي سبعون ألف درهم، فكتبها على نفسه فقضاها عليه فقال: هذا غسلني إياه، أي إرادته هذا.

وعن الشافعي قال: لا أزال أحب حماد ابن سليمان لشيء بلغني عنه، أنه كان ذات يوم أكباً حماراً فحرّكه، فانقطع زره فَمَرَّ على خياط فأراد أن ينزل ليسوي زره، فقال الخياط: والله لا نزلت، فقام الخياط إليه فسوّى^(١) زره فأخرج صرة فيها عشرة دنانير فسلمها إلى الخياط واعتنر إليه من قلّتها.

قال الربيع بن سليمان: قال: أخذ رجل بركاب الشافعي فقال: يا ربيع اعطه أربعة دنانير واعتنر إليه عني. وقال الربيع: سمعت الحميدي يقول: قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة بعشرة آلاف دينار فضرب خبّاءه في موضع خارجاً من مكة فنشرها على ثوب ثم أقبل على كل من دخل عليه فقبض قبضة فأعطاه حتى صلى الظهر فنفض الثوب وليس عليه شيء وأنشد الشافعي لنفسه فيما قيل:

(١) في الأصل: سوى. والتصويب من إحياء علوم الدين (٣/٢٤٥).

يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى مَالِ أَجُودٍ بِهِ عَلَى الْمُؤَلِّينَ مَنِ أَهْلُ الْمُرُوءَاتِ
إِنَّ اعْتِدَارِي إِلَى مِنْ جَاءَ يَسْأَلُنِي مَا لَيْسَ عِنْدِي مِنْ إِخْدَى الضِّيَّاتِ

وعن أبي ثور قال: أراد الشافعي الخروج إلى مكة ومعه مال، وكان قلماً يمسك شيئاً من سماحته فقلت له: ينبغي أن تشتري بهذا المال ضيعة تكون لك ولولدك. قال: فخرج ثم قدم علينا فسألناه عن ذلك المال فقال: ما وجدت بمكة ضيعة يمكنني أن أشتريها لمعرفةي بأصلها وقد وقف أكثرها ولكن بنيت بما معي ما يكون لأصحابنا إذا حجوا أن ينزلوا فيها وأنشد للشافعي:

أرى نفسي تتوقى إلى المعاني ويقصر دون مبلغهنَّ مالي
/ فلا نفس تساعدني ببخل ومالي لا يبلغني فعالي [١٣٣]

وعن محمد بن عباد المهلب قال: دخل أبي على المأمون فوصله بمائة ألف درهم. فلما قدم من عنده تصدق بها فأخبر بها المأمون، فلما عاد إليه عاتبه المأمون في ذلك فقال: يا أمير المؤمنين منع الموجود سوء الظن بالمعبود فوصله بمائة ألف أخرى.

قال: وجاء رجل إلى سعيد بن العاص فسأله فقال: يا غلام أعطه خمس مائة فرجع الغلام مستهتماً فقال: دنانير أو دراهم؟ فقال: ما أردت إلا دراهم فأما إذا رجعت فصيرها دنانير. فقعد الرجل يبكي فقال ما يبكيك؟ فقال: أبكي أن الأرض تأكل مثلك. وسأل سعيداً رجلاً آخر فأمر له بمائة ألف درهم فبكى. فقال سعيد: ما يبكيك؟ فقال: أبكي أن الأرض تأكل مثلك فأمر له بمائة ألف أخرى. وينشد في هذا المعنى:

لعمرك ما المصيبة هدم دار ولا شاة تموت ولا بغير
ولكن المصيبة موت حر يموت لموته بشر كثير

قال: ودخل أبو تمام على إبراهيم بن شكلة بأبيات امتدحه فيها فوجده عليلاً، فقبل منه المدحة وأمر حاجبه بنيله ما يصلحه وقال: عسى أن أقوم من مرضي فأكافئه فأقام شهرين، فأوحشه طول المقام فكتب إليه:

أن حراماً قبول مدحتنا وترك ما يرجى من الصدف
كما الدنانير بالدراهم في الصرف حرام إلا يبدأ يبد

فلما وصل البيتان إلى إبراهيم قال لحاجبه: كم أقام بالباب؟ قال: شهرين. قال: أعطه ثلاثين ألفاً وجثني بدواة فكتب إليه:

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا قِلاً فلو أمهلتنا لم يقلل
 وخذ القليل وكن كأنك لم تقل ونكون نحن كأننا لم نفعل

[١٣٤] / ويروي أنه كان لعثمان على طلحة خمسون ألف درهم. فقال طلحة: قد تهياً مالك فاقبضه. قال: هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك وفي مثله قال الشاعر:

إذا أسيل معروفاً تبسم ضاحكاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله
 هو البحر من أي النواحي أتيته فلجته المعروف والجود ساحله
 وفي مثله قال الشاعر:

كريم إذا ما جئت تطلب نائله حياك بما ضمت عليه أنامله
 فلو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله

قال: وقالت سعدى بنت عوف: ودخلت على طلحة فرأيت معه ثقلاً فقلت: ما لك؟ فقال: اجتمع عندي مال قد غمني. قلت: وما يغمك أدع قومك. فقال: يا غلام عليّ بقمي، قسمه بينهم. فسألت الخادم: كم كان؟ فقال: أربع مائة ألف.

قال: وجاء أعرابي إلى طلحة فسأله فتقرب إليه برحم فقال: إن هذا الرحم ما سألتني به أحد قبلك إن لي أرضاً قد أعطي فيها عثمان ثلاث مائة ألف فإن شئت فاقبلها وإن شئت بعتها لعثمان ودفع إليك الثمن. فقال: الثمن. فباعها من عثمان ودفع الثمن إليه وينشد:

وإمارةً بالبُخلِ قلتُ لها أفصري فذلِكَ شيءٌ ما إليه سئيلُ
 أرى الناسَ جِلانَ الجِوادِ ولا أرى بَخِيلاً له في العَالَمِينَ خَيْلُ
 وَمِنْ خَيْرِ حَالَاتِ الْفَتَى لَوْ عَلِمْتُهُ إِذَا نَالَ شَيْئاً أَنْ يَكُونَ يُبَيْلُ
 فَوَئسِي رَأَيْتِ الْبُخْلُ يُزْرِي بِأَهْلِهِ فَأَكْرَمْتُ نَفْسِي أَنْ يُقَالَ بَخِيلُ

ومن كتاب الجواهر: ويحكى أن عبد الله ابن عباس خرج يريد معاوية فأصابته سماء فرفعت له خيمة فقيمهما فإذا بها شيخ من الأعراب وامرأته وابنتاه وعندهم عنز، ورحب به وأنزله. فقال الشيخ: أذبحها / لضيفي. فقالت المرأة: تموت ابنتاي جوعاً. فقال: الموت خير من اللوم، فأخذ الشفرة وهو يقول:

يا مرتنا لا توقظي ابنتيه إن توقظا تبعثا إليته
 وتنزعا الشفرة من يديه ابغض بهذا وبها إليه

قال: فذبح العنز فأضافه بها، فلما أصبح ابن عباس رضي الله عنه قال لغلامه: كم بقي من النقطة؟ قال: خمسمائة دينار. فقال؛ صبها للأعرابي. قال: يكفيك ضعف قيمة الشاة. قال: سبحان الله جاد علينا بدينها كلها أفلا نجد له ببعض دنانا. قال: فأعطاها الشيخ فارتحل يريد معاوية فلما انصرف من عنده اجتاز على الشيخ فوجده صاحب إبل ومراج فكان الشيخ ينشد فيه:

توسمته لما رأيت مهابة	عليه فقلت المرء من آل هاشم
وإلاً فمن آل المزار فإنهم	ملوك ملوك من ملوك أعظم
فقلت إلى عنز بقية أعنز	فأذبحتها فعل امرىء غير عاتم
فعرضني منها غنائي ولم يكن	يساوي لحميمي غير خمس دراهم
بخمس مئين من دارهم صرفت	إلى فما جادت بها كف آدم
فقلت لعربي في الخلا وصيبي	ءالحق هذا أم هو أضغاث حالم؟
فقالوا جميعاً لا بل الحق هذه	تخب بها الركبان وسط المواسم

قال: فبلغ ذلك معاوية فقال: لله در ابن عباس من أي بيضة خرج وفي أي عش درج. وهذه الحكايات قرأتها قديماً فحفظي فيها مضطرب ولعلي إن لم أت بصريح ألفاظها فقد أتيت بمعناها وأنا استغفر الله على ما بدلت من الألفاظ وغيرها.

ويحكى أن رجلاً أتى إلى صديق له في أربع مائة دينار عليه فأخبره بها، فوزن له أربع مائة فعاد يبكي. فقالت له امرأته: لم أعطيته إذ شق / عليك؟ فقال: إنما أبكي لأنني لم اتفقد [١٣٦] حاله حتى احتاج لمفاتيحي. والله أعلم، وحكايات الأسخياء كثيرة، ولو استقصيناها لطال الكتاب^(١).

فصل

اختلف الناس في حد البخل والسخاء. فقال قوم: حد البخل منع الواجب فكل من أدى ما وجب عليه فليس ببخيل. وقال آخرون البخيل هو الذي يستصعب العطية. وهذان القولان قاصران إذ من يرد اللحم إلى القصاب أو الخبز إلى الخباز بنقصان حبه أو نصف حبه لا يعد بخيلاً بالإنفاق، وكذلك لا يكون بخيلاً باستصعاب العطية دون الإمساك.

(١) أورد الغزالي من ذلك كثير أيضاً في كتابه إحياء علوم الدين فراجعه (٣/٢٤٢: ٢٤٦) غير أن هذا فاق عليه في ذكر الشعر فقد أورد منه أكثر مما يورد الغزالي رحمتاً ورحمهما الله.

وقد روي عن طلحة أنه قال نجد في أموالنا ما يجد البخيل ولكننا نتصبر . وكذلك تكلموا في السخاء والجود: فقال قوم: السخاء أن تسخو نفسك بما في يديك ونهايته أن تسخو نفسك بما في أيدي الناس ولا تبالي بمن أكل الدنيا . وقال قوم: الجود عطايا بلا من . وقيل: الجود عطية بغير مسئلة على رؤية التقليل . وقيل: الجود السرور بالسائل والفرح بالعتاء لما أمكن .

وقيل: السخاء هو الرتبة الأولى، ثم الجود، ثم الإيثار، فمن أمسك البعض وأتى البعض فهو صاحب سخاء، ومن أعطى الأكثر وأمسك لنفسه الأقل فهو صاحب جود، ومن قاس الضرر وأثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثار، ومن لم يبذل شيئاً فهو بخيل . ويقال: أصل السخاء هو السماحة وأن يؤتي ما يؤتيه عن طيب نفس فإن أعطى عن منازعة نفس فهو متسخ وليس بسخي .

وفي كتاب الغزالي^(١) قال: وجملة هذه الكلمات غير محيطة بحقيقة البخل والجود، قال: بل ونقول المال خُلِقَ لصلاح حاجات الخلق، ويمكن إمساكه عن الصرف إلى ما خلق للصراف إليه ويمكن إعطاؤه إلى ما لا يحسن الإعطاء فيه، ويمكن التصرف فيه بالعدل، وهو أن يحفظ حيث يجب الحفظ / ويبذل حيث يجب البذل فالإمساك حيث يجب البذل بخل، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير وبينهما وسط وهو المحمود .

وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه إذ لم يُؤمر رسول الله ﷺ إلا بالسخاء وقيل له: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾^(٢) . وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(٣) . والجود وسط بين الإسراف والإقتار، وبين القبض والبسط، فإن كان بذله في موضعه بطيبة نفس فهو سخي، وإن كان عن صبر ومنازعة فهو متسخ . وهذا القول عندي أعدل الأقوال؛ لأن من زاد على حد السخاء فهو مبذر، ومن قَصَّر عنه فهو بخيل، ومن وقف عليه فهو كريم .

وحد السخاء على هذا المعنى هو بذل ما يحتاج إليه مستحقه عند الحاجة؛ ولأن الحكماء قالت: الفضائل هبات متوسطة بين خلتين ناقصتين، وأفعال الخير توسط بين رذيلتين، فالشجاعة: متوسطة بين الجبن والتهور، والسكينة: واسطة بين السخط وضعف الغضب، والغيرة: واسطة بين الحسد وسوء العادة، والتواضع: واسطة بين الكبر ودناءة النفس،

(١) راجع الإحياء (٣/ ٢٥٤) وإن كان ما قبل ذلك من قول منه أيضاً فلا أدري لما ذكره .

(٢) سورة الإسراء الآية: ٢٩ .

(٣) سورة الفرقان الآية: ٦٧ .

والحلم: واسطة بين أفراد الغضب وعدمه، والمودة: واسطة بين الملل وجساء الخلق، والحياء: واسطة بين الوقاحة والخفر، والوقار: واسطة بين الهزل والسخافة، والظرف: واسطة بين الخلاعة والعدلثة، والعلة: واسطة بين الشره وضعف الشهوة، والحكمة: واسطة بين الشر والجهالة، والسخاء: واسطة بين التقتير والتبذير والله أعلم؛ فأوسط الأمور أعدلها فلذلك كان عليه السلام ما خُيِّر قط بين أمرين إلا اختار أوسطهما. وقال بعض الحكماء: الخطأ في إعطاء ما لا ينبغي ومنع ما ينبغي واحد، ويُشدد:

لا تجد بالعطاء في غير حقٍ ليس في منع غير ذي الحق بخل
/ إنما الجود أن تجود على من هو للبذل والعطاء منك أهل [١٣٨]

واعلم أن السرف والتبذير قد يفترق معناهما؛ فالسرف هو الجهل بمقادير الحقوق، والتبذير هو الجهل بمواقع الحقوق وكلاهما مذموم، وذم التبذير أعظم؛ لأن المسرف مخطيء في الزيادة، والمبذر مخطيء في الجميع وقد قال معاوية: كل سرف فيزيأته حق مضتبع.

وصدق لأن المال أقل من أن يوضع في كل موضع من حق أو غيره، وقد قال بعض العلماء: الحلال لا يحتمل السرف.

واعلم أنه لا يتم السخاء حتى تسخو نفس الإنسان عما بيد غيره، فلا يميل إلى طلب ولا يكف عن بذل. وقد حكى أن الله تعالى أوحى إلى إبراهيم عليه السلام: أتدري لم اتخذتك خليلاً؟ قال: لا رب قال: لأني رأيتك تحب أن تعطي ولا تحب أن تأخذ.

وعن أيوب السجستاني أنه قال: لا ينبل الرجل حتى تكون فيه خصلتان العفة عن أموال الناس والتجاوز عنهم قال: وكتب كسرى إلى ابنه هرمز: يا بني استقل الكثير مما تُعطي، واستكثر القليل مما تأخذ، فإن قره عيون الكرام في الإعطاء وسرور اللثام في الأخذ، ولا تعد الشحيح أميناً ولا الكذاب حُرّاً؛ فإنه لا عفة مع الشُّح، ولا مروءة مع الكذب. وقال: بعض البلغاء: السخاء أن تكون بمالك متبرعاً، وعن مال غيرك متورعاً. وينشد:

إذا لم تكن نفس الشريف شريفة وإذ كان ذا قدر فليس له شرف
والبذل على وجهين:

أحدهما: ما ابتدأ به الإنسان من غير سؤال.

والثاني: ما كان عن طلب وسؤال فالمبتدئ أطبعهما سخاءً وأشرفهما عطاءً، وقد سُئل عن السخاء فقال: ما كان منه ابتداءً، وأما ما كان منه عن مسألة فحياءً وتكبراً. وقال بعض

الحكماء: أَجَلَ النّوال ما وصل قبل السّؤال، وقيل للحسن البصري: ما السخاء؟ فقال: أن تجود بما لك في الله. قيل: فما الحزم؟ قال: أن تمنع ما لك فيه. قيل: وما الإسراف؟ قال: الإنفاق لحب الرّئاسة.

فصل

اعلم أن النّوال الذي يقع ابتداءً يكون لأسباب:
منها: أن يرى فاقه يتمكّن من إزالتها، فلا يدعه الكرم أو الدّين إلّا أن يكون زعيم إصلاحها رغبة في الأجر أن تدين وفي الشكر أن تكرم.
ومنها: أن يكون في ماله فضل على كفايته فيضعها حيث تكون له ذخر اليوم فقره، أو حسن ثناء وحمده من أهله ويُشدد:

وما ضاع مال ورّث الحمد أهله ولكن أموال البخيل تضيع
ومنها: أن يكون بتعريض يتنبه إليه بفطنته^(١) فلا يدعه الكرم أن يغفل ولا الحياء أن يكف وكالذي حكى: أن رجلاً سائر بعض الولاة فقال: ما أهزل بردونك! فقال: يده مع أيدينا. فوصله اكتفاء بهذا التعريض الذي بلغ ما لم يبلغه صريح السّؤال.

ومنها: أن يكون ذلك لرعاية يد أو جزاء على صنّعة، فيرى تأدية الحق عليه طوعاً ليكون من رق الإحسان عتيقاً، وقد قال بعض الحكماء: المعروف رق والمكافئات عتق قال أبو العتاهية^(٢).

وليست أيادي الناس عند غنيمة ورُبَّ يد عندي أشد من الأسر
ومنها: أن يستعطف الناس بذلك ليذعنوا لرئاسة هو لها محب، وعلى طلبها منكب. وقد قال بعض الأدباء: بالإحسان يرتبط الإنسان وقال بعضهم: من أبدل ماله أدرك آماله. ويُشدد:

أتُرجو أن تسود ولن تغنا فكيف يسود ذو الدعة البخيل

(١) في الأصل: لتعريض يتنبه عليه بفطنته. وأرى أن العبارة قد أصابها غموض، أو تحريف. فكتبها على ما هو مباشر ومتبادر إلى الفهم والذهن.

(٢) هو شاعر الزهد والحكمة إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان أبو إسحاق الغزوي الكوفي كان في أول حياته ماجناً فوصفوه بالعتة ثم تاب الله عليه وزهد في الدنيا وكتب من الأشعار ما يرقق أئدة العاصين ويؤمل القائلين ويشرح صدور اليائسين فعليه وعلينا رحمت الله آمين.

ومنها: أن يدفع به سطوة الأعداء ليكونوا له إخواناً إما لصيانة عرض أو حراسة مجد قال أبو تمام:

ولم يجتمع شرق وغرب لقاصدي ولا المجد في كف امرئ والدرهم
ولم أر كالمعروف تدعى حقوقه مغارم في الأقسام وهي مغانم

ومنها: أن يربى بها صنيعه أولها كي لا ينسى ما أولاه؛ لأن مهمل الإحسان / مقطوع [١٤٠] منسى قال:

وسمت امرء بالعرف ثم أطرحته ومن أفضل الأشياء رب الصنائع
ومنها: أن يكون ذلك لمحبة يؤثر بها المحبوب على ماله؛ لأن النفس إلى محبوبها أشوق فلا يبخل عليه بماله.

ومنها: أن يعطي ذلك لغير سبب، وإنما هي سجية فطر عليها، وشيمة طبع عليها فلا يميز بين مستحق ومحروم كما قال بشار^(١):

ليس يعطيك للرجاء وللخوف ولكن يلدن طعم العطاء
وقد اختلف في هذا فقال: قوم هذا هو السخاء طبعاً وللمدح منسوب والتميز شرط
البخل، والبذل لسبب الجاه ضرورة. وقال الحسن بن سهل: إذا لم أعط إلا مستحقاً فكأنني
أعطيت غريباً. وقال بعض السلف: العجب لمن يرجو من فوّه كيف يحرم من دونه وأنشد
لبشار:

وما الناس إلا أصحابان فمنهم سخي ومغلول اليدين من البخل
وسامح يداً ما أمكتك فإنها تغل وتشري والعواذل في شغل
وقال آخرون: هذا خارج عن السخاء المحمود إلى التبذير المذموم؛ لأن العطاء إذا كان
لغير سبب كان المنع لغير سبب؛ لأن المال يقصر عن الحقوق فما يناله من الذم غير المستحق
أكثر مما يناله من حمد غير المستحق وحسبك بمن كانت أفعاله تصدر من غير تمييز وتوجد
لغير علة قال الشاعر:

(١) هو بشار بن برد أبو معاذ البصري الضرير المرثع الشاعر المشهور قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء (٢٤/٧): قال أبو تمام: هو أشعر الناس والسيد الحميري في وقتها.. قلت: أي الذهبي اتهم بالزندقة فضربه المهدي سبعين سوطاً ليُرَّ فمات منها. وقيل: كان يُفضّل النار، ويتصر لإبليس. هلك سنة سبع وستين ومائة، وبلغ التسعين.

لو كان المال يأتينا فكنا نبذره وليس لنا عقول
أفلما أن تولي المال عنا عقلنا حين ليس لنا فضول

وأما إذا كان البذل عن سؤال فشروطه معتبرة في السائل والمسؤول، أما ما كان معتبراً في السائل فهو ثلاثة شروط:

أحدها: أن يكون السؤال لضرورة فلا لوم عليه ولا حرج، قال الشاعر:

[١٤١] / ألا قبح الله الضرورة إنها تعلمُ أعلى الخلق أدنى الخلائق
وله در الاتساع فإنه يبين فضل السبق من غير سابق

فإن ارتفعت الضرورة ودعت الحاجة إلى السؤال لدفع ضرر يمكن أن يكون ويمكن أن لا يكون فإن النفس تحتل من الضرر ما أطاقت، ومن الشدة ما تحملت ليبقى تجملها، قال الشاعر:

على كل حال يأكل المرء زاده على البؤس والضراء والحدثان

فالفضل في مثل هذا ما قيل لبعض الزهاد: لو سألت حمارك لأعطاك. قال: والله لا أسأل الدنيا من يملكها فكيف من لا يملكها. ووصف بعض الشعراء قوماً فقال:

إذا افتقروا عضواً على الضر حسبه وإن أيسروا عادوا سراعاً إلى الفقر
وإما أن يسأل لغير ضرورة مست ولا لحاجة دعت فذلك صريح

اللؤم ومحض الدناءة، وقُلّ ما تجد مثله ملحوظاً وممولاً محظوظاً؛ لأن الحرمان ساقه إلى أخبث المطاعم فلم يبق لوجهه ماء إلا أراقه ولا ذل إلا أذاقه ولو استقبح العار لوجد غير السؤال، مكسباً يموّنه وقد قال الشاعر:

ولا تطلبن معيشة بتذلل فليأتينك رزقك المقدر
واعلم بأنك أخذ كل الذي هو في الكتاب مجبر مسطور

والثاني: من شروط السؤال: أن يضيق الوقت على إبطائه فلا يجد لنفسه في التأخير فسحة فيصير حيتئذ من المعذورين، وداخلاً في عدد المضطرين، وأما إذا كان الوقت متسعاً فتعجيل السؤال لؤم وقنوط قال:

أبي لي إغضاء الجفون على القذا يقيني أن لا عسر إلا مفرج
ألا ربما ضاق الفضاء بأهله وأمكن من بين الأسنان مخرج

/ والشرط الثالث: اختيار المسؤول أن يكون مرجو الإجابة مأمول النجاح إما لحزمة [١٤٢] السائل، أو كرم في المسؤول فإن من سأل لثيماً لا يرى حرمة ولا يولى مكرمة فهو في اختياره ملوم وفي سؤاله محروم.

وقد قال بعض الحكماء: المخذول من كانت له إلى اللئام حاجة وقال بعض البلغاء: أنذل من اللئيم سائله وأقل من البخيل نائله. قال الشاعر:

من كان يأمل أن يرى من ساقط نيلاً سنياً فقد رجا أن يجتبي من عوسج رطباً جنياً
وأما الشروط المعتمدة في المسؤول فثلاثة أيضاً:

أحدها: أن يكتفي بتعريض السائل دون سؤاله ليصونه عن ذل الطلب فإن الحال ناطقة وربما فهم المسؤول الإشارة فصرح بالعبارة تهجيناً للسائل ليستحى فكيف كما قال أبو تمام^(١):

من كان مفقود الحياء فوجهه من غير بواب له أبواب
والثاني: أن يتلقا بالبشر والترحيب ليكون مشكوراً إن أعطى ومعذوراً إن منع. وقال:
وحكى ابن لبر أن أبا بكر بن دريد قصد بعض الوزراء في حاجة فلم يقضها وظهر له منه ضجر
فقال:

لا تدخلنك ضجرة من سائل
لا تجبهن بالرد وجه مؤمل
فلقى الكريم فتستدل ببشرة
واعلم بأنك عن قليل صائر
فلخير دهرك أن تُرى مسؤولاً
فبقاء عزك أن تُرى مأمولاً
وترى العُبوس على اللئيم دليلاً
خبيراً فكن خبيراً يروق جميلاً

والشرط الثالث: تصديق الأمل وتحقيق الظن به، ثم اعتبار حاله وحال السائل فإنها لا تخلو من أربعة أحوال:

أحدها: أن يكون السائل مستحقاً والمسؤول متمكناً، فالإجابة هاهنا تستحق كراماً وتلزم

(١) شاعر العصر أبو تمام حبيب بن أوس بن قيس الطائي من حوران أسلم وكان نصرانياً مدح الخلفاء والكبراء وشعره في الذروة، وكان أسمر طويلاً فصيحاً عذب العبارة مع تمتمة قليلة، ولد في أيام الرشيد وكان أولاً حدثاً يسقي الماء بمصر، ثم جالس الأديباء وأخذ عنهم وكان يتوقد ذكاءً، وسحت قريحته بالنظم البديع... وكان يوصف بطيب الأخلاق والظرف والسماحة. (واللهي في سير أعلام النبلاء ١١/٦٣).

مروءة، وليس إلى الرد سبيل إلا من استولى عليه البخل فيكون كما قال فيه عبد الرحمن بن حسان^(١):

[١٤٣] / إنني رأيت من المكارم حسبكم أن تلبسوا حر الثياب وتشبعوا
فإذا تذكرت المكارم مرة في مجلس أتم به فتقلعوا

فإذا لم يكن للرد في مثل هذه الحالة سبيل نظر فإن كان التأخير مضراً عاجل بذله، وقطع مظهه وكانت إجابته فعلاً لا قولاً. وقد قال: بعض الحكماء: من مروءة المطلوب إليه أن لا يلجأ إلى الإلحاح عليه قال: محمد بن الحازم.

ومتظر سؤالك بالعطايا وأشرف من عطاياه السؤال
إذا لم يأتك المعروف طوعاً فدعه فالتنزه عنه مال

فإن كان في التأخير فسحة فقد اختلفت مذاهب الفضلاء فيه: فذهب بعضهم إلى أن الأولى تعجيل الوعد قولاً ثم يتعقبه الإنجاز فعلاً فيكون السائل مسروراً بعاجل الوعد، ثم بأجل الإنجاز، ويكون المسؤول مهوناً بالكرم ملحوظاً بالوفاء. وفي الحديث: «العدة عطية»^(٢).

ومنهم من ذهب إلى: أن تعجيل البذل فعلاً من غير وعد أولي، وإنما يقدم الوعد أحد رجلين: إما معوز يتنظر جدّة، وإما شحيح يروض نفسه توطئه للطاء، وليس للوعد في غير هاتين الحالتين وجه يصلح لما يخاف في الوعد من تغيير حال الإنسان من يسار إلى أعسار قال بعض الشعراء:

يا أيها الملك المُقَدَّمُ أمره شرقاً وغرباً فامنم بختم صحيفتي ما دام هذا الطين رطباً
واعلم بأن جفافه مما يعيد السهل صعباً

والحالة الثانية: أن يكون السائل غير مستوجب والمسؤول غير متمكن، ففي الوعد فسحة وفي المنع عذر غير أنه يلين عند الرد ليناً يقبه الدم ويظهر عذراً ينفي عنه اللوم، فليس كل مقل يعرف ولا كل معذور ينصف.

(١) هو ابن حسان بن ثابت الأنصاري المدني الشاعر ابن الشاعر وأمه هي سيرين خالة إبراهيم ابن النبي ﷺ توفي سنة أربع ومائة. (قاله الذهبي في سير أعلام النبلاء ٦٤/٥: ٦٥).

(٢) رواه الطبراني في الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف، وأبو نعيم في الحلية من حديث بن مسعود، ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت، والخراطي في مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلأ. قاله العراقي في المعني عن حمل الأسفار (١٢٩/٣).

والثالثة: أن يكون السائل مستوجباً والمسؤول / غير متمكن فيعطي ما أمكن من يسير [١٤٤] ليسدّ خلّة، ويوضح من القول أن يظهر من التوجع ما يعُذر به كما قال النظر العتيبي:

الله يعلم أنني لست ذا بخلٍ ولست ملتماً في البخل لي عللاً
لكن طاقة مثلي غير خافية والنمل يعذر في القدر الذي حملاً

الحالة الرابعة: أن يكون السائل غير مستوجب المسؤول متمكناً فينظر فإن خاف بالرد قدح عرض أو قبح هجاء ممكن، كان البذل مندوباً صيانةً لا جوداً.

وعن الأصمعي قال: كتب الحسن بن علي إلى أخيه الحسين: أنه يعاب علينا إعطاء الشعراء فكتب إليه: خير المال ما وقى العرض. فإن أمكن ذلك فمن الناس من غلب المسألة وأمر بالبذل لئلا يقابل الرجاء بالخيبة ولما فيه من اعتياد البذل المفضي إلى السخاء كذلك اعتياد الرد مفض إلى الشح. وأنشد الأصمعي:

كأنك في الكتاب وجددت لالا محرمة عليك فلا تحل
فما تدري إذا أعطيت مالاً أياك من سماحك أم يقل
إذا حضر الشتاء فأنت صيف وإن حضر الصيف فأنت ظل

ومن الناس من غلب المنع في هذا إذا كان العطاء في غير حق يقصر به عن الحقوق إذا عرضت والله أعلم.

وأما من وعد بالبذل النوال، فلا سبيل له إلى الرد والمنع لأنه قد صار بوعده مرهوناً وصار وعده بالوفاء مقرونًا، فإن رد السائل استوجب مع ذم المنع لوماً ولخلف الوعد، ومقت الغادر وهجنه الكذب، ثم لا سبيل إلى مظه بعد الوعد، لما في المطل من تكدير المنع، وتمحيق الشكر والعرب تقول: المطل أحد المنعنين واليأس أحد النجحين وقال بشار بن بَرْد:

أظلت علينا منك يوماً غمامة أضاءت لنا برقاً فأبطأ رشاشها
فلا غيمها يجلي فيأس طامع ولا غيها يأتي فيروي عطاشها

/ ثم إذا أنجز وعده بالعطاء فليكن مسروراً بما أولى إذ كانت الأرزاق مقدرة فجعلت [١٤٥] على يده جارية ومن جهته واصلة.

وحكي أن رجلاً شكى كثرة عياله إلى بعض الزهاد، فقال: انظر من كان منهم ليس رزقه على الله فحولته إلى منزلي. ويروى عن بعض السلف أنه كان يقول: إذا جاءكم المسكين

جاءكم الغسال. وقال عليه السلام: «اليد العليا خير من اليد السفلى»^(١). اليد العليا المنفقة واليد السفلى السائلة. قال الشاعر:

فإنك لا تدري إذا جاء سائل أنت بما تعطيه أم هو أسعد
عسى سائل ذو حاجة إن منعه من اليوم سؤلاً أن يكون له غد

ويروي أن سيرين قال لرجل كان يأتيه على دابة ففقدتها قال: ما فعل بردونك؟ قال: اشتدت عليّ مؤنته فبعته. قال: أفتراه خلق رزقه عندك وأنشد لابن الرومي:

إن لله غير مرعاك مرعى ترتعيه وغير مائك ماء
إن لله بالبرية لطفاً سبق الأمهات والآباء

فإذا سخطت نفسه بالعطية فأولاهها فينبغي أن يكون قصده ابتغاء وجه الله تعالى ليرضاها ولا يضيع عنده جزاءها كالذي حكى عن أبي مہاصر رحمه الله أنه أعطى بغلاً له ليحمل عليه مريضاً من الغرباء. فقالوا: أين نلقاك؟ فقال بالبرية: أشن أن ونذذ مغرّن - أراد يوم القيامة.

وروي أن امرأة وقفت ببابه سائلة فقال: ادخلي. فاعتذرت إليه من رثاث ثيابها فرمى إليها كساءة كحلا - وهي الطاق بالبرية - وأعطاها وية شعر ووية تين فخرجت، ثم رمت بالطاق. فقال: ما أعطيتك لك لترديه. وروي أن أعرابياً أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:

يا عمر الخير جزيت الجنة اكس بناتي وأمهنه
وكن لنا من الزمان جنه واجعل جوابي إن أن أنه
أقسم بالله لتفعلنه

قال عمر رضي الله عنه: فإن لم أفعل فماذا يكونن؟ فقال: إذا أبا حفص لأذهبته. قال: إن ذهب فماذا يكونن؟ قال:

تُستل عن حالي وحالتهنه وموقف المسؤل بينهنه
إمّا إلى نارٍ وإمّا إلى جنه

(١) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (١٣٩/٢)، ومسلم في الصحيح (٧١٧)، أبي داود في السنن (١٦٤٨)، الترمذي في الجامع الصحيح (٢٣٤٣) والنسائي في المجتبى (٦٩، ٦١/٥) مالك في الموطأ (٩٩٨)، وأحمد في المسند (٤/٢)، عبد الرزاق في المصنف (٢٠٠٤١)، ابن أبي شيبة في المصنف (٢١١/٣).

فبكى عمر رحمه [الله]^(١) حتى أخضلت الدموع لحيته، فقال عمر لغلامه: أعطه فعسى لذلك اليوم لا لشعرة أما والله لا أملك غيره. فإذا كان العطاء على هذا الوجه خلا عن طلب جزاء وشكر، وعرى عن إمتنان ونشر، فكان ذلك أشرف للباذل وأهنا للسائل، أما إذا كان العطاء لطلب الشكر والثناء فالمعطى خارج عن حكم السخاء والكرم، وإن طلب به الجزاء والمكافأة كان تاجراً مربحاً بالتجارة.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُنُّنْ تَسْتَكْبِرُ﴾^(٢). أنه الذي يعطي عطية يلتبس بها أفضل منها. وعن الحسن قال: معناها لا تمنن بعملك تستكثره على ربك.

إنما ينبغي لمن عنده فضل من المال أن يجعله براً مدخوراً لهول يوم النشور لأن له في ماله شريكين يأخذانه من غير مشورته؛ وهما المصائب والرثة، فإن استطاع أن لا يكون أحسن الثلاثة فليفعل. وقيل للبخيل: لم حبست مالك؟ قال: للنواب قيل: قد نزلت بك. قال:

مَالِكٌ مِنْ مَالِكِ إِلَّا الَّذِي قَدِمْتَ فابْذُلْ طَائِعاً مَالِكاً
تَقُولُ أَعْمَالِي وَلَوْ فَتَشَوْا رَأَيْتَ أَعْمَالِكَ أَعْمَى لَكَ

فينبغي لمن قدر على إسداء المعروف أن يعجله حذر فواته ويتبادر به خيفة عجزه وقد روي عن النبي ﷺ وسلم أنه قال: «من فتح له باب خير فليتنهزه فإنه لا يدري متى يغلق عنه»^(٣).

وعنه أيضاً أنه قال: «ثمره المعروف تعجيل السراح»^(٤). وقيل لأنوشروان: ما أعظم المصائب عندكم؟ قال: أن تقدر على المعروف ولا تصنعه حتى يفوت. / وقال بعض السلف: [١٤٧] من أحر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها. قال الشاعر:

إِذَا هَبْتَ رِيَا حَكَ فَاغْتَنَّمَهَا فَإِنْ لَكُلِّ عَاصِفَةٌ سَكُونُ
وَلَا تَغْفَلْ عَنِ الْإِحْسَانِ فِيهَا وَلَا تَدْرِي السَّكُونُ مَتَى يَكُونُ
وَاعْلَمْ أَنَّ لِلْمَعْرُوفِ شُرُوطاً لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهَا.

(١) لفظ الجلالة سقط سهواً من المخطوط واثبتناه بين معقوفين.

(٢) سورة المدثر الآية: ٦.

(٣) أطراف الحديث في: كثر العمال للمتي الهندي (٤٣٤)، الزهد لأحمد بن حنبل (٣٩٤).

(٤) طرفه عند: الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٧٥/٨)، القرطبي في التفسير (٣٨٤/٥).

من ذلك: ستره وقد قال بعض الحكماء: إذا اصطنعت المعروف فاستره فإذا اصطنع إليك فأنشره. على أن ستر المعروف من أقوى أسباب ظهوره وأبلغ دواعي نشره لما جبلت عليه النفوس من إظهار ما أخفى وإعلان ما إكتم. وأنشد لسهل بن هارون:

حل إذا جتته يوماً لتسأله أعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا
يخفي صنائعه والله يظهرها إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

ومن شروط المعروف: تصغيره وتقليله. وقد روي عن العباس بن عبد المطلب أنه قال: لا يتم المعروف إلا بثلاث خصال: تعجيله، وتصغيره، وستره، فإذا عجلته فقد هنيته، وإذا صغرت فقد عظمته، وإذا سترته فقد أتممته. قال الشاعر:

زادك معروف عندي عظماً إنه عندك مستور حقيراً
وتناسيت كأن لم تأته وهو عند الناس مشهور كثير
ومن شروط المعروف: مجانبة الامتنان به: لما فيه من إسقاط الشكر وإحباط الأجر.
قال الشاعر:

أبطلت بالمن ما قدمت من حسن ليس الكريم إذا أعطى بمنان
وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر» ثم تلى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدْنَى﴾^(١). وينشد للشافعي:

لا تحملن لمن يمنّ عليّ ك من الأنعام منّته
واختر لنفسك حظها واصبر فإن الصبر جنه
من الرجال على القلوب أشد من وقع الأسنه

ومن شروط المعروف: أن لا يحقر منه شيئاً: فإن فعل الخير أفضل من تركه. وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال: «لا يمنعكم من المعروف صغره» وقال: «اتقوا النار ولو بشق تمره»^(٢). على أن المعروف ما لا مشقة فيه على موليه وإنما هو حياة يستظل به الأذنى ويرتفق به التابع. وقال الشاعر:

ظل الفتى ينفع من دونه وماله في ظله حظاً

(١) الآية ٢٦٤ من سورة البقرة، والحديث أورده القرطبي في تفسير (٣/٣١٢).
(٢) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (١٢٦/٢): مسلم في الصحيح (الزكاة ٦٨)، البيهقي في السنن الكبرى (٥/٢٢٥)، وابن خزيمة في الصحيح (٢٤٢٨)، الدارمي في السنن (١/١٩٠).

واعلم أن الإنسان لا يستطيع أن يوسع جميع الناس معرفه ولكن ينبغي أن يعتمد به أهل الفضل والرعاية ليكون معرفه فيهم نامياً وصنيعه عندهم زاكياً. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تنفع الصنعة إلا عند ذي حسب ودين»^(١). وقال: «إذا أراد الله بعبد خيراً جعل صناعه في أهل الحفاظ»^(٢).

وقيل في مثور الحكم: لا خير في معروف إلى غير معروف. وقال بعض الحكماء: على قدر المغارس يكون اجتناء الفارس: فنظمه الشاعر فقال:

لعمرك ما المعروف في غير أهله	وفي أهله إلا كبعض المزارع
فمستودع ضاع الذي كان عنده	ومستودع ما عنده غير ضائع
فمزرعة طابت واضعف نبتها	ومزرعة كدت على كل زارع
وما الناس في شكر الصنعة عندهم	وفي كفرها إلا كبعض المزارع

أما من أهدي إليه معروفاً فقد صار به موثقاً ولزمه إن كان من أهل المكافآت أن يكافئه عليها وإلا فليقابل المعروف بنشرة ويقابل الفاعل بشكره. وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال: «من أودع معروفاً فليشره ومن نشره فقد أدّى شكره وإن كتمه فقد كفره. / وعن عائشة [١٤٩] رضي الله عنها أنها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وأنا أتمثل بهذين البيتين:

ارفع ضعيفك لا يحوبك ضعفه	يوماً فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثنى عليك فإن من	اثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال عليه السلام: «رُدِّي على قول اليهودي قاتله الله لقد أتاني جبريل عليه السلام برسالة من ربي تعالى أيما رجل صنع إلى أخيه صنعة فلم يجد لها جزاء إلا الدعاء والثناء فقد كافأه. وقيل في مثور الحكم: المعروف رق والمكافأة عتق. وقال بعض الأدباء:

شكر الإله بحسن الثناء	وشكر الولاة بصدق الولاة
وشكر النظير بحسن الجزاء	وشكر من دون بسبب العطاء

وقال بعض العلماء: من لم يشكر الأنام فاعدوه من الأنعام. ومن أشكر الناس الذي يقول:

(١) طرفه عند: ابن عساکر في تاريخ دمشق (٣٦٤/٤)، ابن عدي في الكامل (٧٧٤/٢).

(٢) أورد نحوه المتقي الهندي في كثر العمال (١٢٦٣٣).

لأشكرنك معروفاً هممت به إن اهتمامك بالمعروف معروف
ولا ألومك إن لم يمضه قدر فالشيء بالقدر المحتوم معروف

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يشكر الله من لم يشكر الناس»^(١) فإن من شكر معروف من أحسن إليه فقد أدى حق النعمة التي عليه ولم يبق عليه إلا استدامة ذلك تماماً لشكره ليكون مستحقاً للمزيد من جهة صاحب الإحسان المفيد، وصلى الله على سيدنا محمد.

فصل: في الإيثار وفضله

اعلم أن السخاء والبخل يتقسم كل واحد منهما إلى درجات، فأرفع درجات السخاء: الإيثار وهو أن يوجد بالمال مع الحاجة إليه، كما أن أخس درجات البخل أن يبخل على نفسه مع الحاجة، فيمرض ولا يتداوى، ويستهي الشيء فيمنعه البخل من قضاء شهوته، فهذا يبخل مع [١٥٠] على نفسه مع / الحاجة، وذلك يؤثر غيره على نفسه مع الحاجة، فانظر ما بين الرجلين فإن الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء، وليس بعد الإيثار درجة في السخاء، وقد أتى الله على الصحابة فقال: «وَيُؤْتُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ»^(٢).

وعن أنس قال: أهدى لبعض الصحابة رأس شاة مشوي وكان مجهوداً، فبعث به إلى رجل له فوجه به إلى بيت آخر فتداولته سبع بيوت حتى رجع إلى الأول فنزلت الآية: «وَيُؤْتُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ».

وعن حذيفة العدوي قال: انطلقت يوماً إلى اليرموك أطلب ابن عم لي ومعني شيء من الماء، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته، فإذا أنا به بين القتلى، فقلت له: أسقيك فأشار إليّ نعم، فإذا رجل يقول: آه، فأشار ابن عمي أن انطلق إليه فجتته، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت له: أسقيك فسمع آخر يقول: آه، فأشار هشام أن انطلق إليه فجتته، فإذا هو قد مات ورجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، ورجعت إلى ابن عم لي فإذا هو قد مات.

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيا رجل اشتهى شهوة وآثر على نفسه أخاه غفر له»^(٣).

(١) أطراف الحديث عند: أبي داود في السنن (٤٨١١) أحمد في المسند (٢٠٣/٢)، البيهقي في السنن الكبرى (١٨٢/٦)، الطبراني في الكبير (١٦٢/١)، المنذري في الترغيب والترهيب (٧٧/٢)، البغوي في شرح السنة (١٨٧/١٣).

(٢) سورة الحشر الآية: ٩.

(٣) قال العراقي في المعني (٢٥١/٣): رواه ابن حبان في الضعفاء، وأبو الشيخ في الثواب من حديث ابن =

وعن نافع قال: اشتهى ابن عمر سمكة بعدما نقه من مرضه، فالتمست له بالمدينة فلم توجد إلا بعد كذا وكذا، فاشترت بدرهم ونصف وشويت وجيء بها على رغيف فوضعت بين يديه فقام السائل بالباب فقال: لفيها يرغيفها فادفعها إليه. فقال له الغلام: أصلحك الله قد اشتيتها منذ كذا وكذا. فقال: لفيها فادفعها إليه.

قال: ففعل الغلام فقال للسائل هل لك أن تأخذ درهماً وتردها؟ قال: نعم. فأخذها منه ووضعها بين يديه. فقال: لفيها وادفعها إليه ولا تأخذ منه الدرهم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول الحديث المتقدم.

/ وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متواليات حتى [١٥١] فارق الدنيا ولو شئنا لشبعنا ولكننا كنا نؤثر على أنفسنا^(١). قال: ونزل ضيف برسول ﷺ فلم يجد عند أهله شيئاً فذهب به رجل من الأنصار إلى أهله فوضع بين يديه الطعام، وأمر امرأته بإطفاء السراج، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل حتى أكل الضيف الطعام، فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ: «لقد عجب الله من صنعكم إلى ضيفكم»^(٢). ويقال أيضاً: فيه نزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾^(٣).

فالجود من أخلاق الأنبياء، والإيثار أعلى درجات السخاء، وكان ذلك من دأب رسول الله ﷺ حتى سماه الله عظيماً فقال: ﴿وَأِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٤). وعن سهل بن عبد الله قال: إن موسى عليه السلام قال: يا رب أرني بعض درجات محمد وأمه، قال: يا موسى إنك لن تطيق ذلك، لكن أريك منزلة من منازل جليلة عظيمة فضلتها بها عليك وعلى جميع خلقي. قال: وكشف له عن ملكوت السماء ونظر إلى منزلة كادت تلتف نفسه من أنوارها.

قال: يا رب بماذا بلغته به هذه الكرامة؟ قال: بخلق أخصصته به من بينهم هو الإيثار، يا موسى لا يأتي أحد منهم قد عمل به وقتاً من عمره إلا استحييت من محاسبته ويؤأته من جتي

= عمر بسند ضعيف.

(١) رواه البيهقي في الشعب بلفظ: ولكنه كان يؤثر على نفسه، وأول الحديث عند مسلم بلفظ ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خبز بُر حتى مضى لسبيله، وللشيخين: ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاث ليال تباعاً حتى قبض، زاد مسلم من طعام. قاله العراقي في المغني (٢٥٢/٣).

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة. المصدر السابق.

(٣) سورة الحشر الآية: ٩.

(٤) سورة القلم الآية: ٤.

حيث يشاء. وقيل: خرج عبد الله بن جعفر - وهو أحد الأجواد - إلى ضيعة له فنزل على حائط قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه إذ أوتي الغلام بقوته ثلاثة أقراص ودخل الحائط كلب فدنى من الغلام فرمى إليه بقرص فأكله، ثم رمى إليه بالثاني والثالث: فأكلهما، وعبد الله ينظر. فقال عبد الله: يا غلام كم قوتك كل يوم؟

قال: ما رأيت. قال: فلم آثرت هذا الكلب؟ قال: ما هي بأرض كلاب إنه جائز مسافر [١٥٢] بعيد جائع فكرهت رده. قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: / أطوى يومي هذا. قال عبد الله: ألام على السخاء! فهذا! أسخى مني فاشتري الغلام والحائط وما فيه من الآلات فأعتق الغلام فوهبه له.

وعن بعض الصوفية قال: كنا بطرسوس، فاجتمعنا جماعة وخرجنا إلى باب الجهاد، فاتبعنا كلب من البلد، فلما بلغنا باب الجهاد إذ بدابة مية، فصعدنا إلى موضع خال فقعدنا، فلما نظر الكلب إلى المية رجع إلى البلد، ثم رجع بعد ساعة ومعه مقدار عشرين كلباً، فجاء إلى تلك المية فقعدنا ناحية ووقعت الكلاب بالمية حتى أكلتها وذلك الكلب ينظر، ثم رجعت الكلاب إلى البلد، فقام ذلك الكلب إلى تلك العظام فأكل ما بقي على العظم قليلاً ثم انصرف.

ومن كتاب سراج الملوك قال: ويروى أن إبراهيم بن أدهم^(١) قال لشقيق الزاهد علام بنيتم أمركم هذا؟ قال: إذا وجدنا أكلنا وإذا لم نجد صبرنا. قال إبراهيم: هكذا تعمل الكلاب ببلخ إذا وجدت أكلت وإن منعت صبرت، قال: نحن إذا وجدنا آثرنا وإن لم نجد صبرنا. ويروى أن امرأة من المتعبدات قالت ليحيى بن هلال وهو في جماعة من أصحابه: ما السخاء عندكم في الدنيا؟ قال: البذل والإيثار. قالت: فما السخاء في الدين؟ قال: أن تعبد الله سبحانه سخية به نفسك غير مكروهة. قالت: أفتريدون على ذلك أجراً؟ قال: نعم لأن الله وعد على الحسنة بعشر أمثالها. قالت: فإذا أعطيتم واحدة وأخذتم عشرأ فبأي شيء سخيتم؟ وإنما السخاء أن تعبدوا الله متلذذين بطاعته غير كارهين، لا تريدون بذلك أجراً، ألا تستحيون أن

(١) الإمام العارف سيد الزهاد أبو إسحاق العجلي، وقيل: التميمي، الخراساني، البلخي، نزيل الشام، مولده غير حدود المنة.. كان لإبراهيم بن أدهم من الأشراف، وكان أبوه كثير المال والخدم والمراكب والجنائب والبراة (أي الصقور) فيناب إبراهيم في الصيد على فرسه يركضه، إذ هو يصوت من فوقه: يا إبراهيم، ما هذا العيب ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ (المؤمنون: ١١٥) اتق الله، عليك الزاد ليوم الفاقة، فنزل عن دابته ورفض الدنيا.. وتوفي سنة اثنين وستين ومئة وقبره يُزار، وترجمته في تاريخ دمشق في ثلاث وثلاثين ورقة. سير أعلام النبلاء ٧/٣٨٧.

يطلع الله على قلوبكم فيعلم منها أنها تريد شيئاً بشيء. ويقال: السخاء في الدين أن تسخو بنفسك وتلتفها بإراقة دمك لله تعالى سماحة من غير كراهة لا تريد بذلك ثواباً عاجلاً ولا أجلاً حتى يفعل الله بك ما لا تحسن أن تختاره لنفسك والله أعلم.

[١٥٣]

الفصل السادس: / في الاستعجال

قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَانُوا مُشْرِكِينَ﴾ (١). وقال أيضاً: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (٢). قيل: من طين، وقيل: هو من المقلوب تقديره: خلق العجل من الإنسان.

وعن حاتم الأصم أنه قال: كان يقال: العجلة من الشيطان إلا في خمسة فإنها من سنة رسول الله ﷺ وهي: إطعام الضيف إذا دخل، وتجهيز الميت إذا مات، وتزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدين إذا وجب، والتوبة من الذنب.

وفي الخبر: أن نوحاً عليه السلام قال لإبليس - لعنه الله - وذلك أن الله أوحى إلى نوح عليه السلام أن كلمه فأني سأنطقه بحجتي عليه فقال: أي عدو الله، أي أخلاق بني آدم أعون لك ولجنودك على إضلاله؟ فقال إبليس: نعم الخبير سألت - إذا وجدنا ابن آدم شحيحاً أو حريصاً أو حسوذاً أو جباراً أو عجولاً تلتقفناه، فإن اجتمعت لنا فيه هذه الأخلاق سميناها فينا: شيطاناً مريداً رجيماً، وسأخبرك عن هذه الأخلاق بما تعرف به الحق: ألم تعلم أن الله أسكن أباك آدم الجنة، ثم فوضها إليه بجميع ما فيها وحرم عليه شجرة واحدة وحمله الحرص على تناولها فخرج بالحرص من جميع الجنة؟ ألم تعلم أن الله تعالى عرضنا للسجود لآدم فأدركني الحسد والبغي فخرجت بذلك من ملكوت السموات وصرت شيطاناً لعيناً؟ ألم تعلم أن ابن آدم قابيل شحّ بأخته على أخيه فحملة الشح على أن قتل أخاه فصره إلى العقوق وإلى النار؟ ألم تعلم إنما هلك من هلك من قومك بالتجبر في الأرض والتكبر فصاروا بذلك إلى النار؟ ألم تعلم أن العجلة والحدة حلاك على أن دعوت الله على ابنك فغيرت دعوتك لونه والوان أولاده من بعده إلى يوم القيامة؟ والله أعلم. واعلم أن العجلة تبدو منها أربع آفات:

أحدها: أن العابد ربما يقصد منزلة في الخير فيجتهد وربما يستعجل في إدراكها وليس

ذلك بوقتها، فإما / أن يفتر ويترك الاجتهاد ويأس منها فيحرم تلك المنزلة، وإما أن يغلو في [١٥٤]

(١) سورة الإسراء الآية: ١١.

(٢) سورة الأنبياء الآية: ٣٧.

الجهد، وإتباع النفس فيقطع عن تلك المنزلة، فهو بين إفراط وتفریط وكلاهما نتيجة الاستعجال. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»^(١). وقال: «شر السير الحفحة». وهو الإسراع، وفي المثل السائر: إن لم تستجل تصل: قال الشاعر:

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

والثانية: أن تكون للعابد حاجة فيدعو الله تعالى، ويكثر الدعاء ويجد، فربما استعجل الإجابة قبل وقتها فلا يجدها فيفتر ويسأم ويترك الدعاء ويُحرم حاجته.

الثالثة: أن يظلمه إنسان فيغيظه فيستعجل في الدعاء عليه، كالذي قدمنا من دعاء نوح عليه السلام على ابنه حام، فربما يهلك مسلم بسببه، أو يتجاوز الحد في الدعاء عليه فيقع في معصية.

الرابعة: أن أصل العبادة وملاكها الورع، وأصل الورع النظر والبحث التام في كل شيء معرض للمتورع من أكل أو شرب أو لبس أو كلام أو فعل، فإذا كان الرجل مستعجلاً في الأمور غير متأمل ولا مثبت لم يقع توقف ونظر في الأمور كما ينبغي فيقع في الحرام والشبه والخطأ والغلط فيفوته الورع، وأي خير في عبادة بلا ورع، ولذلك قيل للمؤمن وقاف، والمنافق وقاب، وفي الحديث: «المؤمن: كئيس فطن، حذر مثبت، وقاف لا يعجل، عالم ورع، والمنافق: همزة لمزة حطمة، كحاطب الليل، لا يبالي من أين اكتسب وفيما انفق»^(٢) وإذا كان في العجلة الانقطاع عن منازل الخير، وحرمان الحاجات، وهلاك المسلمين وهلاكه، وخطر فوات الورع الذي هو رأس المال فحقيق على الإنسان أن يهتم لها بالإزالة وإصلاح النفس منها.

وحقيقة العجلة: هي المعنى الراتب في القلب، والباعث على الإقدام على الأمر، فأول [١٥٥] / خاطر دون التوقف فيه. والاستعجال: إتباع ذلك والعمل به، وضدها الإناءة: وهي المعنى الراتب في القلب، الباعث على الاحتياط في الأمور والنظر فيها، والتأني في اتباعها والعمل بها.

(١) رواه أحمد من حديث أنس، والبيهقي من حديث جابر. قاله العراقي في المغني (٧٧/٤).
 (٢) أطراف الحديث عند: العجلوني في كشف الخفاء (٤٥٥/٢)، ابن حجر في الفتح (٥٣٠/١٠)، الألباني في الضعيفة (٧٦٠).

وأما التوقف: فضده التعسف، قال بعض العلماء: الفرق بين التوقف، والثأني: أن التوقف قبل: الدخول في الأمر حتى يستبين له رشده. والثأني: بعد الدخول فيه حتى يعطي الكل جزءا حقه. ثم مقدمات الإناء ذكر وجوه الخطر في الأمور التي تعترض الإنسان وضروب الآفات المخوفة فيها، وذكر ما في النظر والتثبت من السلامة وما في التعسف والاستعجال من الندامة.

فصل

اعلم أن الحلم والرفق والإناء خصال محمودة في الإنسان، وأظنها نتيجة حسن الخلق، أما الحلم فحده ضبط النفس عند هيجان الغضب، والتحمل تكلف ذلك، وقد قيل للأحفف بن قيس^(١): أنت حلِيم. قال: لا إنما أنا أتحملم. فقيل له: من أين تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم. قيل: وما كان من حلمه؟ قال: كان ذات يوم في مجلس متقلداً سيفه عاقداً حيوته وهو يحدث جلسائه، إذ جيء بأحد بنيه مقتولاً، وبابن أخيه مكترفاً، فمضى على حديثه حتى أتمه ثم التفت إلى أحد بنيه فقال: ما هذا؟ قال: هذا ابنك قتله ابن أخيك. قال: فوالله ما تغير له لون ولا تلجلج له لسان ولا حلّ حيوته، فنظر إلى ابن أخيه فقال: رميت سهمك في جسمك، وقطعت يدك بيدك. ثم قال لابنه: اطلق كتاب ابن عمك، وادفن أخاك، وادفع لأمه مائة ناقة، فإنها غريبة فينا مسكينة. ثم أنشأ يقول:

أقول للنفس تأسياً وتعزیه إحدى يدي أصابتني فلم نزد
كلاهما خلف من فقد صاحبه هذا أخي حيث أنعوه وذو ولد

وقد تقدم في فضل الحلم ما يكفي. وأما الرفق: فضده العنف والخرق، ونتيجة الرفق:

الإناء، والرفق واللين نتيجة حسن الخلق ومعنى حسن الخلق / أن يكون الإنسان سهل [١٥٦] العريكة لين الجانب، طلق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة. وأما الأناة: فقد تقدم معناها، قال الشاعر:

(١) الأمير الكبير العالم النبيل أبو بحر التميمي أحد من يضرب بحلمه وسؤدده المثل. . كان من قواد جيش علي يوم صفين. . قال قتادة عن الحسن. ما رأيت شريف قوم كان أفضل من الأحف وقيل: كانت عامة صلاة الأحف بالليل، وكان يضع أصبعه على المصباح، ثم يقول: حَسَّ (كلمة تقال عند الأكم) ويقول: ما حملك يا أحف على أن صنعت كذا يوم كذا؟ عن الأحف: عجبت لمن يجري مجرى البول مرتين كيف يتكره؟! قال القسوي: مات الأحف سنة سبع وستين، وقال غيره: توفي سنة إحدى وسبعين، وقال جماعة: مات في إمره مصعب بن الزبير على العراق رحمه الله، قاله الذهبي في سير أعلام النبلاء (٨٦/٤: ٩٧).

إناءةً وحلماً وانتظاراً بهم غداً فما أنا بالواتي وإلا الصرع العُمر

فصل: في فضيلة الرفق

اعلم أن الرفق في الأمور ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق، ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب، وقوة الشهوة وحفظهما على حد الاعتدال، ولأجل ذلك اتى رسول الله ﷺ على الرفق وبالغ فيه فقال: «يا عائشة، أنه من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من خير الدنيا والآخرة، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من خير الدنيا والآخرة»^(١).

وعنه عليه السلام أنه قال: «إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق»^(٢) وقال: «إن الله ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخرق، وإذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق، وما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا حرموا [محبته الله]»^(٣). وقال عليه السلام: «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف»^(٤).

وقال عليه السلام: «يا عائشة أرفقي، فإن الله تعالى إذا أراد بأهل بيت خيراً يَدُلِّهم على باب الرفق»^(٥). وعنه عليه السلام: «أئماً والى فلان ورفق رفق الله به يوم القيامة»^(٦). وقال عليه السلام: «أتلدرون من يحرم على النار؟ كل لين سهل قريب»^(٧). وقال عليه السلام: «الرفق يمن والخرق شؤم»^(٨) وقال: «التأني من الله، والعجلة من الشيطان»^(٩) ويُنبذ:

(١) رواه أحمد، والعقيلي في الضعفاء في ترجمة عبد الرحمن بن أبي بكر المليكي وضعفه، عن القاسم عن عائشة، وفي الصحيحين: من حديثهما: «يا عائشة أن الله يحب الرفق في الأمر كله» قاله العراقي في المعني (١٨١/٣).

(٢) رواه أحمد بسند جيد والبيهقي في الشعب بسند ضعيف من حديث عائشة. المصدر السابق.

(٣) ما بين المعقوفين من إحياء علوم الدين (١٨١/٣) وعلق العراقي على الحديث بهامش فقال: رواه الطبراني في الكبير من حديث جرير بإسناد ضعيف.

(٤) رواه مسلم من حديث عائشة: العراقي في المعني (١٨١/٣).

(٥) رواه أحمد من حديث عائشة وفيه انقطاع، ولأبي داود: يا عائشة أرفقي: المصدر السابق.

(٦) رواه مسلم من حديث عائشة، وفي حديث فيه: ومن ولى من أمر أمي شيئاً فرفق بهم فارفق به. المصدر السابق.

(٧) رواه الترمذي من حديث ابن مسعود. المصدر السابق.

(٨) رواه الطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود والبيهقي في الشعب من حديث عائشة وكلاهما ضعيف. المصدر السابق.

(٩) رواه أبو يعلى من حديث أنس، ورواه الترمذي وحسنه من حديث سهل ابن سعد بلفظ الأناة من الله. المصدر السابق.

الرفق يمن والأناة سعادة والطيش أبح بالرجال وأخرق
لو سار ألف مدجج في حاجة لم يقضها إلا الذي يترفق

ويروى عنه عليه السلام أن رجلاً أتاه فقال: يا رسول الله إن الله قد بارك لجميع المسلمين فيك فاخصني منك بخير. فقال: «الحمد لله» مرتين أو ثلاثاً. ثم أقبل عليه فقال: «هل أنت مستوصي» مرتين أو ثلاثاً. / قال: نعم. قال: «إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته، فإن كان [١٥٧] رشداً فامضه، وإن كان سوى ذلك فاتمه»^(١). وعن عائشة أنها كانت معه عليه السلام في سفر على بعير صعب، فجعلت تصرفه يمناً وشمالاً فقال: «يا عائشة عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه ولا يتزع من شيء إلا شأنه»^(٢).

وفي الخبر موقوفاً مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل دليله، والعمل قيمته، والرفق والده، والبر واللين أخواه، والصبر أمير جنوده»^(٣). الآثار: قال بعض العلماء لأصحابه: أتدرون ما الرفق؟ قالوا: قل.

قال: قد قيل أن تضع الأمور مواضعها، الشدة في موضعها، واللين في موضعه، والسيف في موضعه، والسوط في موضعه. هذه إشارة إلى أنه لا بد من مزج الغلظة باللين، والفظافة بالرفق. كما روي عن لقمان أنه قال لابنه: يا بني لا تكن حلواً عند السفهاء فيبتلعوك، ولا مراً عند الفقهاء فيرفضوك. ويُشدد:

وضع الندى في موضع السيف بالعلی مضر كوضع السيف في موضع الندى

فالمحمود وسط بين العنف واللين كما في سائر الأخلاق، ولكن لما كانت الطباع إلى العنف أميل كانت الحاجة إلى ترغيبهم في جانب الرفق أكثر.

وعن عمرو بن العاص أنه قال لابنه عبد الله: ما الرفق؟ قال: أن تكون ذا أناة، وتلاين الولاة. قال: فما الخرق؟ قال: معادة إمامك، ومناوأة من يقدر على ضرك.

(١) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق من حديث أبي جعفر هو المسمى: عبد الله بن مسور الهامشي ضعيف جداً، ولأبي نعيم في كتاب الإيجاز من رواية إسماعيل الأنصاري عن أبيه عن جده: إذا هممت بأمر فاجلس فتدبر عاقبته. وإسناده ضعيف. قاله العراقي في المغني (٣/ ١٨١: ١٨٢).

(٢) رواه مسلم العراقي في المغني (٣/ ١٨٢).

(٣) رواه أبو الشيخ في كتاب الثواب، وفضائل الأعمال من حديث أنس بسند ضعيف، ورواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث أبي الدرداء وأبي هريرة وكلاهما ضعيف. المصدر السابق.

ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: بلغه أن جماعة من رعيته اشتكوا من عماله، فأمرهم أن يوافوه، فلما أتوه، قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيتها الرعية، إن لنا عليكم حق النصيحة بالغيب، والمعاونة على الخير، أيتها الرعاة: إن للرعية عليكم حقاً، واعلموا أنه لا حلم أحب إلى الله ولا أعظم من حلم إمام ورفقه، وليس جهل أبغض إلى الله ولا أعم من جهل إمام وخرقه، واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن / بين ظهرانيه يرزق العافية ممن هو دونه. [١٥٨]

وقال وهب بن منبه: الرفق من الحلم. وقال بعض السلف: ما أحسن الإيمان يزينه العلم وما أحسن العمل يزينه الرفق، وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى عمل. وروي أن عمرو بن العاص كتب إلى معاوية يعاتبه في التأني فكتب إليه معاوية: أما بعد فإن التفهم في الخير زيادة رشد، وأن الرشيد من رشد عن العجلة، وأن الخائب من خاب عن الأناة، وأن المثبت^(١) مصيب أو كاد أن يكون مصيباً، وإن العاجل مخطيء أو كاد أن يكون مخطئاً، وإن من لم يفتعه الرفق يضره الخرق، ومن لا تنفعه التجارب لا يدرك المعالي. فأجابه عمرو: اعلم أنه وإن حث الشرع على الرفق فإن العنف في محله حسن أيضاً. وقد روي عن ابن عون الأنصاري، أنه قال: ما تكلم الناس بكلمة صعبة إلا وإلى جانبها كلمة تجري مجراها. وقال أبو حمزة الكوفي: لا تتخذ من الخدم إلا ما لا بد لك منه فإن مع كل إنسان شيطاناً واعلم أنه لا يعطونك بالشدة شيئاً إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه.

فهذا ثناء أهل العلم على الرفق؛ وذلك لأنه محمود ومفيد في أكثر الأحوال، وأغلب الأمور، والحاجة إلى العنف قد تقع ولكن على الندور، وإنما الكامل من يميز موضع الرفق من مواضع العنف ويستعمل كلاً في موضعه، وإن أشكل عليه بعض الوقائع فليكن ميله إلى الرفق، فإن النجاح صعب في الأكثر^(٢)، والله أعلم.

فصل: في حسن الخلق

قال الله لنبيه عليه السلام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٣). وعن عبد الله بن عمر قال: قلت لعائشة رضي الله عنها صفني لي خلق رسول الله، فقالت لي: أما تقرأ القرآن؟ كان خلقه القرآن. وحسبك بهذا الاسم منقبة بالرسول وتعريفاً له بحسن الخلق، إذ القرآن يجمع كل

(١) في الأصل: القيث. والتصويب من إحياء علوم الدين (٣/١٨٢).

(٢) راجع في معظم الآثار الواردة هنا إحياء علوم الدين (٣/١٨١: ١٨٢).

(٣) سورة القلم الآية: ٤.

فضيلة وينهى عن كل نقيصة ورذيلة، قال الله تعالى: ﴿خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(١). قال عليه السلام: / «ما هذا يا جبريل؟».

[١٥٩]

قال: إن الله يأمرك أن تصل من قطعك وتعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتحسن إلى من أساء إليك. فانظر أين أخلاق الخاصة اليوم فضلاً عن العامة، فإن أحدهم ليقطع من وصله، ويحرم من أعطاه، ويظلم من سالمه، ويغضب على التهمة. وإنما اقتصر على هذه الكلمة لأنها أصل الفضائل وينبوع المناقب: لأن في أخذ العفو صلة القاطع، والصفح عن الظالم وإعطاء المانع.

وفي الأمر بالمعروف تقوى الله، وصلة الرحم، وصون اللسان، وغض الطرف عن المحرمات، وفي تقوى الله تدخل جميع آداب الشرع فرضها ونقلها، وفي الإعراض عن الجاهلين الصفع والحلم وتنزيه النفس عن مجازاة السفية وممارة اللجوج، فهذه الأصول الثلاثة تتضمن محاسن الشرع نصاً وتنبهاً، وقال عليه السلام: «بعثت لأتمم محاسن الأخلاق»^(٢). وعنه أيضاً سئل: أيُّ المؤمنين أفضل إيماناً؟ قال: «أحسنهم خلقاً»^(٣).

وقال «إن الله اختار لكم الإسلام ديناً فأكرموه بحسن الخلق والسخاء فإنه لا يكمل إلاّ بهما». قال عليه السلام: «أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة الخلق الحسن»^(٤) وقال معاذ: قال لي رسول الله ﷺ: «حسن خلقك للناس».

وقال عليه السلام: «يا أبا هريرة عليك بحسن الخلق»^(٥) وقال رجل: يا رسول الله أوصني. قال: «اتق الله حيثما كنت» قال: زدني. قال: «خالق الناس بخلق حسن»^(٦). قال عليه السلام: «أحبكم إليّ أحسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون»^(٧).

(١) سورة الأعراف الآية: ١٩٩.

(٢) رواه أحمد والحاكم، والبيهقي من حديث أبي هريرة (المعنى ٤٨/٣).

(٣) رواه أبو داود والترمذي، والنسائي، والحاكم من حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح بلفظ أكمل المؤمنين وللطبراني من حديث أبي أمامة أفضلكم إيماناً أحسنكم خلقاً.

(٤) رواه أبو داود، والترمذي وصححه من حديث أبي الدرداء. المصدر السابق.

(٥) رواه البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن أبي هريرة ولم يسمع منه. قاله العراقي في المعنى في ما هو أتم منه (١٥٥/٢).

(٦) رواه الترمذي من حديث أبي ذر وقال حسن صحيح. المصدر السابق.

(٧) قال العراقي عن نحوه في المصدر السابق: رواه الطبراني في مكارم الأخلاق من حديث جابر بسند ضعيف.

وقال: «حسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار». وقال الأحنف بن قيس: ألا أخبركم بأدوى الداء؟ قالوا: بلى. قال: الخلق الديني والسؤال البديء. وقال بعض البلغاء: من ساء خلقه ضاق رزقه. وعلّة هذا القول ظاهرة.

وقال بعض البلغاء: الحسن الخلق من نفسه في راحة والناس منه في سلامة، والسيء الخلق / الناس منه في بلاء وهو من نفسه في عناء. وقال بعض الأدباء: عاشر أهلِكَ بأحسن أخلاقك فإن السواء فيهم قليل. وقال عليه السلام: «ما حسن الله خلق امرئٍ وخلقه فطعمه النار»^(١) ويُشَد:

إذا لم تتسع أخلاق قوم يضيّق بهم الفسيح من البلاد
إذا ما المرء لم يخلق ليبياً فليس اللب عن قدم الولاد

وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمَلَىٰ خُلُقِي عَظِيمٌ﴾^(٢). أنه لا يُخَاصِم ولا يُخَاصِم من شدة معرفته بالله عز وجل. وقيل: معناه لم يؤثر فيك جفاء الخلق بعد معرفتك بالخلق. وقيل: حسن الخلق استصغار ما منك واستعظام ما إليك، وقيل: حسن الخلق تحمّل أثقال الخلق، وقيل: هو كف الأذى واحتمال الجور، وقيل: حسن الخلق احتمال المكروه بحسن المداراة. وقيل: حسن الخلق قبول ما يرد عليك من جفاء الخلق، وقضاء الحق بلا ضجر ولا ملق.

وقال بعض الحكماء: في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق، فإذا حسنت أخلاق الإنسان كثر مصافوه وقل معادوه، فسهلت عليه الأمور الصعاب، ولانت له القلوب الغضاب. وفي الحديث عنه عليه السلام أنه قال: «[إنكم] لن تسعوا الناس بأموالكم فاسعوها ببسط الوجوه وحسن الخلق»^(٣). وهذا الفصل واسع جداً تركت بعضه، واختصرت مخافة التطويل والله أعلم.

الباب الثاني في اللسان

اعلم أن اللسان ترجمان القلب يعبر عن مستودعات ضمائره، ويخبر عن مكونات

(١) رواه ابن عدي والطبراني في مكارم الأخلاق في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة قال ابن عدي في إسناده بعض التكررة. قاله العراقي في المعنى (١٥٥/٣).

(٢) سورة القلم الآية: ٤.

(٣) ما بين المعقوفين من إحياء علوم الدين (٤٩/٣) وعلق عليه العراقي بهامشه بقوله: رواه البزار وأبو يعلى والطبراني في مكارم الأخلاق من حديث أبي هريرة، وبعض طرق البزار رجاله ثقات.

سرايره، فيحق على العاقل أن يحذر من زلله بالإمساك عنه أو بالإقلال منه؛ لأن اللسان أشد الأعضاء جماحاً وطغياناً، وأكثرها فساداً وعدواناً.

وروي أن بعض الصحابة قال: يا رسول الله ما أكثر ما تخاف عليّ؟ فأخذ عليه السلام بلسان نفسه ثم قال: «هذا». وقال عليه السلام: «لا يستكمل العبد الإيمان حتى يخزن من لسانه».

/ وروي أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يستقيم أحدكم حتى يستقيم دينه، ولا يستقيم دينه حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه»^(١) وعنه عليه السلام أنه قال: «أفضل العبادات الصمت وحسن الخلق» وقال عليه السلام: «رحم الله من قال خيراً فسلم أو سكت عن شر فسلم»^(٢). وقال لمعاذ: «يا معاذ أنت سالم ما سكت فإذا تكلمت فلك أو عليك».

وقال بعض العلماء: وجدت نفسي تحتل مؤنة الصوم في الحر الشديد بالبصرة، ولا تحتل ترك كلمة لا تعنيها. وعن أبي هريرة أنه قال: من لم ير أن كلامه من عمله، وأن خلقه من دينه هلك وهو لا يشعر.

قال: بعض العلماء: سعد من لسانه صموت، وطعمه قوت. وعن ابن مسعود رحمه الله أنه قال: ما شيء أحق بطول. سجن من اللسان.

وعن ابن عمر أنه قال: من عد كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه. وعن ابن عباس رحمه الله أنه رثي بين الركن والمقام قائماً أخذاً بثمرة لسانه وهو يقول: ويحك قل خيراً تغنم واسكت عن شر تسلم. فقيل له: يا ابن عباس: ما لك أخذاً بثمرة لسانك فقال: بلغني أن العبد ليس عليه شيء من جسده بأحق منه على لسانه يوم القيامة. فعلى الإنسان أن يحتفظ منه جداً فليذكر في ذلك خمسة أصول:

أحدهما: ما روي عن ابن سعيد الخلري أنه قال: إذا أصبح ابن آدم قالت أعضاؤه كلها للسانه: نناشدك الله فينا، فإنك إذا استقممت استقمنا، وإن اعوججت أعوججتنا.

- (١) رواه الطبراني بنحوه في الكبير (٢٨٠/١٠)، وقال العراقي في المغني (١٠٦/٣) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت والخرائطي في مكارم الأخلاق بسند فيه ضعف.
- (٢) أطرافه بنحوه عند: العجلوني في كشف الخفا (٥١٤/١)، السيوطي في الدرر المشتهرة في الأحاديث المشتهرة (٨٩).

قال: المعنى في ذلك أن نطق اللسان يؤثر في أعضاء الإنسان بالتوفيق والخذلان نحو ما روي عن مالك بن دينار أنه قال: إذا رأيت قسوة في قلبك ووهناً في بدنك وحرماناً في رزقك فاعلم أنك قد تكلمت فيما لا يعينك.

الثاني: حفظ الوقت لأن أكثر ما يتكلم به الإنسان من غير ذكر الله تعالى أقله أن يكون لغواً يضيع الوقت به. وذكر عن حسان بن أبي سنان أنه مرَّ على غرفة فقال: مذ كم بنيت هذه الغرفة؟ ثم أقبل على نفسه فقال: يا نفس الغرور تستلين عما لا يعينك / فعاقبها بصوم سنة. وفي الخبر: أن رجلاً قتل في المعركة فقال قائل: هنيئاً له بالجنة، فقال عليه السلام: «فما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه»^(١). ولقد أحسن القائل:

أغنم ركعتين زلفى إلى الله إذا كنت مستريحاً
وإذا ما هممت بالنطق في الباطل فاجعل مكانه تسيحاً

الأصل الثالث: حفظاً لأعمال الصالحات فإن من يُكثر الكلام لا بد له أن يقع في غيبة المسلمين، والغيبة هي الصاعقة المهلكة للطاعات كما روي: أن مثل من يغتاب الناس مثل من نصب منجيقاً يرمي به حسناته شرقاً وغرباً ويميناً وشمالاً.

الأصل الرابع: السلامة من آفات الدنيا. وقال بعض السلف: لا تتكلم بلسانك ما تكسر به أسنانك وقال بعض الحكماء: مقتل الرجل بين فكيه. قال الشاعر:

أيا رب السنة كالسيوف تقطع أعناق أصحابها
وما يتقص من سباب الرجال يزد في نُهاها وألبابها

وقال بعض البلغاء: كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله، فاقصره على الجميل، واقصر منه على القليل، / وإياك وما يسخط سلطانك، أو يوحش إخوانك فمن أسخط سلطانه تعرض للمنية، ومن أوحش إخوانه تبرأ من الحرية. وقال بعضهم: لا تبسطن لسانك فيفسد عليك شأنك. ويُشد لابن مطيع:

لسان المرء ليث في كمين إذا خلاً عليه له أغاره
فسسه عن الخنا بلجام صمت تكن لك في بليته ستاره

(١) أطراف الحديث عند: العنترى في الترغيب والترهيب (٥٤١/٣)، الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٠٣)، وابن عبد البر في التمهيد (٢٢٨/١٠)، السيوطي في الدر المنثور (١٩٦/٦)، والقرطبي في التفسير (١٨٨/٥).

الأصل الخامس: ذكر آفات الآخرة وعاقبتها وقد قال عليه السلام لمعاذ: «وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم»^(١). وفي حديث آخر: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة فيهوى بها في نار جهنم سبعين خريفاً»^(٢).

[١٦٣]

فإذا تحقق العبد هذه الأصول وعلم أن لسانه إنما خلق لذكر الله تعالى وتلاوة كتابه وإرشاد الخلق إلى طريقه، ولإظهار ما في ضميره من حاجات نفسه ديناً ودنيا فليستعمله في مقتضى هذه المعاني، وإلا فقد كفر نعمة الله فيه واستحق العقوبة بمساوته، والواجب عليه أن يحفظ لسانه من كل لفظ قبيح ولا سيما أشياء كأصول وسنذكر ذلك في فصول.

الفصل الأول: في الكذب

فليحفظ منه اللسان جهده لا في جد ولا في هزل؛ لأنه جماع كل شر، وأصل كل ذم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَاذِبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾^(٣) الآية. وقال تعالى: ﴿يُكْمُ نَبْتِهَلٍ فَتَجْعَلُ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(٤). وعن النبي ﷺ أنه قال: «الكذب فاتحة الكفر».

وقال: «من كذب وأصرّ فهو في النار خالداً مخلداً». أو قال عليه السلام: «الكذب ريبة والصدق طمأنينة»^(٥). وعن صفوان بن سليم أنه قال: قيل يا رسول الله أف يكون المؤمن جباناً؟ قال: «نعم» قيل: أف يكون بخيلاً؟ قال: «نعم». قيل: أف يكون كذاباً؟ قال: «لا».

وقال بعض الحكماء: الكذاب لص؛ لأن اللص يسرق مالك، والكذاب يسرق عقلك. وقال بعض الحكماء: الخرس خير من الكذب وصدق اللسان أول السعادة. وقال بعض الشعراء:

وما شيء إذا فكرت فيه بأذهب للمروءة والجمال
من الكذب الذي لا خير فيه وأذهب بالبهاء من الرجال
وعن النبي ﷺ أنه قال: «تحروا الصدق وإن رأيتم فيه الهلكة ففيه النجاة، وتجنبوا

- (١) أطراف الحديث عند: الترمذي في الجامع الصحيح (٢٦١٦)، وابن ماجه في السنن (٣٧٩٣)، وأحمد في المسند (٢٣٦/٥، ٢٣٧)، المنذري في الترغيب والترهيب (٥٢٩/٣، ٥٣٠).
- (٢) أطراف نحو هذا الحديث عند: الترمذي في الجامع الصحيح (٢٣١٤) أحمد في المسند (٢٣٦/٢)، المنذري في الترغيب والترهيب (٥٣٦/٣)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٥/٨)، (٢٩٧/١٠).
- (٣) سورة النحل الآية: ١٠٥.
- (٤) سورة آل عمران الآية: ٦١.
- (٥) أطرافه عند: الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٨٥/١٠)، السيوطي في الدر المنثور (٥٨٩/٣).

الكذب وإن رأيتم فيه النجاة فإن فيه الهلكة^(١). وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لأن يضعني الصدق وقلّ ما يفعل أحب إليّ من أن يرفعي الكذب. وقال بعض العلماء: ليكن مرجعك إلى الحق، ومفزعك إلى الصدق، والحق أقوى معين، والصدق أفضل قرين. ويُشد:

عَوَدَ لسانك صدق القول تحظ به إن اللسان لما عَوَدَ منقاد
موكل بتقاضى ما مننت له في الخير والشر فانظر كيف ترتاد

[١٦٤] / وفي مثور الحكم: من قلّ صدقة قلّ صديقه. واعلم أن للكذاب قبل خبرته أمارات دالة عليه:

منها: أنه إذا لقتته الحديث تلقته، ولم يكن بين ما تلقته وبين ما أورده فرق عنده.
ومنها: أنك إذا أشككته فيه تشكك حتى كاد أن يرجع، ولولاك ما تخالجه فيه شك.
ومنها: أنك إذا أوردت عليه قوله حصر وارتبك، ولم يكن عنده برهان الصدق. ولذلك قال عليّ: الكذاب كالسراب.

ومنها: ما يظهر عليه من ريبة الكاذب وذلة المتهم لأن هذه الأمور لا يمكن للإنسان دفعها عن نفسه لما في الطبع من آثارها. ولذلك قالت الحكماء: العينان أنمّ من اللسان. وقال بعض العلماء: الوجه مرآيا تريك أسرار البرايا. ويُشد:

تريك أعينهم ما في صدورهم إن العيون يود سرها النظر
وإذا اتهم بالكذب نسبت إليه شوارد الكذب المجهولة وزيادات معقولة حتى يصير الكاذب مكذوباً عليه. وقال بعض الشعراء:

حسب الكذوب من البلية بعض ما يحكى عليه
ما إن سمعت بكذبٍ من غيره نسبت إليه

وعن محمد بن مسلم أنه قال: ما كان شيء أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب وما اطلع عليه السلام على كذبه من أحد إلا خرجت من صدره حتى يحدث الآخر توبة وكان يقول: علة الكذوب أبيع علة وزلة المرتقى أشد زلة. وقال ميمون: من عرف بالصدق جاز كذبه، ومن عرف بالكذب لم يجز صدقة. وصدّق لأنه إن تحرى الصدق اتهم حتى لا يعتقد قوله: قال الشاعر:

(١) أطراف الحديث عند: المنزري في الترغيب والترهيب (٣/٥٩٠)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧١/١٠)، المتقي الهندي في كنز العمال (٢٤٠٤٤، ٢٤٠٦٦).

إذا عرف الكذاب بالكذب لم يكن يصدق في شيء وإن كان صادقاً
ومن آفة الكذاب نسيان كذبه وتلقاه ذا حفظ إذا كان صادقاً

والكذب جماع كل شر وأصل كل إثم، ألا ترى أن شاهد الزور كاذب مردود / الشهادة، وكذلك الحاكم بغير ما أنزل الله، وكذلك القاذف كاذب وقال ابن المقفع: لا [١٦٥] تهاون بإرسال الكذبة من الهزل فإنها تسرع إلى إبطال الحق. وفي مشور الحكم: لا يلزم الكذب شيئاً إلاً غلب عليه، ويُنشد:

لي حيلة فيمن ينسم وليس في الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقول فحيلتي فيه قليله
فعلى الملفق والمزور لعنة الله العظيمه
وأنا المهذب ليس لي في الزور والبهتان شيمه

واعلم أن الكذب من أمهات الكبائر ولكن قد وردت السنة بإرخاص الكذب في: الحرب، وإصلاح ذات البين على وجوه التورية والتأويل دون التصريح؛ لأن السنة لا تجوز أن ترد بإباحة الكذب لما فيه من التنفير، وإنما ذلك على طريق التورية والتعريض، كما سئل عليه السلام وقد تطرف بدمراً، وانفرد عن أصحابه فقال له رجل: ممن أنت؟ فقال: «من ماء».

فورى عن الإخبار بنفسه بأمر محتمل، فظن السائل أنه عنى القبيلة المنسوبة إلى ذلك، وإنما أراد عليه السلام أنه من الماء الذي خلق منه الإنسان فبلغ ما أحب من إخفاء نسبه وصدقه في خبره. وقد قال عليه السلام: «في المعارض لمدوحة عن الكذب»^(١). وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن في المعارض ما يكفي أن يعف الرجل عن الكذب، والله أعلم.

الفصل الثاني: خلف الوعد

وليحذر أن يعد أحد وعداً ثم يخلفه؛ فإن إخلاف الوعد من خيائث الأخلاق وأمارات النفاق وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا وعدت أخاك قليلاً أو كثيراً فلا تخلفه فتستبدل بالمودة بغضاً لأن عدة المؤمن أخذ بالكف»^(٢).

(١) طرف الحديث عند: ابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٢٢)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٧٢/١٠).

(٢) أطراف نحو هذا الحديث عند: العجلوني في كشف الخفا (١٠٨/١)، الطبري في تفسيره (١٣٢/١٠).

وقال عليه السلام: «العدنة عطية»^(١). وقال في صفة المؤمن: «إنه من إذا تحدث صدق وإذا أوتمن لم يخن» وفي صفة المنافق: «أنه إذا تحدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أوتمن خان» قال الشاعر:

[١٦٦] / نفاق المرء يعرف في ثلاث وإن عرفوا له طول السجود
إذا كذب الحديث وخان فيه أمانته ولم يف بالعهود

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لا تعد أحداً وعد ولكن من اسمع ما تقول: فإن يقدر الله شيئاً يكن، إن شاء الله، فإن وعدته فلا تخلفه فإنه من أبواب النفاق. وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل في ذلك فقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾^(٢).

قيل: كان بينه وبين إبليس لعنة الله موعداً أن لا يبرح حتى يعود إليه، وكان في ضميره أنه لو أقام سنة لم يخلف موعده، حتى أتى جبريل عليه السلام فقال: إن الفاجر الذي سألك أن تقعد حتى يعود إليك إبليس فلا تقعد له ولا كرامة، فسماه الله صادق الوعد. وروي أن النبي ﷺ وعد رجلاً عند شجرة بظاهر المدينة فنسى الرجل الوعد فقعد النبي عليه السلام بعيد عن المدينة ثلاثة أيام فخرج الناس في طلبه، والرجل معهم ناسياً لوعده فقال له عليه السلام: «إنك لو لم تأتني لكان الحشر من هاهنا» وكذلك لا يعطي أحداً عهداً إلا وفي به قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾^(٣).

وقال عليه السلام: «لا دين لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»^(٤) ومن كتاب الضياع قال أبو مالك: بين العهد والوعد فرق، قال: وصفة العهد هو أن ينقض عهداً بينه وبين الله فيما تعبد به من أمر الدين أو ينقض عهداً أخذه عليه إمام عادل أو كان فيه لأحد إتلاف مال أو نفس أو إدخال ضرر كثير، قال: فهذه صفة العهد.

(١) رواه الطبراني في الأوسط من حديث قيث بن أشيم بسند ضعيف، وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود، ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت، والخراطي في مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلًا. العراقي في المغني (١٢٩/٣).

(٢) سورة مريم الآية: ٥٤.

(٣) سورة النحل الآية: ٩١.

(٤) أطراف الحديث عند: الطبراني في الكبير (٢٩٦/٨)، عبد الرزاق في المصنف (٢٠١٩٢)، أحمد في المسند (١٣٥/٣)، البيهقي في السنن الكبرى (٢٣١/٩)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٦/١)، وفي موارد الظمان (٤٧)، ابن عبد البر في التمهيد (٢٥٥/٩)، المنذري في الترغيب والترهيب (٨١/١).

وأما صفة الوعد: فهو ما لا يتعلق به حق لمخلوق، ولا يؤدي إلى ضرر. فقال: وهذا ونحوه مما يأتيه به الناس دون الكفر والهلاك قال أبو محمد: من وعد وعداً ثم أخلفه فتلف به مال أو نفس ضمن والله أعلم.

وأما أسير المشركين إذا أعطاهم العهد على أن /يرجع إليهم فلا يحل له الوفاء بذلك؛ [١٦٧] لأنه رجوع إلى الشرك، وأما أسير أهل القبلة فلا يحل له أن ينقض العهد بل يرجع إليهم والله أعلم. والذي ينبغي للإنسان أن لا يعد أحداً شيئاً بل يكون إحسانه فعلاً لا قولاً، وإذا تكلم بكلام صدقه بعمل وينشد لمحمود الوراق^(١):

القول ما صدقه الفعل والفعل ما وكده العقل
لا يثبت القول إذا لم يكن يطلبه من تحته الأصل

وعن سفيان الثوري أنه قال: إن للكذاب منازل فأسوأها أثراً وأعظمها ضرراً خلف الوعد والله أعلم.

الفصل الثالث: في الغيبة

وليحفظ لسانه من الغيبة؛ لأنها وإن كانت صدقاً فهي في القبح والمعرة تزيد على الكذب ونقض العهد؛ لأنها جنابة وهتك ستر يحدثان عن حسد وغدر، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبَ بَئْضُكُم بَئْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾^(٢). ويعني والله أعلم أنه كما لا يحل له لحمه ميتاً فلا تحل له غيبته حياً.

وفي الخبر: الغيبة أشد من ثلاثين زنية في الإسلام^(٣). وروي أن امرأتين على عهد النبي ﷺ وجعلتا تغتابان الناس، فأخبر بذلك النبي عليه السلام فقال: «صامتا على ما أحل الله وأفطرتا على ما حرم الله عليهما»^(٤).

(١) هو محمود بن الحسن الوراق البغدادي خير شاعر مجود سائر النظم في المواعظ.. سير أعلام النبلاء للذهبي (٤٦١/١١).

(٢) سورة الحجرات الآية: ١٢.

(٣) بنحو هذا الطرف عند ابن أبي حاتم في الملل (٢٤٧٤)، المنذري في الترغيب والترهيب (٥١١/٣)، التبريزي في المشكاة (٤٨٧٤)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٥٣٣/٧)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٩١/٨).

(٤) رواه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله ﷺ وفيه رجل لم يسم، ورواه أبو يلعى في مسنده فأسقط منه ذكر الرجل المبهم، قاله العراقي في المغني (١٣٩/٣).

وروي أنه قال: «يا أبا هريرة إن أحببت أن يغشى الله لك الثناء الحسن في الدنيا والآخرة فكف لسانك عن غيبة المسلمين». وعنه عليه السلام أنه قال: «نظرت في النار ليلة أسري بي فإذا يقوم يأكلون الجيف فقلت ما هذا يا جبريل؟» فقال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس.

وقال أيضاً: «ما صام من ظلّ يأكل لحوم الناس». وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لا يعجبكم من الرجل طنطنته ولكن من أدى الأمانة وكفّ عن أعراض الناس فهو الرجل.

[١٦٨] وعن ابن عباس أنه قال: اذكر أخاك / إذا توارى عنك بما تحب أن يذكرك إذا توارى عنه. وعن مالك بن دينار أنه قال: كفى بالمرء شراً أن لا يكون صالحاً ويقع في الصالحين. وقال عدي بن حاتم: الغيبة رعي اللئام. ويُشدد:

لا تكشفن من مساوي الناس ما ستروا فيكشف الله سترأ عن مساويك
وأذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تعب أحداً منهم بما فيك

وعن الحسن البصري أنه كان يقول: الغيبة فاكهة الناس. وقال ابن السماك: لا تُعن الناس على غيبتك بسوء عيبك وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال لمعاذ رحمه الله: «اقطع لسانك عن حملة القرآن، وطلاب العلم، ولا تمزق الناس بلسانك فتمزقك كلاب النار»^(١).

وعن أبي قلابة أنه قال: إن في الغيبة خراب القلب من الهدى. فنسأل الله العصمة، وحسبك من الغيبة شؤماً محققها الحسنات وإبطالها الطاعات، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «الغيبة تفتقر الصائم وتنقض الوضوء»^(٢).

وبلغنا عن الحسن أنه قيل له: إن فلاناً اغتابك فبعث إليه بطبق فيه رطب، فقال: بلغنا أنك أهديت لنا حسناتك فأردنا أن نكافئك بهذا فاعذرني على التمام. فقال: إبراهيم بن أدهم لما بلغه: يا مكذوب بخلت بديك عن أصدقائك وجُدت بحسناتك على أعدائك فما أنت بما تبخل عنهم بمعدور ولا أنت فيما سخوت به بمشكور.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «احذروا على حسناتكم أن تنسل منكم بالاغتيال كما ينسل

(١) نحو طرف هذا الحديث عند: الزيلعي في نصب الراية (٢/٤٨٢)، أبي نعيم في تاريخ أصبهان (٢/٢٧٦)، العجلوني في كشف الخفا (٢/١٦٣)، الربيع بن حبيب في المسند (١/٢٥، ٦٣).

(٢) انظر تخريج الحديث السابق.

الماء من يد أحدكم» وعنه أيضاً أنه قال: «ما النار بالبييس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد»^(١) وعن ابن السماك أنه قال: لو كنت مغتاباً لا غتبت أمة لأنها أحق بحسناتي.

وذكر عن حاتم الأصم أنه فاتته القيام ذات ليلة فلما أصبح عزته زوجته فقال: إن أقواماً صلوا بالليل البارحة فلما أصبحوا نالوا مني فتكون صلاتهم في ميزاني يوم القيامة، ومعنى الغيبة أن تذكر إنساناً/ بما يكره لو سمعه. [١٦٩]

وقد روي عن النبي ﷺ أنه سئل عن الغيبة فقال: «هي أن تقول في أخيك ما يكره فإن كنت صادقاً فقد اغتبهته وإن كنت كاذباً فقد بهته»^(٢). وروي أن امرأة دخلت على النبي ﷺ تستفتيه فلما خرجت قالت عائشة: يا رسول الله ما أقصرها فقال: «مهلاً إياك والغيبة». قالت: يا رسول الله إنما قلت ما فيها. قال: «أجل ولولا ذلك لكان بهتاناً» ويقال: إياك وغيبة القراء المرأئين، وهو أن تفهم المقصود من غير تصريح مثل قولك: أصلح الله فلاناً لقد غمّني ما جرى عليه فيجمع بين خبيثين: أحدهما: الغيبة إذا حصلت بالفهم، والأخرى تزكية النفس والتمدح بالصلاح؛ لأنه إن كان المقصود بقوله: أصلحه الله الدعاء له فليدع في السر، وإن اغتم بسبب فعله فلا يظهره للناس. والذي يمنع الإنسان من الغيبة أن ينظر في عيوبه، فإن عجز عن تطهير نفسه منها، ومع ذلك لا يحب من يفضحه، فليعلم أن عجز أخيه كعجزه هو وكراهة من يفضحه ككراهته هو، والله أعلم.

والغيبة المحرمة إنما هي غيبة المسلم، وأما المناق والمبتدع فلا لقوله عليه السلام: «اذكر الفاسق بما فيه ليعرفه الناس»^(٣). وعنه عليه السلام أنه قال: «ثلاثة لا غيبة لهم: الإمام الجائر، وشارب الخمر، والمعلن بفسقه».

وقال أيضاً: «من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له»^(٤) وأما المسلم إذا اغتابه أو قذفه فعليه التوبة والمحاللة منه، وقد ورد في الحديث: «أن الغيبة لا تغفر حتى يغفرها صاحبها» وإن تاب

- (١) لم أجد له أصلاً، قاله العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١٤٥/٣).
- (٢) نحو هذا الطرف عند: ابن أبي حاتم في الملل (١٨٨١)، الألباني في الصحيحة (١٩٩٢)، وعن نحوه أيضاً قال العراقي في المغني (١٤١/٣): رواه مسلم من حديث أبي هريرة.
- (٣) بنحو هذا الطرف عند: العجلوني في كشف الخفا (١١٤/١)، (٤٩٢/٢)، ابن حجر في الكاف الشاف (١٥٧).
- (٤) رواه ابن عدي، وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف. قاله العراقي في المغني (٢١٧/١).

ولم يجد من اغتابه أن يحال له فإنه قد ورد في الحديث: «أنه يستغفر له فيكون ذلك كفارة له»^(١).
 والمستمع للغيبة شريك للمغتتاب، وإنما الواجب عليه أن ينكر على المغتتاب وإن لم
 يقدر فليعتزله وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من ذب عن لحم أخيه بظهر الغيب كان حقاً على
 الله أن يحرم لحمه على النار»^(٢).

وأخس بأخ يرى الكلاب تمزق في لحم أخيه فلا تحركه الشفقة على الذب عنه^(٣) والله
 [١٧٠] أعلم. ويقال: من يغتاب الناس كمثل الجعل يعجز عن نيل الطرائف / وينكب على العذرة
 فالغيبة مراتع الشيطان وإذام السنة الغافلين، وهي فاكهة القراء، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

الفصل الرابع: في النميمة والسعاية

اعلم أن النميمة تجمع إلى مذمة الغيبة رداءة وشرأ وتضم إلى لؤمها دناءة وغدرأ؛ لأنها
 تؤل إلى تقاطع المتواصلين وتباغض المتحابين قال الله تعالى في وصف الكافر: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ،
 يَمِيمٍ﴾^(٤).

وعن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم بشراكم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال:
 «شراكم المشاؤون بالنميمة المفسرون بين الأحبة الباغون للناس العيوب»^(٥) وعنه أيضاً قال:
 «ملعون ذو الوجهين، ملعون ذو اللسانين، ملعون كل شغار، ملعون كل قتات، ملعون كل
 منان»^(٦).

الشغار: المحرش بين الناس يلقي بينهم العداوة. وفي حديث آخر: «ملعون من حرش
 بين بهيمتين». والقتات النمام، وقيل: النمام: هو الذي يكون مع قوم يتحدثون فيمن حديثهم،
 والقتات: والذي يستمع عليهم وهم لا يعلمون فيمن حديثهم. والمنان: هو الذي يصنع الخير
 ويمن به قال الشاعر:

- (١) قال العراقي في المغني (١٥٠/٣) عن نحوه: رواه ابن أبي الدنيا في الصمت، والحرث بن أبي أسامة
 في مسنده من حديث أنس بسند ضعيف.
- (٢) عن نحوه قال العراقي في المغني (١٤٣/٣): رواه أحمد، والطبراني من رواية شهر بن حوشب عن
 أسماء بنت يزيد.
- (٣) في الأصل: عليه وأحسبه تحريف من الناسخ.
- (٤) سورة القلم الآية: ١١.
- (٥) رواه أحمد من حديث أبي مالك الأشعري (المغني ١٥١/٣).
- (٦) طرفه عند العجلوني في كشف الخفا (٣٠١/٢).

فلا زلت منسوباً إلى كل نعمة ولا زلت منسوباً إليك النعائم
تمشيت فينا بالنميمة وإنما يفرق بين الأحياء النعائم
وقيل في منثور الحكم: النميمة سيف قاتل: وقال بعض الأدباء: لم يمش ماش شر من
واش. قال الشاعر:

من نم في الناس لا تؤمن عقاربه على الصديق ولا تؤمن أفاعيه
كالسبيل بالليل لا يدري به أحد من أين جاء ولا من أين يأتيه
وقال عليه السلام: «لا يدخل الجنة قتات»^(١). وعنه أيضاً قال: «من مشى بنميمة بين
اثنين سلط الله عليه ناراً تحرقه في قبره إلى يوم القيامة» وقال عليه السلام: «شر الناس ذو
الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»^(٢).

وعن ابن عباس أن النبي عليه السلام مرَّ على قبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في
كبير / أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة». ثم أخذ [١٧١]
بجريدة رطبة فشقها نصفين فغرز في كل قبر واحدة فقالوا: يا رسول الله لم فعلت ذلك؟ قال:
«لعله يخفف عنهما ما لم يبسا»^(٣) وذلك ببركة يديه عليه السلام.

وأما السعاية: فهي شر من الغيبة والنميمة وهي المهلكة الحالقة؛ لأنها تجمع إلى مذمة
الغيبة ولؤم النميمة التفرير بالنفوس، والأموال، والقدح في المنازل، والأحوال. ومعنى
السعاية: أن يسعى إنسان إلى ذي سلطان بإنسان آخر فيهلكه، وقد روي عن ابن قتيبة أن
النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة ديوث ولا قلاع»^(٤).

(١) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (٢١/٨)، ومسلم في الصحيح (الإيمان ب ٤٥ رقم ١٦٩،
١٧٠)، أبي داود في السنن (٤٨٧١)، الترمذي في الجامع (٢٠٢٦)، النسائي عن المجتبى (٣١٨/٨)،
أحمد في المسند (٣٨٢/٥)، البيهقي في السنن (١٦٦/٨).

(٢) عن نحوه قال العراقي في المغني (١٥٥/٣): متفق عليه بلفظ تجد من شر الناس لفظ البخاري وهو عند
أبي الدنيا بلفظ المصنف (أي الغزالي وهو نحوه).

(٣) وعن نحوه قال العراقي في المغني: (١٤٠/٣): رواه ابن أبي الدنيا في الصمت، وأبو العباس الدغولي
في كتاب الآداب بإسناد جيد وهو في الصحيحين من حديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه النميمة بدل
الغيبة، وللطالسي فيه: أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس، ولأحمد والطبراني من حديث أبي بكره
نحوه بإسناد جيد.

(٤) أطرافه عند: عبد الرزاق في المصنف (٢٠٤٣٧)، ابن حجر في المطالب العالية (٢١٤٥)، المتقي الهندي
في الكنز (٤٣٧٤٩).

فالديوث: هو الذي يجمع بين الرجال والنساء سمي بذلك لأنه يذب عنهم والقلاع: هو الساعي الذي يقع في الناس عند الأمراء، فلا يزال يقع في الرجل المتمكن عند الأمير حتى يقلعه ولذلك سمي قلاعاً.

وقال بعض الحكماء: الساعي بين منزلتين قبيحتين إما أن يكون صدق فقد خان الأمانة، وإما أن يكون كذب فقد خان في المروءة. وقال بعض حكماء الفرس: الصدق يزين كل أحد إلا السعاية؛ فإن الساعي أذم وأنم ما يكون إذا صدق، وأنشد للستالي:

فعلى الملفق والمزور لعنة الله العظيمه
إن كنت تفخر بالسعاية والمعازاة والنميمة
فأنا المهذب ليس لي في الزور والبهتان شيمه
قال الراجز:

يا أيها المولع السعاية شئت يدا مخطيك في الرمايه
أضمرت ناراً ما لها من غاية أخسس بذلك الحظ والعنايه
تلك لعمري خطة الخزياءة للقاعدين القعد الفسايه

ويروى أن أسقف نجران لما لقي عمر بن الخطاب الله عنه قال: يا أمير المؤمنين احذر [١٧٢] قاتل الثلاثة قال: وما قاتل الثلاثة؟ قال: رجل يأتي الإمام / بالحديث الكذب فيقتله الإمام فيكون قد قتل نفسه، وصاحبه، وإمامه. فقال: ما أراك أبعدت.

ويروى أن رجلاً سعى بجار له إلى الوليد بن عبد الملك فقال له الوليد: أما أنت فتخبرني أنك جار سوء، وإن شئت أرسلنا معك فإن كنت صادقاً أبغضاك، وإن كنت كاذباً عاقبتك، وإن شئت تركناك؟ فقال: اتركني يا أمير المؤمنين. قال: قد تركناك.

وروي أن رجلاً سعى برجل إلى الفضل بن سهيل، فوضع الفضل على ظاهر كتابه: نحن نرى قبول السعاية شراً منها؛ لأن السعاية دلالة والقبول إجازة، وليس من دل على شيء كمن قبل وأجاز؛ لأن من فعل شر ممن قال، فاتقوا الساعي فإنه إن كان في سعائته صادقاً كان أنماً إذا لم يحفظ الحرمة ويستر العورة.

وقال حكيم العرب: إياك والسعاة فإنهم أعداء عقلك ولصوص عدلك يغرقون بين قولك وفعلك وفي المثل السائر: من أطاع الواشي ضيع الصديق، ويروى أن الإسكندر قال لساع سعى إليه برجل: أنتحب أن تقبل منك ما تقول فيه على أن تقبل منه ما يقول فيك؟ قال: لا. قال: فكف عن الشر يكف عنك الشر.

وقال بعض البلغاء: النسيمة ذناء، والسعاية رداءة وهما رأس الغدر وأساس الشر. وعن كعب قال: أصاب الناس قحط شديد على عهد موسى عليه السلام فخرج بيني إسرائيل يستسقي مراراً فلم يُسْقوا، فأوحى الله تعالى إليه لا استجيب لك ولا لمن معك فإن فيكم نماماً. قال: يا رب دلني عليه حتى نخرجه من بيننا فأوحى الله إلى موسى أنهاكم عن النسيمة وأكون نماماً، فتابوا جميعاً فسُقوا. وقال مروان بن زباعة العبسي: يا بني عبس من نقل إليك نقل عنكم.

وكان بعض الحكماء يقول: من أراد أن يسلم من الإثم وتبقى له الإخوان، فليكن قاضياً حكيماً بينه وبينهم بالعدل، ولا يقبل قول أحد في أحد ولا في نفسه إلا بشهادة عدول. قال: فإننا قد أحببنا بقول أقوام وأبغضنا بقول أقوام فأصبحنا على فعلنا نادمين. ويقال: من لطف الله تعالى في النسيمة أن حكم بفسق صاحبها حتى لا يقبل له قول / ويستريح الخلق من شره لما [١٧٣] علم الله من شؤمها، واستظهاره شرها وعموم مضرتها في الورى، والله أعلم^(١).

الفصل الخامس: جامع لجملة من منكرات اللسان

يجب على الإنسان التحفظ مذهبا

من ذلك صوت الغناء والمزامير عند اللهو والنعمة قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾^(٢). قيل: هو الغناء والباطل. وفي الحديث: «الغناء نبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل»^(٣).

ومنها: الدعاء بالويل والثبور، ورفع الصوت عند النياحة، قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُعْصِبُكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾^(٤). أي لا ينخن. وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة: صوت مزمار عند نعمة، ومرنة عند مصيبة»^(٥). ويكى عليه السلام لما مات

- (١) راجع باب الغيبة والنعمة في إحياء علوم الدين في آفات اللسان (٣/١٣٨: ١٥٤) فقد فصل فيها تفصيلاً مفيداً. فجزاه الله خيراً.
- (٢) سورة لقمان الآية: ٦.
- (٣) قال العراقي في المعنى (٣/٢٨٣) قال المصنف: (أي الغزالي): والمرفوع غير صحيح لأن في إسناده من لم يسم رواه أبو داود وهو في رواية ابن العبد ليس في رواية اللؤلؤي ورواه البيهقي مرفوعاً وموقوفاً.
- (٤) سورة الممتحنة الآية: ١٢.
- (٥) أطراف الحديث عند: الربيع بن حبيب في المسند (٢/٥٥)، المنذري في الترغيب والترهيب (٤/٣٥٠)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/١٣)، المتقي الهندي في الكتر (٤٠٦٦).

ولده إبراهيم فقيل له: أتبكي وتتهانا عن البكاء. فقال: «إنما بكيت رحمة له ولكن إنما نهيتكم...» الحديث.

ومنها: القذف بالزنى وهو من أعظم الكبائر؛ لأن على صاحبه الحد في الدنيا والعذاب في الآخرة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ﴾. إلى قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١).

ومنها: الحكم بغير ما أنزل الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ و﴿الظَّالِمُونَ﴾ و﴿الْقَاسِقُونَ﴾^(٢). وقال عليه السلام: «الحكام ثلاثة: اثنان في النار وهما: الحاكم بالهوى، والحاكم بالجهل، وواحد في الجنة، وهو الحاكم بالحق»^(٣).

ومنها: شهادة الزور وقال عليه السلام: «عدلت بشهادة الزور الشرك بالله» ثم قرأ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرُّجُسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾^(٤).

ومنها: القول بغير علم وهو مقرون بالشرك وغيره قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾. إلى قوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٥). وفي الحديث: «من أفتى مسألة بغير علم أو فسر رؤيا بغير علم كان كمن وقع من السماء وصادف بئراً لا قعر له ولو أنه أصاب الحق»^(٦).

ومنها: لعن المخلوقات من طعام أو أرض أو حيوان ما خلا أهل الكبائر من الجن [١٧٤]: والإنس، وفي الحديث / «المؤمن لا يكون طعناً ولا لعاناً»^(٧). وقال عليه السلام: «إذا قال العبد: لعن الله الدنيا قالت الدنيا لعن الله أعصانا لربه»^(٨).

ومنها: الشاء على النفس، قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ

(١) سورة النور الآية: ٢٣.

(٢) سورة المائدة الآيات: ٤٤، ٤٥، ٤٧.

(٣) رواه ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٢٧٥٢/٧).

(٤) سورة الحج الآية: ٣٠.

(٥) سورة الأعراف الآية: ٣٣.

(٦) طرفه عند: الربيع بن حبيب في المستدرك (١٢/١، ١٦).

(٧) طرف الحديث بنحوه عند الحاكم في المستدرك (١٣/١).

(٨) بنحو هذا الطرّف عند: الحاكم (٣١٢/٤)، ابن الجوزي في العلل المتناهية (٣١٣/٢)، النهي في

الميزان (٣٤٩٥)، ابن حجر في لسان الميزان (٣٣٢/٣)، (١٥٥٠).

أَتَقَى ﴿١﴾. وقيل لبعض الحكماء: ما الصدق القبيح؟ قال: ثناء المرء على نفسه. وَصَدَقَ لِأَنَّ ذَلِكَ يورث المقت عند الله تعالى ويحط القدر والمكانة عند الناس، ومنها التجسسُ عن أخبار الناس والبحث عن عوراتهم قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ (٢).

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَسِّسُونَ أَنْ تَشِيَعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٣). فأوجب العذاب لمن أحب ذلك فكيف بمن أذاعه وأفشاه.

ومنها: التنازع بالألقاب قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْألقَابِ بِسَنِ الاِسْمِ الفُسُوقِ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ (٤).

ومنها: السخر قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْحَرُ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ﴾ (٥). وعن عبد الرحمن بن زيد أنه قال أنه استهزاء المسلم بمن أعلن بفسقه والله أعلم.

ومنها: الدعاء بالسوء على أحد من الخلق وإن كان ظالماً، فإنه ينبغي للمظلوم أن يكل أمره إلى الله. وفي الحديث: «من دعا على من ظلمه فقد انتصر» (٦) وفي حديث آخر: «إن المظلوم ليدعو على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم فضل عنده يطالبه به يوم القيامة» ويروى أن بعضهم طَوَّلَ لسانه على الحجاج، فقال بعض السلف: إن الله ليتنقم للحجاج ممن تعرض له بلسانه، كما يتنقم من الحجاج لمن ظلمه.

ومنها: المراء والجدال ومناقشة الناس في الكلام فإن ذلك أذى للمخاطب وتجهيل له مع الثناء على النفس والاتصاف بمزيد أو فضل والفهم في ذلك والتعرض لعداوة الناس، فإنه لا يماري سفيهاً إلا أذاه، ولا حليماً إلا حقد عليه وجفاه، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في رياض» (٧) الجنة، ومن تركه وهو محق بني له بيت في أعلى الجنة. والشيطان يستجم الحمقى إلى الشر في معرض الخبر بأن يقول لهم: أظهروا

(١) سورة النجم الآية: ٣٢.

(٢) سورة الحجرات الآية: ١٢.

(٣) سورة النور الآية: ١٩.

(٤) سورة الحجرات الآية: ١١.

(٥) سورة الحجرات الآية: ١١.

(٦) قال العراقي في المعني: (١٢٢/٣): لم أقف له على أصل، وللترمذي من حديث عائشة بسند ضعيف:

من دعا على من ظلمه فقد انتصر.

(٧) في إحياء علوم الدين (٤٨/١): «ريض»، وعلق العراقي على الحديث بهامشه في المعني فقال: رواه

الترمذي، وابن ماجه من حديث أنس مع اختلاف، قال الترمذي حسن.

الحق ولا تدهنوا. نعم إظهار الحق حسن مع من يقبل من الإنسان ويفهم عنه ولكن ذلك على وجه النصيحة والذب عنه.

الفصل السادس: في فصول حفظ اللسان

[١٧٥] / التي هي من بقية قطرة النفس، وهي تحتوي: على كتمان السر، والمشورة، والنصيحة.

فصل: في كتمان السر

فالواجب على الإنسان حفظ لسانه عن إذاعة السر المودع فيه؛ لأنه أمانة وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا حدث الرجل حديثه ثم التفت فهو أمانة» ألا ترى إلى النبي ﷺ سماه سرّاً، ولو لم يستكتمه فكيف إذا استكتمه. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «استعينوا على الحاجات فإن كل ذي نعمة محسود عليها»^(١).

وعن علي بن طالب أنه قال: سرك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره. وقال بعض الحكماء لابنه: يا بني كن جواداً بالمال في موضع الحق، ضئيلاً بالأسرار عن جميع الخلق. وقال النبي ﷺ: «المجالس بالأمانات»^(٢).

وقال بعض الأدياب: من كتم سره كان الخيار إليه، ومن أفشى سره كان الخيار عليه. وقد قال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رَوْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ﴾^(٣). فلما أفشى يوسف عليه رؤياه بمشهد امرأة يعقوب أخبرت إخوته فحلّ ما حل. واعلم أن حمل ثقل الأموال أخف من حمل ثقل الأسرار لما يلحقه في كتمان السر من القلق والكرب فإذا أذاعه استراح قلبه، فكأنما ألقى عن نفسه حملاً فمن قلق بسره فغيره به أقلق. وتُشد:

إذا ضاق صدر المرء من سر نفسه فصدر الذي يستودع السر أضيّق
إذا المرء أفشى سره بلسانه فلام عليه غيره فهو أحمق

وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال: القلوب أوعية، والشفاة أفعالها، والألسنة مفاتيحها، فليحفظ كل امرئ مفاتيح سره. ويقال: إن من أعجب الأمر أن أغلاق الدنيا كلما كثر خزائنه كان أضيّع له. قال الشاعر وهو أنس بن أسيد:

(١) قال العراقي في المعني (٣/١٨٤): رواه ابن أبي الدنيا والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف.

(٢) قال العراقي عن أئمته في المعني (٢/١٧٦): رواه أبو داود من حديث جابر من رواية ابن أخيه غير مسمى عنه.

(٣) سورة يوسف الآية: ٥.

لا تُفَشِ ستركِ إلَّا إليكَ فإن لكل نصيحة نصيحاً
 / ألم تر أن غواة الرجال لا يتركون أديماً صحيحاً [١٧٦]
 وكان يقال: أصبر الناس من لا يفشي سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر فيفشيهِ.
 وكان يقال: لا تطلع النساء على سرك يصلح لك أمرك. وقال أنوشروان: من حصن سره فله
 بتحصيله خصلتان: الظفر بحاجته والسلامة من السطوات.

واعلم أن إذاعة الرجل سر غيره أقيح من إظهار سر نفسه؛ لأنه يبوء بإحدى وصمتين إما
 الخيانة إن كان مؤتمناً، أو النيمية إن كان مستودعاً وإما الضرر فربما استويا فيه أو تفاضلا
 وكلاهما مذموم قال الأحنف بن قيس: يضيق صدر أحدكم بسرهِ حتى يحدث به ثم يقول:
 أكتمه عليّ. وفي أمثال الفرس: إذا أفشيت لي سرّك وأوصيتني أن لا أبوح به فهلاًّ بدأ توصي
 نفسك. قال الشاعر:

إذا ما ضاق صدرك عن حديث وأفشيتَه الرجال فلا تلوم
 إذا عاتبت من أفشى حديثي وسرى عنده فأنا الظلوم

وقيل لبعض الحكماء: ما أصعب الأشياء على الإنسان؟ قال: أن يعرف ويكتم سره.
 وقيل لبعضهم: كيف كتمانك للسر؟ قال: أجحد المخبر وأحلف للمستخبر. وفي مثور
 الحكم: صدور الأحرار قبور الأسرار.

واعلم أن كتمان السر على جواهر الرجال، فكما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها،
 كذلك لا خير في إنسان لا يمسك سره. ويقال: من صفات أمين السر أن يكون ذا عقل
 صادق، ودين حاجز، ونصح مبذول، وود موفور، وكتوماً بالطبع فإن هذه الأمور تمنع من
 الإذاعة وتوجب حفظ الأمانة فمن كانت فيه فهو عنقاء مغرب. ويُشَدُّ لجعفر بن عثمان:

يا ذا الذي أودعتني سره لا ترح أن تسمعه مني
 / لم أجِرِه قط على خاطري كأنه لم يجرفني أذني [١٧٧]

واعلم أن الاسترسال بالسر يدل على ثلاثة أحوال كلها مذمومة.
 أحدها: ضيق الصدر وقلة الصبر حتى لا يتسع لسر، ولا يقدر على صبر.
 الثانية: يدل على الغفلة عن تحرز العقلاء والسهو عن فطنة الأذكياء.
 الثالثة: يدل على أنه ارتكب الغرر ولم يتوق من الخطر. وقد قال بعض الحكماء: سرك

من دمك فإذا تكلمت به فقد أرتته. وقال بعضهم: تفرد بسرك ولا تدعه حازماً فيزل، ولا جاهلاً فيخون.

واعلم أن من الأسرار ما لا استغناء به عن مطالعة صديق، واستشارة ناصح، وليختر العاقل لسره أميناً إن لم يجد إلى كتمانها سبيلاً، وليتحر في اختياره أمين السر الذي قدّمنا صفاته إن وجدته وإلاً فليختر خيراً من وجد وليحذر أن يودعه عند من يحب الوقوف عليه: لأن طالب الوديعه خائن. وقيل في مثور الحكم: لا تنكح خاطب سرك إنه للسرك خوان.

قال صالح بن عبد القدوس: لا تلغ سرّاً إلى طالبه منك، إن طالب السر مذبح. وليحذر كثرة المستودعين لسره؛ لأن ذلك سبب الإذاعة لأمرين:

أحدهما: أن اجتماع شروط الأمانة في الكثرة معوز.

والثاني: أن كل واحد يبتغي إذاعة السر عن نفسه ويضيف ذلك إلى غيره. قال الشاعر:

وسرك ما كان عند امرئ وسر الثلاثة غير الخفي

وقال قيس بن حطيم:

أجود بمكنون التلاد وإنسي بسرك عمن سألني لضنين

إذا جاوز الأئين سر فإنسه يث وتكثير الوشاة قمين

قال بعض: أراد بالائتين المودع والمودع فيه، ولا يبعد أن يريد به الشفتين، وأيضاً فإن من سلم السر من إذاعتهم لم يسلم صاحبه من استظالتهم عليه. ولذلك قالت الحكماء: من أثنى سره كثر المتأمرون عليه، فإن اضطر فأودع سره أميناً وجب على المستودع فيه حفظ [١٧٨] الأمانة بالناسي / حتى لا يخطر له بباله ويرى ذلك حرمة يرعاها ولا يستطيل على صاحبه.

وحكي أن رجلاً أسر إلى صديق له حديثاً سرّاً فقال له: أفهمت؟ قال: بل جهلت. قال: أحفظت؟ قال: بل نسيت. قال بعض الشعراء:

ولو قدرت على نسيان ما اشتملت مني الضلوع على الأسرار والخبر

لكنت أول من ينسى سرائره إذ كنت من نشرها يوماً على خطر

وحكي أن عبد الله بن طاهر^(١) تذاكر الناس في مجلسه حفظ السر فقال عبد الله:

(١) هو الأمير العادل أبو العباس، حاكم خراسان وما وراء النهر. له يد في النظم والثر. قلده المأمون مصر، وإفريقية، ثم خراسان، وكان ملكاً مطاعاً سانساً مهيباً جواداً ممدحاً من رجال الكمال، وقيل: إنه وقّع =

ومستودع سرّاً تظمت سره فأودعته من مستقر الحشا قبراً
فقال ابنه عبد الله:

وما السر من قلبي كثياً وبحفرة لأنني أرى المدفون متتظر الحشرا
ولكنني أخفيه حتى كأنه من الدهر يوماً ما أحطت به خيرا

ومن كتاب الضياء: وحكي أن النبي عليه السلام رأى في المنام أن ولد الحكم يتداولون منيره كما يتداول الصبيان الكورة، فخللاً بأبي بكر وعمر رحمهما الله، فقص عليهما رؤياه، فلما تفرق سمع عليه السلام الحكم بن أبي العاص يخبر برؤياه فاشتد ذلك عليه، فأتهم بإفشاء سره عمر وبراً أبا بكر فقال: «أشهد أن أبا بكر ما فعل». فقال عمر: ولا أنا والله يا رسول الله. قال: «فمن أظهر حديثي». فقال عمر: تعود إلى مجلسك حتى نتحدث كما كنا نتحدث، فأنا أتيك بمن أفشى سرّك. ففعل عليه السلام، فأقاموا في الحديث حتى كاد عليه السلام أن ينسى ما قعد له، ثم خرج عمر مبادراً فإذا الحكم يستمع، ففاه عليه السلام من المدينة.

مسألة

وعن الوضاح بن عقبة أنه قال: إذا استسر معك أخوك سرّاً، وأنت تعلم أنه لا يجب إظهاره فأظهرته فأنت آثم، فإن تقدم عليك فيه فأظهرته فأنت منافق. وقال بعض الحكماء: من طلب لسره موضعاً فقد أشاد به وصدق لإلّا المضطر، فلا لوم عليه إذا اختار له موضعاً حصيناً / وأميناً كتوماً. كما قال الشاعر:

[١٧٩]

ومستودع سرّاً كتمت مكانه عن الحس خوفاً أن ينم به الحس
وخفت عليه من هوى النفس شهوة وأودعته من حيث لا يبلغ النفس

فصل: في المشورة

قال الله تعالى لنبية عليه السلام: «وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ»^(١). وعن قتادة قال: أمر بمشاورتهم تألفاً لهم وتطريباً لأنفسهم. وقال الضحاك: أمر بمشاورتهم لما فيه من الفضل. وقال الحسن: ليستن به المسلمون وإن كان من مشورتهم غنياً.

= مرة على رفاق بصلات فبلغت ألفي ألفٍ وسبع مئة ألف. ومات بالخانوق سنة ثلاثين ومئتين. (سير أعلام النبلاء ١٠/٦٨٤).

(١) سورة آل عمران الآية: ١٥٩.

وقد شاور عليه السلام أبا بكر وعمر رضي الله عنهما في أسارى بدر، فاختلفا عليه، فمال إلى رأي أبي بكر فعاتبه الله على أخذ الفداء فقال: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ﴾^(١) الآية. وقد شاور عليه السلام أصحابه حين أراد النزول نحو بدر وقد أمرهم لما اجتمع الأحزاب، بمصالحة عيينة بن حصن الفزاري على بعض الثمار، فأشاروا بترك ذلك فقبله.

فصح بما ذكرنا من الحزم للذي لب أن لا يبرم أمراً إلاّ بمشورة ذي الرأي الناصح، ومطالعة ذي العقل الراجح، ألا ترى إلى إبراهيم عليه السلام حين أمر بذبح ابنه عزيزة عليه، فحملة حسن الأدب على المشاورة فقال لابنه: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَى﴾^(٢). وروي أن النبي ﷺ أنه قال: «المشورة حصن من الندامة وأمان من الملامة».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: الرجال ثلاثة: رجل ترد عليه الأمور فيصلدها برأيه، ورجل يشاور فيما أشكل عليه وينزل حيث يأمره أهل الرأي، ورجل حائر بائر لا يأتيه رشداً ولا يطيع مرشداً.

وعن ابن عباس قال: الرجال ثلاثة: رجل ونصف رجل ولا شيء، فالرجل هو المشاور في أموره، ونصف الرجل المشاور في بعض أموره ولا شيء الذي لا يشاور.

وقيل: إن عمر رحمه الله يشاور حتى المرأة، وقال سيف بن ذي يزن: من أعجب برأيه لم يشاور، ومن استبد برأيه كان من الصواب بعيداً. وقيل في مثور الحكم: المشورة راحة لك [١٨٠] وتعب على غيرك. وقال بعض الحكماء: / ما خاب من استخار ولا ندم من استشار.

وقال بزرجهم: إذا أشكل الرأي على الحازم كان بمنزلة من أضل اللؤلؤ فجمع ما حول مسقطها فالتمسها فوجدها، كذلك الحازم يجمع وجوه الرأي فيضرب بعضها ببعض حتى يخلص الصواب. وقال عمر رحمه الله: الرأي الفرد كالخييط السحيل، والرأيان كالخيطين، والثلاثة الآراء لا تكاد تنقطع، وينشد لبشار ابن بَرْد:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو مشورة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة مكان الخواف قوةً للقساوير

(١) سورة الأنفال الآية: ٦٨.

(٢) سورة الصافات الآية: ١٠٢.

وقال بعض الأعراب: ما عثرت حتى عثر قومي. قيل: له وكيف؟ قال: لا أفعل شيئاً حتى أشاورهم. ويقال: لو لم يكن في فضيلة المشورة إلا أن الإنسان إذا استبد برأيه فأصاب سلبت فائدة إصابته، وإن كانت حسنة؛ لأنه لا بد من قائل يقول هذا اتفاق، ولو فعل كذا لكان أحسن، فإذا شاور فأصاب حمدت الجماعة رأيه؛ لأنهم إنما يحمدون أنفسهم، فإذا أخطأ حملوا خطأ؛ لأنهم عن أنفسهم يكافحون والله أعلم. فإذا عزم على المشاورة فليختر من اجتمعت فيه خمس خصال.

إحداها: عقل كامل مع تجربة سالفة، فإن بكثرة التجارب تصح الرؤية؛ لأنه قيل في مشور الحكم: كل شيء يحتاج إلى العقل والعقل يحتاج إلى التجارب. وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «استرشدوا العاقل ترشدوا، ولا تعصوه فتندموا»^(١) وقيل لرجل من عبس: ما أكثر صوابكم. فقالوا: نحن ألف رجل وفينا حازم ونحن نطيعه فكأننا ألف حازم. وقال بعض السلف لابنه: احذر مشاورة الجاهل وإن كان ناصحاً، كما تحذر عداوة العاقل إذا كان عدواً. وكان يقال: إياك ومشاورة رجلين: شاب معجب بنفسه قليل التجارب، أو كبير قد أخذ الدهر من عقله كما أخذ من جسمه.

والثانية: أن يكون ذا دين وتقي؛ لأنه مأمون السريرة موفق العزيمة، وقال عليه السلام: [١٨١] «من أراد أمراً فليشاور / أمراً مسلماً أرشده الله لأرشد أموره»^(٢).

والثالثة: أن يكون ناصحاً ودوداً؛ فإن النصح والمودة يمحصان الرأي. وقال بعض الحكماء: لا تشاور إلا الحازم غير الحسود، واللييب غير الحقود، وإياك ومشاورة النساء؛ فإن رأيهن إلى الأفن، وعزمهن إلى الوهن.

والرابعة: أن يكون سليم الفكر من هم قاطع وغم شاغل؛ لأن الرأي لا يسلم مع الهموم. وقد قالت الحكماء: لا تشاور معلماً ولا راعي غنم، ولا كثير لقعود مع النساء، ولا صاحب حاجة يريد قضائها ولا جائعاً ولا من يرهقه أحد السبيلين. وقالوا: لا رأي لحاقن، ولا لحاقب ولا لحازق، ولا تشاور من لا دقيق عنده. فالحاقب: الذي يجد في بطنه رزاء والحاظق: الذي يضيق عليه الخف، والله أعلم.

(١) أطراف الحديث عند: الذهبي في الميزان (٣٤٩٦)، ابن حجر في لسان الميزان (٣/٣٣٣)، (٨٠٨/٤)، والألباني في الضعيفة (٦١٧).

(٢) نحو طرفه عند: ابن القيسراني في تذكرة الموضوعات (٧٣٤).

الخصلة الخامسة: أن لا يكون له في الأمر المستشار غرض يتابعه ولا هوى يساعده، فإن الأغراض جاذبة والهوى صاُدٌّ، والرأي إذا عارضه الهوى وجاذبته الأغراض فسد، ويُشَدُّ:

وقد تحكّم الأيام من كان جاهلاً ويردى الهوى ذا الرأي وهو لبيب
ويحسد في الأمر الفتى وهو مخطيء ويعذل في الإحسان وهو مصيب

فإذا استكملت هذه الخصال في رجل كان أهلاً للمشورة ومعهداً للرأي فلا يعدل عنه الإنسان استيثاقاً برأيه فإن رأي غير ذي الحاجة أسلم، وهو إلى الصواب أقرب لخلوص الفكر وخلوة من الهوى والشهوة، وقد قال بعض الحكماء: نصف رأيك مع أخيك فشاوره ليكمل لك الرأي: ويُشَدُّ:

خليلي ليس الرأي في صدر واحد أشيرا على اليوم ما تريان

وقال بعض البلغاء: إذا اشتكلت عليك الأمور فارجع إلى رأي العقلاء، فلأن تسأل وتسلم خيرٌ من أن تستبد وتندم. وقد قيل في مثنو الحكم: من أكثر المشاورة لم يعدم عند [١٨٢] الصواب مادحاً، وعند / الخطأ عاذراً. وإن كان الخطأ من الجماعة بعيداً ثم إذا استشار الجماعة، وقد اختلف أهل الرأي في اجتماعهم عليه أو أفراد كل واحد منهم، فمذهب الفرس أن الاجتماع أولى ليذكر كل واحد ما نتجه فكرة حتى إن كان فيه قرح نقض عليه بالمناظرة.

وذهب غيرهم إلى أن انفراد كل واحد منهم أو ليحيل رأيه طمعاً في الخطوة والصواب والله أعلم.

ثم إذا أشار على الإنسان من استشاره بالرأي أخذ به وأمضاه، فإن أصاب فذاك، وإن أخطأ فلا يوجه اللوم على المستشار، وإنما على الناصح الاجتهاد دون ضمان النجاح، ولا سيما والأقدار غالبية تجري على ما ليس في التقدير. إذا ظفر برأي خامل اغتمه، فإن الرأي كالمضلة تؤخذ حيث ما وجدت ولا تترك لذلة صاحبها والذرة لا يضيعها مهانة غائصها، والله أعلم.

فصل: في النصيحة

اعلم أن النصيحة للخلق أجمعين من سنة المرسلين، قال الله تعالى حكاية عن شعيب صلوات الله على نبينا وعليه: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾^(١)، في أمثالها من القرآن.

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة»^(١). قالها ثلاثاً، قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: «الله وكتابه ورسوله ولائمة المسلمين وعامتهم وخاصتهم». والنصح في اللغة: فعل الشيء الذي به الصلاح تقول العرب: هذا قميص منصوح أي مخطط مأخوذ من النصيحة وهي السلوك التي يخاطب بها.

وعن معاذ عنه ﷺ أنه قال: «ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم: العمل لله، ومناصحة أولي الأمر، والاعتصام بجماعة المسلمين فإن دعوتهم تحيط من وراءهم»^(٢). / وقال عليه [١٨٣] السلام: «إن العبد إذا نصح لسيدته وأدى عبادة الله فله أجره مرتين»^(٣).

وعن أبي الدرداء أنه قال: العلم يبلغه البار والفاجر والحكمة ينطق بها البر والفاجر، والنصيحة لله لا تثبت إلا في قلوب المؤمنين الذين نصحت قلوبهم، وصدقت نياتهم، فالنصيحة لله سبحانه وصفه بما هو أهله وتنزيهه عما لا يليق به، والخضوع له ظاهراً وباطناً، والقيام بتعظيمه، والبعد عن مساخطه وموالات من أطاعه، ومعادات من عصاه، والجهاد في رد العصاة إليه قولاً وفعلًا، والقيام بحقوقه والرغبة في محابه، وإرادة ما ذكرنا لعباده.

والنصيحة لكتابه: إقامة حدوده، وتلاوته بالتفكير في معانيه، والذب عنه، وحفظه من تأويل المحرفين. والنصيحة لرسوله: مؤازرته ونصرته حياً وميتاً، واتباع سنته، وإحياء طريقته في بث الدعوة، وتأليف الكلمة والنصيحة للأئمة: معاوتهم ونصرتهم في جمع الكلمة لهم ما استقاموا على الطريقة، وإقامة الحق، والنصح لخاصة المسلمين: الشفقة عليهم وموالاتهم.

والنصيحة لعامتهم: أن يحلم عنهم، ويعلموا دينهم، والنصيحة لجميع الملل أن يحب إسلامهم ويدعوهم إليه بالقول وبالسيوف إن كان ذا سلطان حتى يسلموا، أو يكونوا ذمة، فيؤدي حقوقهم، وأن يصابوا عن الظلم والله أعلم.

(١) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (٢٢/١)، مسلم في الصحيح (الإيمان ب ٢٣ رقم ٩٥)، الترمذي في الجامع (١٩٢٦)، النسائي في المجتبى (١٥٧/٧)، أحمد في المسند (٢/٢٩٧)، الدارمي في السنن (٣١١/٢)، ابن أبي عاصم في السنة (٥١٩/٢).

(٢) أطراف الحديث عند: أحمد في المسند (٨٠/٤)، والدارمي في السنن (٧٥/١)، الحاكم في المستدرک (٨٨/١)، ابن أبي عاصم في السنة (٥١٦/٢)، الترمذي في الجامع (٢٥٦٨)، وقال العراقي في المغني (٣٦٤/٤): رواه الترمذي وصححه من حديث النعمان ابن بشير.

(٣) أطرافه عند: مسلم في الصحيح (الإيمان: ٤٣)، وأبي داود في السنن (٥١٦٩)، البيهقي في السنن (١٢/٨)، البخاري في الأدب (٢٠٢)، البيهقي في شرح السنة (٣٤٤/٩)، المنذري في الترغيب والترهيب (٢٤/٣).

واعلم أن النصيحة مرة لا يقبلها إلا أولوا العزم، كان عمر رحمه الله يقول: رحم الله [١٨٤] عبداً أهدى إليّ عيوبي. وعن ميمون / بن مهران أنه قال: قال لي عمر بن عبد العزيز: قل لي في وجهي ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره. وكان يقال: أخوك من احتمال ثقل نصيحتك. ويُشد عن أبي العيناء:

النصح أرخص ما باع الرجال فلا تردد على ناصح نصحاً ولا تلم
إن النصائح لا تخفى مناهجها على الرجال ذوي الألباب والفهم

وقيل في مشور الحكم: ذلك من نصحك، وقلاك من مشى في هواك. والنصيحة لله في أرضه هي التي بعث بها المرسلون ولكن النفوس مستقلة لها، مائلة إلى ما يوافق هواها، ولبعضهم:

عرضت نصيحتي مني ليحيى فقال غششتني والنصح مر
وما بي أن أكون أعيب يحيى ويحيى طاهر الأخلاق بر
ولكن قد أناني أن يحيى يقال عليه في نفعاء شر
فقلت له تجنب كل شيء يعاب عليك إن الحر حر

وعن وهب أنه قال: إنما يُحسن الاختيار لغيره، من يُحسن الاختيار لنفسه. وقالت العلماء: لا ينصحك امرء لا ينصح نفسه. وقال بعضهم: رأيي ورأيك في المعرفة أمثل لنفسك. من رأيك؛ لأنه خلق من هواك، قال الله تعالى عن نبيه عليه السلام: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾^(١). قال الشاعر:

وعلى النصيح نصيحتي وعلّي عصيان النصيح

وعن أبي الدرداء أنه قال: إن شئت لأنصحن لكم، إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحبون الله إلى عبادهم، ويعملون في الأرض نصحاً. قال:

أجب أخاك إذا استشارك ناصحاً وعلى أخيك نصيحة لا تردد

[١٨٥] / وعن النبي ﷺ أنه قال: «حق المسلم على المسلم إذا استنصحه أن ينصحه»^(٢). اعلم

(١) سورة الأعراف الآية: ٧٩.

(٢) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (٩٠/٢)، مسلم في الصحيح (١٧٠٤)، أحمد في المسند (٥٤٠/٢)، البيهقي في السنن (٣٤٧/٥) البخاري في الأدب (٩٢٥)، ابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٠٦).

أنه لا عذر لمن استشير أن يكتم رأياً عدواً كان المستشار له أو صديقاً؛ لأن النبي عليه السلام قال: «المستشير مُعان والمستشار مُؤتمن»^(١) ولا ينبغي للإنسان أن يشير قبل أن يستشار إلا فيما مسّت الحاجة إليه، وعن النبي ﷺ قال عن لقمان: «قال لابنه: إذا استشهدت فاشهد وإذا استعنت فاعن وإذا استشرت فلا تعجل حتى تنظر». وقال الشاعر:

من الناس من أن يستشرك فتجتهد له الرأي يستغشك ما لا يتابعه
فلا تمنحن الرأي من ليس أهله فلا أنت محمود ولا الرأي نافعه

وإنما ذكرنا باب النصيحة ها هنا لأنه من باب التحفظ من آفات اللسان، وهي مما ينبغي أن يتكلم بها الإنسان؛ لأن النصيحة من حق المستشار على المستشار فذكرناها بجانب فصل المشورة، والله تعالى نستهديه الرشاد والهداية.

الفصل السابع: في حفظ اللسان عن المدح والتمدح

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تمدحوا واحثوا التراب في وجوه المادحين». وعن مكحول عنه ﷺ أنه قال: «لا تكونوا عيابين ولا لعائين ولا متمادحين ولا متماوتين»^(٢). وروي أن بعض الصحابة قيل له: «لا تزال بخير ما أبقاك الله، فوجد من قول المادح، فقال: إني لا أحسبك أعرابياً وما يدريك ما يُغلق عليه بابي. وروي عن النبي ﷺ أنه سمع رجلاً يزكي رجلاً فقال له: «قطعت مطاه لو سمعك ما أفلح بعدها».

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: المدح / ذبح. وقال ابن المقفع: قابل المدح كمداح [١٨٦] نفسه. وعن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والتمدح فإنه الذبح، إن كان أحدكم يمدح أخاه لا محالة فليقل: أحسب ولا أزكى على الله أحد»^(٣).

وقال بعض الحكماء: من رضي أن يُمدح بما ليس فيه فقد أمكن التساخر منه الساخر. وقيل فيما أنزل الله من الكتب السالفة: عجبت لمن قيل فيه الخير وليس فيه، كيف يفرح، وعجبت لمن قيل فيه الشر وهو فيه كيف يغضب! قال بعض الشعراء:

- (١) بنحو هذا الطرف عند: أبي داود في السنن (٥١٢٨)، الترمذي في الجامع (٢٨٢٢)، ابن ماجه في السنن (٣٧٤٥)، أحمد في المسند (٢٧٤/٥) البيهقي في السنن (١١٢/١٠)، الدارمي في السنن (٢١٩/٢)، الحاكم في المستدرک (١٣١/٤).
- (٢) أطراف الحديث عند: الدارمي في السنن (١٣٢/٢)، المتقي الهندي في كنز العمال (٤٣٩٩٤).
- (٣) أطراف الحديث عند: ابن ماجه في السنن (٣٧٤٣)، أحمد في المسند (٩٢/٤)، والطبراني في الكبير (٣٥٠/١٩)، ابن أبي شيبة في المصنف (٦/٩).

يا جاهلاً غره إفراط مادحه لا يغلبن جهل من أطراك علمك بك
أنتى وقال بلا علم أحاط به وأنت أعلم بالمحصول من ربك

وروي أن بعض الخلفاء سأل رجلاً عن شيء فقال: يا أمير المؤمنين أنت خير منا وأعلم
فغضب وقال: لم أملك أن تركيني. وروي أن رجلاً مدح بعض السلف فغضب فقال: اللهم إن
عبدك تقرب إلي بمقتك وأشهدك على مقته. وحكى الأصمعي: أن أبا بكر الصديق رضي الله
عنه كان إذا مدح قال: اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيراً
مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون. وقال الشاعر:

إذا المرء لم يمدح بحسن فعالة فمادحه يهذي وإن كان مفصلاً

وينبغي للإنسان أن يحفظ لسانه عن المدح ويمقت نفسه عند سماعه من غيره، لأن
المدح عادة المتملقين، وحرقة المتقربين إلى الجورة من الجهال، والسلاطين، جعلوا النفاق
[١٨٧] عندهم عادة ومكسباً، والتملق خديعة وملعباً، فإذا وجدوه / مقبولاً إلى العقول الضعيفة غروا
أربابها باعتقاد كذبهم، وجعلوا ذلك ذريعة إلى استخالهم والاستهزاء بهم.

وهذا أمر ينبغي للعاقل أن يضبط نفسه عن أن يستفزها المدح ويمنعها من تصديق المادح
لها، فإن للنفس ميلاً إلى حب الثناء وسماع المدح كما قال الشاعر .

يهوى الثناء مبرز ومقصر حب الثناء طبيعة الإنسان

ويعلم أن المتقرب إليه بالمدح يسرف مع القبول ويكف مع المنع والإباء، ولتكن تهمة
المادح أغلب عليه، فقل مدح كان جميعه صدقاً، ولا يغلبه حسن الظن على تصديق مدح هو
أعرف بحقيقته، فإن لم يفعل وسامح نفسه في مدة الصبوة وتابعها على هذه الشهوة، تشاغل
بذلك عن الفضائل الممدوحة، ولهى بها عن المحاسن المنموحة، فصار الظاهر من مدحه
كذباً، والباطن من ذمه صدقاً وعند تقابلهما يكون الصدق ألزم الأمرين والله أعلم.

واعلم أن المدح ربما خل بصاحبه إلى أن يصير مادح نفسه إما لتوهمه أن الناس قد
غفلوا عن فضله، وإما أن يخدعهم بتدليس نفسه، فيعتقدوا أن قوله حق متبع، وإما ليتلذذ
بسماع الثناء ويسر نفسه بالمدح والإطراء، كما يتغنى لنفسه طرباً إذا لم يسمع صوتاً مطرباً، ولا
ير ذلك كان، فهو الجهل والنقص الفاضح، كما قال الشاعر:

وما شرف أن يمدح المرء نفسه ولكن أخلاقاً تدم وتمدح

وما كل حين يصدق المرء ظنه ولا كل أصحاب التجارة يربح
ولا كل من ترجو لغيرك حافظ ولا كل من ضم الوديعه يصلح

وينبغي للعاقل أن يسترشد إخوان الصدق الذين هم / أصفياء القلوب ومرايا المحاسن [١٨٨]
والعيوب على ما ينبهون عليه من مساوئه التي صرفه حسن الظن عنها، فإنهم أمكن نظراً وأسلم
فكراً، ويجعل تبيهم إياه على مساوئه عوضاً من تصديق المدح فيه. وقد قال عليه السلام:
«المؤمن مرآة المؤمن إذا رأى فيه عيباً أصلحه»^(١).

وقد قال عمر رضي الله: رحم الله عبد أهدى إلينا مساوئنا. وقيل لبعض الحكماء:
أتحب أن تهدي إليك عيوبك؟ قال: نعم من ناصح. وقيل في مثور الحكم: من أظهر عيب
نفسه فقد زكاهها، والله أعلم.

الفصل الثامن: في حفظ اللسان من الاسترسال في المزاح والضحك

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «المزاح استدراج من الشيطان واختداع من الهوى». وقال
عمر بن عبد العزيز: اتقوا المزاح فإنها حمقة تورث ضغينة. وقال: إنما المزاح سبب لإلأ أن
صاحبه يضحك وقيل في مثور الحكم: المزاح يأكل الهيئة كما تأكل النار الحطب.

وقال النخعي: المزاح من سخف أو بطر. وعن النبي ﷺ أنه قال: «ياكم والمزاح فإنه
فيه التذابح إن خيره لا ينال وشره لا يقال»^(٢) قال النيسابوري.

شر مزاح المرء لا يقال وخيره يا صاح لا ينال

وقال بعض الأدباء: من كثر مزاحه زالت هيئته ومن كثر خلافه طابت غيبته. وقال بعض
البلغاء: من قل عقله كثر هزله. ويقال: المزاح مخلقة للصدقة مذهبة للمروءة مكسبة
للعداوة.

ويقال لكل شيء بذر وبذر العداوة المزاح. وقيل المزاح: لقاح الضغينة وسباب النوكا.

ويقال: المزاح / أوله فرح وآخره ترح قال النيسابوري.

[١٨٩]

(١) أطراف الحديث عند: أبي داود في السنن (٤٩١٨)، البيهقي في السنن (٣/٣٧٥)، البخاري في الأدب
(٢٣٩)، ابن الجوزي في تذكرة الموضوعات (١٤)، ابن عدي في الضعفاء (٦/٢٢٣٦)، العجلوني في
كشف الخفا (٢/٤٠٦).

(٢) أطراف الحديث عند: ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٤/١٥٢٧)، ابن حجر في لسان الميزان
(١/١٥٠٩)، العجلوني في كشف الخفا (١/٣٢٤).

إن المزاح بدوّه حلاوة لكنّما آخره عداوه

وقد يقال: إن كثر المزاح من الفتى تدعو إلى التلاح، يحقد منه الرجل الشريف، ويجترى بسخفه السخيف. وأوصى بعض الحكماء ابنه فقال: يا بني، إياك والمزاح فإنه يذهب ببهاء المؤمن ويطفئ نوره ومن يكثر من شيء عرف به. قال: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: امنع الناس من المزاح فإنه يذهب المروءة ويوغر الصدر.

وحكي أن خالد بن صفوان^(١) ذكر المزاح فقال يصك أحدكم بأشد من الجنبدل وينقشه أحرف من الخردل، ويفرغ عليه أحر من المرجل، ثم يقول: إنما كنت أمازحك. ويروى أن بعض الأشراف مازح صديقاً له بكلمة فتهاجرا حتى ماتا. ويُشدد.

أما اللجاجة والمزاح فدعهما خلقان لا أرضاهما الصديق
إنسي بلوتهما فلم أحمدهما لمجاور دان ولا لرفيق

ويقال: إنما سمي المزاح مزاحاً لأنه أزيح عن الحق، ولعمري إن المزاح يزيح عن الحقوق، ويخرج إلى القطيعة والعقوق، ويصم المازح بزوال الهيئة والبهاء، وجرأة الشُّفهاء عليه والغوغاء، ويؤذي الممادح بلدغته، ويحزن قلبه بحرقة إن أمسكه عنه تغيظ وإن أجاب صاحبه تورط بسقوط الأدب، وحق على العاقل أن يتقيه وينزه نفسه عن وصمه مساوته. قال:

فإياك إياك المزاح فإنه يجري عليك الطفل والدنس الرذلا

[١٩٠] / ويذهب ماء الوجه بعد بهائه ويورث بعد العز صاحبه ذلا

اعلم أن المزاح قل ما يعرى منه من كان سهلاً، فإذا كان لا بد للعاقل منه فليتوخ به إيناس المصاحب، والتودد إلى المخالط، وليقتصد في مزاحه فإن الأفراط منه يذهب البهاء، ويجري السفهاء. والتقصير فيه يقبض المؤانس، ويوحش المصاحب، وليكن مزاحه بما حسن من القول ويسط من مستحسن الفعل، نحو ما روي عن الشعبي أنه سئل عن أكل لحم الشيطان؟ فقال: نحن نرضى منه بالكفاف.

وقيل له: ما اسم امرأة إبليس؟ قال: ذلك نكاح ما شهدناه. وقد كان صهيب بن سنان

(١) العلامة البليغ فصيح زمانه أبو صفوان المنقري الأهتمي البصري، وقد وفد على عمر بن عبد العزيز، ولم أنظر له بوفاة: إلا أنه كان في أيام التابعين... وهو القائل: ثلاث يعرفون عند ثلاثة: الحليم عند الغضب، والشجاع عند اللقاء، والصديق عند النابتة. (النهي في سير أعلام النبلاء ٦/٢٢٦).

رحمه الله مزاحاً فقال له النبي ﷺ: «أناكل تمرأً ويك رمداً؟». فقال: يا رسول الله إنما أمضغ على الناحية الأخرى»^(١).

وإنما استجاز لصهيب ليتعرض له المزاح لأن استخباره عليه السلام قد كان يتضمن المزاح، فأجابه بما وافق استخباره مساعدة له وتقريباً من قلبه، لأن من جعل جواب الرسول عليه السلام هزلاً فقد عصى الله تعالى، وصهيب كان أطوع لله ولرسوله من أن يكون منه بهذه المنزلة.

وقد قال عليه السلام: «أنا سابق العرب، وصهيب سابق الروم، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبش»^(٢) ووجه آخر يجوز فيه المزاح أيضاً وهو أن ينفي الإنسان بمزاحه عن نفسه ما يطرأ عليه من هم أو منام أو ييس طبيعة أو حادث وحشة، ولذلك قال أبو الدرداء أو غيره: إني لاستجم نفسي بشيء من اللهو. وقديماً قيل: لا بد للمصدور أن ينثث لأن النفس ملولة ولها في اللهو / والمزاح استراحة ونشاط إلى مملول العبادة. قال الشاعر: [١٩١]

أفد طبعك المكدود بالهم راحة يجم وعلله بشيء من المرح
ولكن إذا أعطيته المرح فليكن بمقدار ما يعطى الطعام من الملح

وقد روي أن النبي ﷺ كان يمزح ولا يبعد أن يكون على هذا الوجه وقد قال عليه السلام: «إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً»^(٣). فمن مزاحه عليه السلام مثل قوله للجوز التي قالت: ادع الله أن يدخلني الجنة فقال: «إن الجنة لا تدخلها العجائز».

فصرخت فتبسم وقال لها عليه السلام: «أما قرأت ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً﴾»^(٤). ومثل قوله لمحمد بن أبي طلحة وكان له تغير فمات فإذا رآه قال: «أبا عمير ما فعل النغير»^(٥). وهو طير.

- (١) قال العراقي في المغني: (١٢٧/٣): رواه ابن ماجه والحاكم من حديث صهيب ورجاله ثقات.
- (٢) أطراف الحديث عند: ابن أبي حاتم في العلل (٢٥٧٧)، ابن عدي في الضعفاء (٧/٢٦٢٤)، وابن عساکر في تاريخ دمشق (٦/١٩٩)، وأبي نعيم في تاريخ أصبهان (٤٩/٢)، وعبد الرزاق في المصنف (٢٠٤٤٢)، والطبراني في الكبير (٨/١٣١)، والصغير (١/١٠٤).
- (٣) أطراف الحديث عند: الطبراني في الكبير (١٢/٣٩١)، العجلوني في كشف الخفا (١١/٥٧٢)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/١٧)، الشفا للقاضي عياض (٢/٤٢٤).
- (٤) سورة الواقعة الآية: ٣٥، ٣٦ والحديث عن نحوه قال العراقي في المغني (٣/١٢٥): (١٢٦): رواه الترمذي في الشمائل هكذا مرسلأً وأسنده ابن الجوزي في الوفاء من حديث أنس بسند ضعيف.
- (٥) متفق عليه (من حديث أنس). المغني (٣/١٢٦).

هذا أو مثله من المزاح وهو حق كله . ويروي أن علياً أوتي برجل ومعه خصم له فقال له الخصم إنه احتلم على أمي فقال عليّ: أرى أن يقام في الشمس ويضرب ظله الحد . وفي رواية قال الرجل: احتلمت على أمي فقال عليّ: هذه القولة .

ويروي أن رجلاً قال لغلام بكم تعمل معي؟ قال: بطعامي . قال: أحسن قليلاً . فقال الغلام: أصوم الاثنين والخميس . هذا وأمثاله من المزاح لا بأس به وأما الاسترسال في مباحة العدو فليحذر العاقل لئلا يجعل له طريقاً إلى إعلان المساوي ويفسح له في التشفي . وقد قال بعض الحكماء: إذا مزحت عدوك ظهرت عيوبك .

وأما ما فيه إغراء إلى ريبة أو يتوهمه الجاهل إرخاص في معصية فينبغي أن يتوقى نحو ما روي عن أبي صالح بن حسان أنه قال لأصحابه يوماً مازحاً أفقه الناس وضاح اليمن في قوله:

إذا قلت هات نوليني تبرمت وقالت معاذ الله من فعل ما حرم
/ فما تولت حتى تضرعت عندها وانباتها ما أرخص الله في اللمم [١٩٢]

هذا ومثله يتوهمه الجاهل إذا سمعه إن الله تعالى رخص في الصغائر من الذنوب فيجتري على القبلة المحرمة والنظرة والمحسة ويظنها صغائر، والله تعالى لم يرخص في ارتكاب معصية صغيرة ولا كبيرة .

وكذلك المزاح الذي يخرج إلى حد الخلاعة ويورث الهجنة والمذمة كالذي حكى عن أبي معاوية الضرير وكان محدثاً أنه خرج يوماً على أصحابه وهو يقول:

فإذا المعدة جاشت، فارمها بالمنجنيق بثلاث من نبيذ ليس بالحلو الرقيق

انظر إلى ما جنى على نفسه بخلاعه حيث جعل للتهمة عليها طريقه فيما لعله برىء منه ومن مستسمح المزاح ما حكى أن القشيري وقف عليه شيخ من الأعراب فقال: ممن أنت؟ فقال: من بني عقيل . قال: من أي عقيل؟ قال: من بني خفاجة . فقال القشيري: رأيت شيخاً من بني خفاجة فقال الأعرابي: ما شأنه؟ فقال: له إذا جن الظلام حاجة فقال الأعرابي: ما هيه؟ قال: كحاجة الديك إلى الدجاجة . فاستفز الأعرابي ضاحكاً، فقال: قاتلك الله ما أعرفك بسرائر القوم .

وهذا غاية ما يتسامح به الكبراء من الخلاعة والنزاهة عن مثل هذا أولى، وليحذر الإنسان من الاسترسال في المزاح .

وذكر أن أبا هريرة كان مسترسلاً في مزاحه قال وحكى ابن قتيبة في المعارف أن مروان كان يستخلفه على المدينة فيركب حماراً مشدوداً بيرذعة فيسير فيلقى الرجل فيقول: الطريق قد جاء الأمير، قال: وربما أتى الصبيان وهم يلعبون فلا يشعرون حتى يلقى نفسه بينهم ويضرب برجليه فيفزع الصبيان فيفرون.

/ وهذا خروج عن القدر والمزاح المستسمح به ولا يبعد أن يكون له تأويل عندهم يسوغ [١٩٣] في الشرع، وإنما الأحسن ما قدمناه من مزاح رسول الله ﷺ. فقد روي أيضاً أن امرأة أتته عليه السلام في حاجة لزوجها فقال لها: «ومن زوجك؟» قالت: فلان. قال: «الذي في عينه بياض» قالت: لا. فقال: «بلى». فانصرفت عجلت إلى زوجها فجعلت تتأمل عينه، فقال لها: ما شأنك؟ فقالت: أخبرني النبي عليه السلام أن في عينيك بياضاً، فقال لها: أما ترين أن بياض عيني أكثر من سوادها^(١).

ويروى أن ابن سيرين سأله رجل عن رجل فقال له: توفي البارحة فلما رأى جزع السائل عليه تلى هذه الآية: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾^(٢). . . الآية والله أعلم.

فصل: في الضحك والفرح

اعلم أن كثرة الضحك وإظهار الفرح بالدنيا ليس من أخلاق الصالحين، واعتياد الضحك أيضاً شاغل عن الأمور المهمة وليس لمن أكثر منه وقار ولا هيبة. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضحكاً حتى أرى لهواته، إنما كان يتبسم.

وعن أبي ذر عنه عليه السلام أنه قال: «إياك وكثرة الضحك إنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه»^(٣) وعنه عليه السلام أنه قال: «أحيا قلوبكم بقله الضحك وطهروها بالجوع تنظروا إلى عظمة الله»^(٤).

وقال: «اعطوا قلوبكم حظها من قلة الطعام يكثر فكرها ويقل ضحكها فإن الله يبغض كل غافل وضاحك» وعن الحسن أنه قال: يا ابن آدم إياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلوب.

(١) عن نحوه قال العراقي في المعني (١٢٦/٣): رواه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبدة بن سهم الفهري مع اختلاف.

(٢) سورة الزمر الآية: ٤٢.

(٣) أطراف الحديث عند: أبي نعيم في الحلية (١٦٨/١)، ابن عساکر في تاريخ دمشق (٣٥٧/٦)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٦/١٠)، المتقي الهندي في الكنز (٤٤١٥٨).

(٤) قال العراقي في المعني (٨٢/٣): لم أجد له أصلاً.

[١٩٤] وعن عروة بن الزبير / أنه قال: إنما أفرح في ساعة الغفلة، فكيف يفرح من يمشي بين الجنة والنار ولا يدري إلى أيتهما يصير. ويقال: أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك.

وروي عن طلحة أنه ضحك يوماً، فوثب على نفسه فقال: فيم الضحك؟ إنما يضحك من قطع الأهوال وجاز الصراط. ثم قال: آليت أن لا افتخر ضاحكاً حتى أعلم بم تقع الواقعة، فما رأى ضاحكاً حتى صار إلى الله تعالى.

وروي عن وهيب بن الوردى أنه نظر إلى قوم يضحكون في يوم الفطر فقال: إن كان هؤلاء غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين، ولئن كانوا لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين. ويُشند:

عجبت لضحك المرء والموت خلفه وللمشتري دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه بدنيا سواه فهو من ذين أعجب

وروي عن مالك بن دينار أنه قال: ما رأيت محمد بن واسع قط ضاحكاً، ولقد كان يبكي حتى نرحمه، قال: ولقد ذكرت له ذلك. فقال: وكيف يضحك من لا يدري بم يختم له. وروي أنه جلس يوماً إلى ثابت البناني فسمعه يمزح فقال له محمد: تمزح في مجلسك، ولقد كنا نجلس إلى الحسن فكان إذا خرج إلينا خرج كأنه قد عاين الآخرة ثم جاء يحدثنا عنها.

وعن جعفر بن سليمان أنه قال: كنت إذا وجدت من قلبي قساوة ذهبت فنظرت إلى محمد بن واسع، وكنت إذا نظرت إليه حسبته وجه تكلى. وعن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً﴾^(١). أنها التبسم، ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ أنها الضحك مع الاستهزاء.

[١٩٥] وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من كثر ضحكك قلت هيئته. وعن علي بن أبي طالب أنه قال: إذا ضحك العالم ضحكة معج من / العالم مجة. وقيل في مثور الحكم: ضحك المؤمن غفلة من قلبه. وحسبك وعيداً على الضحك وتهديداً قول الله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً﴾^(٢).

والقول في الضحك كالتقول في المزاح، إن تجافاه الإنسان نفر عنه، وأوحش منه، وإن ألقه كانت حاله كما وصفنا، فليكن حاله عند الإيناس بدل الضحك تبسماً وبشراً؛ لأن النبي عليه السلام كان يتبسم حتى تبدو نواجذه، وهذا أبلغ في الإيناس من الضحك الذي يكون

(١) سورة الكهف الآية: ٤٩.

(٢) سورة التوبة الآية: ٨٢.

استهزأ وتعبجاً. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: التبسم دعابة. والله أعلم به الحول والتوفيق.

الفصل التاسع: في كف اللسان عن الشماتة وعمّا لا يعنيه

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك»^(١) ويروى أن علي بن أبي طالب أوتي برجل قد جنى جناية فرأى ناساً يسرون خلفه فقال: لا مرحباً بوجوه لا تُرى إلا عند سوءة.

وقال الله تعالى حكاية عن هارون عليه السلام: قال لأخيه: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ﴾^(٢). ويروى في قصة أيوب عليه السلام أنه قيل له: أيُّ الأشياء كان في بلاتك أشد عليك؟ قال: شماتة الأعداء. قال الشاعر:

إذا ما الدهر جرّ على أناس كلا كله أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا
وقال آخر:

ذهب الذين من الثقات عرفتهم لم يبق إلا شامت أو حاسد
فإذا صفا لك من زمانك واحد فهو المراد وأين ذاك الواحد

وعلى الإنسان أن يضبط نفسه حتى لا تفرح بمساءة أحد، ويكف لسانه حتى لا يشمت بأحد؛ فإن ذلك ليس من أخلاق العقلاء والأولياء؛ لأن العاقل قد يتقن أن الدنيا دار البلى، وأن من كان فيها فلا يعطى له الأمان من الرزايا، والأولياء من صفاتهم الرحمة لأهل البلاء.

وقد روي أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: يا موسى ارحم عبادي المبتلى منه والمعافى، قال: يا رب هذا المبتلى، فما بال المعافى؟ قال: لقلته شكره إياي على عافيتي له.

فصل

وينبغي للإنسان أن يحترز من كثرة الكلام فيما لا يعنيه فيكفيه منه ما بلغ به حاجته، فلا ينبغي أن يكثر الحكايات ولا السؤال عن تفاصيل البلاد إلا أن يريد الانتقال إليها.

(١) قال العراقي في المعنى (٣/١٨٤): رواه الترمذي من حديث وثالة بن الأسقع وقال حسن غريب، وفي رواية ابن أبي الدنيا: فيرحمه الله.
(٢) سورة الأعراف الآية: ١٥٠.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(١) وعنه أيضاً أنه قال: «أكثر الناس ذنبواً أكثرهم كلاماً فيما لا يعنيه»^(٢).

وقيل لبعض الحكماء: ما خير ما أعطي العبد؟ قال: فراغ القلب عما لا يعنيه، ليتفرغ لما يعنيه. ويروى أنه قيل للقمان الحكيم: بماذا نلت ما نلت من الحكمة؟ قال: بثلاث خصال، بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعينني.

ويقال: من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثر ذنوبه، ومن كثر ذنوبه فالتار أولى به. وفي أثر العلماء: أن في المباح من الكلام أربعة أمور:

أحدها: شغل الكرام الكاتبين بما لا فائدة فيه وحق على المرء أن يستحى منهما، قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(٣).

[١٩٧] الثاني: إرسال كتاب إلى الله سبحانه من اللغو، والهدر / فليحذر العبد من ذلك وليخش الله تعالى. ويروى أن بعض السلف نظر إلى رجل يتكلم بالخنا فقال: «يا هذا إنما تُملي كتاباً إلى ربك فانظر ما تملي.

الثالث: قراءته بين يدي الملك الجبار يوم القيامة، على رؤوس الأشهاد بين الشدائد والأهوال عطشاناً عرباناً جوعاناً مقطوعاً عن الجنة محبوساً عن النعمة.

الرابع: اللوم والتعير لماذا قلت، وانقطاع الحجة والحياء من رب العزة، وقد قيل: إياك والفضول، فإن حسابه يطول. وكفى بهذا واعظاً لمن اتعظ وقد قال النبي ﷺ: «إن اللسان أملك شيء للإنسان، وإن كلام ابن آدم كله عليه لا له إلا: ذكر الله تعالى أو أمراً بمعروف، أو نهياً عن منكر، أو إصلاحاً بين مؤمنين». ثم لم تمض الأيام حتى نزلت هذه الآية: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِضْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٤). والله أعلم.

الفصل العاشر: في الصمت وفضيلة الكلام

ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كيف يدخل أحدكم الجنة مع لسانه من تكلم فليقل

(١) قال العراقي في المغني (١٠٩/٣): رواه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٢) أطراف الحديث عند: العقيلي في الضعفاء (٤٢٤/٣)، ابن الجوزي في اللعل المتناهية (٢١٦/٢)،

المنذري في الترغيب والترهيب (٥٤٠/٣)، والزيدي في الإتحاف (٤٦٢/٧).

(٣) سورة ق الآية: ١٨.

(٤) سورة النساء الآية: ١١٤.

خيراً أو ليصمت». وعنه عليه السلام أنه قال: «إن الله عند لسان كل قائل فليتق الله ربه ويعلم ما يقول»^(١) وينشد:

وإذا خشيت ملامة من منطق فاخزن لسانك في اللهات وأطرق
واحبس لسانك أن تقول فتبتلى إن البلاء موكل بالمنطق
ويروى أن أعرابياً كان يجالس الشعبي فكان يكثر الصمت فقال له الشعبي يوماً: ما لك لا تتكلم. قال: أسكت فأسلم وأسمع فأعلم.

/ وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: متى أتكلم؟ قال: إذا اشتبهت السكوت. قال: ومتى [١٩٨] أسكت؟ قال: إذا اشتبهت الكلام. وكان بعض العلماء يحسم الرخصة في الكلام فيقول: إذا جالست الجهال فانصت لهم، وإذا جالست العلماء فانصت لهم. قال: فإن إنصاتك إلى الجهال زيادة في الحلم، وفي إنصاتك إلى العلماء زيادة في العلم. وينشد:

لعمر كان صمتك ألف عام لأصلح من كلامك في الفضول
فأمسك أو ترى للقول وجهاً يبين صوابه لذوي العقول
وقال بعض الحكماء: إذا تكلمت فلا تتكلم إلا بخير، فلعله أن يكون آخر كلامك من الدنيا. وكان بعض السلف يقول: اطلب من يسكت، فإن من يتكلم كثير.

ويروى أن يونس عليه السلام كان يطيل الصمت بعد ما خرج من بطن الحوت، فقيل له: ألا تتكلم قال: الكلام صيرني إلى بطن الحوت. وينشد لأبي نواس^(٢):

خل جنبيك لرام وامض عنه بسلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام
إنما السالم من الجسم فاه بلجام
كم كلام ساق ختفاً لفثام وفثام

(١) أطراف الحديث عند: أبي نعيم في الحلية (٨/١٦٠، ٣٥٢)، الخطيب في تاريخ بغداد (٩/٣٢٩)، ابن أبي شيبة في المصنف (٣/٢٣٤).

(٢) هو: رئيس الشعراء أبو علي الحسن بن هانيء الحكمي، وقيل: ابن وهب: ولد بالأهواز ونشأ بالبصرة. . . قيل: لقب بهذا (أي بأبي نواس) لضغفرتين كانتا تنوسان على عاتقه أي تضطربان. . . ولأبي نواس اختيار وأشعار رائقة في الغزل والخمور، وحظوة في أيام الرشيد والأمين مات سنة خمس أو ست وتسعين ومئة، وقيل: سنة ثمان وتسعين عفا الله عنه - وعنا معه أمين - (الذهبي في سير أعلام النبلاء ٩/٢٧٩).

وبما استفتح بالمزح معاليق الحمام
والمنايا أكلات شاربات للأنام

وعن مجاهد أنه قال: ما شيء تكلم به العبد إلا أحصى عليه حتى أتته في مرضه. وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال: من لم يعد كلامه من عمله كثرة خطايا.

وقال بعض البلغاء: احبس لسانك قبل أن يطيل حبسك، أو يتلف نفسك، فلا شيء [١٩٩] أولى / يطول حبس من لسان يقصر عن الصواب ويسرع إلى الجواب. وعن طاوس أنه كان يقول: لساني سبع إن أرسلته أكلتي. ويُشد لبعضهم:

منع اللسان من الكلام لأنه كهف البلاء وجالب الآفات
فإذا نطقت فكن لربك ذاكراً لا تسه وأحمده في الحالات

ويروى عن داود عليه السلام أنه قال: رب كلام ندمت عليه، وما ندمت على صمت قط. وعن إبراهيم بن أدهم أنه قال: من اتقى الله لم يدر ما يقول، فإنه يخاف من كل ما يتكلم به من الخير والشر، إن تكلم بالخير خاف المقت أن يقول ما لا يفعل، وإن تكلم بشر خاف العقوبة. وقال بعض السلف: إذا طلبت صلاح قلبك، فاستعن عليه بحفظ لسانك، وأنشدوا:

القول كاللبن المحلوب ليس له رد وكيف يرد الحالب اللبن
في ضرعه وكذا القول ليس له في الصدر رد قبيحاً كان أو حسناً

وقال بعض الحكماء: ألزم الصمت تعد حكيماً جاهلاً كنت أو عالماً. وقال بعض الفحشاء: اعقل لسانك إلا عن حق توضحه، أو باطل تدحضه، أو حكمة تنشرها، أو نعمة تشكرها. وقيل لبعضهم: إنك قد أطلت سجن لسانك فقال: إنه غير مأمون إذا أطلق. قال الشاعر:

رأيت اللسان على أهله إذا ساسه الجهل ليشاً مغيراً

ويروى عن أبي الحجاج العابد أنه كان ألزم نفسه أن لا يكلم أحداً وكان لزم مكة فدخل عليه هارون الرشيد فكلمه فلم يجبه، فكلّم في ذلك فكتب لهم في الأرض: هو لا يقبل من الله [٢٠٠] وقد أمره ونهاه، ويقبل مني أنا؟ إني أجل الله من أن أنزل نفسي / هذه المنزلة.

وعن بعض أصحاب الربيع بن خثيم^(١) أنه قال: صحبت الربيع عشرين سنة، فما أعلم

(١) في الأصل: الربيع بن خثيم وهو تحريف، وهو الإمام القدوة العابد أبو يزيد الثوري الكوفي أحد =

أني سمعت منه في تلك العشرين إلّا كلمة تصعد. ويقال: لما قتل الحسين ابن علي قال قوم: اليوم يتكلم الربيع، فاتوه فقالوا له: قتل الحسين، قتل ابن فاطمة. فقال: قتلوه، فمد بها صوته ثم قال: ﴿اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالَمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾^(١) . . . الآية.

وروي عن بلشة زوج يوسف بن أسباط أنها قالت: كان إذا دخل شهر رمضان لم يكلم يوسف أحداً حتى يفطر، وكان إذا جاء السحر جاء إلى الزنبيل معلقاً فأدخل يده فيه، فما أصاب من شيء أكله، ثم يخرج إلى صلاة الفجر ثم لا ينصرف حتى يصلي العشاء فإذا انصرف صلى إلى السحر فلا يزال دأبه ذلك حتى يفطر. وروي عن النبي ﷺ أنه قال في بعض خطبه: «أيها الناس ألا أدلكم على أمرين خفيف مؤنتها، عظيم أجرها، لم يلق الله بمثلهما طول: الصمت، وحسن الخلق». ومن أحسن ما يُنشد في الصمت:

أيها المرء لا تقولن قولاً
لست تدري ماذا نجاتك منه
وإذا الناس أكثروا في حديث
ليس مما يزينهم فآلهُ عنه
واخزن القول إن في الصمت حكماً
وإذا أنت قلت قولاً فزنه

ويروى أن رجلاً أتى بعض العلماء فأنى عليه في وجهه ثم سأله عن الزهد في الدنيا ما هو؟ فقال: يا بطلان تسأل عن الزهد في الدنيا، وأنت لا تزهد في الكلام فكيف تزهد في الدنيا، اذهب فاعمل في ضبط لسانك عشرين سنة ثم بعد ذلك فاسأل عن الزهد والله أعلم.

[٢٠١]

فصل: في /فضيلة الكلام

اعلم أنه وإن أطنبنا في فضل الصمت، فإن الكلام الحسن أفضل منه؛ لأن في الصمت السلامة وفي التكلم بالخير الغنيمة والكرامة ألا ترى إلى قوله عليه السلام: «رحم الله من قال خيراً فغنم أو سكت عن شر فسلم»^(٢).

وقال الله تعالى في قصة يوسف عليه السلام مع الملك فلما كلمه قال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا

= الأعلام، أدرك زمام النبي ﷺ وأرسل عنه . . . وكان يعد من عقلاء الرجال . . . روى منصور عن إبراهيم قال: قال فلان: ما أرى الربيع بن خثيم تكلم بكلام منذ عشرين سنة إلّا بكلمة تصعد، وعن بعضهم قال: صحبت الربيع عشرين عاماً ما سمعت منه كلمة تعاب . . . قيل توفي الربيع بن خثيم قبل ستة خمس وستين. (الذهبي في سير أعلام النبلاء).

(١) سورة الزمر الآية: ٤٦.

(٢) نحو هذا الطرف عند: العجلوني في كشف الخفاء (١/٥١٤)، السيوطي في الدرر المنتشرة (٨٩).

مِكِينٌ أُوَيْسٌ»^(١). وإنما بأن فضله بكلامه. ويقال أن يوسف لمّا دخل على الملك كلّمه الملك بسبعين لساناً، فأجابه يوسف عنها كلها ثم كلمه يوسف بالعبرانية، فلم يكن عند الملك منها شيء فقال: ما هذا اللسان؟ فقال: لسان إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ثم كلّمه يوسف بالعربية فلم يعرفها الملك. فقال: ما هذا اللسان؟ قال: لسان نبي يبعث في آخر الزمان وهو لسان أمته، وهو كلام أهل الجنة في الجنة. فقال له الملك: يا يوسف بارك الله لك في العقل الذي به فهمت، وبارك الله لك في الفهم الذي به نطقت، وبارك الله لك في المنطق الذي به فسرت وعبرت ويقال: من أفضل الكلام: أن الصمت يمدح بالكلام، ولا يمدح الكلام بالصمت، وما عبر عن شيء فهو أفضل منه.

وقال بعض العلماء: ما أحسن الكلام، وأحسن منه معناه، وما أحسن المعنى، وأحسن منه استعماله، وما أحسن العمل، وأحسن منه ثوابه، وما أحسن الثواب، وأحسن منه رضى من علمت له. قال:

لولا الكلام لما تبين الهدى وتفصلت في ديننا الأحكام

[٢٠٢] ويقال: الصمت منام، والكلام يقظة. وقال بعض الأدباء / كلام المرء وافد أدبه وقال بعض البلغاء: يستدل على عقل الرجل بقوله، وعلى أصله بفعله.

وعن سليمان بن عبد الملك أنه ذم الكلام في مجلسه فقال: كلا إن من تكلم فأحسن قدر أن يسكت فيحسن وأنشد لأبي الفتح البستي:

تكلم وسدد ما استطعت فإنما كلامك حيّ والسكوت جماد
فإن لم تجد قولاً سديداً تقولهُ فصمتك عن غير السداد سداد

وقال بعض الحكماء: إن الله رفع درجة اللسان عن سائر الجوارح فانطقه بتوحيده. ويروى أن النبي ﷺ قال لعنه العباس: «يعجبني جمالك» قال: وما جمال الرجل يا رسول الله؟ قال: «لسانه».

وقال خالد بن صفوان: ما الإنسان لولا اللسان، هل كان إلّا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة. وقال بعض الحكماء: اللسان وزير الإنسان. قال أبو تمام^(٢):

(١) سورة يوسف الآية: ٥٤.

(٢) شاعر العصر أو تمام حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس الطائي من حوزان من قرية جاسم، أسلم وكان نصرانياً. قاله الذهبي في سير أعلام النبلاء (١١/٦٣).

ومما كانت الحكماء قالت لسان المرء من خدم الفؤاد
وقال الشاعر:

رأيت العز في أدب وعقل وفي الجهل المذلة والهوان
وما حسن الرجال لهم بحسن إذا لم يسعد الحسن البيان
كفى بالمرء عيباً أن تراه له وجه وليس له لسان

واعلم أن للكلام شروطاً لا يسلم المتكلم من الذلل إلا بها ولا يعرى من النقص إلا باستيعابها وهي أربعة شروط:

أحدها: أن يكون الكلام لداع يدعوه إليه إما في اجتلاب نفع أو دفع ضرر؛ لأن ما لا داعي له ولا سبب؛ هذيان وهجر. ومن سامح نفسه في الكلام إذا عرض ولم يراع صحة دواعية وإصابة / معانيه، كان قوله مردوداً ورأيه مغلولاً كالذي حكى ابن عائشة أن شاباً كان [٢٠٣] يجالس الأحنف ويطيل الصمت فأعجب ذلك الأحنف، فخلت الحلقة يوماً فقال الأحنف: تكلم يا ابن أخي. فقال: يا عم أرايت لو أن رجلاً سقط من شرفة هذا المسجد، أكان يضره شيء. فقال: يا ابن أخي ليتنا تركناك مستوراً ثم تمثل الأحنف بقول الأعرور الشيعي:

وكأين ترى من ساكت لك معجب زيادته ونقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وكالذي حكى عن أبي يوسف الفقيه: أن رجلاً كان يجلس إليه فيطيل الصمت، فقال له أبو يوسف: ألا تسأل؟ قال: بلى، متى يفطر الصائم؟ قال: إذا غربت الشمس. قال: فإن لم تغرب إلى نصف الليل. قال: فتبسم أبو يوسف، وتمثل ببنتي الخطفاء جد جرير فقال:

عجبت بلإزاء العيي بنفسه وصمت الذي قد كان بالعلم أعلما
وفي الصمت ستر للعيي وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما

وانظر كيف أبان الكلام عن جهل هذين إذ لم يكن لهما داع إليه ولا روية فيما تكلما به، ولو صدر عن روية ودعي إليه داع لسلموا من شينه وبرؤا من عييه، ولذلك قال عليه السلام: «لسان العاقل»^(١) من وراء قلبه، فإذا أراد الكلام رجع إلى قلبه فإن كان له تكلم وإن كان عليه أمسك، وقلب الجاهل من وراء لسانه يتكلم بكل ما عرض له»^(٢).

(١) في الإحياء: «المؤمن».

(٢) قال العراقي في المغني (١٠٧/٣): لم أجده مرفوعاً وإنما رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من رواية =

الشرط الثاني: أن يأتي بالكلام في موضعه، فإن الكلام في غير حينه لا يقع موقع [٢٠٤] الانتفاع به، وما لا يتفع به من الكلام فهو هجر وهذيان، / فإن قدم ما يقتضي التأخير كان عجلة وخرفاً، وإن أخر ما يقتضي التقديم كان توائماً وعجزاً؛ لأن لكل مقام قولاً وفي كل زمان عملاً. وأنشدوا:

تحدث بصدق إن تحدثت وليكن لكل حديث من حديثك حين
وما القول إلا كالثياب فبعضها عليك وبعض في التخوت مصون
وقال آخر:

تضع الحديث على مواضعه وكلامها من بعده نزر

الشرط الثالث: الاقتصار منه على قدر الحاجة؛ لأنه إن لم ينحصر كان إما عياً وحسراً إن قصر، وإما هدرأ وخطلاً إن كثر. ويروى أن أعرابياً تكلم عند النبي عليه السلام فطوّل، فقال له عليه السلام: «كم دون لسانك من حجاب؟» فقال: شفتي وأسناني. قال: «فإن الله يكره الانبعاث في الكلام فنصر الله وجه امرئ أوجز في كلامه واقتصر على حاجته»^(١) وحكي أن بعض الحكماء رأى رجلاً يكثر في الكلام ويقبل السكوت فقال: إن الله عز وجل إنما خلق لك أذنين ولساناً واحداً ليكون ما تسمعه ضعف ما تتكلم به.

وذهب بعضهم إلى أن الكلام إذا كثر وكان صواباً فهو البيان والسحر الحلال. وقيل لإياس بن معاوية: ما فيك عيب إلا كثرة الكلام. قال: أفنسمعون صواباً أو خطأ. قالوا: لا بل صواباً. قال: فالزيادة من الخير خير.

وروي عن الجاحظ أنه قال: ليس الأمر كما قال، لأن للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية، وما فضل عن مقدار الاحتمال، ودعي إلى الاستقلال والملاذ ذلك الفاضل هو الهدر.

[٢٠٥] وقال بعض البلغاء: من تسلم به خير من نطق تندم عليه / فاقصر من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغ حاجتك وإياك وفضوله؛ فإنها تزل القدم وتورث الندم. وقال بعض الفصحاء: فم العاقل ملجم، وإذا همّ بالكلام أحجم، وفم الجاهل مطلق كلما شاء أطلق وقال الشاعر:

إن الكلام يغير القوم حلوته حتى يلج بهم غيٌّ وإكثار

= الحسن البصري قال: كانوا يقولون.

(١) أطرافه عند: الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٤٦٧/٧)، السيوطي في الدر المشور (١١٢/٣).

وقول الجاحظ أمثل؛ لأن الإكثار من الكلام وإن كان صواباً يمل السامع ويكل المخاطر، فهو صادر عن إعجاب لولاه لقصر عنه، ومن أعجب بكلامه استرسل فيه فيكثر زلله ويدوم عثاره. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أبغضكم إلي المتفهيق المكثار والمُلح المهدار» والله أعلم.

الشرط الرابع: هو اختيار اللفظ الذي يتكلم به: لأن اللسان عنوان الإنسان يترجم عن مجهوله، ويرهن عن محصله، فلزمه أن يكون بهذيب ألفاظه جديراً، وليس يصح اختيار الكلام إلا لمن اعتاد البلاغة ولزم الفصاحة، فلا يأتي بلفظ مستكره، ولا بمعنى مختل؛ لأن البلاغة ليست معاني مقدرة، ولا ألفاظ عارية وإنما البلاغة أن تكون المعاني الصحيحة مستودعة في ألفاظ صحيحة فصيحة فتكون فصاحة الألفاظ مع صحة المعاني هي البلاغة.

وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: اختيار الكلام، وتصحيح الأقسام. وقيل للرومي، فقال: حسن الاقتصاد عند البديهة، والغزارة يوم الإطالة. وقيل للعربي، فقال: ما حسن إيجازه، وقَلَّ مجازه. وقيل للحضرمي، فقال: ما كثر إعجازه وتناسبت صدوره وأعجازه. / قال الشاعر: [٢٠٦]

خير الكلام قليل	على كثير دليل
والعني معنى قصير	يحويه لفظ طويل
وفي الكلام فضول	وفيه قال وقيل

وأما صحة المعنى: فتكون من ثلاثة أوجه:

أحدها: إيضاح تفسيرها حتى لا تكون مشكلة ولا مجملة.

والثاني: استيفاء تقسيمها حتى لا يدخل فيها ما ليس منها، ولا يخرج عنها ما هو منها.

والثالث: صحة مقابلاتها أعني مقابلة المعنى بما يوافق في الالتفاف، أو بما يضاده مع الاختلاف.

وأما فصاحة الألفاظ: فتكون من ثلاثة أوجه:

أحدها: مجانبة الغريب الوحشي حتى لا يمجح سمع ولا ينفر منه طبع.

والثاني: تنكب اللفظ المستبدل، والعدول عن الكلام المسترذل، حتى لا يستسقطه

خاصي، ولا ينبؤ عن فهمه عامي.

والثالث: أن تكون بين الألفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة، فالمناسبة معناها أن يكون

المعنى يليق ببعض الألفاظ. والمطابقة معناها أن تكون الألفاظ كالقوالب لمعانيها فلا يزيد

عليها ولا ينقص منها. وقد قال بعض البلغاء: لا يكون البليغ بليغاً حتى يكون معنى كلامه أسبق إلى فهمك من لفظه إلى سمعك.

وأما معاطات الإعراب، وتجنب اللحن: فإنما هو من صفة الصواب، والبلاغة أعلى منه رتبة وأشرف منزلة وليس لمن لحن في كلامه مدخل في الأدباء، فضلاً عن أن يكون في عدد [٢٠٧] البلغاء الفصحاء. واعلم أن للكلام آداباً إن أغفلها / المتكلم أذهب رونق كلامه وشغل الناس عن محاسن لفظه مساوئ أدبه.

منها: أن لا يتجاوز في مدح، ولا يسرق في ذم، وعلى أن السلامة من الكذب فيها متعذرة، وحكي عن الأحف أنه قال: سهرت ليلتي أتفكر في كلمة أرضي بها سلطاني ولا أسخط بها ربي فما وجدتتها.

وعن ابن مسعود أنه قال: إن الرجل يدخل على السلطان ومعه دينه ويخرج وما معه دين. قيل: وكيف ذلك؟ قال: يرضيه بما يسخط الله تعالى. قال: وسمع ابن الرومي رجلاً يصف رجلاً ويبالغ في مدحه فقال ابن الرومي^(١):

إذا ما وصفت أمر الأمراء فلا تغل في وصفه واقصد
فإنك إن تغل تغل الظنور فيه إلى الأمد الأبعد
فيضوئل من حيث فحمته بفضل المغيب على المشهد

ومنها: أن لا تبعثه الرغبة ولا الرهبة على الاسترسال في وعد أو وعيد يعجز عن الوفاء بهما، فإن من أطلق بهما لسانه، ولم يستقل بهما فعله صار وعده نكتاً ووعيده عجزاً.

وحكي أن سليمان عليه السلام مر بعصفور يدور حول عصفورة، فقال لأصحابه: أتدرون ما يقول لها؟ قالوا: لا يا نبي الله. قال: إنه يخطبها إلى نفسه وهو يقول زوجيني نفسك أسكنك أي غرف دمشق شئت.

قال سليمان عليه السلام: وكذب العصفور غرف دمشق مبنية بالصخر وليس يقدر أن يُسكنها هناك ولكن كل خاطب كذاب.

(١) شاعر زمانه مع البُحْري، أبو الحسن علي بن العباس ابن جريح مولى آل المنصور، له النظم العجيب، والوليد الغريب، رتب شعره الصُّولي، وكان رأساً في الهجاء، وفي المديح. . مولده سنة إحدى وعشرين وميتين، ومات الليثين بقتنا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين، وقيل: سنة أربع. قاله الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٣/٤٩٠).

ومنها: أن يراعي مخارج كلامه بحسب مقاصده فإن كان ترغيباً قرنه باللين واللفظ، وإن كان ترهيباً قرنه بالخشونة والعنف / لئلا يتعطل المقصود بهما ويصير الكلام لغواً. وقد قال [٢٠٨] أبو الأسود الدؤلي لابنه: إذا كنت في قوم فلا تتكلم بكلام من فوقك فيمقتوك ولا بكلام من دونك فيزدروك.

ومنها: أن لا يرفع بكلامه صوتاً مستقبحاً، ولا يزعج انزعاجاً مستهجنأً، وليكيف عن حركة تكون طيشاً وعن إشارة تكون عبثاً، فإن نقص الطيش أكثر من فضل البلاغة.

وقد حكى أن الحجاج قال لأعرابي: أخطيب أنا؟ قال: نعم لولا أنك تكثر الرد، وتشير باليد، وتقول أما بعد.

ومنها: ان يتجافى هجر القول وفحش الكلام، وليعدل إلى الكناية عما يستقبح صريحه ليبلغ الغرض ولسانه نزه. وعن محمد بن علي في تأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللُّغُومِ مَرْؤًا كِرَامًا﴾^(١). قال: إذا ذكروا الفروج كانوا عنها. ومما يجري مجرى فحش القول في وجوب اجتنابه ما كان مستنكر الظاهر، وإن كان مع التأمل سليماً، مثل قول الشاعر:

إنني شيخ كبير كافر بالله سيرى أنت ربي وإلهي رازق الطفل الصغير

يريد بقوله كافر أي لابس؛ لأن الكفر في اللغة التغطية، وقوله: بالله سيرى أقسم عليها بالله أن تسير، وقوله: أنت ربي يعني مربى ولدك، وإلهي رازق الطفل الصغير كما أنه رازق الكبير.

انظر إلى هذا التكلف البشيع ما اعتاض به صاحبه إلا لو ما بعد الكفران أحسن فيه الظن، أو ذمأ أن قوي فيه الارتباب، ولعل ما يكون ذلك إلا من خلع بطر أو مراتب أشر.

ومنها: أن يجتنب أمثال العامة الغوغاء ويتخصص بأمثال العلماء والأدباء، فإن لكل صنف من الناس أمثالاً تشاكلهم، فلا تجد لساقط الأمثال ساقطاً، قال الصنوبري:

وللسقاط أمثال فمنها

إذا ما كنت ذا بول صحيح

ولذلك علتان:

إحداهما: أن الأمثال من هواجس الهمم، مع تجرد لذي الهمة الساقطة، فلم تجد لذي الهمة الساقطة إلا مثلاً مردولاً.

والثاني: أن الأمثال مستخرجة من أحوال المتمثلين بها، فبحسب ما هم عليه تكون أمثالهم. واعلم أن للأمثال مواقع في الأسماع، وتأثيراً في القلوب؛ لأن المعاني بها لائحة، والمعقول لها موافقة، ولذلك ضرب الله الأمثال في كتابه، وأوضح بها الحجة على خلقه؛ لأنها مقبولة في القلوب ولها أربعة شروط:

أحدها: صحة التشبيه وإصابة التمثيل.

والثاني: أن يكون العلم بها سابقاً والكلام عليها موافقاً.

والثالث: أن يسرع وصولها إلى الفهم من غير كد فكر في استخراجها.

والرابع: أن يناسب حال السامع ليكون أبلغ تأثيراً وأحسن موقعاً. فإذا جمعت الأمثال هذه الشروط الأربعة كانت زينة الكلام وحلى المعاني، والله أعلم وأحكم وبه الحول والتوفيق.

الباب الثالث

في تنزيه السمع

اعلم أرشدك الله أن كل لفظ يجب العقاب عليه حرام عليك الاستماع إليه، فإن القائل والمستمع شريكان في شر القول وخيره، قال الله سبحانه: ﴿وَقَدْ نُزِّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا...﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾^(١).

وفي الحديث: «المستمع شريك القائل والمستمع إلى الغيبة أحد المغتابين»^(٢) الواجب على الإنسان أن يصون سمعه عن لفظ المنكر والبدعة والفحش والخنا، كما أنه واجب عليه أن يصون لسانه عن التكلم به، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ...﴾^(٣) [٢١٠] الآية. قيل: إنها نزلت في استماع الغناء. وعن ابن مسعود / رحمه الله أنه قال: الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع.

(١) سورة النساء الآية: ١٤٠.

(٢) عن نحوه قال العراقي في المعنى (٢٤٣/٣): رواه الطبراني من حديث ابن عمر: نهى رسول الله ﷺ عن الغيبة وعن الاستماع إلى الغيبة وهو ضعيف.

(٣) سورة لقمان الآية: ٦.

وروي عن نافع أنه قال: سمع ابن عمر في سفر صوت زمارة راع، فعدل راحلته عن الطريق وجعل أصبعيه في أذنيه وهو يقول: يا نافع أسمع؟ فأقول: نعم، حتى إذا قلت لا أرسل أصبعيه وعاود الطريق. ويقال: الاستماع إلى الغناء يثبت النفاق في القلب ويحرق خصب الإيمان. وفي الحديث: «من سمع صوت غناء فالتذ به لم تقبل له صلاة إلى ذلك الوقت من الغد».

ومن غنى كذلك ورد الخبر: وعن محمد بن المنكدر أنه قال: بلغنا أن الله عز وجل يقول يوم القيامة أين عبادي الذين كانوا ينزهون أنفسهم وأسماعهم عن اللهو ومزامير الشيطان، أحلّوهم رياض المسك وأخبروهم أنني قد أحللت عليهم رضواني.

وسئل القاسم بن محمد عن الغناء أحرام هو؟ فسكت ثم أعيد عليه السؤال. فقال للسائل: إن الحرام هو ما حرّمه الله في القرآن أرأيت إذا أتيت بالحق والباطل إلى الله عز وجل في أيهما يكون الغناء؟ قال السائل: في الباطل. قال له القاسم: وأنت فافت لنفسك.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من استمع إلى حديث قوم وهم يفرون منه صب في أذنيه الآنك يوم القيامة»^(١). وقال بعض العلماء: إذا رأيت قوماً اجتمعوا لصوت الغناء فلعبوا ولهوا، فاجتنبوهم فإنهم عن سبيل الحق قد ضلوا وعموا. وقال: زهوا أصواتكم عن صوت الغناء والشم فإنه يقسي القلوب، ويصم الهمم، ويخرج عظمة الله من قلب سامعه، ويثبت النفاق في قلب قائله ولا تصغو الفحشاء الكلام؛ فإنه شر لكم، ووبال عليكم، فإن الشر إذا ثبت في القلب صعب على العبد معالجة زواله، والخير إذا رسخ في القلب سهلت على العبد معالجة كماله.

ويقال: زه سمعك / عن كلام النساء فإن فيه لذة ومكامن الفتنة، فمن سمع كلاماً والتذ [٢١١] به اشتاق إلى الرؤية، فعلى العبد صيانة سمعه عن الخنا، وفضول الكلام وذلك لأمرين:

أحدهما: كما قدمنا أن المستمع شريك القائل. قال الشاعر:

تحر من الطرق أوساطها	وعد عن الجانب المشتبه
وسمعك صن عن سماع القبيح	كصون اللسان عن النطق به
فإنك عند سماع القبيح	شريك لقائله فاتنبه

(١) قال العراقي في المغني (١٩٩/٢) عن نحوه: رواه البخاري من حديث ابن عباس مرفوعاً وموقوفاً عليه وعلى أبي هريرة أيضاً.

والأمر الثاني: أن ذلك يهيج الوسواس في القلب، ثم تبدأ الاشتغال من البدن، فما يبقى بعد ذلك شيء للعبادة. ويقال: مثل الكلام الذي يقع في قلب الإنسان وسمعه، كالطعام الذي يقع في جوفه، منه الغذاء النافع ومنه السم الناقع.

بل بقاء الكلام في القلب أعظم وأطول لأن الطعام يزول عن المعدة، وله دواء يزيل عن الجسم أثره. وأما الكلام في القلب فربما يبقى طول عمر الإنسان ولا ينساه، فإن كان كلاماً رديئاً فلا يزال يتبعه، ويعنيه وترد بسببه وسواس في القلب يحتاج أن يعرض عنها وعن ذكرها، ويستعذ بالله من شرها، ولا يأمن أن تحمله على بلية توقعه في آفة عظيمة بسبب ذلك؛ ولو حفظ سمعه عما لا يعنيه لكان من هذه المؤنة مستريحاً. قال:

أحب الفتى ينفي الفواشح سمعه كان به عن كل فاحشة وقرأ
سليم دواعي الصدر لا باسط أذى ولا مانع خيراً ولا قائل هجراً

وروي عن الحسن أنه قال: إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله تعالى، يعلم أنه مأخوذ عليه في لسانه وسمعه وسائر جوارحه والله أعلم.

[٢١٢]

/ الباب الرابع / في غرض البصر

اعلم أن لكل شيء سبباً وسبب العفة غرض البصر فليحذر الإنسان أن ينظر إلى ما حرم الله عليه تلذذاً وليحفظ من خطاب سيده ما عهد به إليه قال الله سبحانه ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ...﴾^(١) الآية. يعني يكفوا عن النظر إلى ما لا ينبغي لأن الله تعالى إنما خلق العينين: ليهتدي بهما العبد في الظلمات، ويستعين بها في الحاجات، وينظر بهما إلى ملكوت الأرض والسماوات، فيعتبر بما فيها من الآيات، فالواجب أن يحفظهما الإنسان من ثلاثة أشياء:

أحدها: أن لا ينظر إلى غير ذات محرم منه وقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «النظر إلى محاسن النساء سهم مسموم من نبال إبليس فمن غرض بصره أذاقه الله عبادة يجد طعم لذتها».

وروي عن أبي مرداس مهاصر رحمه الله: أنه نظر إلى امرأة مكشوفة الرأس فصام سنة. وعن محمد بن سيرين أنه قال ما ثبت في وجه امرأة قط إلا ثلاث نسوة أمني وأختي وامراتي. ويقال: أن حسان بن أبي سنان انصرف من العيد فقالت له امرأته: كم من امرأة حسناء نظرت إليها اليوم؟ فقال لها: ويحك ما جاوز بصري إبهامي منذ خرجت عنك حتى رجعت إليك. وقال بعض العلماء: النظرة الأولى فجأة والثانية فتنة والثالثة ريبة.

ومن كتاب محبة السعادة قال: ولا تجعل محاسن النساء علماً لعينيك فتخرج عظمة الله من قلبك، فإن النظر إلى محاسن النساء خربة للدين، فإنهن شبك نصبن فيصطاد بهن اللعين، فاحذروهن فإنهن كحل جهنم لآعينكم وسموم أرقمها لفروجكم، وقسوة تميت قلوبكم، ومرض يشين/ إيمانكم، وداء يبعدكم عن مليكمكم، فلهن تمثيل يعرض عنها خياركم ويستشققها شراركم. [٢١٣]

وقال ابن عبد الله: محاسن النساء بحر من سم نافع، وغض البصر سفينة من عود مانع، فمن ركب السفينة نجا ومن تخلف عنها غرق. وقال بعض المتقدمين: لا يجوز ترديد النظر إلى امرأة شابة من ذوي المحارم إلا عند الضرورة كالشهادة ونحوها، وإنما أبح النظر إلى النساء القواعد التي لا يرجون نكاحاً والسلامة من ذلك أفضل.

وقال ابن عبد الله: يا ابن آدم دينك قطن، ومحاسن النساء زيت، ومكائد الشيطان نار، وإياك والجمع بينهم فإنه مراد الشيطان وأمنيته.

والثاني: لا ينظر بهما إلى الصور المليحة بشهوة قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾. ويقال في هذه الآية ثلاثة معان: تأديب، وتنبه، وتهديد.

وأما التأديب: فقوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا...﴾. الآية وهو أمر واجب لا بد للعبد من أمثاله والتأديب بأداب سيده، وإلا فقد استحق العقاب والطرده والحجاب.

وأما التنبه: فقوله: ﴿ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾. أي أظهر لقلوبهم لأن الزكاة الطهارة، وقيل ﴿أَزْكَى لَهُمْ﴾ أسمى لخيرهم وأكثر لأن الزكاة في الأصل النمو والزيادة فبه أن في غض البصر، وتطهير القلب، وتكثير الطاعة والخير، وفي إرساله بالنظر إلى الحرام تعمداً ذنب كبير وربما فسد به القلب أبداً.

وقد ورد في الخير: أن العبد لينظر النظرة ينفل فيما قلبه كما ينفل الأديم في دباغ لا ينتفع به أبداً.

وأما التهديد: فقلوه: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا بَصَّعُونَ﴾^(١). وقوله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾^(٢). وينشد:

[٢١٤]

/ إن العيون على القلوب إذا جنت كانت بليتها على الإنسان

وقد روي عن عيسى عليه السلام أنه قال إياكم والنظرة فإنها تزرع في القلب شهوة، وكفى بها لصاحبها فتنة. وقال علي بن أبي طالب: العيون مصائد الشيطان.

وقال النبي عليه السلام لعلي بن أبي طالب: «لا تتبع النظرة النظرة فإن الأولى لك والثانية عليك»^(٣). وفي قوله: «لا تتبع النظرة النظرة»: تأويلان.

أحدهما: لا تتبع نظر عينك نظر قلبك.

والثاني: لا تتبع النظرة الأولى التي وقعت سهواً بالنظرة الثانية التي توقعها عمداً. وقال بعض الحكماء: من أرسل طرفه أوردته حتفه، وأطال أسفه. وقال ذو النون: نعم حاجب الشهوة غض البصر قال الشاعر:

وأنت إذا أرسلت طرفك رائداً لعينك يوماً اتبعتك المناظر
رأيت الذي لأكله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وفي المثل: رب حرب جنيت من لفظه، وعشق غرس من لحظة. ومن كتاب محجة السعادة: قال ابن عبد الحميد: غضوا أبصاركم من محارم الله عز وجل تجل عظمته في قلوبكم وتجل في ملكوت السماء عقولكم.

وقال ابن عبد الله: غضوا أبصاركم فإنه يزيد الإيمان كمالاً، ويزيد المؤمن جمالاً، ويزيد الشيطان نكالاً وتتجدد لذات الطاعة في قلوبكم وتبدو معالم الإيمان في صدوركم.

قال ابن عبد الحميد: رأيت امرأة كنت أعرفها مجتازة لبعض حاجاتها، فمرت برجل فاهتز لرؤيتها اهتزازاً عظيماً وأنا انظر إليه، فنظر إليه ابن عبد الله وقال له: اردد نظرك، واغضض بصرك، واغتمم عمرك، واحذر الإنان، وانذ الشهوات / فإن العرض آت، وكل شهوة تزول تورث حزناً يطول، ولا تفرح من الشر باباً هو عندك مقفول فإنه شر الذكور من تلذذ

(١) سورة النور الآية: ٣٠.

(٢) سورة غافر الآية: ١٩.

(٣) أطراف الحديث عند: الترمذي في الصحيح (٢٧٧٧)، وأبو داود في السنن (الكناح ب ٤٤)، الدارمي في السنن (٢٩٨/٢)، والحاكم في المستدرک (١٢٣/٣)، وأحمد في المسند (٣٥١،٣/٥).

بالمحظور وهتك المستور، ولا تجعل دينك نفقة لشهواتك، ولا محرماً طعماً لمقلتك، ولا تحول دينك من آخرتك، فإن النظر إلى الشر شر، والوقوف مع الحق مر، ولن يخفى على الله من أمرك أمر، ولو عرفت ما خلقت له لاشتغلت عما أنت فيه^(١) لكن الغافلون في سكرة وحيرة.

وروي أن بعض العلماء كان إذا مشى لم يلتفت وكان يقول: هون^(٢) العالم أن يكثر الالتفات إذا مشى. ويقال كثرة الالتفات من علامة النفاق.

وروي أن رجلاً وقف على باب النبي عليه السلام ليستأذنه. فوقف على الباب فقال له النبي عليه السلام: «هكذا عنك إنما الاستئذان لأجل النظر»^(٣) وعن سعد بن حبير أنه قال: إنما جاءت فتنة داود عليه السلام من أجل النظرة، فقال: دواد لابنه سليمان عليه السلام امش خلف الأسد والأسود ولا تمش خلف المرأة.

وقيل ليحيى بن زكريا عليه السلام: ما بدأ الزنا؟ قال: النظر والتمني. وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: لأن يزاحم أحدكم جملأً أجرب مطلياً بقطران أحب إليه من أن يزاحم امرأة.

وقال مجاهد: غض البصر يورث محبة الله تعالى. ويقال: كان الربيع بن خيثم من مداومته على غض البصر أن النساء إذا مررن به كن يقلن: ما أجمله إلا أنه أعمى.

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله ﷺ فلينظر إلى عمرو بن الأسود، كان إذا خرج من بيته خرج متنعماً بثوبه آخذاً بيمينه على شماله يمشي إلى المسجد وينظر إلى موضع قدميه وإذا دخل المسجد قال: الحمد لله رب العالمين الذي عافاني من الخيث. وأنشدوا لمحمود الوراق:

من أطلق الطرف اجتنى شهوة وحارس الشهوة غض البصر
يطوي لسان المرء أخباره والطرف لا يملك طيء الخبر
وللدارمي:

(١) جاء بالهامش لفظ «عليه» وجاء فوقها حرف الخاء.

(٢) جاء بالهامش لفظ: «وهن» وجاء فوقها حرف الخاء.

(٣) طرف الحديث عند: أبي داود في السنن (الأدب ب ١٣٧) ابن أبي شيبة في المصنف (٥٦٩/٨)، السيوطي في الدر المتثور (٢٩/٥)، وابن كثير في التفسير (٣٧/٦)، ابن حجر في فتح الباري (٢٤٤/٢).

ما ضرر جار إلى اجاوره أن لا يكون لبابه ستر
غيره:

وإذا بدت لي جارتي فرأيتها فمن المروءة أن أعرض جفوني

ويقال: نظر بعض القراء إلى غلام بشهوة فعوقب بنسيان القرآن. ويقال نظر حماد بن الهيثم إلى غلام فقال: كم من عزيز أذله الله بنظرة جعلها سبباً لخسران دنيا وآخرته، فلقبه وهو عليه بها ساخط شغله بوجه حائل^(١) وبلاء قاتل، فأحبط الله عمله وخيب من عفوهُ أمله.

قال: ونظر طلحة بن رويم إلى غلام فقال: ويحك يا عين كم تنظرين، ومن نظر الله إليك لا ترعوين ومن أليم عقابه لا ترهيبين، ومن شديد وعيده لا تخافين، وفيما يُدنيك من جنائيه لا ترغيبين حتى متى أنا من نظرك في عناء، وقلبي منك في بلاء، وجسمي منك في ضنى، أتاح الله لك العمى، وحكم لي عليك بأحسن القضاء، حتى لا تنظرين أرضاً ولا سماءً، وعوضني منك جميل الرضى.

قال: ونظر غانم بن هشام إلى غلام فقرأ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢). ثم قال: اللهم لا تستدرجنا من حيث لا نعلم وارجع بنا إلى توبة تقربنا من رحمتك وتدنينا من عفوك ولا تسلط علينا لحظات هي أعمل في قلوبنا من السيوف [٢١٧] المرهفات / والمنايا القاضيات. قال بعض الشعراء:

ساق طرفي إلى فؤادي البلايا إن طرفي على الفؤاد مشؤوم
إن يكن ينفع البكاء عليهم فابك حتى تموت يا محروم

وقال: ونظر تميم بن علوان إلى غلام فقال: واشؤم نظري واشؤم صباحي قيل له: ما أمرك؟ قال: نظرت إلى وجه خلقه الله بلاء على الناظرين وفتنة للعاصين وقد تخوفت أن أكون في نظري هذا من جملة الفاسقين.

قال: ونظر أمية بن الصلت إلى غلام فقال: أين الفرار من سجن وقد حصنه بملائكة غلاظ شداد تبارك الله ما أعظم ما امتحتني به من النظر إلى هذا الغلام ما شبعت نظري إليه إلاً بنار وقعت في قصب يوم ريح عاصف فما أبتت ولا تركت، ثم قال: استغفر الله مما جنته

(١) جاء بالهامش لفظ «مائل» وجاء فوقها حرف «خ» ووضع على حائل علامة تشير إلى ما جاء بالهامش.

(٢) سورة القلم الآية: ٤٤.

عيناي على قلبي لقد خفت أن لا أنجو من معرفته ولو وافقت القيامة بعمل سبعين صديقاً، ثم بكى حتى كاد أن يقضي، ثم قال: يا طرفي والله لأشغلنك بالبكاء عن النظر إلى البلاء.

ونظر الحكم إلى غلام فقال: عيون تنظر، وقلوب تشغل، ونفوس تذهل، وأرواح تذهب، وأجساد تضي، وأعمار تفنى، وصحف لا تطوى، وكتب لا تبلى، وذنوب لا تنسى، فسبحان من أضحك هذه العيوب بالنظر إلى المنايا القاضيات، فليتها إذا نظرت ما أبت ولا رجعت قال الشعر:

يقولون لا تنظر فتلك بلية بلى كل ذي عينين لا بد ناظر

وقال بعض الصوفية: رأيت راهباً في بلاد الشام قد أشرف من صومعته وهو يكلم غلاماً جميلاً من النصارى، ويتبسم إليه: فقلت له: ينبغي لمن كان بهذه المنزلة أيها / الراهب أن لا [٢١٨] يتبسم في وجه من لا تؤمن فنته عليه، ولا سرعة احتيال الشيطان إليه. قال: فبكى فقال: هو لعمرى كما قلت، غير أنني أعاهد الله تعالى أن لا أفتح عيني سنة عقوبة لها، ثم غض عينيه وأدخل رأسه في صومعته فانصرفت عنه وهو يبكي ويتحب.

قال: ونظر علي بن طاهر إلى غلام، فقال: إن العيون رسل القلوب إلى حاجتها، مساعدة لها على شهواتها ولا أعلم رسولاً أشد خيانة ولا أدل على بلية كامنة منها، أحذرک يا نفسي من نظر يكون أوله حيرة وآخره حسرة.

قال: ونظر أحمد بن أبي الحواري إلى رجل يضاحك غلاماً جميلاً، فقال: أيها الناظر إلي هلكته، والواقف على معرفته لقله معرفته، هل تدري بين يدي من أنت واقف؟ قال: وبين يدي من أنا؟ قال: بين يدي من تمرور السماء لهيبته، وتسير الجبال لخشيته، وتقف المياه بقدرته، وتسكن الرياح لعظمته، وتذل الملوك لعزته، فقال: فسقط الرجل مغشياً عليه. وأنشدوا:

نظرت عيني لحيني منظرأ وافق شيني

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «العينان تزنيان وزناهما النظر، واليدان تزنيان وزناهما اللمس، والرجلان تزنيان وزناهما المشي، والقلب يتمنى ويشتهي، ويصدق ذلك ويكذبه الفرج»^(١).

(١) أطراف الحديث عند: أحمد في المسند (٣٧٢/٢)، الطبراني في الكبير (١٩٢/١٠)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٦/٦)، الزيلعي في نصب الراية (٢٤٨/٤)، الربيع بن حبيب في المسند (٥٥/٢).

[٢١٩] الثالث: أن لا ينظر / بهما إلى عورة آدمي ذكراً كان أو أنثى. وقد قال عليه السلام: «ملعون من نظر إلى عورة أخيه» أو قال: «إلى فرج أخيه»^(١). وقال: «لعن الله الناظر والمنظور إليه»^(٢). يعني في أمر العورة قالوا: [الـ]«^(٣) نثى عورة بجمع بدنها وعورة الرجل من السرة إلى الركبة، والأمة مثل الرجل في العورة، ولكن نظر الشهوة حرام إلى الرجال والنساء.

وعن أبي الدرداء أنه قال: من غض بصره عن نظرة الحرام زوج من الحور العين حيث أحب، ومن اطلع في بيوت الناس حشر يوم القيامة أعمى. وعن داود الطائي أنه قال لرجل وقد أحد النظر إلى بعض من ينظر إليه قال: يا هذا اردد نظرك إليك، فإنه بلغني أن الرجل يستل عن فضل نظره كما يستل عن فضل عمله.

قال وسئل يحيى بن معاذ عن سبب الذنب؟ فقال: اعقل ما تقول فإنها من مسائل الصديقيين أكتشفه لك، فإن للمذنب أسباباً ظاهرة وباطنة فأول سببه: الخطرة فإن تداركتها ذهبت وإلا تولدت منها الفكرة، فإن تداركتها ذهبت وإلا امتزجت الوسوسة بالفكرة، فتولدت بينهما الشهوة، فإن تداركت الشهوة بطلت، وهذا كله بعد في الباطن، وإلا تولد منها الطلب فتقع في أسباب الظاهر في الطلب والسعي والوجود والموافقة قال: فحرب الصديقيين مع الخطرة وحرب الأبدال^(٤) مع الفكرة، وحرب الزاهدين مع الشهوة، وحرب التوايين مع الطلب، وحرب أهل التخليط مع الفكرة.

وقال غيره أول أسباب الذنب: النظرة، ثم الخطرة إلى سائر أسبابه. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «من اطلع في كتاب أخيه بغير إذنه فكأنما ينظر في النار»^(٥).

وجملة الأمر: أن الله حرم النظر بالشهوة، والنظر إلى كل عورة، والنظر إلى كل مستور عن الناس، من كتاب سراً، وبيت فيه حرمة، والنظر إلى المسلم بعين المحقرة، والنظر إلى الدنيا بعين الرغبة.

- (١) رواه الربيع بن حبيب في المسند (٥٦/٢).
- (٢) أطراف الحديث عند: العجلوني في كشف الخفا (٥٧٠/٢)، التبريزي في المشكاة (٣١٢٥)، المتقي الهندي في الكتر (١٩١٦٢).
- (٣) ما بين المعقوفين سقط من الأصل.
- (٤) مصطلح صوفي يزعمون أن الأرض لا تخلو من أربعين رجلاً من الصالحين كلما مات واحد منهم أبدل بأخر ويتون ذلك على أحاديث ضعيفة.
- (٥) أطراف الحديث عند: أبي داود في السنن (الدعاء ب ١) الحاكم في المستدرک (٤/٢٧٠)، الزيلعي في نصب الراية (٦٢١٣)، العقيلي في الضمفاه (٣٤١/٤)، البغوي في شرح السنة (٧٤/١١).

وأما النظر إلى المباح فليس بحرام، ولكن التنزه عن كثرة النظر أفضل. وفيما يروى عن بعض الحكماء أنه قال: أصل فساد الدنيا والدين في الفضول الأربعة: فضول الكلام، وفضول الطعام، وفضول اللباس، وفضول النظر.

وقال بعض العلماء: كل كلام ليس بذكر الله فهو لغو، وكل صمت ليس فيه تفكير فهو سهو، وكل نظر ليس فيه اعتبار فهو لهو. وقال بعضهم: البصر شبيه بالمرأة المصقولة، ومحاسن النساء تتجلى فيها، والقلب ناظر كما يتجلى في المرأة، فيلتذ به فيكون ضعف همته، وعمى بصيرته بقدر ما تمكن فيه من لذة ما يتجلى في المرأة، فإذا نظر في أنواع الملكوت عشى عنها، وإذا نظر إلى ظلمة ما يتجلى في المرأة ارتاح إلى ذلك.

قال: ومثله أيضاً كمثل العين المرمودة إذا نظرت إلى شعاع الشمس أو ضوء النهار عشت عن ذلك، وإذا نظرت إلى سواد الظلمة ارتاحت إليها، فمن كانت هذه صفته كانت ناصيته بيد الشيطان قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْسُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لَهُ شَيْطَانًا...﴾^(١) الآية.

فهذه صفة القلب الأعمى على الحقيقة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(٢). واعلم أن حفظ الجوارح فريضة وترك الفضول فضيلة. قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(٣). وينشد لإبراهيم الشامي:

<p>هل أنت عن طلب اللذات مزدجر يوماً تكور فيه الشمس والقمر فرب نفع لسيء وهو يحتقر ولا يكن لك في أصحابه أثر وليس للخلق من دينهم وزر فيشدون معاً والسمع والبصر هي الشهود عليه كيف يعتذر؟ وهل يطيق دفعا لها أم كيف يتصر؟</p>	<p>يا من يبيت على اللذات معتكفاً وعامل لمحل سوف تشهده لا تحقرن يسير الخير ففعله وجانب الشر لا تسلك طريقته فكل نفس ستجزى بالذي عملت تأتي الجلود وأيدينا وأرجلنا فنبنتي كل من كانت جوارحه أم أين يهرب أم ماذا يقول</p>
--	--

(١) سورة الزخرف الآية: ٣٦.

(٢) سورة الحج الآية: ٤٦.

(٣) سورة الإسراء الآية: ٣٦.

فصل: في ضبط الفرج عن الحرام

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ...﴾^(١) الآية. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أحب العفاف إلى الله الفرج والبطن». وقال عليه السلام: «من وقى شر ذبذبة، ولقطة، وقبقة، فقد وقى»^(٢) يريد بذبذبة فرجه، ولقطة لسانه، القبقب البطن.

وروي أن معاوية سأل عمر عن المروءة فقال: تقوى الله وصلة الرحم. وسأل المغيرة فقال: العفة عما حرم الله، والحرفة فيما أحل الله. وسأل يزيد ابنه فقال: هي الصبر على البلوى، والشكر على النعماء، والعفو عند المقدرة، فقال معاوية أنت مني حقاً.

وقال أنوشروان لابنه هرمز الكامل: المروءة من حصن دينه. ووصل رحمه، وأكرم إخوانه. وقال بعض الحكماء: من أحب المكارم اجتنب المحارم ويقال: عار الفضيحة يكدر لذتها. وأشد للحسن بن علي:

الموت خير من ركوب العار والعار خير من دخول النار
والله من هذا أو هذا جار

[٢٢٢٢] اعلم أنه لا يصل العبد إلى حفظ إلا بحفظ العين عن النظر، وحفظ القلب عن / الفكرة، وحفظ البطن عن الشبهة والشع، فإن هذه مفارس الشهوة ومحركاتها، فإذا لم يحترس من ذلك غاية الاحتراس، فإنه قلَّ ما ينجو من شر فرجه، فإن فكر في الزنا ولم يفعله كان كما روي عن عيسى عليه السلام أنه قال: يا معشر بني إسرائيل إن موسى نهاكم عن الزنا فنعما نهاكم عنه، وإني أنهاكم أن تحدثوا به أنفسكم، فإن مثل من حدث به نفسه ولم يعمل به كمثل بيت مزخرف يوقد فيه فإن لم يحترق إسود من الدخان؛ فلعمري [أنه]^(٣) كذلك، فإن وقع في زنا الفرج مُسلب الإيمان وإذا تاب ألبسه.

وقال عليه السلام: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»^(٤) مع ما ينضم إلى سلب

(١) سورة المعارج الآية: ٢٩.

(٢) قال العراقي في المغني (١٠٥/٣): رواه أبو منصور الديلمي من حديث أسد بسند ضعيف بلفظ: فقد وجبت له الجنة.

(٣) ما بين المعقوفين سقط من الأصل والسياق يقتضيه.

(٤) أطراف الحديث عند: البخاري في الصحيح (١٧٨/٣)، مسلم في الإيمان (الإيمان ب ٢٤ رقم ١٠٠)، أبي داود في السنن (٤٦٨٩)، الترمذي في الجامع (٢٦٢٥)، النسائي في المجتبى (٦٤/٨)، ابن ماجه في السنن (٣٩٣٦).

الإيمان من عقوبات الدنيا والآخرة. كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إياكم والزنا فإن فيه ست خصال ثلاثاً في الدنيا وثلاثاً في الآخرة، فاللواتي في الدنيا: يقطع الرزق، ويذهب بالهاء، ويعجل الفناء، واللواتي في الآخرة: سوء الحساب، وسخط الرحمن والخلود في النار»^(١).

وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾^(٢). وأوجب عليه الحد في الدنيا بالجلد والرجم مع ما يتحمل صاحبه من العار سواء هذا الزنا كان منه بالإناث أو بالذكور أو بالهائم. وقد قال الله تعالى مخبراً عن لوط عليه السلام ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ...﴾^(٣) الآية.

وقال عليه السلام: «لعن الله من عمل عمل قوم لوط». قالها ثلاثاً ثم قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»^(٤). وذكر عن أبي بكر رضي الله عنه في رجل وجد في بعض نواحي العرب ينكح كما تنكح المرأة وقامت عليه بذلك بينة / فكان أشدهم فيه قول علي بن أبي طالب، وقال: إن هذا ذنب لم تعص الله به أمة من الأمم [٢٢٣٣] إلا أمة واحدة فصنع الله بها ما علمتم أرى أن تحرقه بالنار فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يحرقه بالنار فحرقه بالنار فيما غير واحد من الامراء. وأوجبت طائفة على فاعله الرجم أحصن أو لم يحصن. روي ذلك عن علي أيضاً وابن عباس وجابر بن زيد والشعبي وغيرهم. وذكروا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اقتلو البهيمة وناكحها»^(٥).

وقيل: إن امرأة سألت جابر بن زيد رضي الله عنه فقالت: إن زوجي كان يأتي شاتي أفحيل لي لبنها؟ فقال: تسألين عن لبن شاتك وقد حرم عليك زوجك فكره جابر لبنها. وقد كرهوا أن يستمنى الرجل بيده لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُقْرَبُونَ﴾^(٦).

وروي أن ابن عباس أو غيره سئل عن ذلك فقال: ذلك نائك نفسه. ويقال إنه يجيء يوم

-
- (١) أطراف الحديث عند: أبي نعيم في الحلية (٤/١١١)، ابن حبان في المجروحين (١/٩٨)، ابن الجوزي في الموضوعات (٣/١٠٧)، الذهبي في الميزان (١٨، ٨٥٢٧)، ابن حجر في لسان الميزان (١/٣٠).
 - (٢) سورة الإسراء الآية: ٣٢.
 - (٣) سورة الشعراء الآية: ١٦٥.
 - (٤) أطراف الحديث عند: أحمد في المسند: (١/٣٠٩)، الهيثمي في موارد الظمان (٥٣)، والطبراني في الكبير (١١، ٢١٨)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٢٨٧).
 - (٥) طرفه عند أحمد بن حنبل في المسند (١/٢٦٩).
 - (٦) سورة المؤمنون الآية: ٥.

القيامة ويده جلي منه. وروي أن شاباً كان في مجلس ابن عباس فلما افترق المجلس بقي الشاب فسأله ابن عباس؟ فقال: أردت أن أسألك وأنا أجلك وأهابك فقال ابن عباس: العالم بمنزلة الوالد فما أفضيت به إلى والدك فافض به إلى عالمك. فقال: ليست لي زوجة وربما استمني بيدي فأعرض عنه ابن عباس، ثم قال: أف وتف نكاح الأمة خير منه وهو خير من الزنا والله أعلم وأحكم.

ويروى أن قوم لوط كانت فيهم، عشر خصال فأهلكهم الله بها: كانوا يتغوطون في الطرقات، وتحت الأشجار المثمرة، وفي المياه الجارية، وفي شطوط الأنهار، وكانوا يقذفون [٢٢٤] الناس بالحصى فيعورونهم، فإذا اجتمعوا في المجالس أظهروا المنكر / بإخراج الريح منهم، والطمع على رقابهم وكانوا يرفعون ثيابهم قبل أن يتغوطوا، ويأتون الطامة الكبرى وهي اللوطية - قال الله تعالى: ﴿أَنْتُمْ لَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾^(١) . . .
ويلعبون بالحمام، ويرمون بالجلامق، وضرب الدفوف، وشرب الخمر، وقص اللحية، وتطويل الشارب، والتصفيق ولبس الحرير، وتزيد عليهم هذه الأمة بإتيان النساء بعضهم بعضاً.

فصل

اعلم أن الداعي للزنا شيطان:

أحدهما: إرسال الطرف، وقد تقدم فيها ما فيه الكفاية.

والثاني: اتباع الشهوة؛ لأنها خداعة للعقول مستحسنة للقبائح وليس عطب إلا وهي له سبب، ولذلك قال النبي عليه السلام: «أربع من كن فيه وجبت له الجنة وحفظ من الشيطان: من ملك نفسه حين ترغب، وحين ترهب، وحين تشتهي، وحين تغضب» وقهرها عن هذه الأمور يكون بثلاثة أمور:

أحدها: غض الطرف عن إثارتها فإنه الرائد المهلك، والرسول الخائن المهلك. وروي عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «تقبلوا إليّ بستم أتقبل لكم بالجنة». قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: «إذا حدث أحدكم فلا يكذب، وإذا وعد فلا يخلف، وإذا أؤتمن فلا يخن، وغضوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم، وكفوا أيديكم»^(٢).

(١) سورة التنبؤات الآية: ٢٩.

(٢) أطراف الحديث عند: الحاكم في المستدرک (٣٥٩/٢) الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٠١/١٠)، ابن حجر في المطالب العالیة (٢٦١٠)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٤).

والثاني: ترغيها في الحلال عوضاً، وإقناعها بالمباح بدلاً، لأن الله عز وجل ما حرم شيئاً إلا وأغنى عنه بمباح من جنسه لما علمه من نوازح الشهوة وتركيب الفطرة ليكون ذلك عوناً على طاعته، وحاجزاً عن مخالفته. وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ما أمر الله بشيء إلا وأعان عليه، ولا نهى عن شيء إلا وأغنى عنه. [٢٢٥]

الثالث: إشعار النفس بتقوى الله عز وجل في أوامره واتباعه في زواجه، وإلزامها ما أزم من طاعته، وتحذيرها ما حذر من معصيته، وإعلامها أنه لا يخفى عليه ضمير، ولا يعزب عنه قطمير، وإنه يجازي المحسن ويكافئ المسيء، بذلك نزلت كتبه، وبلغت رسله. وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن آخر ما نزل من القرآن: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...﴾ (١) الآية.

وآخر ما نزلت من التوراة: إذا لم تستح فاصنع ما شئت، وآخر ما نزل من الإنجيل: شر الناس من لا يبالي أن يراه الناس مسيئاً، وآخر ما نزل من الزبور: من يزرع خيراً يحصد غبطة. وأعون الأشياء على ترك الزنا ومخالفة الهوى الصبر وإدامة الصوم مع تقليل الطعام، واشتغال النفس مع الحياء وهو على ثلاثة أوجه:

أحدها: حياؤه من الله تعالى.

والثاني: حياؤه من الناس.

والثالث: حياؤه من نفسه.

فأما حياؤه من الله تعالى: فيكون بامتنال أوامره والكف عن زواجه، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء». قيل: يا رسول الله كيف نستحي من الله حق الحياء؟ قيل: يا رسول الله كيف نستحي من الله حق الحياء؟

قال: «من حفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وترك زينة الحياة الدنيا، وذكر الموت والبلا، فقد استحي من الله حق الحياء» (٢) وروي أن علقمة بن علاثة قال: يا رسول الله عظمتي، فقال: «استحي من الله استحياءك من ذي الهيبة من قومك» (٣).

(١) سورة البقرة الآية: ٢٨١.

(٢) أطراف الحديث عند: الترمذي (٢٤٥٨)، والحاكم (٣٢٣/٤)، أحمد في المسند (٣٨٧/١)، الطبراني في الكبير (٢٤٦/٣)، في الصغير (١٧٧/١)، أبي نعيم في الحلية (٣٥٨/١).

(٣) طرف الحديث عند: ابن عساکر في التاريخ (١٦٧/٧)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٤٠/٣)، والمتقي في الكنز (٥٧٥٠).

وهذا النوع من الحياء يكون من قوة اليقين، وقد قال عليه السلام: «الحياء نظام الإيمان، فإذا انحل نظام الشيء تبدد ما فيه وتفرق».

[٢٢٦] وأما حياؤه من الناس: فيكون بكف / الأذى والمجاهرة بالقيح، وقد قال عليه السلام: «إن من تقوى الله اتقاء الناس». وروي أن حذيفة رضي الله عنه أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا، فتنكب الطريق عن الناس، فقال: لا خير فيمن لا يستحيى من الناس. ويُشدد لبشار بن بُرد:

ولقد أصرف الفؤاد عن الشيء حياءً وجبةً في السواد
أمسك النفس بالعفاف وأمسى ذاكراً في الغد حديث الأعداء

وهذا النوع من الحياء يكون من كمال المروءة وحب الثناء، ولذلك قال عليه السلام: «من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له»^(١) يعني لقلّة مروءته. وقال أيضاً: «من مروءة الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه ومجلسه وإلفه وجليسه». وأنشد لبعض الشعراء:

وأعرض عن مطاعم قد أراها وأتركها وفي بطني إنطواء
أما والله ما في العيش خبير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
ورب قبيحة ما حال بيني وبين ركوبها إلا الحياء
إذا رزق الفتى وجهاً لقوحاً تقلب في الأمور كما يشاء

وعن النبي ﷺ يقال: «مما أدرك الناس من كلام النبوة إذا لم تستحي فاصنع ما شئت»^(٢). قيل: معناه إذا لم يستحي دعاه ترك الحياء إلى أن يعمل ما يشاء فليستحيى فإن الحياء يردع الإنسان. وقيل: معناه إذا عرضت عليك أفعالك التي هممت بها فلم تستحيى منها لخستها، فاصنع ما شئت، منها قال الشاعر:

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستحي فافعل ما تشاء
آخر:

إذا لم تصن عرضاً ولم تخش خالقاً ولم تخش مخلوقاً فما شئت فاصنع

(١) أطرف الحديث عند: البيهقي في السنن (٢١٠/١٠)، إتحاف السادة المتقين (٤/١١٧)، الخطيب في التاريخ (٤/١٧١)، ابن الجوزي في تذكرة الحفاظ (١٦٩، ١٧٠).
(٢) رواه أحمد في المسند (٥/٢٧٣).

وأما حياؤه من نفسه: فيكون بالعفة وصيانة المخلوقات / وقد قال بعض الحكماء، [٢٢٧]:
استحياءك من نفسك أكثر من استحياءك من غيرك.

وهذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس وحسن السريرة فمتى كمل حياء الإنسان من وجوهه الثلاثة فقد كملت فيه أسباب الخير وانتفت عنه أسباب الشر مع ما قدمنا من مجاهدة النفس وترك الخلوة بمن لا تؤمن منه الفتنة والتباعد عنهم، فإن ذلك من أقوى أسباب السلامة قال الشاعر:

وإنني ليشيني عن الجهل والخنا وعن شتم ذي القربى خلاق أربع
حياء، وإسلام، وتقوى، وإنني كريم، ومثلي من يضر وينفع
ولا ينبغي للإنسان أن يحسن الظن بنفسه فيخلو بمن لا تؤمن فنتته من امرأة أو غلام
اعتماداً على إنه قوي على مجاهدة نفسه عند هجوم الشهوة عليه. قال الشاعر:

لا تأمن على النساء أخوا أخي ما في الرجال على النساء أمين
كل الرجال وإن تعف جهده لا بد أن بنظرة سيخون

وهذا يوسف الصديق صلى الله على نبينا وعليه في عصمته يقول: ﴿إِنَّ النَّصْنَ لَأَمَارَةٌ
بِالسُّوءِ...﴾^(١) الآية. وقال: ﴿رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرَفْ عَنِّي
كَيْدَهُنَّ وَأَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾^(٢) الآية.
وقال عليه السلام: «لا يخلون أحدكم بامرأة ليست بذات محرم منه فإن الشيطان أحدهما»^(٣).
أو قال: «ثالثها» وليحذر أيضاً من مواضع التهمة، فإن من يدخل مداخل السوء يتهم وكفى
بصاحب التهمة شراً إن صحت عليه التهمة افتضح، وإن لم تصح ارتهن في الأئمة المتهمين،
وتحمل ذلة المذنبين، وقد قال عليه السلام: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»^(٤). [٢٢٨]

وليحذر أن يجعل إلى نفسه سبيلاً من تصديق التهم، فما كل ريبة ينفيا حسن الثقة، هذا
رسول الله وهو أبعد خلق الله من الريب، وأصونهم عن التهم، وقف مع زوجته صافية ذات ليلة

(١) سورة يوسف الآية: ٥٣.

(٢) سورة يوسف الآية: ٣٣، ٣٤.

(٣) أطرافه عند: أحمد في المسند (١/١٨)، المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٣٩).

(٤) أطرافه عند: الترمذي (٢٥١٨)، النسائي في المجتبى (الأشربة ب ٤٨)، أحمد في المسند (١/٢٠٠)،

البيهقي في السنن (٥/٣٣٥)، الحاكم في المستدرک (٢/١٣) بالطبراني في الكبير (٣/٧٥).

على باب مسجده يحادثها وكان معتكفاً، فمرَّ به رجلان من الأنصار فلما رآياه أسرعاً فقال لهما: «على رسلكما إنها صفية بنت حُيَيِّ». فقالا: سبحان الله أو يتخالجنا شك فيك يا رسول الله؟ فقال: «مه إن الشيطان ليجري من أحدكم مجرى لحمه ودمه، فخشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً فكيف بمن تخالجت فيه الشكوك وركبت فيه الشهوات وليس بمعصوم؟ هل يعرى في مواقف الريب من قاذف محقق ولائم مصدق.

وقد روي عن فتح الموصلي أنه قال: صحبت ثلاثين شيخاً يعدون من الأبدال، كلهم أوصوني عند فراقهم، وقالوا: اتق معاشر الأعداء.

وفي كتاب عن بعض العلماء قال: من أصعب الأفات صحبة الأحداث، قال: ومن ابتلاه الله بشيء من ذلك، فإجماع الشيوخ أن ذلك عبد أهانه الله وخذله، بل عن نفسه قد شغله ولو بألف كرامة أهله قال: وأصعب من ذلك تهوين ذلك على القلب حتى يعده هيناً، قال الله تعالى: ﴿وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾^(١).

وروي أنه قيل لبعض العلماء: الزاهد العارف يزني؟ فأطرق ثم رفع رأسه فقرأ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾^(٢). والمانع من التهمة شيان: الحياء، والحذر، فإذا استعملهما الإنسان ترك مظان التهم، ولم يقف موقف الاعتذار، ولم يختلج في نزاهته شك، ولم يقدر في عرضه آفك.

[٢٢٩] وقال سهل بن هارون: مؤنة التوقف أيسر من/ تكلف التعسف. وقال بعض الحكماء: من أحسن ظنه فيمن لا يخاف الله تعالى فهو مخدوع، وينشد لأبي بكر الموصلي يقول:

أحسن ظني بأهل دهري فحسن ظني بهم دهاني
لا آمن الناس بعد هذا ما الخوف إلا من الأمان

وقد روي عن النبي عليه السلام أنه قال: «إذا لم يشق امرء إلا بما عمل فقد سعد» والله أعلم.

فصل: في حكايات الأعداء من الرجال والنساء

قال الله سبحانه: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾^(٣). وقال النبي ﷺ: «سبعة يظلهم الله

(١) سورة النور الآية: ١٥.

(٢) سورة الأحزاب الآية: ٣٨.

(٣) سورة الرحمن الآية: ٤٦.

في ظله يوم لا ظل إلا ظله»^(١) يريد ظل عرشه فذكر منهم. «رجلاً رعته امرأة ذات حسن وجمال فقال: إني أخاف الله».

ويقال دخلت بثينة على عبد الملك بن مروان فقال لها: يا بثينة ما أرى شيئاً مما كان يقول جميل. فقالت: يا أمير المؤمنين إنه كان يرنو إليّ بعينين ليستا في رأسه. قال: وكيف صادفته في علته؟ فقالت: كما وصف نفسه حيث يقول:

لا والذي تسجد الجباه له ما كان لي دون ثوبها خبير
ولا بفيها ولا هممت به ما كان إلا الحديث والنظر

أخرى: وحكي أن عبد الملك بن مروان وجد على بعض عماله، فحبسه فتيده في داره، فأشرفت عليه جارية لعبد الملك فنظر إليها وأنشأت تقول:

أيها الرامي بالطرف وفي الطرف الحتوف إن ترد الوصل فقد أمكنك الظبي الألوف
فأجابها الفتى:

إن تريني زاني العينين فالفرج عفيف ليس إلا النظر القاتل والشعر الظريف
فأجابته:

ل / قد أردناك على أن تعتنق ظلياً رسوفاً فتأبيت فلا زلت لقيدك حليفاً
فأجابها:

ما تأبيت لأنني كنت للظبي عنوفاً غير إني خفت رباً كان بي براً لطيفاً
قال: فبلغ ذلك عبد الملك فدعا به فزوجها إياه، ودفعها إليه والله أعلم.

أخرى: وحكي عن محمد بن السماك أنه قال: كان عندنا بالكوفة فتى من الزهاد، وكان يخرج من منزله إلى المسجد، فهويته جارية من العرب على طريقه، فلما عيل صبرها، ترصدت له في الطريق ونادت يا فتى سألتك بمن ترجوه لشدتك إلا توقفت عليّ قليلاً واستمعت كلامي، فلما سمع ذلك الفتى ارتعد، وقال: تكلمي وامض فإن هذا موقف التهمة، ويحك ما كلام النساء للرجال الذين ليسوا لهم بمحرم؟ فقالت الجارية: والله ما حملني على

(١) طرف الحديث عند: البخاري في الصحيح (١/١٦٨)، مسلم في الصحيح (الزكاة ب ٣ رقم ٩١)، الترمذي في الجامع (٢٣٩١)، النسائي في المجتبى (٨/٢٢٢)، أحمد في المسند (٢/٤٣٩)، ابن خزيمة في الصحيح (٣٥٨)، البغوي في شرح السنة (٢/٣٥٤).

ذلك جرة تقدمت مِنِّي على كلام الرجال، غير أن المقادير تسوق العباد إلى مثل هذا، والذي حملني على أني لقيتك بنفسي في هذا الأمر أني أعلم أنكم معاشر النساك أمثال القوارير أدنى شيء يعيبه، وجملة ما أكلمك به أني قد أصبحت وقلبي فارغ من أحوال الدنيا كلها إلا منك، فإله الله في أمري فإني أسأل الذي بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما عسر من أمرك والسلام. قال: فلما سمع كلامها تغير لونه وأطرق ملياً، ثم قال: أف لشيطان علمك هذا الكلام، والله لا أكيدنه فيك. ثم انصرف إلى مسجده وكان طويل الصلاة، فعارضته الفكرة فيها فاستعاذ بالله منها، فانصرف إلى منزله فقدم فطوره فقال: لا حاجة لي فيه وانقطع عن ورده تلك الليلة، وعرضت [٢٣١] له وسأوس من أمر الجارية، فلمّا أن أصبح / دعى بدواة وقرطاس فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد: يا جارية إنك تدعونني إلى المعاصي كأنما لي ولك جنة من عذاب الله، اعلمي أن الله تعالى إذا عصي ستر وحلم، فإذا عاد العبد إلى المعصية عاد الله في ستره وحلمه، فإذا اتخذ العبد المعصية شعاراً وجعلها ذئراً غضب الله عليه غضباً لا يقوم لغضبه السموات والأرضون وما فيهن وعليهن، يا جارية إن يكن ما ذكرت باطلاً فإني أحذرك يوم الطامة والصاخة والواقعة، يوم تكون السماء كالمهل، وتجت الملائكة على الركب لصولة الجبار، لا يستمكن منه الحجاب، وتطابت منهم الكعب بالأيمان والشمائل، فالسعيد يومئذ من قدم عملاً يكون أنساً له في وحدته، وأخاً مساعداً له في وحشته. وإن يكن ما ذكرت حقاً فإني أدلك على الطبيب الشقيق الرفيق الذي يداوي، فعليك بصدق المسألة، وحقيقة الاستكانة، لعله يكشف عنك ما ذكرت فإني متشاغل عنك بقوله تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾^(١). ثم طوى الكتاب، وخرج فإذا الجارية جالسة، فرمى الكتاب في حجرها فأخذته مسرورة، ورجع الفتى إلى منزله فأقام أياماً لا يخرج إلى مسجده، فلما كان بعد أيام قال: والله لأخرجن لعلها انقطعت فنظر إليها جالسة فهمم بالرجوع.

فنادته: يا فتى سألتك بالله لما وقفت عليّ أكلمك فهذا آخر يوم أكلدك إلا بين يدي الله. فلما سمع وقف فقالت: قد فهمت ما خوفتني به والله إني لكذلك، وعلم يا فتى أنه كلما طالت المدة عظم الهباء فعظني فوالله لأقطعن حنجرة طمعي فيك باليأس / ولا أنفضن كفي منك بالإفلاس فقال لها: يا جارية أحذرك من نفسك لنفسك، وفكيها من حبسك، ثم ذهب ليولى فتعلقت به فقال لها: ما وراءك؟ فقالت: تحفظ عني هذه الآيات وهي:

لا أنسى ما أنسى منه يوم موقفه إذ جئت ابنه جهدي ويلوأي
وقد نشرت له صحفي فغضّ لها منه الجفون ولم ينصت لشكواي
وطرفه خاشع من خوف سيده يا حسنه خائفاً من خوف مولاي
لألبن لهذا الدهر مدرعة وأهجرن هواي خوف عقباي
ولا أبوح بما قد كنت تكرهه ولا أدعيت ولو حققت معناي

قال: فانصرفت إلى منزلها فلم تزل راکمة ساجدة قائمة صائمة وكان إذا غلب عليها الأمر تدعو بكتابه وتضعه على عينها، فيقال لها: وما يغني عنك هذا؟ فتقول: وهل دواء غيره. وكانت إذا جن عليها الليل نادت:

يا واهب الأرض هب لي منك مغفرة فكدت أفعل فعل الماجن الزاني
وانظر إلى قلبي يا مشتكى حزني بنظرة منك تجلو كل أحزاني

قال: فلم تزل كذلك حتى فارقت الدنيا فبلغ الفتى وفاتها فحزن عليها، وأخبر والدته. فقالت: يا بني ألا أخبرتني بأول حديثها كنت أزورك بها حالاً؟ فقال: إليك عني يا أماه والله لقد وهبتها لله تعالى منذ أول نظرة نظرت إليها، فكنت استحي أن أرجع في شيء وهبته له. فلبث الفتى كذلك مدة والجارية ما تختلج بقلبه، ثم أنه رآها في المنام وعليها ثياب بيض، قال: فلانة. قال: فلانة. قال: ما فعل الله بك. قالت: غفر لي بثلاث دعوات كنت أقولهن دبر كل صلاة، اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل وأعوذ بك/ من [٢٣٣] حياة تمنع خير الممات. قال الفتى: فهل تذكريني؟ قالت: «والله إني لكثيره الذكر لك، وقد سألت ربي أن يجمع بيني وبينك في الآخرة، فما لبث الفتى إلا أياماً حتى لحق بالجارية»^(١).

أخرى: حكى أن فتى من المتعبدين أحب جارية في حيه، فبعث إليها يا هذه إنك وقعت في قلبي موقعاً شغلتنني به عن كثير مما كنت أحبه من طاعة الله عز وجل وذكر الآخرة، فكيف السبيل إلى الإتصال بك؟ فأرسلت إليه؛ أما كان في طاعة الله وذكر الآخرة ما يشغلك عن التمسك بحبائل النساء. فاستحى حياة شديداً وقال: المعذرة إلى الله فيما صنعت، وندم على الذي كان وأنشأ يقول:

ولربما عدل الفتى عن رشده فيرى البصيرة بعدها فيراجع
غيره:

(١) راجع إحياء علوم الدين (١٠٣/٣: ١٠٤) فيه القصة بنحوها وقصص أخرى.

كم قد ظفرت بمن أهوى فيمتمني منه الحياء وخوف الله والحذر
 أهوى الملاح وأهوى أن أجالسهم وليس لي في حرام متهم وطر
 ويكفي في حفظ الفرج قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾^(١) الآية. وقوله:
 ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُونَ فُرُوجَهُمْ...﴾^(٢) الآية. وصلى الله على سيدنا
 محمد وعلى آله وسلم تسليماً.

الباب الخامس

في حفظ البطن وإصلاحه

وليعلم أن البطن أشق الأعضاء إصلاحاً على الإنسان، وأعظمها ضرراً عليه؛ لأنه المنبع
 والمعدن ومنه تهيج الأمور في الأعضاء من عفة وجماع وقوة وضعف، فعلى الإنسان حفظه
 عن الحرام والشبهة أولاً، ثم عن فضول الحلال ثانياً، ثم كيفية تناوله من الحلال. وهذا الباب
 يشتمل على ثلاثة فصول:

[٢٣٤] أحدها: في مذمة/ الحرام.

والثاني: في فضيلة الحلال.

والثالث: في حد الحلال والحرام وكيفية التناول من الحلال.

الفصل الأول: في مذمة الحرام

وليعلم أن الحرام والشبهة يلزم الإنسان البحث عنهما لثلاثة أمور:
 أحدها: حذراً من نار جهنم. قال الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا
 يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا...﴾^(٣) الآية. وقال النبي عليه السلام: «كل لحم نبت من سحت
 فالتار أولى به»^(٤). وقال النبي عليه السلام: «من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله من
 أي باب أدخله النار»^(٥).

(١) سورة المؤمنون الآية: ٥.

(٢) سورة النور الآية: ٣٠.

(٣) سورة النساء الآية: ١٠.

(٤) أطراف الحديث عند: الطبراني في الكبير (١٣٦/١٩)، في الصغير (٢٢٥/١)، القيسراني في تذكرة
 الموضوعات (٥٩٧).

(٥) قال العراقي في المغني (٩١/٢): رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عرم قال =

وقال عليه السلام: «القليل من أموال الناس يورث النار»^(١) وعنه عليه السلام أنه قال: «من اكتسب المال من حرام فإن تصدق به لم يتقبل منه وإن تركه وراءه كان زاده إلى النار»^(٢) وفي حديث آخر: «من أصاب مالاً من مائمه ووصل به رحماً أو تصدق به أو أنفقه في سبيل الله جمع الله ذلك جمعاً ثم قذفه في النار»^(٣).

والثاني: أن أكل الحرام والشبهة مطرود عن خدمة الله غير موفق لطاعته إذ لا يصلح لخدمة الله إلا كل طاهر مطهر ألا ترى أن الله تعالى منع الجُنْب من الدخول إلى بيته ومنع المحدث عن مس كتابه فقال تعالى: ﴿لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ﴾. إلى قوله: ﴿وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾^(٤).

وقال: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾^(٥). مع أن الجنابة والحدث أثر مباح فكيف بمن هو منغمس في أقدار الحرام ونجاسة الشبهة والحطام متى يدعى إلى خدمة الغني العزيز وذكره الشريف كلاً فلا يكون ذلك.

وقد روي عن يحيى بن معاذ أنه قال: الطاعة مخزونة في خزائن الله تعالى، ومفاتيحها الدعاء، وأسنانها لقمة الحلال. فإذا لم يكن للمفتاح اسنان فلا يفتح / الباب، وإذا لم يفتح [٢٣٥] باب الخزانة كيف يصل إلى ما فيها من الطاعة؟

الثالث: إن أكل الحرام والشبهة محروم وأن اتفق له فعل خير فهو مردود عليه غير مقبول منه فإذا لا يكون له من ذلك إلا العناء والكدر وشغل الوقت. وقد روي عن ابن عباس عن النبي عليه السلام أنه قال: «إن الله ملكاً على بيت المقدس ينادي: من أكل الحرام لم يقبل منه صرف ولا عدل»^(٦).

قيل: الصراف: النافلة، والعدل: الفريضة. وعنه عليه السلام أنه قال: «من اشتري ثوباً

= ابن العربي في عارضة الأحوذى شرح الترمذي أنه باطل لم يصح ولا يصح.

(١) رواه الربيع بن حبيب في مسنده (٦٦/٢).

(٢) قال العراقي في المغني (٩١/٢): رواه أحمد من حديث ابن مسعود بسند ضعيف، ولابن حبان من

حديث أبي هريرة: من جمع مالاً من حرام ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصره عليه.

(٣) رواه أبو داود في المراسيل من رواية القاسم بن مخيمرة مراسلاً، المصدر السابق.

(٤) سورة النساء الآية: ٤٣.

(٥) سورة الواقعة الآية: ٧٩.

(٦) قال العراقي في المغني (٩٠/٢): لم أقف له على أصل، ولأبي منصور الديلمي في مسند الفردوس من

حديث ابن مسعود من أكل لقمة من حرام لم تقبل منه صلاة أربعين ليلة الحديث وهو منكر.

بعشرة دراهم وفي ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته ما دام عليه^(١) وعن ابن عباس أنه قال: لا يقبل الله صلاة امرء وفي جوفه حرام. ولما ذكر رسول الله ﷺ الحريص على الدنيا قال: «[رب]»^(٢) أشعث أغبر مشرداً في الأسفار مطعمه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام يرفع يديه ويقول: يا رب فلا يستجاب لذلك».

وفيما يحكى عن إبليس اللعين أنه كان يقول: خصلة واحدة أريدها من بني آدم، ثم أدخل بينه وبين ما يريد من العبادة، أراد كون كسبه حراماً، إن صلى صلى بحرام، أو صام فأفطر على حرام، أو حج حج بحرام لم يقبل منه.

وعن سفیان الثوري أنه قال: من أنفق من الحرام في طاعة الله كمن طهر الثوب بالبول والبول لا يطهره إلا الماء والذنب لا يكفره إلا الحلال. وروي في أثر السلف: أن الواعظ إذا جلس للناس قالت العلماء تفقدوا منه ثلاثاً؛ فإن كان معتقداً للبدعة فلا تجالسوه فإنه عن لسان الشيطان ينطق، وإن كان سيء اللقمة فعن الهوى ينطق، فإن لم يكن مكين العقل فإنه يفسد [٢٣٦] بكلامه أكثر مما يصلح، فلا تجالسوه. ويقال: إذا طاب/ المكسب زكي العمل، ويقال: من أكل من الشبهة أربعين يوماً أظلم قلبه. وهو تأويل قوله تعالى: ﴿كَأَلَّا بِلْ رَانَ عَلَيَّ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْفِبُونَ﴾^(٣).

وفي حديث أبي هريرة أنه قال: «المعدة حوض البدن والعروق إليها واردة فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة وإذا سقمت صدرت العروق بالسقم»^(٤) ومثل الطعام من الدين مثل الأساس من البناء فإذا ثبت الأساس وقوي استقام البناء وارتفع وإذا ضعف الأساس أو اعوج إنهار البناء ووقع، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أُسِّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِن اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَن أُسِّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ سَفَا جُرُوفٍ...﴾^(٥).

الفصل الثاني: في فضيلة الحلال

قال الله تعالى: ﴿كُلُوا مِن الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾^(٦). أمر بالأكل من الطيبات وهي

- (١) رواه أحمد من حديث ابن عمر بسند ضعيف.
- (٢) ما بين المعقوفين من إحياء علوم الدين (٩٠/٢) وعلق العراقي على الحديث بقوله: رواه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر.
- (٣) سورة المطففين الآية: ١٤.
- (٤) رواه الطبراني في الأوسط والعقيلي في الضعفاء وقال باطل لا أصل له. قاله العراقي في المغني ٩١/٢.
- (٥) سورة التوبة الآية: ١٠٩.
- (٦) سورة المؤمنون الآية: ٥١.

الحلال قبل العمل. وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(١).

ولما قال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم». قال بعض العلماء: أراد به طلب علم الحلال والحرام، وجعل المراد بالحدثين واحداً. وعنه ﷺ أنه قال: «من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله، ومن طلب الدنيا حلالاً في عفاف كان في درجة الشهداء»^(٢).

وعنه ﷺ أنه قال: «من أكل الحلال أربعين يوماً نور الله قلبه وأجرى يتابع الحكمة من قلبه»^(٣) وفي رواية: «زهده الله في الدنيا».

وروي أن سعداً سأل النبي ﷺ أن يسأل الله إن يجعله مجاب الدعوة فقال له: «أطب طعمتك تستجب دعوتك»^(٤).

وقال / عليه السلام: «العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في طلب الحلال»^(٥) وعنه [٢٣٧] عليه السلام أنه قال: «من أمسى وانياً في طلب الحلال بات مغفوراً له وأصبح والله عنه راضٍ»^(٦).

وروي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه شرب لبناً من كسب عبده ثم سأله؟ فقال: تكهنت لقرم فأدخل أصبعه في فيه وجعل يقيء حتى كادت نفسه أن تخرج، ثم قال: اللهم إني اعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء.

وروي أن النبي ﷺ أخبر بذلك فقال: «أو ما علمتم أن الصديق لا يدخل في جوفه إلا

- (١) رواه ابن ماجه من حديث أنس وضعفه أحمد والبيهقي وغيرهما قاله العراقي في المغني (٣/١).
- (٢) رواه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة: من سعى على عياله ففي سبيل الله، ولأبي منصور في مسند الفردوس: من طلب مكسبه من باب حلال يكف بها وجهه عن مسألة الناس وولده وعياله جاء يوم القيامة مع النبيين والصديقين وإسنادهما ضعيف. قاله العراقي في المغني (٩٠/٣).
- (٣) رواه أبو يعلى في الحلية من حديث أبي أيوب: من أخلص لله أربعين يوماً ظهرت يتابع الحكمة من قلبه على لسانه، ولابن عدي نحوه من حديث أبي موسى، وقال حديث منكر. المصدر السابق.
- (٤) رواه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس وفيه من لا أعرفه. المصدر السابق.
- (٥) رواه أبو منصور الدلمي من حديث أنس إلا أنه قال: تسعة في الصمت، والعاشر كسب اليد من الحلال، وهو منكر. (المغني ٩١/٣).
- (٦) رواه الطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس: من أمسى كالأ من عمل يده أمسى مغفوراً له، وفيه ضعف، المصدر السابق.

طيباً»^(١). وكذلك روي أن عمر رضي الله عنه شرب من إبل الصدقة غلطاً وأدخل إصبعه وتقياً .
وعن بعض السلف أنه قال: لم يدرك من أدرك إلا من كان يعقل ما يدخل في جوفه .
وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله من المسلم؟ قال: «الذي إذا أمسى سأل من أين كِسْرَتَه» قالت: يا رسول الله أو كُلف الناس هذا؟ قال: «نعم ولكنهم غشموا المعيشة غشماً» .
وقال بعض العلماء: لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى تكون فيه أربع خصال: أداء الفرائض بالسنة وأكل الحلال بالورع، واجتناب النهي عن الظاهر والباطن والصبر على ذلك إلى الموت .
وقال: من أحب أن يكشف باب الصديقين فلا يأكل إلا حلالاً، ولا يعمل إلا في سنة أو ضرورة . وقال بعض السلف: إن أول لقمة يأكلها العبد من الحلال يغفر له بها ما سلف من ذنوبه، ومن أقام نفسه مقام ذل في طلب الحلال تساقطت عنه ذنوبه كما تساقط ورق الشجر والله أعلم .

فصل: في الشبهة

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «الحلال بين والحرام بين، وبين ذلك أمور [٢٣٨] متشابهات / لا يعلمها كثير من الناس، فمن ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه»^(٢) . وقال عليه السلام: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»^(٣) .

وقال عليه السلام: «الأمور ثلاثة: أمر بان رشده فاتبعوه، وأمر بان غيه فاجتنبوه، وأمر أشكل عليكم فكلوه إلى عالمه» . فلما كان الأمر على ما وصفنا كان الواجب على الإنسان استعمال الحلال واجتناب الحرام، والورع عن الشبهات .

وقد قال بعض العلماء: ردّ درهم من الشبهة أحب إلي من أن أتصدق بمائة ألف ومائة ألف حتى تبلغ ستمائة ألف . وقال: اجتمع الفضيل، وابن عيينة، وابن المبارك عند وهيب بن الورد بمكة فذكر الرطب فقال وهيب: هو من أحب الطعام إليّ إلا أنني لا أكله لاختلاط رطب

(١) رواه البخاري من حديث عائشة: كان لأبي بكر غلام يخرج له الخراج، وكان أبو بكر يأكل من خراجه فجاه يوماً بشيء فأكل منه أبو بكر، وقال له الغلام أتدري ما هذا؟ فقال: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان في الجاهلية، فذكره دون المرفوع منه فلم أجده، قاله العراقي في المصدر السابق .

(٢) متفق عليه من حديث التعمان بن بشير: قاله العراقي في المغني (٩٩/٢) .

(٣) رواه النسائي، والترمذي، والحاكم وصحاحه من حديث الحسن بن علي . قاله العراقي في المغني عن حمل الأسفار .

مكة بيساتين زبيدة وغيرها. فقال ابن المبارك: إن نظرت إلى هذا ضاق عليك الخبز.

قال: وما سببه؟ قال: إن أصول الضياع بالصوافي. فغشي على وهيب. فقال سفيان: قتلت الرجل. قال ابن المبارك: ما أردت إلا أن أهون عليه. فلما أفاق قال: لله عليّ أن لا أكل خبز أبداً فكان يشرب اللبن؛ فأثته امرأة بلبن فسألها؟ فقالت: هو من شاة بني فلان. فسأل عن ثمنها وأنه من أين له، فذكرت ذلك، فلما أدناه من فيه قال: بقي أنها أين كانت ترعى؟ فسكتت، فلم يشربه. قال: لأنها كانت ترعى من موضع للمسلمين فيه حق. فقالت له أمه: اشرب يغفر الله لك. فقال: ما أحب أن يغفر لي وقد شربته فأنال مغفرة بمعصيته والله أعلم.

الفصل الثالث: في حد الحرام والشبهة والتناول من الحلال

اختلف العلماء في حد الحرام والشبهة، فقال بعضهم ما تيقنت كونه ملكاً/ للغير، منهياً [٢٣٩] عنه في الشرع فهو حرام محض، وأما إذا لم يكن لك يقين بذلك ولكن يغلب في ظنك أنه كذلك فهو شبهة.

وقال آخرون: بل الحرام المحض ما يكون به علم أو غالب ظن، لأن غلبة الظن مما يجري مجرى العلم في كثير من الأحكام. وأما إذا تساوى الأمران في ذلك حتى تبقى نشاكاً لا يكون لأحدهما ترجيح عندك فذلك شبهة يشبه أنه حلال ويشبه أنه حرام. ثم الامتناع عن الذي هو حرام محض فرض لازم وعن الذي هو شبهة تقوى وورع وذلك عن ثلاث درجات:

أحدها: ورع الصالحين، وهو الامتناع عن كل ما يتطرق إليه احتمال التحريم وذلك كالأكل ممن أكثر ماله حلال ولكنه لا يتقي الحرام، فالورع اجتنابه لقوله عليه السلام: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»^(١). وقد قال أصحابنا: الريبة على وجهين: محققة، ومعارضة.

فالمحققة: مثل ما يكون في أيدي السرايا، وقطاع الطرق، حدثان غارتهم، وذلك كالحرام المحض.

والمعارضة: مثل ما يكون في أيدي من لا يتقي الحرام فليخرج عن معاملته ورع الصالحين.

(١) رواه النسائي والترمذي والحاكم وصحاه من حديث الحسن بن علي. قاله العراقي في المغني عن حمل الأسفار.

الدرجة الثانية: ورع المتقين وهو كل ما لا شبهة في حله، ولكن يخاف منه أن يؤدي إلى محرم وهو ترك ما لا بأس فيه مخافة ما فيه البأس.

وقال عليه السلام: «إنما سمي المتقون متقين لتركهم ما لا بأس فيه مخافة البأس»^(١). وقال ابن عباس: كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن تقع في الحرام. وقال أبو الدرداء: إن تمام التقوى أن يتقي العبد في مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً فيكون حجاباً بينه وبين النار:

[٢٤٠] الدرجة الثالثة: ورع الصديقين وهو ترك ما لا بأس فيه أصلاً، ولا يخاف أن يؤدي إلى ما به البأس ولكنه يتناول لغير الله أو يقصد به غير التقوى على عبادة الله.

كما روي عن بعضهم أنه شرب دواء فقالت له امرأة: لو مشيت في الدار قليلاً حتى يعمل الدواء فيك. فقال؛ هذه مشية لا أعرفها فكأنه لم تحضره نية تتعلق بالدين في مشيته تلك.

كما روي عن ذي النون المصري: أنه كان جائعاً محبوساً فبعثت له أخته في الله طعاماً على يد السجنان، فلم يأكل فاعتذر إليها وقال: جأني على طبق ظالم - يعني القوة التي أوصلت إليه الطعام اكتسبت بالغذاء الحرام.

وهذه أقصى درجات الورع أعني ورع الصديقين، والتحقيق فيه أن الورع له أول وهو الامتناع عن كل ما تحرمه الفتوى، وذلك الورع وفرض واجب وله غاية، وهو ورع الصديقين وهو الامتناع عن كل ما ليس لله مما أخذ بشهوة أو توصل إليه بمكروه، أو اتصل بسببه مكروه. وبينهما درجات في الاختلاط وكلما كان العبد أشد تضييقاً على نفسه كان أخف ظهراً يوم القيامة.

مسألة

فإن قيل ما تقول في قبول جوائز السلطان في هذا الزمان؟ فاعلم أن بعض السلف قال: قد اختلف العلماء في ذلك فقال قوم: كل ما لا يتيقن أنه حرام فله أخذه. وقال آخرون: لا يحل أن يأخذ ما لا يتحقق أنه حلال لأن الأغلب في هذه الأعصار على أموال السلاطين الحرام، والحلال في أيديهم معدوم أو عزيز.

(١) عن نحوه قال العراقي في المغني: (٩٥/٣): رواه ابن ماجه.

وقال قوم: إن صلات السلاطين تحل للغني والفقير إذا لم يتحقق أنها حرام، وإنما التباعة على المعطي، قالوا لأن النبي عليه السلام قبل هدية المقوقس ملك الأسكندرية، واقترض من اليهود مع / قوله تعالى فيهم: ﴿أَكَاوُنَ لِلسُّخْتِ﴾^(١). قالوا: وقد أدرك جماعة من [٢٤١] الصحابة أيام الظلمة وأخذوا منهم الأموال، منهم: أبو هريرة، وأبو سعيد الخدري، وزيد بن ثابت، وأبو أيوب وجريير بن عبد الله، وجابر، وأنس المسور بن مخزومة، وابن عباس، وابن عمر، فآخذوا أبو سعيد وأبو هريرة من مروان ويزيد من عبد الملك، وآخذ ابن عمر وابن عباس من الحجاج، وآخذ كثير من التابعين منهم الشافعي والحسن البصري وإبراهيم النخعي وغيرهم.

وقال آخرون: لا يحل من أموالهم شيء لغني ولا لفقير إذ هم موسومون بالظلم والغالب على أموالهم السحت والحرام والحكم للأغلب فيلزم الاجتناب. وقال آخرون: ما لا يتقين أنه حرام فهو حلال للفقير دون الغني إلا أن يعلم الفقير أن ذلك عين الغصب، فليس له أخذه إلا أن يعلم الفقير أن ذلك عين الغصب فليس له أخذه إلا أن يرد على مالكه ولا حرج على الفقير أن يأخذه من مال السلطان، لأنه إن كان ذلك من مال السلطان فله أخذه بلا شك، وإن كان من فيء أو خراج أو عشر فللفقير فيه حق، وكذلك أهل العلم.

وقد روي عن علي أنه قال: خذ من السلطان ما أعطاك فإنما يعطيك من الحلال وما يأخذ من الحلال أكثر. وعن علي بن أبي طالب أيضاً أنه قال: من دخل الإسلام وقرأ القرآن ظهرأه فله في بيت مال المسلمين كل سنة مائتا درهم، وفي رواية مائتا دينار فإن لم يأخذها في الدنيا أخذها في الآخرة. قالوا: فإذا كان الأمر كذلك فالفقير والعالم يأخذ من حقه، قالوا وإذا كان مختلطاً بمال مغضوب ولا يمكن تمييزه أو غضباً لا يمكن رده على صاحبه وذريته فلا مخلص للسلطان منه إلا أن يتصدق به، وما / كان الله ليأمره بالصدقة على الفقير وينهي الفقير [٢٤٢] عن قبوله أو يأذن للفقير في القبول وهو عليه حرام.

فإذاً للفقير أن يأخذ إلا عين الغصب والحرام، والذي أرى والله أعلم أن أموال السلاطين اليوم الغالب عليها الحرام لأن أكثرها من الخراج المضروب على المسلمين، ومن المكوسات والغصب بخلاف الأموال التي كانت في أيدي الملوك والجبارة الماضين من الأمويين والعباسيين وغيرهم، ولذلك ساغ لجابر بن زيد وأبي بلال مرداس وغيرهم من الصحابة والتابعين الأخذ منهم.

وقد روي أن جابر بن زيد سأله رجل عن جار له عشار يهدي إليه؟ فقال: خذ من جارك ما أعطاك. وروي عن سعيد بن جبير أنه أكل من طعام العشارين والتزّه عن مثل هذا أفضل.

مسألة

فإن قيل ما تقول في صلة أهل الأسواق وغيرهم ممن ليس له نظر في المعاملات؟ قيل له إذا كان ظاهر الإنسان الصلاح والستر فلا حرج على الأخذ منه ولا يلزم البحث بأن يقول فسد الزمان لأن ذلك سوء ظن بالمسلمين وتجسس عن أحوالهم. ثم اعلم ما هو الأصل في هذا الباب وهو أن هاهنا شيئين:

أحدهما: حكم الشرع الظاهر الموضوع على اليسر والسماحة وهو أن تأخذ ما أتاك به من ظاهره الصلاح ولا تسأل إلا إن استرته أو تيقنت أنه حرام أو غضب بعينه.

والثاني: حكم الورع الموضوع على التضييق والتشديد كما قيل: الأمر على المتقي أضيّق من عقد التسعين فحكم الورع أن لا يأخذ شيئاً من أحد حتى يسأل أو يبحث غاية البحث [٢٤٣] كما سأل أبو بكر غلامه عن اللبن الذي شربه / فتقيأه، وكما سأل عمر عن اللبن الذي شربه فأخبر أنه من إبل الصدقة، والورع أيضاً من الشرع وكلاهما في الأصل واحد ولكن للشرع حكمان: حكم جواز، وحكم الأفضل الأحوط، فحكم الجواز يقال له: حكم الشرع، وحكم الأحوط الأفضل يقال له: حكم الورع، وهما واحد في الأصل غير أن حكم الورع شديد فمن سلك طريقه فلا بد له أن يوطن نفسه على احتمال الشدائد وإلا فلا يتم له ذلك.

وليكن عنده أكل ما يتداوله الناس في أيديهم بمنزلة الميتة لا يقدم عليها إلا عند الضرورة، ثم لا يتناول منها إلا مقدار ما يبلغه إلى الطاعة فيكون له عذر في ذلك ولا يضره إن كان في أصله شبهة، أو هو حرام مجهول فإن الله تعالى أولى بالعذر. ولهذا قال الحسن البصري: إذ فسد السوق فعليكم بالقوت.

وقد روي عن وهيب بن الورد أنه كان يجوع نفسه يوماً أو يومين أو ثلاثة ثم يأخذ رغيفاً فيقول: اللهم إنك تعلم إنني لا أقوى على العبادة وأخشى الضعف وإلا لم أكله، اللهم وإن كان فيه شيء من خبث أو حرام فلا تؤاخذني ثم يبل الرغيف في الماء فيأكله.

ويقال: إن بعض الورعين قيل له: من أين تأكل؟ فقال: مما تأكلون، ولكن ليس من يأكل ويكي مثل من يأكل ويضحك. وقال: يد أصغر من يد ولقمة أصغر من لقمة. فهكذا كانوا يتحرزون من الشبهات فهذه طريقة الطبقة العليا من أهل الورع فيما بلغنا. وأما من دونهم

فلهم احتياط وبحث على مقدار ولهم أيضاً من الورع على مقدار، ويقدر ما يعتني الإنسان
[٢٤٤] يكون ما يتمنى والله تعالى / لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

الفصل الرابع: في الأخذ من الحلال

فإن قال قائل: فهذا جانب الحرام قد بيته فأخبرنا عن جانب الحلال؟ وما حد الفضول
الذي يلزم منه الحساب؟ وما المقدار الذي إذا أخذه العبد يكون ذلك أدباً ولا يكون فضولاً ولا
عليه فيه حبس ولا حساب؟ قيل له: قال بعض السلف: اعلم أن أحوال المباح في الجملة ثلاثة
أقسام:

أحدها: أن يأخذها العبد مكائراً مفاخرأ مباحياً مراتياً، فيكون الأخذ منه فعلاً منكراً
يستوجب على ظاهر فعله الحبس والحساب واللوم والتعير، وهو منكر وشر يستوجب على
باطن فعله الذي هو التكاثر والتفاخر عذاب النار، وذلك القصد منه معصية وذنب لقوله تعالى:
﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾^(١). الآية.

وقال النبي عليه السلام: «من طلب الدنيا حلالاً مباحياً مكائراً مفاخرأ مراتياً لقي الله وهو
عليه غضبان»^(٢). فالوعيد حصل له على قصده ذلك بقلبه.

القسم الثاني: أن يأخذ الحلال لشهوة نفسه لا غير فذلك شر يستوجب عليه الحبس
والحساب لقوله تعالى: ﴿لَسْتُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا عَنِ النَّعِيمِ﴾^(٣). وقال عليه السلام: «حلالها
حساب»^(٤).

القسم الثالث: أن يأخذ من الحلال في حال العذر قدرأ يستعين به على عبادة الله تعالى
ويقتصر على ذلك فذلك منه خير وحسنه وأدب ولا حساب عليه ولا عتاب، بل مستوجب
عليه الأجر والمدحة لقوله تعالى حكاية عن المسلمين ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾. إلى قوله:
﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾^(٥).

(١) سورة محمد الآية: ٣٩.

(٢) سورة التكاثر الآية: ٨.

(٣) قال العراقي في المعنى (٢١٧/٣) عن نحوه. رواه أبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الشعب من حديث
أبي هريرة بسند ضعيف.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي في الشعب من طريقة موقوفاً على علي بن أبي طالب بإسناد منقطع بلفظ:
وحرهما النار، ولم أجده مرفوعاً. قاله العراقي في المعنى (٢١٥/٣): ٢١٦.

(٥) سورة البقرة الآيات: ٢٠١، ٢٠٢.

[٢٤٥] وقال عليه السلام: «من طلب الدنيا حلالاً/ استغفافاً عن المسألة وتعطفاً على جاره وسعيًا على عياله جاء يوم القيامة كالقمر ليلة البدر»^(١). وذلك لما قصد بها هذه المقاصد المحمودة لله سبحانه.

فصل: في آفات فضول الحلال

اعلم أن فضول الحلال هي آفة العبادة وبلية الاجتهاد، قال عليه السلام: «من أخذ من حلال الدنيا أكثر ما يكفيه أخذ حفته وما يشعر»^(٢). قال بعض العلماء: تأملت آفات الفضول فإذا هي عشر آفات هن أصول في هذا الشأن.

الأول: أن في كثرة الأكل قسوة للقلب وذهاب نوره وروي عن النبي عليه السلام أنه قال: «لا تميموا القلوب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب يموت كالزرع إذا كثرت عليه الماء»^(٣) وقد شبه بعض العلماء بأن المعدة كالقدر تحت القلب تغلي، والبخار يرتفع إليه وكثرة البخار تكدره وتسمجه.

الثانية: أن في كثرة الأكل فتنه الأعضاء وانبعاثها للفضول والفساد، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والبطنة فإنها مفسدة للدين، مورثة للقسم، مكسلة عن العبادة»^(٤).

وقد صدق فإن الرجل إذا كان شعباناً بطراً اشتهدت عينه النظر إلى ما لا يعنيه، من الحرام والفضول، والأذن الاستماع إليه، واللسان التكلم به، والفرج الشهوة، والرجل المشي إليه، وإذا كان جائعاً كانت الأعضاء كلها ساكنة لا تطمح إلى شيء منها.

وقال بعض العلماء: البطن عضو إن جاع هو شبع سائر الأعضاء، وإن شبع جاع سائر الأعضاء. وجملة الأمر أن أفعال الرجل وأقواله على حسب طعامه وشرابه إن أدخل الحرام خرج الحرام، وإن / أدخل الفضول خرجت الفضول كأن الطعام بدل الأفعال والأفعال تبدو منه. [٢٤٦]

والثالثة: أن في كثرة الأكل قلة العلم والفهم؛ لأن البطنة تذهب الفطنة، ولقد صدق

(١) تقدم قبل الذي قبله.

(٢) عن نحوه قال العراقي في المغني (٢/٢٢٩): رواه البزار من حديث أس وفيه؛ هانئ بن المتوكل ضعفه ابن حبان.

(٣) قال العراقي في المغني (٣/٧٨) لم أقف له على أصل.

(٤) أطراف الحديث عند: ابن حبان في المجروحين (١/١٢٣)، ابن القيسراني في تذكرة الموضوعات (٣٥٣)، ابن حجر في لسان الميزان (٣/١٢٧١)، المتقي الهندي في الكثر (٣٠٩).

بعض الحكماء حين قال: إذا أردت حاجة من حوائج الدنيا والآخرة فلا تأكل حتى تقضيها؛ فإن الأكل يغير العقل وهذا أمر ظاهر علمه لمن اختبره.

والرابعة: أن في كثرة الأكل قلة العبادة، وإذا كثر الأكل ثقل بدنه، وغلبته عيناه، وفترت أعضاؤه فلا يجيء منه شيء وإن اجتهد. وقد ذكر عن يحيى عليه السلام أن إبليس بدا له وعليه معاليق. فقال يحيى: ما هذه؟ قال: الشهوات التي أصيد بها بني آدم. قال: هل تجد لي شيئاً؟ قال: لا إلا أنك شبت ذات ليلة، فثقلناك عن صلاتك. فقال يحيى: لا جرم أني لا أشبع بعدها أبداً. فقال إبليس لعنه الله: لا جرم أني لا أنصح بعدها أحداً أبداً. فهذا فيمن لم يشبع في عمره إلا ليلة واحدة فكيف بمن لم يجع في عمره ليلة ثم يطعم في العبادة؟ قال بعض العلماء: العبادة حرفة حانوتها الخلوة، وآلاتها المجاعة.

والخامسة: أن في كثرة الأكل فقد حلاوة العبادة. وقد روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: ما شبت منذ أسلمت لأجل حلاوة عبادة ربي ولا رويت منذ أسلمت اشتياقاً إلى لقاء ربي وهذه صفة المكاشفين. وكان رضي الله عنه مكاشفاً وإليه أشار النبي ﷺ بقوله: «ما فضلكم أبو بكر بفضل صلاة ولا صيام وإنما هو شيء وَقَرَّ في نفسه»^(١). وقال بعض السلف: أحلى ما تكون العبادة / إذا الترقظ ظهري بيطني.

[٢٤٧]

والسادسة: أن فيه خطر الوقوع في الشبهة والحرام؛ لأن الحلال لا يأتيك إلا قوتاً والحرام يأتيك جزفاً جزفاً.

والسابعة: أن فيه شغل القلب والبدن بتحصيله أولاً، وبتهيئته ثانياً، ثم بأكله ثالثاً، ثم بإفراغه والتخلص منه رابعاً، ثم بالسلامة منه خامساً، من أن تبدو منه في البدن آفة أو آفات وعلل، وقد قال عليه السلام «أصل كل داء البردة». يعني الحممة. «وأصل كل دواء اللازم»^(٢). يعني الحمية.

ويقال: من رفع يده من الطعام وهو يشتهي ولا يأكل إلا وهو يشتهي، واستفرغ بدنه من البول قبل النوم لم يحتج إلى طيب أبداً. ويقال: مكتوب على مائدة كسرى: ليهني طعام من

(١) عن نحوه قال العراقي في المغني (٢٤/١): رواه الحكيم الترمذي في النوادر من قول أبي بكر بن عبد الله المزني ولم أجده مرفوعاً.

(٢) أطراف الحديث عند: ابن عدي في الكامل (٥٢٣١/٢)، (٩٨٦/٣)، ابن الجوزي في الملل المتناهية (١٧٨/٢)، ابن حبان في المجروحين (٢٠٢/١)، النهي في الميزان (١٣٤١)، ابن حجر في لسان الميزان (١٦٧٠/٣)، المعجلوني في كشف الخفا (١٤٦/١).

أكله من حله، وأفضل على ذوي الحاجة من فضله ما أكلته وأنت تشتهيهِ فقد أكلته، وما أكلت وأنت لا تشتهيهِ فقد أكلك.

ويقال: اجتمع أربعة من الأطباء عند هارون الرشيد أو غيره من الملوك، طبيب هندي ورومي وعراقي وسوداوي. فقال الملك: ليصف كل منكم الدواء الذي لا داء فيه. فقال الهندي: هو الإهليلج الأسود. وقال الرومي: هو حب الرشاد الأبيض. وقال العراقي: هو الماء الحار.

وقال السوداوي: الإهليلج يعفن المعدة، وحب الرشاد يرقق المعدة، والماء الحار يرخي المعدة. فقالوا له: ما الدواء الذي لا داء فيه؟ قال: أن لا تضع يدك في الطعام إلا وأنت تشتهيهِ وترفع منه وأنت تشتهيهِ. فقالوا صدقت. وأيضاً فإن في كثرة الأكل مقت النفس وتكثير الوضوء، وإن المسلمين يدورون في المساجد، والكثير الأكل يدور في المزابل.

[٢٤٨] وعن مالك بن دينار / أنه كان يقول مع زهده: يا هؤلاء لقد اختلقت إلى الخلاء حتى استحييت مع ما في هذا من طلب الدنيا، والطمع إلى الناس، وتضييع الوقت بسبب الأكل ما لا يخفى.

الثامنة: من أمور الآخرة شدة سكرات الموت، وقد ورد في الخبر أن شدة سكرات الموت على قدر لذات الدنيا، فمن أكثر من هذا أكثر له من تلك.

التاسعة: نقصان الثواب في الآخرة وقال الله تعالى: ﴿أَذْهَبْنُمُ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾^(١) الآية ويروى أنه بقدر ما يأخذ العبد من لذات الدنيا ينقص له من لذات الآخرة وقد روي أن الله تعالى عرض الدنيا على نبينا محمد عليه السلام فقيل له: ولا ينقص لك من آخرتك شيء خصه بذلك، فدل أن لغيره النقصان إلا أن يتفضل الله عليه بذلك.

ويروى أن سليمان عليه السلام كان يأكل الشعير، ويطعم عياله دقيق القمح، ويطعم المساكين الحواري. وروي أن عمر رضي الله عنه عطش فدعى بماء، فأعطاه رجل أداة فيها ماء نبذ فيها ثمرات، فلما قربها عمر من فيه وجد الماء بارداً حلواً، فأمسك فقال: أوه. فقال الرجل: ماء ألوته حلاوة. فقال عمر: ذلك الذي منعني، ويحك لولا الآخرة لشاركتناكم في عيشكم.

والعاشرة: أن كثرة الأكل تنسي أهل الجوع في الدنيا حتى لا يتفضل عليهم مع ما يناله في الآخرة من الحبس والحساب والتوبيخ واللوم في ترك الأدب في أخذ الفضول وطلب الشهوة، والله أعلم. فهذه جملة العشر وفي واحدة منها كفاية لمن نظر واعتبر فعليك أيها المجتهد بالاحتياط البالغ في القوة لئلا تقع في حرام أو شبهة فيلزمك العذاب، ثم الاقتصار من الحلال على ما يكون عمدة على عبادة الله تعالى لئلا تقع / في شر وتبقى في [٢٤٩] الحساب.

فصل

فإن قيل: فما شرط المباح حتى يصير خيراً أو حسنة؟ قيل له: يحتاج في الأصل إلى شرطين.

أحدهما: الحال.

والثاني: القصد.

فأما الحال: فهو أن يكون في حال عذر وضرورة، وإن لم يأخذ البلغة يتقطع بسبب ذلك عن فرض أو سنة أو نفل هو أفضل من ترك المباح فذلك حال العذر.

وأما القصد: فهو أن يقصد بأكله التقوى على طاعة الله والاستعانة به على عبادته، ومعنى القصد أن يذكر بقلبه لولا ما فيه من التوصل إلى عبادة الله لما أخذ ذلك، فإن كان في حال عذر لم يكن له هذا القصد، أو كان به هذا القصد ولم يكن في حال عذر فلا يصير ذلك الفعل من جملة الخيرات، ثم الاستقامة على حفظ ذلك الأدب يحتاج إلى بصيرة وقصد مجمل، بأنه لا يأخذ من الدنيا إلا للاستعانة بها على العبادة، حتى أنه إن سهى عن ذكر الحجة في بعض الأحوال أجزاء ذلك القصد المجمل عن تجديد ذكر الحجة.

فإن قيل: فإن أخذ الحلال بشهوة فهل هذا معصية؟ أو يلزمه عذاب؟ وهل الأخذ بالعذر فرض أم لا؟ قيل له: إن ذلك فضيلة وخير وحسنة والأمر فيه أمر تأديب، وليس في تركه معصية ولا عذاب، وإنما عليه الحبس عن الجنة والحساب عليه مدة، بأن يُسأل العبد يوم القيامة عما ذا اكتسب؟ وفيما اتفق؟ وماذا أراد بذلك؟ والحبس عن الجنة مقدار الحساب في عرصة القيامة بين أهوالها ومخاوفها عطشاناً عرباناً وكفى بذلك بلية. فإن قيل: فإله تعالى قد أحل لنا هذا الحلال فاللوم والتعير في أخذه لماذا؟

/ قيل له: لترك الأدب كمن أجلس على مائدة الملك فترك الأدب فإنه يعير بذلك [٢٥٠]

ويلازم، والأصل في هذا الباب أن الله تعالى خلق العبد لعبادته وهو عبد الله تعالى من كل وجه، فحق العبد أن يعبد الله تعالى من كل وجه يمكنه ذلك ويجعل أفعاله كلها عبادة من أي وجه أمكنه، وإن لم يفعل ذلك وآثر شهوته واشتغل عن عبادة ربه مع تمكنه من ذلك من غير عنز - والدار دار خدمة وعبادة لا دار تنعم وشهوة - فقد استحق المعلوم بذلك والتعبير من سيده، فتأمل هذا الأصل راشداً ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فصل

واعلم أن الداعي إلى الأكل والشراب شيان: حاجة ماسة وشهوة باعثة .
فالحاجة: تدعو إلى ما سد الجوع وسكن العطش وهذا مندوب إليه عقلاً وشرعاً لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس، ولذلك ورد النهي عن الوصال في الصوم؛ لأن يضعف الجسد ويعجز عن العبادة.

وأما الشهوة: فعلى نوعين:

أحدهما: شهوة في الإكثار على مقدار الكفاية .

والثاني: شهوة في تناول الألوان المملذة .

فأما النوع الأول: وهو شهوة الزيادة على قدر الحاجة فهو ممنوع في الشرع والعقل؛ لأن تناول ما زاد على الكفاية نهم وشره مضر كما كان قدر الكفاية مندوباً إليه في العقل والشرع وقال بعض العلماء: الرغبة لؤم، والنهم شؤم . قال الشاعر:

فكم من أكلة منعت أخاها بلذة ساعة أكلات دهر

فكم من طالب يسعى لأمر وفيه هلاكه لو كان يدري

[٢٥١] وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من البطن حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن لم يفعل فثلاثاً للطعام، وثلاثاً للشراب، وثلاثاً للريح»^(١).

وأما النوع الثاني: وهو شهوة الأشياء المملذة وطلب الأنواع الشهية، فمذاهب الناس في ذلك مختلفة فمنهم من يرى أن صرف الناس عنها أولى لئلا له قيادها حتى لا تظني؛ لأن شهواتها غير متناهية فإن أعطاها ذلك صار الإنسان أسير شهوات لا تنقضي، ومن كان كذلك لا يرج له صلاح وينشد لأبي الفتح البستي:

(١) عن نحوه قال العراقي في المغني (٤/٢): رواه الترمذي وقال حسن، والنسائي، وابن ماجه من حديث المقداد بن معد يكرب.

يا خادماً الجسم كم تسعى لخدمته لتطلب الريح فيما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وروي أن أبا حازم كان يمر على الفاكهة ويشتهيها فيقول: موعذك الجنة. وقال آخرون:
بل تمكين النفس من لذاتها أولى لما في ذلك من ارتياحها ونشاطها ببئيل شهواتها فتحسر عنها
لذة المقهور وبلادة المحصور فلا تقصر عن درك مأمول، ولا تكل عن استعانة في الأمور.
وقال آخرون: بل توسط الأمرين أولى؛ لأن في إعطائها كل شهواتها سلاطة، والنفس السليطة
معاندة، وفي منعها من جميع شهواتها بلادة، والنفس البليدة عاجزة وفي منعها عن البعض كف
لها عن السلاطة وفي تمكينها من البعض حسم لها عن البلادة، وهذا لعمرى أشبه المذاهب
بالسداد؛ لأن التوسط في الأمور أحمد والله أعلم.

ثم عليك أيها الطالب بالأدب في الأكل وإلاً كنت حمالاً للطعم، مضيقاً للأيام، إذ
علمنا يقينا أن العبادة لا يجيء منها شيء إذا امتلأت / المعدة وإن أكرهت النفس على ذلك فلا [٢٥٢]
تكون لتلك العبادة لذة ولا حلاوة ولذلك قيل: لا تطمع بحلاوة العبادة مع كثرة الأكل فأني نور
في نفس بلا عبادة وفي عبادة بلا حلاوة.

ولهذا المعنى روي عن إبراهيم بن أدهم أنه قال: صحبت أكثر رجال الله تعالى فكانوا
يوصونني: إذا رجعت إلى أبناء الدنيا فعظهم بأربع: قل لهم من يكثر الأكل لا يجد لذة العبادة،
ومن ينم كثيراً لا يجد في عمره بركة، ومن يطلب رضى الناس فلا ينتظر رضى الرب تعالى، ومن
يكثر الكلام بفضول وريية فلا يخرج من الدنيا على دين الإسلام.

وقال بعض العلماء: جماع الخير كله في هذه الخصال الأربعة وبها صارت الأبدال^(١)
أبدالاً؛ إخصاص البطون، والصمت، والاعتزال عن الخلق، وسهر الليل. وقال بعض
الحكماء: جاهد نفسك بأنواع الرياضات، والرياضة على أربعة أوجه: القوت من الطعام،
والغمض في المنام، والحاجة من الكلام، وحمل الأذى من جميع الأثام. فيتولد من قلة
الطعام موت الشهوات، من قلة المنام صفو الإرادات، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات،
ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات.

فصل

فعلبك أرشدك الله بمراعاة هذه الأعضاء الخمسة المشروحة في هذه الأبواب المتقدمة

(١) سبق أن تكلمت عن تعريف الأبدال.

وهي: القلب، واللسان، والعين، والسمع، والبطن، فاحترس عليها غاية الإحتراس، حتى لا توقعت في معصية وحرام وفضول وإسراف من حلال، فإذا حصلت صيانة هذه الأعضاء فمرجو أن تكفي شر سائر الأركان من اليدين والرجلين؛ لأنهما تبع لهذه الأعضاء / .

[٢٥٣] / واحفظ اليدين من أن تضرب بهما أحداً ظلماً، أو تناول بهما مالاً حراماً، أو تلمس بهما ملموساً حراماً، أو تؤذي بهما أحد من الخلق أو تكتب بهما ما لا يحل النطق به؛ فإن القلم أحد اللسانين فاحفظ القلم مما يجب حفظ اللسان منه .

وأما الرجلان فاحفظهما عن المشي بهما إلى حرام أو تسعى بهما إلى باب سلطان ظالم بغير ضرورة؛ لأن ذلك تواضع له وتكثير لسواده، وقد قال عليه السلام: «من تواضع لغني ذهب ثلثا دينه»^(١). هذا في غني صالح فما ظنك بغني ظالم .

وعلى الجملة فإن حركاتك وسكناتك بأعضائك عمل من أعمالها فلا تحرك شيئاً منها في معصية الله تعالى أهلاً واستعملهما في طاعة الله . واعلم أن العبادة شطران .

أحدهما: شطر اكتساب الخيرات .

والشطرن الثاني: ترك السيئات وهي التقوى، فشطرن اجتناب المعاصي والسيئات على كل حال أسلم وأصلح وأشرف من شطر اكتساب الطاعات . ولذلك قال العابد الثاني ليونس عليه السلام: يا يونس من الناس من حببت إليهم الصلوات فلا يؤثرون عليها شيئاً وهي عمود العدة بالنيات لله تعالى والصدق والتضرع والابتهاج، ومنهم من حبب إليهم الصوم فلا يؤثرون عليه شيئاً، ومنهم من حببت إليهم الصدقة فلا يؤثرون عليها شيئاً .

يا يونس وأنا مفسر لك هذه الخصال فاجعل صومك الصمت عن كل سوء، واجعل صدقتك كف الأذى فإنك لا تتصدق بشيء أفضل منه ولا تصم بشيء أذكى منه فإذا جانب الاجتناب للمعاصي أولى بالرعاية والاجتهاد فيه، فإن حصل لك الشطران جميعاً واكتساب الطاعات واجتناب المعاصي فقد استكمل أمرك، / وحصل مرادك، ولقد سلمت وغنمت، فإن لم تبلغ إلا إلى أحدهما فليكن ذلك جانب اجتناب المعاصي فتسلم إن لم تغنم، وإلا خسرت الشطرين جميعاً، فما ينفعك قيام الليل وتعبه ثم يحبط بمرادة واحدة، وما ينفعك صيام نهارك وتفسده بكلمة واحدة .

(١) أطراف الحديث عند: العجلوني في كشف الخفا (٢/٢٣٤)، السيوطي في الدرر المشترقة (١٥٧)، على القاري في الأسرار المرفوعة (٣٣٩)، المغني في تذكرة الموضوعات (١٧٥).

ولقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قيل له: ما تقول في رجلين أحدهما كثير الخير كثير الشر والآخر قليل الخير قليل الشر؟ فقال: لا أعدل بالسلامة شيئاً.

ومثال ما قلناه حال المريض وذلك أن معالجة المرض صنفان: صنف هو الدواء وصنف هو الاحتماء إذا اجتمعاً فكأنك بالمريض قد برىء وصحّ وإلاً فالاحتماء به أولى، إذ لا ينفع دواء مع ترك الاحتماء ولقد ينفع الاحتماء مع ترك الدواء، وقد قال عليه السلام: «أصل كل دواء الحمية». والمعنى والله أعلم أنها تغني عن كل دواء وبالله التوفيق.

فصل

اعلم أن هذه القناطر الأربعة المتقدمة هي قناطر العوائق عن الله، وعن سلوك طريق الآخرة وهي الدنيا، والشيطان، والخلق، والنفس.

أما الدنيا: فحق لك أن تحذرهما وتزهد فيها؛ لأن الأمر فيها لا يخلو من ثلاثة أوجه: إن كنت من أهل البصائر فحسبك أن الدنيا عدوة لله تعالى وهو حبيبك ووليك، وأن الدنيا قبيضة عقلك والعقل قيمتك.

وأما إن كنت من ذوي الهمم في عبادة الله تعالى والاجتهاد فيها فحسبك أن الدنيا بلغ من شؤمها ما يمنحك من إرادة العبادة فضلاً عن اكتسابها.

وأما إن كنت من أهل الغفلة، لا بصيرة لك بالحقائق، ولا همة لك تبعث على اكتساب المكارم، فحسبك / أن الدنيا لا تبقى إما أن تفارقها أو تفارقك كما قال الحسن: [٢٥٥] بقيت لك الدنيا لم تبق لها. فأئيُّ فائدة إذأ في طلبها، وإنفاق العمر العزيز عليها؟ ولقد أحسن القائل:

هب الدنيا تساق إليك عفواً ليس مصير ذلك إلى زوال
وما دنياك إلا مثل ظل أظلك ثم أذن بارتحال

فإذا نظرت بعقلك وعلمت أن الدنيا لا بقاء لها، وأن نفعها لا يبقى بضرها، وتبعاتها من كد البدن وشغل القلب في الدنيا، والعذاب الأليم والحساب الطويل في الآخرة، زهدت في فضولها ولا تأخذ منها إلا ما لا بد لك منه، لتستعين به على عبادة ربك وتدع التلذذ والتنعيم إلى الجنة دار النعيم في جوار رب العالمين.

وأما الشيطان: فيكفيك منه ما قال الله لنيبه عليه السلام: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ

الشَّيَاطِينِ»^(١). الآية فإذا كان الرسول عليه السلام مع معرفته بربه وعصمته من عدوه محتاجاً إلى أن يستعيذ من الشيطان، فكيف بك مع جهلك ونقصك وخبث الشيطان وتجرده لمعادتك، فإذا لا ينجيك منه إلا الاستعاذة بالله من مكائده والجد في طاعة الله ودوام ذكره.

فإن فعلت ذلك وأظهرت عزيمة الرجال يس منك الشيطان قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٢). . . الآية ولقد صدق أبو حازم حيث قال: ما الدنيا؟ وما إبليس؟ أما الدنيا: فما بقي فحلّم وما مضى فأمانى، وأما الشيطان: فوالله لقد أطيع فما نفع ولقد عصى فما ضر، والله أعلم.

[٢٥٦] وأما الخلق: فحسبك فيهم أنك لو خالطتهم ووافقهم في أهوائهم / أثمت وأفسدت أمر آخرتك، وإن خالفتهم تعبت بأذياتهم وجفواتهم، وكدرت عليك أمر دنياك، ثم لا تأمن أن يلجئوك إلى معاداتهم فتقع في شرهم ولأنهم مدحوك وعظموك أخاف عليك الفتنة والعجب، وإن دموك وحقوقك أخاف عليك الحزن تارة، والغضب لغير الله أخرى فكلا الأمرين آفة مهلكة.

ثم اذكر حالك معهم بعد ما صرت في القبر ثلاثة أيام كيف يتركوك ويهجرونك وينسونك، فلا يكادون يذكرونك كأنك لم ترهم يوماً ولم يروك، فلا يبقى إلا الله سبحانه وصالح عملك. أفلا يكون من الغبن العظيم أن تضيع أيامك مع هؤلاء الخلق مع قلة الوفاء منهم، وقلة البقاء معهم وتترك خدمة الله تعالى الذي إليه مصيرك، وبه حولك وتوفيقك، ولا يبقى لك إلا هو أبد الأبدين، فعول عليه يا مسكين في جميع حاجاتك، واتكل عليه في جميع أمورك، تجده أمامك، وعند جميع مهماتك، وبالله التوفيق.

وأما النفس: فحسبك منها ما تشاهده من حالاتها ورداءة إرادتها وسوء إختيارتها فهي في حال الشهوة بهيمة، وفي حال الغضب سبع، وفي حال المصيبة تراها طفيلاً، وفي حال النعمة تراها فرعوناً، وفي حال الجوع تراها مجنوناً، وفي حال الشبع تراها مختلاً، إن أشبعتها بطرت وإن جوعتها صاحت وجزعت، وهي كما قال الأول:

كحمار السوء أشبعته رمح الناس وإن جاع نهق

فيايك أيها الرجل أن تغفل عنها فإنها كما قال خالقها العالم بها جلّ جلاله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ

(١) سورة المؤمنون الآية: ٩٧.

(٢) سورة النحل الآية: ٩٩.

[٢٥٧]

لَأَمَّا رَوْ بِالسُّوءِ^(١). وكفى بهذا تنبيهاً/ لمن عقل ولقد صدق القائل وأحسن:

توق نفسك واحذر من غوائلها فالنفس أخبث من سبعين شيطاناً
فتنبه رحمك الله لهذه الخداعة الأمامة بالسوء ووطن على مخالفتها قلبك بكل حال تصب
وتسلم، ثم عليك بالجامها بالتقوى لا حيلة لها سواه. وقد قال القائل:

إني ابتليت بأربع يرمونني بالنبل من قوس لها تأثير
إيليس والدنيا ونفسي والهوى أنت يا رب على الخلاص قدير

ونسأل الله خير مسؤول أن يمدنا بحسن التوفيق وأن يعيننا على سواء الطريق

فإنه الكافي لكل مهم وهو على كل شيء قدير

تمت قطرة النفس بحمد الله وحسن عونه وتوفيقه بمنه وكرمه^(٢)

(١) سورة يوسف الآية: ٥٣.

(٢) تاتر مضمون هذه القطرة في إحياء علوم الدين من الجزء الأول إلى الرابع الأخير.

القنطرة الثانية عشرة قنطرة العوارض

وفيها أربعة أبواب:

أحدها: باب الرزق وتطالب النفس به وكفايتها بالتوكل .

والثاني: باب الأخطار التي تخطر على القلب من شيء يخافه الإنسان أو يرجوه أو يريده أو يكره ولا يدري صلاحه في ذلك أو فساده وكفايتها بالتفويض .

والباب الثالث: باب المصائب والشدائد وكفايتها بالصبر .

والباب الرابع: القضاء من الله سبحانه بالخلق والأمر يرد عليه حالاً فحالاً، والنفس

تسارع إلى السخط وكفاية هذا الباب بالرضى عند نزول القضاء . فهذه الأربعة هي العوارض

[٢٥٨] التي تعترض الإنسان فتشغله عن العبادة، فالواجب عليه أن يسد سبيلها لئلا تشغله / عن مقصوده من عبادة الله سبحانه .

باب

في الرزق

اعلم يا أخي رحمك الله أن الله تبارك وتعالى قسم الأرزاق بين عباده على ما شاء من

تدبيره، وأن القدر سيجري عليك بقسمك منه، ويوفيكه غير متزايد فيه، بحولك وقوتك، ولا

منقص منه بضعفك وعجزك قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(١) .

الآية . وقال تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَسُطُّ الرُّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾^(٢) . .

وقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرُّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يَثُرُّ بَقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾^(٣) . . .

(١) سورة الزخرف الآية: ٣٢ .

(٢) سورة الشورى الآية: ١٢ .

(٣) سورة الشورى الآية: ٢٧ .

الآية. وقال النبي ﷺ: «أن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها، وانتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوا شيئاً من فضل الله بمعصيته، فإنه لن ينال ما عند الله إلا بطاعة الله»^(١).

وعنه عليه السلام أنه قال: «إن الجليل جل جلاله لما استوى على عرشه قال: عبادي أنتم خلقي، وأنا ربكم، أرزاقكم بيدي، فلا تهوموني بما تكفلت لكم، فاطلبوا إليّ أرزاقكم، وارفعوا إليّ حوائجكم، ففضاءها بيدي، انصفوا من أنفسكم أصب عليكم أرزاقكم، عبادي: أنفقوا انفق عليكم، ووسعوا أوسع عليكم، فلا تضيقوا فأضيق عليكم، ولا تضروا أحداً فأضركم، إن باب الرزق مفتوح من فوق سبع سموات، موصل إلى العرش، لا يغلق ليلاً ولا نهاراً، أنزل الرزق على كل امرء بقدر نيته وعطيته وصدقته ونفقته، من أكثر أكثر له ومن أمسك أمسك عنه».

ويقال: إن الله تعالى خلق الأزراق قبل الأجسام بالفي عام ثم بسطها بين السماء والأرض / ثم أمر الرياح ففرقتها إلى مشارق الأرض ومغاربها، فروي عن النبي ﷺ أنه قال: «فمنكم من [٢٥٩] وقع رزقه في الفلي موضع ومنكم من وقع رزقه في خمسمائة موضع وغير ذلك».

وقال عليه السلام: «لو فر أحدكم من رزقه لأدركه كما يدركه الموت»^(٢) وعن أبي حازم أنه قال: وجدت الدنيا شيتين فشيء منها هو لي فلن أعجله قبل أجله ولو طلبته بقوة السموات والأرض، وشيء منها هو لغيري فذلك ما لم أنهل فيما مضى ولا أرجوه فيما بقي، يمنع الذي لي من غيري كما يمنع الذي لغيري مني، ففي أيّ هذين فني عمري، ووجدت ما أعطيت من الدنيا شيتين فشيء يأتي أجله قبل أجلي وأغلب عليه وشيء يأتي أجلي قبل أجله فأموت وأخلفه لمن بعدي ففي أي هذين أعصي ربي وقد قال الله سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾^(٣).

فكما لا يخفى عليه أمرها فكذلك لا يضيعها في رزقها. وقد روي عن أنس بن مالك أنه قال: جئت يوماً إلى النبي ﷺ بماء ليتوضىء وطير على شجرة أعمى يضرب بمقاراه في الشجرة فقال النبي ﷺ: «يا أنس أتعرف ما يقول هذا الطائر؟» فقلت: الله ورسوله أعلم، فقال عليه

(١) أطراف الحديث عند: الشهاب في مسنده (١١٥٢، ١١٥١)، البيهقي في شرح السنة (٣٠٤/١٤).

(٢) أطراف الحديث عند: الطبراني في الصغير (٢٢/١)، المنذري في الترغيب والترهيب (٢٣٦/٢)، العجلوني في كشف الخفا (٢٦٦/١)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٢/٤).

(٣) سورة هود الآية: ٦.

السلام: «يقول يا رب أنت خلقتني وسويت خلقتي وأعميت بصري وقد جعلت فأطعمني». قال أنس: فما أتم النبي عليه السلام الكلام حتى جاءت جرادة إلى فم الطائر فأكلها ثم جعل يضرب بمقاراة على الشجرة، فقال النبي عليه السلام: «يا أنس أتدري ما يقول؟» قلت: الله ورسوله [٢٦٠] أعلم. قال: «يقول الطائر: ومن يتوكل على الله / لا ينساه». وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾^(١). قيل: المطر، وقيل: مكتوب في السماء رزق فلان كذا وفلان كذا. ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾. قيل: من خير وشر مكتوب في السماء. وقيل: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ يعني الجنة. ﴿فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا إِنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾^(٢).

ويروى أنه لما نزلت هذه الآية اشتمل قوم من أصحاب النبي ﷺ على سيوفهم فقالوا: يا رسول الله من هذا الذي ضمن الله له رزقه فلم يرض به حتى أقسم له بنفسه دلنا عليه. قال: «وما تصنعون به؟» قالوا: نضربه بسيفونا. وعن الأصمعي أنه قال: خرجت ذات يوم من مسجد البصرة إذ طلع عليّ أعرابي حافياً متقلداً بسيفه. فقال لي: من الرجل؟ قلت: من بني الأصمعي. قال: أنت الأصمعي؟ قلت: نعم. قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الله. قال: أو الله كلام يتلوه الأدميون؟ قلت: نعم. قال: اتلي عليّ منه. فابتدأت بالذاريات حتى بلغت. ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾. فقال: يا أصمعي هذا كلام ربي. فقلت: أي والله. فقال: حسبك، فمال إلى ناقته فنحرها وقسم لحمها وكسر سيفه وولّى وهو يقول: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾. ففضى الله لي الحج مع هارون الرشيد، فبينما أنا أطوف إذ أنا بالأعرابي مصفر اللون فسلم علي فأجلسني، فقال: اتل علي ما كنت تتلوه، فعرفته حتى بلغت: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ...﴾^(٣) الآية. فصاح فقال: وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً يا أصمعي، هل غير هذا؟ فقلت: نعم: ﴿فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ...﴾^(٤) الآية. [٢٦١] فصاح الأعرابي فقال: من ذا الذي أغضب الجليل جل جلاله حتى / أقسم، وخرجت نفسه. وكان يقال: من لم يقنع برزقه عذب نفسه وأنشدوا:

على آية أقتل النفس هم وقد قسم الله رزق الأمم
وأقسم في سورة الذاريات على الرزق من ليس بالمتهم

(١) سورة الذاريات الآية: ٢٢.

(٢) سورة الذاريات الآية: ٢٣.

(٣) سورة الذاريات الآية: ٢٢.

(٤) سورة الذاريات الآيتان: ٢٢، ٢٣.

فمن كان في ظلمات ثلاث فلا بد للرزق يأتيه ثم
الأكل ما كان أو ما يكون فقد جف عنه مداد القلم

فإذا كنت يا أخي تعرف ربك وتعرف عدله، فلا تتهمه في رزقك، فلا يحملنك الحرص وضيق النفس على أن تستبطن رزقه وفضله، فإنه لا يدعك حتى يأتيك بما قسم لك من حيث لا تعلم. وروي عن موسى عليه السلام أنه قال في مناجاته: إلهي إني جائع، فأوحى الله إليه: إني أعلم بذلك يا موسى. قال إلهي فأطعمني. قال: حتى أريد. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسِطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾^(١). فدلنا تعالى بهذه الآية على التوكل والثقة، فلتسكن يا أخي من اضطرابك، ودع حيلتك، وسل من بيده البسط أن يوسع عليك وأنشدوا:

جرى قلم القضاء بما يكون فسَيَّان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى برزق ويرزق في غشاوته الجنين

ويروى أن هرم بن حيان قال لأويس القرني^(٢) رحمه الله: أين تأمرني أن أكون؟ فأومى إلى الشام. فقال هرم: كيف المعيشة بها؟ قال أويس: أف لهذه القلوب لقد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة، فعليك يا مسكين بطلب الأرزاق ممن تكفل لك بها، ولا تطلبها من طالب مثلك لا ضمان عليه وإن وعدك أخلفك. وأنشدوا لعلي بن أبي طالب:

[٢٦٢] / أنطلب رزق الله من عند غيره وتصبح من خوف العواقب أماناً
أترضى بصراف وإن كان مشركاً ضميناً ولا ترضى ببرك ضامناً
كانك لم تعرف بما في كتابه فأصبحت مدخول اليقين مباناً

(١) سورة الرعد الآية: ٢٦.

(٢) هو: هَرَمُ بن حبان العبدي ويقال: الأزدي البصري أحد العابدين.. ولي بعض الحروب في أيام عمر، وعثمان ببلاد فارس، قال ابن سعد: كان عاملاً لعمر، وكان ثقة له فضل وعبادة، وقيل: سمي هَرَمًا لأنه بقي حملاً ستين حتى طلعت أسنانه: قال أبو القاسم بن عساکر: قدم هرم دمشق في طلب أويس القرني.

عن سعدويه عن يوسف ابن عطية حدثنا المعلي بن زياد قال: كان هَرَمٌ يخرج في بعض الليل وينادي بأعلى صوته: عجبت من الجنة كيف نام طالبها؟! وعجبت من النار كيف نام هارباها؟! ثم يقول: ﴿أَقَامِينَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسًا بَيِّنًا﴾ [الأعراف: ٩٧]. قاله الذهبي في سير الأعلام (٤٨/٤).

أما أويس القرني فهو: القدوة الزاهد سيد التابعين في زمانه أبو عمرو أويس بن عامر بن جزء بن مالك القرني المرادي اليماني، وقرن بطن من مراد، وقد على عمر، وروي قليلاً عنه وعن علي... وأخبار أويس مستوعبة في تاريخ الحافظ ابن عساکر... قاله الذهبي في سير أعلام النبلاء (١٩/٤). قلت: وترجمته جليلية طويلة مفيدة ذكرها الذهبي في سيره فراجعها إن أحببت (١٩/٤: ٣٣).

فصل

وقال أهل العلم: إن الرزق ينقسم على أربعة أقسام: مضمون، ومقسوم، ومملوك وموعد.

فالمضمون: هو الغذاء وما به قوام البنية دون سائر الأسباب، فالضمان من الله تعالى لهذا النوع والتوكل يجب بإزائه بدليل العقل والشرع على ما سيأتي إن شاء الله بيانه؛ لأن الله تعالى كلفنا خدمته وطاعته بأبداننا فضمن ما يسد به خلل البنية لتقوم بما كلفنا. وروي عن بعض مشايخ الكرامية: أن ضمان أرزاق العباد واجب في حكمة الله تعالى لثلاثة أوجه:

أحدها: أنه السيد ونحن العبيد وعلى السيد مؤنة كفاية العبيد كما أن على العبد خدمة السيد.

الثاني: أنه إنما خلقهم محتاجين إلى الزرق ولم يجعل لهم سبيلاً إلى طلبه إذ لا يدرون ما هو رزقهم؟ وأين هو؟ ومتى هو ليطلبوه بعينه من مكانه في وقته ليصلوا إليه فوجب أن يكفيهم أمر ذلك ويوصلهم إليه.

والثالث: أنه كلفهم الخدمة وطلب الرزق شاغل عنها فوجب أن يكفيهم المؤنة ليتفرغوا للخدمة، والقاتل بالوجوب على الله مخطيء إلا أن أراد أن ذلك واجب في جوده وكرمه فتعم^(١) والله أعلم.

وأما الرزق المقسوم: فهو ما قسم الله سبحانه وكتبه في اللوح المحفوظ من جميع ما يأكله ويشربه ويلبسه كل واحد بمقدار مقدر ووقت مؤقت لا يزيد ولا ينقص ولا يتقدم ولا يتأخر [٢٦٣] عما كتبه / بعينه. قال عليه السلام: «الرزق مقسوم مفروغ، منه، ليس تقوى تقوي زيادته، ولا فجور فاجر يناقصه»^(٢).

وأما الرزق المملوك: فهو ما يملكه الإنسان من أموال الدنيا على حسب ما قدر الله تعالى وقسم له أن يملكه، وهو من رزق الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾^(٣). أي مما ملكناكم.

(١) قلت: هذا تعليق طيب من المؤلف رحمننا الله وإياه يدل على صحة عقيدته وعدم شططه أو غلوه في بعض المسائل العقائدية.

(٢) نحو هذا الطرف عند: العجلوني في كشف الخفا (١/٥١٧)، والقيسراني في تذكرة الموضوعات (١٠٦١).

(٣) سورة المنافقون الآية: ١٠.

وأما الموعود: فهو ما وعد الله تعالى للمتقين من عبادة بشرط التقوى، حلالاً من غير كد، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾^(١). فهذه أقسام الرزق والتوكل، إنما يجب يلازم المضمون منها فاعلم ذلك وبالله التوفيق.

فصل: في التوكل

قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾^(٢). قيل: قرأ بعض العلماء بهذه الآية فقال: ما ينبغي لعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى. وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٣). وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «عرضت عليّ الأمم فجعل النبي والنبيون يمرون ومعهم الرهط والنبي ليس معه أحد حتى رفع إلى سواد عظيم فقلت: ما هذا؟ هذه أمتي؟ قيل: هذا موسى وقومه، قيل لي: انظر إلى الأفق، فإذا سواد يملأ الأفق، فقيل لي: هذه أمتك، ويدخل الجنة مع هؤلاء سبعون ألفاً بغير حساب تضيء وجوههم إضاءة القمر». ثم دخل ولم يبين لهم، فأفاض القوم فقالوا: نحن الذين آمنوا واتبعوا رسوله فنحن هم، أو أولادنا؟ ولدوا على الإسلام فإننا ولدنا في الجاهلية. وفي حديث آخر: فقال بعض المسلمين: نحن قد ذقنا الشرك، وربما هؤلاء الأنبياء ومن يأتي من بعد من أبائنا، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتون» [٢٦٤] وعلى ربهم يتوكلون^(٤). وقال عليه السلام: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطيور تغدو خماصاً وتروح بطاناً»^(٥). من توكل عليه كفاه كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله تعالى إليها. وعن إبراهيم بن أدهم أنه قال: سأل بعض الحكماء من أين تأكل؟ فقال: ليس هذا العلم عندي ولكن سل ربي من أين يطعمني؟ وقال رجل لأعرابي في فلاة: من أين معيشتك؟ فقال: لو كنا لا نعيش إلا من حيث نعلم لطل جوعنا. وكان يقال: متى رضيت بالله وكياً وجدت إلى كل خير سبيلاً.

وقال: دخل جماعة إلى بعض الزهاد فقالوا: نطلب الرزق؟ فقال: إن علمتم أين هو فاطلبوه. فقالوا: نسأله؟ فقال: إن علمتم أنه ينساكم فذكروه. وقالوا: ندخل البيت فتوكل؟

(١) سورة الطلاق الآية: ٢، ٣.

(٢) سورة الفرقان الآية: ٥٨.

(٣) سورة المائدة الآية: ٢٣.

(٤) عن نحو هذا الحديث العراقي في المعنى (٥٣١/٤): رواه البخاري.

(٥) قال العراقي في المعنى (٢٣٩/٤): رواه الترمذي والحاكم وصححاه من حديث عمر.

قال: التجربة شك. قالوا: فما الحيلة؟ قال: ترك الحيلة.

وعن أويس القرني^(١) رحمه الله قال: لو عبدت الله تعالى بعبادة أهل السموات وأهل الأرض لما تقبل منك حتى تصدقه. قيل: فكيف نصدقه؟ قال: تكون آمناً بما تكفل الله به من أمر رزقك ويرى جسمك فارغاً لعبادته.

ويروى أن قوماً من الأعراب زرعوا زرعاً فلما بلغ أصابته آفة، فاشتد ذلك عليهم حتى رىء فيهم فخرجت أعرابية منهم فقالت: ما لي أراكم جلوساً مغيرة ألوانكم ميتة قلوبكم، هو ربنا فليفعل بنا ما شاء وليرزقنا من حيث شاء ثم قالت:

لو أن في صخرة في البحر راسية صماء مملمة ملساء نواحيها
رزقنا لنفس براها الله لانقلقت حتى تؤدّي إليها كل ما فيها
/ أو كان بين طباق السبع مسلكتها لسهل الله في المرقى مراقبها
حتى تنال الذي في اللوح خط لها فإن أتته وإلاً سوف يأتيها
وعن سعيد بن جبير أنه قال: التوكل جماع الإيمان.

[٢٦٥]

فصل

اعلم أن التوكل محله القلب ومعناه مأخوذ من قولك: توكل فلان على فلان وهو أن يتخذ بمنزلة الوكيل القائم بأمره. وحقيقة التوكل هو سكون القلب في ضمان الرب، وهو أن تعلم أن الله تعالى لم يترك أمراً مهماً بل فرغ من الأشياء وقدرها، وإن اختلف منها شيء في المعقول، أو تشوش في المحسوس، أو اضطراب في المعهود، فهو المدبر وشأنه سوق المقادير إلى المواقيت.

فحقيقة التوكل يرجع إلى أصل واحد وهو أن تعلم أن الله تعالى ضامن لما تقوم به بيتك، مقدر لما يجري عليك فتوطن نفسك على ذلك، وترجح قلبك من التعلق إلى غيره.

وأما حصن التوكل الباعث عليه فهو ذكر ضمان الله تعالى، وحصن حصن التوكل ذكر عظمة الله وكماله ونزاهته عن الخلف والسهو والعجز، فإذا واطب القلب على هذه المعاني بعثته على التوكل على الله تعالى في أمر الرزق؛ لأنه تعالى قرن الرزق بالخلق فقال: ﴿خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾^(٢).

(١) سبق أن ترجمت له ترجمة مختصرة قبل قليل.

(٢) سورة الروم الآية: ٤٠.

فدلّ أن الرزق منه تعالى لا غيره كالخلق، ثم لم يكف بالأدلة حتى وعد فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾^(١). ثم لم يكف بالوعد حتى ضمن فقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾^(٢). ثم لم يكف بالضمان حتى أقسم فقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ يَفِيءُ مَا أُنْكُمُ تَنْطِقُونَ﴾^(٣). ثم لم يكف بذلك كله حتى أمر بالتوكل فأبلغ وأندر فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾^(٤).

فمن لم يعبأ بقوله ولم يكف بوعدده ولم يطمئن / لضمائه، ولم يقنع بقسمه، ثم لم يبال [٢٦٦] بأمره ووعدده ووعيدده، فانظر ماذا يكون حاله، فهذه والله محنة عظيمة ومصيبة جسيمة وقد قال الحسن: لعن الله أقواماً أقسم لهم ربهم فلم يصدقوه.

ويروى أن الملائكة قالت عند نزول هذه الآية: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية. هلكت بنو آدم أغضبوا ربهم حتى أقسم لهم على أرزاقهم والله أعلم وأحكم.

مسألة

اعلم أن الجاهل قد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، والتدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، وكاللحم على الوضم وهذا ظن الجاهل، وذلك حرام في الشرع؛ لأنه قد أتى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بارتكاب محرماته بل تكشف الغطاء عنه ونقول: إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بعلمه إلى مقاصده، وذلك محصور في أربعة أوجه:

أحدها: إما أن يكون لجلب نافع مفقود يحصله بالكسب، أو لحفظ موجود عنده يصونه بالإدخار، أو لدفع ضرر لثلاث يتزل به: كاللص والسياع، أو لإزالة ضرر قد نزل به: كالتداوي من المرض، فمقصود حركات العبد لا تعد وهذه الوجوه.

وإما جلب نافع: فيكون على ثلاثة أوجه:

أحدها: مقطوع به مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها، بتقدير الله عز وجل ارتباطاً مطرداً لا يختلف مثل الطعام الموضوع بين يدي الجائع المحتاج إليه، فلا يمد اليد إليه فيقول:

(١) سورة الذاريات الآية: ٥٨.

(٢) سورة هود الآية: ٦.

(٣) سورة الذاريات الآية: ٢٣.

(٤) سورة الفرقان الآية: ٥٨.

أنا متوكل. وشرط التوكل ترك المسعي ومد اليد سعي ومحركة، وكذلك مضغه بالأسنان فهذا جنون، وليس من التوكل في شيء فإنه إن انتظر أن يخلق الله فيه شيئاً دون أكل الخبز، ودون [٢٦٧] أن يتحرك إليه، أو انتظر أن يسخر / له ملكاً يمضغ له فقد جهل سنة الله في البلاد والعباد، وكان بمنزلة من طمع في الزرع بغير بندر ولا حرث، وطمع في الولد بغير جماع زوجة وأمثال هذا مما يكثر فليس التوكل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم.

وأما العلم فهو أن يعلم أن الله خالق الطعام واليد وأنه الذي يطعمه ويسقيه. وأما الحال فيكون سكونه واعتماده على فضل الله تعالى لا على اليد والطعام إذ تجف اليد ويسلب الطعام في الحال، فإذا كان هكذا علمه وحاله فليمد اليد إليه فإنه متوكل.

والوجه الثاني: الأسباب التي ليست متعينة لكن الغالب أن المسبب لا يحصل دونها كالذي يسافر في البادية بغير زاد فهذا متوكل بشرطين.

أحدهما: أن يكون قد راض نفسه على الصبر على الطعام أسبوعاً أو ما قاربه.
والثاني: أن يكون بحيث يتقوت بالحشيش أو الأشياء الخسيسة. فبين الوجهين فرق، لأنه في هذا الوجه يحتمل أن يجد طعاماً أو ينتهي إلى محلة أو قرية، والوجه الأول أن يتحرك الطعام ممضوغاً في فيه فيبينهما فرق ولكن الثاني قريب من معنى الأول.

وقد روي أن زاهداً أقام في جبل أسبوعاً وقال لا أسأل أحد فأوحى الله إليه فوعزتي وجلالي لا أرزقك حتى تدخل الأمصار، ففعل فاتاه الناس بالطعام فأوحى الله إليه أردت أن تذهب حكمتي بزهك أما علمت أنني أرزق عبدي على أيدي عبادي أحب إليّ أن أرزقه بيد قدرتي.

ولذلك قال بعض العلماء: لو انحاز إليّ جبل لا ماء فيه ولا حشيش ولا يطرقه إنسان وجلس فيه متوكلاً لكان آتماً مساعياً في إهلاك نفسه. فلما كان الأمر على ما وصفنا، كان [٢٦٨] التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة، فالأول / متوكل بالحال والعلم، والثاني متوكل بالحال والعلم والشرط إذ يمكن أن يؤخذ الزاد من صاحبه فيموت جوعاً والله أعلم.

الوجه الثالث: القاعد في مسجد قرية تاركاً للكسب فهذا متوكل ولكنه أضعف من الأول؛ لأنه بالعودة في المصر متعرض لأسباب الرزق ولكن هذا لا يبطل توكله إذا كان نظره إلى مسخر سكان البلد لا إلى الساكن في البلد والله أعلم.

وكما روي أن عبداً كان بالحرم، وكان رجل يأتيه كل يوم بقرصيتين يفطر عليهما ولا

يشغل بغير الله عز وجل فقالت له نفسه: يا هذا أسكنت إلى هذا المخلوق ونسيت رازق المخلوقين والله ليرزقنك على يد غيره، ما هذه الغفلة وما هذا السكون لغير الله تعالى، فينما هو يعاتب نفسه فإذا هو بالرجل قد أتاه بالقرصتين فردهما عليه وانتهره وقي العباد ثلاثة أيام لمن يفتح عليه بقوت، فشكى ذلك إلى الله تعالى فرأى في منامه كأنه واقف بين يدي الله، فقال له: عبيدي لم رددت عبيدي بما أرسلته به إليك. فقال: يا رب بما قام في نفسي من السكون إلى غيرك. فقال: عبيدي من أرسله إليك؟ قال: أنت يا رب. قال: فأنت ممن تأخذه؟ قال: منك يا رب. قال: فخذ لا تعد. فنام الرجل الذي يأتيه بالقرصتين فرأى كأنه واقف بين يدي الله تعالى، فقال له: لم قطعت عن عبيدي القرصتين؟ قال: يا رب ردهما عليّ وانتهرني. قال: لمن كنت تعطي؟ قال: لك يا رب. قال: فمر على عادتك وثوابك الجنة.

الوجه الرابع: أن يكتسب على الوجه المباح في الشرع يرى كسبه وبضاعته بالإضافة إلى قدرة الله تعالى كما يرى القلم في يد الكاتب، فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك الكاتب بماذا يتحرك / وإلى ماذا يميل فإذا كان هكذا فهو بيده مكتسب، ويقلبه عنه منقطع [٢٦٩] فحال هذا أشرف من حال القاعد في بيته إذا روعيت فيه الشروط وانضاف إليه الحال والمعرفة كما تقدم.

وقد قال بعض علماء السلف: التوكل بالقلب والاكساب بالبدن، فإذا اكتسبت بيدك، واتكلت على الله بقلبك فأنت متوكل، وإن تركت العمل بيدك واشتغل قلبك بالخلق فلست بمتوكل وسيأتي شرح ذلك إن شاء الله في باب القدر.

وأما حفظ الموجود الذي في أيدي الإنسان بالصيانة والإدخار: فإنه إن استوثق بما في يده وظن أنه لا يزول ولا يفارقه فهذا اتكال على غير الله.

وأما إن اتكل على هذا وأيقن أنه من عند الله وهو قادر على إزالته وذهابه ولم يمنح حقاً من حقوقه فهذا اتكال على الله.

ويقال: من ضعف اليقين الاستيثاق بما في يده دون ما في يد الله.

وقيل أيضاً: الثقة بالموجود سوء ظن بالمعبود والله أعلم.

وأما دفع ضار لم ينزل به من لص أو سبع أو غير ذلك من جميع المضار من الحر والبرد وغيرهما: فإن ذلك أمر مأمور به في الشرع قال الله تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ...﴾ (١) الآية.

وقد روي: أن النبي ﷺ ظاهر بين ذرعين، واتخذ خندقاً حول المدينة ليحترس به من العدو، وأقام الرماة يوم أحد ليحفظوه من خالد بن الوليد، وكان يلبس لامة الحرب، وقد قال تعالى: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ...﴾ (١) الآية.

وأما إزالة ضار قد نزل به: كالتداوي من المرض، فذلك مباح في الشرع أيضاً فقد روي [٢٧٠] أن النبي ﷺ أمر بالمداوات وقال: «إِن الَّذِي أَنْزَلَ الدَّاءَ / أَنْزَلَ الدَّوَاءَ» (٢).

ويقال أنه عليه السلام شرب السناء بالتمر، واستعاط بالسَّمْسَمِ. وقال: «عليكم (٣) بالحبة السوداء فإنها شفاء من كل داء إلا السام» يعني الموت.

ويروي أن موسى عليه السلام قال: ممن الداء؟ قال: مَيِّئِي. قال: فممن الدواء؟ قال: مَيِّئِي. قال: فما ينفع الأطباء؟ قال: يطيون نفوس عبادي.

فهذه الأخبار تدل على إباحة التداوي وإزالة المضار إذا كان نظر الإنسان إلى رب الدواء يتوقع الشفاء والفرج من عنده لا إلى الدواء في نفسه أنه ينفع العلاج به أو يضر تركه والله أعلم.

فإن قيل: أليس قد روي أن النبي ﷺ قال: «من استرقى واكتوى فقد برىء من التوكل» (٤)؟

قلنا: أليس قد ظاهر بين ذرعين وشرب الدواء وسائر ما ذكرناه آنفاً؟ فإن قيل: فما المخرج؟ قيل قال بعض العلماء: من استرقى أو اكتوى متوكلاً على الرقية والكي وأن البرء من قِبَلهما خاصة فهذا يخرج من التوكل ويلحقه برتبة الكفر إذا كان يضيف الحوادث إلى غير الله.

وأما من آمن بمسبب الأسباب، وخالق الأدوية، وتعاطى المداوات بها على ما جرت عادة الله تعالى في خلقه غير معتمد على شيء من تلك الأسباب بل هو واثق القلب أن ما حصل من ذلك فبئسيه وما تعمّر فبتقديره، فهذا متوكل على الله بشرط أن يسلك في جميع ذلك طريق الشرع والطاعة ولا يسلك طريق المعصية والمخالفة، وبالله التوفيق.

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٢.

(٢) نحو هذا الطرف عند: أحمد في المسند (٤٤٣/١)، الحاكم في المستدرک (١٩٧/٤)، البيهقي في السنن الكبرى (٣٤٣/٩)، الطبراني في الكبير (١٤٨/١)، ابن أبي شيبة في المصنف (٣٦٠/٧) والزبيدي في نصب الراية (٢٨٣/٤).

(٣) طرفه عند أحمد في المسند (٥١٠/٢)، (١٣٨/٩).

(٤) طرف الحديث عند: الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣٨٩/٩).

الباب الثاني باب الأخطار

التي تخطر على القلب من شيء يخافه الإنسان أو يرجوه أو يريده أو يكرهه، ولا يدري فساده في ذلك أو صلاحه، فإن عواقب الأمور مبهمة فيشتغل قلبه بذلك، فإنه ربما يقع في فساد أو مهلكة، وتلك الأخطار في الجملة على وجهين:

أحدهما: خطر الشك بأنه يكون أو لا يكون، أو أنك تصل إليه أو لا تصل إليه، وهذا يحتاج إلى الاستثناء، أو يقع في باب النية والأمل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَسَاءَ اللَّهُ﴾^(١).

وأصل الاستثناء رد المشيئة إلى الله تعالى، مثل قولك: إن شاء الله، وإن أراد الله، أو إن قدر الله، أو إن كان ذلك في علم الله، أو إن كان ذلك في اللوح المحفوظ، وترك الاستثناء ذنب من الذنوب، وذلك إن قال: أنا فاعل هذا غداً.

وأما إن قال: أنا فاعل بعد غداً وجميع الأوقات المستقبلية غير غد ففيه قولان، والذي ينبغي للإنسان أن يعتمد في ذلك على الله ويستخيره قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾^(٢).

وعن جابر قال: كان النبي ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين ثم يقول: اللهم إني أستخيرك بعلمك، واستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال في عاجل أمري وآجله - فاقدري لي، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال: في عاجل أمري وآجله - فاصرفه عني، واصرفني عنه، وقدر لي الخير حيث كان وارضني به، ويسمي حاجته»^(٣).

وعنه عليه السلام أنه قال: «من سعادة ابن آدم استخارته الله».

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠.

(٣) قال العراقي في المعني ٢٠٧/١: حديث صلاة الاستخارة - رواه - البخاري من حديث جابر قال أحمد حديث منكر.

[٢٧٢] والوجه الثاني: / خطر الفساد بأن لا تستيقن فيه الصلاح لنفسك وهو الذي يحتاج فيه إلى التفويض.

ثم اختلفت عبارة العلماء في الخطر، فقال بعضهم: الخطر في الفعل هو أن تكون دونه نجاة ويمكن أن يجامعه ذنب، فاما الإيمان وإتباع السنة والاستقامة على ذلك فلا خطر فيها إذ لا تمكن دونه، الإيمان نجاة والاستقامة لا يجامعها ذنب فإذا تصح إرادة الإيمان والاستقامة بالحكم.

وقال آخرون: الخطر في الفعل الأولى هو ما يمكن أن يتعرض فيه ما يكون الاشتغال بالعوارض أولى من الإقدام على ذلك الفعل، وذلك يقع في: المباحات، والسنن، والفرائض.

ألا ترى أن من يضيق عليه وقت الصلاة وقصد أداءها فقصد حريق أو غريق يمكن إنقاذه، فالاشتغال بإنقاذ النفس من الحريق والغريق أولى من الإقبال على صلاته فلا تصح إذا إرادة المباحات والسنن وكثير من الفرائض بالحكم والله أعلم.

فصل

فالواجب على العبد أن يستكفي عارض الأخطار بتفويض الأمر كله إلى الله تعالى قال الله سبحانه حكاية عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَأَقْرَضُ مُرِي إِلَى اللَّهِ﴾^(١) الآية.

ثم قال جل وعلا: ﴿فَوَقَاةُ اللَّهِ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهٌ...﴾^(٢) الآية.

وقال عليه السلام لابن مسعود: «ليقل همك، ما قدر أتاك وما لم يقدر لا يأتيك».

وقوله: «ليقل همك». أمر له بالتفويض. ويُشدد:

ما قد قضى سيكون فاصطبري له ولك الأمان من الذي لم يقدر
كسي تعلمي أن المقدر كائن لا بد منه صبرت أو لم تصبري

فعليك بتفويض الأمور كلها إلى الله تعالى وذلك لأمرين:

[٢٧٣] أحدهما: / للطمانينة في القلب في تلك الحالة فإن الأمور إذا كانت خطرة مبهمة العواقب لا يلدي صلاحها من فسادها فمن لم يطمن قلبه بتفويض الأمر إلى مالكة فإنه يبقى

(١) سورة خافر، الآية: ٤٤.

(٢) سورة خافر، الآية: ٤٥.

مضطرب البال مختل الحال فإذا فوض الأمر إلى الله تعالى اطمأن قلبه وأمن من المخطر وارتاح، وقد قال بعض السلف: دع التدبير إلى من خلقك تسترح.

ويروى أن الله سبحانه أوحى إلى داود عليه السلام: تريد وأريد ولا يكون إلا ما أريد، فإن سلمت لما أريد كفتيك ما تريد، وإن لم تسلم لما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد. ويُنشد:

يريد العبد أن يؤتى مناه ويأبى الله إلا ما أراد
يقول العبد فائدتي ومالي وتقوى الله أفضل ما استفاد

والثاني من الأمرين: حصول الصلاح والخير في الاستقبال؛ وذلك لأن الأمور بالعواقب مبهمة، فكم من شر في صورة خير، وكم من ضر في صورة نفع، وكم من سم في هيئة شهد، وأنت الجاهل بالعواقب والأسرار، فإذا أردت الأمور قطعاً وأخذت فيها باختيارك متحكماً فما أسرع ما تقع في هلاك وأنت لا تشعر.

ولقد حكى أن بعض العباد كان يسأل الله أن يريه إبليس اللعين، فقيل له: سل الله العافية، فأبى إلا ذلك فأظهره الله تعالى، فلما رآه العابد قصده بالضرب، فقال له إبليس: لولا أنك تعيش مائة سنة لأهلكتك وعاقبتك، فاغتر بقوله وقال في نفسه: إن عمري بعيداً أفعل ما أريد ثم أتوب، فوقع في الفسق فترك العبادة فهلك.

ففي هذا ما يبهيك عن ترك التحكم في إرادتك واللجاج في مطلوبك.

وأما إذا فوضت الأمر إليه تعالى وسألته أن يختار لك ما هو صلاحك لم تلق إلا السداد

[٢٧٤]

والخير / إن شاء الله تعالى.

ثم إذا استخرت ربك وفوضت إليه أمرك فلا تتهمه فيما اختار لك وإن كان مكروهاً عندك، فَرَّبَ خَيْرَ فِي صُورَةِ شَرٍّ، ومحبوب في صورة مكروه، وقد قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَنَجْعَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(١).

وفي قصة الخضر مع موسى عليه السلام في سورة الكهف ما يدل على ما ذكرناه: من خرق الخضر سفينة المساكين، وقتل الغلام، وتسوية الجدار، وإنكار موسى عليه السلام ذلك عليه بظاهر الأمر، حتى فسّر ذلك الخضر عليه السلام، قال الله تعالى حكاية عن العبد

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

الصالح: ﴿وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ...﴾^(١) إلى آخر الآية.

أما ترى كيف أعقبه ذلك من الأسواء والنصرة على الأعداء والله أعلم.

فصل

فإن قيل يتبن لنا موضع التفويض، ومعناه، وحده، وضده قيل له:

أما موضعه: فاعلم أن المراد ثلاثة: مراد يعلم يقيناً أنه فساد وشرك النار والعذاب، وفي الأفعال كالكفر والمعاصي فلا سبيل إلى إرادة ذلك.

الثاني: مراد يعلم قطعاً أنه صلاح كالجنة والإيمان والطاعة فلك إرادتها بالحكم لا موضع للتفويض فيه إذ لا خطر فيه ولا شك لك أنه صلاح وخير.

الثالث: مراد لا يعلم يقيناً أنه صلاح لك أو فساد وذلك نحو: التوافل والمباحات فهذا موضع التفويض فليس لك أن تريدها قطعاً بل باستثناء وشرط الخير والصلاح فإن قيدت إرادتك بالاستثناء فهو تفويض، وإن أردت ذلك بغير استثناء فهو طمع مذموم منهي عنه، فموضع الاستثناء إذا كل مراد فيه الخطر وهو أن لا تستيقن صلاحك فيه.

[٢٧٥] وأما معنى التفويض: فقد اختلفت فيه / عبارات العلماء فقال بعضهم: معناه ترك اختيار ما فيه الخطر إلى اختيار المدبر العالم بمصلحة الخلق.

وقال آخرون: هو ترك الطمع والطمع هو إرادة الشيء المخاطر بالحكم.

وقيل التفويض هو إرادة أن يحفظ الله عليك مصالحك فيما لا تأمن فيه الخطر.

وأما ضد التفويض على هذا المعنى: فهو عندهم الطمع، والطمع عندهم في الجملة يجري على وجهين:

أحدهما: في معنى الرجاء تريد شيئاً لا خطر فيه أو فيه خطر فتريده بالاستثناء وذلك ممدوح قال الله تعالى: ﴿أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي﴾^(٢)، ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبِّنَا خَطَايَانَا﴾^(٣).

والثاني: إرادة الشيء بمخاطرة بالحكم، قال: وهذه الإرادة تقابل بالتفويض والله أعلم.

(١) سورة غافر، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٨٢.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٥١.

وينشد:

أبى الله إلا ما أراد وقَدَرَا
يريد الفتى قصدا بعزم ونية
إن بيت الإنسان رأياً ودبرا
فكمر مركب في البحر لبلدة
فصرفه الأقدار عنه وما درا
فدارت به الأرياح دورا إلى أخرى
فكمدته إنفاذ المقادير لليسرا
والق إليه في عزائمك العرا
فكمدته إنفاذ المقادير لليسرا
فكمدته إنفاذ المقادير لليسرا
فكمدته إنفاذ المقادير لليسرا

الباب الثالث

باب المصائب والصبر

قال الله تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ لَكُمْ بَشِيرٌ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ...﴾ إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾^(١). اعلم أن الله تعالى أخبر المسلمين في هذه الآية أنه سيتلهم بأنواع البلايا فأمرهم بالصبر لأن الصبر هلاك كل فضيلة وبه ينال كل خير ومكرمة، قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾^(٢). ويقال: إن الله سبحانه ذكر الصبر في كتابه في نيف وسبعين موضعاً وأضاف أكثر الخيرات والدرجات إلى الصبر فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾^(٤) فقال: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾^(٥)، ﴿وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٦).

فمن أمارات حسن التوفيق وعلامة السعادة الصبر في الملمات والرفق في الأمور وقد جمع الله للصابرين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾^(٧).

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٧.

(٣) سورة الزمر، الآية: ١٠.

(٤) سورة السجدة، الآية: ٢٤.

(٥) سورة النحل، الآية: ١٢٧.

(٦) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٧) سورة البقرة، الآية: ١٥٧.

وكان عمر رضي الله عنه يقول: نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين. يعني بالعدلين الصلاة والرحمة، وبالرحمة الهدى، والعلاوة ما يحمل فوق العدلين على ظهر البعير. وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من مصيبة وإن عظمت إلا والصبر خير منها».

وسئل عليه السلام عن الإيمان؟ فقال: «الصبر والسماح»^(١). وفسر ذلك بعض العلماء فقال: الصبر لله على طاعته، والسماح لله بفرائضه. وقال عليه السلام: «الصبر كثر من كنوز الجنة»^(٢). وقال عليه السلام: «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس»^(٣). وقال عليه السلام: «الصبر نصف الإيمان»^(٤). وقال عليه السلام: «أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر، ومن أعطي حظه منهما لم يبال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلي من أن يوافيني كل امرئ منكم بما عمل جميعكم، ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا، فينكر بعضكم بعضاً، وينكركم أهل السماء عند ذلك، فمن صبر واحتسب / ظفر بكمال آية» ثم قرأ: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَفُودُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ...﴾^(٥)،^(٦) الآية. وقال عليه السلام لابن عباس: «اعمل على الرضى واليقين وإلا ففي الصبر على ما تكره خير كثير».

وقال عيسى عليه السلام: إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون، وقال عليه السلام: «لو صبر رجلاً لكان كريماً، والله يحب الصابرين»^(٧). وعن علي بن أبي طالب أنه قال: بني الإسلام على أربع دعائم؛ اليقين، والصبر، والجهاد، والعدل.

- (١) أطراف الحديث عند: أحمد في المسند (٢٨٥/٤)، وابن أبي شيبة (٣٣/١١)، الربيع بن حبيب في المسند (٦/٣)، ابن حجر في المطالب (٣/٢٢).
- (٢) قال العراقي في المغني (٦٠/٤) غريب لم أجده.
- (٣) لا أصل له مرفوعاً وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس، قاله العراقي في المغني (٦١/٤).
- (٤) رواه أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود. قاله العراقي في المصدر السابق.
- (٥) سورة النحل، الآية: ٩٦.
- (٦) قال العراقي في المغني (٦٠/٤): لم أجده هكذا بطوله.
- (٧) رواه الطبراني في الكبير من حديث عائشة وفيه صحيح بن دينار ضعفه العقيلي. قاله العراقي في المغني (٦١/٤).

وقال أيضاً: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له.

وعن أبي الدرداء قال: ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضى بالقدر.
وعن النبي ﷺ أنه قال: «الصبر ستر من الكروب وعون على الخطوب».
وقال علي بن أبي طالب: الصبر مطية لا تكبو والقناعة سيف لا ينو.

وقال بعض العلماء: لم أسمع بأعجب من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو أن الصبر والشكر بعيران ما باليت أيهما ركبت، وعن عبد الله بن عباس أنه قال: أفضل العدة الصبر على الشدة.

وقيل في منشور الحكم: من أحب البقاء فليعد للمصائب قلباً صبوراً. ويُشَدُّ للعبيد الله الأبرص:

اصبر النفس عند كل ملم إن في الصبر حيلة المحتال
لا تضيقن بالأمر فقد يكشف غمها بغير احتيال
ربما تجزع النفوس من الأ مر له فرجه كحل العقال
وقال بعض البلغاء: إن لكل شيء ثمرة وثمره الصبر الظفر.

وروي أن ابن المقفع قال في كتاب التيممة الصبر صبران فاللثام أصبر أجساماً والكرام أصبر نفوساً، وليس الصبر الممدوح صاحبه أن يكون الرجل قوي الجسد على الكد والعمل، لأن هذا من صفة / الحمير، ولكن أن يكون للنفس غلوباً، وللأمر محتلاً ولجأشه عند [٢٧٨] الغضب مرتبطاً وبالله التوفيق.

بيان الأسامي التي تتخذ للصبر: اعلم أن الصبر ضربان: ضرب بدني: كتحمل المشاق والثبات عليها من أعمال الطاعة وغيرها أو بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض وغيرها وقد يكون محموداً إذا وافق الشرع.

والضرب الثاني: الصبر النفسي وهو ضبط النفس عن مشتبهات الطبع ومقتضيات الهوى وهذا هو الصبر التام المحمود، ثم هذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج سمي عفة، وإن كان احتمال مكروه فإن أساميه عند الناس مختلفة باختلاف المكروه الذي عليه الصبر، فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع، وهو إطلاق دواعي الهوى في رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها، وإن كان في

احتمال الغنى سمي ضبط النفس وتضادده حالة تسمى البطر، وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضادده الجبن، وإن كان في كظم الغيظ سمي حلماً ويضادده التذمر، وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ويضادده الضجر والتبرم وضيق الصدر، وإن كان في إخفاء الكلام سمي كتمان السر وسمي صاحبه كتوماً، وإن كان عن فضول العيش سمي زهداً ويضادده الحرص، وإن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضادده الشره، فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر.

فلذلك لما سئل النبي عليه السلام مرة عن الإيمان فقال: «هو الصبر»^(١). لأن أكثر أعماله وأعزها كما قال: «الحج عرفة»^(٢).

وقد جمع الله / أقسام ذلك وسمى الكل صبراً فقال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾^(٣). أي في المصيبة. ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾^(٤). أي الفقرا. ﴿وَجِينَ النَّبَأِ﴾^(٥). أي في القتال والحرب. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا...﴾^(٦) الآية.

فإذا هذه أقسام الصبر بجميع متعلقاتها، ومن يأخذ المعاني من الأسماء يظن أن هذه أحوال مختلفة في أذواتها وحقائقها من حيث رداء الأسماء مختلفة، والذي ينظر بنور الله تعالى ينظر المعاني أولاً فيتطلع على حقائقها، لأن الأسماء إنما وضعت دالة على المعاني، والمعاني هي الأصول والألفاظ هي التوابع وبالله التوفيق^(٧).

فصل

اعلم أن الصبر على ستة أقسام، وهو في كل قسم منها محمود.

فأول أقسامه: وأولها الصبر على امثال أوامر الله تعالى والانتهاه عن مناهيه: لأن به

(١) قال العراقي في المغني (٦٠/٤): أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعاً: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ويزيد ضعيف.

(٢) أطراف الحديث عند: أبي داود (المناسك ب ٦٩)، الترمذي (٨٨٩)، السنائي في المجتبى (٢٥٦/٥)، ابن ماجه (٣٠١٥)، البيهقي (١٥٢/٥)، الحاكم (٢٦٤/١)، ابن خزيمة (٢٨٢٢)، الدارقطني (٢٤١/٢).

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.

(٧) راجع الباب بتمامه في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي (٦٦، ٦٥/٤).

تخلص الطاعة ويصح الدين وتؤدى الفرائض ويستحق الثواب كما قال في محكم التنزيل: ﴿إِنَّمَا يُؤْتَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١).

ولذلك قال عليه السلام: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد»^(٢). وليس لمن قل صبره على طاعة الله حظ من بر ولا نصيب من صلاح، وقد قال الحسن: يا من يطلب من الدنيا ما لا يلحقه أترجو أن تلحق من الآخرة ما لا تطلبه. وقد قال بعض العلماء: الصبر الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

وقال عمر بن عبد العزيز للقاسم بن محمد: أوصني. فقال: عليك بالصبر في مواطن الصبر. وقال بعض العلماء: من نوى الصبر على طاعة الله صبره الله عليها وقواه، ومن عزم على الصبر عن معاصي الله عصمه الله منها. ثم من العبادة ما يكره بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة، ومنها ما يكره بسببها جميعاً نحو الحج والجهاد، فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾^(٣). قيل معناه على ما فرض الله عليكم. ﴿وَاصْبِرُوا﴾^(٤). قيل: معناه صابروا عدوكم. ﴿وَرَابِطُوا﴾. فيه تأويلان؛ أحدهما: رابطوا على الجهاد. والثاني: رابطوا على انتظار الصلاة بدليل قوله عليه السلام: «ألاً أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط»^(٥) قالها ثلاثاً. واعلم أن المطيع يحتاج إلى الصبر على طاعة الله في ثلاثة أحوال:

الأولى: قبل الشروع في الطاعة، وذلك في تصحيح النية والإخلاص والصبر على شوائب الرياء ودواعي الآفات وذلك من الصبر على الشدائد عند من يعرف حقائق النية والإخلاص وآفات الرياء ومكائد النفس، وقد نبه النبي ﷺ إذ قال: «الأعمال بالنيات ولكل امرء ما نوى»^(٦).

(١) سورة الزمر، الآية: ١٠.

(٢) قال العراقي في المغني (٦٠/٤): رواه أبو منصور الديلمي من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعاً. ويزيد ضعيف.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

(٥) أطراف الحديث عند: مسلم (الطهارة: ٤١)، الترمذي في الجامع (٥١)، البيهقي (٦٢/٣)، ابن خزيمة (٥)، أبي نعيم في الحلية (٢٤٨/٨).

(٦) متفق عليه من حديث عمر قاله العراقي في المغني (٦٩/٤).

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾^(١) الآية. ولهذا المعنى قدم الله الصبر على العمل فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(٢).

الحالة الثانية: حالة العمل كي لا يغفل عن الله تعالى في أثناء عمله، ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسنته، ويلتزم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ، وهذا أيضاً من شذائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى: ﴿نَعْمَ أَجْرُ الْعَالَمِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾^(٣). أي صبروا على إتمام العمل.

الحالة الثالثة: بعد الفراغ من العمل إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للرياء [٢٨١] والسمة، والصبر عن النظر إليه بعين الإعجاب وعن كل ما يحيط عمله قال الله / تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾^(٤).

فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المن والأذى فقد أبطل عمله، والطاعات تنقسم إلى: فرض، ونفل وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعاً وقد جمعهما الله في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾^(٥) الآية. فالعدل: قيل هو الفرض، والإحسان: قيل هو النفل، وإيتاء ذِي الْقُرْبَى. هي المروءة وصلته الرحم وكل ذلك يحتاج إلى صبر.

وكذلك الصبر على المعاصي من أعظم الشذائد وقد جمع الله أنواع المعاصي في قوله: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾^(٦).

وقد قال عليه السلام: «المهاجر من هاجر السوء، والمجاهد من جاهد هواه»^(٧).

وقد قال عليه السلام: «رجعنا من الجهاد الأصغر». يعني جهاد العدو «إلى الجهاد الأكبر»^(٨). يعني جهاد النفس.

(١) سورة البينة، الآية: ٥.

(٢) سورة هود، الآية: ١١.

(٣) سورة العنكبوت، الآيات: ٥٨، ٥٩.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

(٥) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٦) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٧) قال العراقي في المنفي (٦٩/٤): رواه ابن ماجه بالشرط الأول، والنسائي في الكبرى بالشرط الثاني كلاهما حديث فضالة بن عبيد بإسنادين جيدين.

(٨) قال العراقي في المنفي (٧/٣): رواه البيهقي في الزهد من حديث جابر وقال: هذا إسناد فيه ضعف.

وقال الحسن البصري: الصبر صبران صبر عند المصيبة وصبر عند ترك ما نهى الله عنه وهو الأفضل.

ثم إن كانت تلك المعاصي مما يتيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس، كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة، والكذب، والمراء، والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً، وأنواع المزاح المؤذي للقلوب، وأنواع الكلمات التي يقصد بها الازدراء، والاستحقار، وذكر الموتى والقدرح فيهم، وفي علومهم، وسيرهم، وكل ذلك يحتاج في الكف عنه إلى الصبر الشديد، فمن لم يصبر على الطاعة ويكف عنه المعصية لينال جزيل الثواب ويسلم من أليم العذاب كان بعيداً عن الرشاد، حقيقاً بالضلال، ويُشدد لأبي العتاهية:

أراك امرء ترجو من الله عفوهُ وأنت على ما لا يحب مقيم
تدل على التقوى وأنت مقصر أيا من يداوي الناس وهو سقيم

/ وهذا النوع من الصبر إنما يكون لفرط الجزع وشدة الخوف فإن من خاف الله صبر [٢٨٢] على طاعته، ومن جزع من عقابه وقف عند أوامره.

القسم الثاني: الصبر على ما انقضت أوقاته من رزية أجهده الحزن عليها: مثل موت الأعزة، وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض، وعمى العين وفساد الأعضاء.

وبالجملته فسائر أنواع البلاء فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر.

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلاثمائة درجة، وصبر على محارم الله فله ستمائة درجة، وصبر في المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة.

وإنما فضلت هذه الرتبة على ما قبلها لأن ذلك شديد على النفس، وقد قال عليه السلام في دعائه: «وأسألك من اليقين ما تهون به علي مصائب الدنيا». فهذا صبر مستنده حسن اليقين.

وعن علي أنه قال: الصبر على المصيبة ثلاثمائة درجة، وعلى الطاعة ستمائة درجة، وعلى المعصية تسعمائة درجة.

وقال بعض السلف: والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره.

وقال النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «إذا وجهت إلى عبد من عبيدي

مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحيت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديوناً^(١).

وقال عليه السلام: «انتظار الفرج بالصبر عبادة»^(٢).

وقال: «من أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبي وأعقبني خيراً منها إلّا فعل الله له ذلك»^(٣).

[٢٨٣] وعزى عليه السلام امرأة / أصيبت بابتها فقال: «إن لله ما أخذ من عباده، وله ما بقي، ولكل أجل مسمى، فاحتسبي واصبري، فإنما الصبر عند أول الصدمة».

وقال عليه السلام: «إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضى ومن جزع فله الجزع».

وقال أيضاً: «إن من إجلال الله عز وجل ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك وأن لا تشكو مصيبتك»^(٤).

وروي عنه أنه قال: «ما من مؤمن ولا مؤمنة يذهب الله حبيته فيصبر ويحتسب فيرضى الله له بثواب غير الجنة».

ويروى عنه أنه قال: «قد يدرك الرجل درجة في الجنة لا يدركها بصيام ولا بقيام ولا حج ولا جهاد». قيل: فميم يدركها؟ قال: «ببيلة أتت عليه في جسده فصبر واحتسب».

وعنه عليه السلام أنه قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلّا كفر الله بها من خطاياها»^(٥).

وقال: «من يرد الله به خير يصب منه»^(٦).

- (١) طرف الحديث عند الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢٧/٩، ١٤٢).
- (٢) رواه القضاعي في مستند الشهاب من حديث ابن عمر، وابن عباس، وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة من حديث علي دون قوله بالصبر، وكذلك رواه أبو سعيد الماليني في مستند الصوفية من حديث ابن عمر، وكلها ضعيفة، وللترمذي من حديث ابن مسعود أفضل انتظار الفرج، قاله العراقي في المعني (٧١/٤).
- (٣) رواه مسلم من حديث أم سلمة. المصدر السابق.
- (٤) لم أجده مرفوعاً، وإنما رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء، قال: من الصبر أن لا تتحدث بمصيبتك ولا بوجعك ولا تزكي نفسك. المصدر السابق.
- (٥) أطراف الحديث عند: أحمد في المستند (٣٠٣/٢)، ابن أبي شيبة في المصنف (٢٣٠/٣)، المنذري في الترغيب والترهيب (٢٨٤/٤).
- (٦) رواه البخاري من حديث أبي هريرة، والعراقي في المعني (١٢٨/٤).

وكان بعض إذا قرأ هذ الآية: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(١). قال: واعجباً أعطى وأثنى - أي أعطى الصبر وأثنى عليه - وقال النبي عليه السلام: «ليعز المسلمين في مصائبهم المصيبة بي»^(٢). ويُشدد:

اصبر لكل مصيبة وتجلد واعلم بأن المرء غير مخلد
واصبر كما صبر الكرام فإنها نوب تنوب اليوم تكشف في غد
وإذا ذكرت مصيبة تشجى بها فاذكر مصابك بالنبي محمد

وقال بعض العلماء: إن الله ليتلي عبده المؤمن بالبلاء بعد البلاء حتى يمشي على الأرض وما عليه من ذنب.

وقيل: حبس الشبلي في المارستان فدخل عليه جماعة، فقال: من أنتم؟ فقالوا: أحبابك / جاؤوك زائرين. فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون. فقال: لو كنتم أحبابي [٢٨٤] لصبرتم على بلائي. وقال بعض السلف: إن الله ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير.

وعن داود قال لسليمان عليهما السلام: يستدل على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكل فيما لم ينل، وحسن الرضى فيما قد نال، وحسن الصبر فيما قد فات.

وقال الحسن: لولا ثلاثة ما طأطأ ابن آدم رأسه: الفقر، والمرض، والموت، وإنه مع ذلك لو تاب.

وقال شقيق: من يرى ثواب الشدة لا يشتهي الخروج منها.

وقال حاتم الأصم: إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة بأربعة أنفس على أربعة أجناس: على الأغنياء بسليمان، وعلى الفقراء بعبسى، وعلى العبيد بيوسف، وعلى المرضى بأبوي صلوات الله على نبينا وعليهم أجمعين.

وقال لقمان لابنه: يا بني الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء.

وقال عليه السلام: «الجزاء على قدر البلاء»^(٣).

(١) سورة ص، الآية: ٣٠.

(٢) رواه مالك في الموطأ (٢٣٦).

(٣) لم أقف عليه فيما لدي من مصادر.

وكان يقال: الصبر سلامة والطيش ندامة، ويقال: أوحى الله تعالى إلى عزيز إذا نزلت بك مصيبة أو بلية فلا تشتكي إلى خلقي كما لا أشكوك إلى ملائكتي عند صعود مساوئك وفضائحك.

ويروى عن أنس بن مالك أنه قال: مات ابن لأبي طلحة الأنصاري، فقالت أم سليم لأهلها لا يعلمن أحد أبا طلحة حتى أكون أنا أعلمه، فأمسى صائماً فراح إليها من عند النبي ﷺ فأفطر ولم تره جزءاً، ثم اغتمّ فدخلت مخدعاً لها فتطيت، ثم دخلت معه للحاف فأصابها، فلما كان في السحر قالت له: يا أبا طلحة إن رجالاً أعار أهل بيت عارية فاستمتعوا بها، ثم أخذ عاريته فسخطوا عليه.

[٢٨٥] قال: بش / ما صنعوا صاحب العارية أحق بعاريته. قالت: فاحتسبك ولدك فلاناً. قال: فهلا أعلمتني قبل أن أقع هذا الموقع، فصلى الصبح مع رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فقال: «نمتما عريسين وفي ناحية بيتكما ميت بارك الله لكما في ليلتكما»^(١). قال: فولدت غلاماً فسماه عبد الله، فحمل القرآن وهو ابن سبع سنين، فما كان لأم سليم من أبي طلحة ولد شبيهه وكان يقال ثلاثة من رأس الصبر: أن لا تحدث بوجعك، ولا تشكو مصيبتك، ولا تزكي نفسك.

ويروى أن عروة بن الزبير قدم على عبد الملك فسأله دفن أخيه فأذن له وقدم معه ابنه محمد على الوليد بن عبد الملك، فنفتحت محمداً دابة فمات، ووقعت في رجل عروة الأكلة فقطعها من الساق ولم يمسه أحد وهو شيخ كبير ولم يدع وطره تلك الليلة إلا أنه قال: «لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا»^(٢). وتمثل بهذه الأبيات:

لعمر ما أهويت كفي لريبة	ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا قاذني سمعي ولا بصري لها	ولا دلنسي رأي عليها ولا عقلي
وأعلم أنني لم تصبني مصيبة	من الدهر إلا قد أصابت فتى قبلي

وقال: اللهم إن كنت ابتليت فلقد عافيت، وإن كنت أخذت فلقد أبقيت، أخذت عضواً وتركت أعضاء، وأخذت ابناً وتركت أبناء.

(١) قال الحافظ العراقي في المعني ج ٤ ص ١١٥ أخرجه الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية والقصة في الصحيحين مع اختلاف من حديث أنس.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٦٢.

قال وقدم على الوليد في تلك الليلة رجل أعمى من عبس فسأله عن عينيه، فقال: بت ليلة في بطن واد ولا أعلم في الأرض عبسياً يزيد ماله على مالي، فطرفنا سبيل فذهب بما كان لي من أهل ومال وولد غير بعير وصبي وكان البعير صعباً فاتبعته فما جاوزت الصبي إلا يسيراً حتى سمعت صوته، فرجعت فأصببت / رأس الذئب في بطنه، ثم اتبعت البعير لآخذه فنفخني [٢٨٦] برجله فأصاب وجهي فحطني فأصاب عيني فأصبحت لا أهل لي، ولا مال، ولا ولد، ولا بعير.

فقال الوليد: انطلقوا به إلى عروة ليعلم أن في الأرض من هو أعظم منه بلاء.

وكان يقال: العاقل لا يذل بأول نكبة ولا يفرح بأول نعمة فربما أفلح المحبوب عن ما يحبه، وأجلى المكروه عن ما يسره.

وقال بعض السلف: مكاره الدنيا تنقسم قسمين:

فقسم فيه حيلة والاضطراب ودواء، وقسم لا حيلة فيه والاضطراب شفاؤه.

وعن شريح أنه قال: إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله تعالى عليها أربع مرات، أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمد الله إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده تبارك اسمه إذ وفقني للاسترجاع، وأحمده تعالى إذ لم يجعلها في ديني.

وعن المدائني أنه قال: رأيت في البادية امرأة لم أر أنضر جلدأ ولا أحسن وجهأ منها فقلت: بالله إن فعل هذا بك إلا اعتداء السرور.

فقلت: كلا والله إني لبدع أحزان وحلف هموم كان لي زوج وكان لي منه ابنان، فذبح أبوهما شاة فقال أحدهما ابني لأخي: هلّم أفلع بك كما فعل أبونا بالشاة فذبحه فلما رأى الدم فرغ ففر نحو الجبل فأكله الذئب، فخرج أبوه في أثره فتاه فمات عطشاً. قال: فقلت لها كيف رأيتك والصبر؟ فقال: لو دام لي لدمت ولكنه كان جرحاً فاندمل.

وفي رواية محمد بن خالد القرشي يرفعه قال: خرجت حاجاً فبينما أنا أطوف إذا بامرأة قد أضاء ما حولها من حسن وجهها فقال رجل كان إلى جنبي والله ما رأيت مثل هذه قط نضارة وحسناً وما ذاك إلا من قلة الهم والحزن فلما سمعت ذلك قالت: يا هذا الرجل / والله إني [٢٨٧] مكلومة الفؤاد بالهموم والأشجان ما يشاركني فيها أحد.

قال لها الرجل: كيف ذلك؟ قالت: ذبح زوجي شاة ضحى بها ولي ولدان صغيران

يلعبان وعلى ثديي طفل يرضع، فقامت لأصنع لهم منها طعاماً فقال ابني الأكبر للأصغر: ألا أريك كيف صنع أبي بالشاة؟ قال: نعم.

فأضحجه ووضع الشفرة على حلقه فما رفع الشفرة حتى ذبحه، فلما رأى الدم وعلا الصراخ خرج الصبي فاراً نحو الجبل فرمقه الذئب فأكله، فانطلق أبوه في أثره فمات عطشاً.

فقامت ووضعت الطفل في الأرض وخرجت إلى الباب أنظر ما فعل أبوهم فدبّ الطفل يده إلى البرمة التي على النار فوضع يده فيها فصبها على نفسه وهي تغلي فتناثر لحمه من على عظمه، فبلغ ذلك ابنة لي كانت عند زوجها فضربت بنفسها الأرض فماتت فأفردني الدهر من بينهم. فقال لها الرجل: كيف صبرك على هذه المصائب الجليلة؟ قالت: يا هذا ما من أحد ميز الصبر والجزع إلا وجد بينهما مهاجماً، أما الصبر فحسن العلانية محمود العاقبة، وأما الجزع فصاحبه غير معوّض عوضاً.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيكم يحب أن يصحح ولا يسقم؟» قالوا: كلنا يا رسول الله. قال: «أتحبون أن تكونوا مثل الحمير الصيالة ألا تحبون أن تكونوا من أصحاب الكفارات؟» والذي بعثني بالحق إن الرجل لتكون له الدرجة في الجنة ما يبلغها بشيء من عمله فينتليه الله تعالى بالبلاء فيبلغ تلك الدرجة^(١).

ويقال: ما كرم عبد على الله تعالى إلا زاد البلاء عليه شدة.

واعلم أن الصبر على المصائب يعقب الإنسان الراحة، ويكسب الأجر والثواب عنها، [٢٨٨] فينبغي للإنسان أن / يصبر طائعاً، وإلاً احتملهما لازماً وصبراً كارهاً آثماً.

وقد قال عليه السلام: «ليس المصاب من أصيب بمصيبة ولكن المصاب من حرم أجر المصيبة».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن صبرت مضى أمر الله وكنت مأجوراً، وإن جزعت مضى أمر الله وكنت مأزوراً.

وقالت الحكماء: الجزع أتعب من الصبر ففي الجزع التعب والوزر وفي الصبر الراحة والأجر. وينشد:

(١) أطراف الحديث عند السيوطي في الدر المنثور (٢/٢٢٨)، الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٩: ٥٢٤) والجامع الكبير المخطوط الجزء الثاني (٢/٦٦٦) والبخاري في التاريخ الكبير (٧: ٢٦٧)، وابن معد في الطبقات (٧: ١٩٨).

فإذا تصبك مصيبة فاصبر لها عظمت مصيبة مبتلى لا يصبر
وقال آخر:

وعودت أجراً من فقيد فلا يكن فقيدك لا يأتي وأجرك يذهب

وعن علي بن أبي طالب أنه قال للأشعث بن قيس: إن تجزع فقد استحقت ذلك منك
الرحم وإن تصبر ففي ثواب الله عز وجل، وإنك إن تصبر جرى عليك القلم وأنت مأجور، وإن
جزعت جرى عليك القلم وأنت مأزور. فذكر ذلك أبو تمام فقال:

وقال علي في التعازي لأشعث وخاف عليه بعض تلك المائم
أتصبر للبلوى عزاء وحسبة فتؤجر أو تسلو سلو البهائم
خلقنا رجلاً للتجلد والعزا وتلك الغواني للبكاء والمائم

وقال شبيب بن شبت للمهدي: إن أحق ما يصبر عليه ما لم يوجد سبيل إلى دفعه. فإن
قيل فيماذا درجة الصبر؟ في المصائب وليس الأمر فيه اختيار الإنسان.

فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب، وضرب الخدود،
والمبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة، وتغيير العادة في الملابس وغيره فهذه الأمور داخله تحت
اختياره فينبغي أن يجتنب جميعها ويظهر الرضى بقضاء الله تعالى ويبقى مستمراً على عادته
ويعتقد أن / ذلك كانت ودیعة فاسترجعت، ويقال: الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب [٢٨٩]
المصيبة من غير والله أعلم.

وأما توجع القلب وفضان الدمع على الميت. فإن ذلك مقتضى البشرية، ولذلك لما
مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ فاضت عيناه فقيل له: أما نهيتنا عن هذه؟ فقال: «إنما بكيت
رحمة له إنما يرحم الله من عباده الرحماء ولكن إنما نهيتكم عن صوتين أحمقین فاجرین خدش
الخدود وشق الجيوب». والله أعلم.

القسم الثالث: الصبر على ما فات إدراكه من رغبة يرجوها ومسرة يأملها.

فإن الصبر عنها يعقب السلو عنها والأسف عليها بعد الإياس منها يجدد الحزن
والكمد من أجلها، وقد قال الله تعالى: ﴿لَكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا
آتَاكُمْ﴾^(١).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من أعطي فشكر ومنع فصبر وظلم فغفر وظلم فاستغفر أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»^(١).

وقال بعض الحكماء: اجعل ما طلبته من الدنيا فلم تنله مثل ما لم يخطر ببالك فلم تنقله، وقال آخرون: إن كنت تجزع على ما فات من يدك فاجزع على ما لم يصل إليك. فنظمه الشاعر فقال:

لا تُطل الحزن على فائت فقل ما يُجدي عليك الحزن
سيان محزون على فائت ومضمراً حزناً لما لم يكن

وقال بعض الرواة: دخلت مدينة يقال لها: ظفار فرأيت مكتوباً على باب قصر خراب هذه الأبيات:

يا من ألح عليه الهم والفكر وغيرت حاله الأيام والغير
أما سمعت بما قد قيل في مثل عند الإياس فأين الله والقدر
نم للخطوب إذا أحداثها طرقت فاصبر فقد فاز قوم لها صبروا
فكل ضيق له من بعده سعة وكل فوت وشيكا بعده الظفر

قال: وتحتة مكتوب بخط آخر لو كان كل من صبر أعقب الظفر صبرت ولكننا نجد الصبر في العاجل يعني العمر ويديني من القبر، وما كان أحسن لذي عقل موته وهو طفل.

القسم الرابع: الصبر فيما يخشى حدوثه من نكبات الزمان وصولات الأعداء، فلا يتعجل الإنسان إلى نفسه همّ ما لم يأت فإن أكثر الهموم كاذبة، والأغلب من الخوف مدفوع.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «انتظار الفرج بالصبر عبادة»^(٢).

وقال الله تعالى في أصحاب نبيه عليه السلام: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدَ جَمَعُوا لَكُمْ...﴾^(٣) الآية.

- (١) أطراف الحديث عند الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٨٤/١٠) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/٢٧٨).
- (٢) قال الحافظ العراقي في المعني: أخرجه القاضي في مسند الشهاب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة من حديث علي دون قوله «بالصبر» وكذلك رواه أبو سعيد الماليني في مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة وللتزمذي من حديث ابن مسعود «أفضل العبادة انتظار الفرج». المعني الجزء الرابع ص ١١٣ طبعة دار الحديث.
- (٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣.

وقال عليه السلام: «بالصبر يتوقع الفرج».

وعن الحسن البصري أنه قال: لا تحملن على يومك هم غدك فحسبك كل يوم همه

وينشد:

الهم فضل والمقدر كائن . فعلى م يشغل قلبه الإنسان
وأشد الحارثة بن بدر:

إذا الهم أمسى وهو داء فامضه ولست بممضيه وأنت تعاذله
وقل للفؤاد إذا نزا بك نزوة من الهم افرح أكثر الهم باطله

القسم الخامس: الصبر فيما ينتظر الإنسان من رغبة يريها، ومسرة ينالها؛ فإنه إن

أدهشته التطلع إليها انسدت عليه سبل المطالب، واستفز قلبه توسل المطالع، فكان ذلك أبعد
لرجائه / وأعظم لبلائه.

[٢٩١]

وإذا كان مع الرغبة وقوراً وعند الطلب صبوراً أنجلت عنه عماية الدهش وحيرة الطلب،

فأبصر رشده وعرف قصده والله أعلم، إنه يكشف الحيرة ويوضح حقائق الأمور.

وقال أكرم بن صيفي: من صبر ظفر. وقال النبي عليه السلام: «من يدمن قرع الأبواب

يلج». وأنشد لمحمد بن بشير:

إن الأمور إذا انسدت مطالبيها فالصبر يفتح منها كل ما ارتجا
لا تياسن ولو طالت مطالبة إذا استعنت بصبر أن ترى فرجا

وقال بعض الحكماء: بحسن التآني تسهل المطالب، ويقال: الصبر مفتاح الدرك.

وقال بعض البلغاء: من صبر نال المنا، ومن شكر حصّل النعماء.

القسم السادس: الصبر على ما نزل بالإنسان من مكروه القضاء، وحلّ به من مكائد

الأعداء، قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَيَّ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ أَنْ تَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾^(٣) فأمر بالصبر على ذلك

(١) سورة الطور، الآية: ٤٨.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٧.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٩٧.

فقال: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَنْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾^(١).

وقالت الرسل: ﴿وَلْتَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾^(٢).

وقال: ﴿لَتَكْبَلُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿أَذَىٰ كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٣).

وقال لنيبه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ﴾^(٤) رُؤسُ مَنْ قَبْلِكَ فَصَبِرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَدُّوا...﴾^(٥) الآية.

ويقال: مكتوب في الإنجيل: قال عيسى صلوات الله على نبينا وعليه: لقد قيل لكم من [٢٩٢] قبل أن السن بالسن والأنف بالأنف، وأنا أقول: / لا تقاوموا السن بالسن بل من ضرب خدك الأيمن فحوّل إليه خدك الأيسر، ومن أخذ رداك فأعطه إزارك، ومن سخرك للمشي ميلاً فسر معه ميلين، وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى.

ويروى أن رسول الله ﷺ قسم قسمة فقال بعض الأعراب: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فاحمرت وجتاه فقال: «رحم الله أخي موسى قد أؤذي بأكثر من هذا فصبر». والله أعلم.

والصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر، واعلم أن بالصبر تستدفع مكائد الأعداء وبه تفتح للإنسان وجوه الآراء، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾^(٦).

واعلم أن الصبر معناه الحبس ومنه الحديث نهي عن قتل البهائم صبراً، وقال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾^(٧). أي احبسها، وقال عترة:

فأصبرت عارفة لذلك جرة ترسو إذا نفس الجبان تطلع

عارفة: يعني نفساً عارفة، فكل من لم يصبر نفسه على مفروض الشرع ولم يضبطها عن

(١) سورة المزمل، الآية: ١٠.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٨٦.

(٤) جاءت بالأصل «استهزى يرسل» ولعله سهو من الناسخ.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٣٤.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.

(٧) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

مقتضى شهوات الطبع وإظهار الجزع والهلع فقد استكمل الشر بحذافره، واستوجب عقوبة الدارين عند ربه .

واعلم أن الصبر على السراء وتتابع النعماء أشد من الصبر على الضراء وأنواع البلاء، فإن من لم يضبط نفسه عن الاسترسال في شهوات الدنيا والتنعم بما لاذها والانهماك فيها أخرجه ذلك إلى البطر والطينان قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا فَاكِرٌ﴾ (١).

وقال بعض العارفين: البلاء يصبر عليه المؤمن، والعوافي لا يصبر عليها إلا صديق.

/ وقال بعضهم: الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء، ويروى أنه لما فتحت [٢٩٣] أموال الدنيا على الصحابة قالوا: ابتلينا بفتنة الضراء فصبنا، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر.

فلذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوجة والولد، فقال تعالى: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (٢).

وقال: ﴿إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدُوَّكُمْ فَآخِذُوا بِهِمْ﴾ (٣).

وقال عليه السلام: «الولد مبخلة مجبنة محزنة» (٤).

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية، ومعنى الصبر عليها هو أن لا يركن إليها، وأن يعلم أن ذلك مستودع عنده، وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها، ولا ينهمك في اللهو واللعب والتنعم بها وأن يراعي حقوق الله تعالى في ماله بالإنفاق، وفي يده ببذل المعونة للخلق، وفي لسانه ببذل الصدق، وفي سائر ما أنعم الله تعالى عليه بإقامة الشكر، وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدرة فمعلوم أن الجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا أحضرته الأطعمة اللذيذة، وقدر عليها، ولهذا عظمت فتنة السراء والله أعلم.

فصل في دواء الصبر على البلايا والأقسام المتقدمة

اعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء، ووعد الشفاء بالصبر وإن كان شاقاً على النفس فتحصيله ممكن في المعقول، فنقول: الصبر على المصائب والشدائد يهون على النفس

(١) سورة العلق، الآيتان: ٦ - ٧ .

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٩ .

(٣) سورة التغابن، الآية: ١٤ .

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٤ ص ١٠٨ طبعة دار الحديث) أخرجه أبو يعلى الموصلي من حديث

موقعها، بأسباب: منها إشعار النفس بما تعلمه من حلول الفناء وتقضي المسار إذ ليس في الدنيا حال تدوم لأحد، ولا يبقى عليها أحد. كما قال الشاعر:

اصبر لدهر نال منك فهكذا مضت الدهور
فرح وحزن تارة لا الفرح دام ولا السرور

[٢٩٤] / ويروى أنه لما قتل بزرجمهر وجد في جيب قميصه رقعة مكتوب فيها إذا لم يكن جد فقيماً الكد، وإذا لم يكن للأمور دوام فقيم السرور، وإذا لم يرد الله دوام ملك فقيم الحيلة. وأنشد لسعد بن سليم:

إنما الدنيا هبات وعوال مستورده
شدة بعد رخاء ورخاء بعد شدة

قال أنوشروان: إن أحببت أن لا تغنم فلا تقن، فنظمه الشاعر فقال:

ألم تر أن الدهر من سوء فعله يكدر ما أعطى ويسلب ما أسدى
ومن سره أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئاً يبالي به فقدا

وقال آخر:

لحكيمها بقراط خير قضية ووصية تنفي الهموم الركدا
قالوا: الهموم تكون من طمع الورى في لبث ما في طبعه أن ينفدا
فإذا اقتيت من الزجاجاة قابلاً للكسر فانكسرت فلاتك مكمدا

ومنها أن يتصور انجلاء الشدائد، وانكشاف الهموم عند اشتدادها عليه كما قال بعض البلغاء: عند انسداد الفرج تبدو مطالع الفرج.

وروي عن ابن عباس أن سليمان بن داود عليهما السلام لَمَّا استكد شياطينه في البناء شكوا ذلك إلى إبليس اللعين، فقال: أستم تذهبون فرغاً وترجعون مشاغل؟ قال: ففي هذا لكم راحة، لكم نصف دهركم.

فبلغ ذلك سليمان فشغلهم ذاهبين وراجعين، فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: أستم تستريحون بالليل. قالوا: بلى. قال: ففي هذا لكم راحة، لكم نصف دهركم.

[٢٩٥] فبلغ ذلك سليمان، فشغلهم بالليل والنهار فشكوا ذلك إلى إبليس فقال: الآن / جاءكم الفرج، فما لبث سليمان أن أصيب ميتاً على عصاه.

فإذا كان هذا في نبي من أنبياء الله تعالى، لا يعمل إلا بأمره فكيف بما جرته الأقدار من

أيد أعاديهِ وساقه القضاء من حوادث نازلة هل تكون مع التناهي إلا منقرضة، وعند بلوغ الغاية
إلا منقرضة، وأنشد لعثمان:

خليلسي لا والله ما من ملمة	تدوم على حيّ وإن هي حلت
فإن نزلت يوماً فلا تخضعن لها	ولا تكثر الشكوى إذا النعل زلت
وكم من كريم قد بلي بنوايب	فصابرها حتى مضت واضمحلت
وكم غمرة هاجت بأموج غمرة	تلقيتها بالصبر حتى تجلّت
وكانت على الأيام نفسي عزيزة	فلما رأَت صبري على الذلّ ذلت

ويقال: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود عند تناهي شدتي يكون فرجي
وعند حلول بلائي يكون رجائي، والله أعلم، فإذا تصور الإنسان انجلاء الشدائد عند اشتدادها،
وانقضائها عند تقضي أوقاتها، لا تصرم قلبها ولا تستديم بعدها، ولا تنقضي بجزع ولا تطول
بصبر، وإن كل يوم يمر به فهو يذهب بشطر منها حتى تنقضي وهو عنها غافل.

فإذا تصور ما ذكرنا قويت نفسه على الصبر وأنست به، وحكي أن الرشيد حبس رجلاً ثم
سأل عنه بعد زمان، فقال للموكل به: قل له كل يوم يمضي من نعيمك يمضي من بؤسي مثله
والأمر غريب والحكم لله تعالى.

ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنشد حين حضرته الوفاة:

ألم تر أن ربك ليس تحصى	أياديه الجديدة والقديمه
تسل عن الهموم فليس شيء	يقيم وما همومك بالمقيمه
/ لعل الله ينظر بعد هذا	إليك بنظرة منه رحيمه

[٢٩٦]

ومنها أن يعلم أن فيما وقى من الرزايا ما هو أعظم من رزيته، ليعلم أنه ممنوح بحسن
الدفع، ولذلك قال عليه السلام: «إن لله في أثناء كل محنة منحة». شعر:

يصاب الفتى في أهله برزية	وما بعدها منه أهم وأعظم
فإن يصطبر فيها فاجر موفر	وإن يك مجزاعاً فوزر مقدم

وقيل للشعبي في نائبة: كيف أصبحت؟ قال: بين نعمتين خير منشور وشر مستور.
قال الشاعر:

لا تكره المكروه عند نزوله	إن العواقب لم تزل متبائنه
كم نعمة لا تستقل بشكرها	لله في طي المكاره كامنه

وعن خباب بن الأرت أنه قال: شكونا إلى النبي ﷺ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ فقال: «كان الرجل فيمن كان قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب وما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»^(١).

ومنها أن يتأسى بذوي المصائب، ويعلم أنهم الأكثرون عدداً، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أَلصقوا بذوي الغير تسع قلوبكم.

ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل عليه السلام: دلني على أعبد أهل الأرض، [٢٩٧] قال: فدلته على رجل قطع الجذام يديه ورجليه وذهب ببصره وسمعه وهو يقول: / اللهم متعتني ما شئت أنت وسلبتني ما شئت أنت وأبقيت لي فيك الأمل يا بار يا وصول.

حكاية: وقال بعض العلماء: كان في بعض الأزمنة جبار يعذب الناس على دينهم، فأوتي بامرأة فأمر بقطع يديها ورجليها فقطعنا وما تكلمت، فلما أوتي بالنار لتكوى صرخت بالبكاء، فقيل لها في ذلك فقالت: والله ما جزعت من ناركم، ولا أسفت على الدنيا، ولكن ذكررتني هذه النار نار جهنم فصرخت من أجل ذلك، قال: وكحلحت عينها بمروود محمى بالنار.

وقيل: لما أمر بها لتقطع يداها ورجلاها قالت: الحمد لله على السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء، لقد كنت أمل في ذات الله ما هو أكثر من هذا، فلما قُطعت يداها ورجلاها جعل الدم يفور ولا ينقطع فلما أحست بالموت قالت: حياة كدورة وموتة طيبة، لئن نلت ما أملت من جزيل الثواب، لقد نلت سروراً عظيماً لا يضر معه كدر الدنيا الفانية إذا صرت إلى الراحة الدائمة ثم اضطربت حتى ماتت.

حكاية أخرى: وعن الحسين البصري أنه قال: تعبد رجل على رأس جبل وكان اسمه عقيباً، وكان في ذلك الزمان جبار يعذب الناس ليرجعوا عن دينهم، فقال عقيب: لو نزلت إلى هذا الجبار فأمرته بتقوى الله كان أوجب عليّ، فنزل من الجبل فقال: يا هذا اتق الله في عباده.

فقال له الجبار: مثلك يأمرني بتقوى الله لأعذبنك بعذاب لم أعذب به أحد من العالمين،

(١) قال الحافظ العراقي في المعنى (ج ٤ ص ٢٠٣ طبعة دار الحديث) أخرجه البخاري.

وأمر به أن يسلخ وهو حي من قدمه إلى رأسه فلماً بلغ السلخ إلى بطنه أن أنه شديدة، فأوحى الله تعالى إليه: يا عقيب اصبر أخرجك / دار الحزن إلى دار الفرح، ومن دار الضيق [٢٩٨] إلى دار السعة والسعادة فلما بلغ السلخ إلى وجهه صاح فأوحى الله إليه يا عقيب أبكيت أهل سمواتي وأهل أرضي وأذهلت ملائكتي عن تسييحي لئن صحت الثالثة لأصبن عليهم العذاب صباً فصبر حتى سلخ وجهه مخافة أن يؤخذ قومه بالعذاب.

حكاية أخرى: وكان على عهد بني إسرائيل جبار يدعو الناس إلى أكل لحم الخنزير، فأوتيت بامرأة تسمى سارة لها سبعة أولاد، فدعى بأكبر بنينا ليأكل لحم الخنزير فقال: ما كنت لأكل شيئاً حرمه الله تعالى عليّ أبداً، فأمر به فقطعت يده ورجلاه وجميع جسده عضواً عضواً حتى مات، فدعى بالذي يليه أيضاً فامتنع عن الأكل فأمر بقدر من نحاس فملء زيت فأحمى حتى غلا ثم ألقى فيه فتناثر لحمه من على عظامه، ثم دعى بالذي يليه فامتنع فقال: لأنت أهون علي وأحقر من أن أكل ما لا أحله الله لي فقال لأصحابه: أتدرون ما أراد هذا؟ أراد أن يغضبني فأعجل بقتله، فأمر به فسلخ جلده وهو حي، فلم يزل يقتل كل واحد بقتله غير التي قتل بها صاحبه حتى بقي أصغرهم فالتفت إليه وإلى أمه فقال: انطلقني بابنك واخلي به ومريه أن يأكل لقمة واحدة ويعيش لك، فقالت: نعم، فخلت معه فقالت له: يا بني تعلم أن إخوتك لي عليهم حق واحد ولي عليك حقان وذلك أنني أرضعت كل واحد منهم عامين، وأرضعتك أربعة أعوام، وذلك أن أباك توفي وأنا حامل بك فنفست بك فأدركني الإشفاق عليك فسألتك بالله أن تصبر كما صبر إخوتك ولا تأكل ما حرّم الله عليك، فتلقى إخوتك يوم القيامة وتلحق بهم.

فقال الطفل: يا أماه / الحمد لله الذي أسمعني منك هذا وإنما كنت أخاف أن تريني [٢٩٩] مني غير هذا، فجاءت بابنها إلى الملك فقالت له: دونك قد عزمت عليه فأبى أن يأكل فألحقه بإخوته ثم قال لأهمهم: ويحك كلي لقمة واحدة وأصنع بك ما شئت وأعطيك ما شئت، فامتنعت وقتلها والله أعلم.

حكاية أخرى: وعن الحسن بن علي بن أبي مریم أنه قال: كان رجل بالمصيصة قد مرت الأكلة بنصف بدنه، فلم يبق منه إلا نصف روحه في بعض جسده وهو على سرير مثقوب للبول وغير ذلك فدخلت عليه فقلت له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت ملك الدنيا مشتاقاً إلى الله ما لي عليه من حاجة إلا أن يتوفاني على الإسلام.

حكاية أخرى: قال أبو عبد الله وكان لي صديق فابتلاه الله بالجذام حتى ذهبت يده

ورجلاه وعيناه فأثيت به فجعلته مع المجذومين، وكنت أتعاوده فغفلت عنه أياماً ثم ذكرته فأثيته فقلت: يا هذا إني غفلت عنك.

فقال لي: إن لي من لا يغفل عني. فقلت: إني نسيتك. فقال: إن لي من لا ينساني. ثم قلت: والله ما ذكرتك. فقال: إن لي من يذكرني. ثم قال: إليك عني لا تشغلني عن ذكر الله تعالى. فقلت: ألا أزوجك من امرأة تفتيك وتغسلك من هذه الأقدار. فقال: تزوجني وأنا ملك الدنيا وعروس الآخرة. فقلت: وما بيديك من الدنيا وأنت ذاهب البدين والرجلين والعينين تأكل كما تأكل البهائم. فقال: رضائي عن الله عز وجل حين أبان جوارحي وأطلق لساني. قال: فما لبث إلا أياماً يسيرة فمات، فأخرجت كفناً كان فيه طول ففقطعت ما فضل [٣٠٠] منه، وكفنته فيه فدفنته فيبينما أنا في منامي إذا أنا / برجل قد وقف علي لم أر أحسن منه صورة فقال لي: بخلت على وليي الله بكفن طويل دونك كفنك قد رددناه إليك وكفناه بالسندس والاستبرق فاستيقظت مرعوباً به، وإذا الكفن عند رأسي.

حكاية أخرى: وعن عطية بن سليمان أنه قال: صليت الجمعة فجلست إلى يونس بن عبيدة حتى صليت العصر، فقال: هل لكم في مشاهدة جنازة، فمضيت واصلت على الجنازة، فقال: هل لكم في زيارة فلان العابد فقلنا: نعم؛ فأدخلنا على رجل قد وقعت في فمه الأكلة حتى سقطت أضراسه فكان إذا أراد أن يتكلم دعي بعقب فيه ماء وبقطنة فَبَلَّ لسانه حتى ابتل وكذلك يتكلم فلما أراد أن يتكلم دعي بالإناء وبالقطنة إذ سقطت عيناه في الإناء فأخذهما بيده ثم استقبل القبلة فقال: الحمد لله الذي متعني بهما في صحتي وشبابي حتى فنيت أيامي وحضرت أجلي أخذهما ليبدلني خيراً منهما ثم شهق شهقة ففاضت نفسه والله أعلم.

وعن وهب بن منبه أنه مر برجل أعمى مجذوم مقعد عريان وهو يقول: الحمد لله على هذه النعمة فقال له رجل كان مع وهب: وأيُّ شيء عليك من النعمة وأنت أعمى مقعد مجذوم عريان، فقال له: يا هذا ارم ببصرك إلى أهل هذه المدينة ليس فيهم رجل يعرف الله مثلي أفلا أحمده على هذه النعمة.

ويروى أن موسى عليه السلام قام في بني إسرائيل بخطبة أحسن فيها وأعجب بها. فقالت له بنو إسرائيل أفي الناس أعلم منك يا موسى؟ قال: لا، فأوحى الله إليه يا موسى أعلم منك عبد من عبيدي حملته الرسالة وبعثته رسولاً إلى ملك جبار عنيد فقطع يديه ورجليه وأجدع أنفه [٣٠١] / فصرفت إليه يديه ورجليه وأنفه كما كان أول مرة، ثم أعدته رسولاً فمضى وهو يقول:

رضيت يا رب رضيت يا رب ولم يقل كما قلت أول وهلة: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾^(١).

حكاية أخرى: وروي عن قاضي فلسطين أنه قال: بينما أنا أمشي إذ سمعت قائلاً يقول: اللهم لك الحمد حمداً يوافي شكر ما أنعمت به علي وأشكرك شكراً استم به دوام إحسانك إليّ فقلت: لأذهبن فانظر قائل هذا فذهبت فإذا أنا برجل ليست له يدان ولا رجلان ملقى على ظهره، قال: فقلت أيّ نعمة لله عليك تحمده عليها، وأيّ عطاياه عليك تشكره عليها. فقال: سبحان الله أما ترى ما صنع بي سلبني يدي ورجلي شغلني عن المعاصي ووهب لي سمعي وبصري أتفكر في السموات والأرض، ومع هذا لو ضربني بنار من السماء لم أزد له على العطية إلاً شكراً وعلى البلاء إلاً صبراً ثم قال: إن لي إليك حاجة. قال: فقلت في نفسي إن قضاء حاجتك يقرب إلى الله تعالى ثم قلت: وما هي؟ قال لي: كان لي ولد هاهنا يطعمني إذا جعت ويسقيني إذا عطشت ففقدته منذ ثلاثة أيام فإن رأيت أن تلتسمه. قال: فالتسمته فإذا أنا بسبع قد افترسه فأكل بعضه فجمعت ما بقي من جسده فدفتته، ثم رجعت إلى الشيخ وأنا أفكر ما أعزبه به فذكرت أيوب المبتلى عليه السلام فجلست فقال: ألسنت صاحبي؟ قلت: بلى. قال: فما فعلت في الحاجة؟ قلت: أيّما أعظم منزلة عند الله أنت أم أيوب المصطفى عليه السلام؟ قال لي: سبحان الله ألتجئت إليّ السؤال. فقلت: إنما هو مثل مضروب. / قال: بل [٣٠٢] أيوب. قلت: كيف وجد الله عبده إذ أخذ ماله وفرّق جمعه وشتت عياله؟ قال: صابراً محتسباً. قال: قلت اصبر واحتسب ولذلك. قال: ما وراءك؟ قلت: إن ابنك افترسه السبع فأكله. فقال: آه آه الحمد لله الذي لم يدع في قلبي حسرة إلاً أخرجها. قال: ثم غمض عينيه وطبق شفتيه فإذا هو ميت، قال: فغطيته بشملة كانت عليه، وجلست عنده أتفكر كيف أدفنه فإذا أنا بقوم قد أقبلوا فقلت لهم: أعينوني على هذا الميت حتى ندفنه، فقال لي بعضهم: أكشف عنه لعلنا نعرفه، فكشفت عنه الشملة فانكب عليه أحدهم فجعل يقبله وهو يقول: يا أبي طالما سجدت والناس نيام. فقلت له: هل تعرفه؟ قال: نعم هذا أبو قلابة صاحب ابن عباس ابتلي بهذا البلاء فاعتكف في هذا الموضع صابراً محتسباً منذ خمس عشرة سنة. ثم قال لي: أما إنه كان له ولد فما فعل؟ فأخبرته الخبر، فقال لي: طال ما سمعته وهو يقول: اللهم لا تخلف لي ذرية تعصيك فتدخلها النار فالحمد لله الذي استجاب دعوته. قال: فنمت من ليأتي تلك فرأيت في المنام في روضة خضراء عليه حلال خضر وحلل صفر وهو يتلو الوحي وهو

يقول: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾^(١). فقلت: ألسنت صاحبي. قال: بلى. قلت: فما فعل الله بك؟ قال: إني قدمت على ربي فغفر لي فإن الله عز وجل درجة لن تتالوها إلا بالشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء.

حكاية أخرى: ويروى أن يونس عليه السلام قال: يا جبريل أرني أعبد أهل الأرض، [٣٠٣] قال: فأوقفه على رجل قطع الجذام يديه ورجليه وهو يقول: / يا إلهي متعتني بهما ما شئت أنت وسلبتني ما شئت أنت وبقي لي فيك الأمل يا بار يا وصول، قال يونس: يا جبريل أحب أن تريني صواماً قواماً، قال إنه كذلك في صحته وقد أمرت أن أسلب عينيه فأومىء جبريل عليه السلام بعينه إلى عيني المتلي فسالتا على وجهه فرفع رأسه إلى السماء فقال: متعتني بهما حيث شئت وسلبتنيهما حيث شئت وبقي لي فيك الأمل يا بار يا وصول. فقال يونس: يا عبد الله هل لك أن تدعو الله ونؤمن على دعائك ويرد الله عز وجل عليك جوارحك وتقوم إلى عبادة ربك. قال: لا حاجة لي في ذلك. قال له: ولم؟ قال: إن كانت محبة ربي في هذا فأنا أكره أن أؤثر محبتي على محبته.

فقال جبريل عليه السلام: يا يونس إنه لا يوصل إلى ثواب الله عز وجل إلا بالشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «يود أهل العافية لو أن جلودهم قرضت بالمقاريض لما يرون من ثواب أهل البلاء»^(٢).

إذا تفكر العاقل في هذه الحكايات وأمثالها، وتسلى بأصحابها أورثه ذلك حسن العزاء، فحف شجوه وقل هلمه وعلى هذا كانت مرثي الشعراء، حتى قال البحري:

فلا عجب للأسد أن ظفرت به كلاب الأعادي من فصيح وأعجم
فحربة وحشيتي سقت حمزة الردا وموت علي من حسام ابن ملجم

وفي بعض الحكمة: طوبى لمن غلب بتقواه هواه، وبصبره شهوة نفسه ألا وأن الصبر كنز من كنوز الجنة لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عليه.

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٤.

(٢) أطراف الحديث عند البيهقي في السنن الكبرى (٣/٣٧٥)، والترمذي (٢٤٠٢)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/٢٨٢)، والمتقي الهندي في كنز العمال (٦٦٦١) والسيوطي في اللآلئ المصنوعة (٢/٢١٤). والبريزي في مشكاة المصابيح (١٥٧٠).

وما من عبد وهب الله له صبراً على الأذى، وصبراً على البلاء، وصبراً على المصائب
إلاً وقد أوتي أفضل ما أوتيّه أحد بعد الإيمان. قال أبو فراس:

المرء بين مصائب لا تنقضي حتى يوارى شخصه في رسمه
فمعجل يلقي الردى في أهله ومؤجل يلقي الردى في نفسه

وقال عليه السلام: «أربع من أعطيهن فقد أعطي خير الدنيا والآخرة». قيل: وما هن
يا رسول الله؟ قال: «قلب شاكر ولسان ذاكِر وبدن صابر وزوجة عفيفة لا تخونه في نفسه
وماله»^(١). قال الشاعر:

صبرت وكان الصبر خير معول وهل جزع يجدي عليّ فأجزع
صبرت على ما لو تحمل بعضه جبال شرور أو شكت تصدع
وردت دمع العين حتى رددته إلى باطني فالعين في القلب تدمع

ومنها أن تعلم أن النعمة زائدة، وأنها لا محالة زائلة، فعلى قدر السرور منها يكون
الحزن، وقد قال في منثور الحكم: المفروح به هو المحزون عليه، وقيل: من بلغ غاية ما
يحب فليتوقع غاية ما يكره.

وقال بعض الحكماء: من علم أن كل حادثة إلى انقضاء حسن عزاه عند نزول البلاء.
وقيل للحسن البصري: كيف ترى الدنيا؟ فقال: شغلني توقع بلائها عن الفرح برخائها.
وأنشد لبعض الشعراء:

حياتك بالهم مقرونة فلا تقطع الدهر إلا بهم
حلاوة دنياك ممزوجة فلا تأكل الشهد إلا بسم

ومنها أن يعلم أن سروره مقرون بمساءة غيره، كما أن حزنه مقرون بسرور غيره، إذا
كانت الدنيا تنتقل من صاحب إلى صاحب فتكون سروراً لمن وصلته وحزاناً لمن فارقت.

ولذلك قال النبي عليه السلام: «ما قرعت عصى على عصى إلا فرح لها قوم وحزن
آخرون». وقال البحرّي:

متى أردت الدنيا نباهة خامل فلا ترتقب إلا خمول نبيه

(١) أطراف الحديث عند المنذري في الترغيب والترهيب (٢/٣٩٨، ٤١/٣). والسيوطي في الدر المنثور (١/١٥٠)، والمثقي الهندي في كنز العمال (٤٣٤١٦)، وفي أمالي الشجري (٢٥٦/١)، والشكر لابن أبي الدنيا (٢٤).

فأوضحه المتنبي فقال:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

[٣٠٥]

/ ومنها أن يعلم أن طوارق الإنسان من دلائل فضله، ومحنة من شواهد نبله، ولذلك إحدى علتين: إما لأن الكمال معور والنقص لازم، فإذا توفر الفضل عليه في أمر صار النقص فيما سواه.

وقد قيل: من زاد في عقله نقص من رزقه، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما انتقصت جارحة من الإنسان إلا كانت ذكاء في عقله». وينشد:

إذا جمعت بين امرأين صناعة فاحببت أن تدري الذي هو أحذق

فلا تفقد منهما غير ما جرت به لهما الأرزاق حين تفرق

فحيث يكون النقص فالرزق واسع وحيث يكون الفضل فالرزق أضيق

وإما لأن الفضل محسود وبالأذى مقصود، فلا يسلم من طعن حاسد وتره معاد. وقد قال الصنوبري:

محن الفتى يخبرن عن فضل الفتى كالنار مخبرة بفضل العنبر

وقلّ ما تكون محنة فاضل إلا من جهة ناقص وبلوى عالم إلا على يد جاهل؛ لاستحكام العداوة بينهما: بالمباينة وحدث الانتقام لأجل التقدم. قال الشاعر:

فلا غرو أن يبلى أديب بجاهل فمن ذنب التين تنكسف الشمس

ومنها ما يستفيد من الحكمة بنوائب عصره، فيطلب عدوه ويستقيم حاله بما جرب من حالتي دهره في الشدة والرخاء، ويتعظ أيضاً بما اختبر من أمور زمانه فلا يغتر برخاء ولا يطمع في استواء ولا يأمل أن تبقى الدنيا على حالة، فإن من عرف الدنيا وخبر أحوالها هان عليه بؤسها ونعيمها. وأنشد لبعض الأدياء:

إنني رأيت عواقب الدنيا إنكسرت ما أهوى لما أخشى

فكرت في الدنيا وعالمها فإذا جميع أمورها تفتنى

/ وبلوت أكثر أهلها فإذا كل امرء في شأنه يسعى

أسنى منازلها وأرفعها في العز أقربها من المهوى

تقفو مساؤها محاسنها لا فرق بين النعي والبشرى

ولقد مررت على القبور فما ميزت بين العبد والمولى

[٣٠٦]

انترك تذكر كم رأيت من الأحياء ثم رأيتهم موتى
ومنها أن يتفكر في حلاتها عاقبة الصبر، وما أعد الله للصابرين من الثواب الجزيل .

وقد روي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: ما أنعم الله على عبد نعمة انتزعها منه وعوضه الصبر منها إلا كان ما عوضه منها أفضل مما انتزع منه وقرأ: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مصيبة وإن عظمت إلا والصبر خير منها»^(٢).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا كان يوم القيامة وجمع الله الخلائق نادى نادى مناد: أين أهل الصبر؟ فيقوم ناس قليل فينطلقون سراعاً إلى الجنة فتستقبلهم الملائكة فتقول لهم: إنا نراكم سراعاً إلى الجنة هل حوسبتم؟ فيقولون: ليس علينا حساب لأننا أهل الصبر أو ما سمعتم الله تعالى يقول: إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب. فتقول لهم الملائكة: على م صبرتم فيقولون: صبرنا على طاعة الله وعن معصية الله فتقول لهم الملائكة: ادخلوها: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾^(٣) الآية»^(٤).

وقال عليه السلام: «أول ما يقضى فيه يوم القيامة الدماء وأول من يعطى الثواب الذين ذهبت أبصارهم وأهل البلاء. وأما أهل الراية فتعقد لهم الراية فيبدأ بمن ذهب أبصارهم، ثم يعطى الناس على قدر أسقامهم، / فيعطون من الثواب حتى أنهم يودون لو قرضوا في الدنيا بالمقاريض»^(٥). [٣٠٧]

فإذا تذكر المصاب هذا الثواب وظفر بأحد هذه الأسباب التي قدمناها تخففت عنه أحزانه، وتسهلت عليه أشجانه فصار وشيك السلوة قليل الجزع، حسن العزاء.

وقد قال بعض الحكماء: من حاذر لم يهلع، ومن راقب لم يجزع، ومن كان متوقفاً لم يلف متوجعاً. قال الشاعر:

(١) سورة الزمر، الآية: ١٠.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٤ ص ٩٦ طبعة دار الحديث) في معنى هذا الحديث أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس.

(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٤.

(٤) أطراف الحديث عند المتقي الهندي في كنز العمال (٢٩٣)، ولأبي نعيم في تاريخ أصبهان (١/٢٥١).

(٥) أطراف الحديث عند أبي نعيم في حلية الأولياء (٧/٨٨، ١٢٧) ابن أبي شيبة في منصفه (١٤: ١٠٠)، النسائي (٧/٨٤) وابن ماجه (٢٦١٥، ٢٦١٧) والبخاري (٨: ١٣٨)، أحمد (١/٣٨٨، ٤٤٢) وابن أبي شيبة (٩/٤٢٦). وفي مسند الشهاب (٢١٢).

هون عليك فكل الأمر ينقطع
فكل هم له من بعده فرج
إن البلاء وإن طال الزمان به
وقال آخر:

ما يكون الأمر سهلاً كله
هون الأمر تعيش في راحة
تطلب الراحة في دار الفنا

وعن وهب بن منبه أنه قال: ليس بفقير كامل الفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة، وذلك أن البلاء يتبعه الرخاء والرخاء يتبعه البلاء. قال الشاعر:

يقولون أعمى قلت أن وريما
إذا أبصر القلب المرودة والتقى
فإن العمى أجر وذخر وعصمة

فإذا تصور العاقل الرزايا قبل أن يتزلن به هانت عليه عند نزولها، قال الشاعر:

تمثل ذو اللب في لبتة
فإن نزلت نحوه لم ترعه
رأى الأمر يقضي إلى آخر
/ وذو الجهل يأمن أيامه
فإن دهمته صروف الزمان
ولو قدم الحزن في نفسه
وقال آخر:

تعز فإن الصبر بالحر أجمل
فلو كان يغني أن يرى المرء جازعاً
لكان التعزي عند كل مصيبة
وكيف وكل ليس يعد وحمامه
فإن تكن الأيام فينا تبدلت
فما لينت فينا قناة صليبة
ولكن أحلناها نفوساً كريمة

وليس على ريب الزمان معول
لنائبه أو كان يغني التذلل
ونازلة بالحر أولى وأجمل
وما لامرء عما قضى الله مزحل
بيؤس ونعما والحوادث تفعل
ولا دللتنا للتي ليس تجمل
تحمل ما لا استطاع فتحمل

ومن لم يشعر نفسه ما ذكرناه من أحوال الدنيا، وتقضي مسارها، ثم مصير أهلها إلى القبور صرعاً بين الجنادل والصخور، قد فارقهم الأحباب حين سكنوا التراب، ألفتة الحوادث جازعاً وتضاعف عليه من شدة الأسى ما لا يطيق عليه صبراً ولا له دعفاً.

ومما يعين على شدة الجزع، ويبعث على المصائب أسباب الهلع، تذكره المصائب النازلة، وتصوره المسار المنقضية حتى لا يجد مع التذكار سلوة، ولا يخلط مع التصور تعزية.

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا تستغزر الدموع بالتذكر، وينشد:
ولا يبعث الأحزان إلا التذكر

ويروى أن الحجاج بن يوسف لما مات ابنه محمد جزع عليه جزعاً شديداً فقال: إذا غسلتموه فأروني ذلك، فأعلموه فلما دخل البيت عليه قال متملاً:

الآن لما كنت أجمل من مشى وأقترنا بك عن شباب القادح
/ وتكاملت فيك المروءة كلها وأعنت ذلك بالفعال الصالح

[٣٠٩]

فقيل له: اتق الله أيها الأمير واسترجع. فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١).

ثم أنشأ أبياتاً تركتها مخافة التطويل.

ومما يبعث على الجزع أيضاً شدة الأسف والحسرة، فلا يرى للمصيبة عوضاً، ولا لمفقوده بدلاً فيزداد بالأسف ولعاً، وبالحسرة هلعاً ولذلك قال الله تعالى: ﴿لَكَيْلًا [تَأْسُؤًا]^(٢) عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾^(٣) الآية. وقال بعض الشعراء:

إذا ابتليت فشق بالله وارض به إن الذي يكشف البلوى هو الله
الياس يقطع أحياناً بصاحبه لا تأسفن فإن الصانع الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرتة ما لامرئ حيلة فيما قضى الله

ومما يبعث على الجزع أيضاً كثرة الشكوى وبث الجزع وقيل في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾^(٤): إنه الصبر الذي لا شكوى فيه ولا بث.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.

(٢) ساقطة من المخطوط.

(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

(٤) سورة المعارج، الآية: ٥.

وقال عليه السلام: «ما صبر من بث»^(١). قال الشاعر:

سأكسب صبراً واحتساباً لأنني أرى الصبر سيفاً ليس فيه فلول
عدائي أن أشكو إلى الخلق أنني عليل ومن أشكو إليه عليل
ويمنعني الشكوى إلى الله أنه عليم بما ألقاه قبل أقول

وقال تعالى حكاية عن نبيه يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾^(٢).

وقيل: مكتوب في التوراة من اشتكى بمصيبة نزلت به فإنما يشكو ربه.

وحكي أن أعرابية دخلت من البادية فسمعت صوارخ في دار فقالت: ما هذا؟ فقيل لها: مات لهم ميت. فقالت: ما أراهم إلا من ربهم يستغيثون، ومن قضائه يتبرمون، وعن ثوابه يرغبون. وينشد:

لا تكثر الشكوى إلى الصديق وارجع إلى الخالق لا المخلوق
لا يُخْرِجَ الْغَرِيقُ بِالْغَرِيقِ

وقيل في مثور الحكم: من ضاق / قلبه اتسع لسانه.

[٣١٠]

ويبعث على الجزع أيضاً: اليأس من جبر مصيئته والنظر إلى من سلمت نعمته فيجتمع عليه مع حزن المصيبة قنوط اليأس، وأنه أفرد بالرزقة من بين الناس فلا يتفق معها صبر ولا يتسع لهما صدر، ولذلك قيل: المصيبة بالصبر أعظم المصيبتين. وأنشد لامرأة من الأعراب:

أيها الإنسان صبراً إن بعد العُسر يسراً
كم رأينا اليوم حراً لم يكن بالأمس حراً
ملك الصبر فأضحى مالكاً خيراً وشرراً
اشرب الصبر وإن كان من الصبر أمراً
وأنشد لبعض أهل الأدب:

يراع الفتى للأمر تبدو صدوره فيأس وفي عقباه يأتي سروره
الم تر أن الليل لما تكاملت دجاه بداية الصباح ونوره

(١) قال الحافظ العراقي في معنى هذا في المعنى (ج ٤ ص ١١٤ طبعة دار الحديث). لم أجده مرفوعاً وإنما رواه ابن أبي الدنيا في العرض والكمفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال: «من الصبر أن لا تحدث بمصيبك ولا بوجعك ولا تزكي نفسك».

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٦.

فلا تصحبن اليأس إن كنت عالماً ليبياً فإن الدهر تنشر أموره
واعلم أنه قد قلّ من صبر على شدة إلاّ كان انكشافها سريعاً، وقد حكى أن بعض
الكتاب يقال له: أبو أيوب حبس في السجن خمس عشرة سنة حتى ضاقت حيلته، وقلّ صبره،
فكتب إلى بعض إخوانه يشكو طول حبسه، وقلة صبره، ورد عليه جواب رفته فقال:

صبراً أبا أيوب صبر مفرج إذا عجزت عن الخطوب فمن لها
إن الذي عقد الذي انعقدت له عقد المكاره فيك يملك حلها
صبراً فإن الصبر يعقب راحة ولعلها أن تنجلي ولعلها
فأجابه أبو أيوب:

صبرتني ووعظتني وأنا لها وستنجلي بأن لا أقول لعلها
ويحلها من كان صاحب عقدها كرما به إذ كان يملك حلها

/ قال: فلم يلبث في السجن بعد ذلك إلاّ أياماً حتى أطلق مكرماً والله أعلم. [٣١١]

وهذا الذي ذكرناه من الأشياء المتقدمة هو دواء الصبر على سائر أنواع البلايا والله أعلم.
دواء الصبر عن شهوة البطن والفرج، فإنه إذا غلبت عليه بحيث لا يملك فرجه، أو
يملك فرجه ولا يملك عينه، أو يملك عينه ولكن لا يملك قلبه ونفسه، إذ لا يزال تحدثه
بمقتضيات الشهوة، وتصرفه عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحات.
فالسبيل إلى تضعيف باعث الشهوة ثلاثة أمور:

أحدها: أن يقطع مادة الشهوة وهي الأغذية اللذيذة فلا بد من تغليلها بالصوم الدائم مع
الاعتصار عند الإفطار وعلى طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه فيحترز عن اللحم والأطعمة
المهيجة للشهوة، وهذا يضاوي قطع العلف عن البهيمة الجموح لتضعف فتسقط قوته.

الثاني: قطع أسباب الجماع المهيجة له في الحال؛ فإنه إنما يهيج بالنظر إلى الصور
المشتهات ولذلك قال عليه السلام: «النظر سهم مسموم من سهام إبليس»^(١) لأنه يحرك
القلب، والقلب يحرك الشهوة؛ وهذا يحصل بالعزلة وتغميض الأجفان والهروب من صوب

(١) قال الحافظ العراقي في المعنى (ج ١ ص ٣٦٥ طبعة دار الحديث). أخرجه الحاكم وصححه إسناده من حديث حذيفة. وقال المحقق أخرجه الحاكم (٣١٤/٤) وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وتعقبه الذهبي بقوله: إسحاق وإه وعبد الرحمن هو الواسطي ضعفه، وقال الألباني في (الضعيفة / ١٠٦٥) ضعيف جداً.

رمي إبليس؛ فإنه إنما يرمي هذا السهم عن قوس الصور المشتهاة فإذا اعتزلتها لم يصبك رمي إبليس.

والثالث: تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيهِ وذلك بالنكاح فإن كل ما يشتهيهِ الطبع ففي المباحات ما يعني عن المحرمات.

وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر، فإن قطع الغذاء يقطع عن سائر الأعمال، ثم [٣١٢] / لا يقطع الشهوة قمعاً شافياً في حق الأكثر، ولذلك قال عليه السلام: «معاشر الشباب من استطاع منكم الباء فليتزوج ومن لم يستطع فليصم فإن الصوم له وجاء»^(١). فهذه ثلاثة أسباب للعلاج:

الأول: يضاهاي قطع علف البهيمة الجموح لتسقط قوته.

والثاني: يضاهاي تغيب اللحم عن الكلب، والشعير عن البهيمة حتى لا تتحرك بواطنه بسبب المشاهدة لذلك.

والثالث: يضاهاي تسليتها بشيء قليل كما يميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب والله أعلم، وكذلك علاج الشهوة من الطعام على هذا الحال، وقد تقدم في باب الزهد والقناعة، وشهوة البطن ما يعني عن ذلك.

فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر، وإنما أشدها كف القلب عن حديث النفس، وإنما يشتد ذلك عن متفرغ له، فإن قمع الشهوة الظاهرة، وأثر العزلة، وجلس للمراقبة والذكر والفكر، فإن الوسواس لا تزال تجاذبه من جانب إلى جانب، وهذا لا علاج له البتة إلا قطع علاقتك الدنيا عن القلب ظاهراً وباطناً بالفرار عن الأهل، والأولاد، والمال، والجاه، والأصدقاء، والاعتزال من جبل إلى جبل إن قدر على ذلك مع سير من القوت والقناعة ثم لا يكفي كل ذلك ما لم تصر الهموم همماً واحداً وهو الله سبحانه.

ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ما لم يكن له مجال في ملكوت السموات والأرض وسائر معرفة الله تعالى وعجائب صنعه وإن لم يكن له مسير بالباطن إلى الله تعالى فلا [٣١٣] ينجيه إلا العبادة المتصلة المرتبة في كل لحظة من القراءة والذكر والصلاة / مع إحضار القلب معها.

(١) قال الحافظ العراقي في المعني (ج ٢ ص ٣٦ طبعة دار الحديث) في نحوه. متفق عليه من حديث ابن مسعود.

واعلم أن هذا لا يمكن إلا لمن رزقه الله قوة اليقين، ومنحه الصبر ومجاهدة الهوى بالجد المبين، ومع ذلك لا يسلم له إلا أقل الأوقات إذ لا يخلو عن حوادث تشغله عن الفكر والذكر من مرض أو خوف أو أذى إنسان أو تعلق قلب بأسباب المعيشة ولكن بعد قطع العلائق كلها تسلم له أكثر الأوقات إن لم تنزل به ملمة واقعة، وفي تلك الأوقات يصفو القلب وتيسر الفكر وهذا أقصى ما يقدر عليه الإنسان بالمجاهدة.

وقال بعض العلماء: المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل على المؤمن، وهجر الخلق في جنب الحق شديد، والمسير بالنفس إلى الله تعالى صعب شديد، والصبر مع الله أشد، فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق، وأشد العلائق على النفس علاقة الخلق وحب الجاه، وعلاجهما: الاعتزال وإخمال النفس ولا يصلح ذلك إلا بالزهد الكامل والمجاهدة التامة حتى يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان للشرع وذلك هو الملك الحقيقي.

وقد حكى عن بعض الملوك قال لبعض الزهاد: هل لك من حاجة؟ قال وكيف اطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك؟ قال: وكيف؟ قال: من أنت عبده فهو عبيدي، قال: أنت عبد شهوتك، وغضبك، وفرجك، وبطنك وقد ملكت هؤلاء كلهم فهم عبيدي.

فإذا هذا هو الملك في الدنيا الذي يسوق صاحبه إلى ملك الآخرة لا الملك الذي يخلو من المنازعات والمكدرات وطول الهموم في التدبرات مع انقطاعه بالموت والفناء وبقاء تبعته على الإنسان في العقبى.

فما أعظم اغترار الإنسان / إذ ظن أنه ينال ملك الآخرة بطلبه ملك الدنيا الذي يصير به [٣١٤] الإنسان مملوكاً لشهوته وغضبه وبطنه وفرجه ومثل هذا لا يكون إلا منكوساً في الدنيا معكوساً في الآخرة والله أعلم.

وأما علاج الصبر عن الرئاسة والجاه فيحصل بثلاثة أمور:

أولها: بالهرب عن مواضعها حتى لا يشاهد أحد أسبابه فيعسر عليه الصبر.

والثاني: أن يكلف نفسه ترك الأعمال التي تقتضي التكبر ويستعملها أعمالاً تفيده التواضع في جميع أحواله من ملابس، أو مطعم، أو مأكّل، أو مركب، حتى يرسخ ذلك في نفسه فيكون متواضعاً.

والثالث: أن يراعى التدريج بالإشارة لقوله عليه السلام: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»^(١).

فهذا علاج الرئاسة وحب الجاه.

ويروى عن بعض العلماء أنه قيل له: بماذا يقوى الصابر على صبره؟

قال: إذا علم أن في صبره رضى مولاه جل جلاله أما سمعت قول الحكيم:

رضيت وقد أرضى إذا كان مسخطي من الأمر ما فيه رضى صاحب الأمر

فصل

اعلم أن للصبر شروطاً لا بد من مراعاتها: منها أن تعلم كيف تصبر؛ لأن الصبر معناه حبس النفس عن الجزع، ومعنى الجزع اضطراب النفس في الشدة والصبر ترك ذلك.

ومنها أن تعلم لمن تصبر؛ لأنه قيل في قول الله تعالى: ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾^(٢).

أي اصبروا من الله وصابروا بالله وربطوا مع الله.

ومنها أن تعلم ما تريد بصبرك وقد ذكرنا ثواب الصبر، وجملة ذلك أن الصبر النجاة من

[٣١] الشدائد، والنجاح في الأمور، والظفر بالأعداء، والتقدم على / الناس، ونيل الإمامة، وحسن الثناء، والشارة والصلاة، والرحمة، وتحقيق الهدى، والثواب الذي لا غاية له ولا نهاية، وذكر الآيات المذكور فيها ما ذكرنا من الكرامات يطول الكتاب بها.

ومنها حسن النية واحتساب الأجر على ما صبر عليه ولمن يصبر له فإذا أتى الإنسان بهذه

الشروط صار من الصابرين الذين يوفى لهم الأجر بغير حساب، وإلاً فهو مثل البهيمة نزل بها البلاء فاضطربت لذلك ثم هدى ذلك عنها فهدأت وبالله التوفيق.

وقد روي عن بعض العلماء أنه قال: من عزم على قطع طريق الآخرة فليجعل في نفسه

أربعة ألوان من الموت: الأبيض، والأحمر، والأسود، والأخضر: فالموت الأبيض الجوع، والأسود ذم الناس، والأحمر مخالفة الشيطان، والأخضر الوقائع والشدائد بعضها في أثر بعض والله أعلم، وهذا كله لا ينال إلا بتوفيق الله تعالى وحسن عونه.

(١) ذكر الحافظ في المعني (ج ٤ ص ١٢٥ طبعة دار الحديث). أخرجه أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جابر وقال في (ج ١ ص ٥٣١) ولا يصح إسناده قال المحقق: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق. . . . الحديث» ذكره الألباني في (صحيح الجامع ٢٢٤٦) وقال: حسن.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

ولقد روي أن الله تعالى أوحى إلى أيوب عليه السلام: يا أيوب لا تعجب من صبرك؛ فإنني قد علمت ما تجد كل شعرة من لحمك ودمك، ولولا أنني أعطيت كل شعرة من ذلك صبراً ما صبرت وبالله التوفيق.

الباب الرابع

في القضاء والقدر وورود أنواعهما

قال الله سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(١). وقال تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢).

إن ذلك يعني العلم في كتاب الآيات. وفي الحديث: «أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب فقال: يا رب وما أكتب؟ قال: أكتب علمي في خلقي، فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة»^(٣).

وفي الحديث أن الرسول عليه / السلام قال: «قال الله تعالى: أنا الله الذي لا إله إلا أنا [٣١٦] خلقت الخير والشر فقدرته على يدي من يكون فطوبى لمن خلقت له للخير وقدرته على يديه وويل لمن خلقت له للشر وقدرته على يديه»^(٤).

وعنه عليه السلام أنه قال: «لكل أمة مجوس ومجوس هذه الأمة القدرية»^(٥).

ويروى أنه لما احتضر عبادة بن الصامت قال له ابنه عبد الرحمن: يا أبت أوصني. قال: أجلسوني، فلما جلس قال: يا بني اتق الله ولن تنقي الله حتى تؤمن بالله ولن تؤمن بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره من الله وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «القدر على هذا فمن مات على غيره دخل النار».

(١) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٠.

(٣) أطراف الحديث عند ابن أبي عاصم في السنة (٤٨/١)، ٤٩.

(٤) ذكر الحافظ العراقي نحوه في (ج ٤ ص ٥٢٨ طبعة دار الحديث) وقال: أخرجه ابن شاهين في شرح السنة عن أبي أمامة بإسناد ضعيف.

(٥) أطراف الحديث عند أبو داود (٤٦٩٢)، وأحمد (٨٦/٢)، الهيثمي في مجمع الزوائد (٧: ٢٠٧) والمتقي الهندي (٥٥٤، ٥٥٥، ٦٤٧) والسيوطي في الدر المنثور (٦: ١٣٨)، وابن القيسراني في تذكرة الموضوعات (٦٤٧)، وابن عدي في الكامل للضعفاء (٦: ٢٣١٧). والسيوطي في اللآلئ المصنوعة (١٣٣/١، ١٣٤) وابن كثير في التفسير (٥/٤٥٩).

وعن مالك بن دينار قال: قرأت في اثنتين وسبعين كتاباً من كتب الله عز وجل أن من أضاف إلى نفسه شيئاً من الاستطاعة فقد كفر، ولعله يريد شيئاً من القدر.

وعن محمد بن الحسن قال: اختلف رجلان في القدر فتراضيا بأول رجل يلقيانه، فلقياً رجلاً فقالا له: ما تقول فيما اختلفنا؟ فقال: أقول إن الذي جعل الشهد في النحلة هو الذي جعل السم في الحية.

وعن ابن قتيبة أنه قال: بلغني أن رجلاً من المتكلمين لقي نصرانياً فقال له: ألا تسلم؟ فقال النصراني: إن الله لم يرد. فقال له المتكلم: بل أراد ولكن الشيطان لا يدعك. قال النصراني: اني مع أقوالهما وقال الله تعالى الفعال لما يريد، جل ربنا وتعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد.

وعن عمر بن عبد العزيز أنه قال: لو أراد الله أن لا يعصى ما خلق إبليس، فهو رأس [٣١٧] الخطيئة، وقد بين ذلك في آي من كتابه وفصلها، / عقلها من عقلها وجهلها من جهلها فقال: ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾^(١).

وعن ابن عباس أنه قال: ما يأتي أحد من أهل الأهواء فيخاصمني أبغض إلي من القدرية؛ وذلك أنهم لا يعلمون قدر عظمة الله تعالى؛ لأن الله لا يستل عما يفعل وهم يستلون، أما يقرؤون هذه الآية: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾^(٢) كفاراً ومؤمنين.

ويروى أن بني إسرائيل اختصموا في القدر خمسمائة سنة ثم انتهوا إلى عالم من علمائهم، فقالوا: صف لنا القدر بكلام قليل نفهمه عنك. فقال: حرمان العقل وظفر الجاهل.

ويروى أن رجلاً سأل علي بن أبي طالب عن القدر. فقال: تسئلني عن شيء تملكه مع الله أو من دون الله، إياك أن تتكلم فأضرب عنقك. فقال: ولم يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم إن قلت تملكه مع الله فقد جعلت نفسك شريكاً مع الله، وإن قلت تملكه من دون الله فقد جعلت نفسك معبوداً من دون الله. فقال: وما المخرج يا أمير المؤمنين؟ قال: أنت المالك لما مَلَكَكَ الله، والقادر على ما عليه قدرك، ولا حول لك على معصية الله إلا بعصمته، ولا قوة لك على طاعة الله إلا بتوفيقه، أما سمعت الناس يقولون: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١) سورة الصافات، (الآيتان: ١٦٢، ١٦٣).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

فصل

اعلم يا أخي أن الأمور مفروغ منها خير وشر وشقاوة وسعادة وغنى وفقر وخلق وخلق ورزق وأجل وغير ذلك فلا يجري في العالم: من حركة وسكون، ونفع، وضر، وطاعة، ومعصية، وإيمان، وكفر إلأ بما جرى به القلم وسبق به القضاء والقدر.

وكذلك لا يطير طائر بجناحيه، ولا يدب حيوان على بطنه، أو رجله، ولا تسقط ورقة، ولا تطير / بعوضة إلأ بقضاء وقدر، وإرادة من الله تعالى ومشئته، كما لا يجري شيء [٣١٨] من ذلك إلأ وقد سبق به علمه قال الله سبحانه: ﴿مَّا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾^(١). يعني من قبل أن نخلقها يعني النفس وقيل: من قبل أن نخلق المصيبة.

وقال لنيه عليه السلام: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾^(٢).

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قدر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»^(٣).

فالواجب على الإنسان امتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه، ولا يتكلف الخوض في القضاء والقدر فإن ذلك من مخزون علم الله الذي استأثر به عن الخلق ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾^(٤).

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها وحدد لكم حدوداً فلا تعدوها ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تتكلفوها رحمة من ربكم فاقبلوها».

وقال عليه السلام: «اعملوا فكلكم ميسر لما خلق له»^(٥).

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٢.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥١.

(٣) أطراف الحديث عند الترمذي (٢١٥٦) وأحمد (١٦٩/٢)، والقرطبي في التفسير (٥٢/٩) والمتقي الهندي في كتر العمال (٤٩٧، ٦١٠). والبيهقي في الأسماء والصفات (٣٧٤) وفي تاريخ أصفهان لأبي نعيم (٣٢٧/١)، وكشف الخفا للمجلوني (٣٨/٢). والسيوطي في الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة (١٢١).

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

(٥) قال الحافظ العراقي في المعني (ج ٤ ص ١٣٩ طبعة دار الحديث) من حديث علي وعمران بن حصين =

وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مِمَّا سَمَّوْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(١).

فصل في الجمع بين القضاء والقدر وبين الطلب والحذر

فإن قال قائل: كيف العمل فيما سبقت به الأقدار وجفت به الأقلام وفرغ من قسمته؟ وكيف الحذر مما لا بد من كونه؟ قيل له: اعلم أن القدر والطلب لا يتنافيان، والتوكل والكسب لا يتضادان، وذلك أن تعلم أن كل ما قضى الله تعالى كائن لا محالة كما أن ما علم الله أن يكون فهو كائن لا محالة.

[٣١٩] ومن خالف المسلمين في القضاء والقدر فقد / وافقهم في العلم فرب أمر قدر الله وصوله إليك بعد الطلب فلا يصل إليك إلا بالطلب، والطلب أيضاً من القدر، ولا فرق بين الأمر المطلوب وبين الطلب في إنهما مقدوران، فمن هاهنا ثبت أنهما لا يتنافيان.

وكذلك التوكل مع الكسب وأخذ الحذر مع الشروع في العمل؛ لأن التوكل والحذر محلها القلب، والكسب والعمل محلها الجوارح قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ﴾^(٣) الآية.

وحكي أن رجلاً أتى النبي ﷺ على ناقة فقال: يا رسول الله أدعها وأتوكل. فقال عليه السلام: «أعقلها وتوكل»^(٤).

وحكي أن إبليس لعنه الله قال لعيسى ابن مريم عليه السلام: أأنت تقول أنه لن يصيبك إلا ما قدر الله عليك؟ قال: نعم. قال: فإرم نفسك من ذروة الجبل فإنه إن يقدر لك السلامة تسلم. فقال له: يا ملعون إن الله يختبر عباده وليس للعبد أن يختبر ربه.

فالتوكل والاعتصام بالقدرة يستمدان من الأمر فالتوكل هو الثقة بما ضمنه الله، والقطع بكون ما يحكم به فعلى العبد أن يتحقق أن التقدير من قبل الله تعالى، فإن تعسر شيء فبتقديره،

= قال المحقق هو حديث متفق عليه من رواية علي بن أبي طالب رضي الله عنه أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦٢/٣) فتح والتفسير (٤٩٤٥/٨، ٤٩٤٩) ومسلم في القدر (٧/٤ ص - ٣٠٤).

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٣) سورة النساء، الآية: ٧١.

(٤) قال الحافظ العراقي في المعنى (رج ٤ ص ٤٢٩). أخرجه الترمذي من حديث أنس، قال يحيى القطان منكر ورواه ابن خزيمة في التوكل، والطبراني من حديث عمرو بن أمية الضمري بإسناد جيد «قيدها».

وإن اتفق شيء فبتيسيهه وليعتمد في ذلك على الله سبحانه مسبب الأسباب، ومسخر الخلق والألباب بشرط ملازمة الطاعة والأمر؛ لأنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته.

وقد قال علي من ابتغى أمراً بمعصية الله كان له أبعد لما رجا وأقرب لمجيء ما اتقى، ومن ظن أن الطلب والأسباب يناقضان التوكل فقعده في بيته متوكلاً على ربه كان عن العقل خارجاً وفي تبه الجهل والجأ.

ويقال له: فيجب من هذا إذا جعت وحضر الطعام / أن لا تمد يدك إليه ولا تفتح فمك [٣٢٠] فإن قال: نعم. كان إلى العقل أحوج منه إلى المعرفة، والدليل على أن الطلب مأمور به أمر بإباحة قوله تعالى: ﴿فَأَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَأَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾^(١).

وقال بعض العلماء: من قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾^(٢).

قال: لو رزقهم من غير كسب ألا ترى أن الله قال لمريم: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾^(٣) الآية. وأشد في هذا المعنى:

ألم تر أن الله قال لمريم فهزي بجزع النخل يساقط الرطب ولو شاء أحنى الجذع من غير هزة إليها ولكن كل شيء له سبب

ويقال في التوراة: يا ابن آدم حرك يديك يسبب لك رزقك، وفي الحديث قال النبي ﷺ: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطيور تغدو خماساً وتروح بطاناً»^(٤). فلم يقل: تحمل أرزاقها إلى أوكارها بل ألهمها طلبه بالغدو والرواح.

ويحكي أن بعض الملوك يرى من تصديق القدر وتكذيب الطلب دون أهل زمانه من الملوك ما يحجزه عن الطلب والتدبير فأخرجه إخوته من سلطانه وقهره على مملكته.

(١) سورة الجمعة، الآية: ٩.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٧.

(٣) سورة مريم، الآية: ٢٥.

(٤) ذكر الحافظ العراقي في المغني (ج ٤ ص ٣٧٥ طبعة دار الحديث). بلفظ «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله... الحديث». وقال أخرجه الترمذي والحاكم وصحاحه من حديث عمر.

وأطراف الحديث عند الهيثمي في موارد الظمان (٢٥٤٨) وعند ابن الجوزي في زاد المسير (٨: ٢٩٢)، وعند المعجلوني في كشف الخفا (٢/٢١٨)، وعند ابن أبي حاتم الرازي في علل الحديث (١٨٣٢).

فقال له بعض الحكماء: إن ترك الطلب يضعف الهمة، ويذل النفس، وصاحبه صائر إلى أخلاق ذوات الأجرحة من الحيوانات: كالضب، وسائر الحشرات تنشأ في أجحرتها وفيها يكون موتها.

ثم جمعوا بين القدر والطلب فقالوا: إنهما كالعدلين على ظهر إن حمل في واحد منهما أرجح مما حمل في الآخر سقط حملة وتعب ظهره، وإن عادل بينهما سلم ظهره ونجح سفره.

وضربوا في ذلك مثلاً عجيباً وقالوا: إن أعمى ومقعداً كانا في قرية بفقر وضر ولا قائد [٣٢١] للأعمى ولا حامل للمقعّد، فكان في القرية رجلا يطعمهما كل يوم / قوتهما احتساباً فلم يزالا في عافية إلى أن هلك الرجل المحتسب. فلبثا بعده أياماً فاشتد جوعهما وبلغ الضرر منهما جهده، فأجمع رأيهما على أن يحمل الأعمى المقعد فيدوران في القرية يستطعمان أهلها ففعلا فنجح أمرهما، فلو لم يفعلا ذلك لهلكا.

فكذلك القدر سببه الطلب، والطلب سببه القدر وكل واحد منهما معين لصاحبه قال: فأخذ ذلك الملك في الطلب فظفر بأعدائه ورجع إلى ملكه وكان يقول بعد ذلك: لا تدعن الطلب إنكألاً على القدر ولا تجهدن نفسك في الطلب معتمداً عليه مستهيناً بالقدر، فإذا أجهدت نفسك بالطلب بوجوه التدبير مصدقاً بالقدر نلت ما تحاول، وإن التوت مع ذلك عليك الأمور فذلك من عوق القدر وأنت قد أتيت ذنباً، وتفقد جوارحك وتب إلى الله من كل ذنب وانخرج من كل مظلمة فإذا أنت فعلت قابلك الحظ وساعدك القدر إن شاء الله.

فصل

فإن قال قائل: هل يزيد الرزق بالطلب أو ينقص بترك الطلب أم لا؟ قيل له: عند بعضهم لا؛ لأن المكتوب في اللوح المحفوظ مقدر مؤقت لا تبديل لحكم الله ولا تغيير لقسمته وكتابه.

ويروى عن بعض العلماء من أصحاب حاتم وشقيق: أن الرزق لا يزيد ولا ينقص بفعل العبد ولكن المال يزيد وينقص، وهذا عند أصحاب القول الأول فاسد؛ لأن الدليل في الموضوعين واحد وهو الكتابة والقسمة وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾^(١).

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٣.

ولو كان يزيد بالطلب وينقص بالترك لكان للأسى والفرح موضع إذ هو قصر حتى فاته وشمر حتى حصله، وقد قال عليه السلام: «ولو لم تأتها لأنتك»^(١).

فإن قال: الثواب والعقاب أيضاً مكتوبان في اللوح / المحفوظ، ثم يلزمنا طلبه فيزيد [٣٢٢] بالطلب وينقص بالترك.

فاعلم أن طلب الثواب إنما وجب، لأن الله تعالى أمر به أمراً حتماً وأوعده على تركه ولم يضمن الثواب على غير فعل منا.

وزيادة الثواب والعقاب إنما هي بفعل العبد والفرق بينهما في نكته، وهو ما قال بعض العلماء: أن المكتوب في اللوح المحفوظ قسمان: قسم هو مكتوب مطلقاً من غير شرط وتعليق بفعل العبد وهو الأرزاق والآجال ألا ترى كيف ذكرهما الله تعالى مطلقاً فقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٢). وقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(٣).

وقال النبي عليه السلام: «أربع فُرِغَ مِنْهُنَّ: الْخَلْقُ وَالْخَلْقُ وَالرِّزْقُ وَالْأَجَلُ». وقسم مكتوب بشرط معلق بشروط وهو فعل العبد وذلك هو الثواب والعقاب، ألا ترى كيف ذكرهما الله في كتابه معلقتين بفعل العبد فقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَاهُمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾^(٤). وهذا بين فاعلمه.

فإن قال: نحن نجد الطالبين يجدون الأرزاق والأموال والتاركين يعدمون ويفتقرون. قيل له: كأنك مع ذلك لا تجد طالباً محروماً فقيراً وفارغاً مرزوقاً غنياً، بلى إن هذا هو الأكثر ليعلم أن ذلك تقدير العزيز العليم.

وقد قيل لبزجمهر: تعال نتناظر في القدر. قال: وما أصنع بالمناظرة بالقدر رأيت ظاهراً فاستدللت به على باطن، رأيت أحق مرزوقاً وعاقلاً محروماً، فعلمت أن التدبير ليس إلى العباد وأنشدوا:

(١) أطراف الحديث عند الزبيدي في الإتحاف (٤٧٧/٩) وعند أبي نعيم في تاريخ أصبهان (١/١٦٠). وعند

ابن أبي عاصم في السنة (١١٧/١).

(٢) سورة هود، الآية: ٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٥.

وكم قوي قوي في قلبه مهذب الرأي عنه الرزق منحرف
 وكم ضعيف ضعيف في قلبه كأنه من خليج البحر يغترف
 / هذا دليل على أن الإله له في الخلق سر خفي ليس ينكشف [٣٣٣]

وفي الخبر أن العقل استأذن على البخت فقال: اذهب لا حاجة لي بك. فقال العقل:
 ولم؟ قال: إنك تحتاج إليّ ولا احتاج إليك.

ويروى أن حكيماً قال لابنه: يا بني رزقك الله جداً يخدمك به ذوو العقول ولا رزقك الله
 عقلاً تخدم به ذوي الجودود.

وكان يقال: إفراط جد العاقل مضرباً لجد.

وروي أن رجلاً خُيّر في أمر فأبى أن يختار فقال: أنا بجدي أوثق مني بعقلي فأقرعوا.
 وفي الأمثال: أسع بجدل لا بكد أسع بجدل أو دع جلدك لا كدك، الكد أغنى من الجدل.

ويقال: إذا أقبل جد امرء فالأيام تساعده، والأسوء تباعده، وإذا أدبر فالأيام تعاديه،
 والنحوس تراوحه وتغاديه.

واعلم أن زمام الأمور التوفيق ولم ينزل من السماء إلى الأرض أقل من التوفيق وهو
 مقرون بالاجتهاد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(١) الآية.

وروي أن رجلاً قال لعلي بن أبي طالب: أرأيت إن جنبني الهدى وسلك بي طريق الردى
 أحسن لي أم أساء؟

قال علي: إن كنت استوجبت عليه شيئاً فقد أساء وإلا فهو يفعل ما يشاء.

وسأله رجل عن القدر فأعرض عنه فأبى إلا الجواب. فقال علي: أخبرني أخلقك الله
 كيف شئت أو كيف شاء؟ فأمسك الرجل فقال عليّ للحاضرين: أترونه يقول كما شاء إذا والله
 أضرب عنقه؟ فقال الرجل: كما يشاء. قال علي: أحييك كما يشاء أو كما تشاء؟ قال: كما
 يشاء. قال علي: أيمنتك كيف يشاء أو كما تشاء؟ قال: كما يشاء. قال: فيدخلك حيث يشاء
 أو حيث تشاء؟ قال: حيث يشاء. قال: فليس لك من الأمر شيء. وينشد لبيشار بن برد
 الأعمى:

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

طبعت على ما بي غير مخير هواي ولو خيرت كنت المهذب
أريد فلا أعطي وأعطي ولم أرد وقصر علمي أن أنال المغيبا
واصرف عن قصدي وعلمي مقصر وأمسي فما أعقبت إلا التعجبا

واعلم أن الهارب مما هو مقضى عليه كالمقلب في يد الطالب كما قيل :

وإذا خشيت من الأمور مقدراً وفررت منه نحوه تتوجه

وذكر في كتاب سراج الملوك أن رجلاً أدخل من خدمة السلطان بمدينة إسكندرية فظفر به عرفاء فبينما هو يقتادونه إذ مر على بئر فترامى الرجل فيها. قال: ولهذه المدينة أسراب يسير الرجل فيها قائماً من أولها إلى آخرها، فما زال الرجل يمشي تحت الأرض حتى وجد بئراً صاعدة فتعلق بها فإذا هو في دار السلطان فقبضه وأدبه ففر بزعمه من السلطان فمشى إليه طائعاً.

ويقال: وقع الطاعون بالكوفة، فمر ابن أبي ليلى على حمار له يطلب النجاة فسمع منشداً يقول:

لن يسبق الله على حمار ولا على ذي ميعة طيار
أو يأتي الحتف على مقدار فيصبح الله أمام السار

فكرّ راجعاً إلى الكوفة فقال: إذا كان الله أمام السار فلا مهرب.

ومن كتاب الباجي أن رجلاً أراد التوجه إلى أرض بها الطاعون فتردد فحدى به غلام أعجمي فقال:

يا أيها المشعر همّا لا تهم إنك إن تكتب لك الحمّا تحم
ولو علوت شاهقاً من العلم كيف تواقيك وقد جف القلم

وروي في الإسرائيليات أن نبياً مرّ بفخ منصوب وإذا قريب منه طائر فقال الطائر:

يا نبي الله هل رأيت أقل عقلاً من هذا؟ / نصب هذا الفخ ليصيدني فيه وأنا أنظر إليه؟ قال: [٣٢٥] فذهب فرجع وإذا بالطائر في الفخ كذا وكذا. فقال: يا نبي الله إذا جاء الحين لم تبق أذن ولا عين، وبالله التوفيق.

فصل في الرقي والتمائم والطب والكي

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أمرني النبي ﷺ أن أسترقى من العين.

وعن أم سلمة أنه عليه السلام رأى في بيتها جارية في وجهها سعة فقال: «استرقوا لها فإن بها النظرة»^(١).

وعنه عليه السلام: «لو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين»^(٢).

وقال لحاضتي ابني جعفر: «ما لي أراهما ضارعين»^(٣). فقالت: يا رسول الله تسرع إليهما العين، ولا يمتنعنا أن نسترقني لهما إلا أنا لا ندري ما يوافقك. فقال: «استرقوا لهما»^(٤).

وعن ثابت أنه قال: اشتكيت، فقال أنس: ألا أريك برقية رسول الله ﷺ؟

قال: بلى. قال: قل: «اللهم رب الناس مذهب البأس أشف أنت الشافي لا شافي إلا أنت اشف شفاء لا يغادر سقماً»^(٥).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقول للمريض: «بسم الله تربة أرضنا ورقية بعضنا تشفي سقيمنا بإذن ربنا»^(٦).

وروي عنه أنه كان إذا أوى إلى فراشه نفث في كفه بقل هو الله أحد، والمعوذتين جميعاً، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يده من جسده. قالت عائشة: فلما اشتكى كان يأمرني أن تفعل به ذلك.

وروي عن ابن عباس أن نقرأ من أصحاب النبي عليه السلام مروا بماء فيه لديدغ أو سليم.

(١) الحديث عند البخاري (١٧١/٧). والحاكم في المستدرک (٢١٢/٤) والبخاري في شرح السنة (١٦٣/١٢). وفي مصنف عبد الرزاق (١٩٧٦٩).

(٢) أطراف الحديث عند مسلم (في السلام ب ١٦ رقم ٤٢) والترمذي (٢٠٥٩، ٢٠٦٢)، وابن ماجه (٣٥١٠). وأحمد (٤٣٨/٦) والبيهقي في السنن (٣٥١/٩، ٤٣٨) والطحاوي في مشكل الآثار (٧٥/٤) والطبراني في المعجم الكبير (٢٠/١١). والكحال في الأحكام النبوية في الصناعة الطبية (١٥٤/١) والمتقي الهندي في الكتر (١٧٦٦٤، ١٧٦٦٥) وابن عبد البر في التمهيد (٢٦٧/٢، ٢٧١، ٢٤٠/٦، ٢٤٦) والسيوطي في الحاوي (٥٨٠/١) والخراطي في مكارم الأخلاق (٨٩)، والذهبي في الطب النبوي (١٣٥) وعند الحميدي في مسنده (٣٣٠)، وأبي حنيفة في جامع المسانيد (١١٨/١، ١٦٣، ١٧٣)، (٣٠٧/٢). وابن كثير في التفسير (٢٢٩/٨، ٢٣١)، وابن عدي في الكامل للضعفاء (١٥٧٥/٤) والألباني السلسلة الصحيحة (١٢٥٢).

(٣) أطراف الحديث عند القرطبي في تفسيره (٢٢٧/٩) وفي الموطأ (٩٣٩).

(٤) أطراف الحديث عند أبي نعيم في تاريخ أصبهان (٣٥٨/٢). وفي ميزان الاعتدال (٤٦٣٧).

(٥) أطراف الحديث عند أبي داود (٣٨٩٠) وأحمد (١٥١/٣) وفي تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٢٥٧/٤) وعند المتقي الهندي في كتر العمال (٢٨٣٦٧). والسيوطي في جمع الجوامع (٩٦٨٣).

(٦) قال الحافظ العراقي في المعني (ج ١ ص ٥٠٤). طبعة دار الحديث متفق عليه من حديث عائشة.

فقال رجل من أهل الماء: هل فيكم من راق؟ فانطلق رجل منهم فجعل يقرأ بفاتحة الكتاب ويجمع بزاقه فينتفل فيه / فبرء، فاتوا بشاة فقالوا: لا نأخذها حتى نسئل رسول الله. فسألوه [٣٢٦] فضحك وقال: «وما أدراك أنها رقية أصبتم فخذوها واضربوا لي سهماً إن أحق ما أخذتم عليه أجرأ كتاب الله عز وجل»^(١).

وروي أن عائشة رضي الله عنها كانت تثرى البثرة الصغيرة في يدها، فتلع عليها بالتعويذ. فيقال لها: إنها صغيرة. فتقول: إن الله يعظم ما شاء من صغير ويصغر ما شاء من عظيم.

وقال بعض العلماء: استعمل زيد بن أسلم على معدن بني سليم، وكان معدناً لا يزال يصيب الناس من قبل الجن، فشكوا ذلك إلى زيد، فأمرهم بالأذان وأن يرفعوا أصواتهم به ففعلوه فارتفع ذلك عنهم.

وعن ابن عباس أنه قال: مر عيسى عليه السلام ببقرة قد اعترض ولدها في بطنها، فقالت: يا روح الله ادع الله أن يخلصني. فقال: يا خالق النفس من النفس ويا مخرج النفس من النفس خلصها.

فألقت ما في بطنها، فإذا عسر على المرأة ولدها فليكتب لها هذا.

وعن ابن عباس أنه قال: إذا عسر على المرأة ولدها فليكتب لها: بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله الحكيم الكريم سبحانه الله رب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين. ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾^(٢).

﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون﴾^(٣): إلى آخر السورة.

وروي أن جبريل عليه السلام رقى النبي عليهما السلام، فجعل جبريل يقول: بسم الله أرقبك والله يشفيك من كل داء يؤذيك من حاسد وعين.

ولهذا جواز الاسترقاء بما كان من كلام الله عز وجل وكلام رسول الله ﷺ، وأما ما كان بالسريانية والهندية مما لا يعرف معناه فإنه لا يحل اعتقاده عند العلماء والله أعلم.

(١) أطراف الحديث عند مسلم في السلام (ب) ٢٣ / رقم ٦٥) والبخاري (٧٠ / ٧) وأحمد (٤٤ / ٣) وفي فتح

الباري (١٩٨ / ١٠). وفي تفسير القرطبي (١١٣ / ١)، (٣١٨ / ١٠).

(٢) سورة التازعات، الآية: ٤٦.

(٣) سورة مريم، الآية: ٧٥.

[٣٢٧] / وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي عليه السلام كان يأمر بالكلمات من الفزع حين شكى إليه خالد بن الوليد أنه يفزع في منامه. فقال: «بسم الله أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعذابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون».

فكان عبد الله بن عمرو من أدرك من ولده علمه إياهن، وأمره أن يقولهن إذا أراد أن ينام، ومن لم يدرك كتبها وعلقها عليه والله أعلم.

وأما الطب فروي عن النبي عليه السلام أنه قال: «الذي أنزل الدواء أنزل الداء»^(١). وعنه عليه السلام أنه قال: «[الكفاءة] من المن وماءها شفاء للعين»^(٢). وقيل: أنه يخلط في الأدوية.

وروي أنه سئل سهل بن سعد: بأي شيء دوي جرح رسول الله ﷺ لما كسر على رأس رسول الله ﷺ البيضة وأدمى وجهه وكسرت رابعيته.

وكان علي يختلف بالماء في المجين وجاءت فاطمة تغسل عن وجهه الدم، فلما رأته فاطمة الدم يزيد على الماء كثرة عمدت إلى حصير فأحرقته وألصقته على جرح النبي عليه السلام فترق الدم.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما ثقل النبي عليه السلام واشتد عليه وجعه، استأذن أزواجه أن يُمرَّض في بيتي، فأذِنَّ له، فخرج بين رجلين تخط رجلاه في الأرض، فقال النبي عليه السلام بعدما دخل بيتها واشتد وجعه: «اهرقوا عليّ ماء من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعليّ أعهد إلى الناس»^(٣).

(١) ذكر الحافظ نحو هذا في المعنى (ج ٤ ص ٤٣٥ طبعة دار الحديث) وقال في حديث: «ما من داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام». رواه أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود دون قوله: «إلا السام». وهو عند ابن ماجه مختصراً دون قوله: «عرفه... إلى آخره». وإسناده حسن وللترمذي وصححه من حديث أسامة بن شريك «إلا الهرم» وللطبراني في الأوسط والبخاري من حديث أبي سعيد الخدري والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس وستنهما ضعيف، والبخاري من حديث أبي هريرة «ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء» ولمسلم من حديث جابر «لكل داء دواء». وفي حديث بلطف: «تداوا عباد الله...». رواه الترمذي وصححه وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة بن شريك.

(٢) أطراف الحديث عند البخاري (٢٢/٦، ٧٥)، (١٦٤/٧) ومسلم في الأشربة (١٥٧) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٤٥/٩) وابن حجر في فتح الباري (١٦٣/٨)، (١٦٣/١٠) والمتقي الهندي في الكتر (٢٣٨٣٠٨) والسيوطي في الدر المنثور (٧٠/١، ٧٨/٤). وفي شرح السنة للبخاري (٣٣٣/١١) وفي الطب النبوي للذهبي (٧٨). وعنه ابن عدي في الكامل للضعفاء (١٣٥٦/٤، ١٣٥٧، ١٤٥٣، ٢٠٠٠).

(٣) أطراف الحديث عند البخاري (١٦٦/١) والبيهقي في السنن (٣١/١) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين =

قالت: فأجلسناه في مخضب لحفصة زوج النبي عليه السلام، فطفقنا نصب عليه مر تلك القرب حتى جعل يشير إلينا. أن قد فعلتن.

[٣٢٨]

قالت: فخرج / إلى الناس فصلى بهم، ثم خطبهم.

قال: ويحتمل أن يكون النبي عليه السلام أمر أن يصب عليه الماء من القرب التي لم تحلل أو كيتها، مع ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه عليه السلام من تفضيل من لا يكتوي ولا يسترقى لبيّن جواز ذلك مع أن تركه أفضل.

وقد روي عن ابن عباس أنه قال: كويت من ذات الجنب والنبي عليه السلام حيّ، وشهدني أنس بن النضر وزيد بن ثابت وكواني أبو طلحة.

وقد روي أن سعد بن زرارة اكتوي في زمان النبي عليه السلام من الذبحة فمات، وأن عبد الله بن عمر اكتوي من اللقوة ورقي من العقرب، ويحتمل ذلك أن يكون النبي عليه السلام إنما فعل ذلك بوحى أوحى إليه أنه إذا فعل ذلك سيراً ويعهد إلى الناس ويبلغهم ما أمر بتبليغهم، وسائر الناس إنما يقدم على التداوي رجاء أن يبرأ دون قطع بذلك ولا يقين ولهذا تأثير في الشرع.

وقد أباح الله أكل الميتة للمضطر؛ لأنه متيقن زوال جوعه بها، ومنعت العلماء شرب الخمر للعطش والتداوي؛ لأنه غير متيقن ببرء دائه بها والله أعلم.

وقد روي عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الشفاء في ثلاثة: لعقة عسل وشرطة محجم وكية نار وأنا أنهى أمتي عن الكي»^(١).

وفي حديث آخر: «إن كان في شيء من أدويتكم أو يكون في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم وشربة عسل ولدغة نار توافق الدواء وما أحب أن أكتوي».

قال وشكى إلى النبي ﷺ رجل فقال: أخي يشتكي بطنه. قال: «اسقه عسلاً». ثم أتاه

= (٢٨٧/١٠) والبخاري في التاريخ الكبير (٤٠٨/١). وابن سعد في الطبقات (٢٩/٢/٢) والمتقي الهندي في الكتز (٢٨٢٣٤).

(١) أطراف الحديث عند البخاري (١٥٩/٧) وابن ماجه (٣٤٩١) وأحمد (٢٤٦/١) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٤١/٩). والسيوطي في الدر المنثور (١٢٣/٤) وابن حجر في الفتح (١٣٦/١٠، ١٣٧)، والتبريزي في مشكاة المصابيح (٤٥١٦)، والمتقي الهندي في الكتز (٨١٧١) وابن عبد البر في التمهيد (٢٧٤/٥) وابن كثير في التفسير (٥٠٢/٤) والقرطبي في التفسير (١٣٩/١٠).

فقال: «اسقه عسلاً» ثم أتاه الثالثة فقال: «اسقه عسلاً». ثم أتاه فقال: «صدق الله وكذب [٣٢٩] / بطن أخيك اسقه عسلاً»^(١) فسقاه فبرىء.

وعنه عليه السلام أنه قال: «في الحبة السوداء شفاء من كل داء إلاّ السام»^(٢).

قال ابن شهاب: السام الموت والحبة السوداء الشونيز^(٣).

وقد روي أن أقواماً قالوا: لا يجوز شرب الدواء إلاّ لمرض قد وقع بالمرضى وإما شربه لدفع إصابة داء فممنوع، وأجاز ذلك آخرون وهو مثل الحجامة لا تفعل غالباً إلاّ لتوقع داء لم يوجد.

وقد قال عليه السلام: «إن أمثل ما تداويتم به الحجامة والقسط البحري»^(٤).

وقد يصلح الإنسان غرسه بالسقي ويلقح أشجاره وكل ذلك لدفع ما يحذر حدوثه من الفساد.

وعن علي أنه قال: من ابتدأ غذاءه بالملح أذهب الله تعالى عنه سبعين نوعاً من البلاء. ومن أكل كل يوم سبع ثمرات عجوة قتلت كل دابة في بطنه، ومن أكل كل يوم إحدى وعشرين زبيبة حمراء لم ير في جسده شيئاً يكرهه واللحم ينبت اللحم، والثريد طعام العرب، ولحم البقر داء ولبنها شفاء وسمنها دواء والشحم يخرج مثله من الداء، ولن تستشف النفساء بشيء أفضل من الرطب، والسّمك يذيب الجسد، وقراءة القرآن والسواك يذهب البلغم، ومن أراد

- (١) أطراف الحديث عند البخاري (١٥٩/٧، ١٦٦) ومسلم في السلام (٩١) والترمذي (٢٨٢) وأحمد (١٩/٣، ٩٢). والبيهقي في السنن الكبرى (٣٤٤/٩) والحاكم في المستدرک (٤٠٢/٤) والبخاري في شرح السنة (١٤٧/١٢) والسيوطي في الدر المثور (١٢٣/٤) وتفسير ابن كثير (٥٠١/٤).
- (٢) أطراف الحديث عند: أحمد (٤٢٣/٢، ١٤٦/٦). والهيتمي في مجمع الزوائد (٨٨/٥) والمفتي الهندي في الكنز (٢٨٢٥١) وفي تاريخ بغداد للبغدادي (٤٣٧/١١) والبخاري في التاريخ الكبير (١٨٦/٥). والألباني في الصحيحة (١٠٦٩، ١٨١٩).
- (٣) من البزر فارس الأصل وهكذا ينطقونه بضم الشين وهو من شتر بكسر الشين عن أبي حنيفة هذه الحبة السوداء (لسان العرب ٣٦٢/٥).
- (٤) أطراف الحديث عند: البخاري (١٦٣/٧)، والبيهقي في السنن (٣٣٩/٩) والسيوطي في مجمع الجوامع (٦٢٩١) والبرزقي في المشكاة (٤٥٢٢)، والساعاتي في بدائع المنن (١٧٧١) والشافعي في مسنده (١٩١) وشرح السنة للبخاري (١٥٥/١٢). وابن حجر في الفتح (١٤٨/١٠، ١٥٠) والذهبي في الطب النبوي (٧٥) والألباني في الصحيحة (٤٣/٣) وابن أبي حاتم في علل الحديث (٢٢٧٣). وابن أبي شيبة في مصنفه (٤٤١/٧).

البقاء، ولا بقاء إلا لله فليباكر الغداء وليقلل غشيان النساء، وليخفف الردى يعني الدّين .

وروي أن الحجاج قال لبعض الأطباء: صف لي صفة لآخذ بها ولا أعدوها. قال: لا تنكح من النساء إلا فتاة، ولا تأكل من اللحم إلا فتياً، ولا تأكل المطبوخ حتى ينعم نضجه ولا تشرب دواء إلا من علة، ولا تأكل من الفاكهة إلا نضيجاً ولا تأكل طعاماً إلا أجدت مضغه وكل ما أحببت من الطعام ولا تشرب عليه، فإذا شربت / فلا تأكل عليه شيئاً ولا تحبس [٣٣٠] الغائط والبول، فإذا أكلت بالنهار فتم وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة وتقول العرب في معناه: تغدّ تمدّ تعشّ تمش، يعني تمدد .

وقال حكيم لسمين: أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك فما هي؟ قال: أكل لباب البر، وصغار المعز، وأدهن بجام بنفسج وألبس الكتان .

قيل لأعرابي: ما أسمنك؟ قال: أكلي الحار وشربي الفار والإتكاء على شمالي .

ويقال: أربعة تقوي البدن: أكل اللحم، وشم الطيب، وكثرة الغسل من غير جماع، وليس الكتان .

وأربعة تهين البدن: كثرة الجماع، وكثرة الهم، وكثرة شرب الماء على الريق، وكثرة أكل الحموضة .

ويقال خمس خصال تهدد العمر وربما قتلن: دخول الحمام على البطنة، والمجامعة على الامتلاء وأكل القديد الجاف، وشرب الماء البارد على الريق، ومجامعة العجوز .

وعن قتيبة قال: ثلاثة يورثن الهزال: شرب الماء على الريق، والنوم على غير وطاء، وكثرة الكلام برفع الصوت .

وقال يحيى بن خالد: شيان يورثان العقل: التين اليابس إذا أكل ودخان اللبان إذا بخر به .

وسبعة أشياء تفسد العقل: الإكثار من أكل البصل، والبقلاء، والجماع، والخمر، وكثرة النظر في المرأة، والاستفراغ في الضحك، ودوام النظر في البحر .

وفي الحديث: «ثلاثة أشياء تورث النسيان أكل التفاح، وسور الفار، ونبذ القملة» .

وفي رواية أخرى: «والحجامة على النقرة، والبول في الماء الراكد» .

وقال ابن قتيبة: إذا خرج الطعام قبل ست ساعات فهو مكروه، وإذا بقي أكثر من أربع وعشرين ساعة فهو ضرر والله أعلم .

[٣٣١] وهذا الذي قدمناه من الأدوية مباح / استعملها، وإن ترك المداوات ابتكالا على الله ورضى بقضائه فذلك من أعلى مقامات التوكل.

وقد قيل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه في مرضه ألا ندعو لك طبيبا؟ قال: قد دعوته. قيل: فما قال لك. قال: قال لي إني فَعَالَ لما أريد.

وقيل لأبي الدرداء: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قيل: فما تشتهي؟ قال: الجنة. قيل: ألا ندعو لك طبيبا؟ قال: هو الذي أضجعني. وقيل لبعض الأطباء وقد أنهكته علة ألا تعالج؟ قال: إذا كان الداء من السماء بَطُل الدواء، وإذا قدر الرب بطل حذر المربوب، ونعم الدواء الأمل، وبس الدواء الأجل. وينشد:

ما للطبيب يموت بالداء الذي قد كان يبرأ مثله فيما مضى
هلك المداوي والمداوي والذي جلب الدواء وباعه ومن اشترى

فصل

فيما ورد من النهي عن التصديق بالنجوم والكهانة وفي الحديث أن النبي ﷺ صلى الصبح بالحدبية على أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على القوم فقال: «هل تدرون ما قال ريكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم بالغيب قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن به وكافر بالكوكب وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب»^(١).

وذكر أهل العلم في معنى هذا الحديث: إن من جعل الفعل للكواكب أو قضى بتزول المطر عن حلول الكوكب في موضع من المواضع فهو كافر بالله. وأما من وصف ذلك بأن الله ينزل المطر متى ما شاء ويمسكه متى ما شاء ولا فعل فيه ولا تأثير للكوكب ولا لغيره، ولكن الله أجرى العادة بإرساله المطر في أوقات ما، وإمساه في أوقات ما.

[٣٣٢] / وأن هذا هو الأغلب مما أجرى الله العادة به، وأنه قد تنقض هذه العادة؛ لأنها ليست

(١) أطراف الحديث عند الطبراني في الكبير (٢٨١/١٠)، (١٩٠/١٩)، (١٤٣)، والهيتمي في مجمع الزوائد (٣٠٢/١). والمتقي الهندي في الكنز (٣٠٤٨، ١٩٠٣٠، ١٩٠٣٢) والسيوطي في الدر المشور (١/٢٩٦، ٢٩٥/١) وفي الإتحافات السنية (٢٨١، ٢٨٢) وعند البيهقي في الأسماء والصفات (١٣٤)، والسهمي في تاريخ جرجان (٢٩٦).

بلازمة وإنما هي غالب الحال وكذا في أوقات الأنواء ويّين ذلك قوله عليه السلام في حديث آخر: «أن نشأت بحرية ثم تشامت فتلك عين غديقة».

فحكم على السحاب إذا كان على هذه الصفة بالغدق، وكثرة المطر؛ لأن هذا هو غالب عادة تلك الجهة لا أن لكونها بحرية وتشامها بعد ذلك تأثيراً في نزول المطر أو كثرته أو قلته.

وعن عبد الله بن عمر عن النبي عليه السلام أنه قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله لا يعلم أحد ما يكون في غد ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام ولا يعلم أحد ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت وما يدري أحد متى يجيء المطر»^(١).

وسئل بعض العلماء عن الرجل ينظر في النجوم فيقول: الشمس تكسف غداً، والرجل يقدم وما أشبه ذلك. فقال: أرى أن يزجر عن هذا، فإن لم يزجر أدب والله أعلم. وينشد لمنصور:

من كان يخشى زحلاً أو كان يرجو المشتري
فإنني منه وإن كان أبى الأذنَى بري
وله:

وليس للنجم إلى ضر ولا نفع سبيل
وإنما النجم على الأو قات والسمت دليل

وأما الكهان فقد روي عن عائشة أن أناساً سألوا النبي عليه السلام عن الكهان فقال: «ليسوا بشيء» فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدثون أحياناً بشيء فيكون. فقال: «تلك الكلمة من الجن يخطفها الجني فيقرأها في أذن وليه فيخطون معها مائة / كذبة»^(٢).

[٣٣٣]

وقال عليه السلام: «من أتى عزافاً أو كاهناً وصدقه فيما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»^(٣). قال الشاعر:

(١) أطراف الحديث عند البخاري (٩٩/٦، ١٤٢/٩). وابن حجر في الفتح (٢٧٥/٨)، (٣٦١/١٣). والسيوطي في الدر المثور (١٦٩/٥). وأحمد (٥٢/٢)، وتفسير الطبري (٥٦/٢١). والبغوي في شرح السنة (٤٢٢/٤).

(٢) أطراف الحديث عند البخاري (٥٨/٨). مسلم السلام (ب) (١٢٣/٢٥) وأحمد (٨٧/٦). والطحاوي في مشكل الآثار (١١٤/٣). وعبد الرزاق في مصنفه (٢٠٣٤٧). وابن حجر في الفتح (٥٩٥/١٠).

(٣) أطراف الحديث عند: البيهقي (٨: ١٣٨) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٦/٤) والحاكم في المستدرک (٨/١) والمفتي الهندي في الكنز (١٧٦٧٨).

لا يعرف المرء يوماً ما يتممه إلا كواذب ما يخبره الفال
والفال والزجر والكهان كلهم مضللون ودون الغيب أفعال
وقد قال تعالى: ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَن آتَيْنَاهُ مِن رُّسُولِنَا﴾^(١)
الآية.

وقد قال: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٢).
وأحسب أنني رأيت عن جابر بن زيد أنه لا يفرق بين الساحر والمنجم في الضلال والله أعلم.

فصل في الفال والطيرة

قال الله سبحانه: ﴿قَالُوا أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٣). وقال: ﴿وَإِن تُصِيبْهُمْ سَيْئَةٌ يَكْفُرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَّعَهُ...﴾^(٤) الآية.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفر من الجذام فرارك من الأسد»^(٥).

قال اعرابي: يا رسول الله فما بال الإبل تكون في الرمال لكانها الظباء فيخالطها البعير الأجرب فيجربها؟ فقال عليه السلام: «فمن أعدى الأول»^(٦). فالعدوى: هو ما يظنه الناس من تعدي العلل، والأمراض فأخبر أنه لا يعدي. فقيل: يا رسول الله: إنا نرى النقرة من الجرب في مشفر البعير فيعدي إلى جميعه، قال: «فما أعدى الأول».

(١) سورة الجن، (الآيتان: ٢٦، ٢٧).

(٢) سورة النمل، الآية: ٦٥.

(٣) سورة النمل، الآية: ٤٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٣١.

(٥) أطراف الحديث عند البخاري (ج ١٦٤/٧) أحمد (٢٢/٢، ٢٢٢، ٤٣٤) وابن ماجه (٨٦، ٣٥٣٩، ٣٥٤٠) والطبراني في الكبير (٥٤/١٧) والهيتمي في مجمع الزوائد (١٠٢/٥) والبيهقي في شرح السنة (١٦٧/١٢) والتبريزي في مشكاة المصابيح (٤٥٧٧) والألباني في الصحيحة (٧٨٢ و ٧٨٣) والمنتقي الهندي في الكثر (٢٨٦/٤)، ٢٨٥٩٩، ٢٨٦٠٠، ٢٨٦٠٣، ٢٨٦١١، ٢٨٦١٢، ٢٨٦٢٢، ٢٨٦٢٣، وابن حجر في الفتح (٢١٥/١٠)، ١٥٨) والزليفي في نصب الراية (٢٥٥/٣).

(٦) أطراف الحديث عند: البخاري (١٦٦/٧)، ١٧٩، ١٨٠) ومسلم في السلام (١٠١) وأبو داود في الطب (ب) (٣٤) وابن ماجه (٣٥٤٠) وأحمد (٢٦٩/١)، ٣٢٨، ٤٣٤/٣) والبيهقي (٢١٦/٧)، ٢١٧) وابن حجر في الفتح (١٦١/١٠).

وأما الطيرة: فإن العرب كانت إذا أرادت سفرأ نفرت أول طائر تلقاه فإن طار يمته سارت وتيامنت وإن طار شامة رجعت وتشامت فنهى النبي عليه السلام عن ذلك فقال: «أقروا الطير على وكناتها»^(١).

وقد روي أن النابغة الذبياني تجهز هو، وزيان بن يسار الفزاري / للغزو فسقطت على [٣٣٤] النابغة جرادة فقال: جرادة تجرد وذات لونين، فتطير وبقي فمضى زيان ورجع فقال:

تخير طيرة فيها زياد	لتخبره وما فيها خبير
أقام مكان لقمان بن عاد	أشار له بحكمته مشير
تعلم أنه لا طير إلا	على متطير وهو الثبور
بلى شيء يوافق بعض شيء	أحايينا وباطله كثيرا
ومن يترح به لا بد يوماً	يجيء به نعمى أو بشير

وحكي عن عكرمة قال: كنا جلوساً عند ابن عباس فمر طائر يصيح فقال رجل من القوم: خير. فقال ابن عباس: لا خير ولا شر.

واعلم أنه لا شيء أفسد للرأي، وأضر بالتدبير من اعتقاد الطيرة، ومن ظن أن خوار بقرة أو نعيق غراب يرد قضاء أو يدفع مقدوراً، فقد جهل حكم الله وساق إلى نفسه الحرمان، واتسم بالإدبار بل قضاء الله نافذ قال الشاعر:

طيرة الناس لا ترد قضاء	فاعذر الدهر لا تسبه بلوم
أي يوم تخصصه بسعود	والمنايا ينزلن في كل يوم
ليس يوم إلا وفيه سعود	ونحوس تجري لقوم وقوم

وقد كانت الفرس فيما بلغنا أكثر الناس طيرة.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ظنتم فلا تحققوا وإذا حسدتم فلا تبغوا وإذا تطيرتم فامضوا وعلى الله توكلوا»^(٢).

فينبغي لمن مني بالطيرة وبلي بها أن يصرف عن نفسه وسواوس النوكا، ودواعي الخيبة والحرمان ولا يجعل للشيطان سلطاناً عليه في نقض عزائمه ومعارضة خالقه / وليعلم أن [٣٣٥]

(١) أطراف الحديث عند: الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠٦/٥).

(٢) أطراف الحديث عند العجلوني في كشف الخفا (١١١/١) وابن عبد البر في التمهيد (١٢٥/٦).

قضاء الله نافذ ورزق العبد له طالب وأن الحركة سببه فلا يثنيه عنها ما لا يضر مخلوقاً ولا يدفع مقدوراً، وليمض في عزائمه وانقأ بالله تعالى إن أعطى وراضياً به إن منع. وينشد:

وما عاجلات الطير تدني من الفتى نجاحاً ولا عن ريثهن يخيب
ولا خير فيمن لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب
ورب أمور لا تضيرك طيرة وللقلب من مخشاتهاهن وجيب

فإن قال قائل: إن النبي عليه السلام قال: «لا يردن هائم على مصح»^(١). قيل له: يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون الله تعالى قد أجرى العادة بمرض الصحيح عند مجاورة المريض بنوع من الأمراض له.

والثاني: يحتمل أن يريد به ما يطرأ نفسه على نفس المصحح من الإشفاق والمخافة فنهى عن ذلك لأجل الأذى والله أعلم.

وأما الهامة المذكورة في الحديث المتقدم فهو ما كانت العرب في الجاهلية تعتقده أن القتل إذا ظل دمه ولم يؤخذ بثأره صاحته هامة من القبر اسقوني. قال الزبير بن برد:

يا عمرو ألا تدع شمتي ومقتتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

وفي كتاب المسعودي^(٢) قال: وزعمت طائفة من العرب أن النفس طائر ينبسط في جسم الإنسان فإذا مات لم يزل طائفاً به متصوراً في صورة طائر يصرخ على قبره ويسمونه الهامة ويزعمون أنه يكون صغيراً ثم يكبر حتى يصير كالبوم، فأبطل النبي عليه السلام ذلك فقال: «لا هامة ولا صفر»^(٣).

[٣٣٦] وهي كالحية تكون في الجوف تصيب الماشية والناس وهي عندهم أعدى / من الجرب. قال الشاعر:

لا يشار لما في القدر يرقبه ولا يعرض على شر سوفه الصفر

(١) أخرجه الربيع بن حبيب في مسنده (٢٠/١).

(٢) راجع معجم المؤلفين (ج ٧ ص ٢٧٢، ١٠ ص ١٢٦، ١٥٥، ٢٢٤، ٢٥٩، ١٧/١٢) وإن كان الراجح أن المؤلف يريد السمودي - علي بن الحسين - أبو الحسن ٣٤٥.

(٣) أخرجه أحمد (٣٢٨/١، ٤٤٠).

وينبغي للإنسان بل يجب عليه أن يتوكل على الله، ولا يتطير وقد قال عليه السلام: «كفارة الطيرة التوكل على الله».

وليلق الإنسان إذا عارضه في الطيرة ما يكره عنه عليه السلام أنه قال: «من تطير فليقل: اللهم لا طير إلا طيرك ولا يأتي بالخيرات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»^(١).

وروي أن رجلاً جاء إلى النبي عليه السلام فقال: يا رسول الله إنا نزلنا دار فكثر فيها عددنا وأموالنا ثم تحولنا إلى أخرى فقلّت فيها أموالنا وعددنا. فقال عليه السلام: «ذروها ذميمة»^(٢).

وليس هذا منه على وجه الطيرة ولكن على طريق التبرك بما فارق وترك ما استوحش عنه إلى ما أنس به والله أعلم.

وأما الفأل: ففيه تقوية على العزم وباعث على الجهد ومعونة على الظفر، وقد روي أن النبي عليه السلام كان يتفاءل في غزواته وحرابه.

وروي أنه سمع كلمة فأعجبته فقال: «أخذنا فالك من فيك»^(٣).

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «من يحلب هذه اللقحة؟» فقال رجل: أنا، فقال: «ما اسمك؟» فقال: موت، فقال: «اجلس»، ثم قال: «من يحلب هذه؟» فقام رجل فقال: أنا، فقال: «ما اسمك؟» قال: يعيش، فقال له: «احلب».

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لرجل: ما اسمك؟ قال: جمرة. قال: ابن من؟ قال: شهاب. قال: من من؟ قال: من الحرقة. قال: /أين مسكنك؟ قال: بحرّة النار. [٣٣٧] قال: بأبيها؟ قال: بذات لظى. قال عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا. فكان كما قال عمر رحمه الله.

قال بعض الحكماء: فقد فرّق الحُذّاق من أهل النظر بين الطيرة والفأل.

- (١) أطراف الحديث عند ابن حجر في الفتح (٣٨/٤، ٢١٣/١٠) وابن سعد في الطبقات (١٣/٢/٤).
- (٢) أطراف الحديث عند أبو داود (٣٩٢٤) الطبراني في الكبير (٢٤٧) والتبريزي في مشكاة المصابيح (٤٥٨٩) والعتقي الهندي في الكنز (٢٨٥٧/٨، ٣٩٢٤) والألباني في الصحيحة (٧٩٠).
- (٣) أطراف الحديث عند أبو داود (٢٩١٧)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٨٥، ٢٨٦)، والعمجلوني في كشف الخفا (٦٨/٢) والزبيدي في الإنحاف (٥٥٦/١٠) والعتقي الهندي في الكنز (٢٨٥٨٢).

فقال: الطيرة كانت العرب ترجع إلى ما تمضيها، وتجري على ما تقضيها، فمن هم بهم فرأى ما يتطير منه رجع عنه.

والفأل لا يرد المرید عما يريده، وإنما يقوي مته، ويسر مهجته.

وينبغي لمن تفاعل أن يتأول الفأل بأحسن التأويل ولا يجعل لسوء الظن إلى نفسه سبيلاً، وقد قال النبي عليه السلام: «إن البلاء وكل بالمنطق»^(١).

وقد حكى أن يوسف عليه السلام شكى إلى الله سبحانه طول السجن فأوحى الله إليه: يا يوسف أنت حبست نفسك قلت: ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾^(٢). لو قلت: العافية أحب إلي لعوفيت. وحكى أن المؤمل بن إميل الشاعر لما قال:

شف المؤمن يوم الحيرة النظر ليت المؤمل لم يخلق له بصر
عمي، فاتاه آت في منامه فقال: هذا ما طلبت.

وحكى أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك تفاعل يوماً في المصحف، فخرج قوله عز وجل: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾^(٣) فمزق المصحف وأنشأ يقول:

أتوعد كل جبار عنيد فهأ أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يلبث أياماً إلاً وقتل شر قتلة وصلب رأسه على قصره ثم على سور بلده فنعوذ بالله من غضبه.

واعتمد يا أخي على الله تعالى وتوكل عليه فإنه لا راد لأمره ولا معقب لحكمه، وينشد:

قالوا: تقيم وقد أحاطت بالعلمم والشيوخ ما
لم يتفجع بالعلمم غرت لا نلت خيراً ما بقي
إن كنت أعلمم أن غرت غيرهم
غيره:

ما قدر الله لا بد يدركني من ذا الذي يدفع المقدور بالحذر

[٣٣٨]

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٧/٣٨٩).

(٢) سورة يوسف، الآية: ٣٣.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ١٥.

الله أولى بنا من أنفسنا إن نحن إلا ممالك لمقتدر
غيره:

أقام عن المسير وقد أنيخت مطاياها وغرد حاديها
وقال أخاف عادية الليالي على نفسي وأن ألقى رداها
مشينا في خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطأ مشاها
وأرزاق لنا قسمت علينا فمن لم تأته منا أتاها
ومن كتبت منيته بأرض فليس يموت في أرض سواها
غيره:

ليس كل الذي بدار من الأمر رر علينا يوافق المقدر
قدر الله ما لنا وعلينا قبل أن يرم العدو الأمور

فصل في الرضى بقضاء الله والتسليم لأمره

اعلم يا أخي أن كفاية ما يجري به المقادير هو الرضى بقضاء الله فيها، والتسليم لأمره تعالى.

وقد روي عن ابن عباس أنه قال: أول ما كتب الله في اللوح المحفوظ: أنا الله لا إله إلا أنا وأن محمد رسولي، من استسلم لقضائي، وشكر نعمائي، وصبر لبلائي كتبه صديقاً، ومن لم يستسلم لقضائي، ولم يصبر على بلائي، ولم يشكر نعمائي فليخذ رياءً سواي.

ويروي أن عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص، مقعد، مضروب الجنين / يعالج [٣٣٩] وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه. فقال له عيسى عليه السلام: أي شيء من البلاء أراه مصروفاً عنك. فقال: يا روح الله أنا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته. فقال له: صدقت هات يدك، فناوله يده فإذا هو أحسن الناس وجهاً وأفضلهم هيئة قد أذهب الله عنه ما كان به، فصحب عيسى عليه السلام وتعبد به.

فالواجب على العبد أن يرضى بقضاء الله عز وجل لأمرين:

أحدهما: ليتفرغ للعبادة؛ لأنه إذا لم يرض بالقضاء يكون مشغول القلب مهموماً أبداً بأنه لم كان كذا وكذا، ولم لا يكون كذا وكذا، وقد قال بعض العلماء: إن حسرة الأمور الماضية وتدبير الآتية قد ذهبت ببركة ساعتك.

والثاني من الأمرين: خطر ما في السخط من عذاب الله تعالى، وقد روي في الخبر أن نبياً من الأنبياء شكى إلى الله سبحانه ما ناله من المكروه فأوحى الله تعالى إليه: إلى كم تشكوني ولست بأهل ذم ولا شكوى، هكذا كان بدء شأنك في علم الغيب فكم تسخط قضائي عليك أتريد أن أغير الدنيا لأجلك أو أبذل اللوح المحفوظ بسببك، فأقضي ما تريد دون ما أريد فبعزتي حلفت لئن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأسلبك ثوب النبوة، ولأوردك النار ولا أبالي.

يا أخي انظر إلى هذه السياسة العظيمة، والوعد الهائل مع أنبيائه وأصفيائه فكيف ما غيرهم، ثم استمع ما يقول: لئن تلجلج في صدرك مرة أخرى.

[٣٤٠] هذا في حديث النفس فكيف بمن يصرخ ويستغيث / ويشكو وينادي بالويل والصراخ من ربه على رؤوس الملأ، ويتخذ على ذلك أعواناً وأصحاباً، هذا لمن سخطه مرة فكيف بمن هو في السخط على الله تعالى طول عمره، وهذا لمن شكى إليه فكيف بمن شكى إلى غيره نعوذ بالله من شرور أنفسنا وينشد:

إن شئت أن تقضي محياك طيبة فاعط الرضى بالذي يرضى به الله
فاختر إرادته فيما كرهت وما احببت فالخير فيما الله أولاه

وقال بعض الحكماء: العالم بالله تعالى يعمل على بصيرة الإعطاء والمنع عنده سواء.
وقال بعضهم: من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء، وقال بعض العلماء: الرضى عن الله، والرحمة للمخلوقين درجة المرسلين. وقال بعضهم:

رضيت بما قسم الله لي وفوضت أمري إلى خالقي
كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي

فإن قيل: ما معنى الرضى بالقضاء وحكمه؟ فاعلم أن أهل العلم قالوا: الرضى ترك السخط والسخط ذكر غير ما قضى الله بأنه أولى به وأصلح له فيما لا يستيقن فساده وصلاحه هكذا الشرط فيه.

فإن قيل: أليس الشرور والمعاصي بقضاء الله وقدره فكيف يرضى العبد الشرور ويلزمه ذلك؟

فاعلم أن الرضى إنما يلزم بالقضاء، وقضاء الشر ليس بشر فإنما الشر هو المقضى فلا

يكون رضى بالشر حيثئذ، وقد قالت المشايخ المقتضيات أربع: نعمة وشدة وخير وشر.

فالنعمة يجب الرضى فيها بالقاضي والقضاء والمقضي وعليه الشكر من حيث أنه نعمة.

والشدة يجب الرضى فيها بالقاضي والقضاء والمقضي وعليه الصبر من حيث أنه شدة، والخير

يجب عليه فيه الرضى بالقاضي والقضاء / والمقضي وعليه ذكر المنة من حيث أنه خير مقضي [٣٤١]

ووقفه الله له، والشر يجب عليه فيه الرضى بالقاضي والقضاء والمقضي من حيث أنه مقضي لا

من حيث أنه شر والله أعلم.

وجملة الأمر أن أفعال الله تعالى على وجهين نعمة ونقمة، فالواجب على العبد أن يعلم

أن كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، ويرضى بذلك ولا يجور الله تعالى ولا يسخط

فعله، فإن فعل فهو هالك وبالله التوفيق وهو حسبي ونعم الوكيل.

القنطرة الثالثة عشرة قنطرة الخوف والرجاء

وتسمى قنطرة البواعث وذلك أن العبد لما قطع قنطرة العوارض، ورجع إلى العبادة، فنظر فإذا النفس كسلى فاترة لا تنشط للخير، ولا تنبعث للعبادة كما يجب وينبغي، وإنما ميلها أبدأ إلى غفلة وراحة وبطالة، بل إلى شر وفضول ويلية وجهالة، فاحتاج معها هاهنا إلى سائق يسوقها إلى الخير والطاعة، وينشطها له، وإلى زاجر يزجرها عن الشر والمعصية ويفترها عنه وهما: الخوف من عذاب الله والرجاء في ثوابه عز وجل مع توابعهما من العذر والإشفاق من مكر الله، والمجبة، والشوق إلى لقائه. فينبعث من هذه القنطرة بابان:

أحدهما: باب الخوف.

والثاني: باب الرجاء.

الباب الأول في الخوف

اعلم أن منازل العباد عند الله على قدر مخافتهم منه، وأعلمهم به أبعدهم أماناً من مكروه [٣٤٢] ومخافة / عقابه وقد ذكر الله عز وجل أقواماً ووصفهم بالوجل عند ذكره والإشفاق من عذابه فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾^(١). أي رقت لله مخافة من عذابه. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ يُشْفِقُونَ﴾^(٢).

وروي عنه عليه السلام أنه قال: «يقول الله عز وجل وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمتين إن أمتني في الدنيا أخفته في الآخرة وإذا خافني في الدنيا أمتته في الآخرة».

(١) سورة الأفعال، الآية: ٢.

(٢) سورة المعارج، الآية: ٢٧.

وعنه عليه السلام أنه قال: «ما جاءني جبريل قط إلا وهو يرتعد فرقاً من الجبار جل جلاله»^(١).

وعنه عليه السلام أنه قال: «المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه»^(٢).

وعن وهب بن منبه أنه قال: لما اتخذ الله إبراهيم خليلاً كان يسمع خفقان قلبه من بعيد. وروي أن النبي عليه السلام قرأ يوماً: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾^(٣). فصعق به.

وقال بعض الحكماء: إن لله عبادة أسكتهم خشية من غير عي بهم ولا بكم، وإنهم لهم النبلاء الفضحاء العالمون بالله وآياته، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله تعالى عز وجل تقطعت قلوبهم وكلت ألسنتهم وطاشت عقولهم فرقاً من الله عز وجل وهيبة له. وأنشد في أصحاب أبي بلال مرداس رحمه الله:

ألا في الله لا في الناس شالت	بداود وإخوته الجذوع
مضوا قتلاً وتمزيقاً وصلبا	تحوم عليهم طير وقوع
أطار الخوف نومهم فقاموا	وأهل الأمن في الدنيا هجوع
إذا ما الليل أظلم كابدوه	فيسفر عنهم وهم ركوع

/ وروى والله أعلم لما ظهر على إبليس لعنه الله ما ظهر طفق جبريل وميكائيل يبيكان [٣٤٣] زماناً طويلاً فأوحى الله تعالى إليهما: ما لكما تبكيان كل هذا البكاء؟ فقالا: يا ربنا لا نأمن منكرك. فقال الله لهما: وكذلك كوننا لا نأمننا منكركي.

وعن حاتم الأصم أنه قال: لا تغتر بموضع صالح فلا مكان أصلح من الجنة، فلقى آدم فيها ما لقي، فلا تغتر بكثرة العلم؛ فإن بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي، ولا

(١) قال الحافظ العراقي في نحوه في المعني (ج ٤ ص ٢٧٩). لم أجد هذا اللفظ وروى أبو الشيخ في كتاب العظمة عن ابن عباس قال: إن جبرائيل عليه السلام يوم القيامة لقاتم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترتعد فرائضه فرقا من عذاب الله الحديث. وفيه زميل بن سماك الحنفي يحتاج إلى معرفة.

(٢) قال الحافظ العراقي في المعني (ج ٣ ص ٣١٧ طبعة دار الحديث). أخرجه البيهقي في الشعب من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ وفيه انقطاع.

(٣) سورة المزمل، (الآيتان: ١٢، ١٣).

تفتت بروية الصالحين، فلا شخص أكبر من المصطفى عليه السلام، فلم يتفجع بقلائه أقرابه وأعدائه.

وقال معاذ بن جبل رحمه الله: إن المؤمن لا يطمئن قلبه ولا تسكن روعته حتى يخلف جسر جهنم.

وقال بعض العلماء: ليس الخائف الذي يبكي ويعصر عينيه، ولكن الخائف من ترك ما يخاف أن يعذب عليه.

وقال الحكيم: من خاف الله هرب إليه ومن خاف من شيء هرب منه، ويقال علامة الخوف الحزن الدائم.

وسئل ذو النون: متى يتيسر على العبد سبيل الخوف؟ قال: إذا أنزل نفسه منزلة السقيم، يختفي من كل شيء يخاف منه طول السقم.

وقال بعضهم: ما فارق الخوف قلباً إلا خرب.

وقال حاتم الأصم: لكل شيء زينة، وزينة العبادة الخوف.

وقال بعض العلماء: صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهراً منها وباطناً.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قلت يا رسول الله: الذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة، هو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر؟ قال: «لا ولكن الرجل يصوم ويتصدق ويصلي ويخاف أن لا يقبل منه ذلك»^(١).

[٣٤٤] وروي عن النبي ﷺ: أن جبريل عليه السلام كان عنده فصار مثل / الفرخ فقال له: «مالك؟» قال: هبط إسرافيل إلى الأرض ولم يهبط قلبها، فظننت أنه أمر بي ثم بكى. فقال: إبليس عبد الله ثمانين ألف سنة ثم صار إلى ما صار إليه، فما زالا يبيكان حتى ناداهما مناد من السماء: قوماً فإن الله أمكنكما أن يتليكما بمعصية فيعذبكما عليهما»^(٢). والله أعلم.

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور (١١/٥).

(٢) أطراف الحديث عند البخاري (١٣٢/٧) وأبو داود في الخراج (ب ٢٠). والنسائي في الصيام (ب ٨٣). وابن ماجه (٥٣٥، ٢٦٨٠). وأحمد (٢٠٨/٢، ٤٣٤/٦) والبيهقي في السنن (٢٢٤/٤، ٨٠/١٠) وابن سعد في الطبقات (٢٠٣/٨) وأبي حنيفة في جامع المسانيد (٢٦٣/١) والطبراني في المعجم الكبير (٣٧/٧) والهيثمي (٢٥٤/٥، ٢٧٠/٩، ١٦١/١٠) والزيدي في الإتحاف (١٨٨/٧). والمفتي الهندي في الكتر (١٣٧٤٢، ٣٧٨٠٢) وابن كثير في التفسير (١٣٣/٢).

فصل

اعلم أن استقامة العبادة لا تصح لطلبها إلا باستشعار الخوف والرجاء والتزامهما، أما الخوف فيجب التزامه لأمرين:

أحدهما: الزجر عن المعاصي فإن هذه النفس الأتارة بالسوء ميالة إلى الشر، طماحة إلى الفتنة، لا تنتهي عن ذلك إلا بتخويف عظيم، وتهديد بالغ، وليست هي في طبعها حرة بيهما الوفاء ويمنعها الحياء عن الجفاء، وإنما هي كما قال القائل:

العبد يقرع بالمعصى والحر تكفيه الملامه

والتدبير في أمرها أن تقرعها أبداً بسوط التخويف قولاً وفعلاً نحو ما ذكر عن بعض الصالحين أن نفسه دعت إلى معصية، فانطلق ونزع ثيابه وجعل يتمرغ في الرمضاء ويقول: ذوقني فإن نار جهنم أشد حراً من هذه يا جيفة بالليل بطالة بالنهار.

والثاني: لثلا تعجب بالطاعة فتهلك، بل يقمعها بالذم والعتب والنقص من الأسواء والأوزار التي فيها ضروب الأخطار، وذلك نحو ما ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: «لو أخذني الله أنا وأخي عيسى بما عملت هاتان الأصبعان لعذبنا بعذاب لم يعذب به أحد».

وعن الحسن كان يقول: ما يؤمن أحدنا أن يكون قد أصاب ذنباً، فأطبق باب المغفرة دونه وهو يعمل في غير معمل.

وعن ابن السماك فيما يعاتب به نفسه: تقولين قول الزاهدين، وتعملين عمل المنافقين، وفي الجنة تطمعين، هيهات هيهات إن للجنة قوماً آخرين ولهم أعمال غير / ما تعملين. [٣٤٥]

فهذه وأمثالها مما يلزم العبد تذكيرها للنفس وتكريرها عليها لثلا تعجب بطاعة الله أو تقع في معصيته.

وعن ابن المبارك أنه قال: الذي يهيج الخوف حتى يسكن في القلب دوام المراقبة في السر والعلانية وقد فرض الله على العباد أن يخافوه وقال تعالى: ﴿وَتَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١) ﴿وَلِيَايَ فَآرَهُبُونَ﴾^(٢) وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُونِ﴾^(٣) في أمثالها.

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٠.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

ومن الآيات التي تهيح الخوف نحو قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾^(١).

وكقوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾^(٢).

ونحو قوله: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَخْتَسِبُونَ﴾^(٣).

وقوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾^(٤).

في أمثالها فينبغي للإنسان أن يتفكر فيما أوردناه من الأخبار والآيات حتى يتمكن الخوف من قلبه، ويتفكر أيضاً في أفعال الله سبحانه ومعاملاته أصنافاً من خلقه:

من ذلك أولاً إبليس اللعين الذي عبّد الله سبحانه في كتب أصحابنا ستة آلاف سنة أو ما شاء الله، وفي كتاب الغزالي ثمانين ألف سنة، فلم يترك الله تعالى موضع قدم إلاّ وسجد لله تعالى فيه سجدة، ثم ترك له أمراً واحداً فطرده عن بابه ولعنه إلى يوم الدين، وأعد له عذاباً أبدياً الأبدية.

ثم آدم عليه السلام صفيه ونيه الذي خلقه بيده وأسجد له ملائكته، فأكل أكلة واحدة لم يأذن له فيها، فنودي أن لا يجاورني من عصاني فاهبط إلى الأرض، فلم تقبل توبته فيما روي حتى بكى على ذلك ماتى سنة، ولحقه من الهوان ما لحقه، فبقيت ذريته في تبعات ذلك إلى الأبد.

ثم إن نوحاً شيخ المرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين الذي احتمل من أمر الدين ما احتمل لم يقل إلاّ كلمة واحدة على غير وجهها إذ نودي: ﴿فَلَا تَسْتَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾^(٥) الآية. حتى روي أنه لم يرفع رأسه إلى السماء حياءً من الله أربعين سنة.

[٣٤٦] ثم إبراهيم خليل الرحمن لم تكن منه إلاّ هفوة واحدة، ويقال: ثلاث هفوات / كلها يماحل بها عن الدين: وذلك قوله حين كسر الأصنام وعلق الفأس على الكبير منها، فلما قيل له: ﴿عَأْتَتْ فَعَلَّتْ هَذَا بِالْهَيْتَا يَا إِبْرَاهِيمَ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾^(٦). وقوله مكرراً بهم: ﴿إِنِّي

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٣.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٢٣.

(٥) سورة هود، الآية: ٤٦.

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٦٣.

سَقِيمٌ ﴿١﴾. وقوله للجبار في امرأته: إنها أحتي، فكم خاف وتضرع وقال: ﴿وَالَّذِي أطمَعُ أَنْ يُغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ ﴿٢﴾.

حتى روي أنه كان يبكي من شدة الخوف، فيرسل الله تعالى إليه الأمين جبريل عليه السلام فيقول: يا إبراهيم هل رأيت خليلاً يعذب خليله بالنار؟ فيقول: يا جبريل إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلته.

ثم موسى عليه السلام، لم تكن منه إلا وكزة الكافر بالله قبطي، إلا أنه لم يؤمر بذلك، فكم خاف واستغفر وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ ﴿٣﴾.

وفيما أوحى إليه: يا موسى لو أن النفس التي قتلت آمنت في طرفة عين إني خالقها ورزاقها لأذقتك بها أليم العذاب.

ثم في زمانه بلعام بن باعوراء، ذكر الغزالي في كتابه أنه كان بحيث نظر يرى العرش، وزعم أنه هو المراد بقوله: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ ﴿٤﴾.

ولم يقل آية واحدة، مال إلى الدنيا وأهلها ميلة واحدة، وترك لولي من أولياء الله حرمة واحدة سلبه الله معرفته، وتركه بمنزلة الكلب المطرود: ﴿إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهُتْ أَوْ تَنَزَّكُهُ يَلْهُتْ﴾ ﴿٥﴾.

حتى روي في كتاب الغزالي قال: سمعت بعض العلماء يقول: أنه كان في بدء أمره بحيث يكون في مجلسه اثني عشرة ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه، ثم صار فيما زعم بحيث كان أول من صنف كتاباً: أن ليس للعالم صانع، نعوذ بالله من سخطه وخذلانه، وفطيع عذابه وعقابه، الذي لا طاقة لنا به. وذكر في بعض الكتب: أن بلعام فضحته أتانته فقالت: ويلك يا بلعام تنكحني بالليل وتركبني بالنهار. فانظر إلى حب الدنيا / وشومها ماذا يجلب [٣٤٧] للعلماء فتنه، فإن الأمر خطير، والعمر قصير، وفي الأعمال تقصير، والناقد بصير، فإن ختم بالخير أعمالنا وأقالنا عثراتنا فما ذلك عليه بعسير.

(١) سورة الصافات، الآية: ٨٩.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٨٢.

(٣) سورة القصص، الآية: ١٦.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٥.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

ثم انظر إلى داود خليفة الله في أرضه، أذنب ذنباً واحداً فبكى عليه حتى قيل: أن العشب نبت من دموعه، وعن بعض العلماء أن داود عليه السلام خرّ ساجداً أربعين سنة^(١)، ورفع رأسه وما في جبهته نخارة لحم، وعن الأوزاعي قال: كانت عينا داود كالقربتين تنطفان الماء، ولقد كانت الدموع أخذت في وجهه كجربة الماء في الأرض.

وعن مجاهد قال: مكث أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموع عينيه، فنودي يا داود أجائع فتطعم، أم ظمآن فتسقى، أم عار فتكسى فأجيب في غير ما طلب، فنحب نحية فاحترق العشب من حر جوفه، ثم أنزل الله عليه التوبة المغفرة. فقال: يا رب اجعل خطيئتي في كفي.

فما كان يبسط كفه لطعام ولا شراب ولا شيء سوى ذلك إلا رآها فأبكته.

وإن كان ليؤتى بالقدح ثلثاء ماء فإذا تناول أبصر خطيئته فما يضعه على شفتيه حتى يفيض من دموعه، وزعموا أن توبته لم تقبل إلى أربعين يوماً وقيل إلى أربعين سنة والله أعلم.

ثم انظر إلى يونس عليه السلام غضب غضبة واحدة في غير موضعها، فسجنه الجبار في بطن الحوت تحت قعر البحار أربعين يوماً: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢). فسمعت الملائكة صوته فقالوا: إلهنا صوت معروف في موضع مجهول.

فقال تعالى: ذلك عبدي يونس. فشفت في الملائكة، ثم مع ذلك غير اسمه ونسبه إلى سجنه فقال: ﴿وَذَا اللُّونِ﴾^(٣) الآية. فقال: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ﴾^(٤) الآية. ثم ذكر نعمته وامتته عليه فقال: ﴿لَوْلَا أَن تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِن رَّبِّي﴾^(٥) الآية.

[٣٤٨] فانظروا إلى هذه السياسة أيها / المسكين وكذلك هلمّ جزاً إلى سيد المرسلين أكرم الخلق على الله تعالى بقوله له: ﴿فَأَسْتَيْمُ كَمَا أُمِرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْعَمُوا﴾^(٦) الآية.

(١) جاء على هامش المخطوط لفظ «ليلة» وفوقها حرف «خ» وإشارة إلى أن موضعها مكان لفظه «سنة».

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٨٧.

(٤) سورة الصافات، الآية: ١٤٢.

(٥) سورة القلم، الآية: ٤٩.

(٦) سورة هود، الآية: ١١٢.

حتى كان عليه السلام يقول: «شيتني سورة هود وأخواتها»^(١). قيل: يعني هذه الآية وأشكالها في القرآن. وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ﴾^(٢) إلى أن مرَّ الله عليه بالغفران فقال: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾^(٣) الآية. وقال: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾^(٤).

فكان بعد ذلك عليه السلام يصلي الليل حتى تورمت قدماه فيقولون: أتفعل هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فيقول: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(٥). وكان يقول: «لو أخذني الله أنا وأخي عيسى بما فعلت هاتان الأصبعان لعذبنا بالنار».

وفي حديث آخر: «لعذبنا عذاباً لم يعذب به أحداً من العالمين». وكان يصلي الليل ويكي ويقول: «أعوذ بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(٦).

ثم الصحابة الذين هم خير قرن من هذه الأمة كان يبدو أمنهم شيء من المزاح، فنزل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٧) الآية.

ثم وضع في هذه الأمة مع كونها أمة مرحومة من الحدود والسياسة العظيمة حتى كان

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٤ ص ٢٦٣ طبعة دار الحديث). أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه من حديث ابن عباس وهو في الشامل من حديث أبي جحيفة. وقال الحاكم صحيح على شرط البخاري.

(٢) سورة محمد، الآية: ١٩.

(٣) سورة الشرح، الآية: ٢.

(٤) سورة الفتح، الآية: ٢.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٥٤٥ - طبعة دار الحديث) متفق عليه وفي (ج ٤ ص ١٢٧) قال أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله ﷺ ومن طريقه ابن الجوزي في الوفا وفيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبي حبة ضعفه الجمهور ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء دون قولها وأي أمره لم يكن عجيباً وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتضراً على آخر الحديث. ونص ما في (ج ٤ ص ١٢٧) «أفلا أكون عبداً شكوراً ولم لا أفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى علي: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية». وبه حكاية عن السيدة عائشة.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٤ ص ١٣٦). أخرجه مسلم من حديث عائشة «أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك... الحديث».

(٧) سورة الحديد، الآية: ١٦.

بعض العلماء يقول: لا يأمن من قطع في خمسة دراهم خير عضو منه أن كره عذابه هكذا غداً، نسأل الله البار الرحيم أن لا يعاملنا لا بمحض كرمه إنه أرحم الراحمين.

فصل

وفي كتاب المحاسبي^(١) قال: معنى الخوف هو مطالعة القلب لسطوات الله تعالى ونقماته، فيولد ذلك في القلب فزعاً من خوف الوعيد وعلامته: الفرار من مواطن العقوبات رجاء السلامة، وشدة الحركة عند ذكر النار وأحوال القيامة، والفرار من الخلق، وشدة البكاء، والنفور من ذكر المعصية والعاصين، وتغير اللون عند الحوادث مثل: الريح العاصف، والرعد القاصف، والظلمة، والزلزلة، والخسوف وأشباه ذلك.

وقد روي أن النبي ﷺ كان إذا سمع الريح تغير وجهه، ودخل وخرج.

وقد روي عن عطاء السلمي أنه نظر إلى سحابة نشأت في السماء فوضع يده على أم [٣٤٩] رأسه وجعل يبكي ويقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ / عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٢).

وقد روي أن رجلاً من خضعم قرأ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّخْمَنِ وَفَدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾^(٣). فاضطرب مسروق وكان من الخائفين فقال: أعد عليّ، ويحك فإني أراني من المجرمين ولست من المتقين، فأعادها عليه فشقق شهقة لحق منها إلى الآخرة.

قال: ويكون حاله عند سكون هيجان الخوف عنه قاعداً مستوفزاً كأنه ينظر شيئاً يريد به أو يراد به كما قال ابن المبارك:

مستوفزين على رجل كأنهم	ركب يريدون أن يمصوا ويتقلوا
قد صيروا ليلهم إيلاً لخدمته	فلن يحطوا رحال الإبل أو يصلوا

(١) هو الحارث بن أسد المحاسبي البصري (أبو عبد الله) صوفي متكلم، فقيه محدث ولد بالبصرة، وحدث عن يزيد بن هارون وطبقته وروى عنه أبو العباس بن مسروق الطوسي وغيره وتوفي في بغداد ومن تصانيفه بالفتوى والاعتبار - الرعاية في الأخلاق والزهد - وكتب كثيرة في الزهد وأصول الديانات والرد على المخالفين من المعتزلة والشيعة معجم المؤلفين (١٧٣/٣).

(٢) سورة الأحقاف، الآية: ٢٤.

(٣) سورة مريم، الآيات: ٨٥، ٨٦.

قال: والحركة التي يظن أنه مأخوذ بها مثل الهدية والوجبة والضجة على غفلة أو كلمة يرحف منها قلبه: مثل ما روي عن زرارة بن أوفى أنه قرأ في محرابه: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾^(١). فشهِقَ شهقة نقل بها من محرابه ميتاً.

وقد روي عن بعضهم أنه كان يقد تحت قدر له فأصاب وجهه شيء من سواد القدر. فقالت له ابنته: يا أبتاه وجهك قد اسود، فصاح صيحة فخر مغشياً عليه، فلما أفاق مسح وجهه بيده وقال: خفت أن يكون الله عز وجل سَوَّدَ وجهي في الدنيا قبل الآخرة.

ألا ترى أنه لما صادفت الكلمة ما قام في وهمه من المخاوف فاستقرب قلبه في تعجيل نكال الآخرة، قال: وتزايد الخائفين في الخوف يكون على قدر لزوم القلب للأسباب المهيجة للخوف كالتي قدمناها: فمنهم من يهيج به الخوف فيؤلمه وينحله ويشغله على قدر ما وافق من رقة القلب وصفاء الذهن ثم يأخذ الخوف في سائر الجسد على قدر قوة العلم في السطوة والتممة.

قال: ومثلهم في ذلك كركاب السفينة كلما اشتد عليهم هيجان الأمواج وتجلجت اشتدت المخاوف وهكذا إذا هاجت أسباب المعرفة من القلوب بسطوات الله تعالى ونعماته وجلاله وعظمته حاج في القلب خوف تلف النفس حتى يكون كالغريق الذي لا يحسن السباحة فقد اشتد مخاوفه لخوف قلبه والله أعلم.

الباب الثاني في الرجاء

قال الله تعالى: / ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾^(٣).
وقال سبحانه: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَشَاءُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾^(٤).

(١) سورة المدثر، الآية: ٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٨.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.

وقال تعالى: ﴿رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾^(١) الآية. فحدّث عن رحمة الله الواسعة ولا حرج.

وفي الحديث المشهور عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن لله تعالى مائة رحمة فواحدة منها قسمها بين الجن والإنس والبهائم فيها يتعاطفون وبها يتراحمون وأدخر منها تسعاً وتسعين لنفسه يرحم بها عباده يوم القيامة»^(٢).

وفي خبر آخر: أنه تعالى قابض تلك الرحمة الواحدة فتمّ بها مائة رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة.

وفي خبر آخر: «أن الله تعالى يقول للمؤمنين يوم القيامة: أما ما بيني وبينكم فقد وهبته لكم، فتواهبوا فيما بينكم، فادخلوا الجنة برحمتي واقتسموها بأعمالكم»^(٣).

وقد روي أن النبي عليه السلام دخل من باب بني شيبه فرأى قوماً يضحكون فقال لهم: «لم تضحكون لا أراكم» حتى إذا كان عند الحجر رجع إليهم الفهقري فقال: «جاءني جبريل فقال: يا محمد إن الله تعالى يقول: لا تقنط عبادي من رحمتي: ﴿نَبِيٌّ عَبْدِي أَيُّ أَنَا أَلْعَفُورُ الْكَرِيمِ﴾»^(٤) الآية. وقال عليه السلام: «الله أرحم لعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة لولدها»^(٥).

في أمثاله كثير، فمن ذا الذي يعرف غاية رحمة الله أو يحسن وصفها إذ يغفر لعبده كفر مائة سنة أو ما شاء الله بإيمان ساعة واحدة كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُوا يُغْفَرُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾^(٦). وقال: ﴿قُولُوا حِطَّةٌ يُغْفَرُ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾^(٧). قيل معناه: احطط عنا خطايانا، وقيل: قولوا لا إله إلا الله، وقال عليه السلام: «جب لما قبله».

- (١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٣.
- (٢) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٤ ص ٢٣٤) طبعة دار الحديث. في نحوه متفق عليه من حديث أبي هريرة. وفي (ج ٥ ص ١٨٧) في باب سعة رحمة الله تعالى. قال أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وسليمان «غير أنه قال: البهائم والهوام». وقال: «وأخر» ولم يقل: «أدخر» ولم يقل «لنفسه».
- (٣) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٥ ص ١٨٨) طبعة دار الحديث رويناه في سباعات أبي الأسعد القشيري من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البلخي قال الخطيب: ليس بثقة.
- (٤) سورة الحجر، الآية: ٤٩.
- (٥) أطراف الحديث عند الزبيدي في الإنحاف (١٠/٥٧١) البيهقي في الأسماء والصفات (٤٩٧)، الطبراني في المعجم الصغير (٩٨/١).
- (٦) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.
- (٧) سورة البقرة، الآية: ٥٨.

فسوخ الله تعالى للمشرك إذا أسلم جميع ما في يده من الأموال والأنكحة، وإن اكتسبها حراماً ولم يطلبه بشيء من مظالم العباد من الدماء وغيرها وهذا من سعة رحمته .

انظر إلى سحرة فرعون جاءوا لحربه، وحلفوا بعزة فرعون، فلما آمنوا بصدق من قلوبهم قبلهم الله، وأفزع عليهم الصبر وجعلهم على رؤوس الشهداء في الجنة أبد الأبدین، هذا لمن عرفه ساعة بعد الكفر والضلال فكيف بمن أفنى عمره في معرفته وطاعته؟ [٣٥١]

وانظر إلى أصحاب الكهف وما كانوا عليه وما كانوا عليه من الكفر طول أعمارهم حتى ألهمهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (١) الآية.

كيف قبلهم ثم أعزهم وأكرمهم فقال: ﴿وَنُقَلِّبُھُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ (٢) . ثم ألهمهم الحشمة والمهابة حتى قال لأكرم الخلق عليه: ﴿لَوْ أطلَّغْتَ عَلَیْھِمْ لَوَلَّیْتَ مِنْھُمْ فِرَارًا﴾ (٣).

بل كيف أكرم كلبيهم تبعهم حتى ذكره في كتابه العزيز مرات، ثم جعله معهم في الدنيا محجوباً، ويدخله الجنة معهم مكرماً فيما بلغنا فهذا فضله مع كلب خطا خطوات مع قوم عرفوه ووحده أياماً معدودة، فكيف فضله مع عبده المؤمن الذي وحده وعبده سبعين سنة، أو ما شاء الله ونيتة أن لو عاش سبعين سنة لما جحدته ولا كفر به .

ثم انظر كيف عاتب يونس بن متى عليه السلام، في شأن قومه حين انتبه من النوم وقد تيسرت الشجرة التي أطلته فقال فيما بلغنا: تحزن على شجرة من يقطين أنبتتها في ساعة وأيستها في ساعة ولا تحزن على مائة ألف أو يزيدون .

وفي الخبر أن الله تعالى لما رفع إبراهيم إلى الملكوت رأى رجلاً على فاحشة فدعى الله تعالى عليه فأهلكه، ثم رأى آخر فأراد أن يدعو عليه فأوحى الله إليه يا إبراهيم دع عنك عبادي، فإن عبدي لا يخلو من ثلاث: إما أن يتوب فأتوب عليه، وإما أن أخرج من صلبه ذرية تقدسني، وإما أن يستكمل أجله فيكون خشبة في جهنم - أو كلام هذا معناه - .

(١) سورة الكهف، الآية: ١٤ .

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٨ .

(٣) سورة الكهف، الآية: ١٨ .

وفي الخبر أيضاً أن الله تعالى عاتب موسى عليه السلام في أمر قارون فقال: استغاث بك قارون فلم تنه فوعزتي وجلالي لو استغاث بي لأغشته .

في مثل هذا من الأخبار، والأحاديث التي تدل على سعة رحمة الله وفضله، فإذا كان الله عز وجل قد أعطى عبده المؤمن من معرفته وأفاض عليه من نعمه الغزيرة، ومنته الكثيرة ما يستغرق الوصف من النعم الظاهرة والباطنة فمرجو من فضله العظيم أن يتم ذلك له في الآخرة [٣٥٢] فإن من بدأ بالإحسان والنعم قبل الاستحقاق فعليه الإتمام بأن يجعل له من / التسع والتسعين رحمة الحظ الأوفر فنسأل الله تعالى أن لا يخيب آمالنا من فضله العظيم، وأن يحقق رجاءنا من إحسانه العميم إنه جواد كريم منان رحيم .

فصل

واعلم أن الأمر كله يرجع إلى أصل واحد وهو خاتمة العمل؛ لأن ملاك الأعمال خاتمها فهذه هي التي تقسم الظهور، وتذيب الأكباد، وتدمي عيون العباد، وقد قال بعض العلماء: الغنوم ثلاثة: غم الطاعة أن لا تقبل، وغم المعاصي أن لا تغفر، وغم المعرفة أن تسلب .

وقال أهل التحقيق: بل الغم كله غم القبول لأن من قبل الله منه حسنة واحدة فقد فاز جملة واحدة؛ لأنه إذا وقع القبول زالت المواخذة .

وقد روي عن معاذ رحمه الله أو غيره قال: لو قبل الله مِنِّي حسنة واحدة لا أبالي أو كلام هذا معناه .

وقال آخرون: الغم كله في خوف نزع المعرفة عند الموت، وهذا قريب من الأول، لأن الله تعالى يقول: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ .

فصل

فعلى العبد أن يكون راغباً راهباً؛ لأنه إذا غلب عليه رهبة العقاب خيف عليه أن يكون من الآيسين من رحمة الله وقد قال تعالى: ﴿لَا يَيْتَسُّ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾^(١) . وإن غلب عليه الرغبة والرجاء لثواب الله خيف عليه أن يكون من الآمنين من مكر الله .

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٧ .

وقد قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا أَلقُومُ الخَاسِرُونَ﴾^(١).

وقد روي عن لقمان الحكيم قال لابنه: يا بني خف الله خوفاً لا تياس فيه من رحمته، وأرجه رجاء لا تأمن فيه من عقابه. فقال: يا أبتاه كيف وأنا لي قلب واحد؟ فقال: يا بني إن المؤمن لو شق قلبه وجد فيه نور رجاء ونور خوف، ولو وزنا لم يمل أحدهما بصاحبه.

وهذا كما ورد في الحديث: «لو وزن خوف المؤمن ورجاءه بميزان تریص ما زاد أحدهما على الآخر»^(٢). ومعنى تریص: قيل محكم.

وقد أثنى الله تعالى على المؤمنين فقال: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ المَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾^(٣).

وقال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾^(٤). وينشد لأبي تمام الطائي:

أخاف إلهي ثم أرجو تواله ولكن خوفي غالب لرجائيا
/ ولولا رجائي وأنكالي على الذي تفرد لي بالصنع كهلاً وناشياً
لما ساغ لي عذب من الماء بارداً ولا لذلي نوم ولا زلت باكياً
على سوء ما قد كان مني جهالة ليالي فيها كنت لله غاضباً

[٣٥٣]

وهذا كما قال بعض العلماء: الخوف ما كان الإنسان صحيحاً أفضل فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل.

وقد روي عن حذيفة بن اليمان رحمه الله أنه لما احتضر قال: مرحباً بزائر جاء على فاقة لا فرح من ندم، اللهم إنك أمرتنا أن نعدل بين الخوف والرجاء، فالآن الرجاء فيك أمثل.

وقد روي عن أبي سليمان الداراني أنه قال: ينبغي أن يكون الخوف أغلب من الرجاء؛ لأنه إذا غلب الرجاء فسد القلب.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.

(٢) أطراف الحديث عند الفتن في تذكرة الموضوعات (١١) وعلى القاري في الأسرار المرفوعة وابن عراق في تنزيه الشريعة (٤٠٢/٢)، والسيوطي في الدرر العشرة في الأحاديث المشتهرة (١٣٣). ابن تيمية في أحاديث القصاص (٢٥).

(٣) سورة السجدة، الآية: ١٦.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.

وروي عن يحيى بن معاذ أنه قال: رجاء المؤمن أكثر من خوفه وإلا كان قلقاً.

قال: وذلك أن الخوف من الغضب والرجاء طمع في الجنة، وقد سبق من قضائه إن رحمته سبقت غضبه.

وعن وهب ابن منبه قال: بلغ ابن عباس أن مجلساً كان في المسجد الحرام يجلس فيه ناس من قريش فيختصمون فترفع أصواتهم فقال ابن عباس: انطلق بنا إليهم، فانطلقنا حتى وقفنا عليهم فقال لي ابن عباس: أخبرهم بالكلام الذي كلم به الفتى أيوب عليه السلام في بلائه. قال: قلت قال الفتى أما كان من عظمة الله، ذكر الموت ما يكل لسانك، ويقطع قلبك ويكسر حجتك. يا أيوب أما علمت أن الله عبداً أسكتهم خشية الله تعالى من غيركم وأنهم لهم البلاء الفصحاء الألباء العالمون بالله وآياته، ولكنهم إذا ذكروا عظمة الله تقطعت قلوبهم، وكلت ألسنتهم وطاشت عقولهم وأحلامهم فرقاً من الله وهيبة له. فإذا استفاقوا من ذلك استبقوا إلى الله بالأعمال الزاكية لا يستكثرون له الكثير ولا يرضون له القليل، يعدون أنفسهم مع الظالمين الخاطئين وأنهم لتراهم أبراراً، ومع المضيعين المفرطين، وإنهم لأكياس أقوياء ناكلون ذائبون.

فصل

واعلم أن الرجاء الحقيقي لا ينفك عن الخوف الحقيقي كما أن الخوف الحقيقي لا ينفك عن الرجاء الحقيقي ولذلك قيل: الرجاء كله لأهل الخوف إلا الأمن والخوف كله لأهل الرجاء إلا الإياس. وينشد:

وذي حرق اخفى مضيض اكتابه / فم عليه دمه بانسكابه
بكت عينه لما بكت عين قلبه / ولولا بكاء العين لم يدر ما به
أذاب بخوف الله صحة جسمه / وأبلى بتقواه رداء شبابه
تراه من الخوف المبرح والأسا / كميت دعاه ربه لحسابه
تفرد بالمولى ففر بدينه / إلى جبل يأوي لبعض شعبه
إذا انصرف المحبوب من عند ربه / تبادرت الأملاك أخذ ركابه
إلى جنة فيها الحرير لباسهم / ودر ومرجان سروج دوابه
وحور كأشمال البدر نواعم / يلاعبه في الخلد خلف قبايه
بنفسي ولي لئله مشهد / إذا رقد النوم قام يبابه

[٣٤٤]

يهيم فما يدري من الخوف والرجاء يأبى يديه أخذه لكتابه
واعلم أن العبد إذا كان صحيحاً فالخوف أولى به فإذا ضعف ومرض وأشرف على
الآخرة فالرجاء به أمثل كما تقدم عن حذيفة رحمه الله، وذلك لما روي أن الله تعالى يقول: أنا
عند المنكسرة قلوبهم من مخافتي فيصير رجاءه أولى في ذلك الوقت لانكسار قلبه وخوفه
المتقدم في زمان صحته ولذلك يقال لهم: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾^(١).

فصل

فإن قيل أليس قد جاءت الأخبار الكثيرة في حسن الظن بالله تعالى كقوله: أنا عند ظن
عبيدي بي فليظن بي ما شاء.

في أمثالها قيل له: إن من حسن الظن بالله تعالى: الحذر من معصيته، والخوف من
عقابه، والاجتهاد في طاعته، وذلك ثمرة التصديق بوعد الله تعالى ووعيده وذلك أن الرجاء لا
يكون إلا على أصل ثابت صحيح إذا اجتهد العبد في طاعة الله تعالى، وانتهى عن معصيته
فيرجو حينئذ أن يتقبل الله منه، ويتم له تقصيره ويعظم له الثواب، ويعفو عن الزلل.

فإن أحسن الظن على هذا فهو الرجاء قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾^(٢).

وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِئٌ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾^(٣)
الآية.

فمثاله / كمن زرع واجتهد وجمع بذراً ويقول: أرجو أن يحصل لي منه مائة قفير، [٣٥٥]
فذلك منه رجاء.

وأما إن طمع ورجا بغير عمل: فذلك منه أمنية لا أصل لها ولا طائل، كمن لا يزرع ولا
يعمل فيقول: أرجو أن يحصل لي مائة قفيز فيقال له: من أين لك هذا الرجاء، وإنما ذلك أمنية
لا أصل لها، فكذلك إذا غفل عن الطاعة وارتكب المعاصي ولم يبالي بسخط الله ورضاه ووعده
ووعيده.

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٨.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٩.

ثم يقول: أرجو من الله الجنة والنجاة من النار فذلك منه أمنية لا حاصل لها، سماها رجاء وحسن ظن بل ذلك خطأ وضلال.

وقد قال الله تعالى مخبراً عن المنافقين وغرتكم الأمانى وقال: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾^(١).

وقال جابر بن زيد رحمه الله: إياكم والأمانى فوائه ما نال بها عبد خيراً قط فيما مضى ولا يتاله فيما بقي. وقال: إن المؤمن أحسن الظن فأحسن العمل ثم قرأ: ﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَّةٍ﴾^(٢).

والمنافق أساء الظن فأساء العمل ثم قرأ: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَأَكُمْ﴾^(٣) الآية.

ومما يبين هذا الأصل قول النبي ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»^(٤). والعاجز من اتبع نفسه هواها ويتمنى على الله الأمانى.

وفي ذلك يقول الحسن البصري: إن أقواماً ألهمهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم حسنة يقول: إني أحسن الظن بربي وكذب أو أحسن الظن بربه لا حسن العمل ثم تلى قوله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَأَكُمْ﴾^(٥) الآية.

وعن جعفر الضبي قال: رأيت أبا ميسرة العابد وقد بدت أضلاعه من الاجتهاد قلت:

- (١) سورة النساء، الآية: ١٢٣.
- (٢) سورة الحاقة، الآية: ٢٠.
- (٣) سورة فصلت، الآية: ٢٣.
- (٤) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٣ ص ٥٨٧) طبعة دار الحديث قال أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث شداد بن أوس.
- قال محقق كتاب الأحياء طبعة دار الحديث أخرجه الترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠) وأحمد (١٢٤/٤) والحاكم (٥٧/٤) وقال صحيح على شرط البخاري وتعقبه الذهبي بقوله: «لا والله أبو بكر واه» وقال الحاكم في موضع آخر (٢٥١/٤) صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي مؤيداً صحيح (فتصح) قال المحقق والحديث مداره على ابن أبي مريم الغساني قال الحافظ في التريب «ضعيف» وذكره الألباني في ضعيف الجامع (٤٣١٠) وقال ضعيف. «دان نفسه» حاسب نفسه في الدنيا.
- (٥) سورة فصلت، الآية: ٢٣.

يرحمك الله إن رحمة الله واسعة. فغضب فقال: هل رأيت ما يدل على القنوط: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾^(١).

قال: فأبكاني قوله، فإذا كل الرسل والأبدال والأولياء مع كل هذا الاجتهاد في الطاعة والحذر من المعصية.

أقول: ما كان لهم حسن الظن بالله؟ بلى؛ فإنهم كانوا أعلم بسعة رحمة الله وأحسن ظناً بجلوه منك، ولكن علموا أن ذلك دون الاجتهاد في الطاعة أمانة وغرور، وليس لها حاصل ولا طائل إلا أنها تروّح على القلب ويغتبط بها الممتنى. كما قال القائل:

حرّك منّا إذا اختممت فإنهن مراوح / إذا تمنيت بت الليل مغتبطاً [٣٥٦]
وقال آخر:

إن المنى رأس أموال المغاليس

فاعتبر بهذه النكته من اجتهاد أهل الصفوة المجتهدين في الخدمة، وتنبه من رقدتك والله تعالى ولي التوفيق.

فصل

ومن تمكن الخوف يكون الحزن والإشفاق من الذنوب، ولذلك قيل عن الحسن أن النبي عليه السلام قال: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(٢).

قال الحسن: فوالله ما أصبح فيها مؤمناً إلاً حزياً. قال: وكيف لا يحزن المؤمن وقد حدّث عن الله تعالى أنه وارد جهنم ولم يأتها أنه صادر عنها، والله ليلقين أمراضاً ومصائب وأموراً تغيبه، وليظلمن فما يتصرّ بيتغي بذلك الثواب من الله عز وجل، فما يزال حزياً فيها حتى يفارقها فإذا فارقها أفضى إلى الراحة والكرامة. وقال: ما عبد الله تعالى بمثل طول الحزن.

وقال مالك بن دينار: إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب، كما أن البيت إذا لم يسكن خرب.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٦.

(٢) قال الحافظ العراقي في المعنى (ج ٣ ص ٣١٤) طبعة دار الحديث. باب ما ورد في ذم الدنيا. أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

ويروى عن حبيب بنت ثابت أنه قال: إن حاجبي يعقوب قد وقعا على عينيه، فقيل له: ما بلغ بك هذا؟ قال: طول الزمان وكثرة الأحزان. فأوحى الله إليه: يا يعقوب تشكوني. فقال: يارب خطيئة اخطأتها فاغفر لي.

وقال الحسن: وذكر هذه الآية: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾^(١).

قال: المؤمنون قوم ذلل ذلك والله الأسماع والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضى والله ما بالقوم من مرض وأنهم لأصحاء ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، وقالوا: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾^(٢).

والله ما أحزنهم حزن الناس، ولا تعاضم في أنفسهم ما طلبوا به الله، أبكاهم الخوف من النار وأنه من لم يتعز بعزاء الله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، ومن لم ير الله عليه نعمة إلا في مطعم أو مشرب فقد قلَّ علمه وحضر عذابه. قال: وسمع سفيان الثوري يقول: واحزنناه. فقيل له: قل واقله حزناه. وينشد:

احزن على أنك لا تحزن ولا تسيء إن كنت لا تحسن
اضعف عن الشر كما تدعي ضعفاً عن الخير وقد يمكن

وقال الحسن: إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن في عمله ما يكفرها سلطت عليه الغيوم فتكون كفارة لذنوبه. [٣٥٧] /

وعن ابن مسعود قال: إن المؤمن ليرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وأن الفاجر يرى أن ذنوبه كذاب مرّ على أنفه فقال به هكذا، ومد يده فوق أنفه.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: من سره أن يسبق الذائب المجتهد فليكيف نفسه عن الذنوب فإنكم لن تلتقوا الله بشيء خير لكم من قلة الذنوب. ويقال: لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر إلى من عصيت.

وعن عروة بن عامر قال: إن العبد لتعرض عليه ذنوبه ويقول: لذنب منها قد كنت مشفقاً منك فيغفر له.

وعن الحسن أن الرجل ليذنب الذنب فلا يزال به كثيراً حتى يدخل الجنة.

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٤.

وقيل لبعض العرب: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت عوداً ركوباً موقراً نِعماً وذنوياً.

ويروى أن كعب الأخبار قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين أنت ميت في ثلاث، أجد ذلك في بعض الكتب. قال: تجد اسمي ونسبي؟ قال: لا ولكني وجدت صفتك وسيرتك. فقال عمر:

أيوعدني كعب ثلاثاً أعدها ولا شك أن القول ما قاله كعب

وما بي حذار الموت إني لميت ولكن خوف الذنب يتبعه الذنب

ويقال: إن للذنوب ضعفاً في القوة وظلمة في القلب، وأن للحسنات قوة في البدن ونوراً في القلب.

وكان الأوزاعي إذا رأى رجلاً من الجند قال: استغفر الله من ذنوب سلط بها هؤلاء علينا.

وعن الحسن قال: إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل، وقيل لسفيان الثوري:

لو دعوت الله لنا قال: ترك الذنوب هو الدعاء ولبعض بني عامر:

ألم يأن لي يا قلب أن أترك الصبا وأن أزجر القلب للوجع عن الهوى

وما عذر من يعصي وقد شاب رأسه وأبصر أبواب الضلالة والهدى

وإن كان ليل كان بالليل نائماً وأصبح بطال العشيّة والضحى

ولو قسم الذنب الذي قد أصبته على الناس خاف الناس كلهم الردى

وعن الحسن قال: إنما المؤمن من جمع إحساناً وشفقة وتلى هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ / هُمْ [٣٥٨]

مَنْ عَدَابَ رَبَّهُمْ مُتَّفِقُونَ﴾^(١). وأن المنافق من جمع إساءة وأماناً وتلى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى

عِلْمٍ عِنْدِي﴾^(٢). وينشد:

خلقت من التراب فصرت شيئاً وعُلِّمْتُ الفصيح من الخطاب

فعدت إلى التراب فظلت فيه كأنني ما برحت من التراب

قال: ولقي حكيم حكيماً فقال له: إني لا أحبك في الله. فقال: لو علمت مِنِّي ما أعلم

من نفسي لأبغضتني في الله. فقال له الأول: ولو أعلم من نفسي ما تعلمه أنت من نفسك لكان

لي فيما أعلمه من نفسي شغل عن بغضك وقيل آخر شعر قاله ذو الرمة:

(١) سورة المعارج، الآية: ٢٧.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٨.

يا رب قد أسرفت نفسي وقد علمت علماً يقيناً لقد أحصيت آثاري
يا مخرج النفس من جسم إذا احتضرت وفارج الكرب زحزحني عن النار
وروي عن عيسى عليه السلام أنه قال: إذا عملت الحسنة فاله عنها؛ فإنها عند من لا
يضيعها، وإذا عملت سيئة فاجعلها نصب عينك وأنشدوا:
يا خارب القلب عامر الأمل عشت وغرّتك صحة البدن
لا أنت قصرت في القبيح ولا محوت بعض القبيح بالحسن

فصل

واعلم أن الحزن إذا كثر في القلب واشتد لا بد أن يثمر البكاء من خشية الله وأقرب ما
يكون العبد من عفو الله ورحمته إذا كان باكياً من خشيته.

وقد نعت الله أقواماً وقال: ﴿وَيَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾^(١) الآية. وقال: ﴿خَرُّوا سُجَّدًا
وَبِكْيًا﴾^(٢). وكان عليه السلام يبكي ويأمر بالبكاء والتباكى.

وقال: «أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتابكوا فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم
على وجوههم كأنها جداول ثم تقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون فلو أن السفن أجزيت
فيها لجزت»^(٣).

وكان عليه السلام يصلي ويسمع لجوفه أزيز كأزيز المرجل، وروي أنه قال لابن
مسعود: «اقرأ عليّ». فقلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «فإني أحب أن أسمع من غيري»
قال: «فقرأت سورة النساء حتى إذا بلغت. ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَوْلَاءٍ شَهِدًا﴾^(٤) رأيت عينيه
تدفقان فقال لي: «حسبك»^(٥).

[٣٥٩] وعن / عقبه بن عامر الجهيني قال: قلت يا رسول الله: ما النجاة؟ قال: «ليسعك بيتك
وابك على خطيئتك وامسك عليك لسانك»^(٦).

(١) سورة الإسرء، الآية: ١٠٩.

(٢) سورة مريم، الآية: ٥٨.

(٣) أخرجه ابن حجر في لسان الميزان (١٠٣٤/٤).

(٤) سورة النساء، الآية: ٤١.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني المجلد الأول ص ٤٣٣: متفق عليه من حديث ابن مسعود.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ٢ ص ٣٤٩) طبعة دار الحديث أخرجه الترمذي من حديث عقبه وقال

حسن. أطراف الحديث عند أحمد (١٤٨/٤، ١٥٨) الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٩٩/١٠) الزبيدي في =

وعن داود عليه السلام أنه قال: إلهي ما جزاء من بكى من خشيتك حتى تسيل دموعه على وجهه؟ قال: جزاءه أن أحرّم وجهه على لفتح النار، وأن أوّمنه يوم الفزع الأكبر.

وعن معاذ بن جبل رحمه الله أنه قال: من بكى من خشية الله غفر الله له ذنوبه، فإن لم يكف فليتبأى، أعطاه الله أجر الحزين المصاب، الصلاة والرحمة والهدى.

وعن كعب الأحبار أنه قال: والذي نفسي بيده لأن أبكي من خشية الله حتى تسيل دموعي على وجهي أحب إليّ من أن أتصدق ولو بجبل من ذهب.

وقال وهب: فقد زكريا ابنه يحيى عليهما السلام فوجده مضطجعاً بعد ثلاث على قبر وهو يبكي فقال: ما هذا يا بني؟ فقال: أخبرتني أن جبريل أخبرك أن بين الجنة والنار مفازة لا يطفئ حرها إلا الدموع. قال: إيك يا بني.

ودعا بعض الحكماء فقال: إلهي ارزقني عينين هطالتين يبكيان من خشيتك، قبل أن تكون الدموع دماً، والأضراس جمرًا.

وقال عبد الله بن عمر: لأن أدمع دموعاً من خشية الله أحب إليّ من أن أتصدق بألف دينار. وقيل لبعضهم: إن كثرة البكاء تذهب البصر. قال له: ذلك شهادة فبكي حتى عمي. وقيل لبعضهم: مم تبكي هذا البكاء الطويل؟ فبكي ثم قال:

بكيت على الذنوب لعظم جرمي وحق لكل من يعصي البكاء
فلو كان البكاء يرد عُنِّي لأسعدت الدموع معاً دماء

ثم بكى حتى غشي عليه فقام الرجل عنه وتركه. قال: وكان الضحك يبكي كل عشية ويقول: لا أدري ما صعد اليوم من عملي.

وروي عن عبد الرحمن بن عوف رحمه الله أنه أتى بطعام وكان صائماً فقال: قتل حمزة وهو خير مِنِّي ولم نجد ما نكفنه به، وقتل مصعب بن عمير وهو خير مِنِّي فكفنت في بردة إن غطي رأسه بدت رجلاه، وإن غطيت رجلاه بدا رأسه، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط، لقد خفت أن أكون قد عجلت لي حسناتي في الدنيا، ثم بكى حتى سمع نشيجه وحتى يرد الطعام. وينشد:

= الإتحاف (٦/٣٣٩، ٧/٤٥٠) والمجلوني في كشف الخفا (٢/٤٤٦) الشجري في الأمالي (٢/١٥٦)، الطبراني في المعجم الكبير (١٠/٢١٠).

إلى الزهد في الدنيا
عييد من خطاياهم
/ حدثهم نحو الرغبات
ورأقت لهم الدنيا
عليهم حين تلقاهم
بقاياهم من الخدما
توهمهم وقد مالت
وقد قام ولم يهجع
يفججون إلى الله
ملك الملك خلصنا
ملك الملك اعتقنا
ملك الملك هل مما
ففي أعناقنا طراً

جنان الخلد يشتاق
إلى الرحمن أباق
والرهبات فاشتاقوا
وعاقتهم فما انماقوا
سكينات وإطراق
ت أشباح وأرمواق
بسكر النوم أعناق
من ذاق النبي ذاقوا
ودمع العين مهراق
وإذا ما كشفت ساق
فاعتاقك أعناق
تطوقناه إطلاق
من الآثام أطواق

[٣٦٠]

وفيما روي أن قوماً وقفوا بعباد وهو يبكي، فقالوا: ما الذي أبكاك يرحمك الله؟ قال:
روعة يجدها الخائفون في قلوبهم. قالوا: وما هذه الروعة؟ قال: روعة النداء بالعرض على الله
تعالى. ول بعضهم:

يا كثير البكاء أظنك ممن
إخوتي كيف لا يطول بكائي
قم فناد إذا الخلائق ناموا
وأخر:

صيرته الذنوب مثلي ظليلاً
ويجهلي عصيت رباً جليلاً
يا مقيل العشرات كن لي مقيلاً

الله ساهر ليله ما يهجع
يبكي بدمع ساكب هفواته
ندماً على ما كان من عصيانه
يا رب ما للذنوب غيرك غافر
يا رب عبدك ضارع فاغفر له

وكل الفؤاد من الذنوب مصدع
والليل في جلبابه متبرقع
ملكاً تذلل له الملوك وتخضع
وإليك منك يا إلهي المفزع
ما لم يزل يدعوك فيه ويضرع

وقال عيسى ابن مريم عليهما السلام: طوبى لمن خزن لسانه ووسع به بيته وبكى على

خطيئته.

وقال بعضهم: كنا نجلس إلى بعض العباد فيبكي ويبكىنا ويقول:

كل ذي غيبة سيرجع يوماً غير غيباب زائرات القبور

وسئل بعض من بكى عند حضرة الموت فقال:

تذكرت ساعات أضعفت مرورها من العمر الماضي فأنى لي الذكرى

/ فلم ينحصل لي الآن غير دميعة تسيل وما تجدي وقد حقت العسرى [٣٦١]

فصل

وجملة الأمر أنك إذا ذكرت سعة رحمة الله التي سبقت غضبه ووسعت كل شيء، ثم كنت من هذه الأمة المرحومة الكريمة على الله تعالى، ثم غاية فضله العظيم عليك وعلى غيرك، ثم كثرة أياديه إليك ونعمه الظاهرة والباطنة لديك من غير إحسان سبق منك.

وتذكرت من جانب آخر كمال عظمته، وجلاله وهيبته، وعظيم سلطانه، ثم شدة غضبه الذي لا يقوم له السموات والأرض، ثم غاية غفلتك وكثرة ذنوبك وجفوتك مع دقة أمره، وخطر معاملته، وفي إحاطة علمه وبصره بالغيوب، ثم حسن وعده وثوابه الذي لا تبلغ كنهه الأوهام، وشدة وعده، وأليم عقابه التي لا تحتمل ذكره القلوب تارة تنظر إلى فضله، وتارة تنظر إلى عذابه، وتارة تنظر إلى رحمته، وتارة تنظر إلى نفسك وجفواتها وخياناتها تأدى بك جميع ذلك إلى الخوف والرجاء.

وكنت قد سلكت السبيل الأqvصد والمنهاج الأرشد وعدلت عن الجانبين المهلكين: الأمن والإيأس فلم تغتر ببرودة الرجاء حتى تهلك مع الآمين، ولا بحرارة الخوف حتى تهلك مع الآسين، بل شربت من النهرين واستقيت من العينين فوجدت النفس قد جدت في الطاعة راجية ثوابها، واجتنبت المعاصي راهبة عقابها، كما قال بعض الماضين: أنه إذا ذكرت الجنة طال شوقه، وإذا ذكرت النار طار نومه.

فصرت حيثئذ من الأصفياء العابدين الذين وصفهم الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾^(١).

والحمد لله رب العالمين، فإذا جاوزت قنطرة الخوف والرجاء فأشرع في العبادة بنفس شديدة غير كسلى، / ولا عاجزة وبالله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين والحمد لله رب العالمين.

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.

القنطرة الرابعة عشر قنطرة العبادة

الحمد لله الذي شرف أوليائه بخدمته وعبادته، وكَرَّمهم بالتزام وظائف طاعته، والصلاة والسلام على أكرم بريته محمد بن عبد الله خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

أما بعد فإن الله سبحانه خلق الدنيا مزرعة للعباد، وجعل لهم الأرض ذلولاً لسلسلة القيادة لا ليستقروا في مناكبها، بل ليتزدوا منها خير الزاد لينجوا بذلك من سطوته يوم المعاد، ويتحققوا أن الأعمار تسير بهم سير السفن بين الأمواج الملتطمة، وأهلها دود على عود إن سقطوا غرقوا، وإن تمسكوا فرقوا فلا راحة ولا قرار حتى يقطعوا أهوال تلك البحار، وتحط السفينة بأولئك السفار.

فإناس في هذه الدنيا أضياف مرتحلون، وركب يسار بهم وهم نائمون، فأول منازلهم المهدي وآخرها اللحد، والوطن الجنة والنار، وهم بأعمالهم تجار، ريحها التنعم في دار القرار، والحلول في دار البوار، جعلنا الله من الفائزين برحمته، الناجين من سطوته قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

وقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾^(٢).

العبادة هي: القيام، والخشوع، والركوع، والسجود، والصيام، والخضوع، والحيج، والجهاد، والتسبيح، والتكبير، والتمجيد، والتحميد، والسكينة، والذلة والإقرار لله بالمملكة، والدعاء، والشكر، والمواساة وذكر المنة والرضى عن الله تعالى، والتسليم لأمره، والصبر على [٣٦٣] بلائه، / والإنابة إليه والإخبارات إليه تعالى، والتضرع وغير ذلك من معاني العبادة ووظائف العبودية، وقد ذكرنا في السفر الأول والثاني أكثر من هذه المعاني.

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

(٢) سورة النساء، الآية: ٣٦.

ولنشرع الآن في هذا السفر في شرح أدب تلاوة القرآن والذكر والدعاء والتضرع للرحمن وترتيب ذلك على أوقات الليل والنهار من الزمان فتشتمل حيث يتبدل هذه القنطرة على أربعة أبواب:

- الأول: في أدب تلاوة القرآن.
 الثاني: في الذكر والإستغفار.
 الثالث: في الدعاء والتفكير في المخلوقات.
 الرابع: في ترتيب هذه العبادات على الأوقات. والله أعلم وبالله التوفيق.

الباب الأول

في فضل القرآن وآداب تلاوته الظاهرة والباطنة^(١)

الحمد لله الذي امتن على عباده برسوله الأمين، وكتبه المستبين، وأوضح فيه دينه القويم وصراطه المستقيم بما فصل في من الأحكام وفرق بين الحلال والحرام، فهو الضياء والنور، والنجاة من الهلكة والغرور، من آمن به فقد وفق، ومن قال به فقد صدق، ومن حكم به فقد عدل، ومن عمل به فقد فاز وفضل ومن تمسك به فقد هدى إلى صراط مستقيم وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٢). ومن أسباب حفظه أن جعله في القلوب محفوظاً، وفي المصاحف مكتوباً، وبالأسنن مقرأً، وبالآذان مسموعاً، ومن التغيير والتبديل مصوناً مضبوطاً فمن واطب على دراسته وتلاه حق تلاوته مع القيام بآدابه الظاهرة والباطنة كان كمن أدرجت النبوة بين كتفيه إلا أنه لا يوحى إليه فلا بد / من بيان فضله وتفصيل آدابه [٣٦٤] وينحصر ذلك في أربعة فصول:

- الأول: في فضل القرآن وأهله.
 الثاني: في آداب تلاوته في الظاهر.
 الثالث: في الأعمال الباطنة.
 الرابع: في فهم القرآن وتفسيره بالرأي وغيره.

(١) هذا الباب مأخوذ من كتاب الإحياء بصرف قليل المجلد الأول ص ٤٢٢ طبعة دار الحديث كتاب آداب تلاوة القرآن.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.

الفصل الأول: في فضل القرآن وأهله وذم المقصرين في تلاوته

وهذا الفصل ينقسم إلى قسمين :

الأول : في فضل القرآن وأهله .

والثاني : في ذم المقصرين في تلاوته .

القسم الأول: في فضل القرآن وأهله

قال الله تعالى: ﴿وَأِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾^(١) الآية . وعن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ القرآن ثم ظن أن أحداً أوتي مما أوتي فقد استصغر ما عظم الله عز وجل»^(٢) .

وعنه عليه السلام قال: «ما من شفيع أعظم منزلة عند الله عز وجل يوم القيامة من القرآن لا نبي ولا ملك»^(٣) . وقال: «أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن»^(٤) .

وقال: «إن الله تعالى قرأ سورة طه قبل أن يخلق الخلق بألف عام فلما سمعت الملائكة بالقراءة قالت: طوبى لأمة يتزل عليهم هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تنطق بهذا»^(٥) .

وقال عليه السلام: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(٦) .

وقال عليه السلام: «يقول الله عز وجل من شغلته قراءة القرآن عن دعائي ومستلتي أعطيته أفضل ثواب الشاكرين»^(٧) .

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٢ .

(٢) قال الحافظ العراقي في المعني (ج ١ ص ٤٢٣) طبعة دار الحديث أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف .

(٣) قال الحافظ العراقي في المعني (ج ١ ص ٤٢٣) طبعة دار الحديث رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلاً وللطبراني من حديث ابن مسعود: «القرآن شافع مشفع» ولمسلم من حديث أبي أمامة: «اترؤوا القرآن فإنه يجيء يوم القيامة شافعاً لصاحبه» قال المحقق: حديث «القرآن شافع مشفع» ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٤/٧) وقال: رواه الطبراني وفيه الربيع بن بدر وهو متروك .

(٤) قال الحافظ العراقي (ج ١ ص ٤٢٣) طبعة دار الحديث أخرجه أبو نعيم في فضائل القرآن من حديث النعمان بن بشير وأنسي وإسنادهما ضعيف .

(٥) قال الحافظ في المعني (ج ١ ص ٤٢٣) طبعة دار الحديث أخرجه الدارمي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف .

(٦) قال الحافظ العراقي في المعني (ج ١ ص ٤٢٣) طبعة دار الحديث أخرجه البخاري من حديث عثمان بن عفان .

(٧) قال الحافظ العراقي في المعني (ج ١ ص ٤٢٣) طبعة دار الحديث أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد «من شغلته القرآن عن ذكري أم مستلتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» وقال: حسن غريب ورواه ابن =

وقال عليه السلام: «أهل القرآن أهل الله وخاصته»^(١).

وقال عليه السلام: «ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك أسود لا يهولهم فزع ولا ينالهم حساب حتى يفرغ ما بين الناس»^(٢). وذكر فيهم رجلاً قرأ القرآن وأمّ به قوماً وهم به راضون.

وقال عليه السلام: «إن القلوب تصدى كما يتصدى الحديد»^(٣) قيل: فما جلاءها؟ قال: «تلاوة القرآن وذكر الموت»^(٤).

وعن أبي أمامة الباهلي قال: اقروا القرآن ولا تغرنكم هذه / المصاحف المعلقة، [٣٦٥] فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء القرآن.

وعن ابن مسعود قال: إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن؛ فإن فيه علم الأولين والآخرين، فاقروا القرآن فإنكم توجرون بكل حرف منه عشر حسنات، أما إني لا أقول لكم (آلم) حرف ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف.

وقال: لا يسئل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن ويعجبه فهو يحب الله سبحانه ورسوله، وإن كان يبغضه فهو يبغضهما.

وعن عمرو بن العاص قال: كل آية في القرآن درجة في الجنة ومصباح في بيوتكم، ومن قرأ القرآن فكانما أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه.

وعن أبي هريرة قال: إن البيت الي يتلى فيه القرآن اتسع بأهله، وكثر خيره وحضرته

= شاهين بلفظ المصنف قال: محقق الإحياء: أخرجه الترمذي (٢٩٢٦) وقال: حسن غريب قال الألباني في الضعيفة (١٣٣٥) ضعيف.

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٢٣) طبعة دار الحديث أخرجه النسائي في الكبرى وابن ماجه والحاكم من حديث أنس يأسناد حسن.

(٢) قال الحافظ في المغني (ج ١ ص ٢٣٢) طبعة دار الحديث أخرجه الترمذي وحسنه من حديث ابن عمر مختصراً وهو في الصغير للطبراني بنحو مما ذكره المؤلف. قال محقق الإحياء طبعة دار الحديث أخرجه الترمذي (١٩٨٦) وقال حسن غريب والطبراني في الصغير (٢٣٠) وذكره الألباني في ضعيف الجامع (٢٥٧٨) وقال: ضعيف.

(٣) أطراف الحديث عند المتقي الهندي في كتر العمال (٣٩٢٤) والذهبي في ميزان الاعتدال (١٩١٨)، وابن الجزري في العلل المتناهية (٣٤٧/٢) وابن عدي في الكامل للضعفاء (٢٥٨/١).

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٢٤) طبعة دار الحديث: أخرجه البيهقي في الشعب من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

الملائكة وخرجت منه الشياطين، والبيت الذي لا يقرأ فيه يصيق بأهله، ويقل خيره، وتخرج عنه الملائكة وتحضره الشياطين.

وقال بعض السلف: ينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له إلى أحد حاجة ولا إلى الخلفاء ومن دونهم، وينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه.

وقال: حامل القرآن حامل راية لا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو تعظيماً لحق القرآن.

ويقال: إذا قرأ الرجل القرآن قبل الملك بين عينيه، وعن عمرو بن ميمون قال: من قرأ في المصحف حين يصبح مائة آية رفع الله له مثل أعمال أهل الدنيا.

ويروى أن النبي ﷺ قرأ على خالد بن عقبة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(١) الآية.

قال: أعد، فأعاد فقال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما يقول هذا بشر^(٢).

[٣٦٦] وقال الحسن: والله ما دون القرآن من غنى / ولا بعده من فاقة.

وقال بعض السلف: من قرأ خاتمة الحشر حين يصبح ثم مات من يومه ختم له بطابع الشهداء.

وقال عليّ: ثلاث يزدن في الحفظ ويذهبن البلغم: السواك والصيام وقراءة القرآن.

وقيل لبعض النساك: هل هاهنا أحد تستأنس به؟ فوضع المصحف في حجره وقال: هذا، والله أعلم.

القسم الثاني: في ذم تلاوة الغافلين

عن أنس بن مالك قال: رُبُّ تالٍ للقرآن، والقرآن يلعنه، وعن بعضهم: الغريب هو القرآن في جوف الفاجر، والرجل الصالح في قوم سوء والمصحف في بيت لا يقرأ فيه.

وقال أبو سليمان الدراني: الزبانية أسرع إلى حملة القرآن الذين يعصون الله عز وجل

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٢٥ طبعة دار الحديث) ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب بغير إسناد ورواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند جيد إلا أنه قال: «الوليد بن المغيرة» بدل «خالد بن عطية» وكذا ذكره ابن إسحاق في السيرة بنحوه.

منهم إلى عبدة الأوثان حين عصوا الله بعد القرآن. وقال عليه السلام: «أكثر مناقبي هذه الأمة قراءها»^(١).

وقال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كالشمرة طعمها طيب ولا ريح لها ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها خبيث ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كالحنظل طعمها مر ولا ريح لها»^(٢).

وقال بعض السلف: ندمت على استظهاري القرآن؛ لأنه بلغني أن أصحاب القرآن يستلون عما تستل عنه الأنبياء يوم القيامة.

وقال ابن مسعود: ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بلبه إذا الناس ينامون، وبنهاره إذا الناس يفطرون، وبنحزته إذا الناس يفرحون، وبيكاته إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخوضون وبخشوعه إذا الناس يختلون. وقال عليه السلام: «اقرأ القرآن ما نهاك وإذا لم ينهك فليست تقراه»^(٣).

وقال / بعض السلف: إن العبد ليفتح السورة فتصلي عليه: حتى يفرغ منها، وإن العبد [٣٦٧] ليفتح السورة فتلعه حتى يفرغ منها. قيل: فكيف ذلك؟ قال: إذا أحل حلالها وحرم حرامها صلّت عليه وآل لعنته.

وقال بعضهم: إن العبد ليلتو القرآن فيلحن نفسه وهو لا يعلم يقول: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٤) وهو ظالم لنفسه ويقول: ألا لعنة الله على الكاذبين، وهو منهم.

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٢٥) طبعة دار الحديث أخرجه أحمد من حديث عقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو وفيها ابن لهيعة.

(٢) أطراف الحديث عند البخاري (٢٣٥/٦، ٩٩/٧، ١٩٨/٩). ومسلم في صلاة المسافرين (٣٤٣)، أبو داود في الأدب (ب ١٩) والنسائي (١٢٥/٨) وابن ماجه ٢١٤ والترمذي (٢٨٦٥) وأحمد (٣٩٧/٤، ٤٠٤) الدارمي في السنن (٤٤٢/٢) وعبد الرزاق في المصنف (٢٠٩٣/٣) وشرح السنة للبخاري (٤٣/٤) والمنذري في الترغيب (٣٤٦/٢) وابن حجر في الفتح (٥٥٥/٩). والمتقي الهندي (٧٣٤، ٢٣٣٧، ٢٣٣٨) والشجري في الأمالي (١: ٨٣). وتفسير القرطبي (٦/١) وأبي نعيم في حلية الأولياء (٦٠/٩) والمقبلي في الضعفاء (١٥٩/١)، والفرياني في صفة النفاق (٧٢). والبيهقي في الأسماء والصفات (٢٦٣).

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٢٥) طبعة دار الحديث أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف.

(٤) سورة هود، الآية: ١٨.

وعن الحسن قال: قُرء القرآن ثلاثة قوم قرؤوه فاتخذوه بضاعة ونقلوه من مصر إلى مصر لينالوا به ما في أيدي الناس، وقوم قرؤوه فثقفوه تثقيف الفتى الفدح وألقوا حدوده في زواياه، واستطالوا به على أهل بلادهم فهم فيه أشد تيهاً من الأمراء إذا طلوعوا على أعوادهم يلقي الرجل أحاه فيقول: والله ما أسقط من القرآن شيئاً والله ما ألحن في القرآن حرفاً، فهم الذين أفسدوا في الأرض فقد كثرت هذه الطبقة من حملة القرآن فلا أكثرهم الله.

وقوم قرؤوه فأسهر نومهم، وأسال دموعهم على خدودهم، وكدوا في محاربيهم فبهم ينزل الله الغيث، فبهم ينفي العدو فهذه الطبقة من حملة القرآن أقل من الكبريت الأحمر.

وعنه أيضاً قال: إنكم اتخذتم القرآن مراحل وجعلتم الليل جملاً فأنتم تركبونه فتقطعون به مراحل وأن من كان قبلكم رواة رسائل من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل ويتفقدونها بالنهار.

وقال ابن مسعود: أنزل القرآن ليعملوا به فاتخذوا دراسته عملاً، إن أحدهم ليقرأ القرآن [٣٦٨] من فاتحته إلى خاتمته فلا يسقط منه حرفاً / وقد أسقط العمل به.

وفي حديث ابن عمرو حديث جندب: لقد عشنا دهرأ واحداً يؤتي الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد عليه السلام فيتعلم حلالها وحرامها وأمرها وزاجرها، وما ينبغي أن يقف عنده منها، ثم لقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدري ما أمره، ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه يشتره نثر الدقل.

وقد روي في التوراة: يا عبدي أما تستحي مني يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي فتعدل عن الطريق وتقعده لأجله، فتقرأه وتدبره حرفاً حرفاً حتى لا يفوتك منه شيء. وهذا كتابي أنزلته إليك انظر كم وصل لك فيه من القول، وكم كررت عليك لتأمل طوله وعرضه ثم أنت معرض عنه، أفكنت عليك أهون من بعض إخوانك، يا عبدي يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل إليه بكل وجهك وتصغي إلى حديثه بكل قلبك فإن تكلمت متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأت إليه إن كف، وها أنا مقبل عليك ومحدث لك وأنت معرض بقلبك عني أفجعلتني أهون عليك من بعض إخوانك. والله نسأله العصمة والتوفيق.

الفصل الثاني في ظاهر آداب التلاوة وهي عشرة^(١)

الأول: في حال القارئ وهو أن يكون على الوضوء واقفاً على هيئة الأدب إما قائماً وجالساً مستقبل القبلة، مطرقاً رأسه غير مرتبج ولا متكئ ولا متكبر، ويكون جلوسه وحده كجلوسه بين يدي / أستاذه. [٣٦٩]

وأفضل أحواله: أن يقرأ في الصلاة في المسجد قائماً، وإن كان غير متوضئ أو في الفراش مضطجماً فله أيضاً فضل ولكنه دون ذلك قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾^(٢) فأننى على الكل ولكن قدّم القيام على سائر الأحوال.

وعن علي قال: من قرأ القرآن في الصلاة قائماً فله بكل حرف مائة حسنة، ومن قرأه جالساً في الصلاة فله بكل حرف خمسون، ومن قرأه في غير صلاة وهو متوضئ فله خمس وعشرون، وغير متوضئ فعشر حسنة، وفي الليل أفضل لفرغ القلب.

قال أبو ذر: كثرة السجود بالنهار، وطول القيام بالليل.

الأدب الثاني: مقدار القراءة، وللقرءاء عادات مختلفة: منهم من له ختمة في اليوم واللييلة، وبعضهم مرتين، وبعضهم ثلاثاً، وبعضهم في الشهر مرة، وأولى التقديرات قول النبي ﷺ وقد قال: «من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفهمه»^(٣).

وقد قالت عائشة رضي الله عنها: وقد سمعت رجلاً يهد القرآن هدأً ما قرأ هذا ولا سكت.

وأمر عليه السلام ابن عمر أن يختمه في سبع، وكذا كان عثمان وأبي بن كعب وابن مسعود وزيد يختمونه في كل جمعة، وقد كره جماعة الختم في اليوم واللييلة؛ لأنه غاية الاقتصار كما أنها في الشهر غاية الاستكثار والأحسن ختمه في سبع أو ختمتان بالليل ختمة وبالنهار ختمة.

(١) هذا الفصل نقله مؤلف القناطر من الإحياء للإمام الغزالي الجزء الأول طبعة دار الحديث ص ٤٢٧ تحقيق سيد إبراهيم.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني الجزء الأول ص ٤٢٧ باب آداب التلاوة طبعة دار الحديث، أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن عمرو وصححه الترمذي. غير أنه قال: «لم يفهمه» ولم يقل «لم يفهمه».

[٣٧٠] وينبغي أن تكون في أول نهار الاثنين، وأول ليلة الجمعة؛ فإن الملائكة تصلي عليه / إن كان نهاراً حتى يمسي، وإن كان ليلاً فحتى يصبح، والتفصيل في مقدار القراءة إن كان من العابدين السالكين طريق العمل فختمتان في سبع وإن كان سالكاً طريق الفكر أو مشغولاً بنشر العلم فختمة، وإن كان نافذ الفكر في القرآن فمرة في الشهر لحاجته إلى كثرة التأمل.

الثالث: في وجه القسمة إما من ختم مرة في الأسبوع فإنه يقسم القرآن على سبعة.

وروي أن عثمان كان يفتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالأنعام إلى هود وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الاثنين ببطه إلى طسم موسى وفرعون، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى صاد، وليلة الأربعاء بتزليل إلى الرحمن، ويختم ليلة الخميس.

وابن مسعود يقسمه أيضاً سبعة ولكن على غير هذا الترتيب، وقيل أحزاب القرآن سبعة: فالأول ثلاث سور، والثاني خمس، والثالث سبع، والرابع تسع، والخامس إحدى عشرة، والسادس ثلاث عشرة، والسابع المفضل.

قال: فهكذا أحزبته الصحابة ويقرؤونه كذلك، وفيه خبر عن النبي ﷺ هذا قبل أن تعمل الأخماس والأعشار والأحزاب وما سوى هذا فهو محدث.

الرابع: في الكتابة ولا بأس بالنقط والعلامات بالحمرة وغيرها، فإنها تزيين وتبين وضبط عن اللحن.

وروي أن الحسن وابن سيرين ينكران الأخماس والأعشار، والشعبي وإبراهيم يكرهان النقط بالحمرة، والظن بهم أنهم كرهوا ذلك خوفاً من أن تنجر الزيادة، وحرصاً على حراسة القرآن، فإذا لم يؤد ذلك إلى محذور / فلا بأس، وقد استقر أمر الأمة على ذلك.

وقيل: أن الحجاج هو الذي أحدث ذلك وأحضر القراء حتى عدوا كلمات القرآن وحروفه وسوا أحزابه.

الخامس: هو الترتيل وهو المستحب قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾^(١).

وقد نعتت أم سلمة زوج النبي عليه السلام قراءته فإذا هي تتعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً.

وقال ابن عباس: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أتدبرهما أحب إلي من أن أقرأ القرآن كله

هنرمة. وقال أيضاً: لأن أقرأ: (إذا زلزلت)، و(القارعة). أتدبرهما أحب إليّ من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهديراً.

واعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرد التدبير بل أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيراً في القلب من الاستعجال.

السادس: البكاء قال عليه السلام: «اتلوا القرآن وابكوا وإن لم تبكوا فتباكوا»^(١). يعني فلتكلفوا البكاء.

وعن ابن عباس قال: إذا قرأت سجدة (سبحان) فلا تتعجلوا بالسجود حتى تبكوا، فإن لم تبك عين أحدكم فليبك قلبه، وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن فمنه ينشأ البكاء. قال عليه السلام: «إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا»^(٢).

ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد، والوعيد، والوئاثق، والعهود، ثم يتأمل تقصيره في الأوامر، وارتكاب الزواجر فيحزن لا محالة ويبكي، فإن لم يحضره البكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن فذلك أعظم المصائب.

السابع: أن يراعي حتى الآيات فإذا مر بآية سجدة سجد وكذا إذا سمعها من غيره، وسجد التالي فليسجد.

وهذا إذا كان على طهارة، ثم يدعو في سجوده بما / يليق بالآية التي قرأها مثل قوله: [٣٧٢] «خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ»^(٣). فيقول: اللهم اجعلنا من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك، وأعوذ بك من أن أكون من المستكبرين عن أمرك وعلى أوليائك. وإذا قرأ: «وَيَخْرُجُونَ لِلأَذْقَانِ يَسْكُونُونَ»^(٤). فليقل: اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك وكذا ساثرها.

(١) قال الحافظ العراقي في المعني الجزء الأول ص ٤٢٩ دار الحديث - باب ظاهر آداب التلاوة - أخرجه ابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص بإسناد جيد.

وقال محقق الإحياء طبعة دار الحديث إسناده ضعيف أخرجه ابن ماجه (١٣٣٧) وفيه إسماعيل بن رافع: قال الحافظ في التقریب ضعيف الحفظ.

(٢) قال الحافظ العراقي في المعني المجلد الأول ص ٤٣٠ طبعة دار الحديث أخرجه أبو يعلى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بسند ضعيف.

(٣) سورة السجدة، الآية: ١٥.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٠٩.

ويشترط فيها شروط الصلاة: من ستر العورة والطهارة واستقبال القبلة، وإن لم يكن على طهارة فإذا تطهر سجد، ورخص آخرون أن يسجدوا ولو على غير طهارة من الثوب والبدن.

والثامن: أن يقول عند ابتداء القراءة أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون وليقرأ سورة ﴿الحمد لله﴾^(١)، ﴿وقل أعوذ برب الناس﴾^(٢) وليقل عند فراغه من كل سورة: صدق الله تعالى وبلغ رسوله عليه السلام اللهم انفعنا به وبارك لنا فيه، الحمد لله رب العالمين، استغفر الله الحي القيوم.

وفي أثناء قراءته إذا مرّ بآية تسيح سبّح وكبّر، وبآية دعاء واستغفار دعا واستغفر، وإن مرّ بمرجو سأل، وبمخوف استعاذ، يفعل ذلك بلسانه وقلبه فيقول: سبحان الله نعوذ بالله، اللهم ارزقنا اللهم ارحمنا.

وعن حذيفة قال: صليت خلف النبي ﷺ فابتدأ بسورة البقرة فكان لا يمر بآية عذاب إلا استعاذ ولا بآية رحمة إلا سأل ولا بآية تنزيه إلا سبّح، ثم إذا فرغ قال: ما كان يقوله عليه السلام عند ختم القرآن وهو: «اللهم ارحمني بالقرآن العظيم واجعله لي إماماً ونوراً وهدى [٣٧٣] ورحمة اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلمني منه ما جهلت / وارزقني تلاوته آتاء الليل والنهار واجعله لي حجة يا رب العالمين».

التاسع: في الجهر بالقراءة، يجهر به إلى حد يسمع نفسه فإن لم يفعل لم تصح صلاته إذا القراءة عبارة عن تقطع الصوت بالحروف، ولا بد من صوت وأقله ما يسمع نفسه. وأما الجهر بأن يسمع غيره فمحبوب من وجه، ومكروه من وجه.

فالوجه المحبوب قوله عليه السلام: «إذا قام أحدكم من الليل فليجهر بقراءته فإن الملائكة وعمار الدار يستمعون إلى قراءته ويصلون بصلاته»^(٣).

وقد سمع جماعة يجهرون بالليل فصوب ذلك. ومر عليه السلام بثلاث من أصحابه مختلفي الأحوال مرّ على أبي بكر وهو يخافت القراءة فسأله عن ذلك فقال: إن الذي أناجي هو

(١) سورة الفاتحة، الآية: ١.

(٢) سورة الفلق، الآية: ١.

(٣) قال الحافظ العراقي في المعنى المجلد الأول طيبة دار الحديث ص ٤٣٢: رواه بنحوه بزيادة فيه. أبو بكر البزار ونصر المقدسي في المواعظ وأبو شجاع من حديث معاذ بن جبل وهو حديث منكر منقطع.

بمعني، فمرّ على عمر وهو يجهر فسأله فقال: أوقظ الوسنان وأزجر الشيطان.

ومرّ على بلال وهو يقرأ آية من هذه السورة وآية من هذه فسأله فقال: اخلط الطيب بالطيب فقال: «كلهم قد أحسن وأصاب»^(١).

وفي بعض كتب أصحابنا أنه: أمر أبا بكر أن يجهر قليلاً وأمر عمر أن يخفض قليلاً، وأمر بلال إذا دخل السورة يتمها.

وأما الوجه المكروه فقولوه عليه السلام: «فضل قراءة السر على العلانية كفضل صدقة السر على العلانية»^(٢).

وقوله: «خير الرزق ما يكفي وخير الذكر الخفي»^(٣).

وفي الخبر العام: يفضل عمل السر على عمل العلانية بسبعين ضعفاً. وفي الخبر: لا يجهر بضعكم على بعض بين المغرب والعشاء»^(٤).

ووجه الجمع بين هذه الأحاديث / أن: الإسرار أبعد من الرياء والتصنع، فهو أفضل في [٣٧٤] حق من يخاف ذلك وإلاً فإن لم يشوّش بالجهر على غيره فالجهر أفضل؛ لأن العمل فيه أكثر وفائده تتعدى إلى غيره، ولأنه يوقظ قلب القارئ، ويجمع همه إلى الفكر ويطرده النوم ويرفع الصوت، ويزيد في نشاطه، ويقلل من كسله، ويوقظ نائماً للصلاة، ويكون ذلك بسببه، ويشوق إلى الخدمة بطالاً غافلاً، فمهما أحضره شيء من هذه النيات تضاعف أجره، وبكثرة النيات تركوا أعمال الأبرار.

(١) أطراف الحديث عند الزبيدي في الإتحاف (٤/٤٩٤) والمتقي الهندي في الكنز (١٦٩٧٥)، وأبو داود في التطوع (٢٦٧) والسيوطي في الدر المنثور (٣/١١).

(٢) قال الحافظ العراقي في المعني المجلد الأول طبعه دار الحديث ص ٤٣١: وفي لفظ آخر: «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة» أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه من حديث عتبة بن عامر باللفظ الثاني. قال المحقق للإحياء طبعه دار الحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (٣١٠٥).

(٣) قال الحافظ العراقي في المعني ص ٤٣١ المجلد الأول طبعه دار الحديث: أخرجه أحمد وابن حبان من حديث سعد بن أبي وقاص قال محقق الإحياء طبعه دار الحديث: ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٢٨٨٦).

(٤) قال الحافظ العراقي في المعني طبعه دار الحديث ج ١ ص ٤٣١ رواه أبو داود من حديث البياض دون قوله: «بين المغرب والعشاء». والبيهقي في الشعب من حديث علي «قبل العشاء وبمائها» وفيه الحارث الأعور وهو ضعيف.

وإن كان في العمل الواحد عشر نيات، كان فيه عشرة أجور، ولهذا كان قراءة المصحف أفضل إذ يزيد عمل البصر وتأمل المصحف وحمله، وقد قيل الختمة من المصحف بسبع لأن النظر في المصحف عبادة.

العاشر: تحسين القراءة من غير تمديد مفرط يغير النظم. وروي أن النبي عليه السلام كان يتنظر عائشة فأبطأت فقال: «ما حبسك»؟

فقلت: كنت استمع قراءة رجل ما سمعت أحسن منه صوتاً، فقام حتى استمع إليه طويلاً ثم رجع فقال: «ذلك سالم مولى حذيفة رضي الله عنه الحمد لله الذي جعل في أمتي مثله»^(١).

واستمع أيضاً ذات ليلة إلى ابن مسعود ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهم فقال: «من أراد أن يقرأ القرآن كما أنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد»^(٢).

واستمع أيضاً إلى قراءة أبي موسى الأشعري وقال: «لقد أوتي هذا من مزامير آل داود»^(٣).

وفي الخبر أن عمر رضي الله عنه قال لأبي موسى الأشعري: ذكرنا ربنا فقرأ عليه حتى كاد وقت الصلاة يتوسط فقيل له: يا أمير المؤمنين الصلاة الصلاة. فقال: أولسنا في الصلاة إشارة إلى قوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(٤).

[٣٧٥] وقال عليه السلام: «من استمع إلى آية من كتاب الله عز وجل / كانت له نوراً يوم القيامة» وفي خبر آخر «كتب له عشر حسنات»^(٥).

(١) قال الحافظ العراقي في المغني المجلد الأول ص ٤٣٣ طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود من حديث عائشة ورجاله إسناده ثقات.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني المجلد الأول طبعة دار الحديث: أخرجه أحمد والنسائي في الكبرى من حديث عمر والترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود «أن أبا بكر وعمر بشراه أن رسول الله ﷺ قال: من أحب أن يقرأ الحديث قال الترمذي حسن صحيح.

(٣) حديث «لقد أوتي هذا من مزامير آل داود». متفق عليه من حديث أبي موسى. قاله الحافظ العراقي في المغني في المجلد الأول ص ٤٣٣ طبعة دار الحديث.

(٤) سورة التكتوت، الآية: ٤٥.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني المجلد الأول طبعة دار الحديث ص ٤٣٤: أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة: «من استمع إلى آية من كتاب الله كتب له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة» وفيه ضعف. وانقطاع.

ومهما عظم أجر الاستماع وكان التالي هو السبب كان شريكاً في الأجر إلا إن كان قصده الرياء والتصنع والله أعلم .

الفصل الثالث: في إعمال الباطن في التلاوة^(١)

وهي عشرة: فهم أصل الكلام، ثم التعظيم، ثم حضور القلب، ثم التدبر، ثم التفهم، ثم التخلي عن موانع الفهم، ثم التخصص، ثم التأثر، ثم الترتي، ثم التبري .

الأول: فهم عظمة الكلام وعلوه ولطف الله سبحانه في إيصاله إلى أفهام خلقه مع عظمته وعلو درجته .

قال الغزالي: وقد عبّر بعض العارفين عنه، وزعم أن كل حرف من كلام الله عز وجل في اللوح، أعظم من جبل قاف، وأن الملائكة لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يقلوه لما طاقوا حتى يأتي إسرافيل عليه السلام وهو ملك اللوح فيقله بإذن الله ورحمته لا بقوته ولكن الله قواه عليه .

قال الغزالي: ولولا تثبيت الله موسى عليه السلام لما أطاق سماع كلامه، كما لم يطق الحبل مبادئ تجليه حيث صار دكاً .

قال: ولا يمكن أن يفهم عظمة الكلام إلا بمثله . قال: ولقد تأنت بعض الحكماء في التعبير على وجه اللطف في إيصال معاني الكلام مع علو درجته إلى فهم الإنسان مع قصور رتبته، وضرب له مثلاً قال: وذلك أنه دعى بعض الملوك إلى شريعة الأنبياء .

فقال: كيف يطيق الناس حمل كلام الله؟ قال الحكيم: إن الناس لمّا أرادوا أن يفهموا بعض الدواب أو الطير ما يريدون من تقديمها وتأخيرها وإقبالها وإدبارها، ورأوا يقصر تميزها عن فهم كلامهم على أنوار قلوبهم مع حسنه ونظمه، وضعوا لها أصواتاً لائقة بها من النقر والتصفير والأصوات القريبة من أصواتها / لكي يطبقوا حملها، فكذلك الناس لما عجزوا [٣٧٦] عن فهم كنه كلام الله تعالى فصاروا بالأصوات المرتجعة بينهم يسمعون الحكمة المخيرة في كلامه تعالى، فكان الصوت للحكمة جسداً ومسكناً والحكمة للصوت نفساً وروحاً، والله أعلم .

الثاني: التعظيم للمتكلم وذلك إذا خطر بباله العرش والكرسي، والسموات والأرض

(١) هذا الفصل مأخوذ من كتاب الإمام الغزالي الإحياء المجلد الأول ص ٤٣٤ طبعة دار الحديث .

وما بينهما من المخلوقات، وعلم أنه الخالق لجميعها، والقادر عليها وأنهم مترددون بين رحمته وسطوته، وأنه الذي يقول: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي، وهذه غاية العظمة فالتفكر في مثل هذا يحقق تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام.

الثالث: حضور القلب وترك حديث النفس، قيل في التفسير: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾^(١). أي بجهد واجتهاد، فالجد أن يكون متجرداً له منصرف الهم إليه.

وقيل لبعضهم: تحدث نفسك بشيء إذا قرأت القرآن؟ قال: أو شيء أحب إلي من القرآن أحدث به نفسي.

ويقال: إن في القرآن ميادين، وساتين، ومقاصير، وعرائس، وديابيح، ورياض، وخانات؛ فالميمات ميادين القرآن، والراءات بساتينه، والحامدات مقاصيره، والمسبحات عرائسه، والحاميمات ديابيجه، والمفصل رياضه، والخانات ما دون ذلك.

فإذا دخل القارئ في الميادين وقطف من البساتين، ودخل المقاصير، وشهد العرائس، ولبس اللدياح، وتزه في الرياض، وسكن غرف الخانات استغرقه ذلك وشغله عما سواه، ففي القرآن ما يستأنس به إن كان التالي لذلك أهلاً فكيف يطلب الأُنس بالفكر في غيره وهو في متزهات ومتفرجات والله أعلم.

الرابع: التدبر وهو من وراء حضور القلب؛ فإنه قد يحضر ولا يتدبر بل يقتصر على [٣٧٧] السماع، والمقصود من القراءة التدبر، قال الله تعالى: ﴿لِيَكْتُبُوا آيَاتِهِ﴾^(٢). / في أمثالها.

وقال علي: لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا في قراءة لا تدبر فيها، وإنما سن الترتيل في الظاهر ليمكن من التدبر بالباطن والله أعلم، وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بتريده فليردد، إلا أن يكون خلف إمام.

وقد روي أن النبي عليه السلام: «قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة»^(٣)، وإنما ردها ليتدبر في معانيها.

(١) سورة مريم، الآية: ١٢.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٩.

(٣) قال الحافظ العراقي في المعنى المجلد الأول ص ٤٣٧ طبعة دار الحديث: رواه أبو ذر الهروي في معجمه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

وعن أبي ذر قال: «قام بنا رسول الله ﷺ ليلة بهذه الآية يرددناها: ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإنَّهُمْ عَادَتُكُمْ﴾»^(١)»^(٢).

وقام تميم الداري بهذه الآية: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا أَلْسِنَاتِمْ﴾»^(٣) إلى آخر الآية، وقام سعيد بن جبيرة يردد هذه الآية: «وَأَمْتَارُوا النَّيِّمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾»^(٤).

وقال بعضهم: إني لأفتح السورة فيوافقني بعض ما أشهد فيها من الفراغ منها حتى يطلع الصبح، وقال بعضهم: كل آية لا أتفهمها، ولا يكون قلبي فيها لا أعدلها ثواباً.

وعن سليمان الدارني قال: إني لا أتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمساً ولولا إني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها.

الخامس: التفهم وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل، وذكر أحوال أنبيائه، وذكر أحوال المكذبين لهم، وأنهم كيف أهلكوا، وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار.

أما صفاته تعالى فكقولوه: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾»^(٥) وقوله: «السَّلَامُ أَلْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبِينَ﴾»^(٦) الآية.

فيأمل معاني هذه الأشياء لينكشف له أسرارها ولهذا أشار علي بقوله: ما أسر إلي رسول الله ﷺ شيئاً كنتم على الناس إلا أن يؤتى الله عز وجل عبداً فهماً في كتابه.

قال ابن مسعود: من أراد علم الأولين والآخرين فليؤثر القرآن، واستقصاء شرح ما يتدبر فيه لا نهاية له: «قُلْ لَوْ كَانَ أَلْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ أَلْبَحْرُ﴾»^(٧) الآية.

وقد روي عن علي قال: / لو شئت أوقرت سبعين بعبيراً من تفسير فاتحة الكتاب. [٣٧٨]

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٨.

(٢) قال الحافظ العراقي في المعني (ج ١ ص ٤٣٧) طبعة دار الحديث: أخرجه النسائي وابن ماجه بسند صحيح.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢١.

(٤) سورة يس، الآية: ٥٩.

(٥) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٦) سورة الحشر، الآية: ٢٣.

(٧) سورة الكهف، الآية: ١٠٩.

والغرض مما ذكرناه التنبيه على طريق التفهم ليفتح بابه وأما الاستقصاء فلا مطمع فيه، ومن لم يكن له فهم لما في القرآن، ولو في أدنى الدرجات دخل في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾^(١). والطوايع الموانع التي سنذكرها فيما بعد إن شاء الله.

وقيل: لا يكون المرید مریداً حتى يجد في القرآن أن كل ما يريد، ويتعرف فيه النقصان من المزيد، ويستغني بالمولى عن العبيد.

السادس: التخلي عن موانع الفهم، وإن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن بأسباب، وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن. ولذلك قال النبي عليه السلام: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت»^(٢). ومعاني القرآن من جملة الملكوت لأن كل ما غاب عن الحواس ولم يدرك إلا بنور البصيرة فهو من الملكوت.

وحجب الفهم أربعة: أولها: أن يكون القلب منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراءة ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل، فيكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف.

والثاني: علم مذهب سمعه تقليداً ولمثل هذا قالت المتصوفة: إن العلم حجاب وأرادوا به العقاب التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد.

وأما العلم الحقيقي الذي هو الكشف بنور البصيرة فلا يكون حجاباً؛ لأنه منتهى الطلب وهذا التقليد قد يكون باطلاً فيكون مانعاً كمن يعتقد في الاستواء على العرش الحلول والتمكن، وكذلك سائر ما لا يجوز اعتقاده في الله تعالى.

[٣٧٩]. وقد يكون حقاً مانعاً أيضاً عن / الفهم والكشف؛ لأن الحق له مراتب ظاهراً وباطناً، فجمود الطبع على العلم الظاهر يمنعه الوصول العلم الباطن والله أعلم.

الثالث: أن يكون مصراً على الذنب أو متصفاً بكبراً ويهوى مطاع، فيكون ذلك ظلمة

(١) سورة محمد، الآية: ١٦.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني ج ٣ ص ١٤ باب بيان خاصية قلب الإنسان طبعة دار الحديث: أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه. قال محقق الإحياء أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٣/٢) بنحوه وفيه علي بن زيد «ضعيف» وذكره الحافظ في غير موضع.

على القلب كالخبث على المرأة، وبه حجب الأكترون فالقلب مثل المرأة، والشهوات مثل الصدا ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرأة، والرياضة للقلب بإزالة الشهوات مثل تصقيل المرأة.

ولذلك قال عليه السلام: «إذا عظمت أمتي الدينار والدرهم نزعت منهم هيبة الإسلام»^(١).

وقد شرط الله تعالى في الفهم الإنابة، والتبصرة، والتذكر فقال: ﴿تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾^(٢). وقال: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾^(٣) وقال: ﴿وَمَا يَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٤).

والذي أثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوي الألباب.

الرايع: أن يكون قرأ تفسيره ظاهراً واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن مجاهد وابن عباس، وأن ما سوى ذلك تفسير بالرأي، وأن من فسّر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار، فهذا أيضاً من الحجب العظيمة، وسيأتي بيان التفسير بالرأي في الفصل الرابع إن شاء الله.

السابع: التخصيص، وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمراً أو نهياً قدر أنه المنهي والمأمور.

وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك وإن سمع قصص الأولين علم أن ذلك ليعتبر به، فما من قصة في القرآن إلا مفيدة في حق النبي عليه السلام وأمه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿لِنُنَبِّئَكَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾^(٥).

فليقلد العبد أن الله سبحانه يثبت به فؤاده بما يقص عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الأذى وغير ذلك، وكيف لا يقدر هذا والقرآن ما نزل للنبي / خاصة بل هو شفاء ورحمة [٣٨٠] للمؤمنين.

(١) ذكره الحافظ العراقي بزيادة في آخره: «وإذا تركوا الأمر بالمعروف حرموا بركة الوحي» وقال: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف معضلاً من حديث الفضل بن عياض قال: ذكره عن نبي ﷺ.

(٢) سورة ق، الآية: ٨.

(٣) سورة غافر، الآية: ١٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

ولذلك أمر الله تعالى كافة الناس بذكر نعمة الكتاب فقال: ﴿أذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾^(١) الآية.

وقال: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾^(٢) ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾: في أمثالها: قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾^(٣).

وقال محمد بن كعب القرظي من بلغه القرآن فكانما كلمه الله فليقدر القارىء أنه المقصود بجميع ما في القرآن.

ولذلك قال بعض العلماء: هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا بعهوده تندبرها في الصلوات، وتقف عليها في الخلوات، وتتفقدتها في الطاعات بالسنن المتبعات.

وكان مالك بن دينار يقول: ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن، إنَّ القرآن ربيع المؤمن، كما أن الغيث ربيع الأرض.

قال قتادة: لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان قال تعالى: ﴿وَتُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^(٤).

الثامن: وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فتكون له بكل فهم حالة يتصف بها قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره فمهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه فيتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة، فعند الوعيد وتقبيده المغفرة بالشرط كقوله تعالى: ﴿وَأَنِّي لَفَعْفَأٌ وَرَبُّكَ تَابٌ وَرَحِيمٌ وَرَحِيمٌ﴾^(٥).

فيتضاءل من خيفته كأنه كاد يموت. وعند التوسع ووعد المغفرة، يستبشر كأنه يطير من الفرح، وعند ذكر أسماء الله تعالى يتطأطأ خضوعاً لعظمته، وعند ذكر الكفار ما يستحيل عليه من الصاحبة والولد يتكسر باطنه حياءً من قبح مقاتلتهم، وعند ذكر الجنة ينبعث شوقاً إليها، وعند وصف النار ترتعد فرائضه خوفاً منها.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.

(٢) سورة محمد، الآية: ٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

(٥) سورة طه، الآية: ٨٢.

ولهذا قال عليه السلام لابن مسعود لما قرأ عليه فبكى: «/ حسبك»^(١). لأن تلك الحالة [٣٨١] استغرقت قلبه بالكلية.

ولقد كان من الخائفين من خَرَّ مغشياً عليه عند آيات الوعيد، ومنهم من مات من سماع الآية، فيمثل هذه الأحوال يخرج عن أن يكون حاكياً في كلامه، وإذا قال: «إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم»^(٢) فإذا لم يكن خائفاً كان حاكياً.

وإذا قال: «ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير»^(٣). ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكياً. وإذا قال: «وَلْتَصْبِرْ عَلَيَّ مَا آءَاذُيْتُمُونَا»^(٤).

فليكن حاله الصبر والعزيمة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة، وإلا كان حظه حركة اللسان مع صريح اللعن على نفسه في قوله تعالى: «ألا لعنة الله على الظالمين»^(٥).

وقوله: «كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ»^(٦). وقوله: «وهم في غفلة معرضون»^(٧). «وَمَنْ لَمْ يَتَّبِعْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»^(٨). في أمثالها.

وكان داخلاً في قوله تعالى: «وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي»^(٩). يعني التلاوة المجردة.

وفي قوله: «فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا»^(١٠) الآية. وفي قوله: «وَكَاتِبِينَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ»^(١١). لأن القرآن هو

(١) أطراف الحديث عند البخاري (٤٤١/٦) ومسلم في العيدين (١٩) البيهقي في السنن (٢٣١/١٠) وابن حجر في الفتح (٤٤٠/٢، ٤٤٥) والزبيدي في الإتحاف (٣٥٥/٥، ٤٩٣/٦، ٥٥١) والمتقي الهندي في كتر العمال (٢٨٤٧٣) والسيوطي في الدر المنثور (١٦٣/٢) وأبو نعيم في الحلية (٣٨٣/٤).

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥.

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ٦٠.

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ١٢.

(٥) سورة هود، الآية: ١٨.

(٦) سورة الصف، الآية: ٣.

(٧) سورة الأنبياء، الآية: ١.

(٨) سورة الحجرات، الآية: ١١.

(٩) سورة البقرة، الآية: ٧٨.

(١٠) سورة النجم، الآية: ٢٩.

(١١) سورة يوسف، الآية: ١٠٥.

المبين لتلك الآيات في السموات والأرض، ومهما تجاوزها ولم يتأثر فيها كان معرضاً عنها.

ويقال: إن من لم يكن متصفاً بأخلاق القرآن، فإذا قرأ القرآن ناداه الله: مالك وكلامي وأنت معرض عني، دع عنك كلامي إن لم تتب.

ومثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرره مثال من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات وقد كتب إليه في عمارة مملكته وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه، فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة كان أبعد من الاستهزاء، واستحقاق المقت.

[٣٨٢] ولذلك قال بعض السلف: إني لأهْمُ بقراءة القرآن / فإذا تذكرت ما فيه خشيت المقت فأعدل إلى التسييح والاستغفار فالمعرض عن العمل به داخل في قوله: ﴿فَبَيِّنُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاسْتَرْوُوا بِهِ نَمَتًا قَلِيلًا﴾^(١) الآية.

ولذلك قال عليه السلام: «اقرأوا القرآن ما اثلثت عليه قلوبكم ولانت له جلودكم فإذا اختلفتم فليستم تقرأونه» وفي بعضها: «فإذا اختلفتم فليستم تقرأونه» وفي بعضها: «فإذا اختلفتم فقوموا عنه»^(٢).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿إِيمَانًا﴾^(٣).

وقال عليه السلام: «إن أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ علمت أنه يخشى الله عز وجل، فالقرآن يراد لاستجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به وإلاً فالمؤنة في تحريك اللسان بحروف خفيفة»^(٤).

وقال الغزالي: ولقد مات عليه السلام عن عشرين ألفاً من الصحابة، ولم يحفظ القرآن منهم إلا ستة اختلف منهم في اثنين، وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين، وكان الذي يحفظ البقرة وآل عمران من علماتهم ولما جاء واحد ليتعلم القرآن فأنهى إلى قوله: ﴿فَمَنْ

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

(٢) قال الحافظ العراقي في المعنى (ج ١ ص ٤٤٤) طبعة دار الحديث متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله البجلي في اللفظ الثاني دون قوله: «ولانت جلودكم».

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٢.

(٤) قال الحافظ العراقي في المعنى (ج ١ ص ٤٤٤) أخرجه ابن ماجه بسند ضعيف.

أطراف الحديث عند الزبيدي في الإتحاف (٥٢١/٤).

يَعْمَلُ مُقْتَالًا دَرَوًّا خَيْرًا بَرَةً وَمَنْ يَعْمَلُ مُقْتَالًا دَرَوًّا شَرًّا بَرَةً: فقال: يكفيني هذا فانصرف. وقال عليه السلام: «انصرف الرجل وهو فقيه»^(١).

وإنما العزيز أن يمن الله عز وجل عليه بتلك الحالة على قلب عقيب فهم الآية، فأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى فالتالي باللسان المعرض عن العمل جدير أن يكون هو المراد بقوله: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا»^(٢) الآية. إلى قوله: «فَنَسِيَّتَهَا»: أي تركتها ولم تنظر إليها «وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى». فالمقصر في الأمر ناس له.

وتلاوة القرآن يشترك فيها اللسان، والعقل، والقلب، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالتريتيل، وحظ العقل تفسير المعاني، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والالتزام، فاللسان مترجم والعقل موقظ والقلب متعظ.

التاسع: الترقى أعني أن يترقى العبد حتى كأنه يسمع الكلام من الله تعالى لا من نفسه، فدرجات القراءة ثلاثة:

أدناها: أن يقدر العبد كأنه يقرأه / على الله تعالى، واقفاً بين يديه، وهو ناظر إليه [٣٨٣] ومستمع منه، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهاال.

الثانية: أن يشهد بقلبه كأن الله عز وجل يراه، ويخاطبه بالطافه، ويناجيه بأنعامه، فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم.

الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم، وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه، ولا إلى قراءته ولا إلى تعلق الأنعام به من حيث أنه منعم عليه، بل يكون مقصور الفهم على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره وهذه درجة المقربين، وما قبلها درجة أصحاب اليمين وما خرج من هذا فهو درجة الغافلين.

(١) قال الحافظ العراقي في المنهني (رج ص ٤٤٥) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمر وقال: «أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أقرتني يا رسول الله... الحديث وفيه «فاقرأه رسول الله ﷺ إذا زلزلت حتى فرغ منها فقال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليها أبداً ثم أدير الرجل فقال رسول الله ﷺ: «أفلق الرويجل أفلق الرويجل» ولأحمد والنسائي في الكبرى من حديث معصمة عم الفرزدق أنه صاحب القصة فقال: حسي لا أبالي أن لا أسمع غيرها.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٤.

وقال عثمان وحذيفة لو ظهرت القلوب لم تشيع من قراءة القرآن قالوا: ذلك لأنها بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام.

قال ثابت البناني: كابدت القرآن عشرين، وتمتعت به عشرين.

وبمشاهدة الكلام دون ما سواه يكون العبد ممثلاً لقوله تعالى: ﴿فَقَرِّئُوا إِلَيَّ اللَّهُ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾^(١).

فمن لم يره في كل شيء فقد رأى غيره، وذلك الشرك الخفي بل التوجه الخالص أن لا يرى في كل شيء إلا الله تعالى.

العاشر: التبري، وأعني أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بعين الرضى والتزكية، فإذا تلى آية الوعد والمدح للصالحين، فلا يشهد لنفسه عند ذلك، بل يشهد للموقنين والصدقيين ويتشوق أن يلحقه الله بهم.

وإذا تلى آيات المقت، وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هنالك، وقدّر أنه المخاطب خوفاً وإشفاقاً.

ولذلك كان ابن عمر^(٢) يقول: اللهم إني استغفرك لظلمي وكفري.

قيل: هذا الظلم، فما بال الكفر؟ فتلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾^(٣).

وقيل لبعضهم: بماذا تدعو؟ قال: / بماذا أدعو، استغفر الله عز وجل من تقصيري [٣٨٤] سبعين مرة.

فإذا رأى نفسه بصورة التقصير في قراءته، كانت رؤيته سبب قربه، فمن أشهد البعد في القرب، لطف له في الخوف حتى يسوقه إلى درجة أخرى في القرب وراه، ومن أشهد القرب في البعد مكره بالأمن الذي يفضيه إلى درجة أخرى في البعد أسفل مما هو فيه.

ومهما كان مشاهداً لنفسه بعين الرضى صار محجوباً بنفسه، فإذا جاوز حد الالتفات إلى نفسه، ولم يشاهد إلا الله تعالى في قراءته، انكشف له الملكوت.

(١) سورة الذاريات، (الآيتان: ٥١، ٥٢).

(٢) ذكر محقق الإحياء طبعة دار الحديث أن هذا الكلام الذي أورده المؤلف خالياً من السند فنسبته إلى ابن عمر لا نستطيع قولها.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

ولذلك قال بعضهم: لما صليت العتمة، والوتر وكنت في الدعاء منه رفعت لي روضة خضراء فيها أنواع الزهر من الجنة، فما زلت انظر إليها حتى أصبحت.

وهذه غاية المكاشفات لا تكون إلا بعد التبري من النفس، وعدم الالتفات إلى هواها، ثم تخصص هذه المكاشفات بحسب أحوال المكاشف، فحيث يتلو آية الرجاء يغلب على حاله الاستبشار، فتكتشف له صورة الجنة، فكأنه يراها عياناً، وإن غلب عليه الخوف كوشف بصورة النار كأنه يرى أنواع عذابها، وذلك أن المسموع مختلف إذ فيه كلام راض، وكلام غضبان، وكلام منعم، وكلام منتقم، وكلام جبار متكبر لا يبالي، وكلام رحيم حنان متعطف لا يهمل.

الفصل الرابع في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل^(١)

فإن قيل: لقد عظمت الأمر فيما سبق في فهم أسرار القرآن، وما ينكشف لأرباب القلوب الزاكية من معانيها فكيف يجوز ذلك؟ وقد قال عليه السلام: «من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»^(٢).

وعن هذا شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف في تأويل كلمات القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس وسائر المفسرين وذهبوا إلى أنه كفر.

فإن صحَّ ما قاله / أهل التفسير، فما معنى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره؟ وإن لم يصح [٣٨٥] فما معنى قول النبي عليه السلام: «من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار».

فاعلم أن من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مصيب في الإخبار عن حد نفسه، ولكنه مخطيء في رد كافة الخلق إلى درجته، بل الأخبار والآثار تدل على أن معاني القرآن متسعة لأرباب الفهم.

قال علي: إلا أن يؤتى الله عز وجل عبداً فهماً في القرآن.

وقال عليه السلام: «إن للقرآن ظهراً وبتناً وحداً ومطلعا»^(٣).

-
- (١) هذا الفصل منقول من كتاب الإمام الغزالي الإحياء (ج ١ ص ٤٤٧) طبعة دار الحديث.
 (٢) أطراف الحديث عند الزبيدي في الإتحاف (٥٢٦/٤) الفتن في تذكرة الموضوعات (٨٤). والشوكاني في الفوائد المجموعة (٣١٧)، وابن عراق في تنزيه الشريعة (٢٧٤/١) وهو عند الزبيدي في الإتحاف (٥٢٦/٤، ٢٥٧/١).
 (٣) أطراف الحديث في إتحاف السادة المتقين (٦٥/٢، ٥٢٧/٤).

وقال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً، وفي الخبر: لن يفقه أحدكم كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوه كثيرة.

وترديد النبي عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم عشرين مرة لا يكون إلا لتدبره باطن معانيه وإلا فترجمة تفسيره ظاهرة، وقال ابن مسعود: من أراد علم الأولين والآخريين فليؤثر القرآن.

وقال بعض العلماء: لكل آية ستون ألف فهم، وقال آخرون: القرآن يحتوي على سبعة وسبعين ألف علم وماتني علم إذ لكل كلمة علم، ثم تتضاعف كذلك أربعاً لكل واحد ظاهر وباطن وحد ومطلع.

وقول عليّ: لو شئت أوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب وتفسير ظاهرها في غاية الاختصار.

وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله تعالى وصفاته وفي القرآن إشارة إلى مجامعها، وقد قال النبي ﷺ: «اقرأوا القرآن والتمسوا غرائبه»^(١).

فكل ما اختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن رموز إليه ودلالات يختص أهل الفهم بدركه.

وقال ابن عباس في قوله: «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ»^(٢). قال: يعني الفهم في القرآن فكل هذا [٣٨٦] يدل على أن في فهم القرآن مجالاً متسعاً وأن المنقول من ظاهر التفسير / ليس منتهى الإدراك.

وأما نبيه عليه السلام عن تفسير القرآن بالرأي^(٣)، وقول أبي بكر رحمه الله: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إن أنا فسرت القرآن برأيي. إلى غير ذلك مما ورد في الآثار والأخبار في النهي عن تفسير القرآن بالرأي؛ فإنه لا يخلو أن يكون به الاقتصار على النقل المسموع دون الاستنباط والتفهم، أو المراد به أمر آخر فمحال قطعاً أن يراد به أن لا يتكلم أحد في القرآن إلا بما سمع لوجه:

(١) قال الحافظ العراقي في المعني (ج ١ ص ٤٤١) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف وأبو يعلى المرصلي والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بلفظ «أعربوا» وسنده ضعيف.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٣) قال الحافظ العراقي حديث النهي عن تفسير القرآن بالرأي غريب. قاله في المعني (ج ١ ص ٤٤٩) طبعة دار الحديث.

أحدها: يشترط أن يكون مسموعاً من النبي مسند إليه، وذلك لا يوجد إلا في بعض القرآن، وأما تفسير ابن عباس، وابن مسعود من قبَل أنفسهم، فينبغي أن لا يقبل منهم، ويقال هو تفسير بالرأي؛ لأنهم لم يسمعوه من النبي عليه السلام وكذلك غيرهم من الصحابة والمفسرين.

الثاني: أن الفقهاء من الصحابة وغيرهم من المفسرين قد قالوا في تفسير الآيات بأقويل مختلفة لا يمكن الجمع بينهما، فمحال أن تكون كلها من رسول الله ﷺ فلو صح في واحد لبطل الباقي، فصح أن كل مفسر قال بما ظهر له.

الثالث: أنه عليه السلام دعى لابن عباس فقال: «اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل»^(١).

فلو كان تفسيره مسموعاً كالتزليل فما معنى تخصيصه بذلك.

الرابع: أنه تعالى قال: «لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ»^(٢). فأثبت الاستنباط للعلماء وهو وراء السماع فثبت بما ذكرنا تناقض هذه الشبهة التي أودد ويطل اشتراط السماع في التفسير وجاز لكل عالم أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وعقله.

وأما النهي فإنه يدل على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي وميل من هواه فيتأول القرآن على وفق مراده لتصح له بدعة، وهذا تارة يكون مع / العلم أنه ليس المراد بالآية ذلك الرأي، ولكن يلبس على خصمه. [٣٨٧]

وتارة يكون مع الجهل إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى هواه ورأيه.

وتارة يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلاً من القرآن كالذي يدعو إلى مجاهدة القلب

القاسي فيقول: قال الله تعالى: «أَذْهَبْ إِلَيَّ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى»^(٣).

ويشير إلى قلبه، وأنه المراد بفرعون وهذا يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة

(١) أطراف الحديث عند البخاري (٤٨/١). ومسلم في فضائل الصحابة (١٣٨) وأحمد (٢٦٦/١)، ٣١٤، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٥، والمجلوني في كشف الخفا (٢٢٠/١) والتبريزي في مشكاة المصابيح (٦١٣٩) والسيرطي في جمع الجوامع (١٠٠٣٩). والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٤٣٥/١٤) والزبيدي في الإتحاف (٢٥٨/١)، ٥٣٢/٤، ٢٥٩/٧، ٦٤٧/٩، والقرطبي في التفسير (٣٣/١)، ١٨/٤، والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧٦/٩)، والطبراني في المعجم الصغير (١٩٧/١) وعند ابن أبي شيبة في المصنف (١١٢/١٢)، والبيهقي في دلائل النبوة (١٩٢/٦) وابن حجر في الفتح (١٧٠/١).

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٣.

(٣) سورة طه، الآية: ٢٤.

ترغياً للمستمع، وتستعمله الباطنية يتأولوا القرآن على وفق مرادهم، وهم يعلمون قطعاً أنه غير مراد به، فهذا التفسير ممنوع وهو أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي.

الوجه الثاني: أن يتسارع إلى التفسير بظاهر العربية من غير سماع ولا نقل فيما يتعلق بغريب القرآن، وما فيه من الألفاظ: المبهمة، والمبدلة، والاختصار، والحذف، والإضمار، والتقديم، والتأخير، فمن لم يحكم هذه المعاني ويادر إلى استنباط ذلك بظاهر العربية كثر غلطه، ودخل في جملة من يفسر القرآن بالرأي ولا بد من سماع التفسير أولاً ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم.

والغرائب التي لا تفهم إلا بالسماع فنون كثيرة، قال الغزالي^(١): ونحن نرمز إلى جملة منها ليستدل بها على أمثالها ولا مطمع في ذلك إلا بإحكام ظاهر التفسير أولاً، وهذا كمن يدعي فهم مقاصد الأتراك من كلامهم، وهو لا يحسن لغة الترك فلا مطمع إلى الباطن إلا بفهم الظاهر أولاً؛ فإن ظاهر التفسير يجري مجرى تعلم اللغة التي لا بد منها للفهم ولا بد فيها من استماع فنون كثيرة: منها الإيجاز بالحذف والإضمار كقوله: ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاسَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾^(٢) معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها.

[٣٨٨] وقوله: ﴿وَأَشْرَبُوا / فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾^(٣). معناه: حب العجل فحذف.

وقوله: ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾^(٤). أي ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى.

وقوله: ﴿وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ﴾^(٥). أي أهل القرية وأهل العير.

وقوله: ﴿فَنَلَّتُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٦). أي خفي علمها على أهل السموات والأرض، والشيء إذا خفي ثقل.

(١) ترددت هذه العبارة «قال الغزالي» وما أنها توحى بأنها تدل على أنها تسبق استشهاداً من أقوال الغزالي على أقوال المؤلف فإن هذا الإيهام في غير موضعه لأن الكلام من أول الفصل للإمام الغزالي وليس ما يلي العبارة فقط وإن كان المؤلف اعتاد ذلك ولقد أشرنا في بداية الفصل أنه من كتاب الإمام الغزالي.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٥٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٣.

(٤) سورة الإسراء، الآية: ٧٥.

(٥) سورة يوسف، الآية: ٨٢.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾^(١). أي تجعلون شكر رزقكم التكذيب.

وقوله: ﴿وَأَيْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾^(٢). أي على السنة رسلك.

وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾^(٣) يعني القرآن.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَثَ بِالْحِجَابِ﴾^(٤). يعني الشمس ولم يسبق لها ذكرها.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾^(٥). أي يقولون ما نعبدهم.

وقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَآءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾^(٦) الآية.

معناه لا يفقهون ما يقولون.

﴿مَا أَصَابَكَ﴾ الآية. ولولا هذا لكان مناقضاً لقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^(٧). ولفهم

منه مذهب القدرية.

ومنها المنقول المتقلب كقوله تعالى: ﴿وَطَوَّرَ سِينِينَ﴾. أي [طور] سيناء.

وقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ﴾. أي على إلياس، وقيل: إدريس؛ لأن في حرف ابن

مسعود: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِدَارِسِينَ﴾. ومنها المكرر القاطع لوصل الكلام كقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ

الَّذِينَ﴾ إلى قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾^(٨). معناه

وقوله: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ [شُرَكَاءَ] إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾^(٩) قَالَ

أَمَلًا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾^(١٠). معناه: لمن آمن من

الذين استضعفوا.

(١) سورة الواقعة، الآية: ٨٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٤.

(٣) سورة القدر، الآية: ١.

(٤) سورة ص، الآية: ٣٢.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٦) سورة النساء، الآية: ٧٨.

(٧) سورة النساء، الآية: ٧٨.

(٨) سورة يونس، الآية: ٦٦.

(٩) سورة يونس، الآية: ٦٦.

(١٠) سورة الأعراف، الآية: ٧٥.

ومنها المقدم والمؤخر كقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزِمَامِ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾^(١). معناه: ولولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاماً.

وقوله: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ / عَنْهَا﴾^(٢). معناه: يستلونك عنها كأنك حفي.

وقوله: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾^(٣). فهذا الكلام غير متصل، وإنما هو عائد إلى قوله: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٤). كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ. فصارت الأنفال لك إذ أنت راض بخروجك، وهم كارهون فاعترض بين الكلام الأمر بالتقوى وغيره.

ومنها المبهم وهو اللفظ المشترك بين معاني من كلمة أو حرف: أما الكلمة فالشيء والقرين والأمة والروح ونظائرها قال تعالى: ﴿عَبِيداً مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾^(٥). يعني نفقه مما رزق. وقوله: ﴿أَحَدُهُمَا أَبَکْمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾^(٦). أي الأمر بالعدل.

وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَلْنِي عَنْ شَيْءٍ﴾^(٧). يعني من علم صفات الربوبية وهي العلوم التي لا يحل السؤال عنها، حتى يبتدىء بها العارف. وقوله: ﴿أُمَّ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾^(٨). أي من غير خالق فربما يتوهم به أنه يدل على أن لا يخلق شيئاً إلا من شيء.

وأما القرين فكقوله تعالى: ﴿هَذَا مَا لَدَىٰ عَتِيدٍ﴾^(٩). أراد به الملك الموكل به.

وقوله: ﴿وَقَالَ قَرِينَةُ رَبِّنَا مَا أَطَعْتُهُ﴾^(١٠). أراد به الشيطان.

وأما الأمة فتطلق على ثمانية أوجه: منها الجماعة أمة من الناس يسقون، ومنها اتباع الأنبياء نحن أمة محمد، ومنها رجل جامع للخير يقتدى به: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾. ومنها

(١) سورة طه، الآية: ١٢٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ١.

(٥) سورة النحل، الآية: ٧٥.

(٦) سورة النحل، الآية: ٧٦.

(٧) سورة الكهف، الآية: ٧٠.

(٨) سورة الطور، الآية: ٣٥.

(٩) سورة ق، الآية: ٢٣.

(١٠) سورة ق، الآية: ٢٧.

الدين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾^(١). ومنها الحين: ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾. ﴿وَأَذَكَّرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾^(٢). والأمة القامة أيضاً، والأمة الإثم، والأمة رجل منفرد بالدين، ومنه يبعث زيد بن عمرو أمة وحده.

والروح أيضاً ورد في القرآن على وجه يطول ذكرها، وقد يقع الإبهام في الحرف: ﴿فَأَنْزَلَ بِهِ نَعْمًا فَوَسَّطَنَ بِهِ جَمْعًا﴾^(٣). فالباء الأولى كناية عن حوافر الخيل الموريات، والثانية كناية عن الإغارة وهي من: المغيرات صباحا / ﴿فَوَسَّطَنَ بِهِ جَمْعًا﴾: جمع المشركين فأغاروا [٣٩٠] بجمعهم.

وقوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ﴾: يعني بالسحاب. ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ﴾ يعني بالماء. ﴿مِنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ﴾.

وأمثال هذا في القرآن لا ينحصر، والقرآن كله غير خال من هذا الجنس؛ لأنه نزل بلغة العرب فكان مشتملاً على كلامهم من إيجاز، وتطويل، وإضمار، وحذف، وإبدال، وتقديم، وتأخير، ليكون معجماً لهم ومعجزاً في حقهم.

فكل من اكتفى بفهم ظاهر العربية فبادر إلى التفسير من غير نقل ولا إحكام لهذه المعاني، فهو داخل في زمرة من فسر القرآن برأيه مثل أن يفهم من تفسير الأمة معنى واحداً مشهوراً فإذا سمع لفظها في موضع آخر مال رأيه إلى الذي سمع أولاً من مشهور معناها فإذا حصل له السماع وعلم هذه الأمور فإنه يفهم ظاهر التفسير دون فهم حقائق المعاني.

ومثال ذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾^(٤). فظاهر تفسيره واضح وحقيقة معناه غامض فإنه إثبات للرمي ونفي له وهما متضادان في الظاهر ما لم يفهم أنه رمى من وجه ولم يرم من وجه، ومن الوجه الذي لم يرم رمى الله تعالى.

وكذلك قوله: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾^(٥). فإذا كانوا هم القاتلون كيف يكون سبحانه هو المعذب، وإذا كان الله تعالى هو المعذب بتحريك أيديهم فما معنى أمرهم بالقتال؟ فحقيقة هذا يستمد من بحر عظيم من علوم المكاشفات لا يغني عنه ظاهر التفسير وهو أن يعلم

(١) سورة الزخرف، الآية: ٢٢.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٤٥.

(٣) سورة العاديات، الآيتان: ٤، ٥.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

(٥) سورة التوبة، الآية: ١٤.

وجه ارتباط الأفعال بالقدرة الحادثة، ويفهم وجه ارتباطها بقدرة الله تعالى حتى ينكشف بعد إيضاح علوم كثيرة غامضة صدق قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^(١).

فمن هذا الوجه يتفاوت الخلق في الفهم بعد الاشتراك في ظاهر التفسير وظاهر التفسير لا يغني عنه والله أعلم وأحكم وبه العون والتوفيق.

الباب الثاني

في أصناف الأدعية والأذكار الاستغفار^(٢)

الحمد لله الذي وسعت رحمته وشملت رأفته فدعا إلى طاعته الداني والقاصي، وعم إحسانه المطيع والعاصي، فرغبهم في الدعاء والسؤال وأفاض عليهم أنواع النعم والنوال فقال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكَرْكُمْ﴾. والصلاة على سيدنا محمد نبيه وعلى آله وأصحابه وخير أصفياه وسلم كثيراً.

أما بعد فليس بعد تلاوة القرآن عبادة تؤدي باللسان أفضل من ذكر الله بقلب منيب إليه، وخالص الأدعية بإحضار قلب متضرع إليه، والاستغفار من كل سوء سلف منه لديه، ونحن نشرح ذلك في ثلاثة فصول:

الأول: في الدعاء.

والثاني: في الذكر.

والثالث: في الاستغفار والصلاة على النبي عليه السلام.

الفصل الأول في الدعاء وأنواعه وآدابه

وهذا الفصل يتوزع منه خمسة أقسام:

الأول: في فضيلة الدعاء قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾^(٣) الآية.

وقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾^(٤) الآية.

(١) سورة الأنفال، الآية: ١٧.

(٢) هذا الباب مأخوذ من كتاب الإحياء للإمام الغزالي ج ١ ص ٤٥٦ طبعة دار الحديث.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾^(١) الآية. ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٢).

وعن النبي ﷺ أنه قال: «الدعاء مخ العبادة»^(٣).

وقال: «الدعاء هو العبادة»^(٤) ثم قرأ: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾.

وقال: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء»^(٥). وقال: «إن العبد لا يخطيه من الدعاء

إحدى ثلاث: إما ذنب يغفر له وإما خير يعجل له وإما خير يدخر له»^(٦).

وعن أبي ذر قال: يكفي من الدعاء مع البر ما يكفي الطعام من الملح.

وقال عليه السلام: «استلوا الله من فضله، وأفضل العبادة انتظار الفرج»^(٧). وينشد:

وإني لأدعو الله والأمر ضيق علي فما ينفك أن يتفرجنا

/ وَرُبَّ فَتَى سَدَتْ عَلَيْهِ وَجُوهُ أَصَابَ لَهَا فِي دَعْوَةِ اللَّهِ مَخْرَجًا [٣٩٢]

القسم الثاني: في أدعية منتخبة من القرآن. قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُونِنَا أَنَّهُ مُسْلِمَةٌ لَكَ وَأَرَانَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٨). ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٩).

(١) سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٣) أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة. قال الحافظ العراقي في المغني ج ١ ص ٤٧١ طبعة دار الحديث.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني ج ١ ص ٤٧١ طبعة دار الحديث أخرجه أصحاب السنن والحاكم وقال صحيح الإسناد وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني ج ١ ص ٤٧١ طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وقال: غريب، وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني ج ١ ص ٤٧١ طبعة دار الحديث: أخرجه الدلمي في الفردوس من حديث أنس وفيه روح، أخرجه ابن مسافر عن أبان بن عياش وكلاهما ضعيف، ولأحمد والبخاري في الأدب والحاكم وصحح إسناده من حديث أبي سعيد «إما أن تعجل له دعوته وإما أن يدخر له في الآخرة وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها».

(٧) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٧١) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حماد بن واقد ليس بالحافظ قلت - أي الحافظ العراقي - وضعفه ابن معين وغيره.

(٨) سورة البقرة، (الآيات: ١٢٧، ١٢٨).

(٩) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

﴿رَبَّنَا أفرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَبَيِّثْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(١).

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحِثْ عَلَيْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَكَ بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٢).

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(٣).

﴿رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٤).

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾^(٥).

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾^(٦).

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَبَيِّثْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٧).

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٨).

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾^(٩).

﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾^(١٠).

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ / أَهْلِهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾^(١١).

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٦.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ٥٣.

(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٤٧.

(٨) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

(٩) سورة آل عمران، الآية: ١٩٣.

(١٠) سورة آل عمران، الآية: ١٩٤.

(١١) سورة النساء، الآية: ٧٥.

- ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١).
- ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٢).
- ﴿رَبَّنَا أَنْتَخِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾^(٣).
- ﴿أَنْتَ وَرَبَّنَا فَاعْفُزْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ وَكُنْتُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدَانَا إِلَيْكَ﴾^(٤).
- ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾^(٥).
- ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَائِي رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾^(٦).
- ﴿رَبِّ اذْخُلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾^(٧).
- ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾^(٨).
- ﴿رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾^(٩).
- ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾^(١٠).
- ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾^(١١).

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.

(٢) سورة يونس، الآيات: ٨٥، ٨٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٥٥.

(٥) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

(٦) سورة إبراهيم، الآيات: ٤٠، ٤١.

(٧) سورة الإسراء، الآية: ٨٠.

(٨) سورة الكهف، الآية: ١٠.

(٩) سورة الفرقان، الآية: ٦٥.

(١٠) سورة الفرقان، الآية: ٧٤.

(١١) سورة الأنبياء، الآية: ٨٩.

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾^(١).

﴿رَبِّ أَنْزِلْ لِي مِثْلَ مُبَارَكَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾^(٢).

﴿رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَخَضُّونِي﴾^(٣).

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾^(٤).

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّْ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾^(٥) ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾^(٦).

[٣٩٤] ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي دُرُوسِي إِنِّي نُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي / مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٧).

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾^(٨).

﴿رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(٩).

﴿رَبَّنَا أْتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١٠).

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّْ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾^(١١).

(١) سورة طه، الآية: ٢٥.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٢٩.

(٣) سورة المؤمنون، الآيات: ٩٧، ٩٨.

(٤) سورة الشعراء، الآيات: ٨٣، ٨٤، ٨٥.

(٥) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

(٦) سورة النمل، الآية: ١٩.

(٧) سورة الأحقاف، الآية: ١٥.

(٨) سورة الحشر، الآية: ١٠.

(٩) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

(١٠) سورة التحريم، الآية: ٨.

(١١) سورة نوح، الآية: ٢٨.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

القسم الثالث: في أدعية مستحسنة

اللهم صلِّ على محمد، وعلى من صلح من آل محمد وبارك على محمد، وعلى من صلح من آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

اللهم اجعلنا ممن صدقه بتوفيقك واتبعه بإرشادك وتسديدك، وأمتنا على ملته بنعمتك، وأحشرنا في زمرة برحمتك.

اللهم بنورك اهتدينا، وبفضلك استغنينا، وفي كفك أصبحنا وأمسينا، أنت الأول فلا شيء قبلك، وأنت الآخر فلا شيء بعدك، نعوذ بالله من الفشل والكسل ومن عذاب القبر ومن فتنة الغنى والفقير.

اللَّهُمَّ نبهنا لذكرك في أوقات الغفلة، واستعملنا بطاعتك في أيام المهلة، وانهج لنا إلى محبتك طريقاً سهلة.

اللَّهُمَّ اجعلنا ممن آمن بك فهديته، وتوكل عليك فكفيته، وسألك فأعطيته، وتضرع إليك فرحمته.

اللَّهُمَّ إنا نسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، والفوز بالجنة، والنجاة من النار.

اللَّهُمَّ إنا نسألك أن ترزقنا علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وقلباً خاشعاً ولساناً صادقاً وعملاً زاكياً وإيماناً / خالصاً وأن تهب لي إجابة المخلصين، وخشوع المخبتين، وأعمال الصالحين، ويقين [٣٩٥] الصديقين، وسعادة المتقين ودرجة الفائزين يا أفضل من قصد، وأكرم من سئل، وأحلم من عصى، نسألك أن تهب لي جزيل عطائك والسعادة بلقائك والفوز بجوارك والمزيد من آلائك وأن تجعل لنا نوراً في حياتنا، ونوراً في مماتنا، ونوراً في قبورنا، ونوراً في محشرنا، ونوراً نتوسل به إليك، ونوراً نفوز به لديك، فإننا ببابك سائلون، ولنوالك متعرضون، ولأفضالك راجون.

اللَّهُمَّ اهدنا إلى الحق، واجعلنا من أهله، اللَّهُمَّ اجعل شغل قلوبنا بذكر عظمتك، وأفرغ

أبداننا في شكر نعمتك، وانطق ألسنتنا بوصف متك، وقنا نواب الزمان، وصولة السلطان، ووساوس الشيطان، واكفنا مؤنة الاكساب وارزقنا بغير حساب.

اللهم اختم بالخير آجالنا، وحقق بالرجاء أعمالنا، وسهل في بلوغ رضاك سبلنا، وحسن في جميع الأحوال أعمالنا.

اللهم إنا نعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وشماتة الأعداء، اللهم اقسم لنا من الدنيا ما تعصمنا به من فتنها وما تغنيها به عن أهلها، واجعل في قلوبنا من السلو عنها، والمقت لها، والزهد فيها، والبصر بعيوبها مثل ما جعلت في قلوب من فارقتها زهداً فيهاً من أوليائك المخلصين، وأصفيائك المعصومين.

اللهم إليك نشكو قساوة قلوبنا، وجمود أعيننا، وطول آمالنا، واقتراب آجالنا، وكثرة ذنوبنا، فنعم المشكو إليه أنت فارحم ضعفنا، وارحم تضرعنا، واعطنا لمسكتنا، واغفر لنا ما قدمنا، وأخرنا، وأسرننا، وأعلننا، وما أنت أعلم به منا، ولا تحرمننا لقله شكرنا.

[٣٩٦] / اللهم لا بد لنا من لقاءك، فاجعل عند ذلك عذرنا مقبولاً، وخطأنا محمولاً، وذنبنا مغفوراً، وحظنا موفوراً، وسعينا مشكوراً.

اللهم إن لنا إليك حاجة، وبنا إليك فاقة، فما كان منا من تقصير فأجبره بسعة عفوك وتجاوز عنه بفضل رحمتك، واقبل منا ما كان صالحاً وأصلح منا ما كان فاسداً.

اللهم أصبح ذلنا مستجيراً بقوتك، وخوفنا مستجيراً بأمنك، وظلمنا مستجيراً بعفوك، وجهلنا مستجيراً بحلمك، اللهم اجعل خوفنا كله منك، ورجاءنا كله فيك.

اللهم إنا نسألك النصرة والعصمة والرحمة والنعمة، ونعوذ بك من المحنة والفتنة، اللهم أعذنا من وجوب سخطك، وحلول نعمتك، وزوال نعمتك، اللهم لا تدع لنا في مقامنا هذا ذنباً إلا غفرتة، ولا غمماً إلا فرجتة ولا كرباً إلا كشفته، ولا ديناً إلا قضيتة، ولا عدواً إلا كفيته، ولا عيباً إلا أصلحته، ولا مريضاً إلا أشفيته، ولا غائباً إلا أذنيته، ولا خلعة إلا سدديتها، ولا حاجة من حوائج الدنيا، والآخرة لك فيها رضى ولنا فيها منفعة إلا قضيتها في يسر منك وعافية.

اللهم اجعل في الموت خير غائب تنتظره، والقبر خير بيت نعمره، واجعل ما بعده خيراً لنا منه.

اللَّهُمَّ نور قلوبنا، واغفر ذنوبنا، وآس وحشتنا وآمن روعتنا، وابعثنا آمنين من عقابك
موقنين بثوابك مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين .

اللَّهُمَّ اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت وتولنا فيمن توليت، ووسع لنا فيما
رزقت، وبارك لنا فيما أعطيت، وحبّب إلينا طاعتك وارزقنا العون على عبادتك، والحفظ
/ بكفائتك والعزة بولايتك .

[٣٩٧]

واغفر لنا ولمن صلح من آبائنا وأزواجنا وذرياتنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، وامنن
علينا وعليهم بالهداية والغفران والرضى والرضوان .

اللَّهُمَّ اجعلنا هداة مهتدين، واجعلنا أهل بيت صالحين، وأئمة متقين، واغفر لنا ولعامّة
المسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، والصلاة والتسليم على محمد خاتم النبيين
وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، والحمد لله رب العالمين .
ولمحمد بن حازم الباهلي :

أيا من لا يخيب عليه راج ولم ييرمه إلحاح المناج
ويا تفتي على سرفي وظلمي وإيثار التمادي في اللجاج
آخر:

أقلني عشرتي وتلاف أمري وهب لي منك عفواً واقض حاجي
فمالي غير إقراي وعلمي بعدلك حجة يوم احتجاجي
آخر:

يا رب إني راغب أدعو وأرجو نفلك أنت حفي لمن تحب دعوة راج أملك
فاعطني من سعتك يا من تعالي جلك سبحانه اللهم ما أجل عندي مثلك

القسم الرابع: في أدعية منسوبة إلى الأنبياء والصالحين مما يستحب أن يدعو بها الإنسان
صباحاً ومساءً، ويعقب كل صلاة:

فمنها دعاء النبي ﷺ بعد ركعتي الفجر، قال ابن عباس: بعثني العباس إلى النبي ﷺ
فأتيته وهو في بيت خالتي ميمونة فقام يصلي في الليل، فلما صلى الركعتين قبل صلاة الفجر
قال: «اللَّهُمَّ إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شملي، وتلم بها / شعبي [٣٩٨]
وترد بها العين عني وتحفظ بها غائبي وترفع بها شاهدي وتركي بها عملي وتبيض بها وجهي
وتبلغني بها رشدي وتعصمني بها من كل سوء اللهم اعطني إيماناً صادقاً ويقيناً ليس بعد كفر

ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصرة على الأعداء مرافة الأنبياء .

اللهم إني أنزل بك حاجتي وإن ضعف رأبي وقصر عملي وافتقرت إلى رحمتك فأسألك يا قاضي الأمور ويا شافي الصدور كما تجير بين البحور أن تجيرني من عذاب السعير ومن دعوة الثبور ومن فتنة القبور .

اللهم ما قصر عنه رأبي وضعف عنه عملي ولم تبلغه نيّتي وأمنيّتي من خير وعدته أحداً من عبادك أو خيراً أنت معطيه أحداً من خلقك فإني راغب إليك فيه وأسألكه يا رب العالمين .

اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين حرباً لأعدائك سلماً لأوليائك نحب بحبك النار ونعادي بعداوتك من خالفك من خلقك .

اللهم هذا الدعاء عليك الإجابة وهذا الجهد عليك التكلان فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ذي الجبل الشديد والأمر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقرّين الشهود الركع السجود الموفين بالعهد إنك رحيم ودود وأنت تفعل ما تريد سبحان الذي تعطف بالعز وقال به سبحان الذي لبس المجد وتكرم به [٣٩٩] سبحان الذي / لا ينبغي التسيب إلا له سبحان ذي الفضل والنعيم سبحان ذي العزة والكرم سبحان الذي أحصى كل شيء علمه^(١) .

«اللهم اجعل لي نوراً في قلبي ونوراً في قبوري ونوراً في سمعي ونوراً في بصري ونوراً في لحمي ونوراً في دمي ونوراً في عظمي ونوراً في مخي ونوراً في عصبي ونوراً يسعني بين يدي ونوراً من أمامي ونوراً من خلفي ونوراً عن يميني ونوراً عن شمالي ونوراً من فوقني ونوراً من تحتي»^(٢) .

(١) أطراف الحديث عند الترمذي (٣٤١٩) وابن حجر في الفتح (١١٨/١١) والزيدي في الإتحاف (٦٣/٥) والقاضي عياض في الشفاء (١٧٦/١) والتمتعي الهندي في كنز العمال (٤٩٨٧)، (٤٩٨٨)، وابن حبان في المجروحين (٢٣٠/١) وفي مناهل الصفا (١٢) وعند النهي ميزان الاعتدال (٢٦٣٣) وعند ابن حزيمة في صحيحه (١١١٩) وابن عساکر في تهذيب التاريخ (٢٠٧/٥)، والكامل لابن عدي في الضعفاء (٩٥٧/٦) .

(٢) أطراف الحديث عند البيهقي في السنن (٢٩/٣) والتمتعي الهندي في الكنز (٣٦٠٨) والبخاري في الأدب المفرد (٣٩٦) . والزيدي في الإتحاف (٦٥/٥ ، ٩٥٨/٧) .

«اللَّهُمَّ زدني نوراً واعطني نوراً واجعل لي نوراً»^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ أعوذ بك من الكسل والهزم والمغرم والمأمم، اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من النار ومن فتنة النار وفتنة القبر وعذاب القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر وشر فتنة المسيح الدجال اللَّهُمَّ اغسل خطاياي بماء الثلج والبرد ونق قلبي من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب».

وعن أنس أنه عليه السلام كان يقول: «اللَّهُمَّ إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدين وغلبة الرجال»^(٢).

وعنه عليه السلام قال لعائشة: «عليك بالجوامع الكوامل قلولي: اللَّهُمَّ إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم وأسألك الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول وعمل وأسألك من الخير ما سألك به عبدك ورسولك محمد ﷺ وأستعذك مما استعاذك به عبدك ورسولك محمد / ﷺ وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل عاقبته [٤٠٠] رشداً برحمتك يا أرحم الراحمين»^(٣).

وعن عيسى عليه السلام كان يعلم أصحابه يقول: لو كان على أحدكم جبل ذهب ديناً ثم دعى بذلك قضاء الله عنه: اللَّهُمَّ فارج الهم كاشف الهم مجيب دعوة المضطرين رحمان الدنيا والآخرة ورحيمها أنت فارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك.

- (١) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٨٦) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وقال غريب ولم يذكر في أوله بعث العباس لابنه عبد الله ولا نومه في بيت ميمونة وهو بهذه الزيادة في الدعاء للطبراني.
- (٢) أطراف الحديث عند البخاري (٤/٢٣، ٧/٩٩، ٨/٩٧، ٩٨) والنسائي (٨/٢٥٧، ٢٨٠) والترمذي (٣٤٨٤)، وأبو داود (١٥٤١، ١٥٤٦) وأحمد (٣/١٥٩، ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٤٠) والبيهقي (٦/٣٠٤، ٩/١٢٥) والحاكم في المستدرک (١/٥٣٣) والشجري في الأمالي (١/٢٢٧) والبخاري في الأدب المفرد (١٠١/٨) وابن حجر في الفتح (٩/٥٥٤، ١١/١٧٣، ١٧٨) والبريزي في المشكاة (٥٨/٢٤٤)، والمتقي الهندي في الكنز (٣٦٩٣، ٣٧٦٣، ٣٨٢١) وتفسير القرطبي (٣/٤١٦) والزبيدي (٥/١٠٠) في الإتحاف والمنذري في الترغيب (٢/٦١٤) والبخاري في شرح السنة (٥/١٥٥، ١١/٢٤) والسيوطي في جمع الجوامع (٩٥٨٠، ٩٦٨٨)، والبيهقي في دلائل النبوة (٤/٢٢٨) وعند ابن أبي شيبة في المصنف (١٠/١٩٢) وفي سنن سعيد بن منصور (٦٦٧/٢٢٦).
- (٣) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٨٧) أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديثها.

وروي أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض طاف بالبيت سبعاً وصلى حذاء الملتزم ثم قال: اللهم إنك تعلم سري وعلانيتي فأقبل معذرتي وتعلم حاجتي فاعطني سؤلي وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي وأسألك إيماناً يباشر قلبي ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتبت لي وارضني بقضائك.

وفي رواية بما قسمت لي فأوحى الله إليه أنني قد غفرت لك ولم يأت أحد من ذريتك، ويدعونني بمثل الذي دعوتني به إلا غفرت له، وكشفت غمومه، وهمومه ونزعت الفقر من بين عينيه وأتجرت له من وراء كل تاجر وجاءته الدنيا وهي راغمة وإن كان لا يريدتها.

دعاء الخليل عليه السلام كان يقول إذا أصبح: اللهم إن هذا خلق جديد فافتحه علي بطاعتك، واختمه لي بمغفرتك ورضوانك، وارزقني فيه حسنة تقبلها مني وزكها وضاعفها لي، وما عملت فيه من سيئة فاغفرها لي إنك غفور رحيم ودود كريم، قال: فمن دعى بهذا الدعاء فقد أدى شكر يومه.

دعاء عيسى عليه السلام كان يقول: اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك [٤٠١] أنفع ما أرجو وأصبح الأمر بيد غيري وأصبحت / مرتهنأ بعملي فلا فقير أفقر مني.

اللهم لا تشمت بي عدوي ولا تسوء بي صديقي ولا تجعل مصيبي في ديني ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا تسلط علي من لا يرحمني.

دعاء الخضر عليه السلام يقال أنَّ الخضر وإلياس عليهما السلام إذا التقيا في كل موسم لم يفترقا إلا عن هذه الكلمات: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ما شاء الله كل نعمة من الله، ما شاء الله الخير كله بيد الله، ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله، فمن قالها ثلاث مرات إذا أصبح أمن من الحرق والغرق والسرق.

وروي عن ابن عمر أنه دعا فقال: اللهم أقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به رحمتك ومن اليقين ما تهون علينا به مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعتنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعلها الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا متتهى علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا^(١).

(١) أطراف الحديث عند الترمذي (٣٥٠٢) والحاكم في المستدرک (٥٢٨/١، ١٤٢/٢) والبريزي في مشکاة المصابيح (٢٤٩٢) والمجلوني في كشف الخفا (٢٢١/١) والسيوطي في جمع الجوامع (٩٨٥١) =

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: اللهم أعنا على الدنيا بالقناعة وعلى الدين بالطاعة.

وكان عمر بن عبد العزيز يقول: أغتنا بالافتقار إليك ولا تفقرنا بالاستغناء عنك.

وعن عمار أنه دعا فقال: اللهم بعلمك الغيب، وبقدرتك على الخلق أحييني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي.

اللهم إني أسألك كلمة الإخلاص في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنا، وخشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك الرضا بالقدر، وأسألك نعيماً لا ينفذ عين لا تنقطع ولذة العيش / بعد الموت شوقاً إلى لقاءك وأعوذ بك من ضراء ومن فتنة مضلة. [٤٠٢]

اللهم زيننا بزينة القرآن، وألبسنا لباس التقوى واجعلنا هداة مهتدين، ولا تجعلنا ضالين ولا مضلين.

وعن أم معبد أنها دعت فقالت: اللهم طهر لساني من الكذب، وقلبي من النفاق، وعملي من الرياء، وبصري من الخيانة فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ولبعض الشعراء يقال أنها لابن الخطيب، وقد استعطف فلما طال به السجن يشق فقال:

يا من يرى ما في الضمير فيسمع	ويرى فلا يخفى عليه موضع
لا تسلمني حيث أسلمني الوري	فإليك بالشكوى يفر الموضع
يا رب إنك قلت ادعوني أجب	فأجب فإنني راغب متضرع
يا رب قد جهد البلاء وشقني	وتضايقت حالي وأنت المفزع
يا رب كيف تضييق عني رحمة	هي من ذنوب الخلق طراً أو سمع
ولبعضهم:	

يا من يرى مد البعوض جناحها	في ظلم الليل البهيم الأليل
ويرى منابت شعرها في نحرها	والمخ في تلك العظام النحل
ويرى ديب النمل في دق الصفا	كل بتقدير العزيز الأفضل
فامنن عليّ بتوبة تمحو بها	ما كان مني في الزمان الأول

= والبغوي في شرح السنة (١٧٤/٥) والمفتي الهندي في الكنز (٣٦١٥، ٣٧٦٤) والشجري في الأمالي (٢٣٨/١) والزبيدي في الإتحاف (٧٨/٥، ١٨٦/٦) وابن السني في اليوم والليلة (٤٤٠) والسيوطي في الدر المنثور (١٢٧/٦) وابن حجر في الكشاف (٩٣). وابن المبارك في الزهد (١٤٤).

آخر:

أدعوك ربي لأمر أنت تعلمه كفى بعلمك فيما فيه ابتهل
فارحم إنابة عبد ليس مفزعه إلا إليك إذا ضاقت به الحيل
واصرف هوائي عن الدنيا ولذتها فإنني طال ما قد غزني الأمل

وعن أبي الدرداء أنه قال: من قال كل يوم سبع مرات: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ [٤٠٣] الذي لا إله إلا هو عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾^(١). / كفاه الله ما يهمه من أمر آخرته.

وعن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من قال هذه الكلمات ليلاً أو نهاراً لم يضره شيء: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن أعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم».

القسم الخامس: في أدعية مستحسنة عند أوقات مخصوصة وأفعال مخصوصة محذوفة الأسانيد:

منها عند إسباغ الوضوء^(٢) يقول: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين، يقال: من قالها فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء».

ومنها إذا خرج إلى المسجد فليقل: «اللهم اجعل لي في قلبي نوراً، واجعل في لساني نوراً، واجعل في سمعي نوراً، واجعل في بصري نوراً، واجعل خلفي نوراً، وأمامي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن شمالي نوراً، واجعل فوقني نوراً، وتحتي نوراً، وأعطني نوراً^(٣). اللهم إني أسألك بحق السائلين وبحق ممشاي هذا إليك فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة ولكن خرجت إتقاء سخطك، وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تنقذني

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٩.

(٢) أطراف الحديث عند مسلم في الصلاة (١٣١) والطبراني (١٨١/١) وابن أبي شيبة في المصنف (٤/١) وأحمد (١٩/١)، ٣٥، ٢٦٥/٣، والزبيدي في الإتحاف (١٠/٥) وابن حجر في الفتح (٣١٥/٢) والمفتي الهندي في الكثر (١٣٩، ٣٧٢٤، ٣٨٩٨) وابن الجوزي في الملل (٣٥١/٢).

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٩٩) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث ابن عباس.

من النار، وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»^(١).

ومنها عند الآذان قال عليه السلام: «قولوا»، قالوا: فماذا نقول؟ قال: «قولوا اللهم نسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة».

وقال لأم سلمة: «قولي عند أذان المغرب: اللهم هذا إقبال ليك وإدبار نهارك وأصوات دعائك وحضور صلواتك اغفر لي»^(٢).

وكان ﷺ إذا سمع الآذان قال: «اللهم رب هذه الدعوة المستجابة المستجاب لها دعوة الحق وكلمة / الإخلاص أحيي عليها وتوفني عليها واجعلني من صالح أهلها [٤٠٤] عملاً»^(٣).

وقال ﷺ: «من قال حين سمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمد الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته حلت له شفاعتي يوم القيامة»^(٤).

وقيل: «من قال إذا سمع المؤذن أشهد أن لا إله إلا الله رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً غفر له ذنبه»^(٥).

ومنها إذا خرجت من المنزل فقل: بسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل عليّ.

وعن أنس بن مالك قال: إذا خرج الرجل من منزله، فقال: «بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، قيل له: حسبك هديت ووقيت وكفيت».

ومنها إذا أراد دخول المسجد فليقل: «اللهم صلّ على محمد وسلم واغفر لي ذنوبي

(١) من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد حسن قاله الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٩٩) طبعة دار الحديث.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٥٠٤) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وأبو داود وقال غريب والحاكم من حديث أم سلمة دون قوله: «وحضور صلواتك» فإنها عند الخرائطي في مكارم الأخلاق والحسن بن علي العمري في اليوم والليلة. قال محقق الإحياء طبعة دار الحديث أخرجه الحاكم (١٩٩/١) وصححه ووافقه الذهبي والترمذي (٣٥٨٩) وقال: حسن غريب.

(٣) أورد ابن السني في عمل اليوم والليلة (٩٦).

(٤) أطراف الحديث عند البخاري (١٥٩/١، ١٠٨/٦) أحمد (٣٠٢/٣) (٣٥٤) وابن أبي حاتم في علل الحديث (٢٠١١) والتمتقي الهندي في الكثر (٢٠٩٨٣، ٢١٠١٦، ٢١٠١٩، ٢١٠٢٠، ١١٠٢٢).

(٥) أطراف الحديث عند الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٢/١) والدولابي في الكنى والأسماء (٤٦/١).

وافتح لي أبواب رحمتك^(١). ويقدم رجله اليمنى، فإذا فرغ من الصلاة فليقل: «اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يرجع السلام فحيناً ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام»^(٢) ويدعو بما شاء الله.

ومنها إذا قام من المجلس فليقل: «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»^(٣). يقال: هذا الدعاء كفارة للغو المجلس.

ومنها إذا دخل السوق فليقل: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير»^(٤). «بسم الله اللهم إني أسألك خير هذا السوق وأعوذ بك من الكفر والفسوق، اللهم إني أعوذ بك / من شرها ومن شر ما فيها، اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها ميمناً فاجرة أو صفة خاسرة»^(٥)، فإن كان عليه دين فليقل: «اللهم اغتني بحلالك عن حرامك وبفضلك عن سواك»^(٦).

ومنها إذا لبس ثوباً جديداً فليقل: «اللهم كسوتني هذا الثوب فلك الحمد أسألك خيره

(١) قال الحافظ العراقي في المعني (ج ١ ص ٥٠٠ طبعة دار الحديث): أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث فاطمة ابنة رسول الله ﷺ قال الترمذي: حسن وليس إسناده بم متصل ولمسلم من حديث أبي حميد وأبي أسيد «إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك» وزاد أبو داود في أوله فليسلم على النبي ﷺ.

(٢) قال الحافظ العراقي في المعني (ج ١ ص ٥٠١) طبعة دار الحديث: أخرجه مسلم من حديث ثوبان.

(٣) قال الحافظ العراقي في المعني (ج ١ ص ٤٩٦) أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث علي وفي (ج ١ ص ٥٠١) أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث رافع بن خديج بإسناد حسن قال المحقق في اليوم والليلة (٤٢٨: ٤٣٠). وهو صحيح.

(٤) قال الحافظ العراقي في المعني (ج ١ ص ٥٠١) طبعة دار الحديث: من حديث عمرو قال غريب والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين قال محقق الإحياء طبعة دار الحديث: بل هو ضعيف ذكره الألباني في ضعيف الجامع (٣٤٩٦) قلنا غير أنه ورد به زيادة في آخره لم ترد هنا «وهو حي لا يموت وهو على كل شيء قدير».

(٥) قال الحافظ العراقي في (ج ١ ص ٥٠١) طبعة دار الحديث). أخرجه الحاكم من حديث بريدة وقال أقربها لشرايط هذا الكتاب حديث بريدة. قلت - أي الحافظ العراقي - فيه أبو عمر جار لشعيب بن حرب ولعله فحص بن سليمان الأسدي مختلف فيه.

(٦) قال الحافظ العراقي (ج ١ ص ٥٠٢) أخرجه الترمذي وقال حسن غريب والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث علي بن أبي طالب.

وخيره ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له»^(١).

ومنها إذا رأى شيئاً من طيرة يكرهه فليقل: «اللَّهُم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(٢).

ومنها إذا رأى الهلال فليقل بعد التكبير ثلاثاً: «اللَّهُم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام ربي وربك الله جعلك الله هلال رشد وخير أمنت بخالقك، اللَّهُم اجعله هلالاً مباركاً، اللَّهُم إني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر»^(٣).

ومنها إذا رأى الريح هاجت من ليل أو نهار يقول: «اللَّهُم إني أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت إليه وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت إليه»^(٤).

ومنها إذا مات ميت فليقل: «إنا لله وإنا إليه راجعون وإنّا إلى ربنا لمقبلون اللَّهُم اكتبه في المحسنين واجعل كتابه في عليين واخلف على عقبه في الغابرين، اللَّهُم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده».

ومنها إذا تصدق فليقل: «رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»^(٥).

(١) قال الحافظ العراقي (ج ١ ص ٥٠٢) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي سعيد الخدري، ورواه ابن السني بلفظ المصنف، قال محقق الإحياء - سيد إبراهيم - أخرجه النسائي ٣٠٦ عمل اليوم والليلة وأبو داود (٤٠٢٠) والحاكم (١٩٢/٤) وصححه ووافقه الذهبي وأحمد (٣٠/٣) وغيره وهو صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة وأبو نعيم في اليوم والليلة والبيهقي في الدعوات من حديث عروة بن عامر مرسلًا ورجاله ثقات وفي اليوم والليلة لابن السني عن عقبه بن عامر فجعله مسنداً. قاله الحافظ العراقي (ج ١ ص ٥٠٢).

(٣) قال الحافظ العراقي في المعني (ج ١ ص ٥٢٢) طبعة دار الحديث: أخرجه الدارمي من حديث ابن عمر إلا أنه أطلق التكبير ولم يقل «ثلاثاً» ورواه الترمذي وحسنه من حديث طلحة بن عبيد الله دون ذكره التكبير، والبيهقي في الدعوات من حديث قتادة مرسلًا. «كان النبي ﷺ إذا رأى الهلال كبر ثلاثاً». وذكره الألباني في الصحيحة (١٨١٦).

(٤) قال الحافظ العراقي في المعني (ج ١ ص ٥٠٢) طبعة دار الحديث أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي بن كعب. قال محقق الإحياء طبعة دار الحديث: أخرجه النسائي في اليوم والليلة (٩٣٣) وأحمد (١٢٣/٥) والبخاري في الأدب المفرد (٧١٩) والترمذي (٢٤٢/٣) وقال: حسن صحيح.

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

- ومنها إذا خسر فليقل: «عَسَىٰ رَبَّنَا أَنزُ يُبَدِّلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ»^(١).
- ومنها إذا أمر فليقل: «رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهِيَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا»^(٢). «رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي»^(٣).
- ومنها إذا نظر إلى السماء فليقل: «رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا شُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»^(٤) «تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا»^(٥).
- ومنها إذا سمع الرعد فليقل: «سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته»^(٦).
- ومنها إذا رأى صاعقة فليقل: «اللَّهُمَّ لَا تَقْتُلْنَا بغضبك وَلَا تَهْلِكْنَا بعذابك»^(٧).
- ومنها إذا مطرت السماء فليقل: «اللَّهُمَّ سَيِّئًا هَنِئًا، وَصَيِّبًا نَافِعًا، اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ صَيْبَ رَحْمَتِكَ وَلَا تَجْعَلْهُ سَبَبَ عَذَابِكَ»^(٨).
- ومنها إذا غضب فليقل: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَاذْهَبْ غَيْظَ قَلْبِي، وَأَجْرِنِي مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»^(٩).
- ومنها إذا خاف قوماً فليقل: «اللَّهُمَّ ارْجُدْ كَيْدَهُمْ فِي نَحْوِهِمْ وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرُورِهِمْ»^(١٠).
-
- (١) سورة القلم، الآية: ٣٢.
- (٢) سورة الكهف، الآية: ١٠.
- (٣) سورة طه، الآيتان: ٢٥، ٢٦.
- (٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.
- (٥) سورة الفرقان، الآية: ٦١.
- (٦) قال الحافظ العراقي في المعني (ج ١ ص ٥٠٣) طبعة دار الحديث: أخرجه مالك في الموطأ عن عبد الله بن الزبير موقوفاً ولم أجده مرفوعاً.
- (٧) قال الحافظ في المعني (ج ١ ص ٥٠٣). أخرجه الترمذي وقال غريب والنسائي في اليوم والليلة من حديث ابن عمر وابن السني بإسناد جيد. وقال محقق الإحياء: ضعيف وفي الإسناد عثان وذكر الألباني في الضعيفة (١٠٤٢).
- (٨) قال الحافظ العراقي في المعني (٥٠٣/١) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن ماجه «سبياً» بالسين في أوله. والنسائي في اليوم والليلة «اللهم اجعله صيباً هنيئاً». وإسنادهما صحيح.
- (٩) قال الحافظ العراقي في المعني (٥٠٣/١) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن السني في اليوم والليلة من حديث عائشة بسند ضعيف.
- (١٠) قال الحافظ العراقي في المعني (٥٠٣/١) طبعة دار الحديث أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة =

ومنها إذا غزى فليقل: «اللهم أنت عضدي ونصري ويك أقاتل»^(١).

ومنها إذا طنت أذنه فليقل: «اللهم صل على محمد ذكر الله من ذكري»^(٢).

ومنها إذا رأى إجابة الدعاء فليقل: «الحمد لله الذي بعزته وجلاله تتم الصالحات، وإذا أبطأت فليقل: الحمد لله على كل حال».

ومنها إذا أصابه همٌّ فليقل: «اللهم إني عبدك وابن عبدك ناصيتي بيدك ماض في حكمك نافذ في قضاؤك، أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو أنزلته في كتابه، أو أعطيته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء عمائي، وذهاب حزني وهمتي»^(٣).

قال النبي ﷺ: «ما أصاب أحداً حزن فقال ذلك إلا أذهب الله همَّهُ وأبدل الله مكانه فرجاً».

ومنها إذا وجد وجعاً في جسده أو جسد غيره فليرقه بريقة النبي ﷺ، كان إذا اشتكى الإنسان قرحاً أو جرحاً وضع سببته على الأرض ثم رفعها وقال: «بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا تشفي به سقيمنا بإذن الله»^(٤).

ومنها إذا وجد وجعاً في جسده فليضع يده / على موضع الوجع وليقل: «بسم الله [٤٠٧] ثلاثاً، وليقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر».

ومنها إذا أصابه كرب فليقل^(٥): «لا إله إلا الله العلي الحليم، لا إله إلا الله رب العرش

= من حديث أبي موسى بسند ضعيف.

(١) قال الحافظ العراقي في المعني (٥٠٣/١). طبعة دار الحديث أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث أنس قال الترمذي: حسن غريب.

(٢) قال الحافظ العراقي في المعني (٥٠٤/١) طبعة دار الحديث أخرجه الطبراني وابن عدي وابن السني في اليوم والليلة من حديث أبي رافع بسند ضعيف.

(٣) قال الحافظ العراقي في المعني (٥٠٤/١) طبعة دار الحديث أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح على شرط مسلم ان سلم من إرسال عبد الرحمن عن أبيه فإنه مختلف في سماعه عن أبيه.

(٤) قال الحافظ العراقي في المعني (٥٠٤/١) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث عائشة.

(٥) قال الحافظ العراقي في المعني (٥٠٤/١) طبعة دار الحديث: أخرجه مسلم من حديث عثمان بن أبي العاص.

العظيم، لا إله إلا الله رب السموات والأرض رب العرش الكريم^(١).

ومنها إذا أراد النوم: «فليتوضأ أولاً ثم يتوسد يمينه مستقبلاً القبلة، ثم يُكَبِّرُ أربعاً وثلاثين ويسبح ثلاثاً وثلاثين ويحمد الله ثلاثاً وثلاثين»^(٢). ثم يقول: «أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك، اللهم لا أستطيع ثناء عليك ولو حرصت أنت كما أثبتت على نفسك»^(٣). «اللهم باسمك أحیی وأموت»^(٤)، «اللهم رب السموات ورب الأرض ورب كل شيء فائق الحب والنوى، ومُنَزَّلُ التوراة والإنجيل والفرقان أعوذ بك من شر كل شيء، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين وأغنني من الفقر»^(٥). «اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفأها لك محياها ومماتها، اللهم إن أمتها فاغفر لها وإن أحييتها فاحفظها اللهم إني أسألك العافية [في الدنيا والآخرة]^(٦) باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه فاغفر لي ذنبي»^(٧)، «اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك»^(٨)، «اللهم إني أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك والجأت ظهري إليك رغبة ورهبة منك، ولا منجأ ولا ملجأ منك إلا إليك أمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت»^(٩) - ويكون هذا آخر دعائه ..

- (١) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٠٤/١) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث ابن عباس.
- (٢) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٥٠٥) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث علي.
- (٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٠٥/١) أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث علي وفيه انقطاع. قال محقق الإحياء: جاء بسند متصل صحيح يعضد الأول ويقويه وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٨٠) من حديث عائشة.
- (٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٠٥/١) طبعة دار الحديث: أخرجه البخاري من حديث حذيفة ومسلم من حديث البراء.
- (٥) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٠٥/١) طبعة دار الحديث: أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.
- (٦) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٥٠٥) طبعة دار الحديث: أخرجه مسلم من حديث ابن عمر.
- (٧) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٠٥/١) طبعة دار الحديث: أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث عبد الله بن عمر بسند جيد وللشيخين من حديث أبي هريرة: «باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فاغفر لها» وقال البخاري: «فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين».
- (٨) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٠٥/١) أخرجه الترمذي من حديث حذيفة وصححه من حديث البراء وحسنه.
- (٩) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٠٥/١) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث البراء.

وإن كان يفزع من نومه فليقل ما قال ﷺ لخالد / بن الوليد حين شكى إليه أنه يفزع في [٤٠٨] نومه فقال له: «إذا أخذت مضجعك فقل: بسم الله أعوذ بكلمات الله من غضبه وعذابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون»^(١).

وكان ابن عمر يأمر من أدركه من أولاده أن يقولها وإن لم يدرك كتبها وعلقها عليه.

ومنها إذا قام للتهجد في الليل فليقل: «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض، ولك الحمد أنت السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، ولقاءك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق»^(٢).

اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وفيك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت.

ومنها إذا استيقظ عند الصباح فليقل: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه البعث والشور»^(٣)، «أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة لله والسلطان لله والعزة لله والقدرة لله»^(٤) «أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ، وملة آينا إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين»^(٥). «اللهم إني أسألك أن تبعثنا في هذا اليوم إلى كل خير، ونعوذ بك

(١) أطراف الحديث عند البيهقي في الأسماء والصفات (١٨٥)، وأحمد (١٨١/٢) والمنذري في الترغيب (٤٥٦/٢) والسيوطي في الدر المنثور (١٤/٥).

(٢) أطراف الحديث عند البخاري (٨٦/٨) ومسلم في صلاة المسافرين (١٩٩) وابن ماجه (١٣٥٥) والترمذي (٣٤١٨) وأحمد (٢٩٨/١)، والبيهقي (٣٠٨) والبيهقي (٣/٤، ٥) في السنن والزبيدي في الإنحاف (١٦٥/٥).

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني: (٥٠٦/١) طبعة دار الحديث أخرجه البخاري من حديث حذيفة ومسلم من حديث البراء.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٥٠٦) طبعة دار الحديث: أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عائشة «أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد والحوال والقوة والقدرة والسلطان والسموات والأرض وكل شيء لله رب العالمين» وله في الدعاء من ابن أبي أوفى «أصبحت وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والخلق والليل والنهار وما سكن فيها الله» وإسنادهما ضعيف ولمسلم من حديث ابن مسعود «أصبحنا وأصبح الملك لله».

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٥٠٦) طبعة دار الحديث: أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث عبد الرحمن بن أبزي بسند صحيح ورواه أحمد من حديث ابن أبزي عن أبي بن كعب مرفوعاً.

أن نجترح فيه سوءاً أو تجره إلى مسلم فإنك قلت: «وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى...» ﴿١﴾، ﴿٢﴾ الآية.

«اللَّهُمَّ فالق الإصباح أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه» «بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ما شاء الله كل نعمة فمن الله ما شاء الله خير كله بيد الله، ما شاء الله لا يصرف السوء [٤٠٩] إلا الله» ﴿٣﴾، «رضيت / بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير».

وإذا أمسى قال: «أمسينا بالله إلى آخر الدعاء، ويقول: أعوذ بكلمات الله التامات العامات وأسمائه من شر ما ذرأ وبرأ، ومن شر كل ذي شر، ومن شر كل دابة ربي آخذ بناصيتها... الآية».

ومنها إذا ضل شيء فليقل: «اللَّهُمَّ رب الضالة وهادي الضالة، تهدي من الضلالة أردد عليّ ضالتي بقدرتك وسلطانك، فإنها بيدك ومن عطاءك وفضلك».

ومنها إذا اشترى خادماً أو دابة فليأخذ بناصيتها وليقل: «اللَّهُمَّ إني أسألك خيره وخير ما جبل عليه، وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه» ﴿٤﴾.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٠٦/١) طبعة دار الحديث: لم أجد أوله والترمذي من حديث أبي بكر في حديث له «أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشره وأن تقترف على أنفسنا سوءاً أو نجره إلى مسلم» رواه أبو داود من حديث أبي مالك الأشعري بإسناد جيد.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٠٦/١) طبعة دار الحديث: هو مركب من حديثين فروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد قال: «كان رسول الله ﷺ يدعو «اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل مسكناً والشمس والقمر حساباً أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه». قلت - أي الحافظ العراقي -: هو مركب من حديثين فروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد قال: «كان رسول الله ﷺ يدعو «اللهم فالق الإصباح جاعل الليل مسكناً والشمس والقمر حساباً أقض عن الدين وأغثني من الفقر ونعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما بعده». وأبو داود من حديث أبي مالك الأشعري «اللهم إنا نسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وهده وبيركه وأعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده» وسنده جيد. وللدارقطني في الأفراد من حديث البراء والحديث عند مسلم في المساء «خير هذه الليلة»، وللعلف بن علي المعمر في اليوم والليلة من حديث ابن مسعود. ثم قال مسلم: «وإذا أصبح قال ذلك أيضاً».

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٠٧/١) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند جيد.

ومنها إذا هُنَّا بالنكاح مسلماً فليقل: «بارك الله فيك وبارك عليك وجمع بينكما بخير»^(١).

ومنها إذا قضيت الدين فقل للمقضي له: «بارك الله لك في أهلك ومالك»^(٢).

ومنها إذا رأى مبتلاً فليقل: «الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاه به وفضلني عليه وعلى كثير من خلقه تفضيلاً».

ومنها إذا مرض فليقل: «اللهم إني أسألك تعجيل عافيتك، وصبراً على بلائك، وخرجاً من الدنيا إلى رحمتك».

ومنها إذا فرغ من الأكل فليقل: «الحمد لله الذي يطعم، ولا يطعم منَّ علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا، وكل بلاء حسن أبلانا، الحمد لله غير مودع ولا مكافئ ولا مستغنى عنه، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام وسقانا من الشراب وكسانا من العراء، وهدانا من الضلالة، وبصرنا من العمى وَفَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِهِ تَفْضِيلاً».

ومنها إذا خاف من سلطان ودخل عليه فليقل: «اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكفني بكتفك الذي لا يرام ولا أهلك وأنت / رجائي فكم من نعمة أنعمت بها عليّ قلّ [٤١٠] عندي شكري فلم تحرمي، وكم ابتليتني بها قلّ عندها صبري فلم تخذلني، اللهم إني أعوذ بك من شره، واجعل كيدَه في نحره»^(٣).

وقال ابن مسعود: إذا خفت ظلم سلطان فقل: «اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، كن لي جاراً من فلان وأشياعه وأتباعه من الجن والإنس أن يفرط عليّ أحدهم، أو يطغى عز جارك وجل ثناؤك ولا إله غيرك».

وكان النبي ﷺ إذا خاف قوماً قال: «اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم»^(٤). والأدعية في هذه الأحوال كثيرة وفيما ذكرنا كفاية وبالله التوفيق.

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٠٧/١) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة قال الترمذي: حسن صحيح.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٠٨/١): أخرجه النسائي من حديث عبد الله بن أبي ربيعة قال: «استقرض مني النبي ﷺ أربعين ألفاً فجاءه مال فدفعه إلي» قال فذكره وإسناده حسن.

(٣) أطراف الحديث عند المتقي الهندي في الكتر (٣٤٤١) وابن عساکر في تهذيب تاريخ دمشق (٣١٢/٥).

(٤) أطراف الحديث عند أبو داود (١٥٣٧) وأحمد (٤١٥/٤) والمتقي الهندي في الكتر (١٨٠٠٢) والزيدي في الإتحاف (١٠٥/٥) وفي الأذكار للنووي (١١٤، ٢٠٢).

القسم السادس: في آداب الدعاء

وهي بالجملة عشرة :

الأول: أن يتصد له أوقاتاً معلومة شريفة، كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الشهور، وليلة الجمعة من الأسبوع، ووقت السحر من الليل، وعند نزول المطر، وحضرة الآذان، وحضرة الصف في سبيل الله، فإن هذا كله قد وردت فيه آثار - تركتها مخافة الإكثار -.

الثاني: أن يغتنم الدعاء عند الأحوال الشريفة مثل خلف الصلاة، وبين الآذان والإقامة، وفي السجود عند إظهار الصائم، ونزول الغيث وغير ذلك كما تقدم - تركت الآثار في ذلك مخافة التطويل -.

الثالث: أن يدعو مستقبل القبلة رافعاً يديه بحيث يرى بياض إبطيه، وذلك مروى عن النبي ﷺ، وقال سليمان عليه السلام: إن ريكم يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صغراً.

[٤١١] وقال أبو الدرداء: ارفعوا / هذه الأيدي قبل أن تغل بالأغلال.

ثم ينبغي أن يمسح بهما وجهه عند آخر الدعاء روى ذلك عمر عن النبي ﷺ، وقال ابن عباس: كان إذا دعا عليه السلام ضمّ كفيه وجعل بطونهما مما يلي وجهه ولا يرفع بصره إلى السماء، قال عليه السلام: «ليتهين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم»^(١).

الرابع: خفض الصوت بين المخافة والجهر.

وعن أبي موسى قال: قدمنا مع النبي ﷺ فلما دنونا من المدينة رفع الناس أصواتهم بالكبير فقال: «أيها الناس إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً وإن الذي تدعون بينكم وبين أعناق رقابكم قال الله تعالى: ﴿اذْهَبُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾»^(٢)،^(٣).

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٤٧٣) طبعة دار الحديث: أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال عند الدعاء في الصلاة.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٧٣) طبعة دار الحديث: متفق عليه مع اختلاف اللفظ الذي ذكره المصنف لأبي داود.

ووصف زكريا فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾^(١).

الخامس: أن لا يتكلف السجع في الدعاء؛ فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال تضرع والتكلف لا يناسبه، قال عليه السلام: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء والظهور»^(٢). وقيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمَعْتَدِينَ﴾^(٣). قيل معناه: التكلف للأسجاع.

وقال عليه السلام: «إياكم والسجع في الدعاء بحسب أحدكم أن يقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا يَقْرَبُ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا يَقْرَبُ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ»^(٤) والأولى أن لا يتجاوز الدعوات الماثورة المتقدمة.

وقال بعض السلف: ادع الله بلسان الذلة والافتقار، لا بلسان الفصاحة والانطلاق.

السادس: التضرع والخشوع مع إحضار القلب، قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾. وقال: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾^(٥).

وقال عليه السلام: «إذا أحب الله عبداً ابتلاه حتى يسمع تضرعه»^(٦).

وفي الحديث: «إن الله تعالى أوحى إلى بعض الأنبياء هب لي / من عينيك الدموع ومن [٤١٢] نفسك الخضوع ومن قلبك الخشوع ثم ادعني فإني قريب مجيب» وفي الخبر أوحى الله إلى بعضهم: ادعني وفرائصك ترتعد ولا بد من إحضار القلب.

وفي الحديث: «إن الله لا يستجيب من قلب ساهٍ ولا لاهٍ»^(٧). وينبغي أن يجزم بالدعاء

(١) سورة مريم، الآية: ٣.

(٢) قال الحافظ العراقي في المعني (١/٤٧٤) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن مغفل.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٥٥.

(٤) قال الحافظ العراقي في المعني (ج ١ ص ٤٧٤) طبعة دار الحديث: غريب بهذا السياق وللبخاري عن ابن عباس «وانظر السجع من الدعاء فاجتبه فإني عهدت أصحاب رسول الله ﷺ لا يفعلون إلا ذلك» وابن ماجه والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد من حديث عائشة «عليك بالكوامل وفيه وأسألك الجنة... إلى آخره».

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٥٥.

(٦) قال الحافظ العراقي في المعني (١/٤٧٥) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو منصور الديلمي في مستند الفردوس من حديث أنس «إذا أحب الله عبداً صب عليه البلاء صباً... الحديث» وفيه «دعه فإني أحب أن أسمع صوته» وللطبراني من حديث أبي أمامة وستندهما ضعيف.

(٧) قال الحافظ العراقي في المعني (١/٤٧٥) طبعة دار الحديث: في معنى هذا الحديث: أخرجه الترمذي =

ويؤمن بالإجابة، وفي الحديث: «لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت ليعزم على المسألة فإن الله لا مكروه له فإذا دعا أحدكم فليعزم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء»^(١). ويلجح في الدعاء ويكرره ثلاثاً، ولا ينبغي أن يستبطئ الإجابة لقوله عليه السلام: «يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوت فلم يستجب لي فإذا دعوت فاسأل الله كثيراً فإنك تدعو كريماً»^(٢).

وقال بعضهم: إني دعوت الله منذ عشرين سنة حاجة فما أجابني، وأنا أرجو الإجابة. قيل: وما وهي؟ قال: أن يوقفني لترك ما لا يعنيني.

وقال عليه السلام: «إذا سأل أحدكم ربه مسألة فتعرف فيه الإجابة فليقل: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا أبطأ عنه شيء من ذلك فليقل: الحمد لله على كل حال»^(٣).

وقيل في قوله تعالى مخبراً عن موسى وهارون قال: «قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا»^(٤).

قيل: دعا موسى فأمن هارون عليه فوقعت بعد أربعين سنة من يوم الدعاء.

وقيل: أن نوحاً عليه السلام دعا على قومه فوقعت بعد مائة سنة قال تعالى: «وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ»^(٥). وأنشدوا:

أتهزأ بالدعاء وتزدريه وما يدريك ما صنع الدعاء
سهام الليل قاتلة ولكن إلى أمد وللأمد انقضاء

وينبغي له أن يستفتح الدعاء بذكر الله والصلاة على رسوله، والتوبة من ذنوبه ولا يبدأ [٤١٣] بالسؤال، ويقال أنه عليه السلام / يستفتح الدعاء ويقول: «سبحان ربي الأعلى الوهاب»^(٦). وقال: «إذا سألتكم الله حاجة فابدأوا بالصلاة عليّ فإن الله أكرم من أن يسأل حاجتين فيقضي»

= من حديث أبي هريرة وقال غريب والحاكم وقال مستقيم الإسناد تفرد به صالح المري وهو أحد زهاد البصرة قلت - أي الحافظ - لكنه ضعيف.

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٧٥/١) طبعة دار الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٧٥/١): متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٧٦/١) طبعة دار الحديث: أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث أبي هريرة وللحاكم نحوه من حديث عائشة مختصراً بإسناد ضعيف.

(٤) سورة يونس، الآية: ٨٩.

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٥٣.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٧٦/١): أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد قلت - أي

الحافظ - فيه عمر بن راشد اليماني ضعفه الجمهور.

أحدهما ويرد الأخرى^(١) وليخلص الدعاء لله تعالى فإن الله تعالى لا يقبل من مسمع .

السابع: التوبة ورد المظالم والإقبال على الله تعالى بقلب متضرع وهو السبب القريب في الحاجة .

وعن كعب قال: خرج موسى بن عمران يستسقي بالناس ثلاثاً فلم يسقوا، فأوحى الله إليه أن فيكم نماماً فلا أستجيب لك ولا لمن معك، قال: يا رب من هو حتى نخرجه؟ قال: يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماماً. قال موسى لبني إسرائيل: توبوا إلى الله بأجمعكم من النميمة. فتابوا فسقوا^(٢).

وعن سفيان قال: بلغني أن بني إسرائيل فحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة والأطفال، وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال ويتضرعون، فأوحى الله إلى أنبيائهم، لو مشيتم إلي بأقدامكم حتى تحفى ركبكم، وتبلغ أيديكم عنان السماء، وتكل الستكم بالدعاء فإني لا أجب لكم داعياً ولا أرحم لكم باكياً حتى تردوا المظالم إلى أهلها، ففعلوا فمطروا .

وقال مالك بن دينار: فحط بنو إسرائيل فخرجوا مراراً، فأوحى الله إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إليّ بأبدان نجسة، وترفعون إليّ أكفّاً قد سفكتم بها الدماء وملائم بطونكم من الحرام، الآن قد اشتد غضبي عليكم ولن تزدادوا مني إلاّ بعداً.

ويروي أن سليمان عليه السلام خرج يستسقي فمرّ بنملة ملقاة على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء، وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك ولا غنا بنا عن رزقك فلا تهلكنا بذنوب غيرنا. فقال سليمان: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم.

/ وقيل لمالك بن دينار: ادع لنا ربك. فقال: أنتم تستبظون المطر وأنا استبطنيء [٤١٤] الحجر .

ويروي أن عيسى عليه السلام خرج بالناس يستسقي فلما أسحروا قال لهم: من أصاب منكم ذنباً فليرجع، فرجعوا إلاّ رجلاً واحداً، فقال له عيسى: أما لك من ذنب؟ فقال: والله ما أعلم من شيء غير أني ذات يوم أصلي فمرّت امرأة فنظرت إليها بعيني هذه، فلما جاوزت أدخلت إصبعي في عيني فاتتزعتهما فأتبعت المرأة بها .

(١) قال الحافظ العراقي في المعنى (٤٧٦/١) طبعة دار الحديث: لم أجده مرفوعاً وإنما هو موقوف على أبي الدرداء .

(٢) هذا لا سند له ولا يصح إلاّ بسند صحيح وإنما هي من قبيل الإسرائيليات .

قال له عيسى: ادع، فدعا فتجللت السماء سحاباً ثم صب فسقوا.

وقال يحيى الغساني: أصاب الناس قحط على عهد داود عليه السلام، فاختراروا ثلاثة من علمائهم فخرجوا يستسقون فقال أحدهم: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن نعفو عمن ظلمنا إننا ظلمنا أنفسنا فاعف عنا.

وقال الثاني: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن نعتق أرقاءنا فاعتقنا.

وقال الثالث: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن لا نرد المساكين إذ وقفوا بأبوابنا، اللهم إننا مساكينك وقفنا بيبابك فلا ترد دعاءنا، فسقوا.

ويروى أن عمر استسقى بالعباس فلما فرغ عمر رحمه الله من دعائه، قال العباس: اللهم إنه لا ينزل البلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، ولقد توجه بي القوم لمكاني من نبيك عليه السلام، فهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا بالتوبة، فأنت الراعي فلا تهمل الضالة، ولا تدع الكسير بدار مضية، فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الشكوى وأنت تعلم السر وأخفى، اللهم فأعنتهم بغياك قبل أن يقتنطوا فيهلكوا؛ فإنه ﴿لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ﴾^(١). قال: فما أتم كلامه حتى أرخت السماء / كالجبال، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت:

سأل الخليفة إذ تتابع جذبه فسقى الغمام بغرة العباس
عم النبي وصنو والده الذي ورث النبي بذلك دون الناس
أحى المليك به البلاد فأصبحت مخضرة الأجناب بعد اليأس

وعن الشعبي قال: خرج عمر يستسقي فلم يزد على الاستغفار فقالوا: يا أمير المؤمنين ما رأيناك استسقيت؟

قال: سألت الله بمجاديع السماء التي يستنزل بها المطر، ثم قال: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا...﴾^(٢) الآية. ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾^(٣).

الثامن: أن يكون مطعم الداعي ومشربه حلالاً؛ فإن ذلك عليه المدار وهو شرط في إجابة الدعاء.

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٧.

(٢) سورة نوح، الآية: ١١.

(٣) سورة هود، الآية: ٩٠.

قال سعد: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني مجاب الدعاء قال: «إذا أردت ذلك فطيب طعمتك».

ويقال: الرحمة مخزونة في مخازن الله تعالى ومفاتيحها الدعاء، وأسنان المفاتيح لقمة الحلال.

ويقال: إن أهل آخر الزمان يعيشون بالحرام المجهول فلا يقبل دعاءهم ولكن لا يؤاخذون به.

وقيل: لا يقبل به دعاء الدنيا خاصة دون الآخرة.

التاسع: أن يأتمر الداعي بأوامر الله ويتهي عن مناهيه، فإن المتقي كريم على الله والعاصي والفاجر ممقوت عند الله، قال الله تعالى: «وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ»^(١).
إلا أن يكون الداعي مظلوماً فإن دعاءه مقبول على من ظلمه.

وفي الحديث: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها ترفع، فوق السحاب يقول الله: وعزتي لأنصرك ولو بعد حين»^(٢). ولكن لا ينبغي للعاصي / أن يترك الدعاء لما يعلم من نفسه [٤١٦] ولكن يتوب ثم يدعو.

وقال سفيان: لا يمنع أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه، فإن الله تعالى قد أجاب شر الخلق إبليس قال: «انظرنني إلى يوم يبعثون»^(٣).

ولا ينبغي أن يسأل الدعاء من غيره ويتمادى على الإصرار. قال رجل لعدي بن قيس: ادع الله لي.

قال: يا ابن أخي سألت من قد عجز عن نفسه، ولكن أطع الله يغفر لك دون دعائي.

العاشر: أن لا يتجاوز العدي في الدعاء فإن ذلك يقع موقع التحكم على الله تعالى.

-
- (١) سورة الرعد، الآية: ١٤.
(٢) أطراف الحديث عند البخاري في التاريخ الكبير (١٨٦/١) وابن أبي حاتم الرازي (٦٣٤) والمجلوني في كشف الخفا (١٩/١) والألباني في الصحيحة (٧٦٧، ٨٧٠، ٨٧١، ٨٧٢/٥٥٤) والسيوطي في الدر المشور (٣٥٢/١). والترمذي (١٩٧٠ و ٢٦٤٦ و ٣٦٦٨) والطبراني والهيتمي في مجمع الزوائد (١٥٢/١٠) والمنذري في الترغيب (١٨٨/٣) والحاكم في المستدرک (٩٢/١).
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤.

وذلك أن يقول: اللهم أحيني ولا تمتني، أو أحني من مات من أهلي قبل يوم القيامة، واجعل درجتي مثل درجة الأنبياء عليهم السلام، وهب لي ملكاً مثل ملك سليمان عليه السلام.

وكذلك لا يدعو دعاء يوقع موقع السخط على الله تعالى: مثل أن يقول: اللهم أهلكني وافقرني وما أشبه إلا أن يقيد ذلك فيقول: أمتني إن كان الموت خيراً لي أو أفقرني إن كان الفقر خيراً لي والله أعلم.

فإن قيل: ما فائدة الدعاء والقضاء لا مرد له؟ قيل له: إن القضاء رد البلاء بالدعاء؛ فإن الدعاء سبب لرد البلاء واستجلاب الرحمة، كما أن الترس سبب لرد السهم، والماء سبب لخروج النبات من الأرض، فكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان فكذلك البلاء والدعاء يتعانجان، وليس من شروط الاعتراف بقضاء الله أن لا تحمل السلاح وقد قال تعالى: ﴿خذوا حذرکم﴾^(١) مع أنه قال: ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾.

وقد روي أن إبليس اللعين قال لعيسى عليه السلام: يا روح الله ألسنت تزعم أنه لن [٤١٧] يصيبك إلا ما قدر الله لك. قال: بلى. قال: فارم نفسك إذاً من ذروة الجبل فإن / قدر لك السلامة فسلم. قال: يا عدو الله إن الله يختبر عبده وليس للعبد أن يختبر ربه.

ثم في الدعاء أيضاً من الفائدة: أنه ذكر الله ويستدعي حضور القلب مع الله وهو منتهى العبادة، وقد قال عليه السلام: «الدعاء مخ العبادة»^(٢).

والغالب على الخلق أن لا تنصرف قلوبهم إلى الله إلا عند نزول الحاجة بهم أو حلول قارعة، والإنسان إذا مسه شر فذو دعاء عريض، فالحاجة تحوج إلى الدعاء، والدعاء يرد القلب إلى الله تعالى بالضرع والاستكانة ولذلك صار البلاء موكلاً بالأنبياء والأولياء؛ لأنه يرد القلب بالضرع. وأما الغنى فيسبب البطر والطغيان في غالب الأحوال، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِتْفَانٌ﴾^(٣). وبالله التوفيق.

(١) سورة النساء، الآية: ٧١.

(٢) أطراف الحديث عند الترمذي (٣٣٧١) والزيدي في الإتحاف (٨٤/٢)، (٢٩/٥) والبريزي في مشكاة المصابيح (٢٢٣١) وابن حجر (٩٤/١١) والمنيقي الهندي في الكنز (٣١١٤) والمنذري في الترغيب (٤٨٢/٢) والعجلوني في كشف الخفا (٤٨٥/١).

(٣) سورة العلق، الآيتان: ٦، ٧.

الفصل الثاني: في فضيلة الذكر^(١)

ويتفرع منه أربعة أقسام:

الأول: في فضيلته على الجملة ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾^(٢).

وعن ثابت البناني قال: إني أعلم متى يذكرني ربي. ففرغوا منه، فقالوا: متى تعلم ذلك؟

قال: إذا ذكرته ذكرني. وقال: ﴿أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾^(٣). وقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا﴾^(٤).

قال ابن عباس: بالليل والنهار في البر والبحر والحضر والسفر والغنى والفقر والصحة والمرض والسر والعلانية. وقال: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ...﴾^(٥) الآية. وقال في ذم المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٦). وقال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(٧). قال ابن عباس له وجهان:

أحدهما: ذكر الله لكم أعظم من ذكركم إياه.

والآخر: أن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه في سائر الآيات.

وعن النبي ﷺ أنه قال: ذكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط الهشيم^(٨)

وذكر الله في الغافلين كالمقاتل / بين الفارين». [٤١٨]

وقال: «يقول الله تعالى أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت شفتاه بي»^(٩).

(١) هذا الفصل مأخوذ من كتاب الإحياء للإمام الغزالي.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٤١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.

(٦) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

(٧) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٨) قال الحافظ العراقي في المعنى (٤٥٧/١) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في

الشعب من حديث ابن عمر ضعيف، وقال: «في وسط الشجر» الحديث.

(٩) قال الحافظ في المعنى (٤٥٧/١) طبعة دار الحديث: أخرجه البيهقي وابن حبان من حديث أبي هريرة

والحاكم من حديث أبي الدرداء وقال صحيح الإسناد.

وقال أيضاً: «ما عمل ابن آدم من عمل أنجي له من عذاب الله من ذكر الله» قالوا: ولا الجهاد؟ قال: «إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع»^(١). قالها ثلاثاً، وقال ﷺ: «من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله تعالى»^(٢).

وسئل عن أفضل الأعمال؟ فقال: «أن تموت ولسانك رطب بذكر الله تعالى»^(٣) [أصبح وأمسي ولسانك رطب بذكر الله] تصبح وتمسي وليس عليك خطيئة»^(٤).

وقال عليه السلام: «لذكر الله بالغدو والعشي أعظم من حطم السيوف في سبيل الله ومن إعطائك المال سجاً»^(٥).

وقال: «يقول الله تعالى: إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي وإذا ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير من ملاءه وإذا تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً وإذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً وإذا مشى إليّ هرولت إليه»^(٦). يعني بالهرولة سرعة الإجابة.

وقال: «سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: ومن جملتهم رجل ذكر الله حالياً ففاضت عيناه بالدموع من خشية الله تعالى»^(٧).

وعن أبي الدرداء عنه عليه السلام قال: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والفضة وخير لكم من أن تلقوا عدوكم

(١) قال الحافظ العراقي في المعنى (٤٥٧/١) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف والطبراني في حديث معاذ بإسناد حسن.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف والطبراني من حديث معاذ بسند ضعيف ورواه الطبراني في الدعاء من حديث أنس وهو عند الترمذي بلفظ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا» قاله الحافظ العراقي في المعنى (ج ١ ص ٤٥٧) طبعة دار الحديث.

(٣) قال الحافظ العراقي في المعنى (٤٥٨/١) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن حبان والطبراني في الدعاء والبيهقي في الشعب من حديث معاذ.

(٤) قال الحافظ العراقي في المعنى (٤٥٨/١): أخرجه أبو القاسم الأصبهاني في الترغيب والترهيب من حديث أنس «من أصبح وأمسي ولسانه رطب بذكر الله يسمي ويصبح وليس عليه خطيئة» وفيه من لا يعرف.

(٥) قال الحافظ في المعنى (٤٥٨/١) طبعة دار الحديث: رويناه من حديث أنس بسند ضعيف في الأصل وهو معروف من قول ابن عمر كما رواه ابن عبد البر في التمهيد.

(٦) قال الحافظ العراقي في المعنى (٤٥٨/١) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٧) قال الحافظ العراقي في المعنى (٤٥٨/١) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة.

فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: وما ذلك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله عز وجل»^(١).

وقال عليه السلام: «يقول الله تعالى من شغله ذكرني عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»^(٢).

وقال بعض السلف: بلغنا أن الله عز وجل قال: يا ابن آدم اذكرني / بعد الصبح ساعة [٤١٩] وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما.

وقال بعض العلماء: إن الله تعالى يقول: أئما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكرني توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه.

وقال الحسن: الذكر ذكران، ذكر الله عز وجل بين نفسك وبين الله تعالى ما أحسنه، وأعظم وأفضل من ذلك ذكر الله عز وجل عند ما حرم الله.

ويروى أن: كل نفس تخرج من الدنيا عطشى إلا ذاك الله عز وجل، وعن أبي موسى عنه عليه السلام قال: «مثل الذي يذكر الله والذي لا يذكر الله مثل الحي والميت».

وعن أبي هريرة عنه عليه السلام قال: «إن لله ملائكة يطوفون بالطرق يلتمسون أهل الذكر فإن وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم إلى سماء الدنيا فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: ما يقول عبادي؟ قالوا: يسبحونك ويكبرونك ويمجدونك، فيقول: ما يسألونني قالوا: يسألونك الجنة. قال: يقول وهل رأوها؟ قال: يقولون لا والله يا رب ما رأوها. قال: فيقول: وكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً رطلباً وأعظم فيها رغبة. قال: وكذلك النار على هذا الحال. قال: فيقول أشهدكم أنني قد غفرت لهم. فيقول ملك فيهم: فلان ليس منهم وإنما جاء لحاجة. قال: هم قوم لا يشقى جليسه»^(٣).

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٨/١) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي والحاكم وابن ماجه وصحح إسناده من حديث أبي الدرداء.

(٢) قال الحافظ في المغني (٤٥٨/١) طبعة دار الحديث: أخرجه البخاري في التاريخ والبخاري في المسند والبيهقي في الشعب من حديث عمر بن الخطاب وفيه صفوان بن أبي الصفا وذكره ابن حبان في الضعفاء وفي الثقات أيضاً. قال محقق الإحياء طبعة دار الحديث: إسناده حسن بشواهد عند الترمذي (٢٩٢٦) والدارمي (٤٤١/٢) وأبو نعيم في الحلية (١٠٦/٥) من حديثين والبيهقي في الشعب وإن كان لا يخلو من ضعف والله أعلم.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٦٠/١) رواه الترمذي من هذا الوجه والحديث في الصحيحين من =

القسم الثاني: في فضيلة مجلس الذكر

قال ﷺ: «ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله عز وجل إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده»^(١).

[٤٢٠] وقال / أيضاً: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء قوموا مغفوراً لكم وبدلت لكم سيئاتكم حسنات»^(٢).

وقال: «ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا عليّ فيه إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة»^(٣).

وعن داود عليه السلام قال: إلهي إذا رأيتني أجاوز مجلس الذاكرين إلى مجلس الغافلين، فاكسر رجلي دونهم، فإنها نعمة تقع بها عليّ.

وقال النبي ﷺ: «المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألف مجلس من مجالس السوء»^(٤).

وعن أبي هريرة: أن أهل السماء ليتراؤون بيوت أهل الأرض التي يذكر فيها اسم الله تعالى كما تترأى النجوم، ويقال: إذا اجتمع قوم يذكرون الله تعالى، اعتزل الشيطان الدنيا، فيقول الشيطان للدنيا: ألا ترين ما يصنعون؟ فتقول: دعهم فإذا افرقوا أخذت بأعناقهم.

وعن أبي هريرة أنه دخل السوق فقال: أراكم هاهنا وميراث محمد ﷺ تقسم في المسجد، فذهب ناس إلى المسجد فقالوا: ما رأينا ميراثاً تقسم، قال: ماذا رأيتم؟ قالوا: قوما

= حديث أبي هريرة وحده وأطراف الحديث عند البخاري (٦٠٧/٨) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٥) والنسائي (٤٣/٣) والترمذي (٣٦٠٠) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤٠١/٢) وابن حجر في الفتح (٢٨٦/٢، ٢٠٨/١١) والزيدي في الإتحاف (١٢٥/٩) والسيوطي في الدر المشور (١٥٠/١).

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (ج ١ ص ٤٥٩) طبعة دار الحديث: أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٩/١) طبعة دار الحديث: أخرجه أحمد وأبو يعلى والطبراني بسند ضعيف من حديث أنس.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٩/١) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٩/١) طبعة دار الحديث: ذكره صاحب الفردوس من حديث ابن وداعة وهو مرسل ولم يخرج له ولده وكذلك لم أجد إسناده.

يذكرون الله ويقرؤون القرآن، قال: فذلك ميراث رسول الله ﷺ^(١).

القسم الثالث: في فضيلة التهليل

قال ﷺ: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له»^(٢).

وقال: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة / وكانت له حرزاً من الشيطان يومه حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل [٤٢١] أكثر من ذلك»^(٣).

وعن ابن مسعود أنه قال: إن الله عز وجل قَسَمَ بينكم أخلاقكم كما قَسَمَ بينكم أرزاقكم، إن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا لمن يحب، ومن يبخل بالمال أن ينفقه، وهاب العدو أن يجاهده فليكثر من قول: لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر، وقال النبي ﷺ: «أكثرُوا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها فإنها كلمة التوحيد وكلمة الإخلاص وهي كلمة التقوى وهي الكلمة الطيبة وهي دعوة الحق وهي العروة الوثقى»^(٤).

وقال لأبي هريرة: «إن كل حسنة تعمل توزن يوم القيامة إلا شهادة أن لا إله إلا الله فإنها لو وضعت في ميزان من قالها صادقاً ووضعت السماوات السبع والأرضون السبع ومن فيهن كان لا إله إلا الله أرجح من ذلك»^(٥).

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: من قال في سوق من الأسواق: لا إله إلا الله وحده لا

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٩/١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير بإسناد فيه جهالة وانقطاع.

(٢) أورد ابن عبد البر في التمهيد (٢٨/٦) في طريق طلحة بن عبيد الله بن كرزب وقال ذكر مالك في الصلاة وفي الحج (ص ٢٩١، ٩٥٥).

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٦٠/١) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٤) قال الحافظ العراقي (٤٦١/١) المغني. أخرجه ابن عدي والطبراني في الدعاء وأبو يعلى وحديث الطبراني «أكثرُوا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها» وفيه ابن وردان.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٦١/١) طبعة دار الحديث: وصية أبي هريرة موضوعة وآخر الحديث رواه المستغفري في الدعوات «ولو جعلت لا إله إلا الله» وهو معروف من حديث أبي سعيد مرفوعاً «لو أن السماوات السبع والأرضين السبع في كفة مالت بهن لا إله إلا الله» رواه النسائي في اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وصححه.

شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، كتبت له ألف ألف حسنة، ومحيت عنه ألف ألف سيئة، وبني له بيت في الجنة.

ويروى أن العبد إذا قال: لا إله إلا الله، أنت إلى صحيفته فلا تمر على خطيئة إلا محتها حتى تجد حسنة مثلها فتجلس إلى جنبها.

القسم الرابع: في التسبيح

عن أبي هريرة عنه عليه السلام قال: «من قال سبحان الله ويحمده مائة مرة في كل يوم حطت خطاياها وإن كانت مثل زبد البحر»^(١).

[٤٢٢] وقال ﷺ / : «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله العظيم سبحان الله ويحمده»^(٢).

قال بعضهم: سمعته عليه السلام يقول إذا قام من الليل: «سبحان الله رب العالمين الهوى من الليل» يعني بالهوى ساعة ثم يقول: «سبحان الله ويحمده الهوى».

وعن ابن عباس أنه عليه السلام مر بجويرة بنت الحارث وهي في مصلاها تسبح وتذكر الله، ثم مر بها بعدما ارتفع النهار فقال: «لو تكلمت بأربع كلمات أعدتهن ثلاث مرات هي أفضل مما قلت: سبحان الله عدد خلقه سبحان الله زنة عرشه سبحان الله مداد كلماته والحمد لله كذلك».

وعن سعيد بن المسيب قال: الباقيات الصالحات إنها قول العبد: الله أكبر وسبحان الله والله الحمد ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولحاتم بن زياد:

سبحان من ستر القبيح	ولم يزل برأ بعبد
لا تعجبن من أحمق	نال الغنى من غير كده
ولعاقبل لا يستتب	فكلهم يسعى بجده
ولصرمة بن أنس:	

سبحان الله شرق كل صباح	طلعت شمسه وكل هلال
عالم السر والبيان لدنيا	ليس ما قال رينا بضلال

(١) قال الحافظ العراقي في المعني (٤٦٣/١) طبعة دار الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٢) قال الحافظ العراقي في المعني (٤٦٥/١). متفق عليه من حديث أبي هريرة.

آخر:

سبحان من لا يخيب من قصده من قصد الله صادقاً وجدته
 قد شمل الخلق فضل نعمته كل إلى فضله يمد يده
 ولزيد بن عمر أو لورقة بن نوفل:
 سبحان ذي العرش سبحاناً يدوم له رب البرية فرد واحد صمد
 سبحانه ثم سبحاناً يعود له وقبلنا سبح الجودي والجمد

وعن أبي هريرة قال: من سبح دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وكبّر / مثل ذلك وحمد الله [٤٢٣] مثل ذلك وختم المائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر.

الفصل الثالث في الاستغفار والصلاة على النبي المختار^(١)

قال الله تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾^(٢)، وقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٣)، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ...﴾^(٤) إلى آخر الآية.

وعن ابن مسعود قال: في كتاب الله آيتان ما أذنب عبد ذنباً فقرأهما فاستغفر الله إلا غفر له، قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً...﴾^(٥) إلى آخره، وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾^(٦).

وكان عليه السلام يكثر أن يقول: «سبحانك اللهم ويحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم».

وروي أنه قال لهم في طريق الحديبية وقد أفض من وعر إلى سهل: «قولوا نستغفر الله ونتوب إليه». ففعلوا فقال: «إنها الحطة التي عرضت على بني إسرائيل. فلم يقولوها». وقال:

(١) هذا الفصل مأخوذ من كتاب الإمام الغزالي الإحياء (ج ١/ ٤٨١). طبعة دار الحديث بتحقيق الأستاذ سيد إبراهيم.

(٢) سورة نوح، الآية: ١٠.

(٣) سورة النساء، الآية: ١١٠.

(٤) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.

(٦) سورة النصر، الآية: ٣.

«من أكثر الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب»^(١).

وقال عليه السلام: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة»^(٢). وقال: «إنه ليغان على قلبي فاستغفر الله في كل يوم مائة مرة»^(٣).

وعن علي قال: عجبت ممن يهلك والنجاة معه. قالوا: وما هي؟ قال: الاستغفار.

وعن وهب قال: لقي إبليس اللعين يحيى بن زكريا عليهما السلام فقال: أخبرني عن طبائع ابن آدم عندكم. قال: صنف منهم مثلك معصوم لا تقدمه على شيء، وصنف ثان هم في أيدينا كالكرة في أيدي الصبيان قد كفونا أنفسهم وصنف ثالث هم أشد علينا ندرك من أحدهم حاجتنا ثم يفسدها بالاستغفار فلا نحن نيش منه ولا نحن ندرك ما نريد.

[٤٢٤] / وعن النبي ﷺ قال: «من قال حين يأوي إلى فراشه أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر أو عدد الرمل أو عدد أوراق الشجر أو عدد أيام الدنيا»^(٤).

وفي حديث آخر: «غفرت له ذنوبه وإن كان فاراً من الزحف»^(٥).

وعن حذيفة قال: كنت ذرب اللسان فقلت: يا رسول الله خفت أن يدخلني لساني النار، قال: «أين أنت من الاستغفار في اليوم مائة مرة»^(٦).

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٨٢/١) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة

وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث ابن عباس وضعفه ابن حبان.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٨٢/١). أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة إلا أنه قال «أكثر من

سبعين مرة». وهو في الدعاء عند الطبراني كما ذكره المصنف.

(٣) قال الحافظ العراقي: أخرجه مسلم من حديث الأغر غير أنه قال: «حتى أتني لأستغفر».

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٨٢/١) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد

وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن الوليد الوصافي. قلت - أي الحافظ -: الوصافي وإن كان

ضيقاً فقد تابعه عليه عصام بن قدامة وهو ثقة ورواه البخاري في التاريخ دون قوله: «حين يأوي إلى فراشه» وقوله: «ثلاث مرات».

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٨٢/١) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود والترمذي من حديث زيد

مولى النبي ﷺ. وقال: غريب. قلت - أي الحافظ -: رجاله موثوقون ورواه ابن مسعود والحاكم من

حديث ابن مسعود وقال صحيح على شرط البخاري ومسلم.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٨٣/١): أخرجه النسائي في اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم وقال

صحيح على شرط الشيخين.

وقال لعائشة: «إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله فإن التوبة من الذنب الندم والاستغفار»^(١).

وكان ﷺ يقول في استغفاره: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مِنِّي، اللهم اغفر لي جدي وهزلي وخطيئتي وعمدي وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مِنِّي أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير»^(٢).

وقال ﷺ: «سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أبوء لك بنعمتك عندي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وأعوذ بك من شر ما صنعت، من قالها نهاراً موقناً فمات قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة ومن قالها ليلاً قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة»^(٣).

وعن علي قال: إذا حدثني أحد من أصحاب النبي ﷺ حلفته، وإذا حلفتة صدقته، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد مؤمن يذنب ذنباً ثم يحسن الطهور ويصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له ثم قرأ: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة...﴾ / ﴿الآية﴾^(٤).

[٤٢٥]

وعن أبي هريرة قال: «إن المؤمن إذا أذنب كمانت نكته سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها، وإن زاد زادت حتى تغلق قلبه، فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه: ﴿كلّ بل ران على قلوبهم﴾^(٥)»^(٦).

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٨٣/١) طبعة دار الحديث: متفق عليه دون قوله: «فإن التوبة... الخ». وزاد «أو توبى إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه». وللطبراني في الدعاء «فإن العبد إذا أذنب ثم استغفر الله غفر له».

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٨٣/١) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي موسى واللفظ لمسلم.

(٣) قال الحافظ العراقي في نحوه في المغني (٤٨٤/١) طبعة دار الحديث: أخرجه البخاري من حديث شداد بن أوس دون قوله: «وقد ظلمت نفسي واعترفت بذنبي» ودون قوله: «ذنوبي ما قدمت منها وما أخرت» ودون قوله: «جميعاً».

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٨٣/١) طبعة دار الحديث: أخرجه أصحاب السنن وحسنه الترمذي.

(٥) سورة المطففين، الآية: ١٤.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٨٣/١) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وصححه النسائي في اليوم =

وعنه [أن الله سبحانه] ليرفع لعبده الدرجة في الجنة فيقول: يا رب آتني لي هذه، فيقول: بالاستغفار^(١). ولذلك قال ﷺ: «اللَّهُم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أسأؤوا استغفروا»^(٢). وقال: «ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة»^(٣).

وقال قتادة: القرآن يدلکم على دائکم ودوائکم فالذنب دائکم والاستغفار دوائکم، وقال الربيع بن خيثم: ليقولن أحدکم استغفر الله وأتوب إليه فيكون ذنباً وكذباً إن لم يفعل، ولكن ليقل اللهم اغفر لي وتب علي.

وقال بعض الحكماء: من قدم الاستغفار على الذنب، كان مستهزئاً على الله وهو لا يعلم.

وقال: وسمع أعرابي وهو متعلق بأستار الكعبة وهو يقول: اللهم إن استغفاري مع إصراري للوم، وإن تركي استغفارك مع علمي بسعة عفوك لعجز، فكم تتحبب إليّ بالنعيم مع غناك عني، وأتبغض إليك بالمعاصي مع فقري إليك، يا من إذا وعد وفى، وإذا توعد عفى، أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين.

وقال أبو عبد الله الوراق: لو كان عليك مثل عدد القطر وزيد البحر ذنوباً لمحيث عنك إذا دعوت بهذا الدعاء مخلصاً - إن شاء الله تعالى - وهو: اللهم استغفرك من كل ذنب، تبت إليك منه ثم عدت فيه وأستغفرك من كل ما وعدتك به من نفسي ثم لم أوف لك به، وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها عليّ فاستعنت بها على معصيتك، وأستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب آتيت به في ضياء النهار وسواد الليل في ملأ وخلاء، وسر وعلائية يا حلیم ويقال أنه استغفار الخضر عليه السلام. ولأبي العتاهية:

أستغفر الله من جرمي ومن جنفي إنسي وإن كنت مستور لخطأ

- = واليلة وابن ماجه وابن حبان والحاكم.
- (١) قال الحافظ العراقي في المعنى (٤٨٣/١) طبعة دار الحديث: أخرجه أحمد بإسناد حسن. غير أنه قال في آخره: «باستغفار وذلك لك».
- (٢) قال الحافظ العراقي في المعنى (٤٨٤/١) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن ماجه وفيه علي بن زيد بن جعدان مختلف فيه.
- (٣) قال الحافظ العراقي في المعنى (٤٨٤/١) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود والترمذي من حديث أبي بكر وقال: غريب وليس إسناده قوي.

/ لم تبتك نفسك أيام الحياة لما تخشى وأنت على الأموات بكتاً [٤٢٦]

وكان عامر بن عبد القيس يغدو فيقعد على قارعة الطريق الأعظم، والناس متصرفون في حوائجهم، فإذا رأهم ذاهبين يميناً وشمالاً قال: يا رب غدا الفارون في حوائجهم وغدوت إليك أسألك المغفرة، ولبعضهم:

إن تقف عن عبد مسيء ففي فضلك مأوى للفضل والمنن
أتيت ما استحق من خطأ فجد بما تستحق من حسن

فصل في فضل الصلاة على النبي ﷺ

وشرف وكرم وعظم وأحسن^(١)

وروي أن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾...»^(٢)
الآية.

وروي أن النبي ﷺ جاء ذات يوم والبشرى يرى على وجهه فقال: «جاءني جبريل عليه السلام فقال: أما ترضى يا محمد أن لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً ولا يسلم عليك إلا سلمت عليه عشراً»^(٣).

وقال ﷺ: «من صلى عليّ صلت عليه الملائكة ما صلى عليّ فليقلل أو ليكثر»^(٤).
وقال: «إن أولى الناس بي أكثرهم عليّ صلاة»^(٥).

وقال: «فحسب المؤمن من البخل أن أذكر عنده فلا يصلي عليّ»^(٦).

- (١) هذا الفصل مأخوذ من كتاب الإحياء للإمام الغزالي (٤٧٨/١) طبعة دار الحديث.
- (٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.
- (٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٧٩/١) طبعة دار الحديث: أخرجه النسائي وابن حبان من حديث أبي طلحة بإسناد جيد.
- (٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٧٩/١) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن ماجه من حديث عامر بن ربيعة بإسناد ضعيف والطبراني في الأوسط بإسناد حسن.
- (٥) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٧٩/١) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال: حسن غريب وابن حبان.
- (٦) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٧٩/١) طبعة دار الحديث: أخرجه قاسم بن أصبغ من حديث الحسن بن علي هكذا والنسائي وابن حبان من حديث أخيه الحسين «البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي» ورواه الترمذي من رواية الحسين بن علي عن أبيه وقال: حسن صحيح.

وقال: «أكثرُوا الصلاة عليّ يوم الجمعة»^(١). وقال: «من صلى عليّ من أمّتي كتبت له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات»^(٢).

وقال: «من صلى عليّ في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب»^(٣).

وقال: «إن في الأرض ملائكة سائحين يبلغوني عن أمّتي السلام وقال: «ليس أحد يسلم عليّ إلّا رد الله عليّ روي حتى أرد عليه السلام»^(٤).

وبلغنا عن كعب بن جعرة أنه لما أنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾ الآية. قلنا: يا رسول الله كيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللَّهُمَّ صل على نبيك محمد وعلى من صلح من آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد»^(٥).

ومن غيره: «وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد».

وقال بعض العلماء: الصلاة على النبي فريضة وهذا يؤيده قول الملائكة: من ذكرت عنده يا محمد ولم يصل عليك أبعد الله / ؛ لأن الفرض ما يتعلق بتركه العقاب.

وقال بعضهم: إنها فريضة عن كل صلاة، وقال أصحابنا: فيما وجدت إنما فرض ذلك مرة واحدة مع الذكر، وبعد ذلك ما صلى كان تطوعاً.

وعن ابن مسعود قال: إذا صليتم على النبي فأحسنوا الصلاة عليه؛ فإنها فريضة

(١) قال الحافظ العراقي (٤٧٩/١) في المغني طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري من حديث أوس بن أوس وذكر ابن أبي حاتم في العلل وحكى عن أبيه أنه حديث منكر..

(٢) أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث عمرو بن دينار وزاد فيه «مخلصاً من قلبه صلى الله عليه بها عشر صلوات ورفعه بها عشر درجات». وله في السير ولائح حبان من حديث أنس نحوه دون قوله: «مخلصاً من قلبه» ودون ذكر: محو السيئات. ولم يذكر أيضاً ابن حبان «رفع الدرجات».

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٨٠/١) طبعة دار الحديث: أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو الشيخ في الثواب والمستغفري في الدعوات من حديث أبي هريرة بسند ضعيف.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٨٠/١) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بسند جيد.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٨٠/١) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي حميد الساعدي.

أمركم الله بها، وقيل: لم تؤمر أمة أن تصلي على نبيها إلا هذه الأمة فضلاً من الله ونعمة. وعن النبي ﷺ قال: «إذا صليتم عليّ فصلوا على الأنبياء فإنهم أرسلوا كما أرسلت»^(١). والله أعلم.

فصل في التفكير والاعتبار.

اعلم أن التفكير مرآة القلب، وبالتفكير الخالص يتوصل إلى استقامة القلوب، وباستقامة القلوب يتوصل إلى الصدق في الأعمال، وقد أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر في كتابه من مواضع لا تحصى، وأثنى على المتفكرين فقال: «وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...»^(٢) الآية.

وقال النبي ﷺ: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فإن بهذا المغرب أرضاً نورها يياضها مسيرة الشمس فيها أربعون يوماً بها خلق من خلق الله عز وجل لم يعصوا الله طرفة عين»، قالوا: يا رسول الله فأين الشيطان منهم؟ قال: «ما يدرون أخلق الشيطان أم لا»، قالوا: أمن ولد آدم؟ قال: «وما يدرون أن خلق آدم»^(٣).

وقد ذم الله تعالى أقواماً وبيخهم لتركهم التفكير والنظر فقال: «أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض...» الآية. يعني: ملك السموات والأرض، وما خلق الله من شيء أي وإلى ما خلق الله من شيء يعني مما يروونه فيتفكروا فيعلموا أن الذي خلق السموات والأرض قادر على أن يحيي الموتى، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فيبادروا بالتوبة قبل الموت.

ويروى أن أبا ريحانة صاحب النبي ﷺ أقبل من بعض غزواته فتوضأ ثم قام في مسجده، فقرأ سورة ثم أخرى، ثم كذلك حتى أذن المؤذن، فأثته امرأته فقالت له: غبت في غزوتك ثم قدمت فلم يكن لي منك حظ ولا نصيب.

(١) أطراف الحديث عند أحمد في المسند (٢/٢٦٥) وابن كثير في التفسير (٤/١١٦) وابن حجر في الفتح (١١٦٩/١١).

(٢) والشجري في الأمالي (١/١٢٥) والمجلوني في كشف الخفا (١/٩٦).

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤.

قال الحافظ العراقي في المعنى (٤/٥) طبعة دار الحديث: رويناه في جزء من حديث عبد الله بن سلام. قال محقق الإحياء: ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/١٧٥) وقال: رواه الطبراني وإسناده جيد وذكره الألباني في صحيح الجامع (١/٣٥٦). بلفظ «عَبَأَ» بدلاً من «عَبَأَ» وقال: صحيح.

فقال: والله ما خطرت على بالي ولو ذكرتك لكان لك عليّ حق. قالت: فما الذي [٤٢٨]! شغلناك؟ قال: لم يزل قلبي يهوى / فيما وصف الله في الجنة من أزواجها ونعيمها حتى أذن المؤذن.

وقال الحسن: إن من أفضل العمل الورع والتفكير، ومن لم تكن حياته في التفكير في خطيئته فليحسب حياته، وقال: تفكر ساعة غير من قيام ليلة.

وقال الحواريون لعيسى عليه السلام: هل على الأرض اليوم مثلك؟ قال: نعم، من كان نطقه ذكراً وصمته تفكراً ونظره عبرة فإنه مثلي.

وقال لقمان الحكيم: طول الوحدة أجمع للفكرة وطول الفكرة دليل على طريق الآخرة، وقيل في قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آتَائِي الَّذِينَ يَكْبُرُونَ فِي الْأَرْضِ...﴾^(١) الآية. قيل: معناه أمنع قلوبهم عن التفكير فيها.

ويقال: الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك، ويروى أن الله تبارك وتعالى قال في بعض كتبه إنني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همته وهواه لي، جعلت صمته فكراً وكلامه حمداً.

وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله تعالى أفضل العبادات، وقال ابن عباس ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليل بلا قلب.

وقال بعض الحكماء: الفضائل أربعة، أحدها الحكمة وقوامها الفكرة، والثانية العفة وقوامها في الشهوة، والثالثة القوة وقوامها في الغضب، والرابعة العدل وقوامه في اعتدال قوى النفس، والله أعلم.

فصل

اعلم أن مجاري الفكر غير منحصرة، وثمراتها غير متناهية، ونحن نضبط مجاريه بالإضافة إلى أمهات الأعمال الدينية، والأعمال المكتسبة بها في أربعة فصول، والخامس في المخلوقات:

الأول: في المعاصي والسيئات.

الثاني: في الطاعات.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٥.

الثالث: في الصفات المهلكات.

الرابع: في المنجيات.

الفصل الأول: في المعاصي والسيئات

فينبغي للعبد أن يتفكر في صبيحة كل يوم ويفتش جميع أعضائه السبعة تفصيلاً ثم بدنه مجماً هل هو في الحال ملابس لمعصية فتركها، أو لابسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم، أو هو معترض لها في نهاره فيحترز منها بالتباعد عنها، فينظر في اللسان فيقول إنه معترض: للغيبة، والكذب، وتزكية النفس، والاستهزاء، والنميمة، والمزاح، والممارات، والمداهنة، والخوض فيما لا يعني، / والتغني، والنياحة، والبهتان، وغير ذلك من معاصي اللسان فيقدر [٤٢٩] أولاً في نفسه أنها مكروهة عند الله منهي عنها ثم يتفكر في وعيد القرآن والسنة الوارد فيها الدال على شدة العذاب لمن يتعاطاها، ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر.

ثم لا يتفكر كيف يحذر منها ويعلم أنه لا يتم ذلك إلا بالعزلة والإنفراد ولا يجالس إلا صالحاً ديناً ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه ثم يتفكر في سماعه إنه يصغي به إلى الغيبة والكذب واللغو والبدعة، وإنه يسمعه من زيد مثلاً أو غيره من السفهاء والجهال فيحترز بالاعتزال عنهم أو بالنهي لهم عن ذلك مهما سمعه منهم.

ويتفكر في عينه أنه معترض للنظر إلى ما لا يحل من محاسن امرأة أو عورة إنسان فيحترز بالأعضاء للعين والتباعد عن مواضع ذلك، ويتفكر في بطنه أنه إنما يعصي الله فيه إما بكثرة الأكل والشرب من الحلال فتقوى عليه بذلك الشهوة، أو يأكل من الحرام فيبطل عمله، أو من الشبهة فيطول عليه التويخ في المعاد ولا يصفو له قلب للعبادة.

ويتفكر في طرق الحلال ومدخله ثم يتفكر في وجوه الاكتساب منه والاحتراز عن الحرام، وأن الله لا يقبل صلاة في جوفه أو في ثوبه أو ماله درهم حرام، وإن أكل الحلال أساس العبادات كلها، فكذا يتفكر في أعضائه فمهما حصلت له بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ أعضائه كلها.

الفصل الثاني: في الطاعات

فلينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤديها، أو كيف يحرسها عن التقصير والنقصان، أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النوافل ثم يرجع إلى أعضائه عضواً عضواً فيتفكر في

[٤٣٠] الأفعال / التي تتعلق بما يحبه الله فيقول مثلاً: إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة، ويتفكر في كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام فيقول: أنا قادر أن أستعمل العين في مطالعة القرآن والسنة فلم لا أفعله؟ وأنا قادر أن أنظر إلى فلان بعين التعظيم وإدخال السرور على قلبه، وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الاحتقار حتى يكون ذلك زجراً له عن معصية الله تعالى فلم لا أفعله.

وكذلك يقول في سمعه: إني قادر على استماع حكمة أو علم أو قراءة أو ذكر أو كلام مهلوف فيقول: كفرت بنعمة الله في تعطيله وتضييعه.

وكذلك يتفكر في اللسان فيقول: إني قادر أن أتقرب إلى الله تعالى بالتعليم، والوعظ، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر والسؤال عما يعنيني، وبالتوحد إلى قلوب أهل الصلاح وبالسؤال على الفقراء وإدخال السرور عليهم ولو بكلمة طيبة فإنها صدقة.

ويقول: إني قادر على أن أتصدق بفضول مالي فإني مستغن عنه ولعل تباعة أو مظلمة كانت في ذمتي فأنداركها قبل أن يزول عني وأزول عنه بالموت، ومهما احتجت فإن الله يرزقني من حيث لا أحتسب أو أحتسب إليه الآن فإني إلى ثواب الإيثار به لغيري، وقضاء تباعتي أحوج فيفتش عن أعضائه، وجملته بدنه وأمواله وأولاده، وإنه قادر أن يطيع الله تعالى بجميع ذلك فيستنتج بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها، وفيما يرغبه إلى المبادرة إليها، ويتفكر في إخلاص النية فيها، ويطلب لها مكان الاستحقاق، حتى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات من القلب والجوارح كلها.

الفصل الثالث: في الصفات المهلكات

التي محلها القلب من الشهوة، والغضب، والبخل، والتكبر، والعجب، والرياء، [٤٣١] والحسد، وسوء الظن، والغفلة، والغرور، وسخط المقدور، والإصرار، والأمن، / والإياس وغير ذلك فليتفقد من قلبه هذه الصفات فإن وجدها فيه أو بعضها فليبادر إلى علاج قلبه منها والثوبة عنها فإن كان منزهاً عنها فليتفكر في كيفية امتحانه فإن النفس تدعي البراءة من المذموم، وتسوخ بالوعد من المحمود، فإذا امتحنت ظهر منها غير ذلك، فإذا دعت مثلاً التواضع والبراءة من الكبر.

فينبغي أن يجرب نفسه بحمل حزمة حطب أمام الناس إن كان منظوراً إليه عند الناس وكذلك الأولون يفعلون، فإذا ادعت الحلم جرب نفسه بالتمريض لشمته سفيه إياه، ثم يجربها

في كظم الغيظ عنه، وكذلك في سائر الصفات فإذا دلَّت العلامات على وجود هذه الصفات فيه بادر إلى علاجها والتوبة بها.

وإذا أحس من نفسه العجب بعمله أو بحاله فيتفكر ويقول: إنما عملي بيدي وجوارحي وقوتي فإن ذلك ليس مِنِّي ولا إلي إنما هو من خلق الله وفضله عليّ فهو الذي خلقتي وخلق قدرتي وإرادتي وحرك أعضائي بقدرته فكيف أعجب بنفسي أو عملي ولا قوام لنفسي إلاّ بخالقي.

وإذا أحس من نفسه شهوة الطعام والجماع، تفكر في أن هذه صفات البهائم، ولو كان ذلك صفة كمال لكان للمقربين فهما كان الشره عليه أغلب كان من البهائم أشبهه ومن الملائكة أبعد، وكذلك يقدر في نفسه الغضب ثم يتفكر في طريق العلاج منه، وكذلك سائر الصفات ولا بد له من العلم بها وعلاجها.

الفصل الرابع: في المنجيات

وهي التوبة، والندم، والصبر على البلاء، والشكر على النعماء، والخوف، والرجاء، والزهد في الدنيا والإخلاص والصدق في الطاعات ومحبة الله تعالى وتعظيمه، والرضى بأفعاله، والشوق إليه، والخشوع والتواضع له، وغير ذلك.

فليتفكر العبد كل يوم هل هو متصف بهذه الصفات المقربة إلى الله تعالى أم لا؟ / فإن [٤٣٢] اتصف بها فليحمد الله وليحرص على الزيادة منها والثبات عليها وإن لم يتصف بها فليبتادر إلى اكتسابها.

فإن أراد أن يكتسب لنفسه حال التوبة والندم فليفتش ذنوبه أولاً، وليتفكر في الوعيد الوارد فيها وليحقق لنفسه أنه متعرض لمقت الله حتى ينبعث له حال الندم، وإن أراد أن يكتسب حال الشكر فليظن في إحسان الله، وأياديه ونعمه إليه، وفي إرساله جميل الستر عليه مع تضييعه شكر نعمه والتعرض لسخطه فإن ذلك يبعثه على الشكر حتى يتصف به.

فإن أراد محبة الله والشوق إليه فليتفكر في جلال الله، وعظمته وكبريائه، وذلك بالنظر في أفعاله وعجائب حكمته، ثم ينظر في الموت وسكرته، والقبر ووحشته، ثم أهوال المحشر، ثم الحساب ومناقشته، ثم خطر الأمر عنده، وليتفكر في الجنة ونعيمها، والنار وأنواع عذابها، وليكن فكر العالم في خفايا صفات قلبه، وفي استنباط طريق الخلاص منها.

أما أمثالنا الغرقى في الذنوب والجهل والخطايا، فينبغي أن يكون تفكرنا فيما يقوي إيماننا بيوم الحساب، إذ لو رأنا السلف الصالحون لقالوا قطعاً: إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار، فإن من خاف شيئاً هرب منه، ومن رجا شيئاً طلبه.

وقد علمنا أن الهروب من النار ترك الشبهات، والحرام، والمعاصي فنحن منهمكون فيها وإن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات فنحن مقصرون في الفرائض منها فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا والتكالب عليها فيقال: لو كان هذا مذموماً، لكان العلماء أولى باجتنابه منا فليتنا كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا فنسئل الله تعالى أن يصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا، المنعم علينا والله أعلم.

الفصل الخامس: في التفكير في المخلوقات

اعلم أن التفكير في الخلق بحر لا يدرك غوره جملة ولا تفصيلاً ولكن نشير إلى بعض جملة؛ لأن كل ما في الوجود نوعان: الله سبحانه وفعله، والتفكر في ذات الله وصفاته محظوراً لقوله ﷺ: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق»^(١).

ويقال أن الله تعالى أوحى إلى بعض الأنبياء: لا تخبروا عبادي بصفاتي فينكرون أو قال: فيتكبرون الشك مني، ولكن أخبروهم عني بما يفهمون.

وإنما على الإنسان الإيمان بالله تعالى على ما هو عليه من حقيقة وجوده وحقائق صفاته، أما المخلوقات فمنها ما لا يعرف أصلها فلا يمكن التفكير فيها إلا من حيث أنها مخلوقة مصنوعة محتاجة عاجزة وذلك قوله تعالى: «وَالَّذِي خَلَقَ الأزْوَاجَ كُلَّهَا...» إلى: «وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ»، وقال: «ما لا تعلمون»^(٢).

ومنها ما يعرف أصلها ولا يشاهد بالبصر منا، وذلك كالملائكة والجن والشياطين

(١) قال الحافظ العراقي في المعنى (٤/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو نعيم في الحلية بالمرْفوع منه بإسناد ضعيف ورواه الأصبهاني في الترهيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر. قلت - أي الحافظ العراقي -: فيه الوازع بن نافع متروك.

(٢) سورة يس، الآية: ٣٦.

والعرش والكرسي وغيرها ومجال الفكر فيها غامض على الراسخين من العلماء فكيف غيرهم؟

ومنها ما يعرف أصلها ويدرك بالبر: وذلك كالسماوات وملكوته كالشمس والقمر والنجوم وغيرها وكالأرض وما فيها وعليها من الجبال والشجر والدواب والبحار وغيرها، وكالجو وما فيه من الغيوم والثلوج والأمطار والرعود والصواعق والأرياح والشهب وغيرها فهذه الأجناس لا تنحصر أنواعها، ولا يدرك العقل أقسامها وصفاتها وهياتها ومعانيها الظاهرة والباطنة، وجميع ذلك مجاري الفكر فلا تتحرك ذرة في السماوات والأرض من جماد ونبت وحيوان وفلك وكواكب إلا ومحركه الله تعالى، وفي حركاتها وتقلبها علم / غامض لا يعلمه [٤٣٤] إلا الله تعالى، وحكم لا يحيط بها إلا خالقها، وكل ذلك دلائل على وحدانيته وجلاله وكبريائه وهي الآيات الدالة عليه، وأشار القرآن إلى الحث على التفكر فيها كما قال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ...﴾ إلى قوله: ﴿لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١). في أمثالها من القرآن والإشتغال بشرح معنى من معاني هذه الآيات يستدعي إلى تصنيف مجلدات ينقضي العمر دونها، ولكن من رزقه الله عقلاً رادعاً يردعه عن هجوم الشهوات، وعلماً نافعاً يعتمس به عن ورود الشبهات، فلا بد أن يزرقه النظر في ملكوت الأرض والسماوات وقد قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢) ثم قال: ﴿وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالكَذُّبُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾^(٣). فنستل الله العصمة والعون والتوفيق.

وروي عن بعض العلماء أنه قال: إن الله أقواماً أنعم عليهم فعرفوه، وشرح صدورهم فأطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر له، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين، وبيوتاً للحكمة، وتوابيت العظمة وخزائن القنطرة، فهم بين الخلائق مقبولون ومدبرون، وقلوبهم تجول في الملكوت، وتلوذ بمحجوب الغيوب ثم ترجع ومعها من لطيف الفوائد ما لا يمكن لواصل أن يصفه، فهم في باطن أمورهم كالديباج حسناً، وهم في الظاهر منادل مبدلون لمن أرادهم تواضعاً فهذه طريقة من الفكر لا يبلغ إليها بالتكلف، وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء. ولأبي العتاهية:

إن للدهر فاعلمن أثاراً فإلى كم أن لا ترى الأقدار
من رأى عبرة ففكر فيها لم يزد فكره إلا اعتباراً

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

(٢) سورة يونس، الآية: ١٠١.

(٣) سورة يونس، الآية: ١٠١.

لو عقلنا إذ النهار يسوق الليل والليل إذ يسوق النهار
لرأيناهما بمرءٍ حيث يطويان الأعمار الآثارا

[٤٣٥] / وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «التفكير نصف العبادة والجوع العبادة»^(١).

وعن عون بن عبد الله قال: قلت لأبي الدرداء أي عبادة أبي الدرداء كان أفضل؟ قال:
التفكير والاعتبار.

ويروي أن أم أبي ذر سئلت عن عبادة أبي ذر قالت: كان نهاره أجمع في ناحية يتفكر
فهذا الذي نبهنا عليه فيه كفاية لمن رزقه الله التفكير وبالله التوفيق.

الفصل الرابع: في ترتيب العبادة على الأوقات والأوقات^(٢)

اعلم أن الطريق إلى الله تعالى مراقبة الأوقات، وعمارتها بأوراد العبادة على سبيل
الدوام، ولذلك قال ﷺ: «أحب العباد إلى الله تعالى الذين يراعون الشمس والقمر والأظلة
بذكر الله تعالى»^(٣) فلا تظنن المراد بسير الشمس والقمر على حساب معلوم وما خلق الله الظل
والنور والنجوم أن يستعان بها على أمر الدنيا، بل ليتعرف بها مقادير الأوقات ليستغل فيها
بالطاعات والتجارة لدار الآخرة، يدل على ذلك قوله تعالى: «جعل الليل والنهار خلفاً لمن
أراد أن يذكر أو أراد شكوراً»^(٤). أي يخلف أحدهما الآخر فيتدارك ما فات في الآخر ويبيّن أن
ذلك للذكر والشكر وبالله التوفيق.

فأما ترتيب الأوراد في العبادة ففي النهار سبعة أوراد، فمن بين طلوع الفجر إلى طلوع
الشمس، وورد من طلوعها إلى زوالها وردان، ومن الزوال إلى العصر وردان ومن العصر إلى
المغرب وردان، وفي الليل أربعة أوراد، ومن المغرب إلى وقت النوم وردان ومن النصف
الآخر إلى الفجر وردان.

فأما الورد الأول من النهار فهو وقت شريف؛ لقوله تعالى: ﴿والصبح إذا تنفس﴾.

- (١) أورده الزبيدي في الإتحاف (٣٨٧/٧): وقال رواه أبو نعيم في الحلية من طريق سالم بن أبي الجعد قال
قبل لأم الدرداء ما كان أفضل عمل أبي الدرداء فقالت: التفكير.
- (٢) هذا الفصل مأخوذ من كتاب الإمام الغزالي «الإحياء» (٥١٢/١) طبعة دار الحديث.
- (٣) قال الحافظ العراقي في المعني (٥١١/١) طبعة دار الحديث: أخرجه الطبراني والحاكم وقال صحيح
الإستناد من حديث ابن أبي أوفى بلفظ: «خير عباد الله».
- (٤) سورة الفرقان، الآية: ٦٢.

وأقسم به لفضيلته، أما ترتيبه فإذا انتبه المرید للعبادة من نومه فينبغي أن يبدأ بذكر الله فيقول: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه / الشور، إلى آخر الدعاء الذي ذكرناه، قبل [٤٣٦] هذا.

وينوي بلبس ثوبه ستر عورته، ثم يقضي حاجة الإنسان ممثلاً لأدائها، ومجنباً للمناهي الواردة فيها، ثم يستاك إن قدر على ذلك، وليتوضأ ممثلاً للسنن والآداب فيه، ثم يركع ركعتي الفجر في بيته اقتداءً بالنبي ﷺ، ثم يخرج إلى المسجد داعياً في طريقه بالدعاء المتقدم قبل هذا ويمشي وعليه السكينة والوقار، ويدخل المسجد مقدماً رجله اليمنى داعياً كما تقدم ثم يقف في الصف الأول إن وجد متسعاً، ولا يزاحم ولا يتخطى رقاب الناس ثم يصلي ركعتي تحية المسجد إن صلى ركعتي الفجر في بيته وإلاً فليصلهما، ثم يدعو منتظراً للجماعة.

ولا ينبغي أن يدع الصلاة في الجماعة عامة، وفي الصباح والعشاء خاصة فلهما زيادة فضل، والمستحب التغليس^(١) في الفجر اقتداءً بالنبي ﷺ، وفي حديث أنس عنه ﷺ قال في صلاة الصبح: «من توضأ ثم توجه إلى المسجد يصلي فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة ومحيت عنه سيئة والحسنة بعشر أمثالها فإذا انصرف بعدما صلى عند طلوع الشمس كتبت له بكل شعرة في جسده حسنة وانقلب بحجة مبرورة وإن جلس حتى يركع الضحى كتبت له بكل ركعة ألف حسنة ومن صلى العتمة فله مثل ذلك وانقلب بحجة مبرورة»^(٢) وكان عادة السلف دخول المسجد قبل طلوع الفجر.

وقد روي أن أبا هريرة قال لرجل دخل المسجد قبل الفجر: أبشر فإننا كنا نعد خروجنا وقعودنا في المسجد في هذه الساعة بمنزلة غزوة في سبيل الله»^(٣).

ثم لا ينبغي أن يشتغل الإنسان بعد ركعتي الفجر بالتسبيح والدعاء والاستغفار إلى أن تقام الصلاة فيقول: استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ / القيوم، وأسأله التوبة سبعين مرة [٤٣٧] وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة، ثم يصلي الفريضة مراعيًا آدابها ظاهراً وباطناً في الصلاة والقدوة، فإذا فرغ منها قعد في المسجد إلى طلوع الشمس يذكر الله تعالى.

(١) حديث التغليس متفق عليه من حديث عائشة قاله الحافظ العراقي في المغني (٥١٣/١) طبعة دار الحديث.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٥١٤/١): لم أجد له بهذا السياق أصلاً وفي شعب الإيمان للبيهقي من حديث أنس بسند ضعيف.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٥١٤/١) طبعة دار الحديث: لم أقف له على أصل.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لأن أتعبد في مجلس أذكر الله تعالى فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب»^(١).

وقد قيل أنه كذلك يفعل، وروي في فضل ذلك ما لا يحصى، وقال فيما يرويه عن الله تعالى: «يا ابن آدم اذكرني بعد الفجر ساعة ومن بعد صلاة العصر ساعة أكفك ما بينهما»^(٢).

وينبغي أن لا يتكلم ويشغل بالدعاء وذكر الله وقراءة القرآن، وينبغي أن يكرر هذه الكلمات العشر، فقد ورد في تكريرها فضائل يطول ذكرها:

فالأولى: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير»^(٣).

الثانية: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»^(٤).

الثالث: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ربُّ الملائكة والروح»^(٥).

الرابعة: «سبحان الله العظيم وبحمده»^(٦).

الخامسة: «أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو وأسأله التوبة»^(٧).

- (١) قال الحافظ العراقي في المغني (٥١٤/١): أخرجه أبو داود من حديث أنس.
- (٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٥١٥/١): أخرجه ابن المبارك في الزهد هكذا مرسلًا.
- (٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٥١٦/١) طبعة دار الحديث: تقدم من حديث أبي أيوب تكرارها عشراً دون قوله: «يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير» فإنها في اليوم والليلة للنسائي من حديث أبي ذر دون قوله: «وهو حي لا يموت» وهي كلها عند البزار من حديث عبد الرحمن بن عوف فيما يقال عند الصباح والمساء. وتقدم تكرارها مائة ومائتين وللطبراني في الدعاء من حديث عبد الله بن عمر وتكرارها ألف مرة وإسناده ضعيف.
- (٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٥١٦/١) طبعة دار الحديث: أخرجه النسائي في اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد الخدري «استكثروا من الباقيات الصالحات» فذكرها.
- (٥) قال الحافظ العراقي في المغني (٥١٦/١) طبعة دار الحديث: لم أجد ذكرها مكررة ولكن عند مسلم من حديث عائشة «أنه كان يقولها في ركوعه وسجوده» وقد تقدم ولأبي الشيخ في الثواب من حديث البراء «أكثر من أن تقول سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح».
- (٦) قال الحافظ العراقي في المغني (٥١٦/١) متفق عليه من حديث أبي هريرة.
- (٧) قال الحافظ في المغني (٥١٦/١) أخرجه المستغفري في الدعوات من حديث معاذ فيه ضعف وهكذا رواه الترمذي من حديث أبي سعيد في قولها ثلاثاً. والبخاري من حديث أبي هريرة ولمسلم من حديث الأهرابي.

السادسة: «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معط لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجدد»^(١).

السابعة: «لا إله إلا الله الملك الحق المبين»^(٢).

الثامنة: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم»^(٣).

التاسعة: «اللهم صل على محمد وعلى من صلح من آل محمد عبدك ورسولك النبي الأمي»^(٤).

العاشر: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ربّ إني أعوذ / بك من همزات [٤٣٨] الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون»^(٥).

فهذه العشر كلمات إذا كرر كل واحدة منها عشر مرات حصل له مائة وهو أفضل من أن يكرر ذكراً واحداً مائة؛ لأن لكل واحدة من هذه الكلمات فضلاً على حياله، وللقلب بكل واحدة نوع استراحة.

- (١) قال الحافظ لم أجد تكرارها في حديث وإنما وردت مطلقة عقب الصلوات وفي الرفع من الركوع.
- (٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٥١٦/١) طبعة دار الحديث: أخرجه المستغفري في الدعوات والخطيب في الرواة عن مالك من حديث علي وفيه الفضل بن غانم ضعيف ولأبي نعيم في الحلية وفيه سليم الخواص ضعيف. وقال فيه: أظنه عن علي.
- (٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٥١٦/١) طبعة دار الحديث: أخرجه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عثمان. قال الترمذي حسن صحيح غريب.
- (٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٥١٦/١) طبعة دار الحديث: ذكره أبو القاسم محمد بن عبد الواحد العافقي في فضائل القرآن من حديث ابن أبي أوفى «من أراد أن يموت في السماء الرابعة فليقل كل يوم ثلاث مرات» فذكره وهو منكر: قلت - أي الحافظ العراقي -: ورد التكرار عند الصباح والمساء من غير تغيير لهذه الصيغة رواه الطبراني من حديث أبي الدرداء بلفظ: «من صلى علي حين يصبح عشراً وحين يمسى عشراً أدركته شفاعتي يوم القيامة» وفيه انقطاع.
- (٥) قال الحافظ العراقي في المغني (٥١٧/١) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي من حديث معقل بن يسار «الحديث» ومن قالها حين يمسى كان بتلك المترلة وقال: حسن غريب ولابن أبي الدنيا من حديث أنس مثل حديث مقطوع قبله: «من قالها حين يمسى عشر مرات أجبر من الشيطان إلى الصبح... الحديث» ولأبي الشيخ في الثواب من حديث عائشة «ألا أعلمك كلمات تقولها ثلاث مرات قل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» والحديث عند أبي داود والترمذي وحسنه الحاكم وصححه فيما يقال عند الفراغ دون تكرارها ثلاثاً من حديث عبد الله بن عمرو.

وأما الدعاء: فيدعو بما قدر عليه من الأدعية الماثورة المتقدمة، وأما القراءة فيستحب له أن يقرأ جملة من الآثان منها: سورة الحمد، ﴿وقل اللهم مالك الملك...﴾ الآيتين وقوله: ﴿لقد جاءكم رسول...﴾ الآية، وقوله: ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق...﴾ إلى آخرها، و﴿قل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً...﴾^(١) الخ، وخمس آيات من أول الحديد، وثلاثاً من آخر سورة الحشر، وقل هو الله أحد والمعوذتين، وقل يا أيها الكافرون، وآية الكرسي كل واحدة من هذه السور يقرأها سبعمائة وإن أضاف إليها غيرها من القرآن فحسن^(٢).

وبالجملة فالقرآن جامع لفضل الذكر والفكر والدعاء مهما كان يتدبر كما تقدم فضل ذلك، وقد اقتصر أصحابنا في ذلك على قراءة القرآن وقد قال عليه السلام: «أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن»^(٣).

وينبغي له التفكير أيضاً كما تقدم فيما ينفعه من المعاملة بينه وبين ربه، وأن يحاسب نفسه فيما سبق من تقصيره، وليحضر في قلبه النيات الصالحات في أعماله وليتفكر في نعم الله تعالى ليكثر شكره عليها.

وينبغي له أن يتخذ للشيطان مجناً وهو الصوم ليضيق به مجاري الشيطان الصارف له عن [٤٣٩] سبيل الرشاد، وليس بعد طلوع الفجر إلا ركعتي الفجر / وفرض الصبح إلى الطلوع، وكان عليه السلام وأصحابه يشتغلون فيه بالأذكار فهو الأولى.

والورد الثاني: ما بين طلوع الشمس إلى ضحوة النهار، أعني بالضحوة انتصاف ما بين الطلوع إلى الزوال، وذلك مقدار ثلاث ساعات أو ما شاء الله فله فيه وضيفتان:

أحدهما: صلاة الضحى والأولى فيها أن يصلي ركعتين إذا ارتفعت الشمس مقدار رمح، وهو المراد بالإشراق في قوله: ﴿يسجن بالعشي والإشراق﴾ لأن الصبح تقع وقت الكراهية إذ قال عليه السلام: «إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فإذا ارتفعت فارقها فيصلى أربعمائة أو ستاً أو ثمانياً إذا رمضت الفصال وضحيت الأقدام بحر الشمس»^(٤).

(١) سورة الإسراء، الآية: ١١١.

(٢) أورده الحافظ العراقي في المعنى (٥١٧/١، ٥١٨) أن الوارد في كل هذه الآيات ضعيف.

(٣) أطراف الحديث عند الزبيدي في الإتحاف (٤/٤٦٤) والمعنى الهندي في كنز العمال (٢٣٥٦، ٢٣٥٨، ٢٢٦٤، ٢٢٦٥).

(٤) قال الحافظ العراقي في المعنى (ج ١ ص ٣٢٤ طبعة دار الحديث). أخرجه النسائي من حديث عبد الله =

كما روي أنه عليه السلام خرج على أصحابه وهم يصلون عند الإشراق فتأدى بأعلى صوته: «أَلَا أُنَّ صَلَاةَ الْأَوَابِينَ إِذَا رَمَضْتَ الْفَصَالَ»^(١).

والوظيفة الثانية: في هذا الوقت ينبغي له أن يشتغل بنوع من الخيرات، إما تشجيع جنازة، أو عبادة مريض، أو إعانة على بر وتقوى أو حضور مجلس علم أو ما يجري مجراه من قضاء حاجة مسلم، أو إشتغال بكسب معاش إن كان تاجراً فيصدق وأمانة، وإن كان صانعاً فبصحة وإتقان وكذا ما أشبه هذا من وجوه المكاسب.

ولا ينبغي أن ينسى ذكر الله في جميع أشغاله فمهما حصلت له الكفاية فليرجع إلى بيت ربه وليتزوج لآخرته، وقد قيل: لا يوجد المؤمن إلا في ثلاثة مواطن: مسجد يعمره أو بيت يستره أو حاجة لا بد له منها، وقُلَّ ما يجد الإنسان ما لا بد له منه؛ لأن الشيطان يعدهم الفقر ويأمرهم بالفحشاء فيصغون إليه فيجمعون ما لا يأكلون ويزعمون أنه لا بد لهم منه والله يعدهم مغفرة منه وفضلاً فيعرضون عنه.

الورد الثالث: / من ضحوة النهار إلى الزوال. فينبغي له أن يشتغل فيه بما تقدم من [٤٤٠] وجوه الخير مع لا بد منه من كسب المعاش، ثم لا ينبغي له أن يغفل عن القيلولة، فهي سنة يستعين بها على قيام الليل كما يستعين بالسحور على صوم النهار، فإن كان لا يقوم الليل ولكن لو لم ينم لم يشتغل بخير فالنوم أحب إليه من مخالطة أهله للغفلة إذ في النوم الصمت والسلامة.

وقد قيل: يأتي على الناس زمان الصمت والنوم فيه أفضل أعمالهم، فإن لم ينم واشتغل بأعمال الخير فذلك أفضل أعمال النهار وفضل ذلك الوقت كفضل إحياء الليل؛ لأنه وقت غفلة الناس، ثم إذا نام فينبغي أن يتبته قبل وقت الزوال ليستعد بالوضوء للصلاة والله أعلم.

الورد الرابع: ما بين الزوال إلى الفراغ من صلاة الغابر، فإذا استعد فليصمت لفراغ المؤذن وجوابه، وليصل أربع ركعات قيل: يفصل بينهما بالسلام، وقيل: لا يفصل إذ صلاحها النبي عليه السلام وقال: «أحب أن يرفع لي فيها عمل ثم يصلي الظهر ثم يصلي ركعتين ثم أربعاً».

= الصنابحي وهو مرسل ومالك هو الذي يقول عبد الله الصنابحي وهم فيه والصواب عبد الرحمن ولم ير النبي ﷺ.

(١) قال الحافظ العراقي في المعنى (٥٢٢/١) طبعة دار الحديث: أخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم دون قوله: «فتأدى بأعلى صوته» وهو عند مسلم دون ذكر الإشراف.

ثم كره ابن مسعود أن تتبع الفريضة بمثلها ثم يجمع بين التسبيح والذكر والدعاء كما تقدم .

الورد الخامس: ما بعد ذلك إلى العصر يستحب فيه العكوف في المسجد مشغولاً بالذكر، أو بالصلاة، أو بفنون الخير من التعلم والتعليم، أو الوعظ، فإن كان بيته أسلم لدينه فاليست أفضل في حقه ويكره النوم فيه لمن نام قبل الزوال، إذ تكره نومتان في النهار، ولكن لما كان النوم غذاء الروح كان لا بد من استيفاء حقه بالليل أو بالنهار وليراع الاعتدال لأن إقلاله ربما يفضي إلى اضطراب البدن إلا أن يتعود السهر تدريجاً فقد تمرن النفس عليه من غير اضطراب .

الورد السادس: دخول صلاة العصر وهو العشي الذي أقسم الله به في قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾^(١).

[٤٤١] وليس في هذا الورد إلا أربع ركعات بين الأذنين ثم يصلي العصر / ويشغل بالأقسام المذكورة في الورد الأول .

الورد السابع: إذا اصفرت الشمس وترى صفرة في ضوءها فيستحب فيه التسبيح والاستغفار كما تقدم لقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾^(٢).

فجميع ما ذكرنا طريق إلى الله تعالى، وفي الخبر: «الإيمان ثلاث وثلاثون وثلاثمائة طريقة من لقي الله بالشهادة على طريق منها دخل الجنة»^(٣).

وقال بعض العلماء: الإيمان ثلاثمائة وثلاثة عشر خلقاً بعدد الأنبياء، فكل مؤمن على خلق منها فهو سالك للطريق فالتاس وإن اختلفت طرقهم في العبادة فكلهم على الصراط، فأقربهم إلى الله أعرفهم به وأعبدهم له، «وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»^(٤). كما ورد في الحديث، وقد قال عليه السلام: «من عوَّده الله عبادة فتركها ملالة مقلته الله»^(٥).

(١) سورة العصر، (الآيتان: ١، ٢).

(٢) سورة غافر، الآية: ٥٥.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٤١/١) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن شاهين والألكايني في السنة والطبراني والبيهقي في الشعب من رواية المغيرة بن عبد الرحمن عن أبيه عن جده «الإيمان ثلاثمائة وثلاث وثلاثون شريعة من وافى شريعة منهن دخل الجنة» وقال الطبراني والبيهقي «ثلاثمائة وثلاثون» وفي إسناده جهالة .

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٤١/١) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث عائشة .

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٤١/١) طبعة دار الحديث: موقوف على عائشة .

وسئلت عائشة عن عمله عليه السلام فقالت: «كان عمله ديمة»^(١)، ويحب أن يقرأ عند الغروب: ﴿والشمس﴾، ﴿والليل﴾، والمعوذتين، ولتغرب الشمس وهو في الاستغفار، وإذا سمع المؤذن قال: اللهم هذا إقبال ليك . . . الدعاء كما تقدم، وقد انتهت أوراد النهار فينبغي أن يحاسب نفسه ولا يغفل والله أعلم.

بيان أوراد الليل: وهي خمسة:

الأول: إذا غربت الشمس فإنه يصلي المغرب وركعتين بعدها يقرأ فيهما بـ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ويصليهما عقيب المغرب من غير أن يتكلم بينهما، ثم يصلي أربعاً يطيلها ثم يصلي إلى غيوبة الشفق ما تيسر له.

وعن عائشة عنه عليه السلام قال: «أفضل الصلوات عند الله تعالى صلاة المغرب لم يحطها عن مسافر ولا مقيم فتح بها صلاة الليل وختم بها صلاة النهار فمن صلى المغرب وصلى بعده ركعتين / بنى الله له قصرين في الجنة ومن صلى بعدها أربع ركعات غفر الله له [٤٤٢] ذنب عشرين»، أو قال: «أربعين سنة»^(٢).

وفي حديث آخر: «من صلى بعد المغرب ست ركعات عدلت له عبادة سنة، وكأنه صلى ليلة القدر»^(٣).

وعنه عليه السلام قال: «من عكف نفسه ما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو بقرآن كان حقاً على الله أن يبني له قصرين في الجنة مسيرة كل قصر منها مائة عام ويفرس له بينهما غروساً لو ضافه أهل الدنيا لوسعهم»، وقال: «من صلى بين المغرب والعشاء فذلك صلاة الأوابين».

وقال الأسود: ما أتيت ابن مسعود في هذا الوقت إلا ورأيته يصلي، ويقال فيه نزل: ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾.

- (١) قال الحافظ العراقي في المنعي (٥٤١/١) طبعة دار الحديث: رواه مسلم «كان عمله ديمة وكان إذا عمل عملاً أتته».
- (٢) أطراف الحديث عند المتقي الهندي في كتر العمال (١٩٤٣١) والهشمي في مجمع الزوائد (٣٠٩/١) والسيوطي في الدر المنثور (٣٠٠/١).
- (٣) أطراف الحديث عند ابن ماجه (١٣٧٤) والزبيدي في الإتحاف (١٨٢/٥) والمتقي الهندي (١٩٤٣٠) والألباني في السلسلة الضعيفة (٤٤٨).

الورد الثاني: دخول وقت العشاء إلى وقت نومة الناس وهو استحكام الظلام، ينبغي أن يراعى فيه ثلاثة أمور:

الأول: أن يصلي سوى فرض العشاء عشر ركعات، أربعاً قبل الفرض إحياء لما بين الأذنين، وستاً بعد الفرض ركعتين ثم أربعاً يستحب أن يقرأ فيهن آخر البقرة، وآية الكرسي، وأول الحديد وغيرها.

الثاني: أن يصلي ثلاث عشرة ركعة إحداهن الوتر، فإنه أكثر ما روي أن النبي عليه السلام صلى به من الليل والأكياس يأخذون أوقاتهم أول الليل والأقوياء من آخره والحزم التقدم، فإنه ربما لا يستيقظ، أو يتقل عليه القيام إلا إذا كان له ذلك عادة، فأخر الليل أفضل ثم يقرأ في هذه الركعات ما كان يكثر قراءته عليه السلام مثل: يس، والسجدة، ولقمان، وسورة الدخان، وتبارك الملك والواقعة، والزمزم.

ويروى أنه كان يقرأ المسبحات كل ليلة ويقال: فيها آية أفضل من ألف آية، وفي خير [٤٤٣] آخر أنه: كان يقرأ في ركعات الوتر: سبح اسم ربك الأعلى، وقل يا أيها الكافرون / فإذا فرغ قال: «سبحان الملك القدوس»، ثلاثاً.

الثالث: الوتر، فليوتر إن لم يكن عادته القيام وإلاً فأخر الليل أفضل، إذ قال عليه السلام: «صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بواحدة».

الورد الثالث: النوم، ولا بأس أن يعد من الأوراد إذا حسنت فيه النية، لأنه قيل: إذا نام العبد على طهارة ذكراً لله عز وجل، فإنه يكتب مصلية حتى يستيقظ، ويدخل في شعاره ملك، فإذا تحرك وذكر الله استغفر له الملك ودعاه.

وقال معاذ لأبي موسى الأشعري: كيف تصنع في قيام الليل؟ قال: أقوم الليل أجمع وأنفوق القرآن فيه تفوقاً. قال معاذ: لكني أنام ثم أقوم فأحسب في نومي ما أحسب في قومتي، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «معاذ أفقه منك».

وآداب النوم عشرة: الأول: الطهارة والسواك، قال عليه السلام: «إذا نام العبد على طهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة وإن لم ينم على طهارة قصرت روحه عن البلوغ فتلك المنامات أضغاث أحلام لا تصدق»^(١).

(١) قال الحافظ العراقي في المعني (٥٢٩/١): أخرجه ابن المبارك في الزهد موقوفاً على أبي الدرداء =

وهذا أريد به طهارة الظاهر والباطن جميعاً، وطهارة الباطن هو المؤثر في كشف حجب الغيب.

الثاني: أن يعد طهوره وسواكه عند رأسه، وينوي القيام للعبادة عند التيقظ، فكلما انتبه استاك كذلك عادة السلف، ويقال أن النبي عليه السلام يستاك مراراً عند نومه، وإن لم تمكنه الطهارة فليمسح أعضائه بالماء، قيل: يستحب ذلك وإن لم يجد فليقعد وليستقبل القبلة وليشتغل بالذكر والدعاء والتفكير فذلك يستحب وقال عليه السلام: «من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عيناه كتب له ما نوى وكان نومه صدقة عليه من الله تعالى»^(١).

الثالث: أن لا يبيت إلاً ووصيته عنده مكتوبة، فإنه لا يأمن من القبض في النوم، ويقال: إن من مات من غير وصية / لم يؤذن له في الكلام في البرزخ إلى يوم القيامة، فتتزاور الأموات [٤٤٤] ويتحدثون وهو لا يتكلم فيقول بعضهم لبعض: هذا المسكين مات من غير وصية.

الرابع: أن ينام تائباً سليم القلب لجميع المسلمين وعن النبي عليه السلام قال: «من آوى إلى فراشه لا ينوي ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر الله له ما جرم»^(٢).

الخامس: أن لا يتعم بتمهيد الفراش وكان أهل الصفة لا يجعلون بينهم وبين التراب حاجزاً، ويقولون: منها خلقنا وإليها نعود، وكانوا يرون ذلك أرق لقلوبهم، ومن لم تسمح نفسه فليقتصد.

السادس: أن لا ينام ما لم يغلبه النوم، ولا يتكلفه إلاً إذا قصد به الاستعانة على القيام آخر الليل، فقد كان الأصفياء نومهم غلبة، وأكلهم فاقة، وكلامهم ضرورة ولذلك وصفوا: (كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون).

السابع: أن ينام مستقبل القبلة وذلك على وجهين إما مستلقياً على قفاه وإما على جنبه الأيمن ووجهه إلى القبلة، كاستقبال اللحد.

= والبيهقي في الشعب موقوفاً على عبد الله بن عمرو بن العاص وروى الطبراني في الأوسط من حديث عليه. وهو ضعيف.

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥٣٠) طبعة دار الحديث: أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث أبي الدرداء بسند صحيح.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٥٣١) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الدنيا من حديث أنس من أصبح لم يهجم بظلم أحد غفر له ما أجرتم، وسنده ضعيف.

الثامن: الدعاء كما تقدم قبل هذا^(١).

ويستحب أن يقرأ الآيات المخصوصة مثل: آية الكرسي وآخر البقرة، ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ...﴾ الآية، ويقال: أن من قرأه عند النوم يحفظ عليه القرآن فلا ينساه ويقراً: ﴿إِنْ رِيكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...﴾ الآية، ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ...﴾ إلى آخر بني إسرائيل.

يقال أنه يدخل في شعاره ملك موكل يحفظه ويستغفر له ويقرأ المعوذتين في يديه ويمسح بهما وجهه وجسده، روي ذلك من فعل النبي عليه السلام وليقرأ عشراً من أول الكهف، وعشراً من آخرها، وهذه الآي للاستيقاظ لقيام الليل. وكان علي يقول: ما أرى أن رجلاً مستكملاً عقله ينام قبل أن يقرأ الآيتين من سورة البقرة وليقل خمساً وعشرين مرة [٤٤٥] سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ليكون مجموع هذه الكلمات مائة مرة.

التاسع: أن يتذكر عند النوم نوع وفات والتيقظ نوع بعث، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتُوفَى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾، فكما أن المستيقظ يشاهد أحوالاً لا تناسب أحواله في النوم، كذلك المبعوث يرى ما لا يخطر بباله، ومثل النوم بين الحياة والموت مثل البرزخ بين الدنيا والآخرة.

وقال لقمان: يا بني إن كنت تشك في الموت فلا تنم كما أنك تنام، فكذلك تموت، وإن كنت تشك في البعث فلا تتبّه كما أنك تتبّه بعد نومك فكذلك تبعث بعد موتك، فيحق على العبد أن يفتش عن قلبه على ماذا ينام أما الغالب على قلبه حب الله ولقائه، أو حب الدنيا، وليتحقق أنه يتوفاه على ما هو الغالب عليه ويحشره على ما يتوفاه فإن المرء مع من أحب وما أحب.

العاشر: الدعاء عند تلقباته، بما كان عليه السلام يقوله، وذلك: «لا إله إلا الله الواحد القهار رب السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار»^(٢).

وليجهتهد أن يكون آخر ما يرد على قلبه عند النوم ذكر الله فهو أول ما يرد على قلبه عند

(١) الدعاء المأثور عند النوم باسمك اللهم رب وضعت جنبي... الحديث إلى آخر الدعوات المأثورة التي سبق ذكرها.

(٢) قال الحافظ العراقي في المعني (٥٣٣/١) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن السني وأبو نعيم في كتابيهما عمل اليوم والليلة من حديث عائشة.

التيقظ فهو علامة الحب، ولا يلزم القلب في هاتين الحالتين إلا ما هو الغالب عليه فليجرب نفسه، فإنها علامة تكشف عن باطن القلب فإذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور إلى آخر الدعاء المتقدم.

الورد الرابع: يدخل بمضي النصف الأول من الليل إلى أن يبقى سدسه، وبه أقسم الله تعالى: ﴿والليل إذا سجي﴾، وفي هذا الوقت لا تبقى عين إلا وهي نائمة إلا الحي القيوم، وسئل النبي عليه السلام: «أيُّ الليل أسمع فقال: «جوفه»^(١).

وقال داود / عليه السلام: إلهي أحب أن أعبد إليك فأني وقت أفضل؟ فأوحى الله إليه: [٤٤٦] يا داود لا تقم أول الليل ولا آخره؛ فإنه من قام أوله نام آخره، ومن قام آخره لم يقم أوله، ولكن قم وسط الليل حتى تخلو بي وأخلو بك وارفع إليّ حوائجك، وسئل النبي عليه السلام: أيُّ الليل أفضل؟ قال: «نصف الليل الغابر»^(٢). يعني الباقي، وقال: «ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل الأخير خير له من الدنيا وما فيها ولولا أن أشق على أمتي لفرضتها عليهم»^(٣).

وعنه عليه السلام قال: «إن في الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيراً إلا أعطاه إياه».

وقال: «يا أبا هريرة أتريد أن تكون نعمة الله عليك حياً ومقبوراً أو مبعوثاً فقم من الليل فصل وأنت تريد رضى ربك يا أبا هريرة صل في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السماء كنور الكواكب والنجوم عند أهل الدنيا»^(٤).

وقال: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وقربة إلى الله وتكفير للذنوب ومطردة للداء عن الجسد ومنهارة عن الإثم»^(٥).

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٣٣/١) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من حديث عمرو بن عبسة. قال محقق الإحياء: الترمذي أخرجه من حديث أبي أمامة وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٧٨٢).

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٣٣/١) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن حبان وأحمد من حديث أبي ذر دون قوله الغابر وهي في بعض طرق الحديث عمرو بن عبسة.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٤٥/١) طبعة دار الحديث: أخرجه آدم بن إياس ومحمد بن نصر المروزي في كتاب فيام الليل من رواية حسان بن عطية مرسلاً ووصله أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمرو لا يصح.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٤٥/١) طبعة دار الحديث: باطل لا أصل له.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٤٥/١) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي من حديث بلال وقال: =

وقال: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى ثم أيقظ امرأته فصلت فإن أبت نضح في وجهها الماء»^(١).

وقال: «من استيقظ فأيقظ امرأته وصليا ركعتين كتبا من الذاكرين لله كثيراً والذاكرات»^(٢).

وقال يوسف بن مهران: بلغني أن تحت العرش ملكاً على صورة ديك برائيه من اللؤلؤ وصيسته من زبرجد أخضر، فإذا مضى ثلث الليل ضرب بجناحه فزقا فقال: ليقم القائمون، فإذا مضى ثلثا الليل ضرب بجناحه وزقا فقال: ليقم المصلون، فإذا أصبح ضرب بجناحه وزقا فقال: ليقم الغافلون وعليهم أوزارهم. ويروى أن الله تعالى قال: إن عبدي الذي هو عبدي حقاً [٤٤٧] هو الذي لا ينتظر لقيامه / صباح الديك.

فصل

اعلم أن قيام الليل عسيراً إلاً على من وفق للقيام بشروطه الميسرة له ظاهراً وباطناً، أما الظاهرة فأربعة:

الأول: أن لا يكثر الأكل فيكثر الشراب فيغلبه النوم، ويثقل عليه القيام.

الثاني: أن لا يتعب نفسه بالنهار بالأعمال التي تعمي بها الجوارح؛ فإن ذلك مجلبة للنوم.

الثالث: أن لا يترك القيلولة بالنهار؛ فإنها سبب لتقليل النوم بالليل.

الرابع: أن لا يكتسب الأوزار بالنهار؛ فإن ذلك يقسي القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة، فالذنوب كلها تقسي القلب، وتمنع من قيام الليل ولا سيما أكل الحرام، ولذلك قال بعضهم: كم من أكلة منعت قيام ليلة وكم من نظرة منعت قراءة سورة، وإن الرجل ليأكل أكلة، أو يفعل فعلة يحرم بها قيام سنة.

= غريب ولا يصح، ورواه الطبراني والبيهقي من حديث أبي أمامة بسند حسن وقال الترمذي: إنه أصح.
 (١) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٤٧/١) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي هريرة: قال محقق الإحياء: قال الألباني في صحيح الجامع (٣٤٩٤) وصحيح المشكاة (١٢٣٠).
 (٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٤٧/١) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبي هريرة وأبي سعيد بسند صحيح. قال محقق الإحياء: أخرجه أبو داود والحاكم وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٣٠).

وأما الميسرات الباطنة فأربعة: الأول: سلامة القلب من الحقد وفضول الدنيا، فالمستغرق بهموم الدنيا لا يتسنى له القيام، وإن قام فلا يتفكر إلا في مهماته، وفي مثل ذلك قيل وأنت إذا استيقظت أيضاً فنام.

الثاني: خوف غالب في القلب مع قصر الأمل كما قال بعضهم: إذا ذكرت النار اشتد خوفاً، وإذا ذكرت الجنة طال شوقاً، فما أقدر أن أنام، ولذي النون:

منع القرآن بوعده ووعيده مقل العيون بليها أن تهجعا
وهموا من الملك الجليل كلامه فرقابهم ذاك لكيما يخضعا

وقال طاوس: إن ذكر جهنم طير نوم العابدين.

الثالث: أن يعرف فضل قيام الليل بسماع هذه الآيات والأخبار والآثار حتى يستحکم بذلك رجاءه، وشوقه لثوابه فيهبجه الشوق فطلب المزيد رغبة في درجات الجنة وخوفاً من النيران.

الرابع: حب الله تعالى وهو أشرف البواعث له وذلك / من قوة الإيمان فإنه في قيامه لا [٤٤٨] يتكلم بحرف إلا وهو مناجاة به ربه، وإذا أحب الله عز وجل أحب لا محالة الخلوة به وتلذذ بمناجاته، ولا ينبغي أن يستبعد هذا إذ يشهد له العقل والنقل:

أما العقل فليعتبر حال المحب لشخص بسبب جماله أو لملك بسبب إنعامه كيف يتلذذ بالخدمة له، والخلوة به حتى لا يأتيه النوم والرجاء في حق الله سبحانه أصدق، وما وعده تعالى أنفع وأبقى، وأما النقل فأكثر من أن يحصى.

وقال بعض العلماء: إن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين: إن لي عبداً يحبونني وأحبهم، ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم، ويذكرونني وأذكرهم، وينظرون إليّ وأنظر إليهم، فإن حدثت طريقتهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتك.

قال: يا رب ما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها، فإذا جهنم الليل واختلطت الظلام وخلت كل حبيب بحبيبه، نصبوا إليّ أقدامهم، واقترشوا إليّ وجوههم، وناجوني بكلامهم، وتملقوا إليّ بإنعامي عليهم، فهم بين صارخ وبك، وبين متأوه وشاك، يعني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشتكون من حبي أول ما أعطيتهم أذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم، والثانية: لو كانت السماوات السبع والأرض في موازنتهم لاستقلتها لهم، والثالثة:

أقبل بوجهي عليهم، أفترى من أقبلت بوجهي عليه، أعلم أحد ما أريد أن أعطيه.

[٤٤٩] وشكى بعض المريدين إلى أستاذه طول سهر الليل وطلب حيلة تجلب النوم. / فقال أستاذه: إن لله عز وجل نفحات في الليل والنهار تصيب القلوب المتيقظة وتخطيء القلوب النائمة، فتعرض لتلك النفحات. فقال: يا أستاذي تركني لا أنام بالليل ولا بالنهار. ومطلوب القائمين تلك الساعة، وهي مبهمه في جوف الليل كليلة القدر في رمضان، وساعة يوم الجمعة، وبالله التوفيق.

وهذا هو الررد الخامس: وفيه يستحب السحور، وذلك عند خوف طلوع الفجر، الوظيفة في هذين الوقتين الصلاة فإذا طلع الفجر انقطعت أوراد الليل ودخلت أوراد النهار فيقوم فيصلي ركعتي الفجر وهو المراد بقوله: ﴿فسبِّحه وإدبار النجوم﴾، ثم ليقرأ: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو...﴾ إلى آخرها فيقول: وأنا أشهد بما شهد الله به لنفسه، وشهدت له به ملائكته، وأولوا العلم من خلقه، واستودع الله هذه الشهادة وأسأله حفظها عليّ حتى يتوفاني عليها حتى ألقاك عليها غير مبدّل تبديلاً.

فهذا ترتيب الأوراد للعبادة وقد كانوا يستحبون أن يجمعوا مع ذلك أربعة أمور: صوماً، وصدقة وإن قلت، وعبادة مريض وشهادة جنازة، وفي الخبر: «من جمعها كل يوم غفر له» وفي رواية أخرى: «دخل الجنة». وفي الخبر: «يصبح ابن آدم وعلى كل سُلّامى من جسده صدقة»، - يعني مفاصل جسده، وهي ثلاث مائة وستون مفصلاً - فأمرك بالمعروف صدقة ونهيك عن المنكر صدقة وحملك على الضعيف صدقة وهدايتك إلى الطريق صدقة وإمطتك الأذى صدقة، حتى ذكر التسييح والتهليل ثم قال: «وركعتا الضحى تأتي على ذلك كله»^(١).

والله نسأله الفوز والتوفيق والعصمة من الخطأ والذلل وصلى الله على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين والحمد لله رب العالمين.

(١) قال الحافظ العراقي في المعنى (٥٣٧/١) طبعة دار الحديث: أخرجه مسلم من حديث أبي ذر.

القنطرة الخامسة عشرة / قنطرة القوادح في الطاعات

وهما الرياء والعجب وما ينشأ عنهما من مفسدات العبادة ومحبطات الطاعات، وهذه القنطرة تحتوي على باين، وخمسة فصول.

الباب الأول في الرياء

احذر يا أخي على عملك مما يفسده عليك؛ فإن الرياء يحبط العمل كما يحبطه الشرك، والمرائي ممقوت عند الله، وقد شهدت بذلك الآيات والأخبار والآثار.

أما الآيات فقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ...﴾، إلى قوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السُّيَّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾^(٢).

فحكى عن مجاهد أنه قال: هم أهل الرياء، وقال تعالى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَّا اللَّهُ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾^(٣)، قيل: أنهم عملوا أعمالاً لا يرونها في الدنيا حسناً بدت لهم يوم القيامة سيئات.

وكان بعض العلماء إذا قرأ هذه الآية قال: ويل لأهل الرياء، وقال الله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ...﴾ الآية.

يقال: أنها نزلت فيمن طلب الأجر والثناء بعمله، ويقال: نزلت في رجل كان إذا صلى وصام أو تصدق فذكر بخير ارتاح لذلك وزاد في عمله لمقالة الناس.

وأما الأخبار فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أخوف ما أخاف على أمي الشرك

(١) سورة الماعون، الآيات: ٤، ٥، ٦.

(٢) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

الأصغر»، قيل: وما هو؟ قال: «الرياء يقول الله يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء»، وسأله رجل فقال: يا رسول الله فيم النجاة؟ قال: «أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس»^(١).

وفي الحديث عنه عليه السلام أن الله تعالى يقول: «أنا أغنى الشركاء عن الشركة فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته له كله فأني لا أقبل إلا ما كان خالصاً لي»^(٢).

وقيل: إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة إذا التمس ثواب عمله: ألم نوسع لك في المجالس؟ ألم تكن المرؤوس في الدنيا؟ ألم يرخص بيعك وشراؤك؟ ألم تكرم؟ . . . وما أشبه هذا.

[٤٥١] وعن النبي / عليه السلام: «أن الجنة تكلمت فقالت: أنا حرام على كل بخيل ومراثي».

وعن أبي هريرة عنه رضي الله عنه قال: «إن أول ما يدعى يوم القيامة للحساب رجل قد جمع القرآن ورجل قاتل في سبيل الله ورجل كثير المال فيقول الله تعالى للقارىء ألم أعلمك ما أنزلت على رسلي فيقول: بلى يا رب فيقول: ما عملت فيما علمت فيقول: يا رب قمت به أناة الليل وأطراف النهار فيقول الله: كذبت وتقول الملائكة كذبت فيقول الله: بل أردت أن يقال فلان قارىء فقد قيل ذلك، ويؤتى بصاحب المال فيقول: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد فيقول: بلى يا رب فيقول: ما عملت فيما أتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق فيقول الله: كذبت وتقول الملائكة كذبت فيقول الله: بل أردت أن يقال فلان سخي فقد قيل ذلك، ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول: ما فعلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله: كذبت وتقول الملائكة: كذبت فيقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء فقد قيل ذلك»^(٣).

(١) قال الحافظ العراقي في المعنى (٤٥٥/٣) طبعة دار الحديث: في نحوه أخرجه أحمد والبيهقي في الشعب من حديث محمود بن لبيد وله رواية ورجاله ثقات ورواه الطبراني من رواية محمد بن لبيد عن رافع بن خديج.

(٢) أطراف الحديث عند الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٢٦٣/٨)، (١٠/٦٣، ٥١) والبيهقي في الأسماء والصفات (٢١٣) والمنذري في الترغيب والترهيب (٦٩/١) والربيع بن حبيب في مسنده (١٧/١).

(٣) قال الحافظ العراقي في المعنى (٤٥٥/٣) طبعة دار الحديث: رواه مسلم.

قال: ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي أبي هريرة فقال: «يا أبا هريرة أولئك أول خلق الله تسعر بهم نار جهنم».

فأخبر عليه السلام أنهم لم يتوبوا وأن رياضهم هو الذي أحبط أعمالهم، وعن ابن عمر قال: قال عليه السلام: «من رأى رأتى رأى الله به ومن سمع سمع الله به»^(١).

وقال عليه السلام: «استعينوا بالله من جب الحزن» قيل وما هو يا رسول الله؟ قال: «واد في جهنم أعد للقراء المرأئين»^(٢).

وقال عيسى عليه السلام: إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ويمسح شفتيه لثلا يرى الناس أنه صائم، وإذا أعطى يمينه فليخف شماله، وإذا صلى فليرخ ستر بابه، فإن الله يقسم الثناء كما يقسم الرزق.

وقال عليه السلام: «لا يقبل الله عملاً فيه مثقال ذرة من رياء»^(٣).

/ وقال عمر لمعاذ بن جبل ورآه يبكي ما يبكيك؟ قال: حديث سمعته من صاحب هذا [٤٥٢] القبر - يعني النبي عليه السلام - يقول: «إن أدنى الرياء شرك»^(٤).

وقال عليه السلام: «أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهرة الخفية». وهذا إيماء إلى خفايا الرياء، وقال عليه السلام: «إن المرأئي ينادي عليه بأربعة أسماء: يا فاجر يا غادر يا خاسر ضل عملك وحبط أجرك اذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له»^(٥).

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٥/٣) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله وأما حديث ابن عمر فرواه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب من رواية شيخ يكتنأ أبا يزيد عنه بلفظ «من سمع الناس سمع الله به سماع خلقه وحقره وصغره» وفي الزهد لابن المبارك ومسند أحمد بن منيع أنه من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٦/٣) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وقال: غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة وضعفه ابن عدي.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٦/٣) طبعة دار الحديث: لم أجده هكذا.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٦/٣) طبعة دار الحديث: أخرجه الطبراني هكذا والحاكم بلفظ «اليسير من الرياء شرك» قال محقق الإحياء ضعيف جداً وذكره الألباني في ضعيف الجامع (١٣٧٩).

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٦/٣) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية جبلة اليحصبي عن صاحبي لم يسم وزاد: يا كافر يا خاسر ولم يقل يا مرأئي وإسناده ضعيف.

وعن شداد بن أوس قال: رأيت النبي عليه السلام يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال: «إني تخوفت على أمي الشرك أما إنهم لا يعبدون صنماً ولا شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولكنهم يراؤون بأعمالهم»^(١).

وقال عليه السلام: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الأَرْضَ فَمَدَّتْ بِأَهْلِهَا فَأَوْتَدَهَا بِالْجِبَالِ فَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا خَلَقَ رَبُّنَا خَلْقاً أَشَدَّ مِنَ الْجِبَالِ فَخَلَقَ اللهُ الْحَدِيدَ فَقَطَعَ الْجِبَالَ ثُمَّ خَلَقَ النَّارَ فَأَذَابَتِ الْحَدِيدَ ثُمَّ أَمَرَ اللهُ الْمَاءَ فَأَطْفَأَ النَّارَ فَأَمَرَ الرِّيحَ فَوَكَّدَتِ الْمَاءَ فَاخْتَلَفَتِ الْمَلَائِكَةُ فَقَالَتِ: نَسَأَلُ اللهُ فَقَالَتِ يَارَبُّ مَا أَشَدَّ مِنْ خَلَقْتَ مِنْ خَلْقِكَ؟ فَقَالَ اللهُ لَمْ أَخْلُقْ شَيْئاً أَشَدَّ مِنْ ابْنِ آدَمَ حِينَ تَتَّصِقُ يَمِينَهُ فَيُخْفِيهَا عَنْ شِمَالِهِ فَهَذَا أَشَدُّ خَلْقاً خَلَقْتَهُ»^(٢).

وروي أن رجلاً قال لمعاذ رحمه الله حدثني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، قال؛ فيكي معاذ حتى ظن الرجل أنه لا يسكت ثم سكت ثم قال: سمعت رسول الله قال: «يا معاذ»، قلت له: ليك يا رسول الله بأبي أنت وأمي قال: «إني لأحدثك حديثاً إن أنت حفظته نفعك وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجبتك عند الله يوم القيامة يا معاذ إن الله خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السماوات والأرض ثم خلق السماوات والأرض فجعل لكل سماء من السبع ملكاً بواباً عليها قد جللها عظماً فتصعد الحفظة بعمل العبد من حيث أصبح إلى [٤٥٣] أن أمسى له نور كنور الشمس حتى إذا طلعت به إلى سماء الدنيا ذكرته فكثرته فيقول / الملك للحفظة اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه أنا صاحب الغيبة أمرني ربي ألا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزني إلى غيري»، قال: «ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتزكيه وتكثره حتى تبلغ به إلى السماء الثانية فيقول لهم الملك بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه أراد بعمله هذا عرض الدنيا أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان يفخر على الناس في مجالسهم»، قال: «فتصعد الحفظة بعمل العبد يتهج له نور من صدقه وصيام وصلاة قد أعجب الحفظة فيجاوزون به الثالثة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إني ملك الكبر أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إنه كان يتكبر على الناس في مجالسهم»، قال: «فتصعد الحفظة بعمل العبد يزهر كما يزهر الكوكب الدرّي له دوي من

(١) قال الحافظ العراقي في المعني (٤٥٧/٣) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن ماجه والحاكم بنحوه.

(٢) قال الحافظ العراقي في المعني (٤٥٧/٣): أخرجه الترمذي من حديث أنس مع اختلاف وقال: غريب. قال المحقق: ذكر ابن حجر في الفتح حديثاً عند الإمام أحمد برواية أنس نحوه من ذلك وقال: إسناده حسن (١٧٢/٢) الفتح.

تسييح وصلاة وحج وعمرة حتى يجاوزوا بها إلى السماء الرابعة فيقول لهم الملك: بها قفوا واضربوا بهذا العمل ظهره ويطنه أنا صاحب العجب أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري إنه كان إذا عمل عملاً أدخل العجب في عمله»، قال: «وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزوا به إلى السماء الخامسة كأنه العروسة المزفوفة إلى زوجها، فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه واحملوه على عاتقه أنا ملك الحسد إنه كان يحسد الناس ومن يتعلم ويعمل بمثل عمله فكل من كان يأخذ فضلاً من العبادة يحسدكم ويقع فيهم أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمرة وصيام فيتجاوزون إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكل قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه كان لا يرحم إنساناً قط من عباد الله أصابه بلاء أو ضرر أصّر به بل كان يشمت به آتاء ملك الرحمة أمرني ربي أن لا أدع / عمله [٤٥٤] يجاوزني إلى غيري»، قال: «وتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة من صوم وصلاة ونفقة واجتهاد وورع له دوي كدوي الرعد وضوء كضوء الشمس ومعه ثلاثة آلاف ملك فيجاوزون به إلى السماء السابعة فيقول لهم الملك الموكل بها: قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه اضربوا به جوارحه اقلوا على قلبه إني أحجب عن ربي كل عمل لم يرد به وجه ربي إنه أراد بعمله غير الله إنه أراد به رفعة عند الفقهاء وذكرأ عند العلماء وصوتاً في المدائن أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري وكل عمل لم يكن لله خالصاً فهو رياء ولا يقبل الله عمل المرأئي» قال: «وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر الله تعالى فتشيعه ملائكة السموات حتى يقفوا بين يدي الله تعالى ويشهدوا له بالعمل الصالح المخلص لله»، قال: «فيقول الله لهم: أنتم الحفظة على عمل عبدي وأنا الرقيب على نفسه إنه لم يردني بهذا العمل وأراد به غيري فعليه لعنتي فتقول الملائكة كلها: عليه لعنتك ولعنتنا وتقول السموات كلها عليه لعنة الله ولعنتنا وتلعنه السموات السبع ومن فيهن»، قال معاذ: قلت: يا رسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ فكيف النجاة مما ذكرت؟ قال: «اقتد بي وإن كان في عملك تقصير يا معاذ حافظ على لسانك من الوقيعة في الناس وعن إخوانك من حملة القرآن واحمل ذنوبك عليك ولا تحملها عليهم ولا ترك نفسك بذمهم ولا ترفع نفسك عليهم ولا تدخل عمل الدنيا في عمل الآخرة ولا تكبر في مجلسك لكي يحذر الناس من سوء خلقك ولا تناج رجلاً وعندك آخر ولا تتعظم على الناس فيقطع عنك خير الدنيا والآخرة ولا تمزق عرض المسلمين فتمزقك كلاب النار يوم

[٤٥٥] القيامة / في النار قال الله: ﴿والناشطات نشطاً﴾^(١) أتدري ما من يا معاذ؟ قلت: ما هي بأبي أنت وأمي؟ قال: «كلاب النار تنشط اللحم والعظم» قلت: بأبي وأمي يا رسول الله من يطبق هذه الخصال ومن يتجو منها؟ قال: «يا معاذ إنه ليسير على من يسره الله عليه»^(٢).

قال: فما رأيت أكثر تلاوة القرآن من معاذ حذراً مما في هذا الحديث، والله تعالى أعلم.
وأما الآثار فروي عن عمر رضي الله عنه أنه رأى رجلاً يطأ طيء رقبته فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلب.
قال: ورأى أبو أمامة رجلاً في المسجد يبكي في سجوده فقال: أنت أنت لو كان هذا في بيتك.

وقال علي للمرائي ثلاث علامات: يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس ويزيد في العمل إذا أتى عليه وينقص إذا دُم.

وقال رجل لعبادة بن الصامت: أقاتل بسيفي في سبيل الله أريد به وجه الله ومحمة الناس.

قال: لا شيء لك، فسأله ثلاثاً كل ذلك يقول: لا شيء لك ثم قال في الثالثة إن الله يقول: أنا أغنى الشركاء عن الشركة.

وسأل رجل ابن المسيب فقال: أهدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر فقال له: أنحب أن تمقت؟ قال: لا قال: فإذا عملت لله عملاً فاخلصه.

وقال الضحاك: لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك ولا يقال: هذا لله والمرحم فإن الله لا شريك له والآثار في هذا كثيرة تركتها حباً للاختصار.

الفصل الأول في بيان حقيقة الرياء^(٣)

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع، وأصله طلب المنزلة في

(١) سورة النازعات، الآية: ٢.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥٩/٣) طبعة دار الحديث: عزاه المصنف إلى رواية عبد الله بن المبارك بإسناد عن رجل عن معاذ وهو كما قال رواه في الزهد وفي إسناده كما ذكر من لم يسم ورواه ابن الجوزي في الموضوعات.

(٣) هذا الفصل مأخوذ من كتاب الإمام الغزالي - إحياء علوم الدين - طبعة دار الحديث (٤٦٠/٣).

قلوب الناس بأرائهم خصال الخير، فالمرائي هو العابد والمرائي هم الناس المطلوب رؤيتهم لطلب المنزلة في قلوبهم.

والمرائي به: هو الخصال التي قصد المرائي إظهارها وينحصر ذلك / في خمسة أقسام [٤٥٦] هي مجامع ما يتزين به العبد للناس وهي البدن، والزي، والقول، والعمل، والإتياع والأشياء الخارجة، وكل أهل الدنيا يراؤون بهذه الأسباب الخمسة إلا أن طلب الجاه وقصد الرياء بأعمال غير الطاعة أهون من الرياء بالطاعة، فيرائي أهل الدين والدنيا بأبدانهم، وأموالهم، وأعمالهم، وزينهم في أبدانهم، ولباسهم.

فأما رياء أهل الدين: يبدنهم فيرائي العبد بالنحول، واصفرار اللون ليوهم الناس أنه شديد الاجتهاد، وبالخوف والحزن وضعف الصوت، وغور العيون، وذبول الشفاة إعلاماً للناس أنه صائم، فالنحول دليل على قلة الغذاء وكثرة الأحزان، والاصفرار دليل على قيام الليل، وليس هذا رياء على الحقيقة، وإنما هذا تسميع بلسان الحال لا بلسان المقال.

وأما رياء أهل الدنيا بالأبدان: فسمنها وحسنها وصفاء ألوانها، وأما رياء أهل الدين بالزي: فبشعث الرؤوس، وحلق الشوارب، واستيطان الشعر، وفرقه إظهاراً لكونه متابعاً للرسول في زيّه، وكذلك غلظ الثياب، وآثار السجود، وتشمير القمص، وقصر الأكمام، وخصف النعال وحذوها على زي أهل الدين، ومن هؤلاء من يؤثر حمد أهل الدين والدنيا ليحمدهم الفريقان، فيتفق عندهم ليصل إلى أغراضه منهم فيلبس الثياب الحسان لينفق عند أهل الدنيا، ويقصر أكمامها ويشمر ذبولها لينفق عند أهل الدين، وكذلك يلبس النعال الخشان محذوة على نعال أهل الدين، ويبالغ في جودة الثياب ليتقرب من السلاطين زعم أنه إنما يتقرب إليهم لقضاء حوائج المسلمين، ومنهم من يتصنع بالطاعة لينفق عند المسلمين والمخالفين، ومن هؤلاء لو أعطي من الأموال الخطيرة ما أعطي لما خرج عن زيّه الذي عرف به لتلا يقال: خرج من الاقتداء بنبيه عليه السلام.

وأما الرياء بالأقوال: فيرائي أهل الدين بالنطق بالحكم وإقامة الحجج عند أهل المنازل، / وبالحفظ للحديث، وأقوال المختلفين وذكر الله بالألسن، والأمر بالمعروف والنهي عن [٤٥٧] المنكر، وتضعيف الصوت عند رد الجواب وتحسينه ورفع عند القراءة، والتأوه عندها ليدل بذلك على المخافة ويرائي أهل الدنيا بالنطق بالطاعة، وغيرها من الفصاحة عند المحاوراة وحسن الصوت وإنشاد الشعر والنحو والغريب واللغة، وكان السلف إذا اجتمعوا يكرهون أن يذكر الرجل أحسن ما عنده.

وأما الرياء بالأعمال فيراي أهل الدين بطول الصلاة وتحسين ركوعها وسجودها وبالصوم والغزو والحج وطول الصمت وبذل الأموال وإطعام الطعام والإخبات في المشي، إذا ألقى الناس بإرخاء الجفون وتنكيس الرؤوس، والثبت عند السؤال، ومنهم من يمشي سريعاً فإذا أطلع عليه أهل الدين مشى مشية أهل الدين، فإذا جاوزهم عاد إلى ما كان عليه ويرائي أهل الدنيا بصحبة أهل الدين من العلماء والعباد ليقال: فلان العالم أو العابد، ويصحبه ويتردد إليه إما ليتفق عند الملوك أو ليولى القضاء أو ليستشهد أو يستودع أو يوصى إليه فيخون الأمانة والله أعلم.

الفصل الثاني: في مراتب نفي الرياء

من مختصر الرعاية، قال للشيطان في الرياء ثلاثة أحوال: إحداهن: أن يخطر الرياء، والثانية: أن يزينه للبعد، والثالثة: أن يدعو إليه ويحثه عليه بعد أن يحبه إليه فأسعد الناس من يدفع الخطرة عن قلبه، ويليه الذي يدفعها بعد تحسينه له، ويليه الذي لا يتعاطاه بعد حث الشيطان عليه ودعائه إليه، وهذا جار في جميع المعاصي، قال: ويندفع دعاء الشيطان إلى الرياء وإلى جميع أنواع المعاصي بشئين: أحدهما كراهيته المعصية والرياء، والثاني: الامتناع مما كرهه، وإنما تحصل الكراهية بتذكره ما في تلك المعصية من سخط الله وبما ذكرناه من [٤٥٨] مضار الدارين، / فإن الله تعالى جبل الإنسان على محبة ما ينفعه وكراهية ما يضره، وخلق النفس مثالة إلى ما ينفعها غافلة عما يضرها، والشيطان عون لها على ذلك، وخلق العقل ليدفع أعظم الضررين بأدناهما، ويقدم أعلى النفعين على أدناهما.

فالشرع هو المعرف للضرر، والنفع والعقل كالبصر لا يرى النفع والضرر إلا في نور الشرع كما أن البصر لا يرى الحسن والقبیح إلا في نور، وإذا زَينَ الشيطان المعصية وحببها إلى النفس امتلاً للقلب بحبها، فنسي العبد ما كان عزم عليه من الطاعة، والإخلاص فيغفل عما في الفعل من مضرتة في دينه ودنياه، وإنما ينقطع ذلك باستجلاب التذکر لما في الذنب من المفاسد التي تزيد على ما في الشهوة من المصالح فإذا علم ما في طاعة الشهوة من الضرر العظيم كرهتها النفس حيثئذ؛ لأنها مجبولة على دفع أعظم الضررين بالتزام أخفهما، ولا شك أن ضرر الذنوب في الدنيا والآخرة أعظم من ضرر فوات شهوة فانية، فإذا اطلعت النفس على ذلك صارت مع العقل فغلب جند الرحمن جند الشيطان إذ لا يتصور في العادة أن يتذكر العبد ما في الطاعة والإخلاص من مصلح الدنيا والآخرة وما في الرياء والمعصية من مفسد الدنيا والآخرة، وما في الرياء والمعصية من مفسد الدنيا والآخرة، ثم يقدم على الرياء

والعصيان مع علمه بما فيهما من فوات المصالح وحصول المفاسد والذي يضعف دواعي الرياء يذكر الإنسان الآيات والأخبار المتقدمة وما يحرمه الله مع توفيقه وإصلاح قلبه، ومقته تعالى له على ذلك إذا اطلع على قلبه وهو معتقد للرياء ويحبط عمله ويحرم ثواب الآخرة ويعاقبه إذا تحبب إلى العباد بما يبغضه عند الله، ويزين لهم بما يشينه عنده ويتقرب إليهم بما يبعده مع أنهم لا يملكون له نفعاً ولا ضرراً ولا مواتاً ولا حياة ولا نشوراً بما يبعده مع أنهم لا يملكون له نفعاً، ولا ضرراً، ولا موتاً، ولا حياة، ولا نشوراً مع أن رضاهم غاية لا تترك فقد يرضى بعضهم ما يسخط الآخرين / مع أنه يجهل ما يصلح له من المنزل في قلوبهم [٤٥٩] وما يناله من منافعهم، ولا يأمن أن يطلعهم الله تعالى على رياءه فيمقتونه ويحرمونه ويضرونه ولا يتفهمونه، فيخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، فإذا تحقق ما ذكرناه وواظب عليه اضمحل دينه ورياءه شيئاً فشيئاً ويندرج إليه الإخلاص شيئاً فشيئاً إلى أن يصير من المخلصين .

فائدة: فإذا أخطر الشيطان قلبه الرياء في شيء من الطاعات كالصلاة مثلاً فلا يلتفت إليه ولا يشغل به فتنقص صلاته، ولكن يزيد في تحسينها بإحضار الخشوع وإتمام الركوع والسجود إرغاماً للشيطان وكذلك الطاعات .

فائدة أخرى: اعلم أن الشيطان يدعو أولاً إلى ترك الطاعة؛ فإن أطاعه الإنسان وتركها فهو مراده، وإن لم يطعه دعاه إلى الرياء بها، فإن أطاعه أبطلها عليه، وإن لم يطعه أوهمه أن ترك العمل خيفة الرياء إخلاص .

فاعلم أنه كاذب في إيهامه إذ ليس ترك العمل من أجل الناس خوفاً لمرآتهم إخلاصاً، إنما الإخلاص إيقاع الطاعة خالصة لله تعالى دون الناس، فلا يترك الإنسان الطاعة لأجل ما ذكرنا عن الشيطان، فإن عارضه في أثناء الطاعة وقال له: إنك مرء فلا يتركها لكن يزيد فيها ويحسنها ولا يشتغل به، وبالله العون والتوفيق .

الفصل الثالث: في الإخلاص

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ...﴾^(١) الآية، وقال: ﴿إِلَّا لِلَّهِ الدِّينَ الْخَالِصَ﴾ .

وقال النبي عليه السلام: «ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم» منها «إخلاص العمل لله تعالى»^(١).

وقال: «إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم وصلاتهم»^(٢).

وقال عليه السلام: «يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي»^(٣).

[٤٦٠] وقال لمعاذ: «من أخلص العمل لله أربعين / يوماً ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»^(٤).

ويقال: كتب بعضهم إلى أخ له: اخلص النية في أعمالك يكفك القليل منها^(٥).

وقال بعض العلماء: في إخلاص ساعة نجاة الأبد، ولكن الإخلاص عزيز، فالعلم بذر والعمل زرع وماءه الإخلاص، ويقال مراد الله تعالى من عمل الخلق الإخلاص، وقال الحسن: إن لله عبادة عقلا، فلما عقلوا عملوا، فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البر أجمع.

وقال بعض العلماء: الأمر كله يرجع إلى أصليين؛ فعل من الله لك، وفعل منك له فافرض بما فعل واخلص فيما تفعل فإذا فعلت بهذين فزت في الدارين.

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٧٥/٤) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وصححه من حديث النعمان بن بشير. قال المحقق: أخرجه الترمذي (٢٦٥٨) من حديث ابن مسعود بلفظ في أوله «نصر الله امرأة أسمع مقالتي... وفي آخره ثلاث لا يغفل عليهن...» الحديث قال الألباني: صحيح.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٧٦/٤) طبعة دار الحديث: أخرجه السنائي وهو عند البخاري بلفظ: هل تصرون وترزقون إلا بضعفاتكم.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٧٦/٤) طبعة دار الحديث: رويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلاً يقول كل واحد من رواته: سألت فلاناً عن الإخلاص فقال، وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد. ورواه أبو القاسم الفشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٧٦/٤) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن عدي ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات وعن أبي موسى.

(٥) أورد الحافظ العراقي في معنى ذلك حديثاً في المغني (٥٧٦/٤) طبعة دار الحديث: أن النبي قال لمعاذ: «أخلص العمل يجزئك منه القليل» وقال أخرجه أبو منصور الدلمي في مستند الفردوس من حديث معاذ وإسناده منقطع.

مسألة: واختلفت أقوال العلماء في معنى الإخلاص، فقيل: معناه أن يكون سكنون العبد وحرسته لله خالصة، وقال بعضهم: الإخلاص في العمل أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده، ولا ملك فيكتبه، وقيل: الإخلاص تصفية العمل من الكدورات.

وقال المحاسبي: هو إخراج الخلق عن معاملة الرب، وقيل: دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها، وقيل: سئل النبي عليه السلام عن الإخلاص فقال: «أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أمرت». أي لا تعبد هواك ولا تعبد إلا ربك وأن تستقيم في عبادته كما أمرت، فهذا هو الإخلاص حقاً.

وقال بعض العلماء: أجمع الفقهاء على ثلاث خصال أنها إذا صحّت فيها النجاة ولا يتم بعضها إلا ببعض: الإسلام الخالص عن البدعة والهوى والصدق لله تعالى في الأعمال وطيب المطعم والله أعلم.

مسألة: والإخلاص معناه: أن يريد الله تعالى بطاعته ولا يريد بها سواه، وله أقسام: أحدها: أن يريد الخلاص من العقاب، والثاني: أن يريد الفوز بالثواب، والثالث: أن يريدهما جميعاً، والرابع: أن يفعل ذلك حياء من الله تعالى، والخامس: أن يفعل ذلك حباً لله تعالى من غير ملاحظة ثواب ولا عقاب، والسادس: أن يفعل ذلك إجلالاً لله / تعالى وتعظيماً، وأما [٤٦١] الرياء فهو أن يريد الناس بطاعة الله سبحانه وهو ضربان:

أحدهما: أن لا يريد بتلك الطاعة إلا الناس.

والثاني: أن يريد الناس ورب الناس، وهذا أخف الريائتين؛ لأنه أقبل على الله من وجه وعلى الناس من وجه، وأما الأول فقد أعرض عن الله تعالى بالكلية، وكلاهما محبط للعمل لقوله: من عمل عمل أشرك فيه غيري تركته لشركي ولا يتصور شرك الرياء ممن عبد الله تعالى تعظيماً وإجلالاً؛ لأن تعظيمه يمنعه من أن يعصيه بشرك الرياء، وكذلك الحياء أيضاً يمنعه، وكذلك الحب مانع من عصيان المحبوب فيما يتقرب به إليه والله تعالى أعلم.

الفصل الرابع: فيما يورثه الرياء من الخصال المذمومة

منها حب الرياسة والمباهاة بالعلم والعمل، والتفاخر بالدين والدنيا، ومحبة العلو والتكاثر بالمال وغيره من الدنيا، وبالعلم والعمل والتحاسد عليهما من غير منافسة بل خوفاً أن ينال من يحاسده مثل منزلته والحمد بما لم ينله ولم يفعله، ورد الخلق عن غيره من العلماء إليه

لثلاث يقال: هو أعلم منه، وحب الغلبة في المناظرة وترك تعلم ما لا يستغنى عنه وحب التعظيم والإجلال له وتسخير العباد والاحتقار لهم، وأن لا يرد عليه شيء من أقواله وأفعاله وأن لا يساوى في العلم بأمثاله، وأن يصبر على الخطأ كي لا تنكسر رئاسته وإن وعظ عنف وإن وعظ أنف والمبادرة بالجواب خير يسأل هو أو غيره، يريد بذلك أن يعلو عليه وأمثال هذا مما يطول بها ويشرحها الكتاب.

الفصل الخامس: في إظهار العمل للاقتداء

وله حالان: أحدهما: أن يكون ممن لا يقتدى به فلا يظهر شيئاً من أعماله التي هي تطوع؛ لأنه لا يأمن على الرياء ولا يثق بالاقتداء، وأما الفرائض فيجب إظهارها لثلاث يساء به الظن أو يبرأ منه.

[٤٦٢] وأما إن كان / ممن يقتدى به: فإن كان ذلك العمل من أعمال العلانية كالجهاد والحج وغيرهما وأيمن من الرياء فله أجران أجر العمل وأجر النسبة إلى الاقتداء؛ لأن الدال على الخير كفاعله، وقد ورد في الخبر: «أن عمل العلانية يضاعف سبعين ضعفاً إذا كان إظهاره على نية الاقتداء كما أن أسراره خوفاً من الرياء يضاعف سبعين ضعفاً»^(١).

وأما إن عمل الطاعة فأخبر بها الناس، فإن ذلك ليعظم عند الناس فهذا مسمع، وفي الخبر: «من سمع سمع الله به وإن أخبر بها ليقنتدى به فإن كان ممن يقتدى به فلا بأس»^(٢).

وقد حكى فعل ذلك عن جماعة من الصحابة والتابعين الذين يقتدى بهم بأقوالهم وأفعالهم، وإن كان لا يقتدى به فلا يتحدث بشيء من ذلك مخافة التسميع والتصنع للناس وبالله التوفيق.

(١) قال الحافظ العراقي في المعني (٤٩٢/٣) طبعة دار الحديث في نحوه: أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي الدرداء مقتصراً على الشطر الأول بنحوه وقال: هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين قلت: الشطر الأول هذا ليس بهذا الحديث الموجود معنا - وقال: وله من حديث ابن عمر «عمل السر أفضل من عمل العلانية والعلانية أفضل لمن أراد الاقتداء». وقال: تفرد به بقية عن عبد الملك بن مهران وله من حديث عائشة: «يفصل - أو يضاعف - الذكر الخفي الذي لا يسمعه الحفظة على الذي تسمعه بسبعين ضعفاً» قال: تفرد به معاوية بن يحيى الصدفي وهو ضعيف.

(٢) الشعر الأول من الخبر ورد فيه نص سبق الكلام عليه.

الباب الثاني في العجب وأسبابه

اعلم أن العجب قادح في العمل مهلك لصاحبه وهو آفة المتعبدین من الأولین والآخرین، وآفته أعظم من آفات الذنوب لأن الذنوب، ربما انتبه العبد فتاب منها، والمعجب لا يكاد يتوب أعاذنا الله تعالى منه، وقد قال النبي عليه السلام: «ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه»^(١).

وقال عليه السلام: «التادم ينتظر التوبة والمعجب ينتظر المقت»، وقال: «لو لم تكونوا مذنبين لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك العجب العجب»^(٢).

وقال عليه السلام: «لو أن عبداً قدم على الله بأعمال أهل السماوات وأهل الأرض من أنواع البر والتقوى لم يزن ذلك عند الله مثقال ذرة الإعجاب وأذى المسلمين والقنوط من الرحمة»^(٣).

وعن ابن مسعود رحمه الله قال: الهلاك في اثنين القنوط والعجب وصدق رحمة الله؛ لأنه إذا أعجب زكى نفسه ولم يتهمها وقد قال تعالى: «فلا تزكوا أنفسكم»، قيل: لا تبرؤها.

/ وعن مطرف بن عبد الله قال: لأن أبيت قائماً فأصبح نادماً، أحب إلي من أن أبيت قائماً فأصبح معجباً، وعن عيسى عليه السلام قال: كم من سراج قد أطفأته الريح، وكم من عابد أفسده العجب، فدل ما ذكرنا على أن العجب مفسد للطاعات، وهو من أكبر الآفات على المتعبدین؛ لأن من أعجب بعمله لم ير لنفسه ذنباً فيتوب منه فيفضي به ذلك إلى العزة والتكبر على العباد حتى يصير المعجب كأن له المنة على الله تعالى؛ لاستعظامه أعماله، وكذلك يمن على العباد بما يسديه إليهم من معروفه وإحسانه في زعمه فما أجدره بأن يحبط الله سبحانه عمله بإعجابه ويكله إلى نفسه وبالله التوفيق.

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩١/١) وفيه محمد بن عون الخراساني وهو ضعيف جداً. قاله محقق الإحياء طبعة دار الحديث.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٧٢/٣): أخرجه البزار وابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث أسد وفيه سلام بن أبي الصهفاء قال البخاري منكر الحديث: وقال أحمد: حسن الحديث ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي سعيد ضعيف جداً.

(٣) أورده المتقي الهندي في كثر العمال (٤٣٩٤١). وعزاه إلى الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي البرداء وفيه عمرو بن بكر السكس وهو (واه).

فصل: في أسباب العجب

اعلم يا أخي وفقك الله أن سبب العجب استعظام، واستكثار لما فيك من خير وعمل بزمك فأما العلم فمعرفة الكتب والسنة وإجماع الأمة، ويقع الإعجاب أيضاً بالرأي للصواب: وهو القياس الصحيح ويقع أيضاً بالرأي للخطأ: وهو من وجوه، أحدها: زيفه عن الحق، والثاني: فرحة بالباطل والثالث: أنه تعجب بما لا يجوز إعجابه والعجب فرحة بالنفس بإضافة العمل إليها، وحملها عليه مع نسيان أن الله تعالى هو المنعم به عليه، والتفاضل بالتوفيق له وأما إذا فرح بذلك لكونه من الله عليه، واستعظامه لما يرجو عليه من ثواب الله عز وجل، ولم يصف ذلك إلى نفسه ولم يحمدها عليه فليس بمعجب.

قال بعض العلماء: وكذلك إذا علمت أن كل نعمة من الله تعالى ثم استعظمت شيئاً من أعمالك ناسياً غافلاً عن كونه من الله تعالى، ومن نفسك غير حامد لنفسك عليه فليست بمعجب، ولو أحضرت كونه نعمة من الله تعالى كان ذلك بأفضل.

[٤٦٤] قال: لأن الفرح بنسبة النعمة إلى الله تعالى مأموراً به في كتاب الله تعالى / قال عز وجل: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾^(١).

وإنما الشر والإعجاب في نسبة تلك النعمة إلى النفس، ونسيان كونها من الله تعالى، فما أجد من فعل ذلك أن يكله الله تعالى إلى نفسه كما فعل تعالى بأصحاب نبيه عليه السلام يوم حنين إذ أعجبهم كثرتهم فانسوا النصر إلى الكثرة ونسوا نسبه فخذلوا وانهزموا مع أنهم خير خلق الله تعالى، وقد يؤدي العجب إلى الإدلال على الله تعالى، وهو أن يرى العبد أنه له عند الله قدراً عظيماً قد استحقه واستحق الثواب عليه من الأمن من عقاب الله تعالى، وليس رجاء المغفرة مع الخوف من الله تعالى إدلالاً ولالإدلال علامات: منها أن يناجي ربه بإدلاله عليه بعمله، ومنها أن يستنكر أن يتزل به بلاء، ومنها أن يستنكر أن ينصره عليه غيره أو تردّ دعوته مع كونه عاملاً بالعمل الذي استعظمه حتى حمله على العجب والإدلال فما أجهل المدل على الله تعالى بعلمه أو بعمله كيف يدل على ربه؛ لأن إنعامة عليه وإحسانه إليه والشكر لربه على نعمه أولى به من الإدلال عليه والشكر على النعم من جملة النعم.

ولذلك قيل: ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه، والله تعالى يقول:

(١) سورة يونس، الآية: ٥٨.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾^(١).

وقال سيد الأولين والآخرين: «ما منكم من أحد ينجي عمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»^(٢).

فائدة: لا يقع العجب إلا لصفة كمال أو ما يعتقد أنه صفة كمال، فمن أخطأ في اعتقاده أو في مسألة فرع من الفروع، فإنما أعجب من جهة ظن أنه على الصواب، فأعجب بصوابه، إذ لا يصح الإعجاب إلا بما يعلم أو يظن أنه من باب السرور، وما فرح أهل البدع بخطاياهم إلا لاعتقادهم أنهم مصيبون / وقد ذم الله فرحهم في قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا [٤٦٥] كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾^(٣).

فصل: فيما ينفي الإعجاب بالعلم والعمل والرأي والصواب

ينفي ذلك باستحضارك أن الذي وفقك للعمل إنما هو الله عز وجل، وإن النفس لا صنع لها في ذلك، وإن من الخطأ أن تسبب الخير إلى من تعرفه إلا بالشر وتقطعه عن من له الأمر كله، وإن النعم كلها من الله فإذا لاحظت ذلك، وداومت عليه ارتفع عنك العجب، فإن عدت إلى الإعجاب ونسيت رب الأرباب فعاودها بالدواء الذي قلت لك.

فصل: فيما ينفي به الإعجاب بالرأي الخطأ

فاعلم أن الخطأ ليس بنعمة حتى يقع به الإعجاب، وإنما هو بلية يتوهم أنها نعمة من الله تعالى فيعجب بها، وطريق نفي العجب به أن يعلم أنه من جملة بني آدم، وأن بني آدم أخطؤوا في كثير من الفروع والأصول وأعجبوا بخطاياهم ظناً منهم أنه صواب وهو بشر مثلهم يجوز عليه ما جاز عليهم مآخذ الحق والحق والصواب موجود في الكتاب والسنة، فمن ذلك ما هو محكم ظاهر لا يقع فيه خطأ ومنه ما هو متشابه قابل للخطأ والصواب فيجب عليه أن يتوقف فيه، وأن لا يجزم برأى حتى يقف على دليل شرعي يعتمد على مثله فإن لم يقف على دليل يرشده إلى مراد الله ورسوله من ذلك المتشابه فليسأل العلماء فإن أوقفوه على المعتمد عليه قبله منهم، وإلا أمن بالمتشابه حتى يقف على دليل شرعي موجب لتأويل المتشابه؛ لأن على العامة الإيمان بالمتشابه، ورد معناه إلى العلماء، وقد يقع الإعجاب بالأعمال بناء على عزمه وجزمه،

(١) سورة النور، الآية: ٢١.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٧٨/٣) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٥٣.

وما جرّبه من نفسه ناسياً مئة ربه ومضيفاً له إلى نفسه الأمانة بالسوء .

فصل: فيما يقع به الإعجاب من الأسباب الدنيوية

فمن ذلك إعجاب المرء بحسن صورته ناسياً النعمة لله عليه في ذلك حتى ربما حمله [٤٦٦] حسن / صورته على الفجور وينفي ذلك بنظره في بدء خلقه، وأنه خلقه من نطفة قدرة، وفيما يتقلب فيه من الأقدار وبما يصير إليه من سيلان صديده، وتنته، وتغير صورته، وقبح راحته، وينظر في تضييعه واجب شكر ربه، وأنه متعرض لسخطه، ودخول النار المغيرة لحسن صورته .

ومن ذلك الإعجاب بالقوة والاتكال عليها دون خالقها كما قالت عاد: ﴿مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً﴾^(١) .

ونفي العجب بذلك أن يعلم أنها نعمة من الله ابتلاه الله بها هل يطيعه فيها أو يعصيه؟ وأنه تعالى قادر أن يسلبها منه فيصبح أضعف خلق الله .

ومن ذلك العجب بالعقل والذهن والفتنة باستحسان ذلك والاتكال عليه أن يدري به من أمور دينه ودينه ما لا يصل إليه غيره ناسياً لإنعام الله تعالى به عليه، والتوكل عليه في ذلك كله، وقد يحمله ذلك على الجدال بالباطل، واستصغار علم العلماء وعملهم من البر والخير مع تضييعه هو العمل بذلك اجترأ منه بفهمه وفتنته، وينفي ذلك بأن يعلم أن ذلك نعمة من الله أنعم بها عليه ليؤكد بها الحجة عليه أكد من غيره، وأنه لا يأمن أن يسلبه ذلك كما فعل بغيره، وكيف ينفعه فهمه إذا كان غيره أطوع لله منه ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء...﴾ الآية .

ومن ذلك العجب بالحسب وهو أن يتعظم بنسبه إلى من عظم الله قدره في الدين بالعلم والرسالة والنبوة ناسياً لإنعام الله عليه، وتحقيراً لعباد الله سبحانه وأن له الحق عليهم وقد يعتقد أحدهم أنه ينجو بغير عمل مع فجوره ونفي العجب، بذلك بأن يعده من نعم الله عليه وأن الأحساب لا تجلب شيئاً من الثواب، ولا تدفع شيئاً من العذاب، وإن أكرم الناس عند الله تعالى أبقاهم له، وأن النبي عليه السلام قال لابنته فاطمة وعمته صفية: «لا أغني عنكما من الله شيئاً»^(٢) .

(١) سورة فصلت، الآية: ١٥ .

(٢) قال الحافظ العراقي في المعني (٣/٥٨١) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة وأخرجه =

وأن يعلم أن أسلافه الذين يفتخر بهم إنما / شرفوا بطاعة الله سبحانه واجتتاب معصيته [٤٦٧] ولا يغتر بما روي عن رسول الله ﷺ من الشفاعة لبني عبد المطلب فإنه لا يشفع في أحد من ذوي الأحساب، وغيرهم إلا من ارتضى منهم فهو وغيره ممن لا حسب له سواء، وقد يبلغ الحمق بأحدهم بأن يعجب بالانتماء إلى الملوك المشركين من غير العرب استعظماً لقدره ونسياناً لما صاروا إليه من العذاب، ونفي العجب بذلك أن يعلم أن سطوتهم وبال عليهم من الله تعالى.

ومنهم من يعجب بكثرة عدد أولاده، ومماليكه، وعشائره، وأصحابه ويتكل عليهم دون ربه، وقد يحمل ذلك على أن يسطو على من عانده اعتماداً عليهم، ونفي العجب من ذلك أن يعلم أن النصر من الله، وأن النصرة لا تغني شيئاً كما لم تغن كثرة أصحاب النبي عليه السلام يوم حنين شيئاً مع أنهم خير عصاة على وجه الأرض، وأن كثرة عدده ومدده لا تغني عنه يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ﴾^(١).

ومنهم من يعجب بكثرة الأموال فيفتخر بها على الفقراء، وينفي عجبه بذلك أن يعلم أن الأموال فتنة ومحنة ابتلى الله بها العبد و﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾^(٢).

وأن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة، وأن غنى قارون كان سبباً لهلاكه، وأن الله عافى الفقراء من التعرض لهذه الفتنة وخلصهم من هذه المحنة وبالله التوفيق.

فصل: في الكبير

قال الله تعالى: ﴿إِنْ فِي ضُلُوبِهِمْ إِلَّا كِبِيرٌ مَّا هُمْ بِيَالِيهِ﴾^(٣).

عن ابن عباس قال: عظمة لم يبلغوها، وقال ابن جريج علواً في الأرض وتعظيماً، وقال تعالى: ﴿إِنِّي عَذْتُ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾^(٤)، وقال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾^(٥).

= مسلم من حديث عائشة وأخرجه مسلم بزيادة «إلا أن لكما رحماً سألها بيلالها». من حديث أبي هريرة.

(١) سورة عبس، (الآيات: ٣٤، ٣٥).

(٢) سورة العلق، (الآيات: ٦، ٧).

(٣) سورة غافر، الآية: ٥٦.

(٤) سورة غافر، الآية: ٢٧.

(٥) سورة غافر، الآية: ٣٥.

[٤٦٨] وعن كعب قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة / أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان حتى يسلكوا في نار الأنبار، يسقون من طينة الخبال عصاره أهل النار»^(١).

وعن النبي عليه السلام قال: «يقول الله عز وجل: الكبرياء رداي والعظمة إزاراي فمن نازعني واحد منهما ألقيته في ناري»^(٢).

وعن كعب الأحبار قال: ما من عبد إلا وفي رأسه حكمة بيد ملك فإن تواضع رفعه الله وقال: انتعش نعشك الله، وإن تكبر وضعه الله وقال: اتضع وضعك الله.

وعن عيسى عليه السلام قال: إن الزرع ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا، فكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع، ولا تعمر في قلب المتكبر ألا ترون أنه من شمخ رأسه إلى السقف شجّه، ومن تطاطأ أظله، والآيات والأخبار والآثار في ذم الكبر كثيرة تركتها حباً للاختصار.

فصل

والكبر معناه أن يتعاطم الإنسان على غيره أنفة واحتقاراً، وأخلاق الكبر كلها تسمى كبراً، وقد تكون من الحقد والحسد والرياء والعجب؛ لأن أوله في القلب استعظام القدر، فإذا استعظم العبد قدره تعظم، فإذا تعظم أنف وتعزز وافتخر واستطال ومرح واختال، فالتكبر: التعظم وله أسباب من جملتها العجب وهو أكثرها، ولذلك يطلق الكبر على العجب؛ لأنه مسبب عنه.

ويقال: الفرق بين الكبر والعجب أما في الدين فقد يعجب بعمله فيحمد نفسه وينسى منة ربه، بذلك ولا يتكبر على أحد، وربما أخرجه العجب إلى أن يرى أنه خير من غيره فيحقره ويأنف منه، فيكون حيتئذ متكبراً معجباً، وأما بأمر الدنيا فقد يعجب بجماله وماله وقوته، ولا يتكبر وقليلاً ما يفرد العجب بالدنيا دون أن يخرج صاحبه إلى الكبر والمرح والخلاء، ألا ترى إلى قول النبي عليه السلام: «بينما رجل يتبختر في بردين له قد أعجبته نفسه إذ أمر الله الأرض

(١) أطراف الحديث عند الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣٤٣/٨) والبغوي في شرح السنة (١٦٨/١٣) والترمذي (٢٤٩٢) وأحمد (١٧٨/٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٨٨/٤) والسيوطي (٣٣٣/٥).

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٢٠/٣) طبعة دار الحديث في نحوه: أخرجه الحاكم في المستدرک دون ذكر «العظمة» وقال صحيح على شرط مسلم. وقال في موضع آخر: أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه واللفظ له وقال أبو داود: «قذفته في النار» وقال مسلم: «عذبه» وقال «رداؤه» بالنية وزاد مع أبي هريرة أبا سعيد أيضاً. قلت قال: «القيته في جهنم» ولم يقل في «ناري» كما ذكر المصنف هنا.

فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»^(١) فوصفه عليه السلام بالعجب / في تبختره [٤٦٩] وخيلانه.

وللكبر أقسام: منها الكبير عن بعض طاعة الله، ومنها الكبير عن مبايعة رسول الله ﷺ، ومنها الكبير عن عباد الله وهو أن يرى أنه خير منهم فيحقرهم فلا يقبل الحق منهم، وأصله كما قدمنا التعظيم على الناس، ورد الحق مع العلم به ويحقق ذلك قول النبي عليه السلام حين قال ثابت بن شماس أو غيره: يا رسول الله إني امرؤ قد حيب إليّ الجمال أفمن الكبير هو؟ قال: «لا ولكن الكبير من بطر الحق وغمط الناس»^(٢).

وفي حديث آخر: «من سبقه الحق وغمص الناس»^(٣) يعني خفرهم.

فائدة: قال بعض العلماء: قلّ أن يخلوا عالم أو عابد أو عارف عن نوع من الكبر، ولكن قد تخلو قواه عن آثار الكبر فإن تكبر بقلبه لم يحمله ذلك على رد الحق، وعلى شيء من أفعال الجوارح، المذمومة وقد جاء عن حذيفة رضي الله عنه أنه ترك إمامة قومه، لأن نفسه حدثته أنه أفضل منهم فيما قال، واستأذن عمر رضي الله عنه إمام قوم أن يدعو بدعوات بعد الصلاة فمنعه خوفاً عليه من الكبر وقال: أخاف أن يتفخ حتى يبلغ الثريا.

فصل

قال الغزالي في كتابه أو غيره: فإن قيل فهل سوى العجب والرياء من قادح في العمل قيل له: أجل إن فيه لقوادح سواهما لكن خصصناهما بالذكر؛ لأنهما الأصل الذي يدور عليهما معظم الباب.

وقد قال بعض المشايخ: إن حق العبد أن يتحفظ في العمل من عشرة أشياء: النفاق، والرياء، والتخليط، والمَنّ، والأذى، والندامة، والعجب، والحسرة، والتهاون، وخوف ملامة الناس ثم ذكر ضد كل خصلة منها وأضرارها بالعمل، ف ضد النفاق إخلاص، وضد التخليط التفريد وضد المَنّ تسليم العمل لله، وضد الأذى تحصين العمل، وضد الندامة تثبيت

- (١) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٢٥/٣) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة.
- (٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٥٣٤/٣) طبعة دار الحديث: أخرجه من حديث أثناء حديث ابن مسعود في أثناء حديث وقال: «بطر الحق وغمط الناس» ورواه الترمذي فقال: «من بطر الحق وغمص الناس» وقال: حسن صحيح ورواه أحمد من حديث عقبة بن عامر بلقب المصنف يعني - «من سفه الحق وغمص الناس» - ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبي ریحانة هكذا.
- (٣) انظر الحديث السابق له.

[٤٧٠] النفس، وضد العجب ذكر المنة، وضد الحسرة اغتنام الخير، / وضد التهاون تعظيم التوفيق، وضد خوف الملامة الخشية.

واعلم أن النفاق يحبط العمل والرياء يوجب رده، والمن والأذى يحبطان الصدقة في الوقت، وعند بعضهم بيطلان أضعافها، وأما الندامة فإنها تحبط العمل في قول بعضهم جميعاً، والعجب يذهب أضعاف العمل، والحسرة وخوف الملامة والتهاون تخفف الأعمال فتذهب رزاقته.

فصل

اعلم أن هذه القوادح المتقدمة: من الرياء، والعجب، وأسبابهما، قد اجتمعت فيهن ثلاثة أمور: الغبن الشديد، والخطر العظيم، الأول أن الأمر دقيق جداً، فإن مجاري الرياء والعجب في الأعمال دقيقة خفية على الناقد البصير في أمر الدين فكيف الغافل النؤم؟

ويحكى أن عطاء السلمي نسج ثوباً فحسنة جداً فعرضه على البراز فاسترخصه وقال: إن فيه عيوباً كيت وكيت، فأخذه عطاء وأخذ يبكي بكاء شديداً، فندم الرجل على ذلك فاعتذر إليه، وجعل يبذل له في ثمنه ما يريد، فقال عطاء: ليس ذلك مما تظن إنما أنا عامل في هذه الصناعة وقد اجتهدت في تحسين هذا الثوب حتى لا يوجد فيه عيب، فلما عرض على البصير بعيوبه أظهر فيه عيوباً كنت غافلاً عنها، فكيف بأعمالنا هذه إذا عرضت على الله غداكم يبدو فيها من العيوب والنقصان الذي نحن اليوم عنه غافلون.

وعن بعض الصالحين قال: كنت ليلة في وقت السحر في غرفة لي شارعاً، أقرأ سورة طه، فلما إن ختمتها غفوت غفوة فرأيت شخصاً نزل من السماء بيده صحيفة فنشرها بين يدي، فإذا فيها سورة طه وإذا تحت كل كلمة عشرة حسنات مثبته إلا كلمة واحدة فإني رأيت مكانها محوياً ولم أر تحتها شيئاً، فقلت: والله لقد قرأت هذه الكلمة ولا أرى لها ثواباً، ولا أراها أثبتت.

[٤٧١] فقال الشخص: صدقت قراتها / وكتبناها إلا أنا سمعنا منادياً من قبل العرش امحوها وأسقطوا ثوابها، فمحوناها فبكيت في منامي وقلت: لما فعلتم ذلك؟ قالوا: مر رجل فرفعت بها صوتك لأجله فذهب ثوابها.

وأما الغبن الشديد فإن الرياء والعجب آفة تقع في لحظة فربما تفسد عليك عبادة سبعين

وحكي أن رجلاً أضاف سفيان الثوري وأصحابه فقال لأصحابه هاتوا الطبق الذي آتيت به في الحجة الأولى بل الذي آتيت به في الحجة الثانية، فنظر إليه سفيان وقال: مسكين قد أفسد عليه بهذا حجتيه .

ووجه آخر من الغبن: إن أقل طاعة سلمت من هذا الرياء والعجب يكون لها من الله تعالى ما لا قيمة لها ولا نهاية، وعن علي قال: لا يقل عمل البتة وكيف يقل عمل مقبول .

وسئل النخعي عن من عمل كذا وكذا ما ثوابه؟ قال: إذا قبل لا يحصى ثوابه، ولمثل هذا المعنى وقع نظر أولي الأبصار من العباد في مثل هذه الدقائق فاهتموا بمعرفتها ثم رعايتها ثم التحفظ عنها، ولم تغنهم كثرة الأعمال في الظاهر وقالوا في هذا الشأن في الصفوة لا في الكثرة وقالوا: جوهره واحدة خير من ألف خرزة. وأما الذين قل عملهم في هذا الباب وقل نظرم جهلوا المعاني وأغفلوا ما في القلوب من العيوب واشتغلوا بإتاعب النفوس في الركوع والسجود وغير ذلك ولم ينظروا ما فيها من المخ والصفوة، وما يعني عدد الجوز ولا لب فيها وما يعني رفع السقوف ولم تحكم مبانيتها، وما يعقل هذه الحقائق إلا العالمون بالله المكاشفون والله تعالى نسأل الهداية .

وأما الخطر العظيم فإن عظمه من وجوه أحدها: ملك لا نهاية لعظمته وله عليك نعم لا تعد ولا تحصى، وبدن معيوب بعيوب جملة خفية ومؤف بأفات كثيرة، وأمر مخوف، فإن وقع ذلك مع تسارع النفس إليه فيحتاج أن يستخرج عملاً صافياً / من بدن معيوب ونفس أمارة [٤٧٢] بالسوء على وجه يصلح لرب العالمين في جلاله وكثرة أياديه ومنته، ويقع موقع الرضى والقبول فيه فيفوتك الريح العظيم الذي لا تسمح النفس بفوته بل ربما تصيبك فيه مصيبة لا طاقة لك بها وهذا والله شأن عظيم، وخطب جسيم .

أما جلال الله وعظمته فإن الملائكة يتعبدون له بأنواع العبادة الليل والنهار إلى نفحة الصور، فينادون بأجمعهم: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك .

وأما النعم: فكما قال: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١) .

وعلى ما روي أنه يحشر الناس على ثلاثة دواوين: ديوان الحسنات وديوان السيئات وديوان النعم فقابلوا الحسنات بالنعم فلا يؤتى بحسنة إلا أوتي بنعمة حتى تعم الحسنات وتبقى

الذنوب والسيئات، والأمر المخوف أن العبد يعمل سبعين سنة غافلاً عن عيوبه فربما لا يكون واحد منها مقبولاً، وربما يتعبد أعواماً فيفسد بساعة واحدة، وأعظم خطراً من هذا كله ربما ينظر الله إلى العبد يراعي بعمله وخدمته العباد دونه فيطرده طرداً لا مرد له والعياذ بالله تعالى .

ولما كان الأمر في الدقة والصعوبة إلى هذا الحد من الخطر نظر أولوا الأبصار فخافوا على أنفسهم حتى قال بعضهم: ما ظهر من أعمالي لا أعده شيئاً، وقال آخر: اكنم حسناتك كما تكنم سيئاتك .

وروي عن بعضهم أنه كان يقول: إني أعلم ما عملت من الطاعات غير مقبولة عند الله تعالى فقبل له في ذلك فأجاب: إني أعلم ما يحتاج إليه الفعل حتى يكون مقبولاً، وأعلم أنني لست أقوم بذلك فعلت أنها غير مقبولة، قيل له: فلم تفعلها؟ قال: إن يصلحني الله تعالى يوماً فتكون النفس متعودة لفعل الخير، فلا أحتاج أن أعودها ذلك من الرأس، فهذه أحوال أهل المجاهدات . وينشد:

فانظر لنفسك صحبة مع غيرهم وقع الإيأس وخابت الأموال

[٤٣٣] / هيهات تدرك بالتواني سادة كدوا النفوس وساعد الأقبال

فاعتصم يا أخي بمولاك ذي العظمة والكمال، والزم الباب بالتضرع والابتهاال والبكاء أثناء الليل وأطراف النهار مع المتضرعين المبتهلين إن وجدتهم من عباد الله الخاشعين، فإنه لا ناج من هذا الأمر إلاً برحمته، ولا سلامة من هذا البحر إلاً بعنايته فتنبه من رقدة الغافلين وجاهد نفسك في هذه القنطرة المخوفة لعلك لا تهلك مع الهالكين، فنسأل الله تعالى أن يتغمدنا برحمته إنه أرحم الراحمين، فإنه لا حول ولا قوة إلاً بالله وهو حسبنا ونعم الوكيل والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين .

القنطرة السادسة عشرة

قنطرة الحمد والشكر

فعلبك وفقك الله لطاعته بلزوم الحمد والشكر لله على أياديه ونعمته؛ فإن الشكر زيادة في النعم، وأمان من الغير، ودوام لأيادي الله وإحسانه إليك.

وقد أمر الله تعالى به عباده فقال: ﴿فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾^(١)، وقال: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾^(٢)، وقال: ﴿تَكُلُوا مِنْهُمَا رِزْقَ اللَّهِ [حَلَالًا طَيِّبًا] وَأَشْكُرُوا [نِعْمَةَ] اللَّهِ﴾^(٣). في أمثالها من الآيات، ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين إبليس في أكثر الخلق فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^(٥)، وقطع تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٦)، وهو خلق من أخلاق الربوبية، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾^(٧)، وجملة مفتاح كلام أهل الجنة فقال عنهم ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ﴾^(٨)، وقال: ﴿وَأَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٩)، وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾^(١٠)، وعن النبي عليه السلام قال: «المؤمن الذي يغلب الحلال / شكره والحرام صبره».

[٤٧٤]

وقال عليه السلام: «خلصتان من كانتا فيه كتبه الله شاكراً صابراً، ومن لم تكونا فيه لم

- (١) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.
- (٢) سورة البقرة، الآية: ٥٧.
- (٣) سورة النحل، الآية: ١١٤.
- (٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧.
- (٥) سورة سبأ، الآية: ١٣.
- (٦) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
- (٧) سورة التغابن، الآية: ١٧.
- (٨) سورة الزمر، الآية: ٧٤.
- (٩) سورة يونس، الآية: ١٠.
- (١٠) سورة الأنعام، الآية: ٥٣.

يكتبه شاكراً ولا صابراً من نظر في دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به، ونظر في دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على فضله به عليه^(١).

وروي عنه أنه قال: «لا تنظروا إلى من فوقكم، وانظروا إلى من دونكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»^(٢)، وروي عنه أنه قال: «يحاسب ابن آدم يوم القيامة بكل نعمة أنعمها الله عليه ويسأل عن شكرها غير أربع: خبز يأكله، وماء قراح يشربه، وثوب يوارى به عورته، وبيت يسكن فيه من الحر والبرد؛ فما أعطى فضلاً عن هذا حوسب به، وسئل عن شكره».

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾^(٣)، قال: أما الظاهرة: فالإسلام، وما حسن من خلقك، وأفضل عليك في الرزق، وأما الباطنة: فما ستر عليك من الذنوب والعيوب، قال: وسمع رجلٌ رجلاً يقول: الحمد لله على نعمة الإسلام؛ فقال: إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة، وقال سفيان: لما جاء البشير يعقوب بيوسف عليه السلام قال: على أي دين تركته، قال: على الإسلام، قال: الحمد لله الآن تمت النعمة.

وروي عن كعب قال: ما أنعم الله على عبد في الدنيا نعمة فشكرها إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا، ورفع له بها درجة في الآخرة، وما أنعم الله على عبد نعمة فلم يشكرها إلا منعه الله نفعها في الدنيا، وفتح له بها طبقاً في النار.

وقال النبي عليه السلام: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»^(٤)، وعن وهب بن منبه

- (١) أطراف الحديث عند الترمذي (٢٥١٢) والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٢٠٦)، السيوطي في الدر المنثور (١٥٤/١). وشرح السنة للبخاري (٢٩٣/١٤) وابن حجر في المطالب العالية (٢٥٨٩) والمتقي الهندي في الكتر (٦٤٩٣). والألباني في الضعيفة (٦٣٣). وابن المبارك في الزهد (٥٠). وابن السني في عمل اليوم والليلة (٣٠٤).
- (٢) أطراف الحديث أحمد (٢٥٤/٢) والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (٣٦٠/٦). وأبي نعيم في تاريخ أصبهان (٢٥٧/١) والألباني في الضعيفة (٦٣٣).
- (٣) سورة لقمان، الآية: ٢٠.
- (٤) قال الحافظ العراقي في المعنى (١٢٧/٤) طبعة دار الحديث: علقه البخاري وأسند الترمذي وحسنه ابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنة وفي إسناده اختلاف. قال محقق الإحياء: أخرجه الترمذي (٢٤٨٦) وأحمد (٢٨٣/٢، ٢٨٩) وابن ماجه (١٧٦٤)، وابن حبان (٣١٥/١) في الإحسان، والحاكم (٤٢٢/١) وصححه ووافقه الذهبي وقال الألباني في الصحيحة (٦٥٥) صحيح.

قال داود: يا رب ابن آدم ليس منه شعرة لا تحتها ولا فوقها منك نعمة؛ فمن أين يكافئها بما أعطيتها؟ فأوحى الله إليه: يا داود إني أعطيت الكثير، وأرضى باليسير، وإن شكر ذلك أن تعلم أن ما بك من نعمة فمني .

وعن النبي ﷺ قال: [ينادي يوم القيامة ليقم الحامدون فيقومون زمرة فينصب لهم لواء] [٤٧٥] فيدخلون الجنة، قيل: ومن الحامدون؟ قال: الذين يشكرون الله على كل حال، وفي لفظ آخر: «على السراء والضراء»^(١). وقال: «الحمد رداء الرحمن»^(٢).

ويقال أن الله تعالى أوحى إلى أيوب عليه السلام: أني رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي في كلام طويل، وأوحى الله إليه في صفة الصابرين دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام، وعند الشكر أستزيدهم .

ويروى أنه لما نزل في الكنوز ما نزل قال عمر رضي الله عنه: فأبي المال نتخذ؟ قال النبي ﷺ: «ليتخذن أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً»^(٣).

فأمر به بدلاً من المال، وقال ابن مسعود: الشكر نصف الإيمان، وقال عمر بن عبد العزيز: تذكروا النعم؛ فإن ذكرها شكر، وكان مطرف بن عبد الله يقول: إلهي منك تكون النعمة، وعليك تمامها، وأنت تعين على شكرها وعليك ثوابها، وقال بعضهم: الشكر قيد النعمة، ومفتاح المزيد، وثمر الجنة. وقيل: موضع الشكر من النعمة موضع القرى من الضيف إن وجده لم يرم، وإن عدمه لم يقم. وقال بعضهم: اشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكرك فإنه لا بقاء للنعمة إذا كفرت، ولا زوال لها إذا شكرت، وإن شكر زيادة من المنعم وأمان من الفقر .

ويروى أن داود عليه السلام بينما هو في محرابه إذ مرت به دودة فتفكر في خلقها؛ فقال: ما بعباً الله عز وجل بخلق هذه! فأنطقها الله فقالت: يا داود أتعجبك نفسك؟ لأنا على قدر ما أتاني الله عز وجل لأذكر الله وأشكر له منك .

(١) قال الحافظ العراقي في المعني (١٢٧/٤) طبعة دار الحديث: أخرجه الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ: «أول من يدعى إلى الجنة الحامدون... الحديث». وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور.

(٢) قال الحافظ العراقي في المعني (١٢٨/٤): لم أجد له أصلاً وفي الصحيح من حديث أبي هريرة «الكبر رداؤه... الحديث».

(٣) هذا الحديث تقدم غير مرة وهو في النكاح.

ويروى عن الحسن بن علي أنه التزم الركن فقال: إلهي نعمتي فلم تجدني شاكرًا، وإبتليتني فلم تجدني صابراً؛ فلا أنت سلبت النعمة بتركي الشكر، ولا أنت أدمت الشدة بتركي الصبر، إلهي ما يكون من الكريم إلا الكرم، ولا من الجافي إلا الجفا.

[٤٧٦] وعن علي قال: لا تكن ممن يعجز عن شكر ما أولي / ويتغني الزيادة فيما بقي ينهي ولا ينتهي، ويأمر الناس بما لا يأتي، يحب الصالحين ولا يعمل بأعمالهم، ويبغض المسيئين وهو منهم، يكره الموت لكثرة ذنوبه، ولا يدعها في طول حياته.

وقال حاتم الأصم: يصبح الناس كل يوم على ثلاث فرق: فرقة طردوا من باب الخالق، وفرقة طردوا من خدمته ولم يطردوا عن بابه، وفرقة اكرموا بخدمته؛ فالواجب على الشاكرين أن يقولوا الحمد لله الذي لم يجعلنا من المطرودين من بابه وهم الكفار، ولا من المطرودين من خدمته وهم الفساق، وجعلنا من المكرمين بخدمته وهم أهل المساجد.

وقال سفيان: قال لي جعفر بن محمد إذا جاءك ما تحب فأكثر الحمد، وإذا جاءك ما تكره فأكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار، قال سفيان: فانتفعت بهذه الموعظة.

فصل

إن قيل فما حقيقة الحمد والشكر، وما معناهما، وحكمهما. فاعلم أنه ذكر الغزالي في كتابه فقال: إن العلماء فرقوا بينهما عند التحصيل فإن الحمد من أشكال التسبيح والتهليل فيكون من المساعي الظاهرة، والشكر من أشكال الصبر والتفويض فيكون من المساعي الباطنة؛ وإن الشكر يقابل الكفران، والحمد يقابل اللوم - وصدق -.

قال الله تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿لِيَبْلُغُنِي أَشْكُرٌ أَمْ أَكْفُرٌ﴾^(١) وقال القائل في الحمد وضده:

واعلم بأن الضيفَ بر حل سوف يحمّد أو يَلوم

قال: ولأن الحمد أعم والشكر أخص فثبت أنهما معنيان متميزان، قال: ثم إن الحمد الثناء على أحد بالفعل الحسن، قال: وأما الشكر فتكلموا في معناه، فعن ابن عباس قال: الشكر هو الطاعة بجميع الجوارح لرب الخلائق في السر والعلانية. وقال بعضهم في تفسير

(١) سورة النمل، الآية: ٤٠.

قول الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾^(١)، قال: الصلاة شكر، وكل عمل يعمل لله فهو شكر، والصوم شكر، وأفضل الشكر الحمد، وقال بعضهم: الشكر الاحتراس عن اختيار / معاصي الله تحترس على قلبك ولسانك وأركانك حتى لا تعصي الله بشيء من هذه الثلاثة [٤٧٧] بوجه من هذه الوجوه، قال: وذلك بتذكر إحسانه، وحسن حال الشاكر في شكره، وقبح حال الكافر في كفرانه، قال: إن أقل ما يستوجه المنعم بنعمته ألا يتوصل بها إلى معصيته، وما أقبح حال من جعل نعمة المنعم سلاحاً على عصيانه، فعلى العبد إذاً من فرض الشكر في حقيقته أن يكون له من تعظيم الله سبحانه ما يحول بينه وبين معاصيه على حسب تذكر النعمة، فإذا أتى بذلك فقد أتى بما هو الأصل فيه، قال: ثم يقابل ذلك بجد في الطاعة، وجهد في القيام بالخدمة، إذ هو من حقوق النعم، ولا بد من الاحتراس عن المعصية - وبالله التوفيق -.

فصل

اعلم أن الشكر لله على النعمة من الله تعالى لا يقدر عليه الآدمي إذا تحقق ذلك؛ لأن الشكر على النعم إنما يكون بتوفيق الله تعالى، فالتوفيق نعمة أخرى يستحق به الله تعالى عليه الشكر، فيتسلسل ذلك إلى ما لا نهاية له، كما قال الحسن: يا ابن آدم متى تنفك من شكر النعم وأنت مرتهن بها، كلما شكرت نعمة تجد ذلك بالشكر أعظم منها عليك، فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة إلا إلى ما هو أعظم منها، وأنشدوا:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة عليّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بمنّة وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مسّ بالسراء عم سرورها وإن مسّ بالضراء أعقبها الأجر
فما منهما إلا له فيه نعمة تضيق بها الأوهام والبر والبحر

وفي مثل هذا قال داود: يا رب فكيف أشكرك وأنت الذي تتعم عليّ؟ ثم رزقتني على النعمة الشكر النعمة منك، والشكر منك، فكيف أطيق شكرك؟ فأوحى الله إليّ الآن عرفتي حق معرفتي وشكرتني.

وفي مثل هذا روي / عن موسى عليه السلام قال: يا رب كيف استطاع آدم أن يؤدي [٤٧٨] شكر ما صنعت إليه؟ خلقتك بيدك، ونفخت فيه من روحي، وأسجدت له ملائكتك، وأسكنته

جتك، فقال: يا موسى علم أن ذلك مني فحمدني عليه، فكان ذلك شكر ما صنعت، وأنشد لأبي العتاهية:

أحمد الله وهو ألهمني الحمد على الحمد والمزيد لديه
كم زمان بكيت فيه فلما صرت في غيره بكيت عليه
ولمحمد بن حازم:

الله أحمد شاكراً فبلاؤه حسن جميل
أصيحت مسروراً معاً فأبين أنعمه أجول
خلواً من الأحزان خفت الظهيرة نعي القليل
حداً فلا من لمخ لوق علي ولا سبيل

وينشد للبيد:

إن تقوى ربنا خير نفل وبإذن الله ريشي وعجل
أحمد الله فلا ندد له بيديه الخير ما شاء فعل
من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل

ويروى أن عمر بن عبد العزيز كان يقول: الحمد لله الذي من نطق سمع نطقه، ومن صمت علم ما نفسه، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه مصيره، أنا الفقير الذي أغنيت، والجائع الذي أشبعت، والعمري الذي كسوت، والراجل الذي حملت، والخائف الذي أمنت، الحمد لله رب العالمين، اللهم إنك خلقتني كيف شئت، فارحمني كيف شئت، ووفقني لطاعتك حتى تكون ثقتي كلها بك، وخوفي كله منك، وسرعتي كلها إليك، اللهم حبب إليّ الخير كحبي له يوم أرى ثوابه، وأبغض إليّ الشر كبغضني له يوم أرى عقابه، فإن القوم الذين رحمتهم كانت رحمتك لهم قبل طاعتهم لك، وقد قلت رحمتي وسعت كل شيء فلتسعني رحمتك يا أرحم الراحمين.

[٤٧٩] ويروى أن دانيال عليه السلام لما جاءه أرميا عليه السلام / وهو في سجن بخت نصر، قال دانيال: من أرسلك إليّ، قال: الله تعالى، قال دانيال: أو قد ذكرني؟ قال: نعم، قال: الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره، والحمد لله الذي لا يخيب من رجاه، والحمد لله الذي من وثق به لا يكله إلى غيره، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً، والحمد لله الذي يجزي بالصبر نجاة، والحمد لله الذي هو يكشف ضرنا بعد كربنا، والحمد لله الذي هو ثقتنا عند سوء الظن بأعمالنا، والحمد لله الذي هو رجاءنا حين يقطع الرجاء.

قال: وقال آخرون وهو الأولى أن شدائد الدنيا مما يلزم العبد الشكر عليها؛ لأنها نعم بالحقيقة بدليل أنها تعرض للعبد لمنافع عظيمة، ومثوبات جزيلة تتلاشى في جنبها مشقة هذه الشدائد وأي نعمة تكون أكبر من هذه، ومثال ذلك كمن يسقيك دواءً مرّاً كريهاً أو يفسدك أو يحجمك لعله عظيمة فيؤدي ذلك إلى صحة النفس، وسلامة البدن، / وصفوة العيش، فيكون [٤٨٠] إيلاجه إياك بمرارة الدواء وجراحة القصد والحجامة نعمة بالغة بالحقيقة ومنه ظاهرة، وإن كان في صورته مكروهاً ينفّر منه الطبع، وتستوحش منه النفس، وأنت تحمد الذي تولى منك ذلك بل تحسن إليه ما أمكنك، فكذلك حكم هذه الشدائد.

ألا ترى أن النبي ﷺ كيف حمد الله وشكره على الشدائد كشكره على المسار حيث قال: «الحمد لله على ما أساء وستر»، وقد قال الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾^(١)، وقال: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾^(٢) وما سماه الله خيراً كثيراً فهو أكثر مما يبلغه وهمك والله أعلم.

فصل

اعلم أن الشكر يستفيد به الشاكر خصلتين:

أحدهما: دوام النعمة؛ لأن الله تعالى لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فالشكر قيد النعمة به تدوم، ويتركة تزول، قال النبي عليه السلام: إن للنعم أوابد كأوابد الوحش، فقيدوها بالشكر، وقال عز وجل: ﴿فَكَفَّرْتَ بِالنَّعْمِ اللَّهُ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ...﴾^(٣) الآية، وقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِهَذَا بِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمْسَكْتُمْ﴾^(٤).

والخصلة الثانية: حصول الزيادة، قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(٥)، وقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾^(٦)، وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا...﴾^(٧) الآية.

- (١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.
- (٢) سورة النساء، الآية: ١٩.
- (٣) سورة النحل، الآية: ١١٢.
- (٤) سورة النساء، الآية: ١٤٧.
- (٥) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
- (٦) سورة محمد، الآية: ١٧.
- (٧) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

والسيد الحكيم إذا رأى العبد قد قام بحق نعمة أنعم عليه أخرى ويراها أهلاً لها، وإلا قطع ذلك عنه.

ثم النعم قسمان: دنيوية، ودينية.

فالدنيوية ضربان: نعمة نفع، ونعمة دفع.

فنعمة النفع هي ما أعطاك الله من المصالح والمنافع، وهي نوعان: الخلقة السوية في سلامتها، وعافيتها، والملاذ الشهية من المطعم والمشرب والملبس والمنكح وغيرها من فوائدها.

ونعمة الدفع أن صرف عنك المفاسد والمضار، وهي ضربان: أحدهما في النفس بأن سلمك من زمانتها، وسائر آفاتنا.

والثاني دفع ما يلحقك من ضرر أنواع العلائق، ويقصدك بسوء من إنس أو جن، وسباع، وهوام، ونحوها.

[٤٨١] وأما النعم الدينية فضربان: نعمة التوفيق للإسلام والسنة والطاعة / والثاني نعمة العصمة من الشرك والكفر والبذعة والضلال وسائر المعاصي. وتفصيل ذلك لا يحصيه إلا السيد العليم الذي أنعم عليك بها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١).

وإن دوام هذه النعم كلها والزيادة عليها من كل باب منها ما لا يبلغه وهمك، فكلها متعلق بشيء واحد وهو الشكر والحمد لله، فالخصلة التي تكون لها هذه القيمة، ويكون لها كل هذه الفائدة لحقيق أن يتمسك بها فإنها جوهر ثمين، وكيمياء عزيز - والله ولي التوفيق بفضله -.

فصل

فإن قيل فما موضع الشكر؟ فاعلم أن موضعه هو النعم الدينية والدنيوية على أقدارها، وأما الشدائد والمصائب في الدنيا في نفس أو أهل أو مال، فتكلمت العلماء في ذلك هل يلزم العبد الشكر عليها؟ قال بعضهم: لا يلزم العبد عليها من حيث هي، وإنما يجب فيها الصبر، وأما الشكر فإنما هو على النعمة لا غير.

قالوا: ولا شدة إلا وفي جنبها نعم الله تعالى فيلزم الشكر على تلك النعم المقرونة بها دون نفس الشدة، وتلك النعم هو ما قاله ابن عمر: ما ابتليت ببيلة إلا كان الله تعالى عليّ فيها

أربع نعم إذ لم تكن في ديني، وإذ لم تكن أعظم منها، وإذ لم أحرم الرضى، وإذ رجوت الثواب عليها.

وقيل أيضاً: من تلك النعم أن تلك الشدة زائلة غير دائمة، وأنها من الله تعالى وإن كانت بسبب مخلوق، فإنها لك عليه لا له عليك، فإذا يلزم العبد الشكر على النعم المقترنة بالشدة.

فصل

فإن قلت فالشاعر أفضل أم الصابر؟ فاعلم أنه قيل أن الشاكر أفضل بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾^(١)، فجعلهم أخص الخواص وقال في نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾^(٢)، وقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ﴾^(٣)؛ ولأنه في منزلة الإِنعام والعافية، ولذلك قيل: لأن نعم فأشكر أحب إليّ من أن أبتلى فأصبر.

وقيل: بل الصابر أفضل؛ لأنه أعظم مشقة فيكون أعظم ثواباً، وأرفع منزلة، وقال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدِ﴾^(٤)، وقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْتَى الصَّابِرِينَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٥)، وقال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(٦).

قال الغزالي: الشاكر بالحقيقة لا يكون إلا صابراً، والصابر بالحقيقة لا يكون إلا شاكراً؛ لأن الشاكر في دار المحنة لا يخلو من محنة يصبر عليها لا محالة ولا يجزع، والصابر لا يخلو من نعمة كما ذكرنا في الشدائد أنها نعم على الحقيقة على ما تقدم، فإنه شكر على الحقيقة إذا صبر لأنه حبس نفسه عن الجزع تعظيماً لله تعالى، وهذا هو الشكر بعينه، إذ هو تعظيم يمنع من العصيان؛ ولأن الشاكر يمنع نفسه عن الكفران فيصبر على المعصية، وحمل على نفسه الشكر والطاعة، فصار بصيره على الطاعة صابراً على الحقيقة.

والصابر عظم الله حتى منعه تعظيمه عن الجزع فيما أصابه، وحمله على الصبر فقد / شكر الله تعالى فصار شاكراً بالحقيقة؛ ولأن حبس النفس عن الكفران مع قصد النفس لها [٤٨٢] شدة يصبر عليها الشاكرون، وتوفيق الصبر والعصمة نعمة يشكر عليها الصابرون، فأحدها لا

(١) سورة سبأ، الآية: ١٣.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٣.

(٣) سورة النحل، الآية: ١٢١.

(٤) سورة ص، الآية: ٤٤.

(٥) سورة الزمر، الآية: ١٠.

(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٤٦.

يفتك عن الآخر؛ ولأن البصيرة الباعثة عليهما واحدة وهي بصيرة الاستقامة في قول بعض علمائنا، - وبالله التوفيق -.

فصل

فعليك يا أخي ببذل المجهود في قطع هذه القنطرة اليسيرة المؤنة، الكبيرة القدر، العظيمة النافع، وتأمل أصلين:

أحدهما: أن النعمة إنما تعطى لمن يعرف قدرها، وذلك هو الشاكر لها، دليل ذلك قوله تعالى حكاية عن الكفار، والرد عليهم حين قالوا للمؤمنين على طريق الإنكار والاستهزاء: ما بال هؤلاء الفقراء من العبيد والأحرار أعطوا نعمة الإسلام بزعمهم دوننا، وذلك قوله: ﴿أَهْوَأُ لَاءَ مَنْ أَلَّهُ عَلَيْهِمْ مَنْ بَيْنَنَا﴾، فأجابهم الله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَلَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾^(١).

ظنوا أنما يعطى النعمة العظيمة أكثرهم مالا، وأعظمهم حسبا ونسبا، فأجابهم الله تعالى بما تقدم، وتقدير الكلام أن السيد الكريم إنما يعطى نعمته لمن عرف قدرها، وهو الذي أقبل بنفسه وقلبه على مراعاتها، ولا يعبا بالمشقة في تحصيلها.

وكان في علمنا السابق أن هؤلاء الضعفاء هم القائمون بشكرها، فكانوا أولى بهذه النعمة منكم، فلا اعتبار بغناكم ولا جاهكم، فأنتم تظنون النعمة إنما هي الدنيا وحطامها، وعلو الأחסاب والأنساب لا الدين والحق معرفته، وإنما تعظمون ما ذكرنا من الأموال والأنساب.

أولا ترون أنكم لا تكادون تقبلون هذا الدين إلا بمئة على من أتاكم به، وذلك لاستحراقكم إياه، وأن هؤلاء الضعفاء قبلوه، وبذلوا مهجهم فيه، ولا يباليون بما فاتهم من [٤٨٣] الدنيا، ولا / بمن عاداهم لمعرفتهم بقدر هذه النعمة نعمة الدين، ورسوخ تعظيمها في قلوبهم فاستغرقوا العمر في أداء شكرها؛ فلذلك استحقوا نعمة الدين في سابق علمنا، وخصصناهم بها دونكم فهذه هذه.

قال الغزالي: وكذلك كل من خص بعلم أو عبادة، فإنك تجده أعرف الناس بقدر ذلك، وأشدهم تعظيماً له، وأجددهم في تحصيله، وأقومهم بشكره، والمحروم ذلك إنما حرمه لقلّة تعظيمه لحقه بعد القضاء السابق.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٣.

قال: فلو كان تعظيم العلم والعبادة في قلوب السوقة والعامّة مثل ما في قلوب العلماء والمتعبدين لما آثروا سوقهم عليهما.

ألا ترى أن فقيهاً إذا ظفر بتعليم مسألة كانت عليه ملتبسة، كيف يرتاح قلبه ويعظم سروره بها حتى ربما لو وجد ألف ألف دينار لما كان يعدل ذلك؟ ثم ربما تبين مثل هذه المسألة لسوقي أو متعلم كسلان يرى أنه مثل ذلك الفقيه في الرغبة في العلم، فلا يستمع إليها حق الاستماع، وربما طال عليه الكلام فيها فيملها، وإن تبين له ذلك فلا يعدله بكبير أمر.

قال: وكذلك المنيب إلى الله تعالى، كم يتضرع إليه؟ عسى أن يرزقه ساعة مناجاة بصفوة وحلاوة، فإذا ظفر بها عد ذلك أكبر منة ونعمة، فكم يسر بذلك ويفرح ويشكر الله تعالى عليه؟

ثم ترى الذي يزعم أنه راغب في العبادة لا تسمح نفسه بترك نوم ليلة أو ترك كلمة لا تعنيه في تحصيل مثل تلك العبادة، وإن اتفق له في النادر حصول عبادة في صفوة، فلا يعدها كبيرة في نفسه، ولا يعظم شكره لله عليها، إنما يعظم سروره، ويكثر في الظاهر حمده إذا حصل درهماً أو كسرة أو طاب له مرقة أو صحة بدن، فيقول: الحمد لله / فأنى يساوي هؤلاء [٤٨٤] العاجزون بأولئك المجدين الفائزين.

وكذلك قسم الأمر أحكم الحاكمين، وهو أعلم بالعالمين فهذا تفصيل قول الله تعالى: ﴿الَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾. فتنهم وارع حقه، وإبذل المجهود في حق تعظيم هذه النعمة؛ ليمن الله عليك في دوامها، كما من عليك بإعطائها أولاً - وبالله التوفيق -.

الأصل الثاني: أن النعمة إنما يسلبها الكفور الذي لا يعرف قدرها ولا يؤدي شكرها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاتَّسَلَخَ مِنْهَا...﴾ الآية، ثم قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾^(١) إلى آخر الآية.

تقدير الكلام أننا أنعمنا على هذا العبد بالنعم العظيمة في باب الدين، بما مكناه من الرتبة الكبيرة، ليكون رفيع القدر عندنا، ولكنه جهل قدر نعمتنا، فمال إلى الدنيا الحقيرة، فأثر شهوة نفسه الرديّة، ولم يعلم أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة في أدنى نعمة من نعم الدين، فكان في ذلك بمنزلة الكلب الذي لا يعرف الشرف والإكرام من الإهانة والاحتقار، إنما الكرامة عنده في كسرة يأكلها، أو عظم يرمى له يتعرقه سواء عنده، تقعده معك على السرير أو

تقيمه على التراب والقدر بين يديك، فهذا العبد السوء إذا جهل قدر كرامتنا، فآثر عليها لذة خسيسة، ودنيا حقيرة نظرنا إليه بالعدل والسياسة، فسلبناه كرامتنا، ونزعنا من قلبه معرفتنا، فانسلخ غاوياً من جميع فضلنا، فصار كلباً طريداً - فنعوذ بالله من سخطه وأليم عقابه إنه بنا رؤوف رحيم -.

ثم اقنع بمثال ملك يكرم عبداً له فيخلع عليه خاصة ثيابه، وجعله فوق جميع حجاجه، فأمره بملازمة باه، ثم أمر أن تبنى له القصور، وتوضع له الأسرة، وتنصب له الموائد، وتزين له الجوارى، وتقام له الغلمان في بلدة أخرى حتى إذا رجع من الخدمة أجلس هنالك ملكاً مخدوماً مكرماً، وما بين خدمته وذلك الملك إلا ساعة من نهار أو أقل فإن انصرف هذا العبد [٤٨٥] / عن باب الملك يتبع سائساً للدواب ليأكل رغيماً، أو كلباً يمصغ عظماً، واشتغل به عن خدمة الملك بنظره إليه واقباً له عليه، ولا يلتفت إلى ما أعد له من الخلع والكرامة، فيسعى إلى ذلك السائس ليأكل رغيماً معه، أو يزاحم الكلب على عظمه، أليس الملك إذا نظر إليه - على مثل هذه الحالة - يقول: إن هذا السفيه لم يعرف حق كرامتنا وقرينا مع ما أعدنا له من الذخائر؟ ما هذا إلا ساقط عظيم الجهل، قليل التمييز أسلوبه الخلع، واطردوه عن بابنا، فهذا حال العالم إذا مال إلى الدنيا، والعابد إذا اتبع الهوى بعدما أكرمه الله بعبادته ومعرفة آياته وشريعته، ثم لم يعرف قدر ذلك، وآثر عليه أحقر الأشياء عند الله، وكذلك من خصه الله تعالى بأنواع توفيقه وعصمته، وزينه بأنوار خدمته، ويديم النظر إليه بالرحمة في أكثر أوقاته، ويباهي به ملائكته، وأنزله منزلة الأعرزة، حتى صار بحيث لو دعاه لأجابه، ولو شفع في العالم لشفعه فيهم، وأرضاه، ولو خطر بباله شيء لأعطاه قبل أن يسأله، فمن كانت هذه حاله، ثم لم يعرف قدر هذه النعم فعدل عنها إلى شهوة نفس ردية أو لعقه من دنياه دنية مع ما أعد الله له في الآخرة من الثواب العظيم، والنعيم المقيم، فما أسوأه من عبداً، وما أفحش صنعها؟ - فنسأل الله تعالى أن يصح لنا بسعة رحمته إنه أرحم الراحمين -.

فصل

فعليك أيها الرجل ببذل المجهود حتى تعرف قدر النعمة، فإذا أنعم الله عليك بنعمة الدين، فالتفت إلى الدنيا فذلك منك تهاون بما أولاك الله من نعم الدين، أما تسمع قوله لسيد المرسلين: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَنَائِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ لَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ...﴾ (١) الآية.

تقديره أن كل من أوتي القرآن العظيم حق له أن لا ينظر إلى الدنيا فضلاً عن أن يرغب فيها، فيلزم الشكر على ما أعطي؛ فإنه الكرامة التي حرص عليها النبي عليه السلام أن يمن الله بها على عمه فلم يفعل، وحرص عليها الخليل عليه السلام أن يمن بها على أبيه فلم يفعل، وأما / حطام الدنيا فإنه يصبه على كل كافر وفرعون وملحد وزنديق وفساق، ويصرفه عن كل [٤٨٦] نبي وصفي وصديق وعالم وعابد، الذين هم أعر خلق الله عليه، حتى أنهم لا يكادون يصيبون كسرة ولا خرقة يمن عليهم بأن لا يلحظهم بقدرها، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً...﴾ إلى قوله: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١).

فانظر الفرق بين الأمرين وقل: الحمد لله الذي منّ عليّ بمنن أوليائه وأصفياه، وصرف عني فتنة أعدائه، ولتخص بالحمد والشكر الأوفر النعمة العظمى التي هي نعمة الإسلام خصوصاً، وسائر النعم عموماً.

فإن كنت لا تعرف قدرها، فاعلم يقيناً أنك لو خلقت من أول الدنيا وأخذت في شكر الإسلام إلى الأبد لما كنت تقوم بذلك، أما تسمع قوله لنبيه عليه السلام: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾^(٢)، وقال لقوم: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾^(٣). وقال عليه السلام وقد سمع رجلاً يقول: الحمد لله على نعمة الإسلام، فقال: «إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة، وإياك أن تفعل الشكر، وتفتخر بما أنت عليه من الإسلام والمعرفة والتوفيق، فإن ذلك موضع الأمن منك والغفلة، فإن الأمور بالعواقب»، وما من أحد آمن على دينه إلا سلب، ويقال: لا تفتخر بصفاء الأوقات فإن تحتها غوامض الآفات. وينشد:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

والله نسأله التوفيق والعون والهداية والطول إنه أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين.

(١) سورة الزخرف، الآيات: ٣٣، ٣٤، ٣٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٣.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٧.

القنطرة السابعة عشر

/ قنطرة الاجتهاد مخافة سوء الخاتمة وذكر الموت والقبر وما بعد ذلك من أمور القيامة

اعلم أن هذه القنطرة تحتوي على جملتين كل واحدة منها تشتمل على فصول .

الجملة الأولى: في الاجتهاد والمراقبة .

والجملة الثانية: في ذكر الموت وما بعده من أهوال يوم القيامة .

الجملة الأولى: في الاجتهاد والمراقبة

قال الله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾^(١)، وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(٢)، وقال: ﴿اعْمَلُوا فَمَنْ سَبَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولَهُ...﴾^(٣) الآية، وقال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾^(٤)، وقال: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَآخَذُوا بِهِ﴾^(٥)، وقال: ﴿فَوَزَّيْنَاكَ لَنَسَأَلَنَّكَهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٦)، وقال: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾^(٧)، وقال: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ...﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾^(٨)، وقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(٩).

- (١) سورة الحج، الآية: ٧٨ .
- (٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩ .
- (٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٥ .
- (٤) سورة آل عمران، الآية: ٣٠ .
- (٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣٥ .
- (٦) سورة الحجر، الآيتان: ٩٢، ٩٣ .
- (٧) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧ .
- (٨) سورة الكهف، الآية: ٤٩ .
- (٩) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧، ٨ .

عرف أولوا الأبواب والأبصار أن الله لهم بالمرصاد، وأنهم سيحاسبون على القليل والكثير والنقيير والفتيل والقطيمير من الحركات والسكون واللحظات، وتحققوا أنهم لا ينجيهم إلا لزوم الاجتهاد، والمجاهدات، وصدق المراقبات، ومطالبة النفس في الأنفاس، والخطرات، ومحاسبتها عند هواجس الأفكار عما صدر منها من السكنات والحركات، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في يوم القيامة حسابه، وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وقادته إلى الخزي سيئاته، فلما انكشفت لهم هذه الحالة علموا أنهم لا ينجيهم إلا طاعة الله لا محالة.

وقد أمرهم بالصبر والمرابطة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاطِبُوا...﴾^(١) الآية، فربطوا أنفسهم أولاً بالمشاركة، ثم بالمراقبة لها ثانياً، ثم بالمحاسبة لها ثالثاً، ثم بالمعاقبة رابعاً ثم بالمجاهدة خامساً، ثم بالمعاقبة / سادساً، فكانت لهم في [٤٨٨] المرابطة ست مقامات فلنشرحها في ستة فصول.

الفصل الأول في المشاركة

وهذا تشبيه بمشاركة الشريك لصاحبه في التجارة، يشارفه أولاً، ثم يراقبه ثانياً، ويحاسبه ثالثاً، ويعاقبه رابعاً، ويقاسمه الربح خامساً.

فتجارة الآخرة يشترك فيها العقل والنفس، فمطلب العقل تزكية النفس إذ به فلاحها، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا...﴾^(٢) الآية، فيحتاج العقل أن يشارف النفس أولاً، ويرتب عليها وظائف العبادات، ويشترط عليها شروطاً، ويرشدها إلى طريق فلاحها، ثم لا يغفل عن مراقبتها؛ لأنها أمانة بالسوء في جميع أخلاقها، ثم بعد فراغها يحاسبها، ويطالبها بالوفاء لما اشترط عليها.

وهذه التجارة ربحها النجاة من العذاب الأليم، ودخول الجنة في النعيم المقيم، فحتم على كل ذي حزم ولب آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن النفس في جميع حركاتها وسكناتها، ويضيق عليها في لحظاتها وخطراتها، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهره نفيسة لا عوض لها، يمكن أن يشتري بها كنزاً في الجنة لا ثمن له فيها، فإذا صلى الصبح فينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشاركة النفس، بأن يقول: يا نفسي مالي بضاعة إلا العمر، فمهما ضيعته

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

(٢) سورة الشمس، الآية: ٩.

ضاع رأس المال، وهذا اليوم جديد قد أمهلني الله فيه، ولو توفاني لتمنيت أن يرجعني إلى الدنيا؛ لعلني أعمل صالحاً.

وهب أنك توفيت، ثم ارجعت، فإياك أن تضيعي هذا اليوم واللييلة، فإن كل ساعة منها جوهرة لا قيمة لها، فقد ورد أنه ينشر للعبد في كل يوم وليلة أربعة وعشرون خزانة مصفوفة، يفتح له منها خزانة مملوءة نوراً من حسناته التي عملها فيها، فينال من الفرح والسرور ما لو فرغ على أهل النار لأدهشهم عن ألم النار، ثم يفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة فيفوح تنتها، [٤٨٩] ويغشاه ظلامها، وهي الساعة التي عصى الله فيها فينال من الفرح ما لو قسم / على أهل الجنة لنقص عليهم نعيمها، ثم تتفتح له خزانة فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوءه، وهي الساعة التي نام أو أغفل أو اشتغل فيها بشيء من مباحات الدنيا، فيتحسر على خلوها تحسر العاجز على الريح الكثير، والملك الكبير حتى فاته، وناهيك به خسارة وغبناً، وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره، فيقول لنفسه: اجتهدني في تعمير خزائن أوقاتك بكنوزك التي هي أسباب ملكك.

وهب أن الله قد عفا عنك، أليس قد فاتك ثواب المحسنين؟ فهذه وظيفة نفسه في أوقاتها، ثم يستأنف أخرى في أعضائه السبعة العين، والأذن، واللسان، والبطن، والفرج، واليد، والرجل؛ لأنها رعية خادمة للنفس، وبها تتم أعمال هذه التجارة.

أما العين: فتحفظها عن النظر إلى عورة بالغ، أو محاسن امرأة محرمة، أو نظر إلى مسلم بعين الاحتقار، بل يحفظها عن كل فضول مستغنى عنها، إذ يسأل العبد عن فضول النظر كما يستل عن فضول الكلام، ثم يستعملها في النظر إلى عجائب الملكوت، وفي كتاب الله تعالى، وسنة رسوله عليه السلام، وكتب الحكمة للانعاط والاستفادة، وهكذا في كل عضو ولا سيما اللسان والفرج والبطن.

وأما اللسان: فخفيف المؤنة في النطق عظيم الجنابة، وهل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم؟ فليحفظه عن محرمات الكلام من الكذب والغيبة والنميمة، وتركبة النفس ومذمة الخلق وغيرها من المحرمات فيه، والفضول التي لا تعنيه، ويشغله بالذكر والتذكير، وتكرار العلم والتعليم، وإرشاد العباد إلى الصلاح، والأمر والنهي، والإصلاح بين الناس، وغير ذلك من أنواع الخيرات، ويشترط على نفسه ألا يحرك اللسان طول النهار إلا بالخيرات وما يعنيه من المباحات، إذ المؤمن نطقه ذكر، وصحته فكر، ونظرة عبدة.

وأما الفرج: فيستعين على حفظه بغض البصر، وإسبال الثوب عليه وكسر شهوته بالصوم والتباعد عن مظنات التهم.

وأما البطن: فيشترط عليه ترك الشره، وتقليل الأكل من الحلال، وترك الشبهات [٤٩٠] والحرام، فإن خالف شيئاً من ذلك عاقبه بالمنع عن شهوات البطن، وهكذا سائر الأعضاء. واستقصاء ذلك يطول، ولا تخفى معاصي الأعضاء ثم يستأنف عليها وصيتها وشروطها كل يوم وليلة.

فإن النفس بطبعها متمردة، وعن الطاعة نافرة، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها، وذكرها فإن الذكرى تنفع المؤمنين. وهذه مشاركة النفس في أول أمرها.

الفصل الثاني في المراقبة^(١)

فإن الإنسان إذا أوصى نفسه، وشرط عليها ما ذكرناه، فلا تبغي له إلا مراقبتها عند الخوض في الأعمال، وملاحظتها بالعين الكائنة في جميع الأحوال، فإنها إن تركت مهملة غطت متمردة، فلنذكر أولاً لمعاً من فضيلة المراقبة، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾^(٢)، وسئل النبي ﷺ في حديث جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٣).

وقال بعض العلماء: أفضل ما يلزم الإنسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة ثم المراقبة، وسياسة عمله بالعلم، وقال بعضهم: إذا جلست إلى الناس فكن واعظاً لنفسك وقلبك ولا يغرنك اجتماعهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك، والله رقيب على باطنك.

وحكي أن تلميذاً لبعض المشايخ فكان يكرمه، ويقدمه على شيوخ أصحابه، فقيل له في ذلك فدعا بمدة طيور، فناول كل واحد منهما طيراً، فقال: ليذبح كل واحد منكم طيره في موضع لا يراه أحد، فذفع إلى التلميذ الشاب كذلك، فرجع كل واحد منهم بطيره مذبوحاً إلا التلميذ، رجع والطيور في يده، فقال: مالك لم تذبح وقد ذبح أصحابك، فقال: لم أجد

(١) هذا الفصل مأخوذ من كتاب الإمام الغزالي - إحياء علوم الدين - المجلد الرابع (٦٠٧) طبعة دار الحديث.

(٢) سورة المعارج، الآية: ٣٢.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٦٠٧/٤) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث ابن عمر.

موضعاً لا يراني فيه أحد، إذ الله في كل مكان، فاستحسنوا مراقبته وقالوا: حق لك أن تكرم [٤٩١] وينشد /

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفى عليه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غداً للناظرين قريب
وقال سفيان: عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك
الوفاء، وعليك بالحنذر ممن يملك العقوبة.

اعلم أن حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب، وانصراف الهم إليه، وذلك إذا غلب على القلب علم يقين لا شك فيه، كالعلم بالموت وأمور الآخرة، ومعرفة عظم الرب تعالى وجلاله، والمراقبون بهذه المعرفة هم الصديقون من المقربين وأصحاب اليمين، فمراقبة الصديقين بالتعظيم والإجلال لله تعالى، وذلك إذا استولى على القلب حب الله تعالى وعظمته، فابصر حيثئذ الدنيا خيالاً، والآخرة مثلاً، فصار همه واحداً، فكفاه الله سائر الهموم، وصاحب هذه الحالة ربما يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من حضر معه، ولا يسمع ما يقال له، وهذا لا يستبعد؛ لأنه قد يعرض بخدام الملوك المعظمة في الدنيا، فلا يعرف الخادم ما يجري في مجلس الملك لشدة استغراق قلبه في خوف الملك هبة وإجلالاً، بل قد يعرض للرجل مهم حقير فيتفكر فيه، وهو يمشي فربما يخطيء الموضوع الذي قصده.

وقد روي أن يحيى بن زكريا عليهما السلام مر بامرأة فدفعها، فسقطت على وجهها فقيل له لم فعلت هذا، فقال: ما ظننتها إلا جداراً، فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم، فلم يبق فيها متسع لغير ذلك.

وأما مراقبة أهل الورع من أصحاب اليمين: فهي مراقبة قوم غلب عليهم الحياء من الله تعالى، فلا يتقدمون ولا يتأخرون إلا بعد الثبوت ويمتنعون عن كل ما يفترضون به يوم القيامة، فإنهم يرون أن الله تعالى مطلع عليهم، ويعرف الفرق بين مراقبة أهل التعظيم والإجلال لله [٤٩٢] تعالى / وبين مراقبة أهل الحياء منه بالمشاهدة؛ فإنك في خلوتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك صبي، فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك، وتراعي أحوالك، لا عن إجلال للصبي وتعظيمه بل حياء منه، ويدخل عليك بعض الملوك والأكابر فتترك ما أنت فيه حياء منه وتعظيماً له.

وهكذا تختلف مراتب العبادة، فمن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراعي جميع حركاته

ولحظاته، بل جميع خطراته، فينظر قبل العمل إلى ما تحرك به عقله وخاطره، أهو الله خالصة أو للنفس ومتابعة الشيطان؟ فيتوقف ويتثبت حتى يتبين له الحق، فإن كان الله سبحانه أمضاه وإن كان لغير الله فيستحي ويكف، وهذا التوقف في بدء الأمر واجب محتوم، فإن في الخير تنشر للإنسان في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين الأول: لم، والثاني: كيف، والثالث: لمن، ومعناه لم فعلت هذا كان لك أن تفعله لمولاك أو ملت إليه لشهوتك وهواك، فإن سلم عنه بأن كان عليه أن يفعل ذلك لمولاه.

سئل عن الديوان الثاني فقيل له: كيف فعلت هذا؟ فإن الله عليك في كل عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره ووقته وصفته إلاً بعلم فيقال له: كيف فعلت بعلم محقق أم بعلل وظن؟ فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو المطالبة بالإخلاص فيقال: لمن فعلت؟ أوجه الله تعالى خالصاً وفاء بقولك: لا إله إلاً الله فيكون أجرك على الله أم لمراعاة خلقٍ مثلك فخذ أجرك منه؟ أم عملته لتنال عاجل دنياك وقد وفيناك نصيبك من الدنيا؟ أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك، وبطل عملك، وخاب سعيك، وإن عملته لغيري فقد استوجبت عقابي ومقتي إذ كنت عبد إلى تآكل رزقي، وترفه بنعمتي ثم تعمل لغيري أما سمعتني أقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلَكُمْ﴾^(١). ويحك أما سمعتني أقول: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينَ الْخَالِصُ﴾^(٢). فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات / والتوبيخات طالب نفسه قبل أن يطالب، وأعد للسؤال [٤٩٣] جواباً، وللجواب صواباً، فلا يبدىء ولا يعيد ولا يحرك جفنأً ولا أنملة إلاً بعد التثبيت والتأمل وقد قال النبي عليه السلام لمعاذ: «إن الرجل ليسأل عن كحل عينيه وعن فتّ الطين وعن لمسه ثوب أخيه»^(٣).

فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة، ولا يخلص من هذا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال، وأعوان النفس ومكائد الشيطان وإلاً فلا يسلم.

بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً،

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٤.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.

(٣) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠٣/١٠) وقال رواه أبو نعيم في الحلية في حديث طويل أوله «يا معاذ إن المؤمن لدى الحق أستر يعلم أن عليه رقباء على سمعه وصره ولسانه ويده ورجله ووطنه وفرجه...» وفيه «يا معاذ إن المؤمن ليستل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى عن كحل عينيه يا معاذ إني أحب لك ما أحب لنفسي الحديث».

ولا تحسب أن الجاهل فيما يقدر على تعلمه يعذر بجهله، هيهات طلب العلم فريضة على كل محتمل ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم؛ لأنه يعرف ما ذكرناه من آفات الأعمال فيقيها، والجاهل لا يعرفها فكيف يحترز منها؟ بل لا يزال الجاهل في تعب والشيطان منه في فرح وشماتة فنعوذ بالله من الجهل، والغفلة فهو رأس كل شقاوة.

فالواجب على العبد أن يستضيء بنور الدين في كل خطوة، وتنازلة نزلت به، فإن لم يعرفها فليستل علماء الدين المقبلين على الآخرة، وليفر من علماء سوء المقبلين على الدنيا فراره من الأسد بل أشد، فالقلوب المظلمة بحب الدنيا محجوبة عن الله تعالى؛ فإن مستقر أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضيء بها من استدبرها وأقبل على الدنيا، والتكالب فيها، وقد قال عليه السلام: «من قارف ذنباً فارق عقلاً لا يعود إليه أبداً وحب الدنيا رأس كل خطيئة»^(١).

وقد قال عليه السلام: «إن الله يحب البصير الناقد عند ورود الشبهات»^(٢).

والعقل الكامل عند هجوم الشبهات، أو معرفة آفات الأعمال، قد اندرست من قديم الزمان، فكيف هذه الأعصار، فإن الناس قد هجروا هذا العلم قديماً واشتغلوا بفقهاء طلب المعاش وعلم فصول الخصومات، والمسائل الطبوليات، وأما / اليوم فقد هجروا جميعاً فأصبحوا في ظلمة لا يعمهون في أعمال الدنيا والدين والحمد لله رب العالمين.

النظر الثاني: للمراقبة عند الشروع في العمل، وذلك أن تفقد حسن النية له، وكيفية أدائه على أكمل ما أمكنه، وهذا لازم له في جميع أحواله؛ فإنه لا يخلو فيها من حركة وسكون، فإذا راقب الله في جميع ذلك قدر على عبادته فيه بالنية وحسن الفعل، وذلك أنه لا يخلو إما أن يكون في طاعة فيراقبها بالإخلاص ومراعاة الأدب وحرصاتها عن الآفات، وإما في معصية فيراقبها بالتوبة والندم والاشتغال بالفكر والحياء منها، وإما في مباح فيراقبه بمراعاة الأدب وشكر المنعم على نعمته فيها، وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة، فإن الساعات ثلاث: ساعة مضت لا تعب على العبد فيها كيف ما انقضت، وساعة مستقبلية لا يدري أيديركها أم لا، والساعة التي هو فيها فيجاهد نفسه، وليراقب ربه قبل انقضائها فإن عاش إلى الساعة المستقبلية لم يتحسر على التي جاهد فيها، وليستوفى حق الثانية كما استوفى حق الأولى، ولا يطول عمره

(١) قال الحافظ العراقي في المنهجي (٦١٤/٤) طبعة دار الحديث: لم أجده.

(٢) قال الحافظ العراقي في المنهجي (٦١٤/٤) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث عمران بن حصين وفيه خفض بن عمر العنني ضعفه الجمهور.

خمسین سنة فتطول علیه المجاهدة والمراقبة بل يكون ابن وقته، ولعله في آخر أنفاسه فيدرکه الموت على حالة مرضية، ولتکن جميع أحواله مقصورة على ما روي من حکم داود النبي علیه السلام.

وعلى العاقل أن تكون أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر في صنع الله تعالى، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب، فإن في هذه الساعة عوناً له على الساعات.

ولا ينبغي أن يغفل فيها أيضاً عن أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر فإن الطعام الذي يتناوله فيه من العجائب ما لو تفكر فيه كان أفضل من كثير أعمال الجوارح فإن الناس فيه على أربعة أقسام: قسم ينظرون فيه بعين البصيرة فيتفكرون في عجائب صنعه وهم ذووا الأبواب، وقسم ينظرون فيه بعين المقت / والكرهية فيتناولون مضطرين يودون أن لو كانوا فيه بالشهوة [٤٩٥] مقهورين وهم الزاهدون، وقسم يرونه صنعة للصانع، ويترقون منه إلى صفات الخالق فينتح لهم بسببه زيادة في محبته وهم العلماء بالله المحبون له، وقسم رابع ينظرون إليه بعين الحرص والرغبة فيتأسفون على ما فاتهم منه، ويفرحون بما حضر من جملة، ويذمون منه مآلاً يوافق طباتعهم ويعييون الطبخ وطابخه، ولا يعلمون أن الفاعل للطبخ والطباخ هو الله تعالى المسخر للجميع وبقدرته وعلمته وأن من عاب الصنعة فقد عاب الصانع، فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام، وشرح ذلك يطول.

الفصل الثالث في محاسبة النفس بعد العمل

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتُنظُرْ نَفْسًا مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾^(١).

وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال، وقال ميمون بن مهران: لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه، والشريكان يتحاسبان بعد العمل وكان عمر يضرب قديمه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه: ماذا عملت اليوم؟

وقال الحسن: المؤمن قوام على نفسه يحاسبها الله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، ثم فسر المحاسبة فقال: إن المؤمن يفجأ الشيء فيعجبه فيقول: إنك لتعجبني، وإنك لمن حاجتي، ولكن هيهات حيل بينك وبينني وهذا حساب قبل العمل، ثم قال: ويفرط منه الشيء فيرجع على نفسه يقول: ما أردت بهذا والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله.

(١) سورة الحشر، الآية: ١٨.

وحقيقة المحاسبة: إنما هو إذا شارط نفسه أول النهار على سبيل التوصية فليطالبها آخر النهار على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل تجار الدنيا في آخر كل سنة أو شهر فكيف لا [٤٩٦] يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به / السعادة أو الشقاء أبد الآباد ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان فنعوذ بالله منها.

ومعنى المحاسبة للشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فما كان من فضل استوفاه وما كان من نقصان طالبه بضمائه في المستقبل فكذا العبد رأس ماله من دينه الفرائض، وربه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي ومؤنته هذه التجارة ومعاملة النفس الأمارة بالسوء، فليحاسبها على الفرائض، فإن أدتها على وجهها شكر الله على ذلك ورغبها في مثله، وإن أهملت شيئاً طالبها بالقضاء، وإن أدتها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل وإن ارتكبت معصية عاقبها وعاتبها ويستوفي منها ما يكفرها به وينبغي أن يفتش عن أعماله طول نهاره، بل عن خوارطه وأفكاره وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته أنه لِمَ سكت أو لِمَ تكلم فإذا عرف مجموع الواجب على النفس، فليكتبه على صحيفة قلبه، وليطالبها بالغرامة والضمان، ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب.

ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوماً يوماً في جميع أعضائه الظاهرة والباطنة كما نقل عن بعض السلف أنه حاسب نفسه يوماً فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمس مائة يوم فصرخ فقال: يا ويلتي: بأحد وعشرين ألف ذنب وخمس مائة ذنب، كيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ثم خرّ مغشياً عليه فإذا هو ميت، فسمعوا قائلاً يقول: يا لها ركضة إلى الفردوس الأعلى.

فهكذا ينبغي لك أن تحاسب على معاصي القلب والجوارح كل ساعة، ولو رمى العبد بكل معصية حجراً في داره، لامتلات في مدة قريبة، ولكنه يتساهل في المعاصي، والملكان يحفظان عليه أحصاه الله ونسوه، ويشد:

[٤٩٧] / لم ينسه الملكان حين نسيته بل أثبتاه وأنت لاه تلعب

الفصل الرابع في معاقبة النفس على تقصيرها

وذلك مهما حاسب نفسه فلم يسلم عن مفارقة معصية، أو ارتكاب تقصير في حق الله تعالى فينبغي ألا يعملها، لأنه إن فعل عسر عليه بعد ذلك فطامها عن المعاصي فهلك مع الهالكين، ولكن ينبغي أن يعاقبها فإذا أكل مثلاً لقمة بشهوة نفس، فليعاقب البطن بالجوع وإذا

نظر إلى محرّم، فينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر وكذلك كل عضو من أعضائه، فينبغي أن يعاقبه بمنع شهوته هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة.

وقد روي أن رجلاً من العباد طلب امرأة فلم يزل حتى وضع يده على فخذه فوضع يده في النار حتى تيبست، وحكي أنه كان في بني إسرائيل رجل متعبد في صومعته وأنه أشرف ذات يوم فافتتن بامرأة فأخرج رجله لينزل إليها فتداركه الله تعالى فندم، فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال: هيهات هيهات رجل خرجت تريد أن تعصي الله تعود معي في صومعتي لا يكون ذلك والله أبداً، فتركها متعلقة من الصومعة حتى تقطعت بالرياح والشمس والأمطار فشكر الله ذلك له، وأنزل الله ذكره في بعض الكتب، ذكر هذه الحكاية الغزالي في كتابه ولعل هذا جائز في شريعة بني إسرائيل، ألا ترى أنه قيل: إذا عمل أحدهم ذنباً أصبح مكتوباً على بابه المخرج منه كذا وكذا أما قطع بعض أطرافه وغير ذلك والله أعلم، وقد قال لأصحاب العجل: ﴿أَفْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ...﴾ الآية.

وقد روي أن أبا مرداس مهاص رحمه الله تعالى: أنه نظر إلى امرأة مكشوفة الرأس فصام سنة، وروي أن بعض أصحاب النبي عليه السلام تصدق بحائظ له شغل قلبه في الصلاة والله تعالى أعلم.

[٤٩٨]

/ الفصل الخامس في المجاهدة /

وهذا إذا حاسبها فزأها قارفت معصية فعاقبها بما ذكرناه، ثم إذا رآها تتكاسل عن الفضائل فينبغي أن يثقل عليها أوزار العبادة تأديباً وتداركاً لتفريطها هكذا يعمل عمال الله تعالى.

وقد روي أن عمر رضي الله عنه فاتته صلاة العصر في جماعة، فتصدق بأرض له قيمتها مائة ألف درهم، وكان ابن عمر فيما بلغنا إذا فاتته صلاة في جماعة أحمى تلك الليلة، ويقال: أنه أحرّ صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فاعتق رقتين، وفاتت بعضهم ركعتا الفجر فاعتق رقبة وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشياً أو التصدق بجميع ماله، كل ذلك مؤاخذة للنفس بما فيه من نجاتها.

فإن قيل: إن نفسي لا تطاوعني على الاجتهاد فما علاجها؟ قيل: أسمعها ما ورد من أخبار المجتهدين أو اطلب صحبة عبد مجتهد في العبادة فتقتدي به وكان بعضهم يقول: إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى اجتهاد محمد بن واسع فعملت عليه أسبوعاً ولكن هذا من الناس اليوم معدوم، فينبغي أن يعدل إلى سماع أخبار المجتهدين من الأولين وما كانوا فيه من

الجهد الشديد وقد قال النبي ﷺ: «رحم الله أقواماً يحسبهم الناس مرضى وما هم بمرضى»^(١).

قال الحسن: أجهدتهم العبادة وأدرت ناساً أو قال: أقواماً وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا يأسفون على شيء منها أدير، وإنها كانت في أعينهم أهون من هذا التراب وإن كان أحدهم يعيش عمره ما فرش لأحدهم ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قط، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط وأدرتكم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم يفترشون وجوههم / تجري دموعهم على خدودهم، ينادون ربهم في فكاك رقابهم، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها، وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحنزتهم، فسألوا الله تعالى أن يغفرها لهم، والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك، والله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة.

ويحكى أن قوماً قدموا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه فإذا فيهم شاب ناحل الجسم فقال له عمر: يا فتى ما الذي بلغ فيك ما أرى؟ فقال: يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة، فصغرت عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عندي حجرها وذهبها فكانني أنظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار فأظمأت لذلك نهاري وأسهرت ليلي، وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه.

ويقال: كان داود الطائي، يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز، فقيل له في ذلك، فقال: بين مضع الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية، وسأل الفاسق بن زياد خادماً لعروة بن جدير رحمه الله بعدما قتل عروة عن حاله فقال أأجمل أم أفسر؟ قال: بل أجمل، قال: ما صنعت له طعاماً قط، ولا فرشت له فراشاً بليل قط. فقال الفاسق: لقد قلنا صالحاً.

وكان أبو بلال رحمه الله يقول: فيما بلغنا حين أراد الخروج إلى الشراء لو أن لي نفسين نفساً تقاتل في سبيل الله، ونفساً تقضي حوائج المسلمين، وكان فيما بلغنا يقول: إني لا أحفظ ما تكلمت به حتى أمسي مخافة أن أخطيء.

وكان عبد الله بن وهب رحمه الله يجتهد حتى دبرت جبهته وركبته وكان يسمى ذا التفنات تشبيهاً بتفنات ركبتي البعير، قال فيه أبو بلال وغيره:

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١/٢٦٦) طبعة دار الحديث: لم أجد له أصلاً في حديث مرفوع ولكن رواه أحمد في الزهد موقوف على عليّ في كلام له قال فيه: ينظر الناظر فيقول: مرضي وما بالقوم من مرض.

[٥٠٠] / أبعده بن وهب ذي النزاهة والتقوى ومن خاض في تلك الحروب المهالكا
أحب حياة أو أرجي سلامة وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فيا رب سلم نيتي وبصيرتي وهب لي التقى حتى الآقي أولئكا

وكان أبو بلال رحمه الله يقول: إن لكل منية ظنوناً إلا القتل في سبيل الله، وكان وقف على البشجا رحمة الله عليها وهي امرأة من المسلمين قتلها اللعين ابن زياد فقال أبو بلال: لو أني صرعت مصرع البشجا لرجوت أن أمر على الصراط مستويًا، وخرج رحمه الله حتى قتل شاربياً، ويقال: أنه طعن فمشى في الرمح حتى قتل قاتله والله أعلم. وقال أبو بلال في قصيدة له:

نرجو الجنان إذا صارت جماجمنا تحت العجاج كمثل الحنظل الببال

ومثل هذه الأخبار يطول به الكتاب، وذكر الغزالي في كتابه: أن في الصحابة من ورده في اليوم اثنتي عشرة ألف تسيحة، قال: وكان فيهم من ورده ثلاثون ألفاً، قال: وكان فيهم من ورده ثلاث مائة ركعة إلى ست مائة ركعة إلى ألف ركعة، قال: وأقل ما نقل من أورادهم في الصلاة مائة ركعة في اليوم واللييلة.

قال: وكان بعضهم أكثر أوراده في القرآن فكان يختم الواحد منهم في اليوم مرة، وروي عن بعضهم مرتين، قال: وكان بعضهم يقضي اليوم واللييلة في تفكر آية واحدة يرددها. قال: وكان أويس القرني رحمه الله يقول: هذه ليلة الركوع فيحيي الليل كله في ركعة فإذا كانت اللييلة الآتية قال: هذه ليلة السجود فيحيي الليل كله في السجدة.

قال: وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة، حتى أقعد فكان يصلي جالساً ألف ركعة فإذا صلى العصر احتبأ ثم قال: عجبت للخليقة كيف استأنست قلوبها بذكر سواك.

[٥٠١] / قال: وكان ثابت البناني قد حببت إليه الصلاة، فكان يقول: اللهم إن كنت آذنت لأحد [٥٠١] أن يصلي لك في قبره فاذني لي أن أصلي في قبري.

وعن عبد الواحد بن زيد قال: مررت بصومعة راهب في الصين فناديته يا راهب فلم يجبني حتى ناديته ثلاثاً فأشرف عليّ فقال: يا هذا ما أنا براهب إنما الراهب من رهب الله في أسمائه وعظمته في كبريائه، وصبر على بلائه، ورضي بقضائه، وحمدته على آلائه، وشكروه على نعمائه، وتواضع لعظمته، وذلك لعزته، واستسلم لقدرته، وخضع لمهابته وفكر في حساباه

وعقابه، فنهاره صائم، وليله قائم، قد أسهره ذكر النار، ومسائلة الجبار فذلك هو الراهب، وأما أنا فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة من الناس لثلا اغفرهم. فقلت: يا راهب فما الذي قطع الخلق عن الله بعد إذ عرفوه؟ فقال: يا أخي لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا، وزيتها؛ لأنها محل المعاصي والذنوب فالعاقل من رمى بها عن نفسه، وتاب إلى الله من ذنبه وأقبل على ما يقربه من ربه.

وحكايات المجتهدين من الرجال والنساء غير محصورة، تركتها مخافة التطويل، فمن أرادها فالكاتب مملوءة بها، وفيما ذكرناه كفاية لمن أراد أن يعرف أهل زمانه من أهل الاجتهاد الماضين، وبعد أهل زمانه عن صفات أهل الدين، فإن حدثك نفسك بالنظر إليهم دون الأئمة الماضية، وقالت: إنما تيسر الخير في تلك الأزمنة لكثرة الأعوان على الخير، فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنوناً وسخروا منك فوافقهم فيما هم عليه فلا يجري عليك إلا ما يجري عليهم، والمصيبة إذا عمت طابت فقل لها: أرايت لو هجم سيل يغرق الناس ولم يحذوره جهلاً منهم [٥٠٢] بحقيقة الحال، وقلدت على / ركوب سفينة تنجو بها دونهم فهل تختلج في نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت أم ترك موافقتهم وتستهجلهم في صنعهم وتأخذ حذرک وتنجو مما دهاك، فإذا كنت تفعل خوفاً من غرق ساعة فعذاب الآخرة أشد وأبقى، فلم لا تهربين منه وأنت متعرضة له في كل حال؟ ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت؟ ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص، ولم يهلك الكفار إلا بموافقته أهل زمانهم حيث قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ . . .﴾ الآية.

فعليك بموافقة نفسك وتوبيخها، واحملها على الاجتهاد وقرعها بسوء نظرها لنفسها لعلها تتزجر عن طغيانها وبالله التوفيق.

الفصل السادس في توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أن أعدى عدو لك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء حيالة إلى الشر، نافرة عن الخير، وأمرت بتزيكيتها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة خالقها، ومنعها عن شهواتها، فإن أمهلتها جمحت ولم تقدر بعد ذلك عليها وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاينة كانت هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى الدخول في زمرة عباد الله راضية مرضية. فلا تغفلن عن تذكيرها، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغلن الآن بوعظ نفسك، فقد أوحى الله تعالى إلى عيسى ابن مريم عليه السلام: يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ نفسك، وإلا فاستح مني، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذُّكْرَىٰ تَنْفَعُ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾. وسبيك أن تقبل عليها فتعرفها جهلها وحماتها؛ فإنها تتعزز بغطتها وهدايتها استنكافاً وأنفة إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها: / ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء [٥٠٣] والفظنة وأنت أشد الناس غباوة وجفاء أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنت صائرة إلى أحدهما على القرب فما لك تضحكين وبين يديك هذا الخطر العظيم الجسيم، وعساک اليوم تخطفين أو غداً فأراك ترين الموت بعيداً ويراه الله قريباً أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب وأن البعيد ما ليس بات أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ولا مواعدة، وإنه لا يأتي في زمان دون زمان، ولا في حالة من العمر دون حالة بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يأتي فيه الموت فجأة، وإن لم يأت فجأة فالمرض يأتي فجأة فيفضي بك إلى الموت فما لك تستبعدين الموت وهو أقرب إليك من كل قريب.

أما تدبرين قول الله تعالى: ﴿أَفْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابَهُمْ...﴾ الآية إلى قوله: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ ﴿٢﴾.

ويحك يا نفسي كيف تجرأت على معصية الله إن اعتقدت أن الله لا يراك فما أعظم كفرك، وإن علمت بإطلاعه عليك فما أقل حياءك، ويحك لو راجعك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهين كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأي جسارة تتعرضين لمقت ربك وغضبه وشديد عقابه؟ أتظنين أنك تطقين عذابه فإن ظننت ذلك فاحسبي نفسك في الشمس أو في الحمام ساعة أو قربي اصبعك من النار لبيّن لك قدر طاقتك أم تغترين بكرم الله وفضله واستغناؤه عن طاعتك فما لك لا تعولن على كرمه في مهمات دنياك من دفع الأعداء، وتحصيل الحاجات بلا سبب منك حتى / يبعث لك جنداً يدفع عنك ويظهر لك كنزاً فتستغني [٥٠٤] به عن كسبك، أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة لا في الدنيا وقد علمت أن سنة الله لا تبديل لها وأن ليس للإنسان إلا ما سعى؟

ويحك ما أبين نفاقك ودواعيك الباطلة تدعمين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل مولاك ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ ﴿٣﴾. وقال: في أمر الآخرة: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ ﴿٤﴾.

(١) سورة الذاريات، الآية: ٥٥.

(٢) سورة الأنبياء، الآيات: ١، ٢، ٣.

(٣) سورة هود، الآية: ٦.

(٤) سورة النجم، الآية: ٣٩.

فقد تكفل لك بأمر الدنيا، ووَكَّل أمر آخرتك إلى سعيك فكذبته بأفعالك بتكالك على الدنيا وإعراضك عن الآخرة.

ويحك لو كان الإيمان باللسان يعني دون الأفعال فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار؟ ويحك كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب أو تحسبين أن ترك سدى ألم تكونين نطفة من مَنِيٍّ تمنى ثم كنت علقة فخلق فسوى، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟

فإن كان هذا إضمارك فما أكفرك وأجهلك، أما تتفكرين مماذا خلقك بل من نطفة خلقك ثم السبيل يسرك ثم أماتك فأفبرك، أفكذبينه في قوله: ﴿ثم إذا شاء أنشرك﴾ فإن لم تكوني مكذبة فما لك لا تأخذين حذرک، ولو أن يهودياً أخبرك عن الذي أطعمتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كنه المنزلآت أصدق عندك من قول يهودي يخبرك عن حدس وتخمين.

فالمعجب ولو أن صبيأ أخبرك عن عقرب في ثوبك لرميت به في الحال من غير مطالبة له على ذلك بيهان، أفكان قول الأنبياء، والعلماء، والحكماء، وسائر الأولياء أصدق عندك من [٥٠٥] جملة الأغبياء أو صار حر جهنم مع أصناف عذابها أحقر عندك من عقرب / ما هذه أفعال المقلاء بل لو انكشف للبهائم حالك لسخرت منك ومن عقلك، فإن كنت عرفت ذلك وآمنت به فما لك لا تستوفين العمل والموت لك بالمرصاد ولعله يقصدك من غير مهل؟

هب أنك وعدت بالإمهال مائة سنة، أفنظنين من يطعم الدابة في حضير أسفل العقبة يفلح أو يقدر على قطعها فما أعظم جهلك إن ظننت ذلك، أرأيت لو أن رجلاً سافر بلا نفقة فأقام متعطلاً في أرض غربة سنين، يعد نفسه بالنفقة في السنة الأخيرة من رجوعه إلى وطنه، هل كنت تضحكين من عقله؟

هب أن الجد آخر العمر نافع فلعلك في آخر يوم منه، فلم لا تشتغلين فيه بذلك؟ فإن أوحى إليك بالإمهال فما المانع لك من المبادرة هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة هواك؟ أفنظنين يوماً يأتيك لا يعسر فيه مخالفة هواك، هذا يوم لم يخلقه الله قط، ولا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره فإذا أنت عمزت عن مخالفة الشهوة اليوم، فأنت في غد أعجز وأعجز، وهل الشهوة إلا كالشجرة الراسخة التي يريد الإنسان قطعها وهو شاب قوي، فأخرها إلى سنة أخرى وقد علم أن الشجرة تزيد بطول المدة في الأرض رسوخاً، ويزيد القاطع بذلك ضعفاً وهرماً، فما لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه في الضعف والهرم.

فإن كنت تفهمين هذا وتركتين إلى التسوية فمالك تدعين الحكمة؟ وأيُّ حماقة تزيد على هذه الحماسة؟ ولعلك تقولين: ما يعني عن الاستقامة إلا لذة شهوتي، وقله صبري عن مخالفتها، فما أقل إعتذارك؟ فإن كنت صادقة فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية أبد الآباد في الجنة، وما قولك في عقل مريض أشار عليه بترك شرب الماء. / ليصح ويتناهه طول العمر، [٥٠٦] وحذره إن شربه مرض طول العمر، فجميع عمرك في طول نعيم الدنيا وطول عذاب النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إليه، فالصبر على مخالفة الشهوة أيسر من طول العذاب، وفوات النعيم، فما هذا إلا ضعف الإيمان بالثواب والعقاب، وبهذا الجهل تستحقين صفة الحماسة في قول النبي ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل ما بعد الموت والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»^(١).

ويحك لا تغرنك الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور فانظري لنفسك ولا تضيعي أوقاتك، فإن الأنفاس معدودة فإذا مضى نفس فقد مضى بعضك، فاغتنمي الصحة قبل السقم، والفراغ قبل الشغل، والغنى قبل الفقر، والشباب قبل الهرم، والحياة قبل الموت، واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها، كما تستعددين للشتاء بقدر طول المدة الحطب والطعام والكسوة، أفتظنين أن زمهرير جهنم أخف برداً وأقصر مدة من الشتاء؟ أم تظنين أن العبد ينجو منها بغير عمل؟ هيهات كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالحطب والكسوة وكذلك حر النار لا يندفع إلا بأسباب من حسن التوحيد والطاعات، وإنما كرم الله لك في أن عرفك أسباب التحصين منها بالطاعات كما أن كرمه في دفع برد الشتاء فإن عرفك الصناعات وخلق لك النار والحطب وألهمك استخراجها من الأحجار حتى يندفع بها البرد، وكذلك ألهمك طريق النجاة فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها والله غني عن العالمين.

ويحك فسيء آخرتك بدنياك كما بدأنا أول خلق نعيده ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ما أراك إلا ألفت / الدنيا، هب أنك غافلة عن أحوال يوم القيامة. [٥٠٧]

أما إنك مؤمنة بالموت المفروق بينك وبين محابك؟ أفتري أن من يدخل من باب دار ملك ويخرج من الجانب الآخر، وثم يستغرق قلبه بعشق جارية فيها وهو مضطر إلى مفارقتها

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٥١٥/٢) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وقال: حسن وابن ماجه من حديث شداد بن أوس. قال المحقق: أخرجه الترمذي (٢٤٥٩) ابن ماجه (٤٢٦٠) وأحمد (١٢٤/٤). والحاكم (٥٧/١). وقال صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه. قال الذهبي تعليقا عليه: لا والله أبو بكر واه وذكره الألباني في ضعيف الجامع (٤٣١٠) وقال ضعيف.

أبعد من العقلاء أم من الحمقاء، فالدنيا دار ملك الملوك، وكل من فيها ضيف مجتاز، وما في يده عارية مردودة على صاحبها، أما سمعت قول سيد المرسلين: «إن روح القدس نفث في روعي أحبب من شئت فإنك مفارقه وعش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزي به».

فكل من آلف ملاذ الدنيا واستكثر منها فإنما يستكثر من الحيرة، ويتزود من السم المهلك عند مفارقتة إياها، أما تنظرين إلى الماضين كيف بنوا وأعلوا وذهبوا وخلصوا؟ فهل حمق أعظم ممن يعمر دنياه، وهو مرتحل عنها ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعاً.

أما تستحين من مساعدة الحمقاء المنكبين على الدنيا؟ وهب أنك تؤثرين الاقتداء، فقس عقول أهل الدنيا بعقول الأنبياء والحكماء، واقتد بأعقل الفريقين ولعلك أسكرك حب الجاه.

وهب أن كل من على بساط الأرض سجدوا لك أما تعرفين أن بعد خمسين سنة لا تبقى أنت ولا أحد من أولئك أما سمعت عن الملوك الذين قبلك فكيف تبع ملكاً يبقى أبد الآباد بملك لا يبقى أكثر من خمسين سنة، إن بقي مع كدورته بأنواع المصائب واحتفاف الحساد، والأعداء به من كل جانب.

فما لك تفرحين بدنيا إن ساعدتك مع رذالتها، وخسة شركائك فيها من اليهود والنصارى والغوغاء والسفهاء، وترغب أن تكوني في زمرة الصديقين والشهداء والصالحين في الدنيا، وفي جوار رب العالمين في العقبى.

ويحك فمن ذا الذي يصلي عنك ويصوم بعد الموت، مالك إلا أياماً معدودة وهي [٥٠٨] بضاعتك / وقد ضيعت أكثرها ويحك أما تعلمين أن الموت موعدك، وأن القبر بيتك، والتراب فراشك والفرع الأكبر بين يديك؟ أما علمت أن عسكر الموتى على باب بلدك وقد حلفوا بالأيمان المغلظة أنهم لا يرحلون حتى يأخذوك؟ أما تعلمين أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا ليتداركوا ما فوطوا وأتوا في أمنيتهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا كلها لاشتروه لو قدروا وأنت ضيعته في البطالة، ويحك أما تستحين؟

تترتين بظاهرك للخلاق وتبارزين الله في السر بالعظام، تذكزين بالله وأنت له ناسية، تأمرين الناس بالخير وأنت متلخخة بالرذائل، ولو عرفت نفسك حق المعرفة، ظننت أن الناس لا يصيبهم بلاء إلا من أجلك ويحك قد جعلت نفسك حماراً لإبليس يقودك حيث يشاء ويريد، ومع هذا فتمجيبين بعملك مع كثرة خطاياك وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده ثمان ألف سنة أو ما شاء الله، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه صفيه ولن ينجو إلا

بالإعتراف والتوبة، والعجب منك تفرحين بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك فما ينفق مال يزيد وعمر ينتقص .

واحدري يا مسكينة يوماً إلى الله فيه يسأل نفسه أن لا يترك عبداً أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقة وجليلة سره وعلايته، فانظر بأيّ بدن تقفين بين يديه، وبأيّ لسان تجيبين، وأعدّي للسؤال جواباً، وللجواب صواباً، واعلمي في دار العمل بالاختيار قبل أن تخرجي منها خروج الاضطرار ولا تفرحين بما ساعدك من زهرات الدنيا، فرب مسرور مغبون، ورب مغبون لا يشعر ويل لمن له الويل وهو لا يشعر يضحك ويلهو وقد حق عليه في الكتاب إنه من وقود النار .

/ واعلمي أنه ليس للدنيا عوض، ولا للجسد خلف، فمن كانت مطيته الليل والنهار [٥٠٩] سير به، وإن لم يسر فاتعطي يا نفسي بهذه الموعظة واقبلي هذه النصيحة فإن من أعرض عن النصيحة والموعظة فقد رضي بالنار ولا أراك بها راضية، ولا لهذه الموعظة واعية، فإن كان هذا لقساوة قلبك فاستعيني عليه بدوام الاتعاظ وطول التهجد والقيام وإلاً فبالمواظبة على الصيام وإلاً فبقلة المخالطة والكلام وإلاً فبصلة الأرحام واللفظ بالآيتام، وإن لم تزل القساوة فاعلم أنه قد طبع على قلبك، فوطّئي نفسك على النار فكلّ ميسر لما خلق له .

فاقنطي ولا سبيل إلى القنوط؛ فإنه من الكبائر ولا سبيل إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فليس ذلك برجاء بل هو اغترار فانظري هل تبكين أو تحزنين على هذه المصيبة؟ فإن حزنت وسحت عينك بالبكاء فمستقى الدمع من بحر الرجاء فقد بقي فيك موضع للرجاء، فتواظبي على النياحة والبكاء اقتداء بآدم عليه السلام، واستغيثي بأرحم الراحمين لعله أن يرحم ضعفك فقد انقطعت عنك الحيل، فلا مذهب ولا مستغاث ولا ملجأ إلا إلى مولاك فافزعي إليه بالتضرع والتلهف؛ فإنه يرحم المتضرع الذليل ويوجب دعوة المتلهف المضطر الخائف الوجل فقد أصبحت والله مضطرة إلى رحمته محتاجة؛ فإن العفو شامل والكرم فائض والرحمة واسعة فقولي: يا أرحم الراحمين عجل إغاثتي وفرجي وأرني آثار رحمتك وبرد عفوك يا أكرم الأولين والمحمد لله رب العالمين .

وروي عن منصور بن عمار قال: سمعت في بعض الليالي بالكوفة عبداً يناجي ربه وهو يقول: يا رب وعزتك ما أردت بمعصيتي / مخالفتك، ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك [٥١٠] جاهل، ولا لعقوبتك متعرض ولا بنظرك مستخف ولكن سؤلت لي نفسي وأعانتني على ذلك شقوتي، وعزّيتي سترك المرخى عليّ فعصيتك بجهلي وخالفتك والله بقلة عقلي فمن الآن من

عذابك يتقذني، أو بحبل من اعتصم إن قطعت حبلك عني، واسواتاه من الوقوف بين يديك غداً إذا قيل للمخنفين جوزوا وللمثقلين حطوا أمع المخنفين أجوز أم مع المثقلين أحط، ويلى كلما كبرت سني كثرت ذنوبي، ويلى كلما طال عمري كبرت معصيتي إلى كم أتوب وإلى كم أعود أما أن لي أن استحي من ربي.

وعن وهب بن منبه قال لما أهبط الله آدم عليه السلام من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقى له دعة فأطلع الله عليه في اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكس رأسه، فأوحى الله إليه: يا آدم ما هذا الجهد الذي أراك فقال: يا رب عظمت مصيبي وأحاطت بي خطيئتي، وأخرجت من ملكوت ربي فصرت في دار الهوان بعد الكرامة وفي دار الشقاء بعد السعادة، وفي دار النصب بعد الراحة وفي دار البلاء بعد العافية، وفي دار الزوال بعد القرار، وفي دار الفناء والموت بعد الخلود والبقاء، فكيف لا أبكي على خطيئتي فأوحى الله تعالى إليه: يا ابن آدم ألم أصطفك لنفسي واحللتك داري، وخصصتك بكرامتي وحذرتك سخطي، ألم أحلقك بيدي، ونفخت فيك من روحي وأسجدت لك ملائكتي فقصيت أمري، ونسيت عهدي، وتعرضت لسخطي فوعزتي لو ملأت الأرض مثلك كلهم رجالاً يعبدونني، ويسبحونني، [٥١١] فعصوني / لأنزلتهم منازل العاصين، فبكى عند ذلك آدم ثلاثمائة عام.

فهذه طريقة القوم في مناجاة مولاهم وفي معاتبة أنفسهم وإنما طلبهم بالمناجاة للاسترضى، ومن المعاتبة التنبية والاستدعاء، فمن أهل المعاتبة، والمناجاة لم يكن لنفسه مغاضباً، ويوشك أن يكون الله له يوم القيامة معاتباً، والله أعلم.

فصل

فعليك أُنْذِرُكَ اللهُ بتوبيخ نفسك، وحقارة عملك، وتعظيم نعمة الله عليك، فإذا فعلت ذلك، وقع فعملك من الله تعالى موقع الرضى والقبول، وصارت له قيمة لا نهاية لشرفها، إذ بسببه تستوجب النعيم والملك العظيم وإلّا صار سعيك مثبوراً، وعملك مردوداً، محقوراً ألا ترى إلى الأجير يعمل طول النهار، والحارس يحرس طول الليل بدرهمين وكذلك أصحاب الصناعات والحرف يعمل الواحد منهم الليل والنهار فيكون قيمة عمله دراهم معدودة، فإن صرت الفعل إلى الله تعالى فصمت له يوماً قال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِالصَّابِرِينَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١). وقال: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على

قلب بشر»^(١). فهذا يومك الذي قيمته درهماً مع احتمال التعب العظيم صار له هذه القيمة بتأخير غداء إلى عشاء، ولو قمت ليلة الله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾^(٢). فهذا الذي قيمته دانقان أو درهماً صارت له هذه القيمة العظيمة.

فحق إذاً على العبد أن يرى حقارة عمله من حيث هو، وأن لا يرى إلا منة الله عليه فيما شرف من عمله وأعظم من جزائه، وأن يحذر على فعله من أن يقع على وجه لا يصلح لله ولا يرضاه فتذهب عنه القيمة ويعود إلى ما كان عليه في الأصل من الثمن الحقير من دراهم / أو [٥١٢] دوايق أو أخس من ذلك ومثاله أن عنقود العنب قيمته دانق فإذا أهده أحد إلى الملك فيقع منه موقع الرضى فيهب له عليه ألف دينار وإذا لم يرضه ورده رجع إلى قيمته الأولى فذلك ما نحن عليه فتنبه وأبصر منة الله تعالى وصن فعلك عما يشينه عند الله عز وجل وأيضاً أما تعلم أن الملك في الدنيا إذا أجرى على أحد جراية من طعام أو كسوة أو دراهم أو دنانير معدودة فانية، فإنه يستخدمه ويستعمله بضروب الخدمة الليل والنهار، وربما ظهر له عدو فيحتاج لقتاله فيبذل له روحه التي لا خلف لها لأجله فربك الذي خلقك فسواك ثم أنعم عليك من النعم الظاهرة والباطنة ما لا يبلغ كنهها وهمك، ثم إنك تصلي ركعتين مع ما فيهما من المعائب ومع ما وعد عليهما في المستقبل من حسن الثواب فتستعظم ذلك منك وتعجب به فليس هذا من شأن عاقل إذا نظرت فهذه هذه.

وأيضاً فإن الملك الذي من شأنه أن تخدمه الملوك والكبراء، ويطلب مدحته العلماء والحكماء إذا أذن لسوقي برأفته عليه أن يزاحم على بابه أولئك الكبراء في خدمته، ويجعل له مقاماً من حضرته وكرامته، وينظر إلى خدمته المعوية بعين الرضى اليس يقال: لقد عظمت على هذا الحقير المنة من الملك فإن أخذ هذا الحقير يمن على الملك خدمته ويعجب بها، اليس يقال أن هذا السفهيه جداً أو مجنون لا يعقل شيئاً، وأيضاً فإن إلهنا الذي يسبح له السموات والأرض ومن فيهن من الملائكة الروحانيين والكروبيين وسائر الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين في مراتبهم الشريفة وعبادتهم الجليلة، ثم من العلماء والأئمة الأبرار والزهاد في خدمتهم الخالصة وأذل الخدام / على بابه. [٥١٣]

ملوك الدنيا يخرون له ساجدين فمع هذه العظمة والكمال قد أذن لك في حقارتك وجلاله أن تعبد، وترفع إليه حوائجك، ثم أنه يرضى ركعتيك في عيوبها، وأعد لك عليهما

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٧٦/٤) طبعة دار الحديث: أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة.

(٢) سورة السجدة، الآية: ١٧.

ثوباً لا نهاية له، فتستعظم ذلك منك وتمنه على ربك، فما أسوأك من عبد، وما أجهلك من إنسان، والله المستعان وإليه المشتكى من هذه النفس الجاهلة.

وأيضاً إذا أذن الملك الأعظم بإدخال الهدايا من الجواهر الثمينة والأموال الجلييلة من الأمراء والكبراء، فإن جاء بقال بدستجة بقل أو قروي بسلة عنب تساوي داتقاً فيزاحم الأمراء والأغنياء بهدياهاهم، فإذا قبل الملك من هذا الحقير هديته، وأمر له بخلع نفيسة وكرامة بالغة، ليس ذلك من الملك غاية الكرم والفضل، فإذا أخذ هذا الحقير يمن على الملك بهديته الحقيرة وينسى منته العظيمة ليس ذلك منه غاية الجهل والحمافة.

فلآن إذا صليت ركعات فتفكر كم صلى الله تعالى في تلك الساعة في أقطار الأرض والسموات من الملائكة والصدّيقين والأنبياء والصالحين من عبادة صالحة بقلوب صافية، وركعاتك إذا بذلت المجهود فيها إنما صدرت عن قلب غافل مختلط بأنواع العيوب، وبدن نجس بأقدار الذنوب، ولسان متلطح بأنواع المعصية والفضول، فكيف تصلح أن تحمل إلى تلك الحضرة وتهدي إلى رب العزة؟ وانظر أيها العاقل هل وجهت قط صلاة من صلواتك كما توجه مائدة منك إلى بيوت الأغنياء قال: وكان أبو بكر الوراق يقول: ما فرغت قط من صلاة [٥١٤] إلا استحييت حين فرغت منها أشد حياء من امرأة / فرغت من الزنى، ثم إن الرب سبحانه بمحض كرمه وفضله عظم هذه الركعات ووعدها عليها جزيل الثواب، وأنت عبده وفي جرابته، وعملت ذلك بتوفيقه ثم بعد ذلك تعجب بعملك، وتنسى منة الله عليك، هذا والله أعجب العجب لا يكاد يذهب مثله إلا عن جاهل لا فكر له، فنسأل الله الكفاية بمنه.

فصل

فانتبه من رفدتك أيها الغافل، وإلّا كنت من الخاسرين، فإن هاتين القنطرتين أشد القناطر إليهما تنتهي ثمرة ما مضى من القناطر إذ هما قنطرة العمل وآفاته والشكر وثمراته، وإن سلمت غنمت وربحت وإلّا فقد ضاع السعي كله وبطل العمر، وخاب الأمل.

واعلم أنك كلما صرت أقرب فأمرك أخوف وأصعب، والمعاملة أشد وأدق، والخطر عليك أعظم؛ فإن الشيء كلما كان أبلغ علواً إذا انقلب كان أصعب وقوعاً، كما قيل: ما طار طير فوق، إلا كما طار وقع، فإذا لا سبيل إلى الأمن وإغفال الشكر قال: وكان إبراهيم بن أدهم يقول: كيف تأمن وإبراهيم الخليل يقول: ﴿وَأَجْسُنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾^(١).

ويوسف عليه السلام يقول: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾^(١).

وقال بعضهم: تأملت سفيناأ الثوري فبكى الليل أجمع فقلت: بكاء هذا على الذنوب.
قال: فحمل تبنأ. فقال: الذنوب أهون على الله من هذا إنما أخشى أن يسلبني الإسلام.

قال الغزالي: وسمعت أنا بعض العارفين يقول: إن بعض الأنبياء سأل الله تعالى عن أمر بلعام بن باعوراء وطرده بعد تلك الآيات والكرامات فقال الله له: لم يشكرني يوماً من الأيام على ما أعطيته ولو شكرني على ذلك مرة لما سلبته، فيتقظ أيها الرجل واحفظ / بذكر الشكر [٥١٥] جداً وأحمد الله على منته في الدين أعلاها الإسلام وأدناها مثلاً توفيق تسييح أو عصمة من كلمة لا تعنيك عسى أن يتم نعمته عليك، ولا يتليك بمرارة الزوال، فإن أمر الأمور وأصعبها الإهانة بعد الإكرام، فكلما أغفلت شكره، أو اقترب عاودت، واجتهدت، وتضرعت، وقلت: يا الله يا مولاي كما بدأت بالإحسان بفضلك قبل الاستحقاق فأتممه أيضاً بفضلك من غير استحقاق، وتناديه نداء الأولياء، المستغيثين الذين مدوا إليه الأكمف مبتهلين ونادوا في الخلوات مستصرخين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(٢).

قال الغزالي والله أعلم: تقديره إنا وجدنا منك نعمة فطمعنا في أخرى أنت الجواد الوهاب، فكما وهبت منة الإنعام في الابتداء فهب لنا منة الاتمام في الانتهاء أما تسمع ويحك؟ إن أول دعاء علمه رب العالمين عباده المسلمين هذا الدعاء: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٣): أي ثبتنا عليه وأدمه لنا، هكذا تضرع إليه فإن الخطر عظيم.

وقد قيل: أن الحكماء نظروا وأفردوا مصائب العالم ومحنهم إلى خمس: المرض في الغربية، والفقر في الشيب، والموت في الشباب، والعمى بعد البصر، والنكرة بعد المعرفة، وأحسن من ذلك قول من قال:

لكل شيء إذا فارقته عوض وليس لله إن فارقت من عوض
آخر:

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨.

(٣) سورة الفاتحة، الآية: ٦.

إذا أبقّت الدنيا على المرء دينه فما فاتته منها فليس بضائر

فنسأل الله وتضرع إليه، أن يمن علينا بالعصمة والتوفيق وأن يرزقنا التوبة على التحقيق، وأن يجعلنا من العارفين العلماء بالدين، الثابّين المتجردين للخدمة الشاكرين للنعمة، القاهرين للهوى والشيطان، المتقين حق التقوى بالقلب، والأركان، الخاشعين له المتوكلين عليه [٥١٦] / المفوضين الأمور إليه، الراضين بقضائه، الصابرين على بلائه، الشاكرين لآلائه، إنه أرحم الراحمين والصلاة والتسليم على محمّد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والحمد لله رب العالمين.

الجملة الثانية: في ذكر الموت وأحوال يوم القيامة

اعلم أن من كان الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، والقيامة مواعده، والجنة أو النار مورده، أن لا يكون له فكراً إلاّ في الموت، وفيما بعده وإن كل آت قريب، لأن في التفكر في ذلك ما يهون عليه مصائب الدنيا ويدعوه إلى ترك الرغبة فيها، والفرح بها، والحسد عليها، وتشمل هذه الجملة على جملة فصول.

الفصل الأول في ذكر الموت

قال الله جل جلاله: ﴿كل نفس ذائقة الموت...﴾^(١) الآية.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أكثروا ذكر هادم اللذات»^(٢).

وروي أن سائلاً سأله فقال: يا رسول الله أي المؤمنين أكيس؟ فقال: «أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم له استعداداً أولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة»^(٣).

وروي عنه أنه قال: «لو أن البهائم والطير تعلم من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سمياً»^(٤).

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٤/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وقال: حسن، والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٣) قال الحافظ في المغني (٤٦/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن ماجه مختصراً وابن أبي الدنيا بكماله بإسناد جيد.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٤/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية.

وروي عنه أنه كان إذا رأى غفلة من الناس وقف بباب المسجد فأخذ بعضادتي الباب ثم صاح بأعلى صوته: «يا أيها الناس الموت الموت جاءكم بالوجبة سعادة أو شقاوة جاءكم الموت بما جاء بالروح والراحة والكرة الرابعة جنة عالية لأولياء الله من أهل دار الخلود الذين سعيهم لها ورجبتهم فيها جاءكم الموت بما جاء بالخزي والندامة والكرة الخاسرة في نار حامية لأولياء الشيطان / من أهل دار الغرور الذين سعيهم لها ورجبتهم فيها لأن لكل ساع غاية وغاية [٥١٧] كل ساع الموت فسابق ومسبوق».

وعن عائشة قالت: يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد؟ قال: «نعم من يكثر ذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة»^(١) وإنما هذه الفضيلة لأن ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ويدعو إلى الاستعداد إلى الآخرة.

وعنه عليه السلام قال: «الموت تحفة المؤمن»^(٢). إنما قال هذا لأن الدنيا سجن المؤمن والموت إطلاق له منه، فصار تحفة له في حقه، وقال: «الموت كفارة لكل مسلم»^(٣). أراد المسلم حقاً المؤمن صدقاً، ومر عليه السلام بمجلس قد استغرقهم الضحك فقال: «شوبوا مجلسكم بذكر مكلد اللذات». قالوا: وما هو؟ قال: «الموت»^(٤). وقال أيضاً: «أكثروا من ذكر الموت فإنه يمحق الذنوب ويزهد في الدنيا»^(٥). وقال: «كفى بالموت واعظاً»^(٦).

- (١) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥/٥) طبعة دار الحديث: سبق ذكره.
- (٢) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني والحاكم من حديث عبد الله بن عمر مرسلأ بسند جيد. قال المحقق: «سيد إبراهيم» أخرجه الحاكم (٣١٩/٤) وقال: صحيح الإسناد. وتعبه الذهبي بقوله: ابن زياد هو الأفريقي. ضعيف، والبيهقي في الشعب (٩٨٨٤، ١٠٢٠٨) من طريق ابن زياد أيضاً وأبو نعيم في الحلية (١٨٥/٨). وقال الألباني في ضعيف الجامع (٢٤٠٣) ضعيف.
- (٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ من حديث أنس قال ابن العربي في سراج المريدين: إنه حسن صحيح، وضعفه ابن الجوزي وقد جمعت طرفه في جزء.
- (٤) قال العراقي في المغني (٤٥/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت مرسلأ ورويناه في أمالي الجلال من حديث أنس ولا يصح.
- (٥) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد ضعيف جداً.
- (٦) قال الحافظ العراقي في المغني (٤٥/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد. وقال المحقق قال الألباني ضعيف جداً (٤١٩).

وذكر عنده عليه السلام رجل فأحسنوا في الثناء عليه فقال: «كيف كان ذكر صاحبكم للموت؟» قالوا: وما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت، فقال: «إن صاحبكم ليس هناكم»^(١).

وعن الحسن أنه قال: فضح هذا الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحاً، وقال كعب: من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها.

وشكت امرأة إلى عائشة فسأوة قلبها فقالت: أكثرني ذكر الموت يرق قلبك ففعلت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة رحمة الله عليها.

وقيل: أن عيسى عليه السلام إذا ذكر عنده الموت تقطر جلده دماً، وقيل: أن داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة بكى حتى تنخلع أوصاله.

اعلم أن الناس في ذكر الموت على ثلاثة أصناف أحدهم: المنهمكون في الدنيا فلا [٥١٨] يزيدهم ذكر الموت من الله إلاّ بعداً لأنهم بذكروه / يتأسفون على الدنيا، فهم الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ...﴾^(٢) الآية.

الثاني: التائب المخلص يزيد ذكر الموت خوفاً وخشية وربما يكره الموت خوفاً أن يفاجاه قبل تمام التوبة، والاستعداد للآخرة، الثالث: العارف بالله الذي أحبه فاشتاق إليه فهذا يتمنى الموت ضجراً من الدنيا وشوقاً إلى لقاء حبيبه كما قال حذيفة رحمه الله: لما احتضر مرحباً بزيار جاء على فاقة لا فرح من ندم ففي ذكر الموت ثواب وفضل، وإن كان الإنسان منهمكاً في الدنيا؛ لأنه يستفيد به تنقيص نعيم الدنيا، وتكدير عيشها فكل ما يكدر على الإنسان اللذات فهو من أسباب النجاة والله أعلم.

فائدة: اعلم أن أنفع دواء للقلب بذكر الموت هو التفكير للإنسان في أقرانه الذين مضوا فيذكر مصرعهم تحت التراب وكيف تبددت أجزاءهم في القبور؟ وكيف أرموا نساءهم، وأيتموا أولادهم وتعطلت منهم المجالس والقصور، فمهما ذكر رجلاً منهم أحضر في قلبه صورته وكيفية أحواله وأعماله وتصرفه وأماله ونسيانه الموت وانخداعه بموتات الأسباب، حتى جاء الموت في وقت لم يحتسبه فعند ذلك يتفكر أنه مثلهم، وغفلته كغفلتهم، وستكون عاقبته كعاقبتهم فلما زمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر، وحضور الجنائز، وعيادة المرضى،

(١) قال الحافظ العراقي في المعني (٤٦/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك في الزهد قال: أخبرنا مالك بن مغول فذكره بزيادة فيه.

(٢) سورة الجمعة، الآية: ٨.

يجد ذكر الموت في القلب حتى يصير نصب عينيه، فعند ذلك يوشك أن يستعد له، وبالله التوفيق. وينشد لأبي العتاهية:

[٥١٩]

يا مؤثر الدنيا لذته
قل ما بدا لك أن تنال من
كم قد ثكلنا من أخي ثقة
يا من يزيل الموت مهجته
/ أين الملوك وأين غيرهم
هل أنت معتبر بمن خربت
وبمن أذل الدهر مصرعه
وبمن خلعت منه أسرته
درست محاسن وجهه ونفي
والموت لو صحّ اليقين به
وسيلنا بالموت مشترك
ولعدي:

أين أهل الديار من قوم نوح
بينما هم على الأسرة والأنماط
ثم لم يتقض الحديث ولكن
والأطباء بعدهم لحقوقهم
وصحيح أضحى يعود مريضاً
ولآخر:

قد أن أن يسمعك الصوت
يا بانسي البيت على غرة
وإنما الدنيا على طولها
ولبعض الشعراء:

الموت حق ناعلمي نازل
قد كنت ذا مال فلا والذي
أنائهم قلبك أم ميت
أمامك المنزل والبيت
ثينة مطلعها الموت
فيسري لحدي وأكفان
أعطاني المال وأغناني

(١) الدساكر جمع دسكر: وهو بناء كالقصر حوله بيوت - هكذا جاء بالهامش بالمخطوط ..

ما قرت العين به ساعة
علمي بأنني صائر للبلا
/ وتارك مالي على حاله
[٥٢٠]_ أما ترى والهوى قائدي
لامرأة ابني وزوج ابنتي
وثالث اغبط من ذا وذا
يسعد في مالي وأشقى به
إن أحسنوا كان لهم أجره
ألا تذكرت فأشجانني
وفاقد أهلي وجيرانني
نهباً لشیطان ابن شیطان
أجمع المال لأختاني
يا لك من غي وخسران
ينعم فيه زوجها الثاني
قوم ذووا غل وشنآن
وخف من ذلك ميزاني

فإذا تفكر الإنسان كما قدمنا فيمن مات من أقرانه، وفجع به من إخوانه، وكيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوه، وأن من كان له مستعداً فقد فاز فوزاً عظيماً، وإن من كان مغروراً فقد خسر خسراناً مبيئاً، ولينظر أيضاً في حال نفسه، ويتفكر كيف يكون جسمه طعمة للديدان، وما ينتظر بعد ذلك من أهوال القيامة، ودركات النيران، ودرجات الجنان، فبمثل هذه الأفكار يتجدد ذكر الموت على قلبه.

ولكن الداء العضال الذي أهلك الأولين والآخرين: اتباع الهوى وطول الأمل، فاتباع الهوى يصد عن الحق، وطول الأمل ينسي الآخرة، وسبب ذلك الجهل وحب الدنيا، ولكن من رزقه الله الفكر الصافي بالقلب الحاضر فيما قدمناه من أخبار الموت وما بعده مع قصر الأمل ومخالفة الهوى، فإنه لا بد أن يندفع عنه الجهل، ويستشعر قلبه الخوف والوجل.

وأما حب الدنيا، فإخراجه من القلب شديد ولا علاج له إلا الإيمان بالله واليوم الآخر وما يشتمل عليه من الأحوال، والثواب، والعقاب، فمهما حصل بما ذكرناه اليقين مع عزيمة الصبر على ترك الدنيا، وعلى المجاهدة في الدين تجدد ذكر الموت على القلب لا محالة واشتغل بالاستعداد له على أي حالة والتوفيق.

/ فصل في خروج نفس الميت

[٥٢١]

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ...﴾^(١) الآية. ففي كتاب النقاش قال: يقبض أرواحكم مأخوذ من توفية العدد، أي يقبض أرواحكم أجمعين.

ويقال: أن جبريل عليه السلام قال لملك الموت كيف تستطيع قبض الأنفس عند الوفاء

هاهنا عشرة آلاف وهاهنا كذا وكذا فقال ملك الموت: تزرى إلى الأرض حتى كأنها بين فخذي فأحاول فيها كذا وكذا.

وعن زهير بن محمد أن النبي سئل عن مثل هذا فقال: «إن الله جعل الدنيا لملك الموت كطست بين يدي أحدكم فهل يفوته منها شيء».

وفي كتاب النقاش في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا...﴾^(١) الآية.

قال معناه: يميتها حين يجيء أجلها والتي لم تمت في منامها فهي من بقية أجلها تتقلب فيه حتى يجيء أجلها فيميتها أيضاً كما ماتت التي جاء أجلها قال: والذي يتوفى في المنام نفس التمييز لا نفس الحياة.

قال: لأن نفس الحياة إذا زالت زال معها النفس، والنائم يتنفس، قال: فهذا الفرق بين توفي نفس النائم في النوم وتوفي نفس الحي.

قال: ويقال: أن الإنسان له حياة وروح ونفس، فإذا نام خرج طرف من نفسه التي بها يعقل الأشياء ولها شعاع إلى الجسد كشعاع إلى الأرض فيرى الرؤية بالنفس التي خرجت منه كأنه بأرض أخرى، وتبقى الحياة والروح في الجسد فيه يتقلب ويتنفس فإذا حرك رجعت النفس إليه في أسرع من طرفة العين، فإذا أراد الله أن يميتها في المنام، يمسك النفس الخارجة ويقبض الروح أيضاً ويموت في منامه.

قال: وعن ابن مسعود وابن عباس قالوا: سبب في السماء بين المشرق والمغرب، فأرواح الموتى وأرواح الأحياء إلى ذلك السبب فتعلق نفس الميت بنفس الحي، فإذا أذن لهذه الحية بالانصراف إلى جسدها لتستكمل رزقها إلى فناء أجلها أمسكت النفس الميتة وأرسلت الأخرى / إلى أجل مسمى أي إلى منتهى أجلها، قال: وكان ابن عباس يقول: إنما الإرسال [٥٢٢] من الإمساك.

ومن كتاب عيون المعاني لابن عيسى قال: يقبض عن تصرف الأرواح مع بقائها في الجسد فيمسك المقضي أجله بإزالة حقيقتها، ويرسل الأخرى بإعادة تصرفها، [قال]^(٢) ابن جبير: يقبض أرواح الأموات عند الموت وأرواح الأحياء عند النوم، فيتعارفون ما شاء الله،

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

(٢) ما بين المعرفين ساقط من الأصل وإثباته ليستقيم السياق.

فيملك أرواح الموتى ويرسل أرواح الأحياء قال عليّ: فما رأته نفس النائم في السماء فهي الرؤية الصادقة، وما رأته بعد الإرسال يتلقاها الشيطان فهي الكاذبة، وقال في موضع آخر: (توفته رسلنا) قال: فملك الموت يقبض والأعوان يعالجون والله يزهق الروح.

وقيل: ملك الموت يدعو الروح فتجيبه وأعوانه يزعونها والله تعالى يخلق فيه الموت، وعن قتادة قال: خلق الله الموت ليعز به نفسه ويذل به عباده، وقوله: (وجاءت سكرة الموت بالحق) أي غمرته التي تذهب العقل (بالحق): أي بقاء الله الذي لا بد منه، وعن الكلبي في قوله: خلق الموت، قال: وهو على صورة كبش أملح لا يمر بشيء ولا يجد ريحه شيء إلا مات.

وعن زهير بن محمد قال: ملك الموت على معراج بين السماء والأرض وله رسل من الملائكة، فإذا كانت النفس في نقرة النحر، رأى ملك الموت جالساً على معراجه شخص بصره إليه آخر ما يموت.

وفي كتاب السؤالات قال: يخرج الله الروح فيلقاه الملك، وقيل: أن الروح إذا رأى الملك طار إليه كما يطير الحديد إلى حجر المغنطيس، وعن النبي عليه السلام أنه قال: «الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا اخرجي أيتها النفس المطمئنة كانت في الجسد الطيب اخرجي حميدة وابشري بروح وريحان ورب غير غضبان» قال: «فيقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فتستفتح فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان ابن فلان، فيقال لها: مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب / ادخلي حميدة وابشري بروح وريحان ورب غير غضبان فيقال لها ذلك حتى تنتهي إلى السماء السابعة فإذا كان الرجل السوء قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث اخرجي ذميمة وابشري بحميم وغساق وأمّر من شكله أزواج ويقولون لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقولون فلان فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ارجعي ذميمة فإنه لم يفتح لك فترسل بين السماء والأرض ثم تصير إلى القبر»^(١).

وعن ابن عباس قال: إذا احتضر العبد عمر ملك الموت وتبينه يعني - عروق نياط القلب - قال: فعند ذلك يعاين ملك الموت ويشخص بصره ويذهل عن أهل الدنيا.

(١) أطراف الحديث عند ابن ماجه (٤٢٦٢) والتبريزي في مشكاة المصابيح (١٦٢٧) وتفسير الطبري (١٢٩/٨)، والسيوطي في الدر المنثور (٨٣/٣). وتفسير ابن كثير (٤١٠/٣).

وفي كتاب النقاش في قوله تعالى: ﴿والنازعات غرقا﴾. قال: يعني ملك الموت يتزع روح الكافر حتى إذا بلغ ترقوته غرقها في حلقة فيعذبه في حياته قبل أن يمته ثم ينشطها من حلقة كما ينشط السفود الكثير الشعب من الصوف المبلول فذلك قوله تعالى: ﴿والناشطات نشطا﴾.

وروي عن النبي ﷺ قال: «شدة الموت وكرهته على المؤمن أشد من ثلاث مائة ضربة بالسيف».

وفي الخبر عن ابن مسعود: «أن نفس المؤمن تخرج رشحاً وأن نفس الكافر تخرج من شدقه»^(١).

ويقال في الخبر: أن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام قيل له: كيف وجدت الموت؟ قال: يا رب كشاة تسلخ وهي حية فقيل له: أما أنا قد خففنا عنك.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب الأحبار: حدثنا عن الموت، فقال: إن الموت كغصن شوك أدخل في جوف الرجل فأخذت كل شوكة بمرق فجدبها رجل شديد الجذب جذبة واحدة فقطع منها ما قطع وأبقى منها ما أبقى.

ويروى أن النبي عليه السلام رئي حين حضره الموت وهو يمد يده ويقول: «يا جبريل أين أنت ثم يقبضها ويبسطها» / ويقول: «يا جبريل اشفع لي عند ربك يهون عليّ سكرات [٥٢٤] الموت»^(٢).

وذكر عن عائشة رضي الله عنها أنها سمعت جبريل وهو يقول: لبيك لبيك، وفي خبر آخر: «إن نفس المؤمن تسيل من جسده كما تسيل القطرة من السماء». وهذا فيه ما فيه والله أعلم.

وفي بعض الكتب يعسر خروج النفس كما يعسر خروج الولد من المرأة البكر، وهذا أمر لا يدرك حقيقته ولا يعلمه إلا الله تعالى ثم من ذاق الموت، وأما القياس فإنه يشهد أن كل عضو لا روح فيه فإنه لا يحس الألم فإذا كان فيه الروح يحس الألم، فلما كان الأمر هكذا دل

(١) ذكره الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/٢٧٤) وأطرافه عند الترمذي (٩٨٠) وأبو نعيم في الحلية (٥٩/٥) والهشبي في مجمع الزوائد (٣٢٦/٢) والشجري في الأمالي (٢/٢٩٥، ٢٩٨)، والمتقي الهندي في الكنز (٤٢١٨٧، ٤٢١٨٩).

(٢) لم ألق على هذا في ما لدي من مصادر.

أن الروح الذي تفرقت أجزاؤه في الجسد حتى استغرقه فإذا نزع بالكلية كان ألمه وشدته أعظم ما يكون والله أعلم.

وأما علامة موت السعيد من الشقي فقد روي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «ارقبوا الميت عند ثلاث إذا رشح جبينه ودمعت عيناه وتبسمت شفتاه فذلك من رحمه الله قد نزلت به وإن احتر وجهه وازيد وغط غطيظ المجنون فذلك من عذاب الله نزل به»^(١).

وفي الخبر أن جابر بن زيد رحمه الله لما احتضر دخل عليه الحسن البصري فقال جابر: يا أبا سعيد ما آية خروج نفس المؤمن؟ فقال: برد يجده على كبده ونفس طامعة فقال جابر: اللهم إني أجد برداً على كبدي ونفسي طامعة اللهم حقق رجاءها وآمن محذورها، ثم لم يتكلم بعدها فيما قيل والله أعلم.

وفي بعض آثار أصحابنا أن نفس المؤمن تخرج رشحاً كالعرق، وفي كتاب الغزالي: أن نفس المؤمن تخرج من منخره الأيمن في صورة نحلة خضراء، وأن نفس الكافر تخرج من منخره الأيسر في صورة جرادة، وفي بعض حديثهم عن النبي عليه السلام: «إن المؤمن تنزل عليه الملائكة بيض الوجوه معهم كفن وحنوط من الجنة...»^(٢) في حديث طويل تركه والله أعلم.

الفصل الثاني في ذكر القبر

[٥٢٥] / وينبغي للإنسان أن يذكر القبر وظلمته وضيقته ووحشته؛ فإن في ذلك ما يحزن قلب المؤمن ويكي عينيه، ويروى أن النبي ﷺ كان يستعيذ بالله من عذاب القبر، وروي أنه قال: «مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ورضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه فكذلك المؤمن يجزع من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه».

وقيل له عليه السلام: إن فلاناً مات فقال: «مستريح أو مستراح منه»^(٣). أشار إلى المستريح أنه المؤمن والمستراح منه أيضاً أنه الفاجر.

(١) قال الحافظ العراقي في المعنى (٦٨/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي في نوادر الأصول من حديث سليمان ولا يصح.

(٢) ذكر الحافظ العراقي حديث نحوه في المعنى (١٢٠/٥) وقال: أخرجه ابن أبي الدنيا مع اختلاف واليزار.

(٣) أطراف الحديث عند: الألباني في الصحيحة (١٧١٠) وعبد الرزاق (٦٢٥٤) في المصنف والبخاري في شرح السنة (٢٧٠/٥) والسيوطي (١٦٦/٦) والتبريزي في إتحاف السادة المتقين (٢٣٠/١٠)، (٣٨٤).

وروي عنه أنه عليه السلام لما دفنت ابنته جلس عند القبر فتزيد وجهه ثم سرى عنه فسأله بعض أصحابه عن ذلك فقال: «ذكرت ابنتي وضعفها وعذاب القبر فدعوت الله أن يفرج عنها وأيم الله لقد ضمت ضمة ثم أرخى عنها»^(١).

وروي عن عائشة رضي الله عنها عن صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنما فتنة القبر من أجلي فإذا سئلتني عني فلا تشكوا». قالت فقلت: يا رسول الله فكيف أصنع وأنا امرأة ضعيفة؟ قال: «يبث الله الذين آمنوا... الآية».

وقال بعض العلماء: من أكثر ذكر القبر وجده روضة ومن أغفل ذكره وجده حفرة من حفر النار، وروي عن الربيع بن خيثم أنه قد حفر في داره قبراً وكان إذا وجد في قلبه قساوة اضطجع فيه ما شاء الله ثم يقول «رَبِّ اِرْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ»^(٢)، ثم يرد على نفسه: يا ربيع قد رجعتك فيقوم فيرى ذلك وروي أن النبي عليه السلام قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: «كيف بك يا عمر إذا دخلت قبرك ودخل عليك فتانا القبر منكرو ونكير؟» فقال عمر: وما هما يا رسول الله؟ / قال: «ملكان أسودان أزرقان يطآن شعورهما [٥٢٦] ويحثان الأرض بأنياهما معهما مرزبة من حديد لو اجتمع عليها أهل منى لم يطبقوها وهي أهون عليهما من هذا ورفع شيئاً من الأرض». فقال عمر: فكيف أنا يومئذ يا رسول الله؟ قال: «كهيتك اليوم». قال: إذن كفيهما يا رسول الله^(٣).

وروي عنه أنه قال: «المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له فيه سبعون ذراعاً ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر أتدرون فيما أنزلت ﴿فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةٌ صَنَكَا﴾»^(٤)؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «عذاب الكافر في قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تيناً يلحسونه وينفخون في قبره إلى يوم يبعثون»^(٥).

(١) قال الحافظ العراقي في المعنى (١٢٥/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي الدنيا في الموت من رواية سليمان الأعمش عن أنس ولم يسمع منه.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩٩.

(٣) قال الحافظ العراقي في المعنى (١٢٤/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب القبور مرسلًا ورجاله ثقات، قال البيهقي في الاعتقاد: رواه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسلًا: قلت - أي الحافظ -: ووصله ابن بطه في الإبانة من حديث ابن عباس ورواه البيهقي في الاعتقاد من حديث ابن عمر وقال: غريب بهذا الإسناد تفرد به مفضل، ولأحمد وابن حبان من حديث عبد الله ابن عمر، فقال عمر: أريد إلينا عقولنا؟ فقال: «نعم كهيتكم اليوم» فقال عمر: الحديث.

(٤) سورة طه، الآية: ١٢٤.

(٥) قال الحافظ العراقي في المعنى (١٢٠/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن حبان.

قال الغزالي: فلا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص، فإن أعداد هذه الحيات والعقارب بقدر أعداد الأخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل والحقد، وسائر الصفات فإن لها أصولاً معدودة تشعب منها فروع معدودة، وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات وهي التي تنقلب عقارب وحيات فالقوي منها يلدغ لدغ التنين، والضعيف يلسع لسع العقرب، وأرباب البصائر يدركون بنور البصيرة هذه المهلكات وإنشعاب فروعها وبالله التوفيق.

فصل

اعلم أن للناس في حقيقة الموت ظنوناً كاذبة، فالملحدون ظنوا أن الموت هو العدم، وإن موت الإنسان كجفاف النبات، وأنه لا بعث ولا ثواب ولا عقاب وزعمت اليهود والنصارى والفلاسفة فيما وجدت أن الأجساد لا تبعث أصلاً وأن الأرواح هي التي تبعث وتستلذ وتتألم.

وزعمت المعتزلة والنكاث والحسنية فيما وجدت أن الأموات لا تتنعم ولا تتألم في القبور، وإنما الثواب والعقاب في الآخرة، وذهب أصحاب الحديث والأشعرية أن الروح باقية [٥٢٧] إما / معذبة وإما منعمة، حتى تبعث الأجساد فتدخل فيها، وإنما الموت إنما هو تغيير حالها، وانقطاع تصرفها عن الجسد يخرج الجسد عن طاعتها، والأعضاء عن استعمال الروح إياها؛ لأنها تبطش باليد، وتبصر بالعين، وتسمع بالأذن، وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب وهو عبارة هانئا عن الروح التي تحزن وتفرح، وتلذ وتوجع، وأن هذه كلها تتعطل بموت الجسد إلى أن يعاود الروح إليه واختلفا في كيفية عذاب القبر، فقيل: السؤال المروح دون الجسد وقيل: يكون الروح في الجسد إلى الصدر، وقيل: يكون الروح في الكفن والجسد، وقيل: يمكن أن يعاد إلى الجسد ويمكن أن يؤخر إلى البعث والله تعالى أعلم بما حكم على عباده.

قالوا: ويدل على أن الموت ليس عبادة عن انعدام الروح وإدراكها آيات وأخبار كثيرة قد ذكرنا طرفاً منها، فأما الآيات فمن ذلك قوله تعالى في الشهداء: ﴿يُؤَلِّمُ بِهِمْ بِرِزْقِهِمْ...﴾ الآية، وفسر فيها ابن عباس فقال: تجعل أرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة... الحديث المشهور، وقول النبي عليه السلام: «إنما نسمة المؤمن طائر تعلق في الجنة»^(١).

(١) أطراف الحديث عند: النسائي (١٠٨/٤) وابن ماجه (٤٢٧١) وأحمد (٤٥٥/٣)، (٤٥٦) والساعاتي في منحة العمود (٧٤٠) وابن كثير في التفسير (٢٧/٨) وأبو نعيم في الحلية (١٥٦/٩) والزيدي في إتحاف السادة المتقين (٢٣/٥)، (٣٨٧/١٠)، والبخاري في التاريخ الكبير (٣٠٥/٤) وابن عبد البر في تجريد التمهيد (٤٦٧) والتمهيد (٢٤٨/٥) والمتقي الهندي في الكتر (٤٢٦٩١).

أي تناول وقول الله تعالى في الكفار ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشيا﴾، وقوله: ﴿سنعذبهم مرتين...﴾ الآية.

إن الثاني عذاب القبر وروي أن النبي عليه السلام كَلَّمَ قَتْلَى بَدْرَ فَعِيلٍ: يا رسول الله هم أموات فقال: «والذي نفسي بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلا أنهم لا يقتدرون على رد الجواب»^(١). قالوا: فكل من آمن بالله والوحي والملائكة فكيف لا يجوز هذا في الميت؟ قالوا: فكما أن الملائكة لا تشبه الآدميين والحيوانات، فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من حيات الدنيا وإنما هي من جنس آخر يدرك بحاسة أخرى. قالوا: ولأن المؤلم من الحية السم ونفس السم ليس / هو الألم، وإنما الألم عذابك في الأثر الذي يحصل فيك. [٥٢٨] قالوا: ويمكن أن تكون الصفات المهلكات في الإنسان تنقلب مؤذيات كلدغ الحيات من غير وجود الحيات، كما أن العشيقي إذا مات المعشوق انقلب صفة مؤذية محزنة للعاشق، قالوا: ومثل عذاب القبر والتنعم فيه في حق الميت مثل لدغ الحية في حق النائم وتنعمه بوقاع جاريته في نومه ولا ترى حية حوله ولا جارية، فالعذاب والتنعم حاصلان ولكنه غير مشاهدين في حق اليقظان، وهذا الذي قاله أصحاب الحديث في عذاب القبر ليس في الشرع ما يبطله ولا في العقل ما يحيله.

وقد روي عن جابر بن زيد بثبوت عذاب القبر وأنا أقول به، وقد روي أن النبي ﷺ قال: «لو نجا أحد من عذاب القبر لنجا منه سعد بن معاذ ولقد ضغطه ضغطة اختلفت منها أضلاعه»^(٢).

وقال في ابنته زينب: «إن الله قد خفف عنها ولقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين»^(٣).

وجلس عليه السلام في جنازة رجل فجعل ينظر في القبر ثم قال: «يضغط المؤمن في هذا ضغطة تردى منها حمائله»^(٤).

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١١٣/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه مسلم من حديث عمر بن الخطاب.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١٢٥/٥): أخرجه أحمد بإسناد جيد.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (١٢٦/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن أبي الدنيا من رواية سليمان الأعمش عن أنس ولم يسمع منه.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (١٢٥/٥) طبعة دار الحديث: رواه أحمد بسند ضعيف.

وفي حديث سؤال الملكين مشهور تركته مخافة التطويل. واختلف في مستقر الأرواح بعد الموت فقيل: أرواح المسلمين في عليين، وأرواح الكفار في سجين، وقيل: أرواح المسلمين في بئر الشام وأرواح الكفار في واد برهوت باليمن أو بحضرموت، وفي الحديث: «ما منكم من أحد إلا وهو يعرض على مقعده بالغلظة والعشي»^(١).

وأظن أنني وجدت في بعض الآثار: أن الروح تحوم حول القبر والله أعلم، وينشد:

بينما الفتى في لهوه وهناته متبختراً يختال في لذاته
قد غره الأمل الكذوب فهئه في كل ما يديه من شهواته
/ إذ جاءه ملك النفوس بسكرة تركته ملقى الجسم بين نعاته
فتكرت أسبابه وتخزمت وتكرر المعروف من حالاته
لا يستجيب لمن دعاه ولا يرى شق الجيوب عليه بعد وفاته
ولعبه بن الطيب:

[٥٢٩]

ولقد علمت بأن قصري حفرة غبراء يحملني إليها شرجم^(٢)
وتركت في غبراء يكره وردها تسفى عليّ الريح حين أودع
إن الحوادث يخترمن وإنما عمر الفتى في أهله مستودع
يسعى ويجمع جاهداً مستهتراً وليس بأكل ما يجمع
حتى إذا وقى الحمام لوقته ولكل جنب لا أبا لك مضجع

وروي عن مجاهد أن أول من يكلم ابن آدم حفرة، فتقول: أنا بيت الدود، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الغربية، أنا بيت الظلمة، هذا ما أعددت لك فما أعددت لي؟

وروي عن بعض الحكماء أنه قال: يقول القبر للميت حين يوضع فيه: ويحك يا ابن آدم ألم تعلم أنني بيت الفتنة، وبيت الظلمة، وبيت الوحدة، وبيت الدود؟ ما غرك بي إذ كنت تمر بي فداداً؟ قال: فإن كان مصلحاً أجاب عنه مجيب القبر يقول: رأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟ قال: فيقول القبر: إني إذا أعود عليه خضراء، ويعود جسده نوراً، ويصعد بروحه إلى رب العالمين، وينشد:

(١) أطراف الحديث عند المتقي الهندي في الكثر (٤٧٠٦) وأحمد (١٤٠/١) والزيبر في الاتحاف (٦١/٩).

والسيوطي في الدر المثور (٣٥٩/٦).

(٢) شرح: النعش. كذا بالهامش للمخطوط.

إن كنت تعلم أن الله يا عمر يرى ويسمع ما تأتي وما تذر
وأنت في غفلة من ذاك تركب ما نهاك عنه فأين الخوف والحذر
تجاهر الله إقداماً عليه ومن حثالة الناس تختفي وتستتر
فانظر لنفسك يا مسكين في مهل ما دام ينفعك التفكير والنظر
قف بالمقابر وانظر إن وقفت بها الله درك ماذا تستر الحفر؟
ففيهم لك يا مغرور موعظة وفيهم لك يا مغتر معتبر

الفصل الثالث في أشراف الساعة

- وهذا الفصل يحتوي على مقدمة وستة أقسام - أما المقدمة فنذكر فيها علامات تدل على أشراف الساعة، وذلك نحو ما روي عن النبي عليه السلام في مسائلة جبريل عليه السلام إياه وقد جاءه في صورة أعرابي فقال: متى الساعة؟ فقال النبي عليه السلام: «ما المسؤول عنها أعلم من السائل ولكن سأخبرك بأشراطها: إذا ولدت الأمة ربتها وتناولت رعاة البهم في البنيان»^(١).

وقوله في حديث آخر لسائل سأله عن الساعة: «ما المسؤول عنها أعلم من السائل ولكن أشرافها عشرة: يقرب فيها الأجل ويظرف فيها العاجز ويعجز فيها المنصف وتكون الصلاة مناً والزكاة مغرماً والأمانة مغنماً والاستطالة للفقراء»^(٢).

وقوله: «لا تقوم الساعة حتى يسود كل قوم منافقهم وحتى تلي رقاب الناس الحفاة العراة الجوع وأن يكون سيد القوم لقع بن لقع وتظهر أولاد البغية - يعني أولاد الزاني - ويعظم رب المال وتعلو أصوات الفساق في المساجد ويظهر أهل المنكر على أهل الحق»^(٣).

وقوله: «لا تقوم الساعة حتى تقتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله وحتى يقبض

(١) أطراف الحديث عند البخاري (٢٠/١)، (١٤٤/٦) ومسلم في الإيمان (١، ٥، ٧) وأبو داود في السنة (ب) (١٦) والترمذي (٢٦١٠) والنسائي في الإيمان (ب) (٥، ٦) وابن ماجه (٦٣، ٦٤، ٤٠٤٤) والهيتمي في مجمع الزوائد (٤٠/١٠) والسيوطي في الدر المشور (١٧٠/١)، (٢٩٠/٤)، (١٦٩٠/٥)، (٥٠/٦) وابن حجر في الفتح (١١٤/١)، (٥١٣/٨).

(٢) انظر الحديث السابق.

(٣) أطراف الحديث عند الهيتمي في مجمع الزوائد (٣٢٧/٧) وابن حجر في الفتح (٨٤/١٣) وابن عدي في الكامل للضعفاء (٧٦٤/٢).

العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان ويكثر الهرج - وهو القتل - وحتى يفيض المال ويكثر وحتى يهم رب المال من يقبل صدقاته وحتى يعرضه ويقال: لا أرب لي فيه وحتى يمر الرجل بقبور الرجل ويقول: يا ليتني مكانه^(١).

ونحو ما روي عن الراهب الذي كلم نظلة بن معاوية فقال: اقرؤوا عني السلام عمر [٥٣١] وقولوا له: / سدد وقارب فقددنا الأمر فإذا ظهرت في أمة محمد عليه السلام عشر خصال فالهرب الهرب إذا استغنى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، وانتسبوا إلى غير أنسابهم فلم يرحم كبيرهم صغيرهم، ولم يوقر صغيرهم كبيرهم، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتعلم عالمهم العلم لينال به الدراهم والدنانير، «فكان المطر قيظاً والولد غيظاً»^(٢) - يعني قليل - ويشيدون البنين، واتبعوا الهوى، وباعوا الدين بالدنيا واستخفوا بالدماء، وقطعوا الأرحام وباعوا الحكم، وطولوا المنارات، وفضضوا المصاحف، وزخرفوا المساجد، وأظهروا الرشى، وأكلوا الربا، وصار الغنى عزاً وركبت الفروج السروج، في أمثالها مما يطول به الكتاب تركته رغبة في الاختصار.

وعنه عليه السلام قال: «لا تقوم الساعة حتى تكون قبلها عشر خصال: طلوع الشمس من مغربها والدجال وزول عيسى ابن مريم وخروج يأجوج ومأجوج وخروج الدابة وخسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب والدخان ونار تحشر الناس»^(٣). والله أعلم.

القسم الأول في طلوع الشمس من مغربها

وقد زعم بعضهم أنها أول آية خروجاً، والدابة، إحداهما قريبة من الأخرى، وقيل أولها الدجال والله أعلم، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ...﴾^(٤). الآية. قيل: هو طلوع الشمس من مغربها،

- (١) أطراف الحديث عند البخاري (٤/٢٤٣، ٩/٢٢، ٧٤) ومسلم في الفتن (ب ٤ رقم ١٧) وأحمد (٣١٣/٢) والهيثمي (٧/٢٤٤، ٢٤٨) وعبد الرزاق في مصنفه (١٨٦٥٨) والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٤١٠) والبنغوي في شرح السنة (١٠/٢٢٩، ١٥/٣٨) وابن حجر في الفتح (١٢/٣٠٣، ١٣/٨١، ٨٢) والمتقي الهندي (٣١٢٠٣، ٣٨٣٧٣) والبداية والنهاية لابن كثير (٦/٢٤٣).
- (٢) هذا معنى حديث أورده الحافظ العراقي في المغني (٢/٣٠٥) طبعة دار الحديث وقال: رواه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عائشة والطبراني من حديث ابن مسعود وإسنادهما ضعيف.
- (٣) أطراف الحديث عند ابن ماجه (٤٠٤١، ٤٠٥٥) والحاكم في المستدرک (٤/٤٢٨) وابن أبي شيبة (١٥/١٣٠، ١٦٣) والمتقي الهندي في الكنز (٣٨٦٥٠).
- (٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.

وعن النبي عليه السلام قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت فآرأها الناس آمنوا جميعاً حيث لا ينفع نفس إيمانها»^(١).

وعن ابن عمر قال: سمعت النبي عليه السلام يقول: «إن الشمس إذا غربت أتت تحت العرش فسجدت واستأذنت في الرجوع فيؤذن لها / حتى إذا أراد الله أن يطلعها من مغربها [٥٣٢] استأذنت من تحت العرش فلا يرد عليها شيئاً ثم تعود فتستأذن فلا يرد عليها شيئاً فعلمت أنه لو أذن لها لم تدرك المشرق وقالت: يا رب ما أبعد المشرق فمن لي بالناس حتى إذا كان الليل كالطوق استأذنت قيل لها اطلعي من مكانك ثم قرأ: ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها...﴾^(٢) الآية». ويقال: أن باب التوبة ينسد عند طلوعها والله أعلم.

القسم الثاني في الدجال

وقد روي أن النبي عليه السلام كان يتعوذ بالله من فتنة الدجال، وعنه أنه قال: «إن الدجال خارج وهو أعور العين اليمنى وأنه يبريء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى ويقول للناس: أنا ربكم فمن قال: أنت ربي فقد فتن ومن قال: ربي الله حتى يموت على ذلك عصم من فتنه»^(٣).

وعن أبي سعيد عنه عليه السلام قال: «إن الدجال محرم عليه أن يدخل أنقاب المدينة فينزل بعض السباخ التي بالمدينة فترجف ثلاث رجفات فيخرج إليه كل كافر ومنافق ويخرج إليه رجل وهو خير الناس أو من خير الناس فيقول: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه فيقول الدجال أرايتم إن قتلت هذا ثم أحبيته هل تشكون في الأمر فيقولون: لا فيقتله ثم يحييه فيقول: والله ما كنت فيك أشد بصيرة مني اليوم فيريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه».

قال بعض العلماء: فبينما الناس في بلد إذ يسمعون الإقامة يريد الصلاة فتغشاهم غمامة فإذا بعيسى ابن مريم قد نزل.

- (١) أطراف الحديث عند البخاري (٧٣/٦، ١٣٢/٨) ومسلم في الإيمان (ب) ٧٢ رقم (٢٤٨) وأبو داود (٤٣١٢) وابن ماجه (٤٠٦٨).
- (٢) أورد الطبراني في جامع البيان في تفسير القرآن المجلد الخامس ج ٨ ص ٧٣ طبعة دار المعرفة: قال: من طريق أبي ذر.
- (٣) أطراف الحديث عند الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٣٦/٧) وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق (١٩٦/١)، والسيوطي في الدر المنثور (٢/٢٤٢)، وأحمد (١٣/٥) والطبري (٢٦٧/٧).

القسم الثالث في نزول عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام

[٥٣٣] وعن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «الأنبياء أخوة لعلات / أمهاتهم شتى ودينهم واحد وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه ليس نبي بيني وبينه وإنه نازل لا محالة فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع الخلقة بين مصرتين الحمرة والبياض سبط الرأس كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويقاتل الناس على الإسلام فيهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام حتى تقع الأمانة في الأرض فيرتعي الأسد مع الإبل والنمر مع البقر، والذئب مع الغنم ويلعب الغلمان بالحيات فلا يضر بعضهم بعضاً».

وفي حديث آخر: «يضع الجزية وتضع الحرب أوزارها فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»^(١).

وفي كتاب النقاش^(٢) في قوله تعالى: «وإنه لعلم الساعة». يقول: نزول عيسى من السماء السابعة علامة، يقال: ينزل على ثنية أفيق وهو جبل بيت المقدس.

وعن ابن عمر قال: ينزل عيسى فإذا رآه الدجال ذاب كما تذوب الشحمة فيقتله فتفترق عنه اليهود فيقتلون حتى أن الحجر ليقول: يا عبد الله المسلم هذا يهودي تعال فاقتله. والأخبار في هذا كثيرة تركتها مخافة التطويل.

القسم الرابع في خروج ياجوج وماجوج

قال الله تعالى: «حتى إذا فتحت ياجوج وماجوج...» الآية. فتحت: أرسلت، قيل: هما أخوان شقيقان من ذرية يافث بن نوح عليه السلام، قال الكلبي: لا يموت الرجل من ذرية يافث حتى يولد له ألف رجل من صلبه.

وعن كعب قال: ياجوج وماجوج ثلاثة أصناف؛ فصنف أمثال النخل الطوال نساءهم منهم، وصنف أربعة أذرع طولاً وأربع عرضاً، وصنف يفترشون آذانهم ويلتحفون الأخرى لهم خراطيم كخراطيم الكلاب، فإذا بلغ أجلهم انكسر السد الذي بناه ذو القرنين وقيل هما مائة ألف أمة / لا تشبه أمة أخرى. [٥٣٤]

(١) طرف الحديث عند الحميدي في مسنده.

(٢) هو محمد بن علي بن عمرو بن مهدي الأصبهاني الخليلي النقاش الحنبلي أبو سعيد محدث فقيه عارف بالرجال من مؤلفاته طبقات الصوفية. توفي عن ٨٢ عاماً تقريباً.

وعن قتادة هما اثنتان وعشرون قبيلة، فسد ذو القرنين على إحدى وعشرين قبيلة، وكانت قبيلة منها غازية وهم الأتراك.

وعن الأوزاعي قال: هما أمتان كل أمة منها أربع مائة ألف، وعن ابن عمر قال: خلقهم ثلاث أمم لا يحصيهم إلا الله تعالى وتاريس ومنسك ويقال: يحفر يأجوج ومأجوج السد في كل يوم، فإذا أمسوا قالوا: نجىء غداً نفتحه ولا يقولون إن شاء الله، فيجيئون من الغد وقد أعاده الله كما كان، فإذا أراد الله فتحه قالوا: نجىء إن شاء الله غداً نفتحه فيجيئون فيفتحون ويخرجون، فيتحصن الناس منهم حتى يأتوا على دجلة والفرات فيشربون ما فيهما، فيجيء آخرهم فيقولون: أقد كان هاهنا ماء مرة، فيسلط الله عليهم النغف فيقتلهم.

وفي حديث كعب قال: «يفر الناس منهم في البرية والجبال فيقولون قد قهرنا أهل الأرض فهلما إلى السماء فيرمون بنشابهم إليها فترجع تقطر دماً فيقولون قد فرعنا من أهل الأرض وأهل السماء فيبعث عليهم أضعف خلقه وهو النغف دودة تأخذهم في رقابهم فتقتلهم حتى تتن الأرض من جيفهم فيرسل الله إليهم الطير فتلقى جيفهم في البحر، ثم يرسل الله السماء فتظهر الأرض، ثم تخرج الأرض زهرتها وبركتها فترجع الناس حتى أن الرمانة لتشيع أهل البيت فيبعث المسلمون جيشاً فلا يصلون إليهم ولا يرجعون إلى أصحابهم حتى يبعث الله إليهم ريحاً طيبة يمانية من تحت العرش فتكفت روح كل مؤمن ثم لا أجد مثل الساعة إلا كرجل انتج مهراً فهو يتنظر متى يركبه فمن تكلف من أمر الساعة ما وراء هذا فهو متكلف».

وفي خبر آخر: «أن عيسى عليه السلام إذا قتل الدجال أوحى الله إليه أني قد أخرجت / عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحز عبادي في الطور فيبعث الله يأجوج ومأجوج كما قال [٥٣٥] وهم من كل حذب ينسلون...» الحديث كما تقدم.

وذكروا أن النبي ﷺ قال: «ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج»^(١).

القسم الخامس في الدابة

قال الله تعالى: «وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ»، قيل معناه: وجب الغضب عليهم وقال النبي

(١) أطراف الحديث عند البخاري (١٨٢/٢) وأحمد في مسنده (٢٧/٣، ٦٤) والحاكم في المستدرک (٤٥٣/٤) والسيوطي في الدر المنثور (٣٣٨/٤) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٨٨٦٦) والقرطبي في التفسير (٢٩٨/٣) وابن كثير في التفسير (٢٦٦/١، ٣٧١/٥) وأبو نعيم في الحلية (١٦/٩).

عليه السلام: «ذلك حين تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فوجب السخط عليهم». ﴿أخرجنا لهم دابة من الأرض﴾.

من كتاب عيون المعاني قيل: ذات زغب ووبر وريش، لها أربع قوائم، قال ابن الزبير: رأسها كراس ثور، وعيها عين خنزير، وأذنها أذن فيل، وقرنها قرن أيل، وعنقها عنق نعامة، وصدرها صدر أسد، ولونها لون نمر وخاصرتها خاصة فهد، وذنبها ذنب كيش، وقوائمها قوائم البعير، وكل مفصل من مفاصلها اثني عشر ذراعاً تخرج ومعها عصى موسى وخاتم سليمان فتختم وجه المؤمن بخاتم سليمان فيبيض ويكتب سعد سعادة لا يشقى ووجه الكافر بالعصي على عكس المؤمن.

وعن عليّ على صورة إنسان مقاتل ذات جناحين طولها ما بين السماء والأرض يرى رأسها وعنقها من المشرق والمغرب، وتزلزل الأرض ذلك اليوم ست ساعات، فيصبحون وقد جاءهم الدجال، قوله تعالى: ﴿من الأرض﴾، أي من بعض أودية تهامة، وقيل: من مكة، وقيل: من بحر سدوم.

وروي أن ابن عمر ضرب رجله على الأرض بالطائف وقال: من هاهنا تخرج دابة الأرض، وقيل: بين الصفا والمروة، وفي الحديث «تخرج الدابة من أعظم المساجد حرمة على الله بينما عيسى يطوف والمسلمون معه إذا الأرض تضطرب تحتهم تحرك القناديل فينشق الصفا عن دابة الأرض»^(١).

[٥٣٦] / وعن ابن عباس قال: الدابة هو الثعبان الذي كان في البيت بين أبي قيس وبين بنيان البيت فأرسل الله عقاباً فاخطفه فطرحه بأصل حراء حيث خسف بالعماليق، يقال: لها أربع قوائم وزغب وريش ولها جناحان واسمها أفصا، ولا يخرج منها غير رأسها فيبلغ السحاب وكلام الدابة من آيات القيامة وهو الوقت الذي لا تقبل فيه توبة.

قال صاحب كتاب عيون المعاني: الأقرب إلى العقل أن يكون أنسياً فقيهاً مناظراً يناظر أهل البدع والكفر فيجادلهم، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة، وذكروا أن موسى عليه الصلاة والسلام سأل ربه أن يريه الدابة فخرجت ثلاثة أيام ولياليها لا يرى طرفها فرأى منظرأ كريهاً فقال: يا رب ردها فرجعت، وعن ابن عمر قال: لا تقوم الساعة حتى يجتمع

(١) أطراف الحديث عند الهشمي في مجمع الزوائد (٨/٨) والطبراني في تفسيره (١١/٢٠) والسيوطي في الدر المشور (١١٦/٥).

أهل البيت على الإناء الواحد وهم يعرفون مؤمنهم وكافرهم، فذكر الدابة كما تقدم تسمح جبهة المؤمن نكته بيضاء، وجبهة الكافر نكته سوداء، قال حتى أنهم ليتبايعون في أسواقهم فيقولون هذا: كيف تبيع يا مؤمن، ويقول الآخر: كيف تبيع يا كافر والله أعلم.

وفي بعض الكتب: أن الدابة فصيل ناقة صالح عليه السلام وفيها غير ما ذكرنا تركته حباً للاختصار.

القسم السادس في الخسوف وغير ذلك

وعن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «كائن فيكم الخسف والسنخ والقذف». قالوا وهم يشهدون أن لا إله إلا الله؟ قال: «نعم إذا ظهرت فيهم الأربع المغنيات والمعازف والخمور والحريز».

وفي الحديث عنه عليه الصلاة والسلام قال: «ليبتن أقوام من امتي على معازف وشراب فيصبحون ممسوخين قردة» أو قال: «وخنازير».

وعن حذيفة قال: كيف بكم / إذا خرج أحدكم من حجته فمسخ خنزيراً فيرجع يطلب [٥٣٧] أهله فيفرون منه.

وعن أبي بن كعب في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾^(١).

قال: وهي خلال أربع هن واقعة لا محالة فمضت اثنتان بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام بخمس وعشرين سنة فالبسوا شيعاً وذاق بعضهم بأس بعض، واثنتان واقعتان لا محالة الخسف والرجم.

ويقال: لا تقوم الساعة حتى يرفع البيت ويرفع القرآن من القلوب فترجع الناس إلى المصاحف فإذا الورق يبيض فيرجعون إلى أخبار الجاهلية وأغانيتهم فتقوم الساعة ولا تقوم على مؤمن بإجماع من الأمة فيما وجدت والله أعلم.

وأما الدخان فقيل: هو الجذب في زمان النبي عليه الصلاة والسلام وقيل: ينزل من السماء يوم القيامة فيأخذ بأسماع المنافقين ويأخذ المؤمنين منه كالزكام والله أعلم.

فصل في قيام الساعة

قال الله تعالى: ﴿وما أمر الساعة إلا كلمح البصر...﴾ الآية. أي بسرعة البصر، قيل: أن البصر يلمح مسيرة خمس مائة عام إلى السماء، وعن النبي عليه السلام قال: «لتقومن الساعة وقد نشر رجلان ثوبهما بينهما ليتبايعاه فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يلبط حوضه فلا يستقى فيه ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها»^(١).

وعنه عليه السلام قال: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الأذن متى يؤمر فينفخ»^(٢).

وقال: «بعث إليّ حين بعث إلى صاحب الصور»^(٣).

[٥٣٨] وقال: «بعثت أنا والساعة كهاتين / فقرن بين أصبعيه كادت أن تسبقني فسبقتها وقد انفرد الله تعالى يعلم الساعة لا تأتیکم إلا بغتة».

وزعم بعضهم أن الساعة في يوم الجمعة في شهر مارس وأن الشمس إذا غابت ليلة الجمعة فكل دابة مصيغة بإذنها إلى قيام الساعة حتى يصبح إلا الثقلين والله تعالى أعلم.

صفة نفخ الصور

قال الله تعالى: ﴿ونفخ في الصور»^(٤). من قرأ بفتح الواو فجمع صورة ينفخ فيها فتحى بإذن الله وهو مروي عن الحسن وقاتدة وأكثر القول أن الصور قرن دليله ﴿ثم نفخ فيه

(١) أطراف الحديث عند البخاري (١٣٢/٨، ٧٤/٩) والسيوطي في الدر المشور (٢٦٥/٥) وابن الجوزي في زاد السير (٢٩٨/٣) وابن حجر في الفتح (٣٥٢/١١).

(٢) قال الحافظ العراقي في المنعي (١٣٨/٢) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال: حسن ورواه ابن ماجه بلفظ «إن صاحبي القرن بأيديهما أو في أيديهما قرنان يلاحظان متى يؤمران» وفي رواية ابن ماجه من حديث الحجاج بن أرطاة مختلف فيه.

(٣) قال الحافظ العراقي في المنعي (١٣٩/٢) طبعة دار الحديث: لم أجده هكذا بل ورد: أن إسرائيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخاري في التاريخ وأبو الشيخ في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة «إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرائيل فهو واضعه على فيه شاخص يبصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر». قال البخاري: ولم يصح وفي رواية لأبي الشيخ «ما طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قيل أن يرتن إليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان» وإسناده جيد.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٩٩.

أخرى^(١) ولم يقل فيها إلا أن تكون الصور في القرن فإذا نفخ فيه فقد نفخ في الصور وعن مجاهد الصور قرن كقرن الثور وزعموا أن النبي عليه السلام قال: «الصور قرن من نور والذي بعثني بالحق لعظم دارة فيه كعرض السماء والأرض ينفخ فيها ثلاث نفخات: نفخة الفزع ونفخة الصعق ونفخة البعث»^(٢).

وفي رواية عن أبي بن كعب: «نفختان». قال: «فأمر الله تعالى إسرائيل في النفخة الأولى فينفخ فيه فيفزع من في السماوات ومن في الأرض وهو قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَرَعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾»^(٣).

قال ابن عباس: هم الشهداء، وقيل: هم الأنبياء، وقال مقاتل: هم الملائكة، قال: فتزلزل الأرض ﴿وَتَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ إلى قوله: ﴿شَدِيدٌ﴾^(٤). فيصير الولدان شيباً، وتطير الشياطين هاربة، وذلك قوله تعالى: ﴿أَتَقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ...﴾ الآية.

ويقال: نزلت هذه الآية في غزوة بني المصطلق ليلاً فقرأها عليهم النبي عليه السلام فلم ير أكثر باكياً من تلك الليلة وذلك حين قال لهم: «أتدرون أي يوم هو؟» ثم قال: «ذلك يوم يقول الله لأدم عليه السلام ابعث نصيب النار / من ذريتك فيقول: كم يا رب فيقول: من كل [٥٣٩] ألف تسع مائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة فهناك يشيب الصغير ويسكر الكبير... الحديث»^(٥)، فلما نزلوا رأى الناس من بين باك حزين وبين متفكر ساكت فقال لهم: سدودا وقاربوا فإن معكم خليقتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه بأجوج ومأجوج ومن هلك من كفره الجحيم والإنس فوالذي نفسي بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة بل كالشعرة السوداء في الثور الأبيض وإني لأرجو أن تكونوا ربع أهل

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) أطراف الحديث عند أبو داود (٤٧٤٢) والتبريزي في مشكاة المصابيح (٥٥٢٨) وابن الجوزي في زاد المسير (٦٩/٣) والألباني في الصحيحة (١٠٨٠) والمتقي الهندي في كنز العمال (٣٨٩٠٤) والطبري في تفسيره (٦/٣٠، ٦/٣٠).

(٣) سورة النمل، الآية: ٨٧.

(٤) سورة الحج، (الآيتان: ١، ٢).

(٥) قال الحافظ العراقي في نحو هذا الحديث في المعنى (٢٣٣/٤) طبعة دار الحديث أخرجه الترمذي من حديث عمران بن حصين وقال حسن صحيح، قلت - أي الحافظ - هو من رواية الحسن البصري عن عمران ولم يسمع منه وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي سعيد.

الجنة فكبروا وحمدوا الله». وقال: «إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة وإني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة وإن أهل الجنة مائة وعشرون صفاً ثمانون منهما امتي ويدخل الجنة منها سبعون ألفاً بغير حساب». فقام عكاشة فقال: ادع الله أن يجعلني منهم فقال: «أنت منهم». وقال آخر مثل ذلك فقال: «سبقك بها عكاشة وبردت الدعوة».

وقوله: ﴿إِنْ زُلْزِلَتْ السَّاعَةُ سَمِيَّ عَظِيمٍ﴾^(١)، قيل: أشرطها، وقيل: الرجفة عند البعث، وعن أبي قال: النفخة الأولى ويقال: ذلك قبل النفخة الأولى ينادي مناد من السماء يا أيها الناس أتى أمر الله فيسمع صوته جميع أهل الأرض فيفزعون فزعاً شديداً ويموج بعضهم في بعض فيشيب فيه الصغير ويسكر الكبير وتضع الحوامل ما في بطونها وتدع المراضع البنين من الفزع.

وعن أبي بن كعب قال: ست آيات قبل يوم القيامة قال بينما الناس في أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فدكت الأرض واضطربت، ففزعت الجن إلى الإنس والجنس إلى الجن واختلطت الدواب والطيور والوحوش وماجت بعضهم في بعض، ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ / حُشِرَتْ﴾^(٢)، قال: اختلطت، ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾^(٣) قال: أهملها أهلها ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾. قال: الجن تأتكم بالخير فانطلقوا فإذا هي نار تتأجج فيبينما هم كذلك جاءتهم ريح فأهلكتهم.

وعن ابن عمر أن النبي عليه السلام قال: «من أراد أن ينظر إلى القيامة رأى العين فليقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾».

صفة النفخة الثانية

قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ يعني مات من شدة الصوت والفزع ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾^(٤) قال كعب: يعني جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام ثم يموتون بعد، وقيل: الشهداء، وقيل: رضوان ومالك والزبانية والحوار والولدان.

(١) سورة الحج، الآية: ١.

(٢) سورة التكوين، الآية: ٥.

(٣) سورة التكوين، الآية: ٦.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

قال: يقول الله للملائكة المستئين موتوا فيموتون فيقول: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾^(١). فلا يجيبه أحد فيقول: ﴿الله الواحد القهار﴾.

وعن ابن عباس: ينفخ في الصور فيموت من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، وهم الملائكة المتقدمة ثم يموتون ويموت إبليس فيمن يموت. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾^(٢). قيل: في أسواتهم يتبايعون وعن الحسن قال: بين النفختين أربعون والله أعلم عاماً أم شهراً أم يوماً فأما النفخة الأولى فأماتت كل حي، وأما النفخة الآخرة فأحييت كل ميت.

وعن الربيع بن أنس قال: قسم الله الماء الذي كان عرشه عليه قبل أن يخلق السماوات قسمين فجعل نصفه تحت العرش وهو البحر المسجور، ولا يتقص منه قطرة حتى ينفخ في الصور النفخة الأولى فينزل الله منه بين النفختين مثل المنى على الأرض فينبت منه أجسام من هو مبعوث من الجن والإنس وذلك قوله: ﴿كَذَلِكَ يُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ وجعل النصف الآخر تحت الأرض السفلى والله أعلم بغيبه وأحكامه.

صفة النفخة الثالثة

قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي / الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاتِ . . .﴾^(٣) الآية. [٥٤١]

ففي كتاب النقاش قال: هي النفخة الأخيرة، قال: وبين النفختين أربعون سنة، قال: ثم تمطر السماء أربعين يوماً كمضي الرجال ومن غيره، فيكون الماء فوق كل شيء اثني عشر ذراعاً فينبتون به في قبورهم كما ينبتون في بطون أمهاتهم.

وفي حديث النبي عليه السلام: «حتى إذا تكاملت أجسادهم كما كانت ثم يقول الله تعالى: لتحيى حملة العرش فأمر إسرافيل يأخذ الصور فيضعه على فيه ثم يقول: ليحيى جبريل وميكائيل فيحييان بأمر الله تعالى ثم يدعو الله بالأرواح فيؤتى بها فيجعلها في الصور ثم يأمر إسرافيل فينفخ نفخة البعث».

وفي كتاب النقاش أنه يقول: أيتها العظام البالية وأيتها العروق المتقطعة، وأيتها اللحوم المتمزقة، وأيتها الأشعار الساقطة اجتمعوا لأنفخ فيكم أرواحكم ويجازيكم بأعمالكم فيديم

(١) سورة غافر، الآية: ١٦.

(٢) سورة يس، الآية: ٤٩.

(٣) سورة يس، الآية: ٥١.

الملك الصوت، فتجتمع الأرواح كلها في القرن وطوله كطول السماوات والأرضين وعرضه كذلك، ثم تخرج الأرواح مثل النحل سود وبيض وشقي وسعيد، فتهبط أرواح المؤمنين بيضاً كأمثال النحل من السماء العليا إلى واد بدمشق يقال لها: الجابية وهو خير واد في الأرض، وتخرج أرواح الكافرين من الأرض السفلى سود مثل الذر إلى واد بحضرموت يقال له بروهوت، وهو شر واد في الأرض، وكل روح أعرف بجسد صاحبها من أحدكم إلى منزله فيأتون أفواجا ثم ينزل إسرافيل من فوق السماء السابعة فيجلس على صخرة بيت المقدس ويأخذ أرواح المؤمنين والكفار كالذر السود والبيض، فيجعلهم في القرن، ودائرة فم القرن مسيرة خمس مائة عام ما بين السماء والأرض فتطير الأرواح حتى تطيق ما بين السماء والأرض مثل النحل فيذهب [٥٤٢] / كل روح فيقع في جسد صاحبه، فيخرجون من قبورهم فوجاً فوجاً، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادَى الْمُنَادِي﴾، قيل: هو إسرائيل يقول: أيها العظام النخرة - كما تقدم - ثم قال: ﴿مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾^(١).

قال الحسن: وأي شيء أقرب من أنهم بينما هم في بطنها إذ نودوا فإذا هم على ظهرها، وقيل: من مكان قريب عن مقاتل من صخرة بيت المقدس، ويقال: قربت من السماء بشمانية عشر ميلاً، ثم قال: ﴿يَوْمَ تَشْقُقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ فَيُخْرَجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سُرَاعاً﴾ إلى إجابة الداعي، والصوت الذي سمعوا، وقوله: ﴿فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾، أي القبور، ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَسْئَلُونَ﴾، يخرجون سُرَاعاً.

وعن مجاهد قال: إن للكفار هجمة قبل يوم القيامة فإذا صيح بأهل القبور ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾، وقيل: إن الكفار لا يعدبون في القبور بين النفختين، ﴿لَهَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ أي قال لهم: المؤمنون، وقيل: الملائكة الذين يكتبون أعمالهم ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ...﴾^(٢) الآية.

صفة المحشر وأهواله

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ...﴾^(٣) الآية، قيل: تبدل هذه التي عليها بنو آدم أرضاً بيضاء نقية، لم يسفك عليها دم، ولم تعمل عليها معصية، وهي أرض الصراط، ويقال: عمق الصراط مسيرة خمس مائة عام، وتبدل السماء فلا تكون سماء،

(١) سورة ق، الآية: ٤١.

(٢) سورة يس، الآية: ٥٢.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

وخرجوا من قبورهم في أرض مستوية، ليس فيها جبل ولا بناء ولا نبت، ولا يسترون بشيء.

وعن ابن عباس: يزداد فيها وينقص، فتذهب أشجارها، وجبالها، وأوديتها، وما فيها، وتمد مد الأديم العكاظي، أرض بيضاء مثل الفضة، لم يسفك عليها دم، ولم تعمل عليها خطيئة، والسموات تذهب شمسها وقمرها ونجومها، ويقال: إذا اجتمع الخلاق على هذا الصعيد تانثرت من فوقهم نجوم السماء وطمست الشمس والقمر، / وأظلمت الأرض نجوم [٥٤٣] سراجها، فبينما هم كذلك إذ مارت السماء من فوق رؤوسهم، وانشقت السماء مع غلظها خمس مائة عام، والملائكة قيام على حافتها، ثم تسيل كالفضة المذابة، يخالطها صفرة فصارت وردة كالدهان، فصارت كالمهل، فكانت الجبال كالعهن، واشتبك الناس كالفراش، وكانوا حفاة عراة.

ويقال: أول من يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، قال النبي عليه السلام: «يحشر الناس يومئذ - ثلاثة أصناف - مشاة وركباناً وعلى وجوههم، فقال رجل: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم»^(١).

وعنه عليه السلام قال: «يحشر الأنبياء على الدواب، فيوافي المؤمنون من يومهم الحشر».

ويقال: إذا كانت النفخة الآخرة، خرجت الخلائق على وجه الأرض من قبورهم، فأما المؤمنون فيسرعون إلى الداعي، وأما المنافقون والمشركون فيتأقلون، فيبعث الله عليهم ناراً أو دخاناً تسوقهم إلى المحشر، فذلك قوله: ﴿وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾^(٢).

صفة العرق

وعنه النبي ﷺ قال: «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعون ذراعاً فيلجمهم ويبلغ آذانهم»^(٣).

(١) قال الحافظ العراقي في المنعي (١٤١/٥) طبعة دار الحديث: رواه الترمذي وحسنه وفي الصحيحين من حديث أنس: أن رجلاً قال: يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة».

(٢) سورة طه، الآية: ١٠٢.

(٣) قال الحافظ العراقي في المنعي (١٤٢/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه في الصحيحين كما ذكره المصنف - أي الزنلي الذي أخذ مصنف القناطر منه هذا الباب -.

وعنه أنه قال: «تدونا الشمس من الأرض يوم القيامة فتعرق الناس، فمنهم من يبلغ عرقه عقيه، ومنهم من يبلغ نصف ساقيه، ومنهم إلى ركبتيه، ومنهم إلى فخذيه، ومنهم إلى خاصرته، ومنهم إلى فيه - وأشار بيده وألجمه إياه -، ومنهم من يغطيه عرقه - فضرب بيده على رأسه هكذا»^(١).

وذلك أنه قيل: لا يبقى على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين، ويستظل به من [٥٤٤] يشاء الله من عباده المقربين والمخلصين، وعنه عليه السلام / تلى قوله: «يَوْمَ يَقُومُ الْكَافِرُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ»^(٢)، فقال: «كيف بكم إذا اجتمعتم كما تجتمع النبل في الكتانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم؟»^(٣).

ويقول: «طول يوم القيامة على المؤمن مثل ما بين الظهر والعصر».

وعنه عليه السلام أنه قال: «والذي نفسي بيده إنه ليخف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلحها»^(٤).

وعن كعب وقتادة قال: يقوم الناس لرب العالمين ثلاثمائة عام، وقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، قيل: من سنين الدنيا مقدار موفقه حتى يفصل بين الخلاق، ويوم القيامة يوم محدود أبداً لا غاية له، وقيل لوهب: يوم القيامة مقدار خمسين ألف سنة قياماً لا ينطقون، فقال: إن المقدار ما بين السماء والأرض إلى العرش مقدار خمسين ألف سنة؛ ولعل يوم القيامة يكون يوماً من أيام الدنيا على الله أو أقل، يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾.

(١) قال الحافظ العراقي في المعني (١٤٢/٥) طبعة دار الحديث: رواه أحمد وفيه ابن لهيعة.

(٢) سورة المطففين، الآية: ٦.

(٣) قال الحافظ العراقي في المعني (١٤٣/٥) طبعة دار الحديث: قلت - أي الحافظ العراقي - إنما هو عبدالله بن عمر، ورواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبي حاتم راوياً غير ابن ولهم غير عبد الرحمن بن ميسرة الحضرمي أربعة هذا أحدهم مصري والثلاثة الآخرون شاميون.

(٤) قال الحافظ العراقي في المعني (١٤٣/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو يعلى والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد الخدري وفيه ابن لهيعة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبي يعلى من حديث أبي هريرة بإسناد جيد «يهون ذلك على المؤمن كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب» ورواه البيهقي في الشعب إلى أن قال: أظنه رفعه بلفظ: «إن الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة».

وعن إبراهيم قال: يصل إليهم من المكروه في ذلك اليوم مقدار ما يصل في خمسين ألف سنة - والله أعلم - .

صفة الوقوف في المحشر

قال الله تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾^(١)، ففي كتاب النقاش قال: وذلك أن الله يعث الأجساد التي كانت في الدنيا من حيث كانت من بطون السباع، وحواصل الطيور، ومن البحور، وبطون الأرض وظهورها؛ لأن جميع ذلك قد صار تراباً، وأجزاء متبددة، فيجمع ذلك كله حتى يصير جسداً واحداً، فيدخل كل روح في جسده، فيحشرون إلى أرض تسمى الساهرة، فيقوم جميع الثقلين على أرجلهم مستديرين كالصفوف حول الكعبة، وحشر سائر الخلائق كل أمية صفأ، الخيل صفأ، والبقر صفأ، وكذلك / سائرهما، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا [٥٤٥] مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ...﴾^(٢) إلى قوله: ﴿يُحْشَرُونَ﴾، وقال: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ...﴾^(٣)، - ومن غيره - .

قال بعضهم: لا يحشر إلا الثقلين؛ لأن غيرهم لا يجري عليهم التكليف في الدنيا، ولا ثواب لهم، ولا عقاب عليهم في العقبى .

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾^(٤)، قال الحسن أمره وقضاؤه، ﴿وَأَمْلَكُ صَفَاً صَفَاً﴾^(٥)، وذلك أن السماوات تنشق فينزل ملائكة كل سماء وتقوم على حدة .

وعن ابن عباس قال: أهل سماء الدنيا وحدهم أكثر من جميع أهل الأرض جهنم وأنسهم بالضعف، ثم أهل كل سماء أكثر من الذين تحتهم من أهل السماوات وأهل الأرض بالضعف، لا من الجن ولا من الإنس، ثم تقيض أهل السماء السابعة فينتشر أهلها على وجه الأرض، فهم وحدهم أكثر من جميع أهل السماوات وأهل الأرض جهنم وإنسهم وملائكتهم بالضعف، قال: فيبيناهم كذلك إذ جيء بجهنم فيراها الخلق كلهم، يقال: من مسيرة خمس مائة عام، عليها سبعون ألف زمام، على كل زمام سبعون ألف ملك يحبسونها عن الخلائق، وجوههم كالجمر، وأعينهم كالبرق، فإذا تكلم أحد تناثر من فيه النار، بيد كل ملك مرزية، عليها سبعون ألف رأس

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٧ .

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٣٨ .

(٣) سورة مريم، الآية: ٦٨ .

(٤) سورة الفجر، الآية: ٢٢ .

(٥) سورة الفجر، الآية: ٢٢ .

كأمثال الجبال، وهي أخف في يده من الريش، له رؤوس كرؤوس الأفاعي، وأعينهم زرق تريد أن تقلب على الخلائق من غضب الله عز وجل، قال: هذا كله قول الصحابة.

وفي كتاب الغزالي^(١) قال: فيقول الجبار جل جلاله - عند ذلك -: يا جبريل ائت بجهنم فيأتيها، فيقول لها: أجيبي خالقك، فلم يلبث أن طارت وزفرت إلى الخلائق غضباً على من عصى الله، فيسمع الخلائق منها ذلك، وانتفضت خزنتها متوثبين إلى الخلائق غضباً على من خالف أمر الله، فتساقطوا جثياً على ركبهم، وولوا مدبرين، ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَائِيَةً...﴾^(٢) الآية، وسقط بعضهم على بعض على الوجوه منكسين، وينادي الظالمون بالويل والثبور، وينادي الصديقون: نفسي نفسي، فينما هم كذلك إذ زفرت النار ثانية فتساقطوا على وجوههم، ثم زفرت ثالثة فتساقطوا على وجوههم أيضاً، وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفي - فعند ذلك تنهض قلوب الظالمين لدى الحناجر كاظمين، وذهلت عقول السعداء والأشقياء أجمعين.

ويقال إذا اجتمعت الخلائق ببيت المقدس زفرت جهنم فلا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا ظن أنه لو جاء بعمل سبعين نبياً ما نجا - فعند ذلك تاهت عقول المرسلين - فيقال لهم: ماذا أجيتم في التوحيد، قالوا: لا علم لنا - ثم رجعت عقولهم بعد ذلك - فيشهدون على قومهم أنهم قد بلغوا الرسالة عن ربهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ...﴾^(٣) الآية.

صفة الحساب والمسائلة

وفي الخبر عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «ينادي مناد يوم القيامة: سيعلم الجمع لمن الكرم اليوم؟ ليقم الحامدون لله على كل حال، فيقومون ويسرحون إلى الجنة، ثم ينادي الثانية: سيعلم الجمع لمن الكرم اليوم؟ ليقم الذين ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ...﴾^(٤) الآية فيسرحون إلى الجنة، ثم ينادي الثالثة: سيعلم الجمع لمن الكرم اليوم؟ ليقم الذين ﴿لَا

(١) هو الإمام أبو حامد الغزالي حجة الإسلام صاحب الإحياء الذي اعتمد المصنف في قناطر الخيرات على هذا الكتاب بجانب كتاب النقاش وابن عيسى وبعض الكتب الأخرى التي ذكرها المصنف في أماكن منفردة من الكتاب.

(٢) سورة الجاثية، الآية: ٢٨.

(٣) سورة هود، الآية: ١٨.

(٤) سورة السجدة، الآية: ١٦.

تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا يَتَّبِعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ... ﴿١﴾ الآية، قال: فيسرحون إلى الجنة، قال: ثم يخرج عبق من النار - لها لسان فصيح وعينان بصيرتان فتشرق على الخلائق - فتقول: إني وكلت بثلاثة: وكلت بكل جبار عنيد فتلقطهم لقط الطير حب السمسم فتخس بهم في جهنم، ثم تقول: إني وكلت بمن أذى الله ورسوله، فتلقطهم فتخس بهم / في جهنم، ثم تقول: إني [٥٤٧] وكلت بأصحاب التصاوير، فتلقطهم إلى جهنم، فإذا أخذ هؤلاء نشرت الصحف، ووضعت الموازين، ودعي الخلائق للحساب، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ...﴾ الآية. ﴿٢﴾

ويقال: إن أول من يدعى يوم القيامة للحساب إسرافيل، فيقول له الله: هل بلغت عهدي؟ فيقول: نعم يارب قد بلغت جبريل، فيقال له: هل بلغك إسرافيل عهدي؟ فيقول: نعم - فيخلا عن إسرافيل - فيقال لجبريل: وما صنعت بعهدي؟ فيقول: قد بلغته الرسل - فتدعى الرسل فيسألون - ويقولون: نعم قد بلغناه الأمم - فتدعى الأمم فيسألون - فمكذب ومصدق، فيقول الرسل: لنا عليهم شهداء، فيقول تعالى: من؟ - وهو أعلم - فيقولون: أمة محمد - فتدعى الأمة - فيقال لهم: أتشهدون بأن الرسل بلغت الأمم؟ فيقولون: نعم، فيقول الأمم: ياربنا كيف يشهدون علينا ولم يدركونا؟ فيقول الله لهم ذلك، فيقولون: ياربنا أرسلت إلينا رسولا، وأنزلت عليه كتابك، فقصصت علينا أن قد بلغوا، وذلك قوله تعالى: ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ...﴾ الآية، وقوله: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(١)، وقال: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا عذب، قالت: قلت يارسول الله: أليس قال: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾^(٣)؟ قال: إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب إلا عذب»، وقيل: النقش هو الاستقصاء، ثم قال: «أبشروا فإنه ما استقصى كريم قط».

(١) سورة النور، الآية: ٣٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٩٢.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٦) سورة الانشقاق، الآية: ٧.

[٥٤٨]

وفي الحديث: «لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يسئل عن خمس: / عن عمره فيما أفناه؟ وعن شبابه فيما أبلاه؟ وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ وعن ماذا عمل فيما علم؟»

وعن الحسن بن محمد قال: يحاسب الله المسلمين بالمنة والفضل، والكفار بالحجة والعدل، ولبعض الشعراء:

تسريل شوب الحلم واعرض عن الجهل ويادر بتقوى الله ما دمت في المهمل
تذكر غداً يوم الحساب وهوله إذا جمع الله الخلائق للفصل
هنالك لا جور يخاف وإنما يخاف هناك الخائفون من العدل

وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها...﴾ الآية، قال: هي الوالدة تلقى ولدها يوم القيامة، فتقول: يا بني ألم يكن بطني لك وعاء؟ وتدي لك سقاء؟ فيقول: بلى يا أمه، فتقول: يا بني لقد أثقلتني ذنوبي فاحمل عني منها ذنباً واحداً، فيقول: إليك عني يا أمه، إني اليوم عنك مشغول، وينشد لابن عبد ربه:

يا ويلتا من موقف ما به أخوف من أن يعدل الحاكم
أبارز الله بعصيانه وليس لي من دونه راحم
يا رب غفرائك عن مذنب أسرف إلا أنه نادم

وعن ابن مسعود قال: وددت أن حسناتي فضلت سيئاتي مثقال ذرة، ولو أني وقفت بين الجنة والنار، لا أدري إلى أيهما أصير؟ ثم قيل: تمن لتمنيت أن أكون تراباً.

صفة الصحف

وعن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «الكتب يوم القيامة تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة بعث الله ربحاً فتطيرها في الأيمان والشمائل»^(١). وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ...﴾^(٢) الآية.

[٥٤٩]

وعن بعض السلف قال: أول خط في الكتاب «اقرأ كتابك...» / الآية، ويقال: سيقراً يومئذ من لم يكن قارئاً.

(١) الحديث عند العقيلي في الضعفاء (٤/٤٦٦).

(٢) سورة الانشقاق، الآية: ٧.

وقال بعض العلماء: ثلاثة مواطن لا يسأل فيها أحدٌ أحداً إذا تطايرت الكتب حتى يعلم يأخذ كتابه يمينه أم بشماله؟، وإذا وضعت الموازين حتى يعلم أثقل ميزانه أم يخف، وعند الصراط حتى يعلم أيجوز أم لا؟

وفي التفسير قال: إذا كان الرجل في الخير رأساً يدعو إليه دعي باسمه، واسم أبيه، فيخرج له كتاب أبيض بخط أبيض في باطنه الحسنات، وفي ظاهره السيئات، فيبدأ بالسيئات فيقرأها فيشفق ويتغير لونه، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه هذه سيئاتك، وقد غفرت لك فيفرح، ثم يقلب الكتاب فيقرأ حسناته فلا يزداد إلا فرحاً، حتى إذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه هذه حسناتك، وقد وضعت لك، ويوضع تاج على رأسه، ويكسى حلتين، ويحلى منه كل مفصل، ويطول ستين ذراعاً - وهي قامة آدم عليه السلام - فيقال له: انطلق إلى أصحابك فيشرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا، فإذا أدبر قال: ﴿هَآؤُمْ أَفْرُؤُا كِتَابِيَهٗ...﴾^(١) الآية، فيقول لأصحابه: أما تعرفونني؟ فيقولون: غيرتك كرامة الله، من أنت؟ فيقول: أنا فلان ابن فلان، ليبشر كل رجل منكم بمثل هذا، قال: وإذا كان في الشر رأساً يدعو إليه نودي باسمه واسم أبيه، فيقوم إلى حسابه، فيخرج له كتاب أسود بخط أسود في ظاهره الحسنات، وفي باطنه السيئات، فيبدأ بالحسنات فيقرأها فيفرح، ويظن أنه سينجو، فإذا بلغ في آخره وجد فيه هذه حسناتك وقد ردت عليك، فيسود وجهه، ويعلوه الحزن، ويقط من الخير، ثم يقلب كتابه ويقرأ سيئاته فلا يزداد إلا حزناً، ولا يزداد وجهه إلا سواداً، فإذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه هذه سيئاتك / فيعكر، وتزرق عيناه، ويسود وجهه، ويكسى سراويل القطران، فيقال له: انطلق [٥٥٠] إلى أصحابك فأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل ذلك، فإذا أدبر فينطلق وهو يقول: ﴿يَا لَيْتِي لَمْ أُوْتِ كِتَابِيَهٗ...﴾^(٢) الآية، فينادي أصحابه أما تعرفونني؟ فيقولون: ما ندري ولكن قد نرى ما بك من الحزن، من أنت؟ فيقول: أنا فلان ابن فلان، إن لكل إنسان منكم مثل هذا - والله أعلم - .

صفة الحوض

وعن النبي عليه السلام قال: «حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه فلا يظمأ أبداً» .

(١) سورة الحاقة، الآية: ١٩ .

(٢) سورة الحاقة، الآية: ٢٥ .

وفي حديث آخر قال: «ألا إن لكل نبي حوضاً يدعو إليه من عرفه من أمته، وإنهم ليتباهون من هو أكثر وارده، ما بين جنبتني حوضي كما بين صنعاء وأيلة، فيه عدد نجوم السماء، آتية ذهب وفضة، شرابه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، من شرب منه شربة لم يظلم بعدها أبداً»^(١).

وقال: «ما بين منبري وحوضي روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»^(٢).

صفة الميزان

وعند علمائنا رحمهم الله إن الميزان معناه فصل وتمييز للأعمال والنيات، قال الله تعالى: ﴿وَالْوِزْنَ يُؤَمِّدُ الْحَقُّ﴾^(٣)، وقالت: الأشعرية وأشياعها: إن الميزان المذكور في القرآن هو ميزان على الحقيقة له عمود وكفتان، ورووا أن الحسنات يؤتى بها في أحسن صورة فتوضع في كفة، وأن السيئات يؤتى بها في أقيح صورة فتوضع في كفة أخرى، - وهذا عند أصحابنا باطل -؛ لأن الأعمال أعراض ولا يتصور وزن ما ليس صورة - والله تعالى أعلم -.

صفة الصراط

قال الله تعالى: ﴿فَأَقْصِبْ وَّهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ الْجَنِيمِ﴾^(٤)، قالت الأشعرية: إن الصراط أحد من السيف، وأرق من الشعر، له كلاليب وحسكا، وخطاطيف تخطف الناس يميناً وشمالاً، [٥٥١] / وعلى جنبيه ملائكة يقولون: اللهم سلم اللهم سلم.

ولم يقل أصحابنا بهذا إنما الصراط المستقيم عندهم طريق الإسلام، ولا أدري قول الله تعالى: ﴿صِرَاطٍ الْجَنِيمِ﴾^(٥)، أي القناطر السبع المذكورة في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾^(٦)، أم لا؟

(١) قال الحافظ العراقي في المعني (١٦٥/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وقال: غريب، قال: روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي ﷺ مرسلًا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح.
(٢) قال الحافظ العراقي في المعني (٤٠٤/١) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة وعبد الله بن زبير.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٨.

(٤) سورة الصافات، الآية: ٢٣.

(٥) سورة الصافات، الآية: ٢٣.

(٦) سورة الفجر، الآية: ١٤.

وفي كتاب النقاش من فقهاء قوما قال: حدثنا أيفع بن عبيدة وأبو اليمان قال: إن لجهنم سبع قناطر، ثلاثة دون الرب تعالى، والله تعالى على الرابعة الوسطى، والصرراط أحد من السيف، وأرق من الشعر، فيقول الله تعالى حين يبلغون القنطرة الأولى: ﴿وَتَقْوَاهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ﴾^(١) فيحاسبون على الصلاة، فيهلك من هلك، وينجو من نجا، ثم يحاسبون على القنطرة الثانية على الأمانة، ثم يحاسبون على الثالثة وهي أدنى من الرب، فيحاسبون على صلة الرحم فيهلك من هلك، وينجو من نجا، فيمرون بالرب فيؤخذ بالتواصي والأقدام، وهذا منهم تصريح للتحديد تعالى الله أن يحده مكان قاتلهم الله أنى يؤفكون.

ما جاء في القصاص

عن ابن مسعود عن النبي عليه السلام قال: «أول ما يقضى بين الناس في الدماء»^(٢). وعنه أنه قال: «من كانت له عند أخيه مظلمة فليحللها منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن تؤخذ لأخيه من حسناته، فإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئاته فطرح عليه»^(٣).

وعنه عليه السلام قال: «ليحسن أهل الجنة بعد أن يجاوزوا الصراط، ولم يدخلوا الجنة حتى يؤخذ لبعضهم من بعض مظالمهم التي تظالموها في الدنيا، فيدخلون الجنة، وليس في قلب بعضهم على بعض غل»^(٤). - والله أعلم -.

في الشفاعة

وهو حق نطق بها القرآن، وذلك قوله لنبية عليه الصلاة والسلام: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّخْمُودًا﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٦)، في أمثال هذه الآي كثير.

- (١) سورة الصافات، الآية: ٢٤.
- (٢) أطراف الحديث عند البخاري (٣١٩) مسلم في القسامة (٢٨) والنسائي (٨٤/٧) والبيهقي (٢١/٨) والطبري في التفسير (٢٣٤/١٠) والمنذري في الترغيب (٢٩٢/٣) وابن كثير في التفسير (٣٣٢/٢) وأبو نعيم في الحلية (٨٧/٧، ٨٨) وابن حجر في الفتح (٣٩٥/١١، ١٢/١٨٧).
- (٣) قال الحافظ العراقي في المغني (٢٤٠/٣) طبعة دار الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة.
- (٤) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣٧٢/٤) من حديث أبي سعيد وقال: صحيح.
- (٥) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.
- (٦) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

[٥٥٢] والشفاعة عند أصحابنا / إنما هي للمؤمنين دون أهل الكباير لقوله عليه السلام: «لا ينال شفاعتي سلطان ظلوم غشوم للناس ورجل لا يراقب الله في اليتيم».

وقال: «صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي وهما ملعونان على لسان سبعين نبياً القدرية والمرجئة»^(١).

وعند قوما أنها ثلاث شفاعات فيما وجدت في كتبهم: أحدها: شفاعة المحشر، والثانية: للسبق إلى الجنة، والثالثة: لأهل الكباير الموحدين يخرجون بها من النار عندهم وأحاديث الشفاعة مستفيضة في الكتب وصفتها مشهورة تركنا جميع ذلك مخافة التطويل.

وهي عند أصحابنا في الحساب بعد طول مقام على أرجلهم، ويعد أن بشر أصحاب الإيمان وأخذوا كتبهم بأيامهم فشفع لهم، حتى أراحهم الله من الموقف، وهي تشريف لمنازلهم، وترفع للرجاتهم؛ لأن من أوجب له القرآن الخلود في النار لا شفاعة له، واختلف في أصحاب الأعراف قيل: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، وقيل: قوم خرجوا إلى الجهاد بغير إذن آبائهم واستشهدوا، وقيل: قوم فيهم عجب، وقيل: ذراري المشركين، ومعنى الأعراف جبل فيه أشراف متفاوتة كعرف الديك وهو الحجاب الذي قال الله تعالى: «وَيَسِّيئُهُمَا جِبَابٌ»^(٢) وهم أهل الجنة. «أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ»^(٣) والله أعلم.

صفة جهنم - أعادنا الله منها -

قال الله تعالى: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ...»^(٤) الآية.

قيل: هي دركات جهنم بعضها أسفل من بعض، كل باب منها أشد حرأ من الذي فوقه بسبعين جزءاً، بين كل باين مسيرة سبعين سنة، أولها جهنم ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية ثم سقر.

[٥٥٣] وفي كتاب النقاش^(٥) قال: معنى جهنم / الواسعة الجوف قال: وأبواب النار كلها فيها،

(١) أطراف الحديث عند الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٣٥/٥) والألباني في الصحيحة (٤٧١).

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤٦.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٤٣.

(٥) سبق الكلام عنه ونشير هنا إلى أنه أحد العلماء الذين أخذ المصنف منهم أبواب كتابه قناطر الخيرات.

قال: وأما السعير فهي أبدأ تسعر وتزداد حرأ، وأما لظى فإنها تتلاظى عليهم حرأ بعد حر أشد من الأول، وأما سقر فتفسيرها المهينة فيها ألوان من كل ضرب، وتقول العرب: سقرته بلساني أي أهنته، وأما الجحيم فذات الجمر العظام، فالجحيم الجمر، وهو جمر أسود ليس لها نور، وأما الحطمة فلا يدخلها الكفار حتى تحطم كل عظمة في جسده ووجهه من ضيقها، وأما الهاوية فهي سجين وسميت الهاوية؛ لأن صاحبها تهوي به أبدأ لا يبلغ أسفلها.

وعن النبي عليه السلام قال: «ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم». قيل: يا رسول الله إن كانت لكافية قال: «فضلت عليها بتسعة وتسعين جزءاً كلهن مثل حرها»^(١).

وعن أبي هريرة قال: كنا عند رسول الله ﷺ يوماً إذ سمعنا وجبة فقال: «أتدرون ما هذه؟ قلنا: الله ورسوله قال: «هذا حجر أرسل في جهنم منذ سبعين خريفاً فالآن حين يتهي إلى قعرها»^(٢).

وقال أيضاً: «أوقدت النار ألف سنة حتى احمرت فأوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة».

وعنه عليه السلام قال: «اشتكت النار إلى ربها فقالت: يا رب أكل بعضي بعضاً فأذن لي بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير»^(٣).

وعنه عليه السلام قال: «إن أهون أهل النار عذاباً رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه كما يغلي الرجل بالقمقم»^(٤).

وعن ابن مسعود في قوله: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا﴾ قال: نهر في جهنم يسيل من صديد أهل النار.

وعن سعيد بن جبير في قوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾ في القرآن قال: الزقوم إذا [٥٥٤]

(١) أطراف الحديث عند أحمد في المسند (٣١٣/٢) والحاكم في المستدرک (٥٩٣/٤) والزيدي في إتحاف السادة المتقين (٥١٣/١٠) والمثقي الهندي في الكنز (٣٩٤٧٧، ٣٩٤٩٧)، والعلوني في كشف الخفا (٤٥٠/٢) والسيوطي في الدر المشور (٣٦/١).

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١٦٧/٥)، طبعة دار الحديث: رواه مسلم.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (١٦٨/٥) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (١٦٧/٥) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث النعمان بن بشير.

جاج أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم فأكلوا منها فانسلخت وجوههم، حتى لو أن ماراً مرّ عليهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم، فإذا أكلوا منها ألقى عليهم العطش استغاثوا فأغيثوا بماء كالمهل، والمهل الذي قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم أنضح حره الوجوه، ويصهر به ما في بطونهم أراد الأعماء، فيضربون بمقامع من حديد فيسقط كل عضو على حياله فيدعون بالثبور.

وعن أبي هريرة قال: لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا، وقال بعض أهل العلم في قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾^(١) إنها تلتفحهم لفحة واحدة فما أبت لحمًا على عظم إلا ألقته على أعقابهم.

وعن النبي ﷺ قال: «لو أن دلوًا من غساق جهنم ألقى في الدنيا لتتن أهل الأرض فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش»^(٢). وقال تعالى: ﴿لَا يَكُلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ رَقُومٍ﴾^(٣). ثم بينها فقال: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ...﴾ إلى قوله: ﴿لَسَوْبًا مِنْ حِيمٍ﴾^(٤).

وعن النبي عليه السلام قال: «لو أن قنطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لفسد عن الناس معاشهم فكيف من يكون طعامه ذلك»^(٥).

وقال عليه السلام: «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع فيستغيثون فيغاثون بطعام ذا غصة فيذكرون أنهم يجبرون الغصص في الدنيا بالشراب فيستغيثون بالشراب فيدفع لهم الحميم بكلاليب الحديد فإذا أدنت من وجوههم شوت وجوههم». قال: «فيدعون خزنة جهنم ﴿أَنْ أَدْعُوا رَبِّكُمْ يُخَفِّفَ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ فيقولون: ﴿أَوَلَمْ نَكُ تَائِبِينَ رُسُلَكُمْ﴾ [٥٥٥] بِالْبَيِّنَاتِ...﴾^(٦) الآية. / فيقولون: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيجيبهم: ﴿إِنَّكُمْ

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٤.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١٦٨/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وقال: إنما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف.

(٣) سورة الواقعة، الآية: ٥١.

(٤) سورة الصافات، الآيات: ٦٤، ٦٨.

(٥) قال الحافظ العراقي في المغني (١٦٩/٥): أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح وابن ماجه.

(٦) سورة غافر، الآيات: ٤٩، ٥٠.

مَا كُنْتُمْ ﴿^(١)﴾ ﴿^(٢)﴾. فيقولون: «إدع ربكم لا أحد خير من ربكم» فيقولون: «رَبَّنَا عَلَّيْنَا شِفْوَسْنَا...» إلى قوله: «فَأَنَّا ظَالِمُونَ» قال فيجيبهم «أخْشَوْوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ» ﴿^(٣)﴾ فعند ذلك أيسوا من كل خير فأخذوا في الزفير والحسر والحويل».

وقال عليه السلام في قوله تعالى: «يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ...» ﴿^(٤)﴾ الآية. قال: «يتكره فإذا أدنى منه سوى وجهه [ووقعت] ﴿^(٥)﴾ فروة رأسه» ﴿^(٦)﴾.

وقال عليه السلام: «في النار حيات كأمثال أعناق البخت تلسع اللسعة فيجد حمتها أربعين خريفاً» ﴿^(٧)﴾.

وقال: «إن فيها العقارب كالبالغال الموكفة يلسع اللسعة فيجد حمتها أربعين خريفاً».

وقال عليه السلام: «ضرس الكافر في النار مثل جبل أحد وغلظ جسده مسيرة ثلاثة أيام وإن شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه» ﴿^(٨)﴾.

وقال عليه السلام: «إن الكافر ليجر في سجين ﴿^(٩)﴾ يوم القيامة» ﴿^(١٠)﴾.

(١) قال الحافظ العراقي في المعنى (١٦٩/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي من رواية سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء، قال الدارمي: والناس لا يعرفون هذا الحديث، وإنما روي عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال المحقق: وشهر بن حوشب كثير الإرسال والأوهام كما قال الحافظ في التقريب، وذكر الألباني في ضعيف الجامع (٦٤٦١) وقال ضعيف.

(٢) أسقط المؤلف قول الأعمش من السياق وهي [قال الأعمش: أثبت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك لهم ألف عام قال] ولعله من الناسخ.

(٣) سورة المؤمنون، (الآيات: ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨).

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ١٧.

(٥) جاءت في الأصل «ورقت» وأثبت ما في المعنى.

(٦) قال الحافظ العراقي في المعنى (١٧٠/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي وقال: غريب.

(٧) قال الحافظ العراقي في المعنى (١٧٠/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه أحمد من رواية ابن لهيعة عن دراج عن عبد الله بن الحارث بن جزء.

(٨) قال الحافظ العراقي في المعنى (١٧٠/٥) طبعة دار الحديث: رواه مسلم.

(٩) جاء بهامش المخطوط «ليجر لسانه». وكتب فوقها حرف (خ).

(١٠) جاء الحديث بلفظ: «إن الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس» في المعنى ولعله هنا خطأ من الناسخ. وقال الحافظ في المعنى (١٧١/٥) أخرجه الترمذي من رواية أبي المخارق عن ابن عمر وقال: غريب وأبو المخارق لا يعرف.

قال الحسن في قوله تعالى: ﴿كَلِمًا نَصَّحْتْ جُلُودَهُمْ بَدَلْتَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾^(١). قال: تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا فيعودن كما كانوا.

وعن النبي عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِنَّا اعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسَلًا...﴾ الآية قال: «ينشئ الله لأهل النار سحابة سوداء مظلمة يقال لهم: أي شيء تطلبونه فيذكرون بها سحائب الدنيا، فيقولون: يا ربنا الشراب فتمطرهم أغلالاً وسلاسلًا تزيد في سلاسلهم وحميمياً تلتهب عليهم»^(٢).

وفي كتاب النقاش في قوله تعالى: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾.

قال: يقال لهم إذا زفرت جهنم زفرة يخرج عنق من النار فيحيط بأهلها ثم تزفر زفرة أخرى ويخرج عنها آخر / فيحيط بهم ثم تزفر ثالثة فيخرج عنها فيحيط بالآخرين فيصير حولهم سرايق من نار فيخرج دخان جهنم فوقهم فيظن أهل النار أنه ظل وأنه سيمنعهم من النار فيساقون كلهم فيستظلون تحتها فيجدونها أشد حرأ من السرايق فذلك قوله: ﴿أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾^(٣)، لأنها تتقطع ثلاث قطع لا ظليل ولا يغنى من اللهب لهب السرايق الذي أحاط بهم.

وعن الحسن في قوله: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾^(٤). ويقال: ترصد أهلها كما يرصد الأسد الوحش، نزلت في الوليد بن المغيرة ثم ذكر كم يلبثون في النار فلم يوقت لهم، فقال: ﴿لَا يَبِينُ فِيهَا أَحْقَابًا﴾^(٥) أي أزمنة لا يدري كم عددها، والأحقاب جمع حقب، ويقال: الحقب ثمانون سنة كل سنة ثلاث مائة وستون يوماً كل يوم منها كالف سنة، وإنما ذكر الأحقاب لأنها أعظم من الأيام ودل على أنها أحقاب بعد أحقاب لا إلى غاية، وفي قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾^(٦).

وفي كتاب النقاش قال: يقال يعرق في اليوم سبع مرات ثم يعاد إلى عذاب يأكل النار

(١) سورة النساء، الآية: ٥٦.

(٢) أطراف الحديث عند السيوطي في الدر المشور (٣٥٧/٥) وابن عدي في الكامل للضعفاء (٦/٢٣٩٠) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/٤٧٣).

(٣) سورة المرسلات، الآية: ٣٠.

(٤) سورة النبأ، الآية: ٢١.

(٥) سورة النبأ، الآية: ٢٣.

(٦) سورة إبراهيم، الآية: ١٧.

وتأكله، وهو في النار لباسه النار، وعلى رأسه نار، وفي عنقه نار، وفي كل مفصل منه سبعة ألوان من العذاب، لا يرحم ولا يشفع، ولا يموت أبداً، ولا يعيش، ولا معيشة طيبة والله عليه غضبان، والملائكة غضاب، وجهنم غضبي .

ويقال: لما نزلت ﴿فَلَا أُنْفِثُكُمْ الْعُقَبَةَ﴾ بكى النبي عليه السلام يوماً وليلة، قال أبو ذر: نعوذ بالله من غضب الله ومن غضب رسوله هلكتنا، وما هذه العقبة؟ قال: «عقبة كؤود سوداء في جهنم من أسفلها إلى أعلاها مسيرة ألف عام كلما بلغوا إلى أعلاها انزلقوا، وهي جمرة واحدة عليها القياض . / والأفاعي والعقارب تضرب أحدهم الحية بفقارها فيتناثر لحمه على قدميه» . [٥٥٧] قال: فبكى المسلمون فأنزل الله: ﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْعُقَبَةُ﴾ يا محمد لا ينجو منها إلا من اعتق رقة أو أطعم في يوم ذي مسبغة يتيمًا ذا مقربة . . . الآية كلها، وقوله: ﴿أَقْمَنَ يَسْقِي بَوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ يعني شدة العذاب، وهو في النار مغلولة يداه إلى عنقه، وفي عنقه حجر ضخم مثل الجبل العظيم من جبل الكبريت يشتعل النار في الحجر وهو معلق في عنقه فتشتعل في وجهه لا يطبق دفعها عنه من أجل الأغلال التي في يديه وعنقه .

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ أَلْقَلُّوْا لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِئِنِّ﴾^(١) قيل: إذا عابنوا النار شخصت أبصارهم وأخذتهم رعدة من الخوف فشقوا شهقة زالت قلوبهم من أماكنها فتتشبب في حلوقهم فلا هي تخرج ولا هي ترجع أبداً .

وعن الضحاك قال: يحشر الكافر وبصره حديد، ثم يزرق ثم يعمى والقلب يتقلب في جوفه ويريد أن يخرج فلا يستطيع فيشب فيقع في الخمجرة فذلك قوله: ﴿إِذْ أَلْقَلُّوْا لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ .

وعن محمد بن كعب قال: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله تعالى في أربع فإذا كانت الخامسة لم يكلموا بعدها أبداً: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا أَمِنَّا اثْنَتَيْنِ . . .﴾^(٢) الآية . فيجيبهم: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾^(٣) . ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا . . .﴾ فيجيبهم: ﴿فَدْعُوا بِمَا نَسِيتُمْ . . .﴾^(٤) الآية، ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ . . .﴾

(١) سورة غافر، الآية: ١٨ .

(٢) سورة غافر، الآية: ١١ .

(٣) سورة غافر، الآية: ٣٢ .

(٤) سورة السجدة، الآيات: ١٢، ١٣ .

الآية فيجيهم: ﴿أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾^(١). ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مَعْمَلٌ صَالِحاً...﴾ الآية. فيجيهم: ﴿أَوْلَمْ نُعَمِّرْكُمْ...﴾^(٢) الآية. ويقولون: ﴿ربنا أخرجنا منها...﴾ الآية فيجيهم: ﴿أخسئوا فيها ولا تكلمون﴾.

[٥٥٨] ولا يتكلمون / بعدها أبداً وذلك غاية شدة العذاب.

وعن زيد بن أسلم في قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا...﴾ الآية. قال: جزعوا مائة سنة وصبروا مائة سنة فقالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا...﴾^(٣) الآية.

قد ذكرنا طرفاً من أصناف عذاب جهنم على الجملة وتفصيل أنواعها لا نهاية لها، وأعظم الأمور على أهلها من شدة ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوات نعيم الجنة ورضا الله تعالى عنهم، مع علمهم لأنهم باعوا كل ذلك بشهوة خسيصة ودنيا حقيرة في أيام قصيرة، فنسأل الله تعالى وتضرع إليه أن ينجينا من غضبه وعذابه ومن فوات ثوابه، والله أرحم الراحمين.

صفة الجنة وأصناف نعيمها

قال الله تعالى: ﴿وَسَيَقَ الَّذِينَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْبَيْتِ زُمْرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾. إلى قوله: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾^(٤).

وعن علي بن أبي طالب أنه قرأ هذه الآية فقال: إذا وصلوا إلى باب من أبواب الجنة، وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان فيشربون من أحدهما فيذهب ما في بطونهم من أذى وبأس، فيطهرون من الآخرة فتجري عليهم نضرة النعيم، فلا تتغير أشعارهم ولا تشعب رؤوسهم أبداً ثم تستقبلهم الملائكة خزنة الجنة فيقولون لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبُّكُمْ...﴾ الآية. قال: ثم تتلقاهم الولدان فيقولون لأحدهم: أبشر بما أعد الله لك من الكرامة قال: ثم ينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول: قد جاء فلان باسمه الذي كان يدعى به قالت: أنت رأيت؟ قال: أنا رأيتة بأثري فيستخف إحداهن الفرح حتى تقوم على اسكفة بابها، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بيانه / فإذا جنبدل

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٤.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٣٧.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢١.

(٤) سورة الزمر، الآيات: ٧٣، ٧٤.

اللؤلؤ فوقه صرح أخضر وأصفر من كل لون ثم ينظر إلى سقفه فإذا هو مثل البرق فلولا أن الله عز وجل قدر ألا يذهب بصره لذهب، ثم يطأطأ رأسه فإذا أزواجه وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزراييب مبثوثة ثم اتكأ فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْهَبَ عَنَّا الْخَرْنَ...﴾ الآية. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا...﴾ الآية. ثم ينادي مناد: يحيون فلا يموتون أبداً، ويقيمون فلا يظعنون أبداً، ويصحون فلا يمرضون أبداً.

وعن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة غرفاً من أصناف الجواهر كله يرى باطنها من ظاهرها وظاهرها من باطنها وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت». قال جابر: قلت: يا رسول الله لمن هذه الغرف؟ قال: «لمن أفضى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام». قال: قلت يا رسول الله ومن يطبق ذلك؟ قال: «أمتي يطبقون ذلك وسأخبركم عن ذلك فمن لقي أخاه المسلم وسلم عليه، أو ورد عليه السلام فقد أفضى السلام ومن أطعم أهله وعياله حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ومن صام شهر رمضان وثلاثة أيام من كل شهر فقد أدام بالليل والناس نيام يعني اليهود والنصارى والمجوس»^(١).

وسئل عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿وَمَسَاكِينَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾^(٢). قال: «قصر من اللؤلؤ في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتاً من زمرد أخضر في كل بيت سرير على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون / لوناً من الطعام في كل بيت سبعون [٥٦٠] وصيفة ويعطى المؤمن في كل غداة - يعني من القوة - ما يأتي على ذلك أجمع»^(٣).

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١٥/٢) في معنى هذا الحديث: أخرجه الترمذي من حديث علي وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق؛ وقد تكلم فيه من حفظه. قال المحقق للإحياء طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي، وأحمد في المسند (١٥٦/١) وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢/٢٦٦٠) من حديث علي.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

(٣) قال الحافظ العراقي في المغني (١٧٧/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة والآجري في كتاب النصيحة من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال: سألت أبا هريرة وعمران بن حصين في هذه الآية ولا يصح. والحسن بن خليفة لم يعرفه ابن أبي حاتم والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة على قول الجمهور. قلت: إن الحافظ أورد طرف الحديث «قصور من لؤلؤ» والمصنف هنا أورده «قصر من اللؤلؤ».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: جنة عدن قصر في الجنة له عشرة آلاف باب على كل باب خمس وعشرون ألفاً من الحور العين.

وعن النبي ﷺ قال: «إن حائط الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وترابها زعفران وطينها مسك»^(١).

وسئل أيضاً عن تربة الجنة قال: «درمكة بيضاء مسك خالص»^(٢). وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ...﴾ الآية.

ففي كتاب النقاش قال: يهديهم ربهم إلى الفرائض، ويشيهم الجنة بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار يعني من تحت قصورهم نور في نور قصور الدر والياقوت، وأنهار تجري من تحت غرفهم في جنة النعيم، لا يكلفون فيها عملاً أبداً، ولا تصيبهم مشقة أبداً، دعواهم فيها سبحانك اللهم، قال: فهذا علم بين أهل الجنة وبين الخدم، إذا أرادوا الطعام والشراب قالوا: سبحانك اللهم فإذا المائدة وضعت ميلاً في ميل، قوائمها اللؤلؤ ودخل عليهم الخدم من أربعة آلاف معهم صحائف الذهب سبعون ألف صحيفة في كل صحيفة لون من الطعام ليس في صاحبها مثله كلما شبع ألقى عليه ألف باب من الشهوة كلما شبع أتى بشرية تهضم ما قبلها أربعين ويأتون بألوان الثمار وتجيء الطير أمثال: البخت مناقرها وأجنتها لون وظهورها ويطونها لون، تتلألأ نوراً حتى تقف بين يديه في البيت فرسخ في فرسخ وهي غرفة فيها سرر موضونة الوضين مشبكة وسطها بقبضان الباقوت والزمرد الرطب اللين من الحرير، قوائمها [٥٦١] اللؤلؤ، وجناحاه ذهب / وفضة عليه من الفرش مقدار سبعين غرفة في دار الدنيا، لو أن رجلاً وقع من تلك الفرش لم يبلغ قرار الأرض سبعين عاماً، فيأكلون ويشربون، والطيير تصطف بين يديه وتقول له: يا ولي الله رعيت في روضة كذا وكذا، شرت من عين كذا وكذا، وريحي كذا وكذا، فأيتها أعجبت نعتها وقعت على مائدته سبعون ألف لون من الطير ألواناً، ونصف شواء فيأكل منها ما أحب ثم تطير إلى الجنة؛ لأنه ليس في الجنة من يموت.

قال: ﴿وَتَجِيهُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾. يعني من عند الرب قال: وذلك أنه يأتيه ملك يعني من

(١) قال الحافظ العراقي في المعني (١٧٧/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي بلفظ «ملاطها المسك». وقال ليس إسناده بذلك القوي وليس عندي بمتصل ورواه البزار من حديث أبي سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موقوفاً عليه بإسناد صحيح.

(٢) قال الحافظ العراقي في المعني (١٧٧/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد أن صياداً سأل النبي ﷺ عن ذلك فذكره.

عند الرب، فلا يصل إليه حتى يستأذن له حاجبه فيقوم بين يديه فيقول: يا ولي الله ربك يقرأ عليك السلام فإذا فرغوا من الطعام والشراب قالوا: الحمد لله رب العالمين. وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَخِرْ دَعْوَاهُمْ﴾ يعني كلامهم وليس يعني آخر ما يتكلمون به، ولكن آخر ما قبله.

وقوله: ﴿جَنَاتٍ عَدْنٍ﴾ قال الحسن: عدن اسم من أسماء الجنة والجنة كلها عدن وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾. على مقدار يوم من أيام ثلاثة عشرة مرة معهم التحف من الله جنات عدن وعن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها أقرؤوا إن شئتم وظل ممدود»^(١).

قال: وأقبل إليه أعرابي فقال: يا رسول الله وقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها قال: «وما هي؟» قال: السدر فإن لها شوكاً قال: «قال الله تعالى في سدر مخضود يخضد الله شوكة فيجعل مكان كل شوكة ثمر ثم تنقسم الثمرة منها على اثنين وسبعين لونا من طعام ما منها لون / يشبه الآخر»^(٢).

[٥٦٢]

وروي أن سليمان رحمه الله أخذ عوداً صغيراً فقال لجرير بن عبد الله: يا جرير لو طلبت في الجنة عوداً مثل هذا لم تجده، قال: قلت: فأين النخل والشجر؟ قال: أصولها اللؤلؤ والذهب وأعلىها الثمر، وقال تعالى: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَتَنْخُلٌ وَرُمَّانٌ﴾.

وذكر عن الحسن قال: نخل الجنة جزوعها من ذهب وسعفها حلل، ورطبها مثل قلال هجر أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد.

وعن ابن عباس قال: جذوع نخل الجنة ذهب أحمر وكرويهها زبرجد أخضر وشماريخها دز أبيض وسعفها الحلل، ورطبها أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد ليس في شيء منها عجم، طول العنق اثنا عشر ذراعاً منضود من أعلاه إلى أسفله أمثال القلال لا يؤخذ منه شيء إلا أعاده الله كما كان.

وعن النبي ﷺ قال في حديث الإسراء: «ثم أعطيت الكوثر فسلكته حتى انفجر بي في الجنة فإذا الرمانه من رمان الدنيا حبة من رمان الجنة».

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١٧٨/٥) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي هريرة.
 (٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١٧٨/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه ابن المبارك في الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسلاً من غير ذكر لأبي أمامة.

قال الحسن: أحسبه قال: لا يأكله المنافق وقال تعالى: ﴿يَحْلُونَ فِيهَا أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ...﴾ الآية.

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم كضوء النجوم في السماء لا يبصقون فيها ولا يتمخطون ولا يتغطون فيها آتيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يُرى منح ساقها من وراء اللحم لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشيا».

[٥٦٣] / وفي رواية أخرى: «على كل زوجة سبعون حلة»^(١).

وقال عليه السلام في قوله تعالى: ﴿يَحْلُونَ فِيهَا أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ...﴾ الآية. قال: «إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق والمغرب»^(٢).

وقال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ﴾ أي مجوسات ﴿فَهِيَ الْخِيَامُ﴾^(٣) وهي جمع خيمة.

وقال النبي ﷺ: «الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراه الآخرون»^(٤).

وقال ابن عباس: الخيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب.

وقال عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَفُؤُوشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾^(٥) قال: «ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض»^(٦).

وعن ابن مسعود في قوله تعالى: ﴿ومزاجه من تسنيم﴾ قال: يمزج لأصحاب اليمين ويشربها المقربون صرفاً.

(١) قال الحافظ العراقي في المغني (١٧٩/٥): متفق عليه.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١٧٩/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد دون ذكر الآية وقال لا نعرفه إلا من حديث راشد بن سعد.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٧٢.

(٤) قال الحافظ العراقي في المغني (١٧٩/٥) طبعة دار الحديث: متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري.

(٥) سورة الواقعة، الآية: ٣٤.

(٦) قال الحافظ العراقي في المغني (١٧٩/٥) طبعة دار الحديث: أخرجه الترمذي بلفظ: «ارتفاعها كما بين السماء والأرض» وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث راشد بن سعد.

وقال أبو الدرداء في قوله تعالى: ﴿خَتَمَهُ مَسْكِ﴾، قال: هو شراب أبيض مثل الفضة يختم به آخر شرايبهم، لو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها.

وعن الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أهل الجنة لا يدخلونها كلهم رجالهم ونسأؤهم إلا في ثلاثة وثلاثين سنة على طول آدم ستين ذراعاً، لا يبولون، ولا يتمخطون، والنساء عرباً أتراباً لا يحضن، ولا يلدن، ولا ينفضن، ولا يقضين حاجة - يعني ليس فيهن قدر»، وقال: «لو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت على الأرض لأضاعت وملأت ما بينها ريحاً، ولنصفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها - يعني خماتها -».

وقال في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾^(١)، قال: «تنظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرأة، وإن أدنى لؤلؤة عليها لتضيء ما بين / المشرق والمغرب، ويكون [٥٦٤] عليها سبعون ثوباً ينفضها البصر حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك».

وقال عبد الله بن عمر: إن أدنى أهل الجنة منزلة من كان عنده ألف خادم على عمل ليس عليه صاحبه، وقال عليه السلام: «إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمس مائة حوراء، وأربعة آلاف بكر، وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهن قدر عمره في الدنيا»^(٢).

وروي عن الحسن البصري جملة في وصف الجنة فقال: إن رمانها مثل الدلاء، وأنهارها مثل اللبن لم يتغير طعمه، وأنهار من غسل مصفى لم تصفه الرجال، وأنهار من خمر لذة للشاربين، لا تسفه الأحلام، ولا تصدع منه الرؤوس، وإن فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ملوك ناعمون أبناء ثلاث وثلاثين سنة في سن واحد، وطول أحدهم ستون ذراعاً في السماء، كحل جرد مرد قد أمنوا العذاب، واطمأنت بهم النار، وإن أنهارها لتجري على رضراض من ياقوت وزبرجد، وإن عروقها ونخلها وكرمها اللؤلؤ، وثمارها لا يعلم علمها إلا الله، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمس مائة عام، وإن لهم فيها لخيلاً هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يتزاورون فيها، وأزواجهم الحور العين كأنهم بيض مكنون وإن المرأة لتأخذ بين أصبعيها سبعين حلة تلبسها، فيرى مخ ساقها من وراء تلك

(١) سورة الرحمن، الآية: ٥٨.

(٢) قال الحافظ العراقي في المغني (١٨٢/٥) طيبة دار الحديث: أخرجه أبو الشيخ في طبقات المحدثين وفي كتاب العظمة من حديث ابن أبي أوفى إلا أنه قال: «مائة حوراء». ولم يذكر فيه عنقه لهن وإسناده ضعيف.

السبعين حلة، قد طهر الله الأخلاق من السوء، والأجساد من الموت، لا يتمخضون فيها، ولا يبولون، ولا يتغوطون وإنما هو جشأه ورشح مسك، لهم ززقهم فيها بكرة وعشيا، أما أنه ليس للدليل بكر فيه الغدو على الرواح، والرواح على الغدو، وأن آخر من يدخل الجنة أدناهم منزلة، [٥٦٥] من يمد له في بصره / مسيرة مائة عام في قصور الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ، ويفسح له في بصره حتى ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه، يغذى عليه بسبعين ألف صحيفة من ذهب، ويراح عليه بمثلها، في كل صحيفة لون ليس في الأخرى، يجد طعم آخره كما يجد طعم أوله، وإن في الجنة لياقوتة فيها سبعون ألف دار، في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب.

وعن مجاهد قال: إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير في ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه.

وقال سعيد بن المسيب: ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة إسورة سوار من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ.

وعن أبي هريرة قال: إن في الجنة حوراء يقال لها العيناء إذا مشت مشى عن يمينها يسارها سبعون ألف وصيفة، وهي تقول: أين الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر؟ وقال عليه السلام لأصحابه: «ألا هل مشمر إلى الجنة؟ إن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وفاكهة كثيرة، وزوجة حسناء جميلة في كثرة ونعمة، وفي مقام أبدأ، ونظرة في دار عالية بهية سليمة، قالوا: نحن المشمرون لها يارسول الله، قال: قولوا إن شاء الله - ثم ذكر الجهاد وحرص عليه^(١)، - وبالله العون والتوفيق -.

قد ذكرنا من صفة الجنة ما بينه العاقل على الشوق إليها، والتشمر لها، ولا مطمع في تفصيل أصناف نعيم الجنة، إذ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، والله تعالى أعلم وأحكم، وبه الحول والتوفيق، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلي اللهم بجلالك على سيدنا ومولانا محمد النبي الكريم الرؤوف الرحيم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، والحمد لله بجميع محامده

(١) أطراف الحديث: الهيثمي في موارد الظمان (٢٦٢٠) والسيوطي في جمع الجوامع (٩٠٨٥). والسيوطي في الدر المنثور (٣٦١/١، ١٨٧/٢، ١١٧/٤)، وابن كثير (٤/١١٧، ٦/٥٦٩، ٨/٤٠٨). والزيدي في إتحاف السادة المتقين (١٠/٥٤٨) والمتقي الهندي في الكنز (١٢٣٦) والأسماء والصفات للبيهقي (١٧٠).

- ما علمت منها وما لم أعلم - وأنا أستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم، وطمخى به القلم في كتابنا هذا وغيره من كتبنا.

وإنما ألفناه من كتب شتى، وأكثره من كتب قومنا امثالاً لقوله عليه الصلاة والسلام: «إقبل الحق ممن جاءك به / حبيباً كان أو بغيضاً، ورد الباطل على من جاءك به حبيباً كان أو بغيضاً»^(١).

فاستخرجت العلم النافع من كل كتاب ولم أهتبل بمؤلفه على خطأ كان أو صواب، ونقلت الحق المفهوم من بين الشوك والسموم، إذ حجة الله على الإنسان فهم الحق وعلمه من أي لغة سمعها ولسان - وبالله التوفيق - وأنا أستغفر الله من جميع أقوالي التي خالفت أفعالي، وأستغفره من كل نعمة أنعم بها عليّ فتقويت بها على معصيته، وأستغفره من كل وعد وعدته من نفسي ثم لم أوف به، وأستغفره من كل علم وعمل أردت به وجهه فخالطه ما ليس له، وأستغفره من كل خطوة وخطرة ونظرة وحركة خالفت ما ليس لله فيه رضا، أو دعانا إلى تصنع ورياء من كتاب ألفناه، أو كلام أو علم، أو أمر أو نهى أظهرناه ونحن نرجو بعده التوبة والاستغفار أن تشملنا رحمة الله ومغفرته فيما صنفناه وقلنا؛ لأن رحمته واسعة، وكرمه عميم، وجوده على أصناف الخلق فائض - وبالله التوفيق والهداية -.

قد تم طبع الجزء الثالث من كتاب قناطر الخيرات

بالمطبعة البارونية الكائنة بطيلون بمصر المحمية على ذمة ملتزمه

حضرة الأستاذ الشيخ محمد الباروني وشركاه كان الله في عونهم بجاء خير أنبياءه

وقد وافق انتهاءه في جمادى الثانية سنة ١٣٠٧ .

(١) ذكره المتقي الهندي في كتر العمال (٤٣١٥٢) من طريق ابن عباس وعزاه إلى الديلمى بزيادة في آخره «وارد الباطل على من جاء به من صغير أو كبير وإن كان حبيباً».

فهرس الموضوعات

القنطرة الحادية عشرة

قنطرة النفس

- ٧ فصل في ذم النفس وإلجامها بلجام التقوى
- ٨ فصل في التقوى
- ١١ فصل في كيفية إلجام النفس
- ١٢ فصل في المقدمة وذكر الهوى
- ١٦ الباب الأول: في ذكر القلب
- ٢٠ الفصل الأولي: في الأمل وما يتعلق به
- ٢٤ فصل في الأمل وهو أحد قواعد الدنيا
- ٢٨ الفصل الثاني: في الحرص وبيان الستة خصال التي هي أصل البلاء والشر
- ٣٠ بيان القناعة وهي ثلاثة أوجه
- ٣٢ بيان الدواء الذي يكسب القناعة وهو خمسة
- ٣٦ الفصل الثالث: في ذم الغضب
- ٣٩ بيان حقيقة الغضب
- ٤٤ فصل فيما يهيج الغضب
- ٤٤ فصل في علاج الغضب
- ٤٧ فصل في فضيلة كظم الغيظ
- ٤٩ فصل في فضيلة الحلم
- ٥٦ فصل في آثار واردة في الحلم
- ٥٩ فصل في بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي من الكلام
- ٦٠ الفصل الرابع: في الحقد ونتائجه من الحسد وغيره
- ٦٢ باب في فضل العفو

٦٧	فصل في الحسد
٧١	حكاية في الحسد
٧٣	فصل في حقيقة الحسد
٧٦	فصل في بيان المنافسة وأسباب الحسد
٨١	فصل فيما ينفي به مرض الحسد عن القلب
٨٤	الفصل الخامس: في ذم البخل
٩٢	فصل في أخبار البخلاء
١٠٠	فصل في علاج البخل
١٠٢	فصل في حكاية ذي القرنين
١٠٥	فصل في فضل السخاء
١٠٩	ذكر حكايات الأسخياء
١١٧	فصل في اختلاف الناس في حد البخل والسخاء
١٢٠	فصل في بيان النوال الذي يقع ابتداء يكون لأسباب
١٣٠	صل في بيان الإيثار وفضله
١٣٣	الفصل السادس: في الاستعجال
١٣٦	فصل في فضيلة الرفق
١٣٨	فصل في حسن الخلق
١٤٠	الباب الثاني: في اللسان
١٤٣	الفصل الأول: في الكذب وما يتعلق به
١٤٥	الفصل الثاني: في خلف الوعد
١٤٧	الفصل الثالث: في الغيبة
١٥٠	الفصل الرابع: في التهمة والسعاية
١٥٣	الفصل الخامس: جامع لجملة من منكرات اللسان
١٥٦	الفصل السادس: في فضول حفظ اللسان
١٥٦	فصل في كتمان السر
١٥٩	فصل في المشورة
١٦٢	فصل في النصيحة
١٦٥	الفصل السابع: في حفظ اللسان على المدح والتمدح

- ١٦٧ الفصل الثامن: في حفظ اللسان من الاسترسال في المزاح والضحك
- ١٧١ فصل في الضحك والفرح
- ١٧٣ الفصل التاسع: في كف اللسان عن الشماتة وعمما لا يعنيه
- ١٧٤ الفصل العاشر: في الصمت وفضيلة الكلام
- ١٧٧ فصل في فضيلة الكلام
- ١٨٤ الباب الثالث: في تنزيه السمع
- ١٨٦ الباب الرابع: في غض البصر
- ١٩٤ فصل في ضبط الفرج عن الحرام
- ١٩٦ فصل في بيان دواعي الزنا وهي شيطان
- ٢٠٠ فصل في حكايات الأعفاء من الرجال والنساء
- ٢٠٤ الباب الخامس: في حفظ البطن وإصلاحه وفيه ثلاثة فصول
- ٢٠٤ الفصل الأول: في مذمة الحرام
- ٢٠٦ الفصل الثاني: في فضيلة الحلال
- ٢٠٨ فصل في الشبهة وما يتعلق بها
- ٢٠٩ الفصل الثالث: في حد الحرام والشبهة والتناول من الحلال
- ٢١٠ مسألة في جوايز السلاطين في هذا الزمان
- ٢١٢ مسألة في صلاة أهل الأسواق وغيرهم ممن ليس له نظر في المعاملات
- ٢١٣ الفصل الرابع: في الأخذ من الحلال وفيه ثلاث أقسام
- ٢١٤ فصل في آفات فضول الحلال وهي عشرة آفات
- ٢١٧ فصل في بيان شرط المباح حتى يصير خيرا وحسنة
- ٢١٨ فصل في بيان الداعي إلى الأكل والشراب وهو شيطان
- ٢١٩ فصل في مراعات الأعطاء الخمسة

القنطرة الثانية عشرة

قنطرة العوارض

- ٢٢٤ الباب الأول: في الرزق وما يتعلق به
- ٢٢٨ فصل في بيان أقسام الرزق وهي أربعة
- ٢٢٩ فصل في محل التوكل ومعناه
- ٢٣١ مسألة في معنى التوكل

- ٢٣٥ الباب الثاني : باب الأخطار التي تخطر على القلب
- ٢٣٦ فصل في تفويض الأمور لله تعالى
- ٢٣٨ فصل في بيان موضع التفويض ومعناه وحده وضده
- ٢٣٩ الباب الثالث : باب المصائب والصبر
- ٢٤٢ فصل في بيان أقسام الصبر وهي ستة
- ٢٥٥ فصل في دواء الصبر على البلايا
- ٢٥٨ ذكر حكايات متعددة
- ٢٧٢ فصل في بيان شروط الصبر التي تراعى
- ٢٧٣ الباب الرابع : في القضاء والقدر وورود أنواعهما
- ٢٧٥ فصل في بيان الأمور المفروغ منها خير وشر وشقاوة وسعادة
- ٢٧٦ فصل في الجمع بين القضاء والقدر وبين الطلب والحذر
- ٢٨١ فصل في الرقا والتمايم والطب والكفي
- ٣٨٧ بيان الأشياء التي تفسد العقل
- ٢٨٨ فصل في بيان ما ورد من النهي عن التصديق بالنجوم والكهانة
- ٢٩٠ فصل في الفأل والطيرة
- ٢٩٥ فصل في الرضا بقضاء الله والتسليم لأمره

القنطرة الثالثة عشرة

قنطرة الخوف والرجاء

- ٢٩٨ الباب الأول : في الخوف
- ٣٠١ فصل في بيان العبادة التي لا تصح لطلبها إلا بشروط
- ٣٠٧ الباب الثاني : في الرجاء
- ٣١٠ فصل اعلم أن الأمر كله يرجع إلى أصل واحد وهو خاتمة العمل
- ٣١٢ فصل واعلم أن الرجاء الحقيقي لا ينفك عن الخوف
- ٣١٣ فصل فإن قيل أليس قد جاءت الأخبار الكثيرة في حسن الظن
- ٣١٥ فصل ومن تمكن الخوف يكون الحزن
- ٣١٨ فصل في بيان الحزن إذا كثر في القلب واشتد
- ٣٢١ فصل وجملة الأمر أنك إذا ذكرت سعة رحمة الله التي سبقت غضبه

القنطرة الرابعة عشرة

قنطرة العبادة

- ٣٢٣ الباب الأول: في فضل القرآن وآداب تلاوته الظاهرة والباطنة
- ٣٢٤ الفصل الأول: في فضل القرآن وأهله وذم المقصرين وفيه قسمان
- ٣٢٩ الفصل الثاني: في ظاهر آداب التلاوة وهي عشرة
- ٣٣٥ الفصل الثالث: في أعمال الباطن في التلاوة وهي عشرة
- ٣٤٥ الفصل الرابع: في فهم القرآن وتفسيره بالرأي
- ٣٥٢ الباب الثاني: في أصناف الأدعية والأذكار والاستغفار
- ٣٥٢ الفصل الأول: في الدعاء وأنواعه وآدابه
- ٣٥٢ القسم الأول: في فضيلة الدعاء
- ٣٥٣ القسم الثاني: في أدعية مستخبة من القرآن
- ٣٥٧ القسم الثالث: في أدعية مستحسنة
- ٣٥٩ القسم الرابع: في أدعية منسوبة إلى الأنبياء والصالحين
- ٣٥٩ بيان دعاء النبي عليه السلام
- ٣٦٢ دعاء أبونا آدم عليه السلام
- ٣٦٢ بيان دعاء الخليل عليه السلام
- ٣٦٢ دعاء عيسى عليه السلام
- ٣٦٢ بيان دعاء الخضر عليه السلام
- ٣٦٤ القسم الخامس: في أدعية مستحسنة عند أوقات مخصوصة وأفعال مخصوصة
- ٣٧٤ القسم السادس: في آداب الدعاء وهي عشرة
- ٣٨١ الفصل الثاني: في فضيلة الذكر
- ٣٨١ القسم الأول: في فضيلته على الجملة
- ٣٨٤ القسم الثاني: في فضيلة مجلس الذكر
- ٣٨٥ القسم الثالث: في فضيلة التهليل
- ٣٨٦ القسم الرابع: في التسبيح
- ٣٨٧ الفصل الثالث: في الاستغفار والصلاة على النبي عليه السلام
- ٣٩١ فصل في فضل الصلاة على النبي عليه السلام
- ٣٩٣ فصل في التفكير والاعتبار
- ٣٩٤ فصل في بيان مجاري الفكر وضبطها بالإضافة إلى الأعمال الدينية والأعمال المكتسبة

٣٩٥ الفصل الأول: في المعاصي والسيئات
٣٩٥ الفصل الثاني: في الطاعات
٣٩٦ الفصل الثالث: في الصفات المهلكات
٣٩٧ الفصل الرابع: في المنجيات وما يتعلق بها
٣٩٨ الفصل الخامس: في التفكير في المخلوقات
٤٠٠ فصل في ترتيب العبادة على الأوراد والأوقات وبيان أوراد النهار وهي سبعة
٤٠٧ بيان أوراد الليل وهي خمسة
٤٠٨ بيان آداب النوم وهي عشرة
٤١٢ فصل في بيان شروط قيام الليل

القنطرة الخامسة عشر

قنطرة القوادح في الطاعات

٤١٥ الباب الأول: في الرياء وما يتعلق بها
٤٢٠ الفصل الأول: في بيان حقيقة الرياء
٤٢٢ الفصل الثاني: في مراتب نفي الرياء
٤٢٣ الفصل الثالث: في الإخلاص
٤٢٥ مسألة واختلف أقوال العلماء في معنى الإخلاص
٤٢٥ مسألة أيضاً في معنى الإخلاص وما يتعلق به
٤٢٥ الفصل الرابع: فيما يورثه الرياء من الخصال المذمومة
٤٢٦ الفصل الخامس: في إظهار العمل للاقتداء وله حالان
٤٢٧ الباب الثاني: في العجب وأسبابه وما يتعلق به
٤٢٨ فصل في أسباب العجب وما يتعلق به
٤٢٩ فصل فيما ينفي الاعجاب بالعلم والعمل
٤٢٩ فصل فيما ينفي به الاعجاب بالرأي الخطأ
٤٣٠ فصل فيما يقع به الاعجاب من الأسباب الدنيوية
٤٣١ فصل في الكبر وما يتعلق به
٤٣٢ فصل في معنى الكبر وما يتعلق به
٤٣٣ فائدة قال بعض العلماء قلّ أن يخلو عالم أو عارف من الكبر
٤٣٣ فصل فإن قيل فهل سوى العجب والرياء من قادح في العمل

٤٣٤ فصل في القوادح المتقدمة من الرياء والعجب وأسبابهما

القنطرة السادسة عشرة

قنطرة الحمد والشكر

٤٤٠ فصل في حقيقة الحمد والشكر ومعناها وحكمهما

٤٤١ فصل في الشكر على النعمة من الله تعالى لا يقدر عليه الآدمي

٤٤٣ فصل في أن الشكر يستفيد به الشاكر خصلتين

٤٤٤ فصل فإن قيل فما موضع الشكر

٤٤٥ فصل فإن قلت فالشاكر أفضل أم الصابر

٤٤٦ فصل فعليك يا أخي ببذل المجهود في قطع هذه القنطرة

٤٤٦ بيان الأصل الأول الذي عليك به

٤٤٧ بيان الأصل الثاني أيضاً

٤٤٨ فصل فعليك ببذل المجهود حتى تعرف النعمة

القنطرة السابعة عشرة

قنطرة الاجتهاد مخافة سوء الخاتمة

وذكر الموت والقبر وما بعد ذلك من أمور القيامة

٤٥٠ الجملة الأولى: في الاجتهاد والمراقبة

٤٥١ الفصل الأولى: في المشاركة وهذا تشبيه بمشاركة الشريك لصاحبه في التجارة

٤٥٣ الفصل الثاني: في المراقبة وما يتعلق بها

٤٥٧ الفصل الثالث: في محاسبة النفس بعد العمل

٤٥٨ الفصل الرابع: في معاقبة النفس على تقصيرها

٤٥٩ الفصل خامس: في المجاهدة وما يتعلق بها

٤٦٢ الفصل السادس: في توبيخ النفس ومعاقبتها

٤٦٨ الفصل فعليك أيديك الله بتوبيخ نفسك وحقارة عملك

٤٧٠ فصل فانتبه من رقدتك أيها الغافل وإلأ كنت من الأخسرين

٤٧٢ الجملة الثانية: في ذكر الموت وأهوال يوم القيامة وفيها جملة فصول

٤٧٢ الفصل الأول: في ذكر الموت وما يتعلق به

٤٧٤ فائدة اعلم أن أنفع دواء للقلب بذكر الموت التفكير

٤٧٦ فصل في خروج نفس الميت

- ٤٨٠ ذكر علامات موت السعيد من الشقي
- ٤٨٠ الفصل الثاني : في ذكر القبر وما يتعلق به
- ٤٨٢ الفصل اعلم أن للناس في حقيقة الموت ظنوناً كاذبة
- ٤٨٤ بيان الخلاف في مستقر الأرواح بعد الموت
- ٤٨٥ الفصل الثالث : في أشراف الساعة وفيه مقدمة
- ٤٨٥ بيان المقدمة في علامات تدل على أشراف الساعة
- ٤٨٦ القسم الأول : في طلوع الشمس من مغربها
- ٤٨٧ القسم الثاني : في الدجال
- ٤٨٨ القسم الثالث : في نزول عيسى ابن مريم عليه السلام
- ٤٨٨ القسم الرابع : في خروج يأجوج ومأجوج
- ٤٨٩ القسم الخامس : في الدابة
- ٤٩١ القسم السادس : في الخسوف وغير ذلك
- ٤٩٢ فصل في قيام الساعة
- ٤٩٢ صفة نفخ الصور
- ٤٩٤ صفة النفخة الثانية
- ٤٩٥ والنفخة الثالثة
- ٤٩٦ صفة المحشر وأهواله وأهله
- ٤٩٧ صفة العرق يوم القيامة
- ٤٩٩ صفة الوقوف في المحشر
- ٥٠٠ صفة الحساب والمسألة
- ٥٠٢ صفة الصحف
- ٥٠٣ صفة الحوض وصفة الميزان وصفة الصراط
- ٥٠٥ بيان ما جاء في القصص يوم القيامة
- ٥٠٥ ذكر الشفاعة يوم القيامة
- ٥٠٦ صفة جهنم أعادنا الله منها
- ٥١٢ صفة الجنة وأصناف نعيمها

